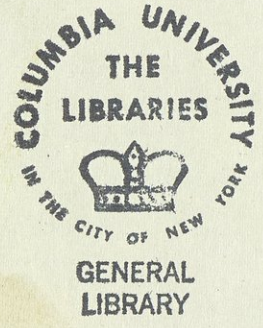
COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK
GENERAL
LIBRARY

Provided by the Library of Congress
Public Law 480 Program

72-960062
V.2

# السيرة النبوية
# في
# ضوء القرآن والسنة

تأليف
الدكتور
محمد محمد أبو شهبة
أستاذ التفسير والحديث — بجامعة الأزهر
وعميد كلية أصول الدين — بفرع الجامعة بأسيوط

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

كنا نتعلم مغازي النبي ﷺ كما
نتعلم السورة من القرآن
علي بن الحسين

الدكتور
محمد محمد أبو شهبة
استاذ التفسير والحديث — بجامعة الأزهر
وعميد كلية أصول الدين — بفرع الجامعة باسيوط

# السيرة النبوية
# في
# ضوء القرآن والسنة

## الجزء الثاني
مزيدة ومنقحة

كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن
علي بن الحسين

القاهرة الحديثة للطباعة
أحمد بهاء الدين الخربوطلي
٣ شارع الجد بالفجالة
تليفون ٩٣٤٣١٠ - س.ت ١٤٩١٢٨

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

( قرآن كريم )

« والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه » .

( حديث نبوى صحيح )

BP
75.2
.A25
1973
v.2

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

MAR 15 1977

بسم الله الرحمن الرحيم

# ( مقدمة الطبعة الثانيـــة )

المحمود الله جل جلاله ، والمصلى والمسلم عليه سيدنا محمد وآله

«أما بعد» فقد طبع هـذا القسم الثانى من السيرة النبوية منذ بضع سنين ، وقد لقى ـ ولله الحمد والمنه ـ رواجا ، وقبولا عند قارئيه ، وقد نفدت طبعته الأولى بعد صدورها بزمن غير بعيد ، وقد شغلت عن إعادة طبعة باهتمامى بإبراز القسم الأول ، وقد ظهر ـ والحمد لله ـ وأشرف على النفاد .

وقد رغب إلى الكثيرون ممن حرصوا على اقتناء القسم الأول من هـذه السيرة العطره أن أعيد طبع القسم الثـانى حتى يستكملوا السيره بقسميها وقد جاءت هذه الطبعة ـ كما هى سنة الله فى التطور والارتقاء ـ مزيدة زيادات قيمة ومحققة غاية التحقيق ، فقد استدركت فيها أمورا فاتت ، وزدت بعض مباحث مهمة ، وتعليقات وتحقيقات مفيدة ، استفدتها من ملازمة البحث والدرس ، ولا أكتمك ـ يا قارئى الكريم ـ أنى كتبت هـذه السيرة بعقلى ، وقلبى ووجـدانى ، فلا عجب أن أرضت العقل ، والقلب ، والوجـدان ! ! كما أقر بذلك المنصفون

وأنى عنيت فيها بالتعليق والتحليل لمواقف الرسول ، والصحابة ، والموازنة ، والمقارنة ، والاستنتاج ، وبذلك جمعت بين أصالة القديم ، وجدة الحديث .

كما عنيت فيها برد أباطيل المستشرقين والمبشرين ومن تابعهم من الكتاب المعاصرين ، بالنصفة ، واتباع قواعد البحث العلمى الصحيح مع العفة فى القول ، والقصد فى التسفيه ( وما راء كمن سمعا )

فاليك ياسيدى يارسول الله أقدم سيرتك الفذة العطرة ، مشرقة مجلوة كعروس فى ليلة عرس ، راجيا شفاعة لى ، ولوالدى يوم تنشر الكتب ويكون الحساب ؟

المحب لله ولرسوله

محمد بن محمد أبوشهبه

بسم الله الرحمن الرحيم

## « مقدمة الطبعة الأولى »

الحمد لله الذى أرسل رسوله محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، والصلاة والسلام على رسولنا محمد إمام المتقين، وسيد المجاهدين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، جاءنا بالشريعة السمحة التى ليلها كنهارها، لايزيغ عنها إلا هالك، وعلى آله وصحابته الذين آمنوا به، وعزروه، ونصروه، واتبعوا النور الذى أنزل معه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أما بعد) فهذا هو القسم الثانى من قسمى السيرة النبوية من بعد الهجرة إلى الوفاة النبوية، وقد كانت الهجرة للاسلام والمسلمين قوة وعزة ونصراً وفتحاً، ولذلك لما وضعوا التاريخ فى عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لم يجدوا حدثا أحق أن يبدأوا به من الهجرة(١).

وفى هذا الدور من الدعوة أذن الله للمسلمين فى الجهاد، وكانت أولى الوقائع المشهورة غزوة بدر الكبرى، التى كانت نقطة تحول فى تاريخ الإسلام ومازال النصر يتتابع ويتوالى حتى كان فتح الفتوح - وهو فتح مكة وبه دخل

---

(١) أما فى الجاهلية فقد كانوا يؤرخون بالأحداث العظيمة، كحادث الفيل، وقد جاء الإسلام وهم على هذا، ثم فى صدر الأسلام أرخوا بشهر المبعث، وهو شهر ربيع الأول الذى فيه نبىء النبى صلى الله عليه وسلم، ثم لما هاجر المسلمون إلى المدينة اتخذوا منها مبدأ التاريخ، وتناسوا ماقبلها، إلا أنهم سموا كل سنة أتت عليهم باسم حادثة وقعت فيها كسنة القدوم، وسنة الإذن، وسنة الأمر، وسنة الابتلاء، واستمر الأمر على هذا المنوال إلى خلافة سيدنا عمر - رضى الله عنه - فيقال إن أبا موسى الأشعرى كتب إليه: إنه يأتينا من أمير المؤمنين كتب لاندرى بأيهما نعمل؟ وقد قرأنا صكا محله شعبان فلم ندر: أى الشعبانين الماضى، أم الآتى، وقيل إنه - رضى الله عنه - رفع إليه صك محله شعبان، فقال: أى شعبان هو؟ ثم قال: إن الأموال كثرت فينا، وماقسمناه غير موقت، فكيف التوصل إلى ضبطة ثم قال: صنعوا للناس تاريخا يتعاملون عليه، ويضبط أوقاتهم، فتشاوروا فى الامر حتى ارتضوا الهجرة مبدأ للتاريخ على السنين، لاعلى الأحداث (روح المعانى حـ ١٠ ص ٩٠)

البلد الحرام الذى هو أحب البلاد إلى الله فى حظيرة الإسلام ، ودخل الناس فيه أفواجا من كل فج ، وعم الإيمان والامان فى الجزيرة ، وصدقت نبوة الرسول ( والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه ) رواه البخارى

ولم يجاور الرسول الرفيق الأعلى حتى كانت الجزيرة كلها على قلب رجل واحد، مؤمنة موحدة ، ثم حمل أصحابه الأبطال المغاوير الأمانة من بعده، وساروا على هديه ونهجه ، وجاهدوا ورابطوا ، وكان لهم فى الجهاد بطولات نادرة ، وتضحيات عاليه ، حتى ركعت الدولتان العاتيتان آنئذ ـ فارس والروم على ركبتيها وثلت عروش ، وأديلت دول ، وشرق الإسلام وغرب ، ولم يكد يمضى قرن من الزمان حتى بلغ الإسلام مابلغ الليل والنهار ، وامتدت دولة الإسلام من بلاد المغرب غربا إلى بلاد الصين شرقا وتحقق وعد الله لعباده الصالحين ( وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئا ، ومن كفى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون )

أبو السادات

محمد محمد أبو شهبة

# بين عهدين : المكى والمدنى

لقد مكث النبى صلوات الله وسلامه عليه يدعو إلى الله على بصيرة ثلاثة عشر عاما بمكة ، وأهلها واقفون عقبة كأداء فى سبيل الدعوة ، فلم يدخل فى الإسلام طوال هذه المدة إلا عدد قليل لايتناسب وهذه المدة من عمر الدعوة الإسلامية ، حتى أذن الله للنور أن ينتشر ، فيمم النبى وجهه شطر قبائل العرب ووفودهم فى موسم الحج ، فوجد هذا النور من أهل المدينة ـ طيبة ـ عيونا متفتحة ، واذانا صاغية ، وقلوبا واعية ، وسرعان ماسرى النور فى المدينة كما يسرى نور البدر فى ظلمات الليل فيبددها ، والماء العذب فى الأرض الجدبة فينبتها ، واحتضنت المدينة الإسلام والمسلمين كما تحتضن الأم الرءوم أولادها ووجد المسلمون فى الأنصار خير إخوان وأعوان عرفتهم الدنيا فى تاريخها الطويل.

وقد كان المحور الذى تدور عليه الدعوة فى مكة انتزاع العقائد الضارة من شرك ووثنية ، وإنكار للبعث ، والنبوات ، وتثبيت العقائد الصحيحة فى النفوس من توحيد ، وإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وإقامة الأدلة العقلية ، والوجدانية ، والآفاقية ، والأنفسية على ذلك ، ليؤمن من آمن عن بينة واقتناع ، ويكفر من كفر عن تعنت وعناد ، وقد مكث النبى فى هذه الفترة يعلم ويلقن ويربى ويتعهد ، حتى صنع طرازا فريدا من الرجال ، كانوا اللبنات الأولى التى منها أسس الاسلام وعليها قام صرحه العالى المنيف

وطبعى أن يكون اتجاه الدعوة فى مكة إلى غرس هذه العقائد ، فقد بعث النبى بين قوم وثنيين لايؤمنون ببعث ولا رسالة ، فكان المنهج المنطقى القويم فى الدعوة أن يؤمنوا بهذه الأصول أولا حتى إذا أطمانت قلوبهم بالإيمان وانشرحت صدورهم للاسلام ، سهل عليهم تقبل التشريعات من حلال وحرام ، وهذا ما كان

وقد كان اتجاه الدعوة فى مكة أيضا إلى أصول التشريعات العامة

والآداب والفضائل التى لاتتغير بتغير الزمان والمكان ، وذلك كالحث على الثبات على العقيدة ، والصبر والتحمل فى سبيلها ، والأمر بالصلاة والصدق ، والعفاف وبر الوالدين وصلة الرحم والعدل والإحسان ، والتواصى بالحق والخير والنهى عن الرذائل كالقتل ووأد البنات ، والظلم والزنا ، وأكل أموال الناس بالباطل إلى غير ذلك.

أما فى العهد المدنى فقد بدأت الدعوة الإسلامية تتجه اتجاها آخر ، ولم تعد مقصورة على مكة وما جاورها ، بل وجدت أمامها آفاقا فسيحة ، ودنيا عريضة فى جزيرة العرب وخارجها ، ووجدت أرضا خصبة تقبلت الإسلام بقبول حسن ، وأخذت عالمية الإسلام تأخذ طريقها إلى الأمم والشعوب ، فلم تمض بضع سنوات حتى أرسل النبى صلى الله عليه وسلم بالكتب إلى الملوك والأمراء والرؤساء ، داعيا إياهم إلى الدخول فى الإسلام وإلى كلمة سواء « أن لانعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » فمنهم من أطاع ، ومنهم من أبى ورد رداً سيئا ومنهم من رد رداً حسنا .

والإسلام دين عام خالد نزل للبشرية جمعاء ، لافرق بين عربى وغيرعربى ، ولا بين أبيض وأسود ، ففى الكتاب الكريم « قل يايها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً )( ١ )وفيه أيضاً يقول الله على لسان رسوله ( وأوحى إلى هذا القرءان لأنذركم به ومن بلغ) (٢) ويقول الله سبحانه ( وما أرسلناك إلارحمة للعالمين) ( ٣ ))وفى الحديث الذى رواه البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة . . ) ورواه مسلم بلفظ ( وبعثت إلى كل أحمر وأسود ) وفى رواية ( وبعثت إلى الخلق كافة ).

والحق ما لم تكن له قوة تؤيده ، وتفسح له الطريق كى يأخذ سبيله إلى القلوب والعقول كان حقا مضيعاً ، فكان لابد فى هذا العهد من تشريع القتال

---

(١) الأعراف ١٥٨ (٢) الأنعام ١٩ (٣) الأنبياء ١٠٧

فى الإسلام ، ولو أن المناهضين للدعوة اكتفوا فى ذلك بالحجاج والكلام ، لقابلهم الاسلام بالمثل ولكان له الفوز والغلب . ولكنهم سلكوا مسلك القوة ، وحملوا السلاح ، فكان من العدل والحق أن تقابل القوة بالقوة ، والسلاح بالسلاح ، ولا سيما وقد أضحى للمسلمين قوة وكيان .

وقد كانت هذه الفترة من عمر الاسلام أخصب الفترتين ، ففيها نزلت معظم التشريعات التفصيلية والأحكام العملية فى الحلال والحرام ، والعبادات والمعاملات والحدود والجنائيات ، والحروب والمعاهدات ، والعلاقات الدولية ، والنظم السياسية ، وذلك لأن حياة المسلمين فى المدينة بدأت فى الاستقرار ، وأصبح لهم دولة وسلطان ، ومن شأن الجماعة التى لها رابطة تربطها أن تكون فى مسيس الحاجة إلى تشريع يتكفل بما تحتاج إليه فى دينها ودنياها .

وشىء آخر : ذلك أن التشريعات العملية — ولا سيما الحدود والجنائيات — مرتبطة بسلطان الحكم التنفيذى ، فلا تشريع لمن لا يملك حق التنفيذ .

وقد أشارت إلى هذه الحكمة التشريعية السيدة العاقلة العالمة عائشة — رضى الله عنها — قالت : ( إنما نزل من القرآن أول ما نزل منه سورة ( ) من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء ( لا تشربوا الخمر ) لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ولو نزل ( لا تزنوا ) لقالوا : ( لا ندع الزنا أبدا ) رواه البخارى .

وكما مُنى المسلمون بمكة بالمشركين والوثنيين منوا فى المدينة باليهود والمنافقين ، وبذلك أصبح المسلمون فى المدينة أمام قوى ثلاث تصارع

---

(١) لعل مرادها سورة المدثر ، فانها أول ما نزل بعد فترة الوحى ، ففيها الأمر بتوحيد الله وذكر الجنة والنار ، أو أن مرادها بالسورة الجنس أى سور من المفصل ، وسور المفصل — ومعظمها نزل بمكة — تدور حول تثبيت العقائد والدعوة إلى الفضائل ، وذكر الجنة والنار ، وهذا الثانى أرجح .

الإسلام وتحاربه : قوة المشركين ، وقوة المنافقين ، وقوة اليهود .

وهؤلاء المنافقون وهم خليط من عرب المدينة ويهودها وان لم يعلنوها حربا سافرة فقد كانوا أشد خطرا على الدعوة من غيرهم ، لأن العدو المكاشف أهون شأنا من العدو المخالط المتستر تحت ستار من الخداع والتمويه ، وقد شاء الله سبحانه أن يصرع الإسلام هذه القوى الثلاث ، وان يقضى عليها قضاء امبرما وأن يبقى الإسلام خفاق الرايه ، عالى المنار يعلو ولا يعلى عليه.

« وبعد » فهذا إيجاز لابد له من توضيح ، وإجمال يحتاج إلى كثير من التفصيل ، وهذا ماسنعرض له فى البحوث الآتية إن شاء الله ، فاللهم أعن ، وسدد ، وحقق .

## منزلة المساجد فى الاسلام

قبل أن أعرض لبناء مسجد قباء ومسجد المدينة أرى لزاما علينا أن نتعرف منزله المساجد فى الإسلام .

والمساجد بيوت الله فى الأرض ، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » ومهبط الملائكة ، ومثوى عباد الله الصالحين فى الأرض ، فيها يصل المسلم حباله بحبال السماء ، ويزكى نفسه ، ويسمو بروحه حتى تصل إلى معارج القدس ، ثم هى إلى ذلك مصحات للأبدان كما هى مصحات للأرواح فلا بد لمن يغشاها مصليا أن يتطهر من الأحداث والأنجاس فى النفس والثوب والمكان ، وهى المستراح لمن لامستراح له - والمأوى والملجأ لمن لا ماوى له وهى منازل أدب ووقار ، فلا رفع فيها لصوت ، ولا لغو ، ولا فسوق ، وهى منازل طهر ونظافة وتجمل ، وفى حديث الأعرابى الذى بال فى المسجد وكاد الصحابة أن يتناولوه بالأذى فمنعهم وقال له : ( إن هذه المساجد لاتصلح لشىء من هذا البول ولا القذر ، إنما هى لذكر الله عز وجل ، والصلاة ، وقراءة القرآن ) فلا يجوز أن تكون المساجد للبيع والشراء ، والعبث واللهو ولا لنشدان الضالة - ولا لإثارة الأهواء والمنازعات والمشاحنات السياسية

ونحوها ، ولا للخلافات الدينية . وقد كان من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموعظة التلويح لا التصريح - فكان يقول : (مابال أقوام يفعلون كذا وكذا) وهي طريقة فذة مبتكر في التربية ، والتهذيب .

وفي الحق أن المساجد في صدر الاسلام ولا سيما المسجد النبوي كانت تؤدي خدمات دينية ، وعلمية ، واجتماعية ، وصحية وحربية - فكانت متعبدات يؤدي فيها المسلمون شعائر دينهم ، وكانت تقوم مقام المعاهد والجامعات في التربية والتعليم والتهذيب ، ومقام الجمعيات الخيرية في جمع الصدقات والمساعدات . والتعاون على البر والخير ، وكانت تقوم مقام الملاجىء والمبرات ، يلجأ إليها الفقراء ممن لا مال لهم ولا دار . فيجد فيها المسكن والمأكل والمشرب ، كما كان الحال في أهل الصفة ، (١) أضياف الله ، وأضياف الإسلام ، وكانت منتديات يجتمع فيها المسلمون فيتآلفون ويتجابون ويتشاورون في مصالحهم الدينية والدنيوية ، ويبرمون ما يرتأون وكانت تصنع بالمسجد النبوي السهام وآلات الجهاد ، وتنصب به الخيام يستقبل فيها جرحى الحروب ويمرضون ويعالجون ، وكان يجتمع به بعض المسلمين ، فيتمرنون على فنون الحرب والقتال (٢) وهكذا نجد أن المساجد في صدر الإسلام كانت تؤدي من الخدمات ما تقوم به جهات عدة في عصرنا الحديث .

## بناء مسجد قباء

فلا تعجب والمساجد في الإسلام على ماذكرنا أن كان أول عمل قام به الرسول في المدة التي أقامها في بني عمرو بن عوف أن بنى ( مسجد قباء )

---

(١) الصفة : الموضع المظلل من المسجد وكانت في مؤخرة المسجد النبوي ، أعد لنزول الغرباء ممن لامأوى لهم ولا أهل وكانوا يكثرون فيه ويقلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت ، أو يسافر ، وقد سرد أسماءهم أبو نعيم في الحلية فزادوا عن مائة .

(٢) راجع صحيح البخاري — كتاب الصلاة — أبواب المساجد تجد الامام البخاري عقد لكثير مما ذكرت بابا مستقلا .

وهو المسجد الذى أشار إليه الحق تبارك وتعالى فى قوله « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين .

روى الطبرانى بسنده عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « فيه رجال يحبون أن يتطهروا . . . » بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عويم بن ساعدة فقال : « ماهذا الطهور الذى أثنى الله عليكم » ؟

فقال : يارسول الله ماخرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو قال مقعدته فقال النبى صلى الله عليه وسلم « هو هـذا » وروى نحوه أيضا أبو داود والترمذى وابن ماجه .

وقد ذهب جماعـة من السلف إلى أن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد قباء ويؤيد رأى هؤلاء أن سياق الآيات القرآنية إنمـا هو فى مسجـد قباء ، وهو الذى قصد أهل مسجد الضرار أن يصدوا النـاس عنه بمسجدهم وذهب آخرون إلى أنه مسجـد المدينة ، واستدلوا بمـا ورد فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت بعض نسائه ، فقلت : يا رسول الله أى المسجـدين الذى أسس على التقوى ؟ فأخذ كفا من الحصباء فضرب به الأرض ثم قال « هو مسجدكم هذا » .

والذى نرجحه أنه مسجد قباء لظاهر الآية والسيـاق ، ولا تنافى بين الآية والحديث لأنه إذا كان مسجـد قباء أسس على التقوى من أول يوم فمسجد المدينة بطريق الأحرى والأولى ، وهـذا الحديث ذكر فى معرض المفاضلة وليس من شك فى أن مسجد النبى صلى الله عليه وسلم أفضل وهو خير المساجد بعد المسجد الحرام(٢) ولو أن النبى قال : « هو مسجد قباء » لتوهم متوهم أن مسجد النبى لم يؤسس على التقوى ، ولاتخذ البعض من هذا ذريعة للتقليل من شأن المسجد النبوى ، فهذا هو السر فى هذا الجواب الحكيم

---

(١) سورة التوبة ١٠٨

(٢) تفسير ابن كثير والبغوى جـ ٤ ص ٢٤٢ البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٠٩

وقد ورد فى مسجد قباء ان جبريل عليه الصلاة والسلام هو الذى أشار للنبى صلى الله عليه وسلم إلى موضع قبلته .

ولما كان قباء أول مسجد بنى فى الإسلام وجعل لعموم الناس من هذه الأمة فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يحمل له ذكريات كريمة فى نفسه وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنه كان يزوره كل يوم سبت تارة راكبا وتارة ماشيا ، وفى الحديث الصحيح أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( صلاة فى مسجد قباء كعمرة ) رواها الشيخان .

وروى الترمذى عن أسيد بن ظهير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ( الصلاة فى مسجد قباء ركعتين أحب إلى من أن آتى بيت المقدس مرتين ، لو يعلمون ما فى قباء لضربوا إليه أكباد الإبل ) وروى ابن ماجه عن سهيل بن حنيف أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ( من تطهر فى بيته . ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان كأجر عمرة ) :

وقد زرت مسجد قباء — ولله الحمد والمنة — غير مرة وأنا فى طريقى إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وجلست فيه وصليت فيه مرارا .

## إلى المدينة

أقام النبى صلى الله عليه وسلم بقباء بقية وصوله وهو يوم الأثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، ثم خرج يوم الجمعة قاصدا البلد الطيب ( طيبة ) فأدركته صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف فى المسجد الذى ببطن الوادى : وادى ( رانوناء ) [1] وهى أول جمعة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بل قيل : هى أول صلاة جمعة صلاها مطلقا ، لأنه لم يكن يتمكن فى مكة من الاجتماع بأصحابه حتى يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان

---

(١) بين قباء والمدينة ، ويعرف هذا المسجد اليوم « بمسجد الجمعة » .

(٢) أما صلاة الجمعة جماعة فقد حدثت قبل مقدم النبى وكان أول من جمعهم على صلاة الجمعة أبو أمامة أسعد بن زرارة النجارى أحد النقباء الإثنى عشر ليلة العقبة الثانية . رواه ابن اسحاق . وأبو داود وابن ماجه من طريقه .

وموعظة : لشدة مخالفة المشركين له وإيذائهم إياه وأصحابه ، وفى هذه الجمعة خطب المسلمين خطبة بليغة مؤثرة تفيض بالإيمان واليقين ، والمواعظ والزواجر ، والترغيب والترهيب وها هى الخطبة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( الحمد لله ، أحمده وأستعينه واستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ، والنور والموعظة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فأحذروا ما حذركم الله من نفسه ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى ، وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة ، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية ولا ينوى بذلك إلاوجه الله يكن له ذكرا فى عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ، والذى صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خلف لذلك فانه يقول تعالى ( ما يبدل القول لدى ، وما أنا بظلام للعبيد ) واتقوا الله فى عاجل أمركم واجله فى السر والعلانية ، فانه ( من يتق الله يكفر عنه سيآته ويعظم له أجرا ) ( ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما ) وإن تقوى الله تقوى مقته ، وتقوى عقوبته وتقوى سخطه ، وإن تقوى الله تبيض الوجه ، وترضى الرب وترفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا فى جنب الله قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة ، ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد الموت . فانه من أصلح ما بينه وبين الله يكفيه ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على

الناس ، ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ، ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

روى هذه الخطبة الإمام محمد بن جرير وفى السند إرسال ، وقد حرصت على ذكرها كلها لأن فيها قبسا من نور الوحى ، وحكماً من حكم النبوة ، وهى أنموذج رائع من كلمه الجوامع ، وحكمه النوابغ وفيها القدوة لمن يحب أن يقتدى بالرسول فى خطبه ، ويحتذى به فى مواعظه .

## ﴿ توسل الأنصار إلى الرسول أن ينزل عندهم ﴾

ثم أتاه رجال من بنى سالم بن عمرو بن عوف فقالوا : يا رسول الله أقم عندنا فى العَدد والعُدة والمنعة(١) ويتشبثون بزمام الناقة — ناقته القصواء — فيقول لهم : ( خلوا سبيلها فانها مأمورة ) ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع لها زمامها لايثنيها به ، وكلما مر بدار من دور الانصار فى الطريق عرضوا عليه أن ينزل عندهم فى العدد والعدة والمنعة فيقول لهم مثل قولته الأولى ، حتى وصلت الناقة إلى موضع مسجده الشريف فبركت عنده ، ورسول الله راكب عليها لم ينزل ثم ثارت الناقة،(٢) وسارت غير بعيد ورسول الله واضع لها زمامها لايثنيها به ، ثم التفتت خلفها ، ورجعت إلى مبركها أول مرة،فبركت فيه وألقت بجرانها ،(٣) فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعه الملأ أيهم ينزل عليه ، فقال إنى أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك(٤) ثم سأل أى دور أهلنا أقرب ؟ فقال السيد الجليل أبو أيوب الأنصارى : أنا فاحتمل - رحل رسول الله إلى منزله - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم معتذراً بلطف عن النزول عند غير بنى النجار ( المرء مع رحلة ) ثم جاء أسعد ابن زرارة نقيب بنى النجار ليلة العقبة الثانية ، وقد فاته شرف نزول رسول

---

(١) العدد : الكثرة ، العدة — بضم العين — السلاح ، المنعة : القوة وحماية الجار

(٢) ثارت : قامت (٣) جرانها : مقدم عنقها

(٤) وطبعى أن لايغضب أحد من أشراف المدينه ، لأن أحق الناس به هم أقرباؤه وأهله ، وبهذا القصرف الحكيم تخلص الرسول الكريم من هذا الموقف المحرج حقا .

الله صلى الله عليه وسلم عنده ، فأخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت عنده واعتبر هذا شرفا وكرامة له .

وكان نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بدار السيد أبى أيوب الانصارى منقبة عظيمة له ، ولبنى النجار جميعاً ، وقد كان فى المدينة دور كثيرة تبلغ تسعا كل دار محلة مستقلة بمساكنها ، ونخيلها ، وزروعها ، وأهلها ، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا فى محلتهم ، وهى كالقرى المتلاصقة فاختار الله لرسوله صلى الله عليه وسلم دار بنى مالك بن النجار تكريما لهم ، لخؤولتهم لرسول الله .

وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جميع دور الأنصار ، فقد ثبت فى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الاشهل ، ثم بنو الحارث ابن الخزرج ، ثم بنو ساعدة ، وفى كل دور الأنصار خير » فقال سعد بن عبادة : ما أرى النبى صلى الله عليه وسلم إلا قد فضل علينا فقيل : « قد فضلكم على كثير » وفى رواية أخرى عن أبى حميد الساعدى عن النبى ، وزاد فيه ، فقال أبو أسيد لسعد بن عبادة : ألم تر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الأنصار فجعلنا آخرا . فأدرك سعد النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله خيرت دور الأنصار فجعلتنا آخراً ؟ فقال : « أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الأخيار » وإنها لكياسة فى الجواب لن تكون إلا من صاحب العقل الكبير ، والصدر الرحيب ، والقول الفصل البليغ .

## اليوم المشهود

وكان يوما مشهودا فى تاريخ الدنيا يوم دخل النبى صلى الله عليه وسلم المدينة راكبا ناقته القصواء وأبوبكر الصديق ردفه ، (١) وملأ بنى النجار

---

(١) يعنى خلفه وقد كانت للصديق ناقة ، ولكن رسول الله أراد ذلك تكرما للصديق وليرى الناس هذا فى اليوم المشهود منزلة الصديق منه .

حوله متقلدين سيوفهم ، يرهبون بها أعداء الله ورسوله ، ومن تسول له نفسه من اليهود والمشركين أن ينال من رسول الله ، وليعلموهم أنه إذا كان ترك أهله ووطنه إلى الله ، فلا يزال في عزة ومنعة من أخواله وأتباعه وأنصاره ، وأنه لمشهد معبر يغني عن الكلام والخطب ، وخرجت المدينة كلها بشبابها وشيبها ، وصبيانها ونسائها وولائدها ، لتشارك في استقبال القادم الكريم ، وليملأوا عيونهم من هذا الذي أصبح ذكره على كل لسان ، وأنصاره في كل بيت روى الإمام أحمد ـ في وصف هذا المشهد الحافل ـ عن أنس بن مالك قال « إني لأسعى في الغلمان يقولون : جاء محمد فأسعى ولا أرى شيئا ، ثم يقولون جاء محمد فأسعى ولا أرى شيئا ، قال حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه أبو بكر ، فكمنا في بعض خراب المدينة ، ثم بعثا رجلا من أهل البادية يؤذن بها الأنصار فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليهما فقالت الأنصار : انطلقا آمنين مطاعين ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه بين أظهرهم فخرج أهل المدينة حتى أن العوائق لفوق البيوت يتراءينه يقلن : أيهم هو ، فما رأينا منظراً شبيها به . قال أنس : « فلقد رأيته يوم دخل علينا ويوم قبض ، فلم أر يومين شبيها بهما » .

وخرجت جوار ـ بنات ـ من بني النجار يضربن بالدفوف وهن يقلن :

نحن جوار(١) من بني النجار  يا حبذا محمد من جار

فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أتحببنني » ؟ فقلن : إي والله يارسول الله فقال : « وأنا والله أحبكن » ثلاثا وفي صحيح البخاري ومسلم في حديث الهجرة : « وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى

---

(١) جوار : جمع جارية وهي الشابة أمة كانت أو حرة .

البيوت والغلمان والخدم يقولون : الله أكبر جاء رسول الله . الله أكبر جاء رسول الله ». (١)

## فى دار أبى أيوب الأنصارى

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار أبى أيوب معززاً مكرماً سبعة أشهر حتى بنى المسجد وبنيت دور أهله ونسائه فانتقل إليها ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما نزل فى سفل دار أبى أيوب وقد آلم أبا أيوب أن يكون رسول الله فى السفل وألح عليه أن يكون فى العلو حتى بين له النبى صلى الله عليه وسلم أن ذلك أرفق به وبمن يأتيه من المسلمين والزائرين ، فقد كانت دار أبى أيوب منتدى يجتمع فيه المسلمون ، وبالغ أبو أيوب فى إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كانت تطيب نفسه أن يأكل حتى يأكل رسول الله ، فكان يهيىء الطعام ويرسله إلى النبى فإذا عادت القصعة سأل عن موضع أصابع النبى فيأكل حيث أكل . وفى ذات مرة صنع طعاما وكان فيه ثوم لم تذهب رائحته فسأل عن موضع أصابع الرسول فقيل له : لم يأكل منه ففزع وذهب إليه وقال : أحرام هو يارسول الله ؟ قال : لا . ولكننى أكرهه فإنى أناجى من لاتناجى ، رواه الشيخان يريد الملائكة وهى تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، وفى مرة أخرى كسرت لأبى أيوب جرة فيها ماء ففزع أبو أيوب والسيدة أم أيوب زوجه وأسرعا إلى قطيفة لهما كانا يعتزان بها ، فأخذاها وصار

---

(١) أما ما يذكره بعض كتاب السيرة من أنهم قالوا : طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا .. ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

فقد خالفه المحققون كابن القيم ، والحافظ العراقى ، والحافظ ابن حجر وقالوا : إن ذلك كان مرجعه من تبوك وذلك الأن ثنية الوداع من جهة الشام لا من جهة مكة [ شرح المواهب جـ١ ص ٤٣٤ ] .

يجففان بها الماء خشية أن يسيل الماء إلى أسفل البيت فيتأذى منه رسول الله أو زواره ، وقد بلغ من أدب أبى أيوب وأهله — لما امتنع الرسول أن يصعد إلى العلو — أنهم كانوا لا ينزلون فى المكان المسامت لرسول الله من العلو استحياء من الله ورسوله ، وهكذا فليكن الأدب ، والقيم الروحية العالية ، ومع اعتذار رسول الله عن الصعود إلى العلو لم يزل به أبو أيوب ، يرجوه ويلح فى الرجاء ، حتى قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فى العلو ، إذ قد خف الزوار ولم يعد هناك من حرج .

وتسابق الأنصار فى إكرام وفادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فما من ليلة إلا وتجد على دار أبى أيوب القصاع والجفان يأكل منها من يشاء ، ويدع من يشاء ، وكذلك تسابقوا فى أيواء المهاجرين وإكرامهم ، وعرضوا عليهم أن يقاسموهم دورهم وأموالهم ، بل وأعز شىء لديهم وهو التنازل لهم عن بعض أزواجهم كى ينكحوهن إذا رغبوا ؛ ولكن المهاجرين أبوا واكتفوا منهم بالارتفاق والمواساة ، وقد ضرب الأنصار فى مواساة إخوانهم المهاجرين مثلا عليا تذكر بالإعظام والإكبار ، وسنوفيهم حقهم فيما يأتى إن شاء الله .

وقد صارت دار أبى أيوب التى حظيت بهذا الشرف الرفيع إلى مولاه أفلح بعد وفاته ، فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار ، وأصلح ماوهى من بنيانها ، ووهبها لأهل بيت فقراء .

وقد ذهبت إلى هذه الدار وأنا بالمدينة فى زيارة رسول الله ومسجده ، وهى بالقرب من المسجد النبوى ، وأهاجت الدار الذكرى ، وحركت لواعج الشوق والحب لأهلها الأخيار ، فلله أنت يادار أبى أيوب .

## ( جميل بجميل )

ودارت الأيام دورتها ، وقدم السيد الكريم أبو أيوب الانصارى البصرة وكان عليها يومئذ سيدنا عبدالله بن عباس رضى الله عنهما ، واليا من قبل سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ فوجد ابن عباس الفرصة سانحة لرد الجميل المذكور لسيدنا أبى أيوب ، فخرج له عن داره وأنزله فيها كما أنزل

رسول الله فى داره ، وملكه كل ما أغلق عليها بابها ، ولما أراد الانصراف من البصرة ودعه وأجزل له العطاء .

وما كان أبو أيوب ـ علم الله ـ ليرجو على ما عمل جزاء من أحد إلا رضاء الله ورسوله ، ولكنه أدب من آداب الاسلام ، رد المعروف بمثله أو بخير منه ، وأحق من رعى هذا الأدب الرسول وآل بيته الكرام ، وقد قال معلم الناس الأدب والخير صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه عليه ، فإن لم تقدروا فادعو له بخير » رواه أبو داود والنسائى بإسناد صحيح .

## اسلام عبدالله بن سلام و بعض أهله

وفى أثناء مقام الرسول بدار أبى أيوب الانصارى قدم عليه أحد أحبار اليهود وعلمائهم وهو عبدالله بن سلام ، وكان يعلم من كتبهم أوصاف النبى المبعوث فى آخر الزمان . فلما جاء إلى النبى سأله بعض أسئلة تأكد منها أنه نبى لأنه ما يعلمها إلا نبى فأسلم . وقال للرسول : لا تعلن إسلامى حتى تسأل اليهود عنى . لأنهم إن علموا إسلامى فسينتقصونى فأرسل إليهم النبى وسألهم عنه فقالوا خيرنا وابن خيرنا ، فلما أخبرهم باسلامه قالوا : شرنا وابن شرنا وإليك هذه القصة كما رواها البخارى فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه قال : « . . . فلما جاء نبى الله صلى الله عليه وسلم جاء عبدالله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله . وأنك جئت بالحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم : وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فلسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فى ما ليس فى . فأرسل نبى الله صلى الله عليه وسلم فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعشر اليهود ويلكم اتقوا الله . فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا وأنى جئتكم بحق فأسلموا قالوا نعلمه ، قال فأى رجل فيكم عبدالله بن سلام ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : أرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم ، وكررها وأجابوه ـ ثلاثا ـ قال : يا ابن سلام أخرج عليهم فخرج . فقال : يامعشر اليهود اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو .

إنكم لتعلمون أنه رسول الله . وانه جاء بحق فقالوا : كذبت ، وفى رواية أخرى انهم قالوا : شرنا وابن شرنا وتنقصوه . قال هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . وقد أسلم باسلامه أهل بيته . وعمة له تسمى خالدة بنت الحارث(٢) .

وأما غيره من أحبار اليهود فقد طمس الحقد والحسد على قلوب الكثيرين منهم وأبوا أن يؤمنوا فكان عاقبة أمرهم خسرا ووبالا فى الدنيا والآخرة كما سيأتى إن شاء الله .

## بناء المسجد النبوى

وفى المدة التى أقامها رسول الله بدار أبى أيوب بنى المسجد النبوى . وقد بنوه فى المكان الذى بركت فيه الناقة ، وكان فى الأصل حائطاً — بستاناً — فتخرب بعضه فبنيت فيه قبور ، واتخذ بعضه مربداً لتجفيف التمر . وكان لغلامين يتيمين بالمدينة ، وهما سهل وسهيل ، ابنى عمرو ، وكانا فى حجر أسعد ابن زرارة فساومهما النبى فأبيا وقالا بل نهبه لله ولرسوله ؛ ولكن الرسول أبى إلا أن يكون بالثمن . وبهذا التصرف الحكيم ضرب النبى مثلا كريماً فى رعاية حقوق اليتامى . وقطع ما عسى أن تتقول به ألسنة السوء .

وقد ذكر موسى بن عقبه فى تاريخه أن الرسول اشتراه بعشرة دنانير ، وأن الصديق هو الذى دفعها . وأمر رسول الله ﷺ بالنخل فقطعت وبالقبور فنبشت وبالخرب فسويت . وشرع المسلمون يبنون ورسول الله ﷺ يحمل معهم التراب واللبن وهم يقولون :

هذى الحال لا حمـــال خيبر  هذى أبر — ربّنا — وأطهر (٣)

---

(١) صحيح البخارى « باب هجرة النبى وأصحابه إلى المدينة » و « باب » قبل « باب إتيان اليهود النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة » .

(٢) فتح البارى جـ ٧ ص ٢٠٢ .

(٣) الحمال بكسر الحاء المحمول أى هـذا اللبن على ما ينال العامل فى حمله من المشقة والاغبرار أى أبقى زخرا ، وأكثر ثوابا ، وأشد طهرا من حمال خيبر وهى ما يحمل من التمر والزبيب ونحـوهما فى التجاره ، وأنهـا روحانية سامية لا تكون إلا من هـذه النفوس الزكية .

ويقولون :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

وكان علي يقول :

لايستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائما وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائدا

وكان بعضهم يقول :

لئن قعدنا والنبي يعمـــل ذاك إذاً للعمـــل المضلل

وفى هذا الارتجاز فى الأعمال والأسفار تنشيط للنفوس وترويح للقلوب فيسهل الشاق ، ويلين الصعب ، ولما بنى المسجـد النبوى صار مصلى المسلمين ومتعبدهم ومنتداهم ومكان تشاورهم ، وكان فيه صفـــة يأوى إليها الفقراء والمساكين ممن لا مال لهم ولا دار ، ولايجـــدون ما يعملون به فيكتسبون وفيه تلقى دروس العلم والحكمة . وهكذا كان المسجد النبوى يؤدى خدمات دينية . وعلمية واجتماعية وسياسية وكن على ذكر مما ذكرنا سابقا، فى منزلة المساجد فى الاسلام .

## الأطوار التى مر بها بناء المسجد النبوى

كان المسجد النبوى فى عهده صلى الله عليه وسلم مبنياً باللبن ـ الطوب النيء ـ وكانت عمده من جذوع النخل وسقفه من الجذوع والجريد . وهكذا كانت المساجد فى عهده صلى الله عليه وسلم تمتاز بالبساطة وعدم التكلف ولكنها كانت عامرة بالإيمان والهدى . والعلم والمعرفة . يدل على هذه البساطة فى بناء المسجد النبوى وغيره ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أنس بن مالك ـ واللفظ لمسلم ـ « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فنزل فى علو المدينة فى حى يقال لهم بنو عمرو بن عوف فأقام فيهم أربع عشرة ليلة(١ ثم أرسل إلى ملأ بنى النجار فجاءوا مقلدين سيوفهم

(١) فى سيرة ابن اسحاق أنه قدم يوم الاثنين وخرج إلى المدينة يوم الجمعة ويمكن=

قال : فكأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته ، وأبو بكر ردفه ، وملأ بنى النجار حوله ، حتى ألقى بفناء أبى أيوب . فكان رسول الله يصلى حيث أدركته الصلاة . ويصلى فى مرابض الغنم . ثم إنه أمر بالمسجد . قال: فأرسل إلى ملأ بنى النجار فجاءوا فقال : يا بنى النجار ثامنونى بحائطكم هذا . قالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى : قال أنس : فكان فيه ما أقول : كان فيه نخل وقبور المشركين وخرب . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل فقطعت ، وبقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسويت ؛ قال : فصفوا النخل قبلة وجعلوا عضادتيه حجارة قال : فكانوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم(١) وهم يقولون :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة  فارحم الأنصار والمهاجره

وبقى المسجد النبوى على هذا الحال فى خلافة الصديق رضى الله تعالى عنه .

فلما كان عهد الفاروق عمر — رضى الله تعالى عنه — واتسعت رقعة الإسلام وكثر الوافدون إلى المسجد، وسعه عمر وأبقاه على ما كان عليه فى عهد الرسول من بنيانه باللبن . وسقفه بالجريد ، إلا أنه جعل عمده من الخشب بدل جذوع النخل . وقد روى عنه أنه قال لمن زاول البناء « أكن الناس من المطر وإياك أن تحمر أو تصفر لتفتن الناس » .

فلما ولى السيد الحى عثمان — رضى الله عنه — الخلافة زاد فيه زيادات كبيرة ، وبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة والقصة — الجص — وجعل عمده من الحجارة المنقوشة أيضا ، وسقفه بخشب الساج (٢) .

وقد أنكر بعض الناس على عثمان هذا ، واعتبروه إسرافاً وزخرفة ،

---

التوفيق بين ما رواه ابن اسحاق وما ثبت فى الصحيح بأن المراد تتمة أربع عشرة ليلة ويكون داخلا فيها المدة التى قضاها رسول الله والصديق فى الطريق بعد خروجهما من الغار حتى دخلا قباء .

(١) فى رواية البخارى « فتمثل بشعر رجل من المسلمين . . . » قيل أنه عبد الله بن رواحة فالشعر ليس من إنشاء الرسول قطعا ، والعضادة جانب الباب .

(٢) خشب جيد يجلب من الهند .

روى البخارى فى صحيحة بسنده أن عثمان كان يقول عند قول الناس فيه حين حين بنى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم : إنكم أكثرتم ، وإنى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من بنى لله مسجدا بنى له مثله فى الجنة »

ويعلم الله أن عثمان — رضى الله عنه — ما قصد الزينة حين بناه بهذا النوع من الحجارة ، ولا قصد الاسراف حيثما وسعه وجعل جدرانه من الحجاره، وسقفه بخشب الساج ، فقد كان بيت المال فى عهده يفيض بالأموال التى لا تحصى وإنما هى الضرورة والمصلحة ليتسع المسجد للرافدين من المسلمين، وليكون ذلك أدعى إلى طول البقاء ، وعدم تسارع الخلل والخراب إليه .

ثم زيد فى المسجد فى عهد الوليد بن عبد الملك بانى جامع دمشق ، وقد قام بهذا نائبه على المدينة عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه وفى هذه الزيادة أدخلت حجر أزواج النبى ومنها حجرة عائشة التى كان فيها القبر الشريف، ثم زيد فيه زيادات كثيرة فيما بعد ، وزيد فيه من جهة القبلة حتى صارت الروضة والمنبر بعد الصفوف الأمامية للمتوجه للقبلة كما هو اليوم .

ومما ينبغى أن يعلم أن القبر الشريف ما كان فى المسجد أولا وإنما دخل فيه لما اضطروا إلى توسعة المسجد فقد وردت الأحاديث الصحيحة بلعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ونهى النبى عن ذلك ودعا الله أن لا يتخذ قبره وثناً يعبد ، ففى الحديث الشريف : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد ، غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ».

وقد احتاط المسلمون الأولون فأحاطوا القبر الشريف بحائط مرتفع كيلا يظهر القبر فى المسجد فيصلى إليه العوام ، فيقعوا فى اتخاذ قبره مسجداً ثم بنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين ، وحرفوهما حتى التقيا على هيئة رأس مثلث من الشمال حتى لا يتمكن المصلى من استقبال القبر الشريف فى الصلاة .

زخرفة المساجد : وكان أول من زخرف المساجد الوليد بن عبد الملك بن

مروان ومن يومها والناس شرعوا يغالون فى بناء المساجد وزخرفتها حتى أصبح بعضها من قبيل المتاحف ، تقصد لما فيها من زخرفة لا للصلاة فيها ، وكل ذلك خارج عن هدى النبوة ، ولو روعيت البساطة فى بناء المساجد وعدم المغالاة فى الزخرفة والتشييد لكان خيراً وأولى .

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بما سيصير إليه حال المسلمين فى بناء المساجد وزخرفتها فقال فيما رواه أنس عنه ( يأتى على أمتى زمان يتباهون بالمساجد ثم لا يعمرونها إلا قليلا ) وقال : ( لتزخرفنها - أى المساجد - كما زخرفت اليهود والنصارى ) رواها أبو داود فى سننه . ولم يزل الخلفاء والملوك المسلمون يتداولون المسجد النبوى من قديم بالتوسعة والعمارة والتشييد حتى أصبح وضعه الحالى وعلى هيئته الآن .

وكانت آخر توسعة وتشييد ما قام به آل سعود القائمون على شئون الحرمين ، وقد أصبح على حال من قوة التأسيس والسعة والفخامة تليق بهذا المسجد المشرف الذى تشد إليه رحال ألوف الألوف من المسلمين من جميع بقاع الأرض ، فشكر الله لهم هذا العمل المجيد .

## ( فضل المسجد النبوى )

هو أحد المساجد المشرفة التى تشد إليها الرحال فى الأرض ، وثانيها فى الفضل ، وإن كان ثالثها فى الزمان والبناء ، روى البخارى ومسلم فى صحيحهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثه مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، ومسجد بيت المقدس » وفى الصحيحين أيضاً أن رسول الله قال : « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » وفى مسند أحمد باسناد حسن زيادة حسنة وهى قوله : « فإن ذلك أفضل » .

وفى مسجد النبى الروضة الشريفة التى هى من رياض الجنة ، ففى الصحيحين

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما بين بيتى[١] ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى » وكيف لا تكون من رياض الجنة والعبادة فيها مما يقرب صاحبها من الجنة، ويباعد بينه وبين النار، فالأعمال فيها ثوابها مضاعف، والدعاء فيها مرجو الإجابة، وبجوارها أشرف بقعة ضمت أشرف جسمان على وجه الأرض، وطالما صلى فيها النبى فى حياته وقام، وكثيراً ما وعظ فيها وذكر، وبشر وأنذر، وشهدت من أحداث الإسلام وسياسته ما شهدت، والجالس فيها يشعر بروحانية صافية وراحة نفسية، وإشراقة قلب، وإنشراح صدر، وينسى فيها بؤس الحياة وآلامها ويغمره إيمان بصاحب الرسالة وحب يصلان به إلى حظيرة القدس.

وذهب الإمام مالك وأصحابه إلى تفضيل مسجد المدينة على مسجد مكة؛ لأن ذاك بناه الخليل إبراهيم، وهذا بناه نبينا محمد.

والحق ما ذهب إليه جمهور العلماء من تفضيل المسجد الحرام، لأنه فى بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض. وحرمه الخليل وحرمه نبينا، وجعل الصلاة فيه أفضل من الصلاة فى المسجد النبوى، وجعل حجه فرضاً مفروضاً ومن دخله كان آمناً، وفضيلته قد شهد بها التنزيل وصدق الله «إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة[٢] مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين»[٣].

## بناء حجر أمهات المؤمنين

وبنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حجر حول مسجده الشريف،

---

(١) اشتهر هذا الحديث على الألسنة بلفظ « ما بين قبرى » وهو غير صحيح فالرسول لما قال الحديث لم يكن قبرا وإنما كان بيتا وهى الرواية الصحيحة.

(٢) بكة هى مكة بلد الله الحرام بإبدال الميم باء، سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة الذين يلحدون فيها بظلم، وقيل لأن الناس يجتمعون فيها ويتزاحمون للطواف والسعى.

(٣) آل عمران ٩٦، ٩٧.

لتكون مساكن له ولأهله ، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك والأكاسرة والقياصرة بل كانت بيوت من ترفع عن الدنيا وزخارفها ، وابتغى الدار الآخرة ، فقد كانت كمسجده مبنية من اللبن والطين وبعض الحجارة ، وكانت سقوفها من جذوع النخل والجريد ، وكانت قريبة الفناء قصيرة البناء ، ينالها الغلام الفارع بيده. قال الحسن البصرى — وكان غلاما مع أمه خيرة مولاة أم سلمة — : قد كنت أنال أطول سقف فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم بيدى .

ولما تمت هجرة النبى وصاحبه أبى بكر رجع عبد الله بن أريقط دليلهما إلى مكة ، فأرسلا معه زيد بن حارثة ، وأبا رافع وهما موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتوا بأهليهما ، فذهبا وجاءا ببيتى الرسول : أم كلثوم وفاطمة وزوجته : السيدة سودة بنت زمعة ، وأم أيمن زوج لزيد ، وابنها أسامة . أما السيدة زينب فكانت فى بيت زوجها العاص بن الربيع حتى أرسلها بعد أن أسر فى بدر كما سيأتى ، وأما السيدة رقية فكانت مع زوجها عثمان رضى الله عنه ، وقدمت معهما أيضاً السيدة عائشة ، وأمها أم رومان صحبة عبد الله ابن أبى بكر ، ومن آل أبى بكر أيضاً السيدة أسماء بنت الصديق امرأة الزبير بن العوام ، وهى حامل متم بابنها عبد الله بن الزبير ، ولم يكن مع رسول الله حينئذ من أزواجه إلا سودة بنت زمعة التى دخل بها بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها ، أما السيدة عائشة فكان عقد عليها ولم يبن بها إلا فى شوال بعد مقدمه المدينه بسبعة أشهر . وكان رسول الله كلما بنى بزوجة بنى لها حجرة ، حتى اكتملت حجرات نسائه حول المسجد . وكان لكل حجرة بابان خارجى ، وداخلى من المسجد ليسهل دخول النبى إلى المسجد . وقد أضيفت هذه الحجر كلها إلى المسجد لما اضطروا إلى توسعته كما أسلفنا

# حمى المدينة

لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه إلى المدينة كانت أوبأ أرض الله من الحمى فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم . وصرف ذلك عن نبيه . وكان ممن وعكتهم الحمى ، وهدت من كيانهم . الصديق أبو بكر ، وعامر بن فهيرة مولاه ، وبلال بن رباح ، فكان الصديق إذا اشتدت به الحمى يقول :

كل امرىء مصبح فى أهله  والموت أدنى من شراك نعله

وكان عامر يقول :

قد وجدت الموت قبل ذوقه  إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرىء مجاهـــد بطوقه  كالثور يحمى جلده بروقه (١)

وكان بلال يقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة  بواد وحولى إذخر وجليل (٢)

وهل أردَن يوماً مياه مجنة  وهل يبدون لى شامة وطفيل (٣)

فأخبرت عائشة النبى بما رأت وسمعت فدعا بهذا الدعاء « اللهم حبب إلينا المدينه كحبنا مـــكة أو أشد ، وصححها وبارك لنا فى صاعها ومدها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة » رواه البخارى ، وقد استجاب الله لنبيه الدعاء وصار جو المدينه من أحسن الأجواء ، ولم تكن الجحفة حينئذ من بلاد الإسلام ، وهى التى كانت مهل أهل الشام ومصر ومن على شاكلتهم ، وقد درست الجحفة واحترام الآن من رابغ ، قرية قريبة منها على الطرق بين مـــكة والمدينة .

---

(١) الروق : القرن .

(٢) نباتان من نبات البادية .

(٣) جبلان بمكة .

# حالة المدينة السياسية والاجتماعية بعد الهجرة

بعد أن قدم النبى ﷺ وأصحابه المدينة أصبح سكان المدينة يمثلون هذه الطوائف :

## المهاجرين

وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم تاركين الأهل والولد والدور والمال ، مجردين من كل شىء إلا من الإيمان ، ومنهم من اصطحب معه زوجه وولده ، ومنهم من تركهم ، وقد عانى المهاجرون فى مبدأ قدومهم شدة ومرضاً وغربة ووحشة ، ولكنهم لم يلبثوا - بفضل إخوانهم الأنصار - أن تعودوا على جو المدينة ، وأن اندمجوا فى المجتمع الجديد ، وصارت المدينة وطناً لهم . وأبدلهم الله بالأهل أهلا ، وبالمال مالا ، وكانت الهجرة قبل فتح مكة واجبة ، وفرضا على المسلمين من أهل مكة لنصرة النبى ﷺ ، ومواساته بالنفس،وليكون لهم فى تجمعهم فى مكان واحد كيان وقوة ، ولذلك أنحى الله باللائمة والتوبيخ لمن استطاع الهجرة ولم يهاجر ، ولم يعذر إلا المستضعفين الذين ليست لهم قدرة عليها فقال سبحانه « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا »(١) .

وأما بعد الفتح فلم تعد الهجرة واجبة ففى الحديث المتفق عليه « لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » ومع هذا فقد أبى الله ورسوله إلا أن تكون المدينة هى الوطن للمهاجرين ، فحرم رسول الله على من هاجر قبل الفتح أن

---

(١) النساء / ٩٧ — ٩٩

يستوطن مكة بعد الفتح ، وأباح لمن قصدها لحج ، أوعمرة أن يقيم بها بعد أداء نسكه ثلاثا ، لايزيد عليها فى الحديث المتفق عليه ـ واللفظ لمسلم ـ أن رسول الله ﷺ قال : « يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا » ولذلك رثى النبى لسعد بن خولة(١) أن مات بمكة كما رواه البخارى فى صحيحه(٢) والحكمة فى تحريم الإقامة للمهاجر بمكة بعد الفتح خشية أن يعتبر هذا رجوعا فى هجرتهم لأنهم تركوا ديارهم وأهليهم وأموالهم لله ، وفى سبيل نصرة رسول الله ، فأراد الله سبحانه أن يستمر تركهم لها ابتغاء مرضاته ليكون شاهد صدق على قوة إخلاصهم ، وعظمة نفوسهم ، وسمو أخلاقهم ، وليكونوا قدوة حسنة لمن يجىء بعدهم أن من ترك شيئاً لله لاينبغى أن يرجع إليه .

هذا إلى أن المدينة ـ دار الهجرة ـ قد أضحت قلب الإسلام النابض ، ومركز الدعوة الإسلامية ، ففيها استقر الرسول بعد الهجرة . والخلفاء الراشدون من بعده . فما أشد الحاجة إلى أن يبقى فيها السابقون الأولون من المهاجرين من قريش ، التى تدين لها العرب كلها ، فمن ثم حرم على المهاجرين الأولين الإقامة بمكة بعد الفتح ، ولو أبيح لهم الرجوع لربما نزع الكثيرون منهم إلى الرجوع إليها فإن النفوس البشرية مجبولة على حب الوطن والرجوع إليه إذا سنحت الفرصة ، لذلك اقتضت حكمة الله سبحانه — ولله الحكمة البالغة — أن يحرم ذلك ليبقى المهاجرون مع الأنصار فى البلد الطيب « طيبه » الذى آوى الاسلام ، ومنه انتشرت دعوة الإسلام ، وعم نوره الخافقين ، وهو من أسمى أنواع الوفاء.

ولما مرض سيدنا سعد بن أبى وقاص بمكة فى حجة الوداع خاف أن يموت فطمأنه الرسول وأشار له إلى أنه ستطول به الحياة وقال : « اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ولاترددهم على أعقابهم » رواه البخارى .

ولهذه المعانى كان النبى يرغب أصحابه فى سكن المدينة ولا يتحولون

---

(١) سعد بن خولة من بنى عامر بن لؤى من المهاجرين السابقين وقد مات بمكة عام حجة الوداع .

(٢) صحيح البخارى كتاب الجنائز وانظر فتح البارى جـ ٣ ص ١٢٨

عنها إلا لضرورة فقد روى مسلم فى صحيحه بسنده عن سعد بن ابى وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى أحرم ما بين لابتى (١) المدينة : أن يقطع عضاهها (٢) أو يقتل صيدها وقال : المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لايدعها أحد رغبة منها إلا أبدلها الله فيها من هو خير عنه ، ولا يثبت أحد على لأوائها (٣) . وجهدها إلا كنت له شفيعا . أو شهيدا يوم القيامة . ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله فى النار ذوب الرصاص . أو ذوب الملح فى الماء » .

## الأنصار

هم أولئك الذين استجابوا إلى الإسلام من أهل المدينة أوسها وخزرجها فى بيعة العقبة الأولى والثانية وقد كان يساكنهم بالمدينة جاليه كبيرة من اليهود الذين نزحوا إليها من الشام مشردين مضطهدين. وكان بينهم وبين اليهود وقائع وحروب . فكانوا إذا انتصفوا من اليهود وأذلوهم قالوا لهم : « لقد قرب عهد نبى يبعث من العرب وسنتوى تحت لوائه ونقتلكم معه ، قتل عاد وإرم » فلما دعا النبى أهل المدينة فى موسم الحج قالوا فيما بينهم : هذا هو الذى بشرت به يهود فلا يسبقنكم إليه . فكان هذا من أسباب كرامة الله لهم بالمسارعة إلى الإسلام ونشره بالمدينة قبل هجرة النبى ﷺ .

وقد كانت بين الأوس والخزرج فى الجاهلية حروب وأيام مشهودة كيوم بعاث . ولذلك لما عرض النبى عليهم الإسلام قالوا : إنا تركنا قومنا وبينهم ما بينهم من العداوة والبغضاء ، فإن يجمعهم الله بك فلن يكون أحد أعز منك فى العرب ، وقد حقق الله الرجاء ، فقد صاروا بعد أن أنعم الله عليهم بالاسلام إخوانا متحابين متآلفين ، وكان للاسلام من هذا الغنم والخير

---

(١) أى حريتها وهى الأرض ذات الحجارة السود .

(٢) جمع عضة شجر ذو شوك (٣) شرتها من حر أو برد ، أو جدب مثلا

الكثير . وقد ذكرهم الله بهذه النعمة فى قوله عز شأنه ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »(١) .

وقد قام السادة الأنصار تجاه إخوانهم المهاجرين بألوان من المواساة والإكرام ، والإيواء . والإيثار ما استحقوا به أن ينزل الله فيهم قرآنا يتلى إلى يوم الدين . وصاروا مثلا عاليا يضرب فى الأولين والآخرين ، وستعرض لمآثرهم . ونوفيهم بعض حقهم عن كثب

وقد صار المهاجرون والأبصار بعد الهجرة كالجسد الواحد ، وعلى قلب رجل واحد ، ويداً واحدة تجاه المشركين واليهود والمنافقين ، ولم يزالوا يكافحون ويجالدون ، ويصبرون ويصابرون حتى انماع هؤلاء الأعداء الثلاثة وصاروا فى عداد الهلكى الغابرين . وبقيت كلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم .

## « المنافقين »

وهم أهل المدينة من غير المسلمين . ولم يكن بمكة منافقون لأن طبيعة العرب الخلص تأبى النفاق ، فإما أيمان صادق ، وإما كفر ظاهر ، وإنما نجم النفاق بالمدينة ، فقد كان يساكن العرب فيها اليهود ، وهم قوم مخادعون منافقون بطبيعتهم وعنهم أخذ عرب المدينة الذين لم يساموا هذا الخلق المرذول ، ولما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ، وتآلف المهاجرون والأنصار ، وتآخوا فى الله ، وصاروا قوة مرهوبه فى المدينة وصارت للنبى صلى الله عليه وسلم الكلمة النافذة على المسلمين جميعا لا فرق بين مهاجرى وأنصارى ، وصارت إليه الرئاسة الدينية والدنيوية ، والقيادة السياسية والاجتماعية — حقد عليه وعلى دينه بعض العرب ممن كانت له الزعامة فى

---

(١) آل عمران / ١٠٣ .

المدينة ، واليهود الذين حقدوا على العرب أن يكون منهم النبي المبعوث فى آخر الزمان ، وتآمر من هؤلاء وأولئك فئات على الشر وعدواة الإسلام ، ولم يكن فى استطاعتهم أن يعلنوا عن الحقد والشر الخبىء فى قلوبهم ، فيلم يجدوا بدا من التستر بالإسلام ، يظهرونه ويبطنون الكفر والحقد والضغينه على الاسلام والمسلمين ، وهم من يسمون فى الاسلام ( بالمنافقين ) وقد تزعم هؤلاء رجل من العرب ، كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ، ويملكوه عليهم ، فلما انصرفوا عنه ومنهم أهله وولده حقد وضغن ، ونافق وداهن وهو عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى .

وانضوى تحت لوائه — لواء النفاق — جماعة منهم أبو عامر ، وكان يقال له الراهب ، كان قد ترهب فى الجاهلية وليس المسوح(١) قال فيه الرسول ( لا تقولوا الراهب ولكن قولوا : الفاسق ) ومات بالشام غريباً طريدا وحيدا وكان أبنه حنظلة من خيار المسلمين ، استشهد يوم أحد وهو غسيل الملائكة وجلاس بن سويد بن الصامت قال أبن اسحاق : وقد زعموا أنه تاب وحسنت توبته حتى عرف منه الاسلام والخير ، ونبتل بن الحارث وهو الذى قال فيه رسول الله ( من أحب أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى هذا ) وكان جسيما ثائر شعر الرأس ، أحمر العينين ، أسفع الخدين وكان يسمع الكلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينقله إلى المنافقين ، وهو الذى قال : إنما محمد أذن : من حدثه بشىء صدقه ، فأكذبه الله ، وعباد بن حنيف وكان ممن بنوا مسجد الضرار ، ومربع بن قيظى وكان أعمى وهو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاز فى حائطه وهو ذاهب إلى أحد : لا أحل لك إن كنت نبيا أن تمر فى حائطى وأخذ فى يده حفنا من تراب ثم قال لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك لرميتك بها ، فابتدره القوم ليقتلوه . فقال رسول الله ( دعوه فهذا الأعمى أعمى القلب ، أعمى البصر ) وقد ضربه سعد بن زيد الاشهلى بالقوس فشجه ، وأخوه أوس بن قيظى ، وحاطب بن أمية ابن رافع وكان شيخا جسيما قد أسن فى

---

(١) لباس الرهبنة

الجاهلية . وكان له ابن من خيار المسلمين يقال له : يزيد بن حاطب أثخنته الجراح يوم أحد فاستشهد وهؤلاء من الأوس .

ومن الخزرج : رافع بن وديعة ، والجد بن قيس ، وزيد بن عمرو ، وعمرو بن قيس ، وقيس بن عمرو .

ومن المفارقات العجيبة أن عبد الله بن أبى رأس المنافقين . كان له ابن من خيار المسلمين وأصدقهم إيمانا حتى لقد عرض على النبى صلى الله عليه وسلم أن يقتل أباه . فأبى النبى وقال : « لا بل نحسن صحبته ما دام بيننا » ! !

وتبع ابن أبى من اليهود قوم أظهروا الاسلام نفاقا وتقية ، منهم : سعد ابن حنيف ، وزيد بن اللصيت ، ورافع بن حرملة ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات :« قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين » ورفاعة بن زيد بن التابوت ، أخبر النبى بموته مرجعه من تبوك ، ونعمان بن أوفى ، وعثمان بن أوفى ، وغيرهم (١)

وكان هؤلاء المنافقون بحكم ظاهرهم يحضرون المسجد . ويسمعون احاديث المسلمين . ويسخرون ويستهزئون بدينهم ويتسقطون الأخبار وينقلونها إلى الاعداء .

ولكن الله سبحانه وتعالى كان لهم بالمرصاد . فما بيتوا أمرا إلا أظهره الله وفضحهم . ومادبروا مكيدة إلا رد الله كيدهم فى نحرهم ، وأنزل فى شأنهم معظم سورة التوبة ، فمازال يقول فيها : ومنهم ، ومنهم . . . حتى أخزاهم وكشف عن نذالة نفوسهم ، وآيات كثيرة فى سورة البقرة ، وآل عمران والأحزاب وغيرها ، حتى أنزل فيهم سورة بتمامها وهى ( المنافقون ) وكانت عاقبة أمرهم كفرا وذلة ، وعاقبة أمر المؤمنين المخلصين عزاً وسيادة . وسنبين موقف الاسلام منهم فى فصول تأتى إن شاء الله .

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٤٠

# ( اليهود أو بنو إسرائيل )

لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة كان فيها من أحياء اليهود بنو قينقاع وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وكان نزوحهم إلى الحجاز أيام « بختنصر » البابلى (١) الذى استولى على بلادهم بالشام ، وهدم متعبداتهم ، وخرب الهيا كل للمرة الأولى وانزل العذاب بهم ، وسبى الكثيرين منهم لما عتوا فى الأرض فساداً واستكبارا ؛ ولعل هذا هو ما أراده الله سبحانه وتعالى فى قوله : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا (٢) » ففر بعضهم إلى بلاد الحجاز ؛ فمنهم من سكن خيبر ، ووادى القرى وتيماء ، ومنهم من سكن يثرب (أى المدينه) وذلك فيما ذكره هشام بن محمد بن السائب الكبى (٣) وقيل : ان هجرتهم إلى بلاد الحجاز : خيبر وماجاورها ، ويثرب وما قرب منها ، إنما كان سنه سبعين ميلاديه ، حينما هجم « طيطوس ، الرومانى على بلادهم واستولى على أورشليم ؛ وخرب الهيكل للمرة الثانية ؛ ونكل بهم . وقتلهم (٤) وأذلهم ولعل هذا هو ما أشار الله إليه فى قوله سبحانه : « فاذا جاء وعد الآخرة ليسئوا وجوهكم ؛ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيرا ، عسى ربكم أن يرحمكم وأن عدتم عدنا ؛ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » (٥)

وقد سكن بجوارهم من قديم الزمان قبيلتا الأوس والخزرج ، وكان اليهود ذوى ثروه ومال وزروع ، وإن لم يكونوا ذوى بأس وقوة كالأوس والخزرج ، فمن ثم عاشوا كالأتباع لهم ؛ مستذلين صاغرين ؛ وكان اليهود أهل كتاب ؛ ويعلمون صفات النبى فى توراتهم . وكانوا يستفتحون على الأنصار قبل البعثة ؛ بالنبى الذى سيبعث ، وإنهم سيتبعونه ويأخذون بثأرهم منهم فلما بعث النبى جحدوا رسالته وكفروا به عناداً وبغياً وحسداً للعرب ؛ وقد سجل الله سبحانه وتعالى

---

(١) وكان ذلك حوالى سنة ٥٨٦ ق.م

(٢) الاسراء ٣ ، ٤ (٣) البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٩

(٤) الملل والنحل للاستاذ حامد عبد القادر ص ٢٣ و ٢٦

(٥) سورة الاسراء ٧ و ٨

عليهم هذا فى قوله:« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين(١) وقال سبحانه : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون »(٢)

ولما كان اليهود يزعمون كذبا وزورا أنهم شعب الله المختار ؛ وأن النبوة لن تكون إلا فيهم ؛ فقد عادوا الاسلام ونبيه عداء حاقدا ؛ ولم يسلم منهم إلا القليل . أمثال عبدالله بن سلام ؛ وأهله وعمته ؛ ومخيريق الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم«ومخيريق خير يهود »(٣) قال ابن اسحاق فى سيرته : وكان حبراً عالماً ؛ وكان رجلا غنياً كثير الأموال من النخل وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته ؛ وما يجد فى علمه . وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أحد: وكان يوم السبت قال : يامعشر يهود والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق قالوا : إن اليوم يوم السبت. قال لا سبت لكم ؛ ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله صلى عليه وسلم بأحد ؛ وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت هذا اليوم ، فأموالى لمحمد صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما أراد الله فلما أقتتل الناس قاتل حتى قتل ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «مخيريق خير يهود » وقبض رسول الله أمواله وتصدق بها على المسلمين .

وقد نافق بعضهم وأظهر الإسلام خداعا ومضارة للمسلمين كما قدمنا وأما الكثرة الكاثرة منهم فقد ناصبوا الإسلام وأهله العداوة . فمنهم حيى بن أخطب ، وأخوه ياسر ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وسلام بن أبى الحقيق ، وهو أبو رافع الأعور تاجر أهل الحجاز والربيع ابن الربيع بن أبى الحقيق ، وعمرو بن جحاش . وكعب بن الاشرف وشاس ابن قيس ، ومالك بن صيف . وكعب بن أسد . ووهب بن يهوذا(٤) وغيرهم .

---

(١) البقرة ٨٩ (٢) البقرة ١٤٦ (٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ والاصابه فى تاريخ الصحافة ح ٣ ص ٣٩٣

(٤) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٣٦ و٢٣٧

وروى ابن إسحاق بسنده عن صفية بنت حيى قالت : « لم يكن أحد من ولد أبى وعمى أحب إليهما منى . ولم ألقهما فى ولد لهما . ولم أهش إليهما إلا أخذانى دونه . فلما قدم رسول الله ﷺ قباء — قرية بنى عمرو بن عوف — غدا إليه أبى وعمى أبو ياسر بن أخطب مغلسين - فوالله ما جاءانا إلا مع مغيب الشمس . فجاآنا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى . فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما نظر إلى واحد منهما فسمعت عمى أبا ياسر يقول لأبى : أهو هو ؟ قال : نعم والله ! قال تعرفه بنعته وصفته ؟ قال : نعم والله ! قال : فماذا فى نفسك منه ؟ قال عداوته ما بقيت ! ! وهذ يدل على مقدار ما كان يكنونه للنبى والاسلام. وكان عاقبة حيى خسرا وخزيا . فقتل فيمن قتل يوم قريظة[1] .

وكذلك كانت عاقبة المكذبين الحاقدين من اليهود فمنهم من قتل . ومنهم من أجلى عن المدينة . ثم عن جزيرة العرب كلها . وأروح الله من شرورهم العباد والبلاد وسنفصل ذلك حينما نعرض لمواقف الإسلام من بنى إسرائيل .

## ( الإخاء بين المهاجرين والأنصار )

ولما استقر المسلمون بالمدينة ألهم الله سبحانه نبيه محمدا بعمل يعتبر غاية فى حسن السياسة . وأصالة الرأى . وبعد النظر . فقد عقد بين المهاجرين والانصار أخوة بها يتعاونون ويترافقون : ويتناصرون ويتوارثون . وقد اختلف العلماء فى وقت هذه المؤاخاة فقيل بعد الهجرة بخمسة أشهر . وقيل بتسعة أشهر . وقيل وهو يبنى المسجد . وقيل قبل بنائه ، والذى نرجحه أن ذلك كان بعد الهجرة بقليل . فإن الحال كانت تدعو إلى الإسراع بهذا الإخاء جمعا للشمل . وتوثيقا للعرى . وقطعا لدسائس الأعداء ولاسيما اليهود .

فكان رسول ﷺ وعلى بن طالب أخوين . وأبو بكر وخارجة بن زيد أخوين . وعمر وعتبان بن مالك أخوين . وحمزة وزيد بن حارثة أخوين .

(١) سيره ابن هشام ج ١ ص ٥١٨

وحاطب بن أبي بلتعة ، وعويم بن ساعدة أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين . وابن مسعود ومعاذ بن جبل أخوين . ومصعب بن عمير وأبو أيوب الانصارى أخوين . وأبو حذيفة بن عتبة . وعباد بن بشر أخوين . وبلال وأبو رويحة[1] أخوين . وأبو عبيدة بن الجراح وأبو طلحة الانصارى أخوين . والزبير بن العوام وسلمه بن سلامة بن وقش أخوين . وطلحه بن عبد الله وكعب بن مالك أخوين . وسعيد بن زيد وأبى ابن كعب أخوين . وعمار وحذيفه بن اليمان حليف بنى عبد الاشهل أخوين . وهكذا قال ابن سعد آخى بين مائة : خمسين من المهاجرين وخمسين من الانصار . وليس معنى هذا أنه لم يكن التآخى إلا بين هذا العدد . وإنما كان هذا أول ما آخى ، وصار يجددها بحسب من يأتى إلى المدينة مهاجرا . ومن دخل فى الاسلام بعد ذلك .

ومما ينبغى أن يتنبه إليه أن الامام محمد بن اسحاق وهم فى بعض من ذكرهما أخوين . وذلك مثل عده جعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين والمعروف الثابت أن جعفر كان بالحبشة وقتها . ولم يقدم المدينة إلا عام خيبر سنة سبع . وعده أبا عبيده وسعد بن معاذ أخوين . والصحيح ما ذكرته وهو ما رواه الامامان أحمد ومسلم . وقد أجاب بعض العلماء عن بعض هذه المآخذ[2] .

وقد أنكر الامام ابن تيمية المؤاخاة بين مهاجرى ومهاجرى وقال إنها كانت بين مهاجرى وأنصارى . وردعليه الحافظ ابن حجر فى الفتح قال الحافظ : « وأنكر ابن تيمية فى كتاب الرد على ابن المطهر الرافضى — يعنى كتاب منهاج السنة — المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصا مؤاخاة النبى صلى الله عليه وسلم لعلى قال : لان المؤاخاة شرعت لارفاق بعضهم بعضا . ولتأليف قلوب بعضهم على بعض . فلا معنى لمؤاخاة النبى لأحد منهم ولا لمؤاخاة مهاجرى لمهاجرى . وهذا رد للنص بالقياس . وإغفال عن حكمة المؤاخاة . لأن بعض

---

(١) اسمه عبد الله بن الرحمن روى أنه لما دون عمر الدواوين بالشام ، وكان بلال قد خرج إلى الشام ، فأقام بها مجاهدا ، فقال عمر لبلال : إلى من تجعل ديوانك يابلال ؟ قال : مع أبى رويحة لا أفارقه أبدا . للاخوة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقدها بينه وبينى ، فضم إليه .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢٧ .

المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى . فآخى بين الاعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى . ويستعين الأعلى بالأدنى وبهذا نظر إلى مؤاخاته صلى الله عليه وسلم لعلى . لأنه هو الذى كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة . وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة لأن زيدا مولاهم . فقد ثبتت أخوتهما وهما من المهاجرين(١) .

ولم تكن هذه الاخوة أخوة إسلام وارتفاق فحسب . وإنما كانت أخوة بها يتوارثون . قال عز شأنه « إن الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق(٢) ...

وقد استمر الأمر على ذلك حتى عز الإسلام ، واجتمع الشمل ، وذهبت آثار الغربة من وحشة وحاجة ، فنسخ الله حكم التوارث بهذه الأخوة بالحكم الثابت المستقر ، وهو التوارث بالقرابة والرحم قال عز شأنه « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب مسطورا »(٣) وقال « وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم »(٤) .

وقد كان لهذه الأخوة آثارها البعيدة فى الحب والارتفاق ، والتعاون والتناصر ، وقاموا بحقوقها خير قيام ، وضرب الأنصار فى هذا مثلا عليا لم تعرف لغير هؤلاء السادة الأبرار ، واعترافا بالفضل لأهله أرى لزاما على أن أقول كلمة فى فضائل الانصار بعد قليل .

---

(١) فتح البارى ج ٧ ص ٢١٧ .
(٢) الانفال ٧٢ .
(٣) الأحزاب ٦ .
(٤) الأنفال ٧٥ .

# المؤاخاة بين المسلمين بمكة

ومما ينبغى أن يعلم أنه كانت هناك مؤاخاة قبل هذه المؤاخاة حدثت بين المسلمين بمكة وهى تعتبر أول مؤاخاة فى الإسلام ، كان الغرض منها ، تقوية الأواصر والروابط بين المسلمين ، وارتفاق الضعيف بالشريف ، والفقير بالغنى ، ومن ليس من قريش بمن هو منهم ، فالحكمة منها ظاهرة والغرض منها شريف .

قال الحافظ بن حجر فى « فتح البارى شرح صحيح البخارى » «قال ابن عبد البر : كانت المؤاخاة مرتين : مرة بين المسلمين ، وذلك بمكة ومرة بين المهاجرين والأنصار ... » وهى التى كانت بالمدينة، وعنى بذكرها كتاب السير والمؤرخون .

ثم قال : وقعت المؤاخاة الأولى كما أخرجها الحاكم من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر قال : «وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبى بكر وعمر ، وبين طلحة والزبير، وبين عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان » وذكر جماعة قال: ( فقال على : يا رسول الله إنك آخيت بين أصحابك فمن أخى ؟ قال : أنا أخوك » .

وقد ذكر الحافظ فى الإصابة فى ترجمة سيدنا بلال — رضى الله عنه — أن النبى صلى الله عليه وسلم « آخى بينه وبين أبى عبيدة بن الجراح » فلعل مراد من قال ذلك المؤاخاة الأولى التى كانت بمكة وإلا فالمعروف الثابت أن النبى آخى بين بلال ، وبين أبى رويحة الخثعمى — رضى الله عنهما — .

# ( مآثر الأنصار الخالدة )

إن المتأمل فيما قام به الأنصار رضى الله عنهم تجاه النبى ﷺ وإخوانه المهاجرين ليتعجب مما فعله هؤلاء القوم، ولو ذهب يتلمس الأسباب ، فلن يجد إلا سبب الأسباب ، وهو أن ذلك كان بفضل الله ورحمته لا بصنع بشر وحكمته وسياسته ، وصدق الله حيث يقول « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » (١) فلم يلتق النبى ﷺ بالأنصار إلا فى سويعات تحت جنح الليل ، واكتفى فيها بعرض الإسلام ، وأخذ العهود والمواثيق ، ولم يطل لقاؤه معهم قبل الهجرة حتى يكون هذا الذى فعلوه بسبب تربيه النبى ﷺ إياهم . وطول تعهده لهم كما فعل تجاه المهاجرين حتى كون منهم رجالا . ولم يكن بين دخولهم فى الإسلام وقيامهم بهذه المآثر إلا أقل من عام . وقد سمعت فيما مضى طرفا من لقائهم للرسول وإكرام وفادته. ولم يكن شعورهم تجاه إخوانهم المهاجرين بأقل من هذا فقد فتحوا لهم قلوبهم قبل أن يفتحوا لهم بيوتهم : ووسعوهم بصدورهم قبل أن يسعوهم بأموالهم . وتسابقوا إلى لقائهم واكرامهم حتى لم يجدوا بدا فى بعض الأحيان من تحكيم القرعة بينهم . وضربوا فى باب الإيثار . وسخاء النفس . وكرم الطبع مثلا عليا لا تزال تذكرها لهم الأجيال المتعاقبة بالإكبار والإعظام .

روى البخارى فى صحيحة عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ آخى بينه وبين سعد بن الربيع الانصارى فجاء سعد فعرض عليه أن يقاسمه ماله. وقال له : انظر أى زوجتى أحب إليك أتنازل لك عنها حتى إذا ما انتهت عدتها تزوجتها ، فأبى عبد الرحمن وقال له : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، ولكن دلنى على السوق ، فدله على السوق ، فباع وابتاع حتى صار له مال ، وتزوج امرأة من الانصار بوزن نواة من ذهب ، فقال له النبى : « أولم ولو بشاة(٢)

وهكذا ضرب سعد بن الربيع مثلا فريداً فى الإيثار ، وضرب عبد الرحمن

---

( ١ ) الانفال / ٦٣

( ٢ ) صحيح البخارى باب « كيف آخى النبى بين أصحابه » .

ابن عوف مثلا عاليا لعزة النفس والرغبة فى العمل والاكتساب ، وقد فتحت عليه الدنيا بعد فما توفى إلا وهو أثرى الأثرياء .

وما سعد بن الربيع إلا صورة مشرقة ومثلا من أمثلة الأنصار الكرام .

ويبالغ الأنصار فى الأيثار والعمل على مقتضى هذه الأخوة فيأتون إلى النبى صلوات الله وسلامه عليه فيقولون : « أقسم بيننا و بين إخواننا النخيل » فيقول لهم النبى «لا» فقالوا لإخوانهم المهاجرين : تكفونا المؤونة ـ يعنى السقى والعمل ـ ونشركم فى الثمرة ، فقالوا : « سمعنا وأطعنا » رواه البخارى فى صحيحه ، وروى أيضاً عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « دعا النبى صلى الله عليه وسلم الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين . فقالوا : إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها قال: إما[1] لا فاصبروا حتى تلقونى أنه سيصيبكم بعدى أثرة [2] .

وكأن النبى ﷺ أراد أن يكافئهم على ما قدموا له وللمهاجرين من بر ومواساة وإيواء ، ولكن القوم سموا وأبوا إلا أن يكون عملهم لوجه الله ، لا يريدون من أحد عليه جزاء ولا شكورا .

وإن شئت فى باب الايثار أروع من ذلك وأعجب ، فاليك ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النضير للأنصار : « إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم ، وتشاركونهم فى هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم أموالكم ودياركم ولم نقسم لكم شيئا من الغنيمة » فقالت الأنصار : « بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولانشاركهم فيها » !! ذكره البغوى فى تفسيره . يا لله لهذه النفوس الكريمة الأبية ! المؤثرة السخية ! لقد كان جزاؤهم من ربهم أن أنزل فيهم

---

(١) إما لا : هى أن الشرطية المدغمة فى ( ما ) الزائدة ولانافية وفعل الشرط محذوف تقديره ، تقبلوا (٢) أثرة وزن قصبة أى استئثار بالأموال دونهم .

قرآنا يتلى إلى يوم الدين وصدق الله ، والذين تبوؤو الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١) وأن قال فيهم الرسول صلوات الله وسلامة عليه مشهيدا بمناقبهم وفضلهم «لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ، وأن جعل حبهم علامة الإيمان ، وبغضهم وعلامة النفاق فقال . « آية الإيمان حب الانصار ،وآية النفاق بغض الانصار» وقاو «الانصار لايحبهم إلامؤمن ، ولايبغضهم إلامناقق ، فمن أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله » وأن أوصى بهم المسلين بعده خيرا ،فقد حديث أنس بن مالك رضى الله هنه فقال . « أبو بكر والعباس ـ رضى الله عنهما ـ بمجلس من مجالس الانصار ، وهم يبكون ،فقال :مايبكيكم ؟ قالوا :ذكرنا مجلس النبى ﷺ منا ، فدخل على النبى ﷺ فأخبره بذلك قال : فخرج النبى ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية بردة قال : فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ( أوصيكم بالانصار فانهم كرشى وعيبتى (٢) وقد قضوا الذى عليهم ، وبقى الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم رواها البخارى (٣) .

## ( موادعة النبى اليهود )

لئن كان النبى ﷺ باخائه بين المهاجرين والأنصار بلغ الغاية فى الحكمة والتدبير والسياسى ، فقد كان العمل البارع حقا الذى يدل على الحنكة السياسية والقدرة الفائقة على حل المشاكل ـ هو ما قام به من مودعة اليهود ومحالفتهم ، فقد كتب بين المهاجرين والأنصار كتابا وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم ، وشرط لهم وهـذا هو نص الكتاب .

---

(١) الحشر / ٩

(٢) بطانتى وخاصتى ، وموضع سرى .

(٣) صحيح البخارى باب حب الانصار من الايمان وباب قول النبى فأقبلوا من محسنهم.

« بسم الله الرحمن الرحيم : هـذا كتاب من محمد النبى الأمى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس : المهاجرون من قريش على ربعتهم[1] يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار :

بنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى النجار ، وبنى عمرو بن عوف ، وبنى النبيت . إلى أن قال : وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا[2] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء وعقل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيسة ظلم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعهم ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ، ولا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا ، وإن المؤمنين يبيء[3] بعضهم بعضا بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط[4] مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا[5] ولا يؤويه ، وإنه من نصره أو آواه فان عليه

---

(١) ربعتهم : جماعتهم

(٢) المفرح المثقل بالدين الكثير العيال قاله ابن هشام .

(٣) يبيء من البوء أى المساواة يريد أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماءهم .

(٤) يقال : اعتبطه أى قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله .

(٥) جانيا .

لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل(١) ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده إلى الله عزوجل ، وإلى محمد ﷺ ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ(٢) إلا نفسه وأهل بيته . وإن ليهود بنى النجار وبنى الحارث ، وبنى ساعدة وبنى جشم . وبنى الأوس . وبنى ثعلبة . وجفنة . وبنى الشنطة(٣) مثل ما ليهود بنى عوف . وان بطانة يهود كأنفسهم . وإنه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد . ولا ينحجر(٤) على ثأر جرح . وانه من فتك فبنفسه إلا من ظلم وإن الله على أثر(٥) هذا وأن على اليهود نفقتهم . وعلى المسلمين نفقتهم . وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم . وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ؛ وإن النصر للمظلوم ؛ وإن يثرب حرام جرفها(٦) لأهل هذه الصحيفة وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وانه لا تجار حرمه إلا باذن أهلها . وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ؛ أو اشتجار يخاف فساده . فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله وإن الله على من اتقى ٧) ما فى هذه الصحيفة وأبره . وانه لا تجار قريش ولا من نصرها . وأن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه . وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . وأنه لا يحول هذا

---

(١) الصرف : التوبة ، العدل : الفدية أى لا يقبلان منه . (٢) يوتغ : يهلك ويفسد .

(٣) فى حياة محمد « لبنى الشطيبة » .

(٤) يعنى لا يلتئم جرح على ثأر . (٥) فى حياة محمد « على أبر » .

(٦) الجرف موضع قريب من المدينة . وفى ابن هشام « جوفها » .

(٧) فى حياة محمد « على أتقى » .

الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم . وإن الله جار لمن بر واتقى » .

هذه هى الوثيقة التى وضعها نبينا محمد ﷺ منذ قرابة أربعة عشر قرنا ؛ وهى وثيقة جديرة بالاعجاب حقا . وثق فيها ما بين المهاجرين والأنصار من إخاء وحلف ، وقرر فيها حرية العقيدة لغير المسلمين وحرية الرأى وحرمة المدينة ؛ وحرمة الحياة . وحرمة المال وبذلك سبق النبى ﷺ إلى تقرير حقوق الانسان من هذا الزمن البعيد . وقرر فيها أيضا تحريم الجريمة والإثم والغدر والخديعة . وهى فتح جديد حقا فى الحياة السياسية والمدنية فى هذا العالم يومئذ . هذا العالم الذى كانت تغلب عليه روح الاستبداد . وتعيث فيه يد الظلم فسادا . ولا تراعى فيه الحقوق والحرمات .

وبمقتضى هذه الوثيقة اصبحت المدينة حرما آمنا . وأصبح كل من المسلمين واليهود فى أمن من جانب الآخر وأصبح اليهود ملزمين بمعاونة المسلمين إذا مادهم المدينة عدو . وبعدم مساعدة المشركين ومناصرتهم ضدهم . ولقد وفى النبى والمسلمون بكل الالتزامات التى أوجبتها هذه الوثيقة عليهم على حين لم يف بما فيها اليهود . ولما عادوا إلى طبيعتهم من الدس والوقيعة والخداع . فحاولوا الوقيعة بين الأوس والخزرج . وهموا بقتل النبى . واستباحوا حرمات المسلمين فكانت عاقبة أمرهم ذلا .

## بناء النبى عائشة

وفى شوال من السنة الأولى دخل النبى صلى الله عليه وسلم بزوجه عائشة ، وكان خطبها من أبيها الصديق وهى بنت ست وقيل سبع سنين وبنى بها بعد الهجرة وهى بنت تسع ، وكانت نامية نمواً حسنا ، ولم يتزوج النبى صلى الله عليه وسلم بكرا غيرها ، وقد أراه جبريل صورتها فى قطعة

من حرير خضراء قبل أن يخطبها روى البخارى فى صحيحه بسنده عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لها : « أريتك فى المنام مرتين إذا رجل يحملك فى سرقة من حرير فيقول : هذه امرأتك فأكشفها فاذا هى أنت فأقول : إن يكن هذا من عند الله يمضه » ولما خطبها النبى من أبيها قال : إنما أنا أخوك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أنت أخى فى دين الله وكتابه ، وهى لى حلال » رواه البخارى .

وقد دخل بها النبى صلى الله عليه وسلم وهى فتاة حديثة السن تلهو مع صويحباتها ، وتلعب بالأرجوحة والعرائس كما هو شان الفتيات الصغار ، وكثيرا ما كان الرسول يدخل عليها وهى معهن فيرفق بها ويفسح لهن من صدره ، وقد تربت فى منزل الوحى فنشأت متخلقة بأحسن الأخلاق ، متطبعة بما يوافق هوى النبى صلى الله عليه وسلم فلا عجب أن كانت أحب نسائه إليه ، وآثرهن عنده ، وكانت تكنى بأم عبد الله قيل لسقط ولدته ، وقيل باسم ابن أختها أسماء عبد الله بن الزبير وهو الصحيح ، وكانت عاقلة عالمة روت عن النبى وعن أبيها وغيره من الصحابة وروى عنها كثير من الصحابة والتابعين ، وعنها أخذ الكثير من أحكام الشريعة ، ولاسيما ما كان يصنعه النبى فى بيته ، ومع زوجاته ، قال مسروق : رأيت مشيخة أصحاب محمد الأكابر يسألونها عن الفرائض وقال أبو موسى الأشعرى : ما أشكل علينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أمر قط ، فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما ، ولما مرض النبى استأذن نساءه كى يمرض فى بيتها. فقامت عليه حتى توفى ﷺ بين سحرها[1] ونحرها . وقد ألقى برأسه على صدرها . فرضى الله عنها وأرضاها .

## مشروعيه الاذان

لقد فرض الله سبحانه الصلوات الخمس على الأمة قبل الهجرة ليلة

---

(١) السحر : الرئة فقد توفى النبى ورأسه على صدرها .

الإسراء والمعراج . فكانوا يصلون . ولا يؤذنون ؛ لأن الظروف المحيطة بهم فى مكة ما كانت تسمح بالدعوة إليها . والإعلان عنها . واستمر الحال على ذلك إلى ما بعد الهجرة . فلما اطمأن الرسول وأصحابه بالمدينة . واستحكم أمر الإسلام وبدأ تشريع الأحكام . وأصبحوا على حال تؤهلهم لإظهار شعائر الاسلام فكر النبى والمسلمون فى وسيلة للاعلان عن الصلاة . وتشاوروا فى ذلك. روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عمر قال : « كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها . فتكلموا يوما فى ذلك . فقال بعضهم : اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى . وقال بعضهم : بوقا مثل قرن اليهود . فقال عمر : أو لاتبعثون رجلا ينادى بالصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ : قم يا بلال فناد بالصلاة » وكان هذا النداء بلفظ « الصلاة جامعة(١) رواه ابن سعد فى الطبقات من مراسيل سعيد بن المسيب . وليس المراد بالنداء الأذان الشرعى المعهود .

فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد بن عبد ربه فى منامه من يلقنه الأذان . فأتى رسول الله ﷺ فأخبره. فقال : « إنها لرؤيا حق » وأقره على ذلك وقال له : « ألقها على بلال فانه أندى صوتا منك » فلما سمع الفاروق عمر رضى الله تعالى عنه جاء — وهو يجر رداءه — إلى النبى ﷺ . فقال : يا نبى الله لقد رأيت مثل الذى رأى . فقال الرسول ( فلله الحمد ) وإليك مارواه ابن اسحق فى سيرته عن عبد الله بن زيد قال :

« كان رسول الله ﷺ حين قدم المدينة إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة . فهم رسول الله أن يجعل بوقا مثل بوق اليهود الذى يدعون به لصلاتهم . ثم كرهه . ثم أمر بالناقوس ليضرب به للمسلمين للصلاة(٢)

---

(١) ينصب الصلاة على الاغراء وجامعة على الحال أى احضروا الصلاة حالة كونها جامعة وقيل بالرفع مبتدأ وخبر أى ذات جماعة .

(٢) فى بعض الروايات الحديثية أنهم كرهوا ذلك أيضا وإنما كرهوا هذا وذاك لأنهم يعتبرون =

فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه النداء ، فأتى رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله إنه طاف بى الليلة طائف : مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا فى يده ، فقلت : ياعبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وماتصنع به ؟ قال : قلت : تدعو به إلى الصلاة . ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت وما هو ؟ قال تقول« الله أكبر الله أكبر . اللهأ كبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمدا رسول الله . أشهد أن محمدا رسول الله . حى على الصلاة . حى على الصلاة . حى على الفلاح . حى على الفلاح . الله أكبر . الله أكبر . لا إله إلا الله » فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال : « إنها لرؤيا حق إن شاء الله » قم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها . فإنه أندى صوتا منك . فلما أذن بلال سمعه عمر بن الخطاب وهو فى بيته فخرج إلى رسول الله ﷺ يجر رداءه وهو يقول . يانبى الله . والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى . فقال رسول الله ﷺ « فلله الحمد » وقد روى هذه القصة أيضا أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه . وابن خزيمة وصححه .

ولايظن ظان أن الأذان شرع بالرؤيا فحسب وإنما شرع بالوحى أيضا وقد توافقا بدليل قوله ﷺ « إنها لرؤياحق ؟ » وفى رواية ابن جريج التى ذكرها ابن هشام فى سيرته أن عمر لما جاء إلى النبى يخبره بما رأى قال له « قد سبقك بذلك الوحى » وأيضاً فتقرير النبى لأحد على شىء أحد وجود السنن المعروفة(١)

وقد ذكر السهيلى حديثا يفيد مشروعية الأذان ليلة الإسراء والمعراج

---

= أن لهم شخصية مستقلة تنأى بهم عن التقليد والمحاكاة لغيرهم ولاسيما اليهود والنصارى وهكذا ينبغى أن تكون شخصية المسلم تؤثر ولاتأثر ، وتبدع ولاتقلد ، وقد بينت رواية ابن سعد فى الطبقات الحقة المفقودة فى رواية ابن اسحاق وهى تدوهم بلفظ « الصلاة جامعة »

(٢) فتح البارى جزء ٢ ص ٦٤ — البداية والنهاية ح ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٣

ثم قال : وأخلق بهذا الحديث أن يكون صحيحاً لما يعضده ويشاكله من حديث الاسراء ، وقد رد عليه الحافظ بن كثير فيما زعم حيث قال : « فهذا الحديث ليس كما زعم السهيلى أنه صحيح ؛ بل هو منكر تفرد به زياد بن المنذر أبو الجارود، الذى تنسب إليه الفرقة الجارودية وهو من المتهمين بالكذب ، ثم لو كان قد سمعه رسول الله ﷺ ليلة الاسراء لأوشك أن يأمر به بعد الهجرة فى الدعوة إلى الصلاة » وكل ماروى من روايات تدل على مشروعيته قبل الهجرة هى ضعيفة لا تنهض للاحتجاج بها كما نبه إلى ذلك الحافظ الكبير ابن حجر فى الفتح ، وكان بلال بن رباح هو مؤذن[1] رسول الله ﷺ ، مع وجود مساعدين له فى بعض الأحيان وكان بلال يزيد فى أذان الفجر بعد حى على الفلاح الثانية « الصلاة خير من النوم » مرتين وأقره النبى على ذلك .

والأذان شعيرة من شعائر الإسلام فلا يجوز تركه ، ولو أن أهل بلد اجمعوا على تركه ، كان للسلطان قتالهم عليه ، وأقوى ما يستدل به على هذا ما وراه البخارى ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن أنس قال « كان رسول الله عليه وسلم يغير إذا طلع الفجر ، كان يستمع الأذان ، فإذا سمع أذاناً أمسك وإلا أغار » .

## السرايا فى السنة الأولى

كانت عادة قريش أن تذهب بتجارتها إلى الشام لتبيع وتشترى ، ويسمى الركب السائر بهذه التجارة عيرا ، وكان يسير معها لحراستها كثير من أشراف قريش وسراتهم ، وكانت طريقهم إلى الشام تمر على دار الهجرة ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم أن يقطع عليهم طريقهم ، ويصادر تجارتهم ذاهبة وآيبة،

---

(١) واحكمة فى تخصيص بلال بالاذان حسن صوته ونداوته وقوته ، وأيضاً فقد كان ذلك مكافأة على مالقى فى الله لقد كان إذا اشتد به التعذيب لا يعتر عن قوله : « أحد أحد » فجوزى بالاذان الذى أوله تعظيم وتوحيد ، وآخره تعظيم وتوحيد .

ليكون فى ذلك عقاب لهم على إخراجهم لهم من ديارهم ، وما أخذوه من أموالهم ، وإضعاف لقوتهم ، فيكون ذلك أدعى لخزلانهم فى ميدان القتال الذى لابد أن يكون ، فما كانت قريش لتدع النبى يبلغ الإسلام لمن أمره الله بتبليغه إليهم من الناس كافه ، وكان النبى يترقب أن يؤذن الله له ولأصحابه فى القتال وهذه هى السرايا (١) .

## « سرية حمزة بن عبد المطلب »

فى شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة أرسل النبى صلى الله عليه وسلم عمه حمزة فى ثلاثين راكبا من المهاجرين وعقد له لواء أبيض حمله أبو مرثد الغنوى وأمره أن يعترض عيرا لقريش راجعة من الشام ، فيها أبو جهل وثلثمائه من المشتركين فسار حمزة — رضى الله عنه ومن معه حتى وصلوا ساحل البحر ، فصادف العير هناك ، فلما تصافوا للقتال حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى ، فأطاعه الفريقان وانصرفوا .

## « سرية عبيدة بن الحارث »

وفى شوال من هذه السنة أرسل النبى عبيدة بن الحارث بن المطلب فى ثمانين راكبا من المهاجرين ليس فيهم أنصارى ، وأمرهم أن يعترضوا عيرا لقريش ، فوافو العير ببطن رابغ قرب « العيص » وكان على العير أبو سفيان ابن حرب فى مائتى رجل من قريش ، فكان بينهم الرمى بالنبال ، ثم خشى المشركون أن يكون للمسلمين كمين فتقهقروا ، ولم يتابعهم المسلمون وفر من القرشيين المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان ، وكانا قد اسلما قديما فانتهزا الفرصة ، ولحقا بالمسلمين .

وفى هذه السرية أطلق أول سهم فى الإسلام ، وكان الذى أطلقه عبيدة ابن الحارث وقيل سعد بن أبى وقاص .

---

(١) السرية الفرقه من الجيش التى لم يخرج فيها رسول الله ، أما ما يخرج فيها الرسول فهى غزوه .

## ﴿ سرية سعد بن أبي وقاص ﴾

وفى آخر شوال من هذه السنة خرجت سرية ثالثة عدتها عشرون من المهاجرين ، وعلى رأسهم سعد بن أبى وقاص ، فكانوا يكمنون النهار ويسيرون الليل ، حتى وصلوا صبح اليوم الخامس إلى « الخرار »[1] وكان رسول الله ﷺ قد عهد إليهم أن لا يجاوزوا هذا المكان ، فلما وصلوا علموا أن العير قد مرت بالمكان فى اليوم السابق فعادوا دون أن يلقوا أحدا .

وقد ذكر الواقدى أن هذه السرايا كانت فى السنة الأولى ، وكلام ابن إسحاق فى سيرته يميل إلى أنها فى السنة الثانية ، ورجح ابن كثير الرأى الأول قال : « والواقدى عنده زيادات حسنة ، وتاريخ محرر غالباً ، فإنه من أئمة هذا الشأن الكبار ، وهو صدوق فى نفسه مكثار[2] » .

## رأينا فى هذه السرايا

والذى نراه فى هذه السرايا التى وقعت فى السنة الأولى ، أنها كانت لمعاقبة المشركين ، والحصول على ما يمكن الحصول عليه من تجاراتهم نظير ما أخذوا من أموالهم وما ظلموهم ، ولإضعاف شوكتهم ، فإن المال عصب الحياة .

وأيضاً فقد قصد بها إفهام قريش أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أهليهم — الذين اضطروا إلى الفرار من مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد والإيذاء — تفاهما يقى الطرفين شرور العداوة والبغضاء ، ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى دينهم ، وحرية الإعلان عن عقيدتهم ، وحرية الدخول إلى

---

(١) موضع قرب الجحفة .

(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٣٤

الحرم لتأدية شعائرهم ، كما يكفل لأهل مكة سلامة تجارتهم فى طريقها إلى الشام، ولم يكن مثل هذا التفاهم ممكنا ، ما لم تقدر قريش قوة المهاجرين من أبنائها على الإيقاع بها ، وإيصاد طرق التجارة فى وجهها .

ولا أرى أنها كانت للحرب ، فقد كان القتال لم يشرع بعد ، وذلك على حسب ما ترجح فى نظرى من أن مشروعية القتال كانت فى أوائل السنة الثانية على ما سأذكر ، لأن الأعداد التى كان فيها المسلمون فى سراياهم تلك، لم تكن متكافئة مع أعداد المشركين ، ولم تنقل الروايات أن النبى كان يوجههم للقتال ، وإنما للقاء العير واعتراضها ، وإن كان الاعتراض لا يسلم من المناوشة .

وقد رأى هذا الرأى من قبل، الدكتور محمد حسين هيكل ـ رحمه الله تعالى ـ[1] وأن كنت أخالفه فى اعتباره الغزوات التى كانت فى السنة الثانية قبيل بدر من هذا القبيل ، فاحتمال القتال فيها أمر راجح ولاسيما وقد أصبح الجهاد مشروعا للمسلمين .

## مزاعم المستشرقين فى هذه السرايا

زعم بعض المستشرقين أن هذه السرايا الأولى انما كان يقصد بها إلى نهب تجارة القوافل ، فإن النهب كان بعض طباع أهل البادية ، وأن أهل المدينة إنما أغرتهم الغنيمة والسلب باتباع محمد على خلاف عهدهم فى العقبة ، وهذا زعم ليس له ما يؤيده ، ويرد عليه الواقع وسأدع الدكتور محمد حسين هيكل يرد عليهم قال ـ رحمه الله :

---

(١) حياة محمد ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

« وهذا كلام مردود ، لأن أهل المدينة كأهل مكة لم يكونوا أهل بادية يعيشون على السلب والنهب ، وأنهم فوق ذلك ، كان فى طبعهم ما فى طبع من يعيشون على الزراعة من حب الاستقرار ، مما يجعلهم لا يتحركون إلى قتال إلا لدافع قوى . أما المهاجرون فكان من حقهم أن يستخلصوا من أيدى قريش ما أخذ من أموالهم ، لكنهم لم يستعجلوا ذلك قبل بدر ، فلم يكن هو الدافع للسرايا فى الغزوات الاولى ، ثم أن القتال لم يشرع فى الإسلام ولم يقم ( سيدنا ) محمد وأصحابه لهذه الغاية البدوية التى يتوهم المستشرقون ، وانما شرع وقام به ( سيدنا ) محمد وأصحابه حتى لا يفتنهم عن دينهم أحد ، وحتى يكون لهم من حرية الدعوة له ما يشاءون[1]... » .

## أحداث هذا العام

مواليد : وفى شوال من هذه السنة ولد عبد الله بن الزبير ، فكان أول مولود ولد فى الاسلام بالمدينة من المهاجرين ، ولما ولدته السيدة أسماء بنت الصديق ، كبر المسلمون تكبيرة كبيرة عظيمة فرحا بمولده ، لأنه كان قد بلغهم عن اليهود أنهم سحروهم حتى لا يولد لهم بعد هجرتهم ولد ، ومع أن المسلمين ما كانوا يلقون بالا لهذه الترهات ، التى كذبها الواقع الذى لامراء فيه ، ولما ولدته جاءت به إلى رسول الله ﷺ ، فوضعه فى حجره ، ثم حنكه بتمرة ثم دعا له ، وبرك عليه ، وكان أول مولود ولد للأنصار ، بعد الهجرة النعمان بن بشير .

« وفيات » فى هذه السنة توفى كلثوم بن الهدم الأنصارى الأوسى من بنى عمرو بن عوف ، وقد ذكر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، أنه أول من توفى بعد قدوم النبى ﷺ بيسير ، وكان شيخا كبيرا أسلم قبل مقدم

---

(١) حياة محمد ص ٢٤٢ .

النبي ، ولما هاجر النبي ، ونزل بقباء نزل فى بيته ، فكان ينام عنده ليلا ، ويكون مع أصحابه فى النهار فى منزل سعد بن خيثمة ، لأنه كان أعزب لا أهل له ، وقيل : إنه مات قبل بدر بيسير (١) .

وتوفى أيضا أبو أمامة أسعد بن زرارة النجارى الخزرجى ، أحد النقباء الأثنى عشر ليلة العقبة على قومه بنى النجار ، وشهد العقبتين ، وهو أول من أسلم من الخزرج ، وأول من صلى الجمعة بالمدينة قبل هجرة الرسول ﷺ ، وقد مات بالذبحة أو الشرقة والمسلمون يبنون المسجد النبوى ، ولما توفى سأل بنو النجار رسول الله أن يقيم لهم نقيبا فقال : « أنتم أخوالى وأنا بما فيكم ، وأنا نقيبكم » وكره ان يخص بعضهم دون بعض ، فكان من فضل بنى النجار على قومهم أن رسول الله كان نقيبهم ، وقد كان هذا تصرفا حكيما من رسول الله ، فقد كان المتطلعون اليها كثيرون ، وبحسبهم شرفا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم نقيبهم .

## السنة الثانيـــة للهجرة

### تشريع الجهـــاد (٢) فى الإسلام

لقد مكث النبى ﷺ ثلاثة عشر عاما بمكة ، وهو يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد حارب أهل مكة الدعوة الإسلامية حربا لا هوادة فيها ،

---

(١) الاصابة حـ ٤ ص ٣٠٥ : الاستيعاب على هامش الاصابة جـ ٤ ص ٣١٤

(٢) الجهاد بكسر الجيم : أصله لغة :ـ المشقة ، يقال جاهدت جهادا بلغ المشقة ، وشرعاً : بذل الجهد فى قتال الكفار ، وإعلاء كلمة الله ويكون بالنفس ، والمال أو اللسان والقلب وهو المراد هنا ويطلق أيضا على مجاهدة النفس ، والشيطان ، والفساق ، فاما مجاهدة النفس فعلى تعلم أمور الدين ثم على العمل بها ، ثم على تعليمها . وأما مجاهدة الشيطان فعلى دفع مايأتى به من الشبهات ، ومايزينه من الشهوات ، وأما مجاهدة الفساق فباليد ، ثم اللسان ، ثم بالقلب ، وهو أضعف ثمرات الايمان

وآذوا النبى وأصحابه إيذاء تجاوز كل معانى الإنسانية ، ومع هـذا كان المسلمون يزدادون عدداً وصلابة ، وقوة فى التمسك بدينهم ، وكان الله سبحانه وتعالى ينزل على نبيه من الآيات مايقويه ويثبته على الصبر ، وذلك مثل قوله سبحانه . « فاصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون »[١] وقوله « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور »[٢] وقوله « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل »[٣] وقوله « واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا »[٤]

وكان المسلمون كثيراً مايأتون إلى النبى ﷺ ما بين مضروب ومشجوج ومعذب ، شاكين إليه ، فيثبتهم ويضرب لهم الأمثال والعظات ويقول لهم. « اصبروا فانى لم أومر بقتال » حتى هاجر النبى والمسلمون إلى المدينة وتآخوا هم والأنصار ، وأصبح لهم كيان وسلطان، وأضحوا ذوى عدد وقوة ، فلم يكن بد من أن يأذن الله لهم فى القتال.

وأما ما ذكره ابن اسحاق ، فى سيرته من أن الجهاد شرع قبل الهجرة فمن أوهامه .

أول ما نزل فى القتال : وكانت أول آية نزلت فيه هى قوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ،إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »[٥] والإذن لا يكون إلا بعد منع،فأسلوب الآيات يشعر بأنها أول مانزل ، هذا إلى ماروى الحاكم فى المستدرك عن حبر القرآن ابن عباس، أنها أول ما نزل فى القتال ، ورواه عبد الرازق وابن المنذر عن الزهرى .

---

(١) النحل ١٢٧ (٢) الشورى ٤٣ (٣) الأحقاف ٣٥ (٤) المزمل ١٠
(٥) الحج ٣٩ ـ ٤١

وأخرج ابن جرير عن أبى العالية ـ وهو من التابعين ـ أن أول آية نزلت فيه قوله تعالى: « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (١) »

ويرى البعض أن أول ما نزل هو قوله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة ، والانجيل ، والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ واستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم (٢)

والذى نرجحه هو الأول ، وهو الذى يؤيده العقل والنقل ، أما الآية الثانية فهى إلى تنظيم شئون القتال أقرب ، والتنظيم إنما يكون بعد الإذن ، وأما الآية الثالثة فهى إلى الحث والترغيب فى الجهاد أقرب .

متى شرع الجهاد : والذى يترجح عندى بعد النظر والبحث أن يكون تشريع الجهاد فى أوائل السنة الثانية للهجرة ، وذلك لأن المسلمين فى السنة الأولى كانوا مشتغلين بتنظيم أحوالهم الدينية والدنيوية ، كبنائهم المسجد النبوى ، وأمور معايشهم وطرق اكتسابهم ، وتنظيم أحوالهم السياسية كعقد التآخى بينهم ، وموادعتهم اليهود المساكنين لهم فى المدينة ، كى يأمنوا شرورهم ، ولا يقال : إن النبى أرسل سرايا فى السنة الأولى ، لأنها فى نظرنا كانت للمناوشات وإرغامهم على أن يفكروا جديا فى تغيير خطتهم تجاه المسلمين ، وتركهم يبلغون دين ربهم وهم آمنون مطمئنون .

## لم شرع الجهاد فى الإسلام؟

لقد تضمنت آيات سورة الحج المذكورة آنفاً ، الأسباب والأغراض التى اقتضت تشريع الجهاد ، ولن أخرج فى بيان ذلك عن منطق الآية وفحواها ، حتى يكون فى هذا إلقام الحجر لمن يتقول على الإسلام ، ومن هذه الآيات نستخلص الأسباب والحكم الآتية :

---

(١) البقرة ١٩٠ (٢) التوبة ١١١

١ — تأمين دعـوة الإسلام ، الدين العام الخالد ، الذى ارتضاه الله للبشرية جمعاء ، ومساندة هذه الدعوة التحريرية الكبرى ، حتى يتمكن النبى من تبليغ رسالة ربه حسبما صدع به الوحى فى قوله : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته[١] » وقوله « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ[٢] » ، وتأمين المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام عن رضا واطمئنان ، وحمايتهم من أذى المشركين ، ومنحهم حقهم فى الإعلان عن عقيدتهم وهم آمنون ، وليس من الحـق والعدل أن يدافع أصحاب المذاهب الباطلة عن باطلهم بالقوة ، وأن يترك أصحاب العقائد الصحيحة والشريعة السمحة من غير أن يؤذن لهم فى الدفاع عن عقيدتهم ودينهم ، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله « بأنهم ظلموا » وأى ظلم أظلم من أن لا يجد الهداة والمصلحون متنفساً لدعواتهم فى أرض الله الواسعة؟ ومن أن يحجر عليهم فلا يستطيعون الإعلان عن عقائدهم ، ولا إظهار شعائرهم؟ والمظلوم إن لم يجد النصر من أهل الأرض فسيجده لا محالة من السماء وصدق الله « وإن الله على نصرهم لقدير » .

(٢) الانتصاف للمظلوم من الظالم ، والانتصار للنفس ، فها هم المشركون قد آذوا المسلمين ، وحاولوا ما وسعهم الجهد أن يفتنوهم عن دينهم ، فلما لم يفلحوا أخرجوهم من ديارهم ، وأهليهم وأموالهم . والأنتصار للنفس أمر فطرى ، وحق من حقوق الإنسان ، قررته الشرائع السماوية والقوانين الأرضية ، وقد قرر الله هذه الحقيقة الإنسانية فى قـوله سبحانه : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم[٣] » وقد أمر الله المسلمين بالصبر على أذى المشركين والتسامح معهم طوال العهد المكى وأوائل العهد المدنى ؛ عسى أن يرعووا ، ولكنهم لم يزدادوا إلا بطراً وظلماً واستعلاء فى الأرض ، فأما إذا لم تفلح معهم سياسة المهادنة والتسامح ، فلتقابل

---

(١) المائدة ٦٧ . (٢) الأنعام ٤٩ . (٣) الشورى ٤١ — ٤٢

القوة بالقوة ، والسلاح بالسلاح ، وإلا صار السكوت والاغضاء عجزاً وضعفاً ومهانة .

وليس من العدل والحق أن يترك المشركون يمرحون فى الأرض ، ويجوبون الجزيرة من الجنوب إلى الشمال ، ولا يؤذن للمسلمين فى محاربتهم من جنس ما حاربوهم به ، وأن يقطعوا عليهم تجارتهم ، ويأخذوا منها ما تصل إليه أيديهم نظير ما اغتصبوا من أموالهم ، وأن يضيقوا عليهم مثل ماضيقوا عليهم وصدق الله حيث يقول : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء... سيئة سيئة مثلها »(١) وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى هذا بقوله « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

(٣) إن فى تشريع الجهاد نشر للسلام والأمان فى الأرض ، وتأمين كل ذى دين على دينه ، واحترام مقدسات الأديان فى الأرض . والإسلام هو الدين الذى ألزم معتنقيه بالإيمان بجميع رسل الله ، وجميع كتبه المنزلة من عنده : وإذا كان اعتبر القرآن هو الشاهد والمهيمن على الكتب السماوية كلها ، فلأنه هو الكتاب الذى سلم من التحريف والتبديل ، لأنه نقل بأقوى طرق النقل والإثبات ، وهو التواتر المفيد للقطع واليقين .

فالمسلمون حينما تكون لهم السلطة والغلبة فى الأرض ، فلا خشية على أهل الأديان الأخرى منهم ، لأن لهم من وصايا دينهم ما يعصمهم من الظلم والجور والتعنت ، ولا كذلك الحال لو ساد غيرهم ، وهذا ما صدقه الواقع والتاريخ الصادق ، فحينما كان السلطان للمسلمين فى الأرض ، لم يضار أحد من أهل الذمة فى دينه ، ولا فى دنياه ولا فى نفس ولا عرض ولا مال ، ، فلما ذهبت ريحهم ، وغلبوا على أمرهم ذاقوا من أعدائهم ألوان العذاب من تقتيل وتخريب وانتهاك للحرمات .

---

(١) الشورى ٣٩ ، ٤٠ (٢) الحج ٤٠

وليس أدل على ذلك من أن الاسلام قبل من أهل الكتاب إما أن يسلموا وإما أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية ، وهى ليست للاكراه على الدخول فى الاسلام أو المضايقة ، ولكنها نظير ما تقوم به الدولة الاسلامية من رعاية وحماية لأهل الأديان الأخرى ، وما تؤديه لهم من خدمات اجتماعية واقتصادية ، وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الغرض النبيل فى قوله سبحانه « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع ، وصلوات ، ومساجد[1] يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

٤ — إن الإسلام بما خصه الله به من عموم الدعوة للناس أجمعين ، وبما جاء به من عقائد وتشريعات وآداب ، اكسبته الصلاحية لكل زمان ومكان ، هو الحقيق بأن يسود فى الأرض ، والمسلمون المتمسكون به هم الاحق بالسيادة والاستخلاف فى الأرض ، لأنهم هم الذين ينشرون فيها الهدى والحق ، والعدل والرحمة والبر والخير ، وهم الذين يأمرون بالمعروف ، ويتناهون عن المنكر . وهما أساس كل خير وإصلاح . وليس من شك فى أن هذا يتطلب الجهاد والكفاح وبذل النفس والمال فى سبيل هذه الغاية الشريفة . وقد أشار الله إلى هذا فى قوله : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » وقد أشار الله سبحانه بهذه الأصول إلى ماعداها ، فالصلاة رأس العبادات البدنية التى تزكى النفس وتحسن علاقة المخلوق بالخالق ، والانسان بأخيه الإنسان . والزكاة رأس العبادات المالية التى تقيم المجتمع على أساس من التعاون والتكافل . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أساس كل خير دينى أو دنيوى ، وهما دعامتا كل إصلاح ، ودرء كل شر وفساد فى الأرض .

---

(١) الصوامع للرهبان ، البيع متعبدات اليهود والنصارى وهى الكنائس والصلوات متعبدات النصارى أيضا والمساجد : متعبدات المسلمين .

# حكم الجهاد فى الاسلام

الجهاد فى الاسلام من الفروض الكفائية عند جمهور أهل العلم من السلف والخلف ، ومعنى هذا أنه إذا قام به من يكفى فى دفع غائلة الاعداء ، ونصر الإسلام سقط عن الباقين ، ولا يكونون آثمين ، وإن لم يقم به من يكفى أثمت الأمة كلها ، ولا يرتفع هذا الأثم إلا بخروج من فيهم الكفاية ، ولو أدى ذلك إلى تجنيد الجميع. والدليل على هذا قول الله تعالى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »[1] ويصير الجهاد فرض عين فى أحوال ثلاثة :

الأولى : إذا التقى الجيشان ، وتقابل الصفان تعين الجهاد على من حضر وحرم عليه الفرار، إلا أن يكون ذلك لمكيدة أو خدعة حربية ، أو لأخذ مكان أفضل وأحسن ، أو للانحياز إلى فئة أخرى من الجيش قال جل شأنه : « يا أيها الذى آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »[2] وقال « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال، أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأويه جهنم وبئس المصير »[3] وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل : ماهن

---

(١) التوبة ١٢٢ يعنى ما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد جميعاً بل لتنفر طائفة، ولتقم طائفة مع النبى ليتفقهوا فى الدين ويتلقوا القرآن حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع ، وما تجدد نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن وما سمعوه من الحديث .

(٢) الأنفال ٤٥ .

(٣) الانفال ١٥ ، ١٦

يارسول الله ؟ قال « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

والفرار كبيرة ، مهما كان عدد الأعداء ، وإلى هذا ذهب بعض العلماء .

ومنهم من يرى ذلك إذا لم يزد الاعداء عن ضعف عدد المسلمين ، فإن زادوا فلا ، وذلك لقوله تعالى : « الآن خفف[1] الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين »[2] والرأى الأول هو الذى يؤيده ما كان عليه أصحاب النبى ﷺ من الثبات والصبر ، وعدم الفرار مهما بلغ جنود الاعداء ، فقد صمد المسلمون فى « مؤتة » وهم ثلاثة آلاف أمام مائتى ألف من الروم ، وأحلافهم من العرب من لخم ، وجذام ولم يروا الفرار .

وليس من الفرار ما يراه قائد الجيش من الانسحاب الكلى ، أو الجزئى حتى لا يحاط به أو يفنى الجيش عن آخره أو لتنظيمه ، وإنما ذلك داخل فى قوله سبحانه « إلا محترفاً لقتال أو متحيزا إلى فئة » وذلك كما حدث من سيف الله خالد بن الوليد فى « مؤتة » ولذلك لما عير أهل المدينة الجيش بقولهم لهم : يا فرار ، قال النبى ﷺ مدافعاً عنهم : « بل هم الكرار » !!

( الثانية ) إذا هاجم الكفار بلدا من بلاد الإسلام أو نزلوا فيه تعين على أهله قتالهم ودفعهم بما استطاعوا ، ووجب على إخوانهم المسلمين فى كل قطر وبلد أن يخفوا إليهم بالعون والمساعدة أداء لحق الاخوة الإسلامية ففى الحديث الذى رواه مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « المسلم أخ المسلم لا يظلمه

---

(١) وقد كان فى أول الامر يجب الثبات إذا لم يزد جيش الاعداء عن عشرة أضعاف جيش المسلمين .

(٢) الأنفال / ٦٦

ولا يخذله » وفى رواية أخرى للبخارى « ولا يسلمه » أى لا يخذله إذا استنصر به ، ولا يسلمه أو يتركه لاعدائه ينالون منه .

( الثالثة ) إذا استنفر ولى الأمر — خليفة أو ملكا أو رئيسا — قوما أو أقواما لزمهم الخروج وتعين عليهم الجهاد وذلك لقول الحق تبارك وتعالى « يأيها الذين آمنو مالكم إذا قيل لكم أنفروا فى سبيل الله إثا قلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير »[1] وفى الحديث الصحيح المتفق عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » وفى معنى الاستنفار العام إعلان التعبئة العامة فى العرف والحديث ودعوة الأمة للجهاد ، وقد يكون الاستنفار خاصا بفئة ، فيكون تعبئة جزئية .

من يرى أن الجهاد فرض عين : ومن السلف الصالح من كان يرى أن الجهاد فرض عين على أى حال وفى جميع الازمان ، ويستدلون بقول الحق تبارك وتعالى . « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »[2] أى شبابا وشيبا ، ورجالا وركبانا ، وأغنياء ، وفقراء ، وأقوياء وضعفاء .

مثل عليا للحرص على الجهاد :

وممن كان يرى هذا الرأى السادة الاخيار أبو أيوب الانصارى ، وأبو طلحة الانصارى ، والمقداد بن الاسود من الصحابة ، وسعيد بن المسيب من

---

(١) التوبة ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) التوبة ٤١ .

التابعين ، وقد كان أبو أيوب يستدل بالآية السابقة ، وكان يرى أن الرغبة عن الجهاد ، والاشتغال بالأهل والمال إلقاء بالنفس إلى التهلكة مستدلا بقول الله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »(١) .

وقد لزم رضى الله عنه الجهاد فى حياة الرسول وبعده ، ولم يتخلف عن غزوة قط ، ولما حدثت الفتنة بين على ومعاوية انحاز إلى جانب على ، وشهد معه قتال الخوارج ، ولما أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لغزو القسطنطينية تخرج فى أول الأمر أن يخرج فى جيش تحت إمرة يزيد ، ولكن نفسه التواقة للجهاد نازعته إليه وقال : « ما ضرنى من استعمل على الجيش ، فلحق بهم وأبلى بلاء حسنا ، ثم مرض فعاده يزيد فقال له : ماحاجتك ؟ قال : حاجتى إذا أنامت ، فاركب بى ماوجدت مساغا فى أرض العدو ، فإذا لم تجد فادفنى ثم أرجع ، فلما توفى صلى عليه يزيد والمسلمون ، وفعلوا به ما أوصى به ، فدفن بجوار أسوار القسطنطينية شاهدا على لون رائع من ألوان البطولة الإسلامية الفذة ، وكانت وفاته سنة اثنتين وخمسين ، فرضى الله عنه وأرضاه .

وروى أن أبا طلحة الأنصارى صاحب رسول الله وأحد الذين أحاطوا بالنبى يوم أحد ، قرأ سورة التوبة وهو شيخ كبير فأتى على هذه الآية « انفروا خفافاً وثقالاً ... » فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبابا جهزونى يا بنى ، فقال بنوه . يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبى فركب البحر غازيا ، فمات ، فلم يجدوا جزيرة يدفنونه بها إلا بعد تسعة أيام ولم يتغير ، فدفنوه بها .

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ١ ص ٤٣٨ ط المنار .

وروى ابن جرير الطبرى عن أبى راشد أنه رأى المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ بحمص يريد الغزو ـ وكان شيخا كبيرا هما قد سقط حاجباه على عينيه ـ فقال له : لقد أعذر الله تعالى إليك ، فقال : أبت علينا سورة البحوث يريد هذه الآيه من سورة التوبة .

وقال الامام الزهرى . خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له : إنك عليل صاحب ضر ، فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فان لم يمكنى الحرب كثرت السواد ، وحفظت المتاع[1]

وبحسب هؤلاء السادة الأمجاد أنهم مجتهدون فى فهم الآية[2] فان أصابوا فلهم أجران ، وإن أخطأوا فلهم أجر ، وبحسبهم فضلا ومثوبة هذه النيه الصادقة ، وبهؤلاء الأبطال المغاوير وأمثالهم ـ وما أكثرهم ـ مكن الله للمسلمين فى الأرض ، وانتشر الاسلام حتى بلغ المشرق والمغرب .

## الترغيب فى الجهاد والاستشهاد

لما كان الجهاد هو الوسيلة لحماية العقيدة ، وتأمين الدعوة ، ونشر الشريعة شريعة التوحيد والحق والعدل والخير، رغب الله ورسوله فيه أيما ترغيب.

ففى الكتاب الكريم يقول الله : إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله . فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله . فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ، وقال مبينا الفرق ما بين المجاهدين والقاعدين

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٤ ص ١٧٤ ، ج ١ ص ٤٢٨

(٢) ويرى ابن عباس وغيره أن حكم هذه الاية كان فى مبدأ الأمر ثم نسخت بقوله تعالى ( فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ) وقوله ( ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج.. )

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما[١] » وقال مرشدا إلى أعظم طرق الخير « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم ، وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »[٢]

وقال مبينا أن القتال وإن كان مكروها للنفس بحسب الفطرة ، لكنه قد يكون فيه الخير الكثير « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون »[٣]

وإذا جاز لغير المسلم أن يخشى الجهاد أو يفرط فيه فلا يجوز ذلك المسلم ، إذ مآل الجهاد له إما نصر وغنيمة ، وإما أجر وشهادة ، وكلا الأمرين غنم وجميل قال سبحانه : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون[٤] .

وفى السنة النبوية الكثير من الأحاديث المرغبة فى الجهاد ، المنفرة من التفريط فيه ، ففى الصحيحين قال النبى ﷺ « تضمن الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه إلا جهاد فى سبيلى ، وإيمان بى وبرسلى أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه ، بما نال من أجر أو غنيمة ، والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ماقعدت خلف سرية تغزو فى سبيل الله ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى

---

(١) النساء ٩٥ والمراد بالقاعدين أولا أصحاب الاعذار ، وبالقاعدين ثانيا من لا عذر لهم

(٢) الصف ١٠ ، ١١ (٣) البقرة ٢١٦ (٤) التوبه ٥٢ .

نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله ، فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » وفى صحيح البخارى مرفوعا « رباط[1] يوم فى سبيل الله خير من الدنيا ومافيها ، وموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » وفى صحيح مسلم مرفوعا « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه » وعين المرابط التى تبيت وتحرس ، وتراقب الأعداء فى سبيل الله ، ولا تذوق طعم الكرى هى عين أوجب الله لها الجنة ففى الحديث الذى رواه الترمذى مرفوعا « عينان لا تمسها النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » حديث حسن ، وفى مواقف الرسول فى الغزوات مواطن مشهودة تشجع الجبان ، وتجرىء الشجاع حتى تصير منه ليثا هصورا .

## الاستشهاد فى سبيل الله :

وكذلك رغب الإسلام فى الاستشهاد فى سبيل الله ، ففى الكتاب الكريم « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون[2] » وهى حياة برزخية روحية تتمتع فيها الروح بشتى أنواع الملذات الحسية والمعنوية[3] ، وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال : « أرواحهم فى جوف طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع الله عليهم إطلاعة ، فقال : هل تشتهون شيئا : فقالوا :

---

(١) الرباط والمرابطة الاقامة فى الثغور وهى : المواضع التى يخاف منها هجوم الأعداء كالموانى والمطارات ونقط المراقبة .

(٢) آل عمران ١٦٩ ، ١٧٠ (٣) وهذه الحياة البرزخية فوق الحياة الدنيوية لتجرد الأرواح فيها من شوائب المادة ، وخلوها من اللاء ، والآلام ، والمنغصات التى لا تسلم منها الحياة الدنيوية ودون الحياة الأخروية لعودة الأرواح فيها إلى أجسادها ، وكمال التمتع فيها باللذائذ الروحية والجسمانية .

أى شيء نشتهى ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا » وفى مسند الإمام أحمد نحو حديث مسلم وفى آخره « فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : من يبلغ عنا إخواننا أنا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال سبحانه: « ولا تحسبن ... » الآية فلاتعجب وهذا موقف القرآن والسنة من الجهاد والاستشهاد أن ضرب المسلمون الأولون فى باب الجهاد وحب الاستشهاد مثلا عليا نادرة ، وأن جادوا بأرواحهم طيبة بذلك نفوسهم ، وان حرصوا على الموت أكثر من حرصهم على الحياة ، وكانت لهم فى هذا المضمار بطولات لم يعرفها التاريخ لغيرهم ، وسيأتيك من أنباء هذه البطولات الشيء الكثير .

## الأطوار التى مر بها الجهاد

الطور الأول : لقد كان القتال فى هذا الدور مقصورا على القرشيين الذين عذبوهم ، واخرجوهم من ديارهم واموالهم ، والذين لايزالون يعذبون المستضعفين الذين لم يستطيعوا أن يهاجروا ، أما من لم يحارب المسلمين ولم يتسبب فى إخراجهم فلا يحارب ، وهذا هو ماصدعت به الآية الكريمة «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولاتقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين » إلى قوله « فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »(١)

الثانى : إن بعض القبائل كانوا أحلافا لقريش ، أو صاروا أحلافا

---

(١) البقرة ١٩٠ ـ ١٩٣ .

لما بعد هجرة الرسول فحملوا على المسلمين تمشيا مع سياسة قريش العامة ، أو أخذا بثأرها ، ومن هؤلاء من فكروا فى مهاجمة المدينة ، أو هاجموها بالفعل ، كما فعل كرز بن جابر الفهرى فقد أغار على سرح المدينة ، وكان ذلك سبباً فى خروج المسلمين إليه فى غزوة بدر الأولى فلم يدركوه ، ومنهم من تحرشوا بالمسلمين أو قتلوا بعوثا منهم غدرا وغيلة كما حدث فى سريتى الرجيع والقراء فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبادر إلى لقائهم أو يرسل إليهم السرايا والبعوث ليعاقبهم على بغيهم ، ويرد عليهم كيدهم ، ومن هذه القبائل : بنو غطفان ، وبنو سليم ، وبنو عامر والأحابيش أحلاف قريش ، وقبائل نجد وثقيف ، وقد أفادت حروبه مع هؤلاء كثيراً فقد اطلعوا على الإسلام ، وعرفوا سماحته ، فأسلم منهم الكثيرون ، وصاروا أعواناً للاسلام بعد أن كانوا حرباً عليه .

الثالث : لما تمالأ المشركون فى مكة وخارجها على المسلمين وصاروا يداً واحدة فى قتالهم لم يكن بد من قتال هؤلاء جميعاً ، كما يقاتلون جميعاً المسلمين وهذا هو ما أراده الله سبحانه بقوله : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة[1] » وبذلك صار الجهاد عاماً لكل من ليس له كتاب سماوى ، وفى هذا الدور من الجهاد يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله » رواه البخارى[2] .

الرابع : كان النبى صلى الله عليه وسلم قد وادع اليهود وعاهدهم ، وبذلك أمنهم على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا العهد ، وتمالأوا مع المشركين وصاروا يحرضونهم على قتال النبى كما حدث فى أحد وغيرها ، بل حاولوا طعن المسلمين فى ظهورهم كما حدث فى غزوة الأحزاب ، وطالما سعوا فى إفساد ما بين الأوس والخزرج ، وإفساد ما بين المهاجرين

---

(١) التوبة / ٣٦ . (٢) صحيح البخارى كتاب الايمان — باب « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

والأنصار ، وبذلك أصبحوا شوكة فى ظهور المسلمين ، وجراثيم إفساد فى المجتمع المدنى لا بد من القضاء عليها ، فلذلك أمر الله سبحانه نبيه بقتالهم بعد إيذانهم بنقض ما بينه وبينهم من عهود بقوله سبحانه « وإما تخافن من قوم خيانة ، فأنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » وهو أدب من آداب الحرب فى الإسلام لم تصل إليه المدنية فى القرن العشرين ! ! وقد قتل المسلمون البعض ، وأجلوا البعض الآخر عن المدينة ، ولم يلبثوا أن قطع دابرهم من جزيرة العرب كلها ، وأراح الله منهم العباد والبلاد .

الخامس : لما فتح المسلمون مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ودانت لهم الطائف وما حولها ، ونجد وما جاورها لم تلبث الجزيرة العربية أن صارت مؤمنة موحدة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أرسل كتبا إلى الملوك والأمراء فى الهدنة ما بين الحديبية والفتح ، عارضاً عليهم الدخول فى الإسلام ، فمنهم من أسلم ، ومنهم من أبى وتوعد ، وبذلك أصبحت دعوة الإسلام معروفة عند الدول المتاخمة للجزيرة ، والمعروفة للمسلمين وقتها ، ثم تحفزت الروم لغزو بلاد المسلمين ، فلما علم الرسول جمع الجموع وخرج إليهم فلم يجد أحداً ، فرجع بعد أن أراهم أن سلطان الله فى الأرض لا يرهب أحداً ، وهذا الدور من أهم أدوار الكفاح والجهاد ، فقد انتقلت الدعوة إلى العالمية ، وانتقل ميدان الجهاد إلى خارج الجزيرة ، وحدثت بعد وفاة الرسول الوقائع المشهورة بين الدولة الناشئة ودولتى الفرس والروم ، وتمت الفتوحات العظيمة فى شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها ، وتحققت سنة الله فى الكون من تغليب المؤمنين على الكافرين ، والمحقين على المبطلين وصدق الله « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين[1] » « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون[2] » .

---

(١) القصص / ٥ .  (٢) الأنبياء / ١٠٥ .

# « رد الفرية الكبرى »

من الأكاذيب التى يرددها أعداء الإسلام والمسلمين ، أن الإسلام قام على السيف ، وأنه لم يدخل فيه معتنقوه بطريق الطواعية والأختيار ، وإنما دخلوا فيه بالقهر ، والإكراه ، وقد اتخذوا من تشريع الجهاد فى الإسلام، وسيلة لهذا التجنى الكاذب الآثم ، وشتان ما بين تشريع الجهاد ، وما بين إكراه الناس على الإسلام ، فإن تشريع الجهاد لم يكن لهذا ، وإنما كان لحكم سامية ، وأغراض شريفة كما علمت آنفا .

وهذه الدعوى الباطلة الظالمة ، كثيرا ما يرددها المبشرون ، والمستشرقون الذين يتأكلون من الطعن فى الإسلام وفى نبى الاسلام ، ويسرفون فى الكذب والبهتان ، فيتصايحون قائلين : أرأيتم ؟!! هذا محمد يدعو الى الحرب ، وإلى الجهاد فى سبيل الله ، أى إلى إكراه الناس بالسيف ، على الدخول فى الاسلام ، وهذا على حين تنكر المسيحية القتال ، وتمقت الحرب ، وتدعو إلى السلام وتنادى، بالتسامح ، وتربط بين الناس برابطة الاخاء فى الله وفى السيد المسيح عليه السلام ،

وقد فطن لسخف هذا الادعاء كاتب غربى كبير هو « توماس كارليل ، صاحب كتاب الأبطال وعبادة البطولة فإنه اتخذ نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام مثلا لبطولة النبوة ، وقال مامعناه : إن اتهامه — أى سيدنا محمد — بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم، إذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس، أو يستجيبوا له ، فإذا آمن به من لا يقدرون على حرب خصومهم ، فقد آمنوا به طائعين ، مصدقين وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدر واعليها . .

ومن الأنصاف أن نقول : أن بعض المستشرقين لم يؤمن بهذه الفرية ، ويرى أن

---

(١) من حيا محمد لهيكل ص ٢٤٦

(٢) حقائق الإسلام ، وأباطيل خصومه للعقاد ص ٢٢٧ ط الهلال

الجهاد كان لحماية الدعوة ، ورد العدوان ، وأنه لا إكراه فى الدين ، وإليك ما كتبه « أميل در منغم » فى هذا قال[١] .

« لم يشرع الجهاد لهداية الناس بالسيف ، ففى القرآن «لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » والقرآن يأمر المسلمين بالأعتدال ، وبأن لا يبدءوا بالاعتداء ، وما تجده فى القرآن من الآيات المتتابعة ، أو المبثوثة ، أو المبعثرة فى سوره ، حول الجهاد ، فيشير إلى حوادث ذلك الزمن الراهنة وإلى مايجب على محمد أن يسلكه هو وأصحابه فى المغازى تبعاً لتبدل الأحوال ، ولذلك نرى من اللغو جعل تلك الآيات شاملة لأحوال أخرى ، واستخراج مبدأ عام[٢] .

وهاتان الشهادتان الحقتان من« كارليل » و« در منغم » لهما قيمتهما العلمية فى هذا الموضوع الخطير ، إذ أنهما من رجلين لا يدينان بالإسلام .

وأحب قبل الشروع فى رد هذه الفرية ، أن أبين كذب مزاعمهم فى أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه ، وتمقت الحرب ، وتدعو إلى السلام ، من كلام السيد المسيح نفسه قال : « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً ، وإنى جئت لافرق الإنسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنة ضد حماتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته . من أحب أباً،أو أما أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى،ومن لا يأخذ صليبه ، ويتبعنى فلا يستحقنى ، من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلى يجدها[٣] »فما رأى المبشرين والمستشرقين فى هذا ؟ أنصدقهم ونكذب الإنجيل؟أم نكذبهم ونصدق الإنجيل ؟ ! الجواب معروف ولاريب.

وأما التوراه فشواهد تشريع القتال فيها أكثر من أن يحصى، على مافيه من

---

(١) حياه محمد لدر منغم ص ١٦٦ ترجمة عادل زعيتر .

(٢) وذلك مثل قوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ... » الأنفال ٣٩، وقوله : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ... » التوبة/٣٦ .

(٣) إنجيل متى الاصحاح العاشر فقرة ٣٥ وما بعدها .

الصرامة وبلوغ الغاية فى الشدة ، مما يدل دلالة قاطعة على الفرق ما بين آداب الحرب فى الإسلام ، وغيره من الأديان(١) .

وليس أدل على افترائهم من أن تاريخ الأمم المسيحية فى القديم والحديث ، شاهد عدل على رد دعواهم ، فمنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا ، خضبت أقطار الأرض جميها بالدماء باسم السيد المسيح .

خضبها الرومان ، وخضبتها أمم أوروباكلها ، والحروب الصليبية إنما أذكى المسيحيون — ولم يذك المسلمون — لهيبها ، ولقد ظلت الجيوش ، باسم الصليب تنحدر من أوروبا خلال مئات السنين ، قاصدة أقطار الشرق الإسلامية ، تقاتل ، وتحارب ، وتريق الدماء ، وفى كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح — كما يزعمون — يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس ، والبلاد المقدسة عند المسيحية ، وتخريب بلاد الإسلام .

أفكان هؤلاء البابوات جميعا هراطقة ، وكانت مسيحيتهم زائفة ؟ ! أم كانوا أدعياء جهالا ، لا يعرفون أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه ؟ ! أجيبونا أيها المبشرون ، والمستشرقون المتعصبون ! !

فإن قالوا : تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام ، فلا يحتج على المسيحية بها فماذا يقولون فى هذا القرن العشرين ، الذى نعيش ، والذى يسمونه عصر الحضارة الإنسانية الراقية ؟ !

لقد شهد هذا القرن من الحروب التى قامت بها الدول المسيحية ، ما شهدت تلك العصور الوسطى المظلمة بل وأشد وأقسى ! ! ألم يقف « اللورد اللنبى » ممثل الحلفاء : انجلترا وفرنسا ، وإيطاليا ، ورومانيا ، وأمريكا فى بيت المقدس فى سنة ( ١٩١٨ ) حين استولى عليه فى أخريات الحرب الكبرى الأولى قائلا : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » ؟ !

وألم يقف القائد الفرنسى « جورو » ممثل الحلفاء أيضا — وقد دخل

---

(١) أدلة اليقين فى الرد على مطاعن المبشرين ص ٢٠٩ .

دمشق — أمام قبر البطل المسلم العربى « صلاح الدين الأيوبى » قائلا : « لقد عدنا ياصلاح الدين » ؟!!

إن الإسلام إنما غزا القلوب ، وأسر النفوس بسماحة تعاليمه : فى العقيدة ، والعبادات ، والأخلاق ، والمعاملات ، وآدابه فى السلم والحرب ، وسياسته الممثلة فى عدل الحاكم ، وإنصاف المحكومين ، والرحمة الفائقة ، والإنسانية المهذبة فى الغزوات والفتوح ، إنه دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، فلا عجب ، أن أسرعت إلى اعتناقه النفوس ، واستجابت إليه الفطرة السليمة ، وتحملت فى سبيله ما تحملت ، فاستعذبت العذاب ، واستحلت المر ، واستسهلت الصعب ، وركبت الوعر ، وضحت بكل عزيز وغال فى سبيله .

والآن وقد فرغنا من تفنيد ما بنوا عليه زعمهم الكاذب ، من دعوة الإسلام إلى الجهاد ، وتحريم المسيحية له ، فلنأخذ فى تفنيد هذه الدعوى الظالمة من واقع تاريخ الدعوة المحمدية ، قبل فرض الجهاد ، ومن حكم تشريعه فى الإسلام ، ومن نصوص القرآن والسنة المتكاثرة ، ومن سيرة النبى ﷺ ، وسير خلفائه الراشدين وأصحابه ، ومن واقع تاريخ المسلمين اليوم ، وما تعرضوا له من اضطهاد ، وحروب ومظالم ، لم تزدهم إلا صلابة فى التمسك بالإسلام ، والعض عليه بالنواجذ ، فأقول وبالله التوفيق .

(١) لقد مكث رسول ﷺ ، وهو يدعو إلى الله بالحجة والموعظة الحسنة ، وقد دخل فى الإسلام فى هذه الفترة من الدعوة خيار المسلمين من الاشراف وغيرهم ، وكان الداخلون أغلبهم من الفقراء ولم يكن عند رسول الله من الثراء ما يغرى هؤلاء ، وهذا أمر لا يختلف فيه إثنان ، وقد تحمل المسلمون ، ولا سيما الفقراء والعبيد ومن لا عصبية له منهم من صنوف العذاب والبلاء ألوانا ، فما صرفهم ذلك عن دينهم ، وما تزعزعت عقيدتهم ، بل زادهم ذلك صلابة فى الحق ، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقرهم ، وما سمعنا أن أحدا منهم ارتد سخطا عن دينه ، أو أغرته مغريات المشركين فى النكوص عنه ، وإنما كانوا كالذهب الإبريز لا تزيده النار إلا صفاء ونقاء ، وكالحديد لا يزيده الصهر إلا قوة وصلابة ، بل بلغ من بعضهم أنهم وجدوا فى العذاب عذوبة ، وفى المرارة حلاوة .

ثم كان أن هاجر بعضهم إلى بلاد الحبشة هجرتين ، ثم هاجروا جميعا الهجرة الكبرى إلى المدينة ، تاركين الأهل والولد والمال والوطن ، متحملين آلام الاغتراب ، ومرارة الفاقة والحرمان. واستمر الرسول بالمدينة عاما وبعض العام يدعو إلى الله بالحكمة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، وقد دخل في الاسلام من أهل المدينة قبل الهجرة وبعدها ، عدد كثير عن رضا واقتناع ويقين واعتقاد ، وما يكون لإنسان يحترم عقله ، ويذعن للمقررات التاريخية الثابتة أن يزعم أنه كان للنبي والمسلمين في هذه الأربعة عشر عاما أو تزيد حول أو قوة ، ترغم أحدا على الدخول في الإسلام إلا إذا ألغى عقله وهدم التاريخ الصحيح .

( ٢ ) إن تشريع الجهاد في الإسلام لم يكن لإرغام أحد على الدخول في الاسلام كما زعموا ، وإنما كان للدفاع عن العقيدة ، وتأمين سبلها ووسائلها وتأمين المعتنقين للاسلام ، ورد الظلم والعدوان ، وإقامة معالم الحق ونشر عبادة الله في الأرض ، وبحسبنا في هذا المقام ماذكرته آنفا في حكمة مشروعية الجهاد من نص القرآن ، وما عرضت له في الأطوار التي مر بها الجهاد ، من أن القتال كان للمقاتلين والمعتدين ، فلما تمالأ المشركون على المسلمين أمرهم الله بقتالهم عامة ، ثم ماذا يقول هؤلاء المغرضون في قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »[1] فالإسلام لم يقف عند حد أن من سالمنا سالمناه ، بل لم يمنع من البر بهم والعدل معهم ، وعدم الجور عليهم ، وكذلك كان موقف القرآن كريما جدا مع الذين قاتلوا المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ، أو ساعدوا عليه فلم يأمر بظلمهم أو البغي عليهم ، وإنما نهى عن توليهم بافشاء الأسرار إليهم أو نصرتهم وإخلاص الود لهم ، فإن حاربونا حاربناهم ، وان كفوا عنا كففنا عنهم وصدق الله « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا...

---

(١) الممتحنة / ٨ ، ٩

(٣) نصوص القرآن والسنة الصحيحة ترد ان على هذا الزعم وتكذبانه .

وقد صرح الوحى بذلك فى غير ما آية قال تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم(١) » وإليك ماذكره ثقاة المفسرين فى سبب نزول هذه الآية . روى أنه كان لرجل من الأنصار من بنى سالم ابن عوف ابنان متنصران قبل مبعث النبى ﷺ ، ثم قدما المدينة فى نفر من النصارى يحملون الزيت فلزمهما أبوهما وقال : لا أدعكما حتى تسلما ، فاختصموا إلى النبى ﷺ وقال : يارسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟فأنزل الله تعالى : « لا إكراه فى الدين ... » فخلى سبيلهما ، وقال الزهرى : سألت زيد بن أسلم عن قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين » قال : كان رسول الله — ﷺ بمكة عشر سنين لا يكره أحدا فى الدين فأبى المشركون إلا أن يقاتلوه فاستأذن الله فى قتالهم فأذن له . ومعنى « لا إكراه فى الدين » أى دين الإسلام ليس فيه إكراه عليه .

وقال سبحانه : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين(٢) » وقال : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر(٣) فالآية نص فى أن من اختار الإيمان فباختياره ، ومن اختار الكفر فباختياره فلا إكراه ولكن مع هذا التخيير فالله سبحانه يحب الإيمان ويرضاه ويدعو إليه ، ويكره الكفر ويحذر منه ، ونصوص القرآن حافلة فى هذا المعنى ، ولهذا عقب الله التخيير بقوله محذراً ومنفرا « إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ... » والكفر رأس الظلم ، فلا يتوهمن أحد أن حمل الآية على التخيير وعدم الإكراه يشعر بإباحة الكفر أو الرضا حاشا لله أن يكون هذا ، ولعل خوف هذا التوهم هو الذى حدا كثيراً من المفسرين على حمل الآية على التهديد ، والوعيد حتى مثل علماء البلاغة

---

(١) البقرة ٢٥٦

(٢) يونس ٩٩ (٣) الكهف ٢٩

للأمر الذى يراد به التهديد بهذه الآية ، فالآية بنصها تخيير ، ولكنه تخيير يستلزم تهديداً ووعيداً لا محالة فى حال اختيار الكفر على الأيمان وهى نصوص صريحة فى عدم الإكراه على الإسلام .

وأما السنة فقد جاءت مؤيدة لما جاء به القرآن وإليك طرفا منها :

روى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده أن النبى ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية ، أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ،(١) ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، أو خلال ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ... فان هم أبوا ، فسلهم الجزية ، فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فأن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم (٢) وهكذا ترى أن النبى لم يأمر بالقتال إلا بعد أن تستنفذ الوسائل السلمية ، وليس بعد استنفادها إلا أنهم قوم مفسدون أو يريدون الحرب . وقد بينت فيما سبق أن الجزية ليست للارغام على الاسلام ، وإنما هى نظير حمايتهم وتأمينهم ، وتقديم شتى الخدمات لهم وليس أدل على هذا مما رواه البلاذرى فى فتوح البلدان أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لواقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الجزية وقالوا : « قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم » فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل — مع انه على دينهم — عن

---

(١) الغلول : الخيانة فى الغنيمة ، الغدر : عدم الوفاء بالعهود فى الحروب المثلة : تقطيع أعضاء المقتول ، وتشويه جسده بعد القتل أو قبله .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٢ ص ٣٧ ، ٣٩ .

المدينة مع عاملكم ؛ وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود

وقالوا : إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فإنا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد[١] . .

وقد يقول قائل فما تقول فى الحديث الشريف « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ... ؟

قلنا : المراد بالحديث فئة خاصة ، وهم وثنيو العرب ، أما غيرهم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم على التخيير بين الأمور الثلاثة التى نص عليها حديث مسلم .

على أن بعض كبار الأئمة كمالك والأوزاعى ، ومن رأى رأيهما ، يرون أن حكم مشركى العرب كحكم غيرهم فى التخيير بين الثلاثة : الاسلام ، أو الجزية أو القتال ، واستدلوا بحديث مسلم السابق ويقولون : إن حديث « أمرت أن أقاتل الناس » منسوخ أو أن فيه إيجازاً واقتصاراً على بعض الأمور الثلاثة[٢] .

وإذا نظرنا بعين الانصاف إلى الذين حملوا حديث المقاتلة على وثنيى العرب لانجده يجافى الحق والعدل ، فهؤلاء الوثنيون الذين بقوا على شركهم لم يدعوا وسيلة من وسائل الصد عن الاسلام الا فعلوها ، ثم هم أعرف الناس بصدق الرسول فهو عربى من أنفسهم ، والقرآن عربى بلغتهم ، فالحق بالنسبة إليهم واضح ظاهر ، فلم يبق الا أنهم متعنتون معوقون لركب الايمان والعدل والحضارة عن التقدم.

هذا إلى أن الشرك مذهب فاسد ، والمذاهب الفاسدة تحارب ويحارب دعاتها بكل الوسائل ، من قتل أو نفى أو سجن ، وهذا أمر مقرر فى القديم والحديث وها هى دول الحضارة اليوم فى سبيل تأمين سلامتها بل وفى سبيل إرضاء

---

(١) أشهر مشاهير الاسلام ج ١ ص ٥٢ (٢) فتح البارى ج ١ ص ٦٤

نزواتها وأهوائها ، تزهق الآلاف من الأرواح ، ويغمض الناظرون أعينهم عن هذا ولا يعترض المعترضون ، فهل هذا حلال لهم حرام على غيرهم ؟

فالإسلام حينما لم يقبل من مشركي العرب المحاربين إلا الاسلام بعد ماتبين لهم الحق، وأصبحوا قلة تعتنق مذهباً فاسداً بجانب الكثرة الكاثرة من العرب التى اسلمت طواعية واختيارا لم يكن متجنيا ولا ظالما ، فالحديث كيفما فهمناه لا ينهض دليلا للمفترين على الاسلام .

( ٤ ) ويرد هذه الفرية ويقتلعها من أساسها ، ما التزمه الرسول صلى الله عليه وسلم فى سيرته من التسامح مع أناس أسروا وهم على شركهم فلم يلجئهم على الاسلام بل تركهم واختيارهم ، ذكر الثقاة من كتاب السير والحديث أن المسلمين أسروا فى سرية من السرايا سيد بنى حنيفة — ثمامة بن أثال الحنفى — وهم لا يعرفونه ، فأتوا به إلى رسول الله فعرفه وأكرمه ، وأبقاه عنده ثلاثة أيام ، وكان فى كل يوم يعرض عليه الاسلام عرضاً كريما فيأبى ويقول : إن تسأل ما لا تعطه ، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، فما كان من النبى إلا أن أطلق سراحه ، ولقد استرقت قلب ثمامة هذه السماحة الفائقة ، وهذه المعاملة الكريمة ، فذهب واغتسل ، ثم عاد إلى النبى مسلما مختارا . وقال له : يامحمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلى من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلى ، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فقد أصبح أحب البلاد إلى ، وقد سر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه سرورا عظيما ، فقد أسلم باسلامه كثير من قومه ولم يقف أثر هذا التسامح فى المعاملة عند إسلام ثمامة وقومه ، بل كانت له آثار بعيدة المدى فى تاريخ الدعوة الاسلامية ، فقد ذهب إلى مكة معتمراً : فهم أهلها أن يؤذوه ولكنهم ذكروا حاجتهم إلى حبوب اليمامة ، فآلى على نفسه أن لايرسل لقريش شيئاً من حبوب

اليمامة حتى يؤمنوا ، فجهدوا جهدا شديدا فلم يروا بدا من الاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم . ترى ماذا كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ؟ أيدع ثمامة حتى يلجئهم بسبب منع الحبوب عنهم — إلى الايمان ؟ لا ! لقد عاملهم بما عرف عنه من التسامح ، وأن لا إكراه فى الدين ، فكتب إلى ثمامة أن يخلى بينهم و بين حبوب اليمامة ، ففعل ! ! فما رأيكم أيها المفترون ؟ بل امتد أثر دخوله فى الاسلام على أساس من الاختيار والرغبة الصادقة إلى ما بعد حياة النبى ، ذلك أنه لما ارتد بعض أهل اليمامة ثبت ثمامة ومن اتبعه من قومه على الاسلام ، وصار يحذر المرتدين من اتباع مسيلمة الكذاب ، ويقول لهم : إياكم وأمراً مظلما لانور فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله عز وجل على من أخذ به منكم ، وبلاء على من لم يأخذ به منكم ، ولما لم يجد النصح معهم خرج هو ومن معه من المسلمين وانضموا للعلاء ابن الحضرمى مدداً له ، فكان هذا مما فت فى عضد المرتدين ، والحق بهم الهزيمة(١)

وإليك قصة أخرى : لما فتح النبى مكة ودخلها ظافراً منتصرا كان صفوان ابن أمية(٢) ممن أهدرت دماؤهم لشدة عداوتهم للاسلام ، والتأليب على المسلمين فاختفى وأراد أن يذهب ليلقى بنفسه فى البحر ، فجاء ابن عمه عمير ابن وهب الجمحى وقال : يانبى الله إن صفوان سيد قومه وقد هرب ليقذف نفسه فى البحر فأمنه ، فأعطاه عمامته ، فأخذها عمير حتى إذا لقى صفوان قال له : فداك أبى وأمى . جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس ، وهو ابن عمك ، وعزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك ، فقال صفوان :

---

(١) الاصابة فى تاريخ الصحابة ، والاستيعاب بالهامش ج١ ص ٢٠٣

(٢) صفوان هذا هو الذى كان أغرى عميرا هذا على قتل النبى بعد بدر فلما قدم عمير لتنفيذ ما اتفقا عليه أخبره النبى بما جرى فما كان منه إلا أن أسلم وحسن إسلامه لما استيقن أنه نبى وحى إليه من ربه .

إنى أخافه على نفسى . قال عمير . هو أحلم من ذلك وأكرم ، وأراه علامة الأمان وهى العمامة ، وقيل بردة ، فرجع إلى رسول الله فقال : إن هذا يزعم أنك أمنتنى فقال النبى : صدق فقال صفوان : أمهلنى بالخيار شهرين فقال له رسول الله بل أربعة أشهر ، ثم أسلم بعد وحسن إسلامه .

فهل بعد هذه الحجج الدامغة يتقول متقول على الإسلام ، زاعما أنه قام على السيف والإكراه ؟

(٥) ثم ما رأى المبشرين والمستشرقين فى أن من أكره على شىء لا يلبث أن يتحلل منه إذا وجد الفرصة سانحة له ، بل ويصبح حربا على هذا الذى أكره عليه ؟ ولكن التاريخ الصادق يكذب هذا ، فنحن نعلم أن العرب إلا شرذمة ، تسور الشيطان عليها — ثبتوا على ما تركهم عليه الرسول وحملوا الرسالة ويلغوا الأمانة كأحسن ما يكون البلاغ إلى الناس كافة ، ولم يزالوا يكافحون ويجاهدون فى سبيل تأمين الدعوة ، وإزالة العوائق من طريقها حتى بلغت ما بلغ الليل النهار فى أقل من قرن من الزمان ، ومن يطلع على ما صنعه العرب فى حروبهم وفتوحاتهم لا يسعه إلا أن يجزم بأن هؤلاء الذين الذين باعوا أنفسهم رخيصة لله ، لا يمكن أن يكون قد تطرق الإكراه إلى قلوبهم وفى صحائف البطولة التى خطوها أقوى برهان على إخلاصهم وصدق إيمانهم ، وسل سهول الشام وسهول العراق وسل اليرموك والقادسية ، وسل شمال إفريقيا تخبرك ماصنع هؤلاء الأبطال .

(٦) ثم ما رأى هؤلاء المفترين على الاسلام فى حالة المسلمين كما ذهبت ريحهم ، وانقسمت دولتهم الكبرى إلى دويلات وصاروا شيعاً واحزابا وتعرضوا لمحن كثيرة فى تاريخهم الطويل كمحنة التتار ، والصليبيين فى القديم ودول الاستعمار فى الحديث ، وكل محنة من هذه المحن كانت كافية لمكرهين على الاسلام أن يتحللوا منه ويرتدوا عنه فأين هم الذين ارتدوا عنه ، اخبرونا يا أصحاب العقول .؟!!

إن الاحصائيات الرسمية لتدل على أن عدد المسلمين فى ازدياد ، على الرغم من

كل ما نالهم من اضطهاد وما تعرضوا له من عوامل الاغراء ؛ وقد خرجوا من هذه المحن بفضل إسلامهم وهم أصلب عودا ، وأقوى عزيمة على استرداد مجدهم التليد وعزتهم الموروثة.

بل مارأى هؤلاء فى الدول التى لم يدخلها مسلم مجاهد بسيفه ؛ وإنما انتشر فيها الاسلام بوساطة العلماء والتجار والبحارة كأندونيسيا ، والصين وبعض أقطار إفريقيا ، وأوروبا وأمريكا ، فهل جرد المسلمون جيوشا أرغمت هؤلاء على الاسلام ؟ ألا فليسألوا أحرار الفكر الذين أسلموا من أوروبا وغيرها ، وسيجدون عندهم النبأ اليقين . لقد انتشر الاسلام فى هذه الأقطار بسماحته ، وقربه من العقول والقلوب ، وها نحن نرى كل يوم من يدخل فى الاسلام وذلك على قلة ما يقوم به المسلمون من تعريف بالاسلام ، ولو كنا نجرد التعريف به عشر معشار مايبذله الغربيون من ، جهد ومال لايحصى فى سبيل التبشير بدينهم وحضارتهم ، لدخل فى الاسلام الوف الألوف فى كل عام . ولن ترى — إن شاء الله من يحل عروة الاسلام من عنقه أبدا مهما أنفقوا وأسرفوا فى سبيل دعاياتهم التبشيرية ، وبعثاتهم التعليمية والتنصيرية « أما بعد » فقد لاح الصبح لذى عينين . وتبين الحق لكل ذى عقل وقلب وما إخالك أيها القارىء المنصف — إلا ازددت يقينا بسماحة الاسلام وسماحة الرسول فى الدعوة إليه ، وأن مارددده المستشرقون والمبشرون ماهو إلا فرية كبرى « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »

## ( أحداث وتشريعات )

## ( تحويل القبلة إلى الكعبة )

لما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس ، تأليفا لليهود وتحبيباً لهم للدخول فى الاسلام ، ولكن اليهود لم تثمر معهم هذه السياسة ، واتخذوا من توجه النبى إلى بيت المقدس

ذريعة للطعن فيه فقالوا : يخالفنا ويتبع قبلتنا ؟ فآلم النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ، وكان النبى يحب أن تكون قبلته هى الكعبة قبلة أبيه إبراهيم(١) ، ومفخرة آبائه وأجداده ، فكان كثيرا ما يرفع بصره إلى السماء داعيا وراجيا ، وقد مكث على استقبال بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهرا ثم أجابه الله على سؤله ، وحقق أمنيته فوجهه إلى الكعبة البيت الحرام ، قال عز شأنه : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون » وبذلك تحقق للنبى والمسلمين شرف التوجه إلى القبلتين .

وقد كان التحويل من بيت المقدس إلى الكعبة فى منتصف شهر رجب على الصحيح ، وبه جزم جمهور العلماء ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس ، وذهب البعض إلى أن التحويل كان فى نصف شعبان ، وهو قول ضعيف وقد اختلف العلماء فى أول صلاة حصل فيها التحويل ، فقيل الظهر وقيل العصر ، والتحقيق أن النبى صلى الله عليه وسلم زار أم بشر بن البراء ابن معرور خارج المدينة فى بنى سلمة ، فصنعت لهم طعاما ، وحانت صلاة الظهر ، فقام رسول الله صلى الله وسلم وأصحابه للصلاة فى مسجدهم ، وبعد أن صلى بهم ركعتين نزل جبريل على النبى بتحويل القبلة فاستدار النبى وهو فى صلاته إلى الكعبة ، واستدار معه أصحابه ، فسمى هذا المسجد ، المسجد ذى القبلتين ، ولا يزال مكانه موجودا إلى وقتنا هذا بالقرب

---

(١) أما قبلته بمكة فقبل كان النبى يستقبل بيت المقدس ولكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس ، وذلك بأن يقف بين الركنين : الاسود واليمانى ، فلما هاجر استمر على استقبال بيت المقدس حتى نسخ الله ذلك بالتوجه الى الكعبة وقيل كانت قبلته الكعبة فلما هاجر أمره الله باستقبال بيت المقدس حتى نسخ ذلك قال ابن عبد البر عالم المغرب : وهذا أصح القولين عندى وهو ما ترجحه ، ويؤيده حديث إمامة جبريل للنبى غداة ليلة الاسراء والمعراج ، فقد كان وقوفهما عند باب الكعبة ، وغير ممكن لمن كان عند بابها أن يستقبل الكعبة وبيت المقدس معا (٢) البقرة / ١٤٤

من المدينة ، وفيه مكان القبلتين ، ثم خرج النبى إلى المدينة فحانت صلاة العصر فصلاها إلى الكعبة ، ثم خرج رجل ممن صلى معه بالمسجد النبوى ، فمر على بنى حارثة فى مسجدهم وهم يصلون إلى بيت المقدس ؛ فأخبرهم بتحويل القبلة فاستداروا وهم فى صلاتهم إلى الكعبة ، ثم ذهب هذا الرجل أو غيره إلى قباء ، فأدركهم فى صلاة الفجر وهم يصلون إلى بيت المقدس فأخبرهم بنزول القرآن بالتحويل إلى الكعبة ، فتوجهوا فى صلاتهم اليها، وبهذا التحقيق يحصل التوافق بين الروايات المختلفة الواردة فى هذا المقام ، والتى يكمل بعضها بعضا [١] .

وقد أكثر اليهود من الطعن فى النبى والمسلمين ، بسبب هذا التحويل ، ولهجوا بمقالة السوء ، مع علمهم من كتبهم أن هذا سيكون، وأن توجهه صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس لن يدوم ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى موقفهم هذا فى قوله : « سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ثم بين سبحانه أن هذا التحويل كان بلاء واختبار ليتميز عند الناس المؤمنون المخلصون من الشاكين المرتابين فقال سبحانه : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ؛ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم »[٢]

ولما كان نسخ القبلة أول نسخ وقع فى الإسلام : وقارنه إرجاف اليهود والمنافقين أكد الله سبحانه الأمر بالتوجه إلى الكعبة فى ثلاثة مواضع متقاربة فقال سبحانه أولا « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ... » وقال ثانيا : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون » وقال ثالثا : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج٥ ص٩. فتح البارى ح١ ص٧٩ — ٨١

(٢) البقرة ١٤٢، ١٤٣ .

للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون »[١]

وقد روى قصة تحويل القبلة إلى الكعبة ، الإمامان البخارى ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث، وإليك رواية البخارى لأنها أتم وأكمل : عن البراء ابن عازب أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله من الأنصار ، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا[٢] وكان يعجبه ان تكون قبلته قبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد — هم بنو حارثة — وهم راكعون فقال : « أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل البيت فداروا كما هم » وفى رواية أخرى للبخارى فنزلت « سيقول السفهاء من الناس . . . » الآية وفى رواية أيضا « أنه مات قبل أن تحول — يعنى القبلة — رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله تعالى « وما كان الله ليضيع إيمانكم » يعنى صلاتكم التى توجهتم فيها إلى بيت المقدس .

فلله الحمد والمنة أن اختار لنا القبلة أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ، وأن جعل قبلتنا خير القبل ، كما جعل أمتنا خير الأمم وإن كره الكافرون واليهود .

## تشريع فريضة الصيام[٣]

وفى شعبان من السنة الثانية فرض الله شريعة من أعظم شرائع الإسلام وركنا من أركانه ، وهو صيام رمضان ، وكان النبى ﷺ لما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء — وهو اليوم العاشر من المحرم، فسألهم عن سبب

---

(١) البقرة ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠

(٢) قدوم النبى المدينة كان فى ربيع الأول والتحويل كان فى منتصف رجب على الصحيح فإذا اعتبرنا شهرى القدوم والتحويل شهرا كانت المدة ستة عشر شهرا ، وإذا اعتبرناهما شهرين كانت المدة سبعة عشر شهرا فمن ثم تردد الراوى وبعض الروايات جاءت بالجزم.

(٣) الصوم والصيام فى اللغة الإمساك . وفى الشرع : إمساك المكلف نفسه بنية عن =

ذلك فقالوا : هذا يوم نجى الله فيه موسى وقومه فصامه موسى شكراً لله ، فقال النبى لهم : نحن أولى بموسى منكم فصامه ، وأمر المسلمين بصيامه ، روى ذلك البخارى ومسلم ، فلما فرض صوم رمضان أصبح صيام عاشوراء غير واجب ، فمن شاء صامه ، ومن شاء أفطره ، روى ذلك الشيخان أيضا عن عائشة .

وقد أوجب الله صيام رمضان بقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون »[1] .

وكان صيام رمضان فى أول الإسلام على سبيل التخيير فمن شاء صام وأدى الفريضة ومن شاء أفطر ووجب عليه الفداء : عن كل يوم إطعام مسكين ثم لما مرنوا عليه ، أصبح أمراً مألوفا أمرهم بصيامه على سبيل الإلزام ونسخ التخيير وذلك بقوله سبحانه « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه . . » الآية[2] .

روى ذلك الشيخان فى صحيحهما عن سلمة بن الأكوع ـ واللفظ لمسلم ـ

قال : لما نزلت هذه الآية « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » كان من أراد أن يفطر ويفتدى حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها » وهى قوله تعالى « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » وقد أكدت الآيتان الرخصة للمريض أو المسافر أن يفطر ويقضى دفعا للحرج ، وتيسيرا من الله على المسلمين « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

ويرى فريق من العلماء وعلى رأسهم ابن عباس ، أنه لا نسخ وأن

---

= تناول الطعام والشراب والجماع وسائر المفطرات ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ومن كمال الصوم الامساك عن اللغو والرفث ، والفسوق ، والعصيان وبذلك يشعر الصائم بفائدة الصوم ، ويفوز بثمرته .

(١) البقرة ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٢) البقرة ١٨٥ .

الآيتين محكمتان وأن قوله « وعلى الذين يطيقونه فديه طعام مسكين » إنما هى فى الشيخ الكبير ، والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما ، فلهما أن يفطرا ويطعما بدل كل يوم مسكينا » رواه البخارى فى صحيحه ، وعلى رأى ابن عباس ومتابعيه تكون الآيتان قد نزلتا مرة واحدة .

وفى مبدأ الإسلام كان الصائم إذا أفطر يأكل ويشرب ويباشر امرأته إلى أن ينام أو يصلى العشاء فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والمباشرة ، فشق ذلك على المسلمين ، ووقع بعضهم فى الحرج بسبب هذا فخفف الله عن الأمة ، ورحمها ، وأباح لهم هذه الثلاثة إلى طلوع الفجر(١) .

روى الامام احمد فى مسنده عن معاذ بن جبل من حديث طويل فى أحوال الصلاة والزكاة قال « ... وكانوا يأكلون ، ويشربون ، ويأتون النساء ما لم يناموا ، فاذا ناموا امتنعوا ، ثم إن رجلا من الأنصار يقال له صرمة — يعنى ابن قيس — كان يعمل صائما حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فرآه رسول الله ﷺ قد جهد كثيراً فقال « مالى أراك قد جهدت جهدا شديداً » فأخبره ، وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى رسول الله ﷺ وهو يبكى ندما فذكر له ذلك فأنزل الله سبحانه « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن . . . » إلى قوله « لعلكم تهتدون » ورواه أبو داود فى سننه والحاكم فى مستدركه وغيرهما .

وبهذا استقر تشريع الصيام على هذا اليسر ورفع الحجر ، وتأكد وجوبه بالسنة القولية والعملية المتواترة عن رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ، وأجمع على هذا المسلمون ، فلا يحل لمسلم أن يفرط فى هذا الأصل من أصول الاسلام الذى هو من أسس التقوى ، وهى جماع الخير كله ، ومن حكمه تزكية النفوس والسمو بالأرواح ، وتعطيف قلوب الأغنياء على الفقراء وتعويد النفوس على الصبر والتحمل ، ومواجهة شدائد الحياة ولأوائها ، ومن بعد ذلك كله يكون غفران الذنوب ، والفوز برضاء الله رب العالمين .

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ١ ص ٤١٨ .

## زكاة الفطر

وفى رمضان من نفس العام شرع الله سبحانه وتعالى زكاة الفطر من رمضان ، طعمة للمساكين والفقراء ، وطهرة للصائم من اللغو والرفث ، وهى على كل حر أو عبد ، وذكر أو أنثى ، وصغير أو كبير من المسلمين وقد روى أن النبى ﷺ خطب الناس قبل الفطر بيوم أو يومين وأمرهم بذلك ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر ، والذكر والأنثى ، والصغير والكبير من المسلمين » رواه الجماعة ، وهى فريضة عند جمهور الأئمة واجب عند الحنفية على قاعدتهم فى التفريق بين الفرض والواجب ، ولها أحكام وتفصيلات تطلب من كتب الفقه .

## صلاة العيد

وفى هذه السنة صلى النبى صلى الله عليه وسلم صلاة العيد فكانت أول صلاة عيد صلاها ، وخرج بالناس إلى المصلى — كما هى السنة — يهللون الله ، ويكبرونه ويعظمونه شكراً لله ، على ما أفاء عليهم من النعم المتتالية ، ولا سيما نعمة النصر فى يوم الفرقان : يوم التقى الجمعان ، وهو يوم بدر العظمى ، اليوم الأغر فى تاريخ الأيام ، وخرجوا من بين يديه بالحربة وهى التى وهبها له النجاشى ، فكانت تحمل بين يديه فى الأعياد[1]، فمن ثم اتخذ الأمراء من بعده الحربة يخرج بها بين يديهم فى صلاة العيد.

وقيل إن الحربة كانت للزبير بن العوام وهبها له النجاشى ، ثم وهبها للنبى ﷺ[2]

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ٤٥٥ (٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٥٦

# الصوم والفطرة والعيد

## من روافد الاشتراكية فى الإسلام

وبتشريع الصوم وزكاة الفطر والعيد خطط الإسلام روافد ثلاثة من روافد البر والمواساة والتكافل الاجتماعى فى الاسلام ، فالصوم كما أراده الله ورسوله يربى فى النفس صفات السخاء والبذل والعطاء ، فالصائم إذا لذعه الجوع وعضه بنابه أدرك بحسه ووجدانه مايعانيه الفقراء والمساكين والمعوذون فيجد نفسه مدفوعاً إلى البر والمواساة عن اقتناع وشعور ، هذا إلى ماورد فى فضل البر والانفاق والجود فى رمضان ، وأن من فطر صائما كان له مثل أجره ، وهذا جانب من الجوانب الفسيحة فى تشريع الصيام.

ثم تأتى زكاة الفطر فتكون بأدائها شاهداً من شواهد صدق المسلم فى صيامه ، ورافداً من روافد البر والتوسعة على الفقراء فى هذا اليوم الكريم ، وكثيراً ما كان النبى يقول فى يوم العيد : « أغنوهم عن السؤال فى هذا اليوم » ثم يأتى العيد ، وهو موسم من مواسم الخير والتعاطف والتحابب ، فيكون رافداً ثالثاً ، وقد كان من دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا صلى العيد ذكر وأنذر ، ورغب ورهب : فيتسابق فى مضمار البذل والعطاء والرجال والنساء والصغار والكبار ، وتمتد الأيدى إلى الأقراط ، والحلى فتلقى بها إلى بلال عن رضا وطيب خاطر ، روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس « أن النبى ﷺ صلى يوم الفطر ركعتين لم يصل قبلها ولا بعدها ، ثم أتى النساء ومعه بلال — فيأمرهن بالصدقة ، فجعلن يلقين : تلقى المرأة خرصها ، وسخابها[1] » .

---

(١) الخرص بضم الخاء : القرط ، السخاب بكسر السين : القلادة

# تشريع الزكاة[1] فى الإسلام

وفى السنة الثانية أيضا شرع الله الزكاة التى هى ركن من أركان الاسلام ، وكان ذلك بعد شهر رمضان ، لأن تشريع الزكاة العامة كان بعد زكاة الفطر ، وزكاة الفطر كانت بعد فرض صيام رمضان قطعا ، يدل على هذا ما رواه الأئمة أحمد وابن خزيمة والنسائى وابن ماجه والحاكم من حديث قيس بن عبادة قال : « أمرنا وسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة ، ثم نزلت فريضة الزكاة ، فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله » قال الحافظ ابن حجر : إسناده صحيح [2]

وجمهور العلماء سلفا وخلفا على أن مشروعية الزكاة إنما كانت بالمدينة فى السنة الثانية وقالوا : إن قوله تعالى فى سورة الأنعام المكية « وآتوا حقه يوم حصاده » ليس المراد به الزكاة المفروضة ، وأن هذا شىء كانوا يعطونه عند الجذاذ ، ترضية للفقراء والمساكين من غير تقدير حد له بل هو متروك لأريحية كل معط ، فكان الواحد منهم يأتى بالقنو أو العذق[3] فيضعه فى جانب المسجد فيأتى الفقراء والمساكين فيأكلون منه ، أو يعطى من حصاده ماتجود به نفسه من غير إلزام ولا تحديد بحد[4]

---

(١) الزكاه فى اللغة : النماء ، والتطهير وفى الشرع : إعطاء جزء من النصاب الحولى إلى فقير ومسكين وغيرهما من المصارف غير هاشمى ولا مطلبى ، والمناسبة بين المعنيين ظاهرة لأن إخراجها سبب للنماء فى المال أو الأجر وأيضا فهى طهرة للنفس من رذيلة البخل ، وطهرة للمجتمع من الأحقاد والمفاسد والمذاهب المنحرفة وركنها الاخلاص ، وشرطها : هو ملك النصاب الحولى ، وشرط من تجب عليه : العقل والبلوغ ؛ والحرية وبأدائها يسقط الواجب فى الدنيا ويحصله الثواب فى الأخرى.

(٢) فتح البارى ح ٣ ص ٢٠٧

(٣) بجمع الكباسة وهى ما تسميها «العناقيد»

(٤) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٢ ص ٤١٠ ، فتح البارى ج ٣ ص ٢١٦ ط بولاق

وذهب بعض العلماء إلى فرضية الزكاة كانت بمكة بهذه الآية ثم نزل تأكيد فرضيتها وبيان أنصبتها ومصارفها . ومقدار المخرج من كل نوع إلى غير ذلك من التفصيلات فى المدينة .

وأياما كان الأمر ، فقد ثبتت فرضيتها بالقرآن والسنة والإجماع، وأجمع الصحابة على قتال مانعها . فقد روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : لما توفى رسول الله ﷺ وكان أبو بكر : وكفر من كفر من العرب قال عمر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول ﷺ « أمرت أن أقاتل حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فان الزكاة حق المال . والله لو منعونى عناقا أو عقالا[1] كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها قال عمر : فوالله ماهو إلا أن رأيت قد شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

وإنما تجب الزكاة على المسلم المكلف إذا بلغ ما يملكه نصابا من أى نوع من الأنواع التى تجب فيها الزكاه ، فنصاب الذهب أن يبلغ عشرين مثقالا[2] ونصاب الفضة أن تبلغ مائتى درهم[3] ومازاد منهما فبحسابه ، وذلك بشرط حولان الحول، ونصاب الغنم أربعون شاة، ونصاب البقر والجاموس ثلاثون ، ونصاب الإبل خمس ، فمن ملك نصابا منها وحال علية الحول ، وكانت سائمة وجب إخراج زكاته ، وعروض التجارة تقوم بأحد النقدين ؛ والزروع تجب، فيها الزكاة على تفصيل بين الفقهاء فى النصاب ، وما يخرج منه ومالا يخرج ، وما يسقى بالسيح أو ماء المطر وما يحتاج فى سقيه إلى آلة وتعب ، وقد فصلت ذلك كتب الأحاديث النبوية وكتب الفقه بما لامزيد عليه .

---

(١) العناق الانثى من ولد الماعز والعقال ماتعقل به الابل أى لايترك شيئاً من الزكاة قط ولو قل

(٢) وقدر ذلك بإثنى عشر جنيها ذهبا تقريبا

(٣) وقدر ذلك بست وعشرين ريالاً فضة تقريبا

وقد كان الشارع حكيما فى تقدير الزكاة الواجبة من كل نوع ، وجعل ذلك، جزءا من المال لاتضن به النفوس الشحيحة ،لأن الله يعلم حب النفوس للمال،فاقتضت حكمته أن يكون جزءا يسيرا،وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى هذه الحكمة السامية قال عز شأنه«وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولايسألكم أموالكم، إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم . ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم (١)

وقد رتب الشارع الحكيم هـذا الحق الذى يخرج بحسب المؤونة والتعب فى المال وعدمها : فأقلها تعبا الركاز(٢) وفيه الخمس لعدم التعب فيه أو قلته ، ويليه الزرع والثمر ، فان سقى بماء المطر والسيح فيه العشر ، وإن سقى بالآلة أو الدالية أو الساقية ونحوها فنصف العشر ، ويليه الماشية وقد لوحظ فيها أنها يدخلها الأوقاص (٣)

مصارف الزكاة : وقد تكفلت ببيان هذه المصارف الآية الكريمة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم(٤)» وقد أسقط الفاروق عمر مصرف المؤلفة قلوبهم بعد أن أعز الله الإسلام، ولم يعد فى حاجة إلى تأليف ، وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء ، ويرى بعض العلماء أن يسقط حقهم لم يسقط وأنه لايزال باقيا إذا دعت الضرورة إليه .

---

(١) سورة محمد ٣٦ ٣٨

(٢) الركاز : مايوجد فى بطن الأرض من مال أو معدن .

(٣) جمع وقص بفتح القاف وسكونها مابين الفريضتين من نصب الزكاة مما لاشىء فيه.

(٤) التوبة / ٦٠

# ( الزكاة أساس الاشتراكية الإسلامية )

إن الغرض من تشريع الزكاة هو إشراك الفقراء والمساكين ومن على شاكلتهم فى أموال الأغنياء ، ولما بعث النبى ﷺ سيدنا معاذ إلى اليمن قاضيا أو واليا قال له : « أخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، وترد إلى فقرائهم » رواه البخارى .

والزكاة هى أساس الاشتراكية الصحيحة ، اشتراكية فى المنفعة والثمرة لا فى أصل المال ، فقد ترك الشارع لأهل الأموال أموالهم لينموها ثم فرض فيها حقا لازما لا يجوز التساهل فيه قال سبحانه فى صفة عباد الله المتقين : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم[1] » وقال : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم »[2] وقد سمعت آنفا أن الصديق قاتل مانعى الزكاة وجادله فى هذا عمر حتى اقتنع برأيه ، وصار أمراً مجمعاً عليه من الصحابة ، ولاعجب فالزكاة ركن أصيل فى بناء المجتمع على أساس من التعاون والتكافل ، والمشاركة فى الخير والنعماء ، وقد رأيت أن الاسلام جعلها حقاً فى الذهب والفضة ، والإبل والبقر والغنم ، والزروع والثمار ، وعروض التجارة بل ذهب بعض الفقهاء إلى وجوبها فى البقول ، والخضر ، والفواكه وحلى النساء .

ترى لو أن الزكاة أخرجت من كل هذه الأنواع الحولية وغير الحولية ووزعت فى مصارفها المشروعة هل كان هناك جائع لايجد مايسد جوعته ؟ أو عار لايجد مايستر عورته ؟ أو متشرد لايجد مسكنا يؤويه ؟ أو مريض لايجد مستشفى يستشفى فيه ، أوطالب علم لايجد مايعينه على طلب العلم ؟

---

(١) الذاريات ١٩ (٢) المعارج ٢٤، ٢٥

ترى لو أن الناس أخرجوا زكاة أموالهم بأمانة وإخلاص ، من غير تهرب أو تحايل ووزعت فى مصارفها ، هل كنت تجد بين المسلمين من يدعو إلى الشيوعية أو يعتنقها مذهبا ؟ وهل كنت تجد بينهم فى كثير من أقطار المسلمين هذا الفقر والضنك ، وهذه الفوارق الشاسعة بين الناس ؟ فهناك قلة تتمتع بمتع الحياة وزخارفها ، بما يصل إلى حد الإسراف ، وتبعثر الأموال هنا وهناك فى الحانات وبيوت اللهو والفجور ، وحلبات الرقص ، والسباق والقمار ! ! وهناك الكثرة الكاثرة لاتتمتع بالطيبات الحلالات ، بل ولا تجد الضروريات .

إن الزكاة حينما كانت تجمع من كل من تجب عليه ، وتنفق فى سبلها المشروعة فى صدر الإسلام ، كان المجتمع الإسلامى على خير ما يكون رخاء ورغدا ، وتمتعاً بالطيبات ، وتآلفا وتآخيا وتحابيا . فقد روى الرواة أنه فى عهد خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أخصب الناس ، واغتنوا حتى أنهم بحثوا عن مستحق للصدقة فلم يجدوا فما كان منهم إلا اشتروا بها عبيداً وأعتقوهم لوجه الله ، وهكذا بلغ الإسلام فى عصوره الأولى ، بمستوى حياة المسلمين ومعيشتهم ، حداً لم تبلغه إلا أمم قليلة اليوم وذلك بفضل تشريع الزكاة .

## « الغزوات والسرايا فى السنة الثانية »

« غزوة الابواء » أو « ودان » [1] وهى أولى غزوات النبى ﷺ وكانت فى شهر صفر من السنة الثانية ، خرج فيها النبى وبعض أصحابه ، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة من الخزرج ليعترض عير القريش ، وكان يحمل لواءه عمه حمزة أسد الله وكان لونه أبيض ، فلما

---

١ — ودان بتشديد الدال والأبواء مكانان متقاربان بينهما نحو ستة أميال

وصلوا إلى ودان وجدوا العير قد فاتتهم فوادع النبى مخشى بن عمرو الضمرى سيد بنى ضمرة[١] وعاهده على أنهم آمنون على أنفسهم، ولهم النصر على من رامهم وأن عليهم نصر المسلمين إذا دعوا، وكانت هذه أول معاهدة عقدها الرسول مع غير يهود المدينة وقد حققت نصراً للمسلمين.

غزوة بواط[٢] : وأقام رسول الله بالمدينة حتى كان شهر ربيع الأول من هذه السنة، فبلغه أن عيراً لقريش آيبة من الشام، فيها أمية بن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فخرج إليها فى مائتين من المهاجرين والانصار بعد أن استخلف على المدينة سعد بن معاذ سيد الاوس، وكان يحمل لواءه سعد بن أبى وقاص، فسار حتى بلغ بواط، ولكن أمية كان قد نمى إليه خبر خروج المسلمين للقائهم فأسرع بالقافلة ونجا بها.

غزوة العشيرة[٣] : وفى جمادى الأولى أو الثانية بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خروج قريش بأعظم عير لها، فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشى له مثقال إلا بعث به فى تلك العير، وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب فى بضعة وعشرين رجلا من قريش، فخرج إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى، وحمل لواءه عمه حمزة، ولم يزل سائراً يسعى الليل ويخفى النهار، حتى بلغ العشيرة فوجد العير قد أفلتت مما يدل على أن قريشا بدأت تأخذ حذرها، وترسل لذلك العيون والجواسيس، وفى أثناء عودته حالف بنى مدلج وحلفاءهم بمثل ماحالف بنى ضمرة، وبهذا كسب أيضا ود قبيلة أخرى من القبائل الواقعة على طريق التجارة بين مكة والشام، وهذا ولاشك فيه تقوية للمسلمين وإضعاف لقريش فقد قطع عليهم الرسول بهذه الأحلاف أن يستجيروا بقبيلة من هذه القبائل، ويحتموا بها، وهى سياسة حكيمة ولا ريب.

---

(١) بفتح الضاد المعجمة وإسكان الميم

(٢) بواط بفتح الباء وضمها وتخفيف الواو جبل من جبال جهينة بالقرب من ينبع

(٣) العشيرة بالتصغير والشين بهاء وبغيرها، وبالسين بهاء وبغيرها مكان بينبع.

غزوة بدر الأولى : لم يقم الرسول بالمدينة إلا بضع ليال، بعد أوبته من العشيره ، حتى أغار كرز بن جابر القهرى على سرح[١] المدينة حيث ترعى الأغنام ليأخذ منها ما تصل إليه يده، فخرج الرسول فى طلبه بعد أن استخلف على المدينة زيد ابن حارثة مولاه ، وكان يحمل اللواء على بن أبى طالب ، حتى بلغ واديا يقال له « سفوان » من ناحية بدر ، ولكن كان قد هرب كرز فلم يدركه ، وهكذا بين النبى بهذا العمل الحازم أنه لن يقبل من أحد انتقاص حقوقهم ، أو الأغارة على المدينة وما حولها من حمى وقرى .

## سرية عبد الله بن جحش

فى رجب من السنة الثانية ، أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رهطا من المهاجرين ثمانية[٢] وقيل سبعة وأمر عليهم عبد الله بن جحش الأسدى وأعطاه كتاباً وقال له : « لا تفتحه إلا بعد يومين » فاذا فتحته فامض لما أمرتك به ، ولا تستكره أحدا من أصحابك ، فلما سار بهم يومين فتحه فإذا فيه :

«إذا نظرت كتابى فامض حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم فلما قرأ الكتاب قال : سمعاً وطاعة وأخبر أصحابه بما فى هذا الكتاب ، وقال . قد نهانى أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد .

وانما وقع اختيار النبى على هذا المكان البعيد لأن أهل مكة كانوا قد بدءوا يحتاطون لتجارتهم ، ويأخذون لها الحذر ، ويجتهدون فى إخفاء أخبارها عن أهل المدينة ، فغلبهم النبى على حذرهم، وأراد أن يتعرف أخبار تجارتهم من

---

(١) السرح : المرعى الذى ترعى فيه الدواب .

(٢) هم : أبو حذيفة بن عقبة : وعكاشة من محص . وعتبة بن غزوان ، وسعد بن أبى وقاص وعامر ، بن ربيعة . وواقد بن عبدالله التميمى . وخالد ابن البكير . وسهيل بن بيضاء الفهرى .

وادى نخلة الواقع بين مكة والطائف ؛ وكانت حكمة بالغة أن لم يخبر النبى السرية بمقصده من ارسالهم ووجهتهم قبل مغادرتهم المدينة ، حذراً من أن يشاع الخبر فينقله أحد المنافقين أو اليهود إلى قريش فترصدهم فى هذا المكان النائى عن المدينة ، وهم قلة فتقتلهم

وسار الركب حتى وصلوا مكانا يسمى « بحران » فأضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يتعقبانه ؛ فتخلفا فى طلبه ، ومضى بقية الركب ، حتى نزلوا « نخلة » فمرت بهم عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمى ومعه ثلاثة آخرون ، فلما رآهم القرشيون هابوهم وقد نزوا قريبا منهم ، فأطل عليهم عكاشة بن محصن(١) ، وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا وقالوا : عمار لا بأس عليكم منهم ، وتشاورت السرية فى أمرهم وكان فى آخر يوم من رجب(٢) فقالوا : والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم ، فليمتنعن به منكم ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام ، فتردد القوم ، وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتالهم ، وأخذ ما معهم ، فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله وأسروا اثنين وأفلت واحد ، واستاقوا العير ، ورجعوا بها وبالأسيرين حتى قدموا على رسول الله ، فلما علم أنهم قاتلوا فى رجب قال : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، ووقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً فسقط فى يد رجال السرية ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم المسلمون واتخذ المشركون مما حدث وسيلة للطعن فى المسلمين ، وقالوا : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا الأموال ، وأسروا الرجال ، وأرجف اليهود والمنافقون فى المدينة قصد إشعال الفتنة

---

(١) عكاشة : بضم العين وتشديد الكاف وقد تخفف ومحصن بكسر الميم وفتح الصاد

(٢) وقيل ان ذلك كان فى آخر يوم من جمادى الثانية فقاتلوهم ظنا منهم أنه من جمادى ثم ظهر أنه من رجب فندموا.

وفى هذه الغمرة من الأسى والأسف ، والتثريب والعتاب ، والإرجاف من الأعداء نزل الوحى من السماء بقول الله سبحانه « يسألونك عن الشهر الحرام : قتال فيه . قل : قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام. وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم »(١) .

فكان فى هذا إعذار من الله لأصحاب السرية ، فسرى عنهم ، وعن المسلمين ما كانوا فيه من الكرب والغمة ، فقبض الرسول العير والأسيرين ، وبعثت قريش فى فدائهما فقال رسول الله : « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا — يريد سعدا وعتبة — فإنا نخشاكم عليهما ، فإن قتلتموهما نقتل صاحبيكم » فقدم سعد وعتبة سالمين ، فأفداهما رسول الله ، فأما أحد الأسيرين وهو الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه وأقام بالمدينة حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا ؛ وأما الثانى وهو عثمان بن عبد الله بن المغيره فلحق بمكة . ومات بها كافراً .

وقفة عند ما نزل من القرآن : وما كان لنا أن نمر بهذه الآية دون أن نعرض لها بالبحث والاستنتاج ، فقد كان ذلك مفترق طرق فى سياسة الإسلام من تقدير للقيم الدينيه والخلقية ، وسمو بالمعانى الروحية والإنسانية وعدم إغفال للبواعث الشريفة التى دعت رجال السرية للقتال فى الشهر الحرام دون الوقوف عند الظواهر والرسوم وما التزمه الناس من تقاليد كريمة مشروعة ، أو موروثه ، فالله سبحانه أجاب المتسائلين بأن القتال فى الشهر الحرام أمر كبير ، ولكن هناك من الكبائر التى قام بها المشركون تجاه المسلمين ما هو أكبر وأعظم ، فالصد عن سبيل الله —

---

(١) البقرة ٢١٧ — ٢١٨

وهو الإسلام — والكفر به ، والصدعن المسجد الحرام أن تؤدى فيه الشعائر والمناسك ، وإخراج المسلمين من بلدهم وأهليهم وأموالهم كلها أكبر عند الله مما فعل المسلمون !! ثم هم مع كل جرائمهم هذه فعلوا ما هو أشنع وأظلم فقد ابتغوا الفتنة ، فتنة المسلمين عن دينهم وعقيدتهم وسلكوا كل وسيلة ممكنه للفتنةمن وعد ووعيد وإغراء وتعذيب وتجردوا فى هـذا من معانى الإنسانية والرحمة ، ولايزالون — وقد فعلوا كل هذه الجرائم — يحاولون جاهدين فتنة المسلمين وقتالهم والتضييق عليهم فاذا كان المشركون يرتكبون هذه الكبائر كلها فلاجناح على من وقعت عليهم هذه الكبائر والآثام إن قاتلوهم فى الشهر الحرام ، وأسروا منهم ، واستاقوا عيرهم ، وإنما الحرج والاثم ان يقاتل فى الشهر الحرام من يجترح هذه الأوزار والآثام .

وفى الآية الثانية عدة بالجميل لمن هاجر وجاهد فى سبيل الله على سبيل الرجاء وهو أسلوب من أساليب القرآن قصد به إزالة الأطماع . وعدم الاتكال والاعتماد على ما قدموا من أعمال مجيدة فيما مضى . وحث لهم على إدامة الجهاد والكفاح فيما يأتى وما يستقبلون من حياتهم . وفى ضمن هذا عدة لأصحاب هذه السرية بالأجر والمغفرة .

## « غزوة بدر الكبرى »

ترقب وانتظار : — بقى الرسول ﷺ والمؤمنون بالمدينة يترقبون قدوم العير العظيمة التى أفلت بها أبو سفيان . وكانت تبلغ ألف بعير ، فيها معظم أموال قريش ، وهى التى خرج للقائها فى غزوة العشيرة . وبعث برجلين من أصحابه بطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى « الحوراء » على البحر الأحمر ، وهى محطة من محطات القوافل التى تسير بين الحجاز والشام ولابد للعير أن تمر بها وقد تمكن الرجلان من أن يستميلا قبيلة جهينة . وأقاما يتسقطان الأخبار ، حتى تأكدا من موعد مبارحتها الشام ، فعادا إلى الرسول يبلغانه الخبر . ويقال

إن الرسول لم ينتظر قدوم الرسولين من مهمتهما ، وقرر الخروج إلى طريق الشام، خشية أن تفوته العير فى إيابها كما فاتته فى ذهابها . ولا سيما أنه قوم ما فيها بخمسين ألف دينار .

الخروج إلى العير : ندب الرسول ﷺ أصحابه إلى الخروج قائلا « هذه عير قريش فأخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها »[1] فخف لدعوته أقوام ، وتثاقل عنها آخرون ، لظنهم أن رسول الله ﷺ لم يرد حرباً ، وقوى عندهم هذا الظن أن الرسول قال : « من كان ظهره حاضراً فليركب معنا » ولم ينتظر من كان ظهره غائبا ، فخرج رسول الله ﷺ لثلاث وقيل لثمان ليال خلون من رمضان ، وكان معه ثلثمائه وثلاثة عشر رجلا ، منهم نيف وأربعون ومائتان من الأنصار ، والباقى من المهاجرين . ولم يتخلف منهم إلا عثمان بن عفان لتمريض زوجته السيدة رقية بنت الرسول فقد اشتد عليها المرض .

واستخلف النبى عبد الله بن أم مكتوم ليصلى بالناس فى المدينة ، ورد أبا لبابة الأنصارى من الروحاء ، واستعمله على المدينة ، ورد عاصم بن عدى ايضا واستخلفه على قباء والعالية ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، وكان أبيض ، وبين يدى رسول الله رايتان سوداوان : إحداهما مع على بن أبى طالب ، والثانية مع سعد بن معاذ ، وكان معهم فرسان : أحدهما للزبير ابن العوام ، والثانى للمقداد بن الأسود ، وسبعون بعيرا يعتقبونها ، كل ثلاثة أو أربعة يتناوبون بعيرا : فكان رسول الله ﷺ ، وعلى بن أبى طالب وأبو لبابة على بعير ، ولما رد أبا لبابة كان ثالثهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى[2] وضرب رسول الله مع صاحبيه غاية العدل والرحمة ، ذلك أنه لما جاءت نوبته فى المشى قالا له : نحن نمشى عنك فقال : « ما أنتما بأقوى منى ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما » ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا . وكان حمزة وزيد بن حارثة ،

---

(١) فى القاموس : نفله . النفل ونفله . وأنفله أعطاه اياه والنفل ، الغنيمة

(٢) أبو مرثد . اسمه كناز بن حصين ينتهى نسبة إلى قيس بن عيلان

وأبو كبشة وأنسة[١] يتعاقبون بعيرا .

وسار الجيش القليل فى عدده الكثير بروحه وإيمانه حتى وصل إلى « بيوت السقيا » خارج المدينة ، وعسكر فيها واستعرض النبى من خرج معه ، فرد من ليس له قدرة على الحرب المحتملة الوقوع ، وكان ممن رد البراء بن عازب ، وعبدالله بن عمر ، فى صحيح البخارى عن البراء قال: « استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر ، وكان المهاجرون يوم بدر نيفا على ستين ، والأنصار نيفا وأربعين ومائتين [٢] .

وروى عن البراء أيضاً « أنهم كانوا عدة أصحاب لوط الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلثمائة » .

وقد اختلف فى هذا البضع ، فقيل : ثلاثة عشر ، وقيل : أربعة عشر وقيل: خمسة عشر ، ولا ينافى هذا ماذكره ابن سعد من أنهم كانوا ثلثمائه وخمسة رجال، وما ذكره ابن جرير من أنهم كانوا ثلثمائه وستة ، لأن هناك صحابة عدوا من أهل بدر ، ولكن النبى ﷺ رد بعضهم ، استخلافا له كسيدنا أبى لبابه ، أو تخلفوا عنها لأعذار وضرورات كسيدنا عثمان ، فقد تخلف لتمريض زوجته السيده رقية بنت الرسول ، وكسيدنا الحارث بن الصمة ، فقد كسرت رجله بالروحاء فرده النبى ﷺ [٣] والاختلاف فى مثل هذا سهل غير بعيد .

## أبو سفيان واستنفار قريش

كان أبو سفيان على حذر أن تقع العير فى قبضة المسلمين ، فلما دنا من الحجاز، صار يتجسس الأخبار ، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر

---

(١) الثلاثة موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) صحيح البخارى — كتاب المغازى باب . عدة أصحاب بدر

(٣) فتح البارى . ج٧ ص٢٢٣

أصحابه لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك ، وخاف العاقبة، إذ لم يكن معه من قريش في حراسة العير إلا ثلاثون أو أربعون رجلا ، وما يغني هذا العدد عند اللقاء ؟ فاستأجر ضمضم[1] بن عمرو الغفاري فبعثه مسرعا إلى مكة ليستنفر قريشا إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه ، فوصل ضمضم إلى مكة ، وقد جدع أذني بعيره وأنفه ، وحول رحله ، وشق قميصه . وقال : يامعشر قريش اللطيمة. اللطيمة[2] أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد في أصحابه. لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث ، وما لبث أبو جهل حين سمعه أن صاح بالناس من عند الكعبة يستنفرهم ، وكان أبو جهل رجلا خفيفاً حديد الوجه ، حديد اللسان ، حديد النظر ، ولم تكن قريش في حاجة إلى من يستنفرها فقد كان لكل منهم في هذا العير نصيب .

فتجهز الناس سراعاً وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ؟ والله ليعلمن غير ذلك فكانوا بين رجلين : إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلا ، وأوعبت قريش[3] ، فلم يتخلف من أشرافها إلا أبو لهب ابن عبد المطلب ، فقد بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة استأجره بأربعة آلاف درهم كانت عليه قد أفلس بها ، وكاد أمية بن خلف يتخلف ، وكان شيخاً جليلا جسيما ثقيلا ، ذلك أنه سمع من صديقه سعد بن معاذ — وقد ذهب إلى مكة معتمرا بعد الهجرة — أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إنهم قاتلوك » قال : بمكة ؟ قال سعد : لا أدري . فلما حصل الاستنفار تذكر هذا وداخله رعب شديد ، ولكن الله إذا أراد شيئا هيأ له الأسباب ، فلم يلبث أبو جهل ، وقد علم بخبر تخلفه إن جاءه ومعه عقبة بن أبي معيط ، ومع عقبة مجمرة فيها بخور ، ومع أبي جهل مكحلة ومرود ، فوضع عقبة المجمرة بين يديه وقال له : ياأبا على استجمر فانما أنت مثل النساء ، وقال أبو جهل : اكتحل أبا على فانما أنت امرأة ، فلم

---

(١) بفتح الضادين ، وسكون الميم بينها .

(٢) العير التي تحمل التجارة والأموال .

(٣) يقال : أوعب القوم إذا خرجوا جميعا إلى الغزو .

يجد بدا وقد استثار احميته بهذا الكلام الجارح لرجولته، إلا أن قال لهم : ابتاعوا لى أجود بعير بمكة ، وخرج معهم ، وفى نيته أن يرجع بعد قليل متسللا، ولكن منيته ساقته إلى حتفه رغم أنفه ، وهكذا لم يتخلف بمكة قادر على القتال. غير بنى عدى فلم يخرج منهم أحد .

تخوف قريش من بنى بكر : وكانت قريش تتخوف إذا خرجت إلى لقاء النبى وصحبه أن يأتيهم بنو بكر بن عبد مناه بن كنانة من خلفهم ، لما كان بينهم من ثارات ، وقتل فى الجاهلية حتى كاد ذلك يثنيهم عن الخروج لولا أن جاء سراقة بن مالك بن جعشم[١] المدلجى وكان من أشراف بنى كنانة فقال : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه ، فزالت مخاوفهم وأجمعوا على المسير ، فخرجوا بجمعهم بطرين أشرين وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى هذا بقوله : ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط ، وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم . فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال : إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب[٢] ، وكان مثله ومثلهم كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر . فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين [٣]

وكان تعداد جيش المشركين تسعمائة وخمسين رجلا ، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير يعتقبونها . وأمامهم القينات يغنين بهجاء المسلمين . وساروا

---

(١) وقيل إن إبليس جاء فى صورة سراقة وقال . إنى جار لكم وسار معهم ، حتى كانت الموقعة ، ونزلت الملائكة نكص على عقبيه

(٢) الأنفال ٤٧ و ٤٨

(٣) الحشر ١٦ و ١٧

يحدوهم البطر . ويملؤهم الزهور والغرور حتى كانت عاقبة أمرهم هلاكا وخسرا .

## فرار أبى سفيان بالعير واختلاف المشركين فى الخروج

أما أبو سفيان فقد ساحل بالعير خارجا عن الطريق المعتاد. فنجا وأرسل إلى قريش وقد خرجت عن بكرة أبيها يعلمهم بذلك، ويشير عليهم بالرجوع قائلا : إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا . ورأى رأى أبى سفيان من قريش عدد غير قليل ، لكن أبا جهل ما لبث حين سمع هذا الكلام أن صاح قائلا : والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليها ثلاثا ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا فلا يزالون يهابوننا أبدا ، فامضوا. وقال الأخنس بن شريق (١) — وكان حليفاً لبنى زهرة وكان فيهم مطاعاً — : يا بنى زهرة قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم — مخرمة بن نوفل ، فارجعوا فاتبعوا مشورته ورجعوا ، فلم يشهد بدرا زهرى ، وكذلك لم يشهدها أحد من بنى عدى، وكان بين طالب بن أبى طالب، وكان فى صفوف المشركين ، وبين بعض قريش محاورة فقال له : والله لقد عرفنا يا بنى هاشم — وإن خرجتم معنا — أن هواكم مع محمد . فرجع طالب إلى مكة مع من رجع ومضت جموع قريش فى خيلها وخيلائها حتى وصلت وادى بدر فنزلوا عدوته القصوى عن المدينة فى أرض سهلة لينة .

## ( مسير المسلمين إلى بدر )(٢)

أما النبى ﷺ فقد سار وأصحابه فى الطريق إلى بدر ، وكان لا يزال

---

(١) بفتح الشين المعجمة وكسر الراء

(٢) مكان بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب سمى باسم بئر هناك . وكان به سوق تقام كل سنة ثمانية أيام وبه قرية الآن .

شائعاً ، بين صفوف المسلمين ، أن عير أبى سفيان ستمر بها فى طريقها إلى مكة ، ولم يكن عليه السلام عارفا بما فعله أبو سفيان من إفلاته بالعير ، ولا بما قامت به قريش من جمع جموعها ، والتوجه إلى بدر حتى بلغ واديا يقال له «ذفران»(١) أو « الروحاء » وهناك أتاه الخبر عن قريش ومسيرهم فى جيش كبير لمنع العير وحمايتها. وحينئذ تغير وجه الامر ، ولم يصبح الامر مقصوراً على اللحاق بالعير والاستيلاء عليها ، فها هى قريش خرجت بجموعها الكثيرة ، وبذلك ترجحت كفة القتال والمناجزة ، فجمع رسول الله ﷺ كبراء الجيش وقال لهم: « أيها الناس إن الله وعدنى إحدى الطائفتين أنها لكم : إما العير ، وإما النفير » فتبين له عليه الصلاة والسلام أن البعض يريد العير ، ولا يرغب فى لقاء النفير . وقال بعضهم : هلا ذكرت لنا القتال فنستعد؟ ولكن الاكثرية كانت تريد لقاء النفير، وقد ذكر الله سبحانه هذا فى قوله : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم . ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون(٢) وإذا أراد الله شيئاً هيأ له الأسباب وإن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا .

## ( استشارة الى أصحابه فى القتال )

وقد كانت هذه الاستشارة بمثابة اختبار لإيمان المسلمين وصلابة عقيدتهم ومقدار استعدادهم للقتال ، والتضحية فى سبيل الإسلام ، وقد أسفر الامتحان عن نجاح باهر ، ودللوا بحق على أنهم أهل لحمل الرسالة المحمديه ، والجهاد فى سبيل تبليغها للناس كافة .

---

(١) بفتح الذال المعجمة وكسر الفاء : وادقرب وادى الصفراء .

(٢) الأنفال ٧ و ٨ والمراد بالطائفتين : العير أو النفير يعنى الجيش . ومعنى الشوكة : السلاح فغير ذات الشوكة هى العير . وقد صار مثلا أن يقال : فلان لا فى العير ولا فى النفير لمن لا خطر له ولا يؤبه به .

استشار النبي أصحابه فى القتال ، فقام أبو بكر الصديق فقال واحسن الكلام ، وقام الفاروق عمر فقال وأحسن الكلام ، ثم قام المقداد بن الأسود[١] فقال : « يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون — وفى رواية البخارى فى صحيحه : « ولكن نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك . وبين يديك وخلفك — فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[٢] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » فقال له رسول الله خيرا ودعا له ثم ، قال رسول الله : « أشيروا على أيها الناس » وإنما يريد الأنصار لأنهم لما بايعوه ليلة العقبة ، بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ما دام بين أظهرهم ، ولم تكن المبايعة على قتال خارج المدينة ، وإنها لمشورة حقة ممن كان أصدق الناس بالوعود ، وأوفاهم بالعهود ، وأبعدهم عن التوريط والخداع ، وقد فطن لهذا السيد الجليل سعد بن معاذ فقال : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله » ؟ قال « أجل » فقال : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض لما أردت فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن نلقى عدونا غداً إنا لصبر فى الحرب . صدق[٣]

---

(١) هوا لمقداد بين عمر وبين ثعلبة الكندى كان أبوه ترك بلاد قومة الى حضر موت وهلك تزوج وولدلهم المقداد فلم كبر المقداد تلاحى هو ورجل آخر ، فضربه بالسيف ، وهرب إلى مكة فحالف الأسود بن عبد يغوث الزهرى فتبنى المقداد ، فكان يعرف به فلما أبطل الأسلام ذلك كان يقال له : المقداد بين عمرو ولكن بقيت شهرته أبن الأسود .

(٢) برك : بفتح الباء ، الغماد بكسر الغين موضع على خمس ليال من مكة فى طريق اليمن .

(٣) صبر بضم الصاد والباء جمع صبور ، صدق بضم الصاد والدال . جمع صدوق .

عند اللقاء . لعل الله يريك ما تقر به عينك فسر على بركة الله » فسر الرسول وأشرق وجهه . ثم بشر القوم بالنصر قائلا : « سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

وكيف لا يسر الرسول بهذه المواقف المشرفة . التى مبعثها الإيمان الصادق الذى لا يعرف الضعف ولا الاستخذاء والذى ظهرت ثمراته فى كلمات طيبة مؤمنة، والتى كشفت عن معدن العرب المسلمين الأصيل ، وأبانت الفرق الشاسع ما بين موقف اليهود من نبيهم موسى عليه السلام. وموقف المسلمين من نبيهم محمد ﷺ، وإنها لمقارنة صادقة حقة فى هذا الموقف الدقيق تشف عن نفاسة معدن العرب ، وبطولتهم ، وعن خبث معدن بنى إسرائيل ونذالتهم .

## « تنطس أخبار قريش »

وارتحل المسلمون من « ذفران » حتى إذا كانوا على مقربة من بدر ركب رسول الله وصاحبه الصديق حتى وقفا على شيخ من العرب يقال له : سفيان الضمرى فسأله الرسول عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه من أخبارهم فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله « إذا أخبرتنا أخبرناك ، فقال أو ذاك بذاك ؟ قال: « نعم » قال الشيخ فإنه بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى به جمع رسول الله ﷺ ، وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذى أخبرنى صدقنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى به قريش، فلما فرغ قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله : نحن من ما[1] ! ! ثم انصرفا عنه فقال الشيخ ما من ماء ؟ أمن ماء[2] ؟ العراق ؟

ثم رجع رسول الله وصاحبه إلى أصحابه . فلما أمسى بعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يتسقطون له الأخبار ويتجسسون على قريش ، فأصابوا راوية[3] لقريش فيها غلامان لهما : غلام لبنى الحجاج ، وغلام لبنى العاص بن سعيد ، فأتوا

(١) هذا من التوريات البديعة وهو يحتمل معنيين : أحدهما قريب ، وهو المكان المعروف بهذا الاسم ، والثانى بعيد وهو الماء الذى خلق منه كل كائن حى وهو مراد النبى .

(٢) يعنى أمن المكان الذى بالعراق أم من غيره (٣) الابل يستقى عليها الماء .

بها ورسول الله ﷺ يصلى فقالا : نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان ، فضربوهما فلما أوجعوهما قالا : نحن لأبى سفيان ، فتركوهما فلما فرغ رسول الله من صلاته قال : « إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا — والله — إنهما لقريش » ثم قال لهما : « أخبرانى عن قريش » فقالا : هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : « كم القوم » ؟ قالا كثير قال : ما عدتهم ؟ قالا : لا ندرى ، قال الرسول : « كم ينحرون كل يوم » ؟ قالا : يوما تسعا ، ويوما عشرا ، فقال رسول الله ﷺ : « القوم ما بين التسعمائة والألف » (١) . فقال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ فذكرا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة ، وأبا جهل ، وأمية بن خلف ، وسهل بن عمرو فى آخرين من صناديد قريش ، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلا : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها !!

## ( تعرف أخبار العير )

وكما عاد سيدنا على ومن معه بالغلامين ، وبخبر قريش معهما ، عاد رجلان آخران ذهبا يتعرفان أخبار العير ، حتى عرفا من جاريتين تتنازعان على حق لإحداهما على الأخرى على ماء لهم أن العير ستقدم غدا أو بعد غد ، وأخبرا الرسول بما سمعا ، وكان أبو سفيان قد سبق العير يتسقط الأخبار ، حذر أن يكون المسلمون قد سبقوه إلى الطريق ، فلما ورد الماء وجد عليه مجدى بن عمرو ، فسأله هل رأى أحدا ؟ فأجابه بأنه لم ير إلا راكبين أناخا إلى هذا التل ، وأشار إلى حيث أناخا ، فأتى أبو سفيان مناخهما فوجد فى روث بعيريهما نوى عرفه من علائف يثرب ، فأسرع إلى أصحابه ، وعدل بالسير عن الطريق المعهود متبعا ساحل البحر ، مسرعا فى سيره حتى نجا بالعير كما قدمنا ، وأصبح الغدو المسلمون فى انتظار مرور العير بهم ، فإذا الأخبار تصلهم أنهـا فاتت ، وأن قريشا

---

(١) هذا من حصافة الرسول ، وألمعيته النادرة ، وحدسه الصائب الذى لا يخطىء .

بجموعها تعسكر بالقرب منهم ، وهكذا أفلتت العير ، ولم يبق إلا النفير وتعين القتال .

## ( جيش المسلمين فى بدر )

وسار المسلمون حتى نزلوا بعدوة الوادى الدنيا[١] بعيدا عن الماء فى أرض سبخة، لا تثبت عليها الأقدام فأصبحوا عطاشى ، وبعضهم جنب، وبعضهم محدث، ووجد إبليس وأعوانه مجالا للوسوسة ، وإلقاء الريب والشكوك فى النفوس ، فهجس قائلا : ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم، ويذهب قواكم ، فيتحكموا فيكم كيف شاءوا .

آية من السماء : ولكن الله عز شأنه أبطل كيده ، ومن عليهم بأن أرسل عليهم السماء مدرارا فشربوا : وتوضأوا واغتسلوا ، وملأوا الأسقية ، ولبد المطر الأرض من تحت أقدامهم ، فسهل لهم السير ، على حين كان نقمة على المشركين ، فقد وحل الأرض تحت أقدامهم ، حتى لم يعودوا يقدرون على الارتحال وصدق الله حيث يقول : « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجس الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام[٢] » وسار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر .

## ( مشورات حكيمة )

لما نزل النبى بالمسلمين هذا المنزل قال الحباب[٣] بن المنذر الخزرجى ـ وكان معروفا بجودة الرأى والدربة فى الحروب — لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم أو تتأخر

---

(١) العدوة . جانب الوادى الدنيا . القريبة من المدينة أما العدوة القصوى فهى البعيدة عنها

٢) الأنفال ١١ (٣) الحباب : بضم الحاء المهملة وفتح الباء الموحدة المخففة .

عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال الرسول : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل فامض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم تغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله : « لقد أشرت بالرأى ونفذ ما أشار به الحباب .

وقد دلل النبى بهذا على تأصل روح الشورى فى نفسه الشريفة فيما لم ينزل فيه وحى ، وأنه على جلالة قدره ، ووفور عقله وبعد نظره لا يستبد برأيه ولا يأنف من الرجوع إلى الحق ، كما هو شأن الكثيرين من القادة والزعماء والسياسيين ، فإن الواحد منهم قد يودى بأمة فى سبيل التشبث برأى قد يكون خطأ ، وما ذلك إلا لأنه نبى يتبع ما يؤمر به وصدق الله « فبما رحمه من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر . فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين »

ومن المشورات الصائبة مشورة سعد بن معاذ الأوسى فقد قال : يا نبى الله ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا فان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبالك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، ويناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه النبى خيرا ، ودعا له بخير ، ثم بنى للرسول عريش على تل مشرف على ميدان القتال ، فكان فيه ومعه صاحبه الصديق يحرسه .

وهذه الفكرة التى أشار بها سعد هى من أدق فنون الحرب ، فالقائد ينبغى أن يكون بمنأى عن ميدان القتال ، حتى يكون قادراً على التوجيه والإشارة بما يراه من أساليب القتال . وحتى لا يصاب فينفرط باصابته عقد الجيش فيكون مآله

---

(١) آل عمران ١٥٩ .

الفشل والهزيمة. وقضى الرسول فى ذلك العريش ليلته ، ومعه الصديق وأقام سعد ابن معاذ على مدخل العريش بسيفه ، ونام المسلمون نوما عميقا استراحوا فيه من وعثاء السفر

تصاف المسلمين : وفى الصباح صف النبى جنوده للقتال صفوفا متراصة لاخلل فيها ولا اعوجاج ، حسبما أشار إليه القرآن فى قوله سبحانه « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص[1] »

وارتحلت قريش حين أصبحت ، فلما رآها رسول الله تنحدر من وراء الكثيب إلى الوادى قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم أحنهم[2] الغداة » ووقف الجيشان وجها إلى وجه ، فلما رأى رسول الله ﷺ عتبة بن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر قال : « إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل إن يطيعوه يرشدوا » .

رؤيا الرسول : وكان رسول الله ﷺ قد رأى فى منامه — ليلة اليوم الذى التقى فيه الجيشان — المشركين قليلا عددهم كى يجرؤا عليهم ولا يهابوهم قال سبحانه « إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور[3] »

وكذلك شاء الله أن يقلل المشركين فى أعين المسلمين ، ويقلل المسلمين فى أعين المشركين كى يتجرأ الجيشان ، وتقع الواقعة فيكون النصر والعزة للمسلمين ، والهزيمة والذلة للمشركين ، والله سبحانه إذا أراد شيئاً مما يجرى بين الخلق ، يسر له الأسباب ، ووفر له الدواعى ، قال عز شأنه « وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور[4] » وروى عن ابن مسعود قال : لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر ، حتى إنى لأقول للرجل إلى جنبى أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة !

---

(١) الصف ٤ (٢) الحين بفتح الحاء الهلاك أى أن أهلكهم وأميتهم (٣، ٤٣) الأنفال ٤٣ ، ٤٤

وكان ذلك عند ما تراءى الفريقان ، فلما التحم الجيشان ، وأمد الله المسلمين بالملائكة تعينهم وتثبت قلوبهم ، وتلقى الرعب فى قلوب أعدائهم ، وتكثر عددهم رآهم المشركون مثليهم ، وعلى هذا ينزل قول الحق تبارك وتعالى : « لقد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار(١) فإن المعنى على أصح القولين أن الفئة الكافرة رأت الفئة المؤمنة مثلى عدد الكافرة على الصحيح أيضا(٢)

تخاذل فى صفوف المشركين : لما نزلت قريش منازل القتال بعثوا عمير ابن وهب الجمحى فقالوا له : احرز — قدر — لنا أصحاب محمد فاستجال بفرسه حول العسكر ، ثم رجع إليهم فقال : ثلثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر ألقوم كمين أو مدد ؟ فضرب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم ، فقال : مارأيت شيئاً ، ولكن قد رأيت — يامعشر قريش — البلايا تحمل المنايا . نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم(٣) .

« فشل المساعى لعدم الحرب »

ثم سعى بعض العقلاء فى الحيلولة بين قريش والحرب ، فقد مشى حكيم بن حزام إلى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال: وماذاك ياحكيم ؟ قال ترجع الناس وتحمل أمر حليفك عمر بن الحضرمى ، قال : قد فعلت . هو حليفى على عقله — ديته — وما أصيب من ماله ، فأت ابن الحنظلية

---

(١) آل عمران ١٣ (٢) أنظر تفسير ابن كثير والبغوى ج ٤ ص ٧٣ وتفسير الآلوسى ج ٣ ص ٩٦ (٣) فروا : أمر من رأى وصل بواو الجماعة

— أباجهل — فإني لا أخشى أن يجسر أمر الناس غيره ، ثم قام عتبة خطيبا فقال : يامعشر قريش إنكم والله ماتصنعون بان تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر اليه، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فان أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك لم تتعرض منه لما تكرهون،فانطلق حكيم إلى أبى جهل فأرغى وأزبد،واتهم عتبة بالجبن والتخوف على ابنه أبى حذيفة الذى كان فى صفوف المسلمين وأوعز إلى عامر الحضرمى أن ينشد مقتل أخيه ، فقام عامر مكتشفا وصرخ : واعمراه ، واعمراه، فانتصر الشر على محاولات الخير ، ولم يعد من الحرب مفر

مخاطرة من بعض المشركين : وقبل أن تقوم الحرب خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومى وقال . أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهد منه ، أو لأموتن دونه ، وتقدم نحو الحوض فعاجله أسد الله حمزة بضربة قطع بها نصف ساقه فوقع على الأرض وصار يزحف نحو الحوض إبرارا لقسمه حتى اقتحمه ، فثنى عليه سيدنا حمزة بضربة أخرى قضت عليه ، وحينئذ ثار الدم فى العروق ، وأهاج منظر الدم النفوس وأوشكت رحى الحرب أن تدور ، ووقف رسول الله بين أصحابه ينفخ فيهم من روحه ، ويشحذ عزائمهم بصدق إيمانه وسحر بيانه فكان مما قال : « وإن الصبر فى مواطن الباس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم »

ابتداء الحرب بالمبارزة : وابتدأت الحرب بالمبارزة فخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد وطلبوا المبارزة ، فخرج إليهم فتية ثلاثة من الأنصار فقالوا من أنتم ؟ قالوا : رهط من الانصار(١) ، فقالوا : أكفاء كرام ولكن اخرجوا إلينا أكفاءنا من بنى عمنا ، وذكر بعض محققى كتاب السيرة(٢) أن النفر من الانصار لما خرجوا كره رسول الله صلى الله علية وسلم ذلك ، لأنه أول موقف واجه فيه الرسول أعداءه ، فأحب أن يكون أولئك من

---

(١) هم : عوف ، ومعوذ ابنا الحارث ، وعبد الله بن رواحة الأنصاريون

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٧٣

أهله وذوى قرباه ، فأمر الأنصار بالرجوع وقال : « قم ياعبيدة بن الحارث وقم ياحمزة ، وقم ياعلى[1] » فبارز عبيدة — وكان أسن الثلاثة — عتبة ؛ وبارز حمزة شيبة ، وبارز على الوليد بن عتبة ، فأما حمزة وعلى فقتل كل منهما صاحبه ، وأما عبيدة وعتبة فاختلفا بضربتين كلاهما أصاب الآخر ، فكر حمزة وعلى فأجهزا على عتبة ، واحتملا صاحبهما وجاءا به إلى الرسول الله فأفرشه قدمه ، فوضع خده عليها وقد طاب نفسا بذلك ، ثم قال : يارسول الله وددت والله أن أبا طالب كان حيا ليعلم أنا أحق منه بقوله :

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن ابنائنا والحلائل[2]

ثم لم يلبث عبيدة أن توفى بعد من جراحته فقال رسول الله : « أشهد أنك شهيد » . وفى شأن هذين الفريقين المتبارزين نزل قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » رواه البخارى ومسلم .

تعديل الرسول صفوف الجيش : وبعد المبارزة رجع رسول الله ﷺ إلى جيش المسلمين يعدل من صفوفه بقضيب فى يده فمر بسواد بن غزية[3] حليف بنى النجار ، وهو خارج عن الصف ، فطعن فى بطنه بالقضيب وقال : « استقم

---

(١) عبيدة هو ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وقد أخطأ قلم بعض كتاب السيرة فظن أنه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب مثل المرحوم الشيخ الخضرى فى « نور اليقين » وعلى هذا فيكون المتبارزون اثنين من بنى هاشم وواحدا من أبناء عمومتهم وبنو هاشم والمطلب سواء فى الجاهلية والاسلام كما قال الرسول الكريم .

(٢) من قصيدة أبى طالب اللامية المشهورة التى يقسم فيها أن لا يسلم لهم رسول الله أبدا حتى يموتوا دونه . والحلائل . الزوجات وقبل هذا البيت

كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل

نبزى : نسلمه وتغلب عليه والكلام على حذف « لا » أى لا نبزى ولا نسلمه وفى رواية « لا يبزى محمد » بالرفع .

(٣) سواد بتخفيف الواو ، غزية كعنية

ياسواد » فقال : يارسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى — يعنى مكنى من نفسك حتى أقتص — فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه راضيا وقال : « استقد ياسواد » فاعتنقه سواد وقبل بطنه ! فقال النبى : « وما حملك على هذا ياسواد » ؟ قال : يارسول الله حضر ما ترى يعنى موطن الشهادة — فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك فدعا له الرسول بخير !!

وإن لنا هنا لوقفة ترينا كيف يبلغ السمو النفسى والخلقى بصاحبه ، وترينا كيف قبل النبى على جلالته عن طيب خاطر أن يقص أحد المسلمين من نفسه ، وهو غاية ما يطمع فيه من عدل فى هذه الحياة ، وترينا أيضا كيف بلغ حب هؤلاء الصحابة للرسول وتكريمه وتقديسه فى نفوسهم ، قداسة لا تخل بدين ولا عقيدة ، فهذا سواد ، وقد حضر موطن الشهادة يريد أن يحظى بلمسة من جسد الرسول ؛ لأنه يرى فيها ثلج الصدر ، وطمأنينة القلب وغذاء الروح !!

وصاة النبى للمسلمين . وتزاحف الناس من الفئتين ، ودنا بعضهم من بعض ، وأخذت جموع المشركين الغفيرة تنحدر نحو معسكر المسلمين ، والمسلمون ثابتون فى مكانهم ، وذلك عملا بنصيحة الرسول ﷺ فقد قال لهم : « لا تحملوا حتى آمركم ، وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » وقد بلغ النبى الغاية فى السياسة الحربية بهذه الخطة الحكيمة ، إذ أن معسكر المسلمين يكاد يكون خلوا من الخيل التى لابد من وجودها فى الهجوم ، هذا إلى قلة عددهم وكثرة عدد عدوهم ، فكان لابد من اتباع خطة الدفاع بدل الهجوم .

إشفاق ودعاء : وعاد رسول الله ﷺ إلى العريش ومعه صاحبه الصديق ، وسعد بن معاذ على باب العريش شاهرا سيفه ، وكان رسول الله أشد ما يكون إشفاقا على المسلمين وهم قليل ، وأخوف ما يكون من مصير هذا اليوم الذى له ما بعده ، واتجه النبى بقلبه وصدق إخلاصه إلى ربه ، مناشدا إياه ما وعده ،

ومستنزلا النصر والمدد لأصحابه قائلا : « اللهم أنجزلى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام ، فلا تعبد بعد فى الأرض أبدا » وما زال يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه ، فأخذه أبو بكر فردة على منكبيه ثم قال : يارسول الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك » .

وأخذت النبى سنة وهو فى العريش ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر فقد أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع » وصدق الله حيث يقول : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » .

التحريض على القتال :

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى صفوف المسلمين يحرضهم على القتال ، ويعدهم بالخلود فى جنات النعيم بمثل قوله : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، ومن قتل قتيلا فله سلبه »(١) وقوله : «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» فسمع ذلك عمير بن الحمام الأنصارى(٢) فقال : يارسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ! ؟ قال : (نعم) قال : بخ بخ(٣) !! فقال له رسول الله : « ما يحملك على قول : بخ بخ ؟ قال لا والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها قال : [فانك من أهلها ] وكان معه تمرات فى يده يأكل منهن ، فقال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة !! فرمى بما بقى معه ثم قاتل وهو يقول :

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

---

(١) السلبة بفتح السين واللام ما على المقاتل من سلاح وثياب وقيل من سلاح
(٢) عمير : بالتصغير ، الحمام : بضم الحاء المهملة وتخفيف الميم (٣) كلمة رضا واستحسان
(٤) الإصابة فى تاريخ الصحابة ص ٣١

وما زال يقاتل حتى قتل شهيدا رضى الله عنه وارضاه .

وقال عوف بن الحارث وهو ابن عفراء : يارسول الله ما يضحك الرب من عبده ؟ قال غمسة يده — أى سيفه — فى العدل حاسراً ، فنزع درعا كانت عليه فقذفها ، وصار يقاتل حتى استشهد رضى الله عنه وأرضاه .

## ( القوى الروحية تفوق القوى المادية )

وأخذ رسول الله كفا من الحصا بيده ، ثم خرج واستقبل القوم فقال : « شاهت الوجوه » ثم رماهم بها وقال لأصحابه شدوا فشدوا .

والتحم الجيشان ، واشتد القتال ، وحمى الوطيس ، وتعانقت السيوف ، وتخاطبت الأسنة بدل الألسنة ، وتوالت الإمدادات الإلهية بجند الله من الملائكة تثبت قلوب المؤمنين ، وتزف لهم البشرى ، وتلقى الرعب فى قلوب المشركين ، وتشارك فى القتال أحيانا وصدق الله « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان »[1] .

وأظهر المسلمون بطولات فائقة وعرفوا الدنيا أن القوى الروحية لاتقهرها القوى المادية » وأن النفس البشرية إذا امتلأت بالإيمان وحب الشهادة تضاءلت أمامها شم الجبال الراسيات ، فما بالك بالنفوس الخاويات ، والقلوب الفارغات ؟ وأن الله القوى القاهر يمد عباده المؤمنين بنصر من عنده إذا صدقوا الإيمان ، وأخلصوا له فى الجهاد وانتصروا على شهواتهم وأنفسهم واتقوا الله حق تقواه ، وكان شعار المسلمين يوم بدر « أحد . أحد » وما هى

---

(١) الأنفال ١٢

إلا ساعة حتى انجلت المعركة عن نصر حاسم للمسلمين ، وهزيمة منكرة للمشركين ، فقتل سبعون من صناديدهم ، وأسر سبعون ، ومن أفلت من القتل أو الأسر سارع إلى الهرب وقال : النجاء النجاء ! ولم تزد خسارة المسلمين يومئذ عن أربعة عشر شهيداً : منهم ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار . ولا عجب فقد كان « يد الله فوق أيديهم » ، وقوته معهم ، وكأنما كانت الحصى التى رمى بها الرسول سهاما ، صائبة ونارا محرقة ؛ وصدق الله « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »[١] ( وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم[٢] ) « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون[٣] » .

وكان هذا النصر المبين فى يوم الجمعة السابع عشر من رمضان يوم الفرقان الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وهو يوافق اليوم الذى ابتدأ الله فيه نزول القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يتعبد فى غار حراء ، وبين التاريخين أربع عشرة سنة قمرية ، بدئت بالقرآن ، وتوجت بيوم الفرقان .

مشاركة الرسول فى القتال : ولم يكتف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء ، والتحريض على الجهاد ، فقد شارك فى القتال ، روى الإمام أحمد بسنده عن على قال : « لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا من العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا » وروى البخارى بسنده عن ابن عباس أن رسول الله خرج من العريش يوم بدر ، وهو يثب فى الدرع ويقول : ( سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر ) وهذه الآية مكية قطعاً ، ولكن وقع مصداقها يوم بدر ، وهذا مما سبق نزوله معناه ، ولما نزلت

---

( ١ ) الأنفال ١٧ .
( ٢ ) الأنفال ١٠ .
( ٣ ) آل عمران ١٢٣ .

الآية بمكة قال عمر : أى جمع هذا ؟ ! فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدروع وهو يقول : ( سيهزم الجمع ويولون الدبر ... ) فعرفت تأويلها يومئذ(١) .

الصديق والقتال : وكان الصديق فى بدر ملازماً للرسول فى العريش وخارجه ، وبيده السيف يذب به عنه . روى عن على رضى الله عنه أنه خطب ذات يوم فقال : يا أيها الناس من أشجع الناس ؟ فقالوا أنت يا أمير المؤمنين فقال : إنى ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ولكن هو أبو بكر . إنا جعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً فقلنا : من يكون مع رسول الله لئلا يهوى إليه أحد من المشركين ؟ فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله لا يهوى إليه أحد من المشركين إلا أهوى إليه ، فهذا أشجع الناس ، ثم قال : ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذته قريش ، فهذا يحاده ، وهذا يتلتله ، ويقولون : أأنت جعلت الآلهة إلها واحداً ؟ فو الله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر ، يضرب هذا ، ويجاهد هذا ، وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله ، ثم رفع على بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال : أنشدكم الله أو مؤمن آل فرعون خير أم هو ؟ فسكت القوم فقال على : والله لساعة من أبى بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون : ذاك رجل يكتم إيمانه ، وهذا رجل أعلن إيمانه (٢)

## « إمداد الله المسلمين بالملائكة يوم بدر »

اتفق للعلماء قاطبة على إمداد الله سبحانه للمسلمين يوم بدر بالملائكة وذلك لقوله سبحانه ( إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من

---

(١) لأتقان جـ ١ ص ٣٦

(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٧١

الملائكة مردفين ، إلى قوله « إن الله عزيز حكيم »[١] وقوله : إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ... — إلى قوله — أو يكبتهم فينقلبوا خائبين[٢]. وقد حصل هذا الإمداد على مرات بألف أولا ، ثم بثلاثة آلاف ، بخمسة آلاف ، وبذلك تكمل الآيات بعضها بعضا .

ولكنهم اختلفوا ، أحصل قتال من الملائكة أم لا ؟ فذهب الكثيرون إلى حصول القتال فضلا عن البشرى والتثبيت بالقاء الخواطر الحسنة فى قلوب المسلمين وذلك لقوله سبحانه « إذ يوحى ربك إلى الملائكة إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » واستدلوا أيضاً بالأحاديث والآثار الواردة فى هذا ، ففى صحيح مسلم عن ابن عباس قال. (بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم — إسم فرس هذا الملك — فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً فنظر اليه فاذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الانصارى ، فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ( صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة ، )

وروى ابن إسحاق عن ابن عباس قال ( لم تضرب الملائكة فى يوم سوى يوم بدر وكانوا يكونون عدداً ومدداً لا يضربون[٣] وابن عباس وإن لم يكن حضر الموقعة يومئذ لصغره وعدم هجرته فلابد أن يكون سمع ذلك من رسول الله فيما بعد ، أو من مشيخة المهاجرين والانصار

وذهب بعض العلماء إلى أن الملائكة لم تقاتل يوم بدر وإنما كانت عونا ومددا

---

(١) الانفال ٩ ، ١٠

(٢) آل عمران ١٢٤ — ١٢٧

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ٨٥

تثبت القلوب وتبشر بالنصر وتكثر العدد واستدلوا بقوله سبحانه ( وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم(١) وقوله« وما جعله إلا الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به(٢) فقد ذكر الله هاتين الآيتين بعد آيات الإمداد وقالوا: إن الخطاب فى قوله سبحانه « فاضربوا فوق الاعناق .. » إنما هو حكاية لما أمر الله الملائكة أن يلقوه إلى المسلمين يوم بدر(٣) .

والذى نراه — والله أعلم — أن الإمداد بالملائكة حصل قطعا لتكثير العدد وتثبيت القلوب وإلقاء البشرى وأن بعضهم قاتل لأكلهم ، وأن الجهد الأكبر فى القتال إنما هو للمسلمين ، وبذلك لا نكون تعسفنا فى التأويل ، وخرجنا عن ظواهر بعض الآيات بغير داع ، ولا نرد الاحاديث الصحيحة الدالة على حصول قتال من بعض الملائكة . والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وقد يقول قائل : إن صيحة من جبريل أو انتفاضة منه كانت تكفى للقضاء على قريش وإبادتها فى لمحة عين ، فلم كل هؤلاء الملائكة ؟

وجوابنا عن ذلك أن الله جرت سنته مع الأمة المحمدية أن لا يأخذها بما أخذ به الأمم السابقة من عموم العذاب والاستئصال، وترك إهلاكهم للسنن العادية التى أجراها الله فى عباده بدفع الكافرين بالمؤمنين، والمبطلين بأهل الحق، والظالمين بالعادلين ، فأراد الله سبحانه أن يكون هلاك الكفار بأيدى المؤمنين ، ليكون ذلك أنكى لقريش ، وأذل لها ، واشفى لنفوس المؤمنين ، وفى الوقت ذاته أمدهم بالملائكة ، تثبت وتؤيد ، وتبشر ، وتخوف ، وتكثر العدد ، ولا حرج أن يشارك البعض فى القتال كما ذكرنا ، وقد اشار الحق إلى هذه الحكمة فى قوله : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم » إلى قوله « والله خبير بما تعملون(٤) .

---

(١) الأنفال .

(٢) آل عمران ١٢٦

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص٢٧٩ — ٢٨١

(٤) التوبة ١٤ — ١٦ أنظر تفسير ابن كثير والبغوى ٠ ج ،ص١٩ ٠ ٢٤

## « وصاة النبى ببعض القرشيين »

لما حرض النبى المؤمنين على القتال ، واستحث عزائمهم ، لم ينس وصيته بأناس خرجوا مكرهين إلى القتال بحكم العصبية الجاهلية . وكانت لهم مواقف مشكورة فى منع النبى وحمايته ؛ أو مساع حميدة فى رد الظلم والطغيان فقال لأصحابه يومئذ « إنى قد عرفت رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا مكرهين لاحاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله فإنه إنما خرج مستكرها » .

ولا تحسبن أن الرسول بهذه الوصاة أراد أن يحابى أهله وذوى قرباه ، فقد كانت نفسه الشريفة أسمى من ذلك وأرفع ، وإنما ذكر لبنى هاشم منعهم له ثلاثة عشر عاما ، وانحيازهم لأجله فى الشعب ثلاثة أعوام حتى جهدوا وأكلوا ورق الشجر ، وذكر لعمه العباس موقفه المشرف فى بيعة العقبة الثانية وقوله للأنصار : إن محمداً لا يزال فى عزة ومنعة من قومه ، وذكر لأبى البخترى أنه كان له ضلع كبير فى نقض الصحيفة الظالمة ، وهى حسنات لا ينساها الإسلام قط ، وقد كان من خلق رسول الله أن يرد الجميل بخير منه وليس أدل على ذلك من أن أبا البخترى ليس من بنى هاشم ، ولا تربطه بالنبى قرابة قريبة ، وإنما هو السمو الخلقى والإنسانى .

وفى ثورة من الحمية والغضب بدرت بادرة من رجل من خيار المسلمين وهو أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة فقال : « أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ونترك العباس ؟ والله لئن لقيته لألحمنه[1] بالسيف » فبلغت مقالته رسول الله فقال لعمر : « يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف » فقال عمر يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق ، ولكن الرسول أبى وغفر له ما بدر بحسن نية وصدق وإيمان .

---

(١) أى لأضربنه بالسيف .

ولقد بقيت الكلمة التى قالها أبو حذيفة شبحا مخيفاً يتراءى له أمام عينيه يقلق عليه راحته النفسية ، وطمأنينته القلبية كلما ذكرها ، حتى لقد كان يرى أن لا مكفر لها إلا الشهادة فى سبيل الله فكان يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عنى الشهادة وقد قتل يوم اليمامة شهيدا فرضى الله عنه وأرضاه .

## مثل عليا للايمان

من المثل الإيمانية الرائعة فى غزوة بدر ما حدث من بعض المسلمين ، فقد التقى المسلم الصادق أبوعبيدة بالأب المشرك عبد الله بن الجراح ، وقد كان الأب يتصدى لابنه يريد قتله ، وابنه يحيد عنه رعاية لحق الأبوة ، ولكن الأب ما زال يتصدى للابن يريد قتله ، فلم يكن بد لأبى عبيدة من قتله .

وفيها دعا الصديق أبو بكر ابنه عبد الرحمن إلى المبارزة وقال: دعنى يارسول أكن فى الرعلة[1] الأولى فقال له النبى ﷺ : « متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندى بمنزلة السمع والبصر » . وفيها قتل الفاروق عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام بن المغيرة ، وقتل حمزة وعلى أبناء عمومتهم من قريش[2] وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير[3] .

وهكذا ضرب المسلمون فى بدر مثلا عليا لصدق الإيمان . وأنهم آثروا رضاء الله ورسوله على حب الوالد والولد والأهل والعشيرة ، فلا تعجب إذا كان الله سبحانه أشاد بهذه المواقف الصادقة وأمثالها فى قوله سبحانه « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو

---

(١) فى القاموس : « والرعلة — بفتح الراء — .. القطعة من الخيل كالرعيل أو مقدمتها أى فى مقدمة المجاهدين والمستشهدين .

(٢) تفسير الألوسى ٢٨ ص ٣٧ .

(٣) تفسير القرطبى ج ١٧ ص ٣٠٧ .

كانوا آباءهم أو أبناءهم ، أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح من منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ، ورضوا عنه، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون(١)

## قتلى المشركين

لقد قتل فى بدر من صناديد قريش وأشرافهم مايربو على السبعين منهم عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد ، وأبوجهل بن هشام قتله معاذ ابن عمرو بن الجموح ومعوذ(٢) ابن عفراء فتيان من الأنصار(٣) ، ثم أدركه عبدالله ابن مسعود وبه رمق ؛ فوضع رجله على عنقه فقال أبوجهل له : لقد ارتقيت مرتقى صعبا ياروعى الغنم ، فاجتز ابن مسعود رأسه وجاء به إلى رسول الله ، وأمية بن خلف وكان هو الذى يعذب بلالا على الإسلام فلما رآه بلال قال : رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا ، وكان أمية وابنه قد وقعا أسيرين فى يد عبد الرحمن بن عوف فدرأ بلالا عنهما فقال بلال لا نجوت إن نجا ، ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، راس الكفر أمية بن خلف لانجوت إن نجا فأحاطوا به وبابنه حتى قتلوهما ، والعاص بن هشام بن المغيرة ، وعبد الله بن الجراح والد أبى عبيدة ، وحنظلة بن أبى سفيان ، ونوفل بن خويلد الأسدى، وأبو البخترى بن هشام ، وكان رسول الله قد أوصى المسلمين بهخيرا كما أسلفنا ولكنه أبى إلا أن يترك هو وزميل له فقالوا له : ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك قال . لا والله إذا لأموتن أنا وهو جميعاً ، وغيرهم كثير .

## « موقف إنسانى للرسول »

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتلى فنقلوا من مصارعهم التى

---

(١) المجادلة ٢٢ (٢) بضم الميم وفتح العين وكسر الواو المشددة ، وقيل : د فتح وعفراء ؛ أمه (٣) وقيل اشترك فى قتله معاذ ،ومعوذ ابنا عفراء ، ومعاذ بن عمرو بن الجموح ، أنظر صحيح البخارى وكتاب فرض الخمس-باب من قتل قتيلا فله سلبه ، وكتاب المغازى - باب قتل أبى جهل) وفتح البارى فى الموضعين

كانوا بها إلى قليب[١] ببدر ، وقد كان من سنة رسول الله ﷺ فى مغازيه إذا مر بجيفة إنسان أمر بها فدفنت لا يسأل عن صاحبها مؤمنا أم كافرا[٢] ، وهو موقف إنسانى كريم لا يفعله إلا أولو العزم من الرسل ، فطالما أهانوه ، وسبوه وأذاقوه وأصحابه العذاب ألوانا ، وهم الذين أخرجوهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم ، ولكنها إنسانية الإسلام تعلو عن الأحقاد والانتقام ، ولما طرحوهم ولم يبق إلا أمية بن خلف ، وقد كان رجلا بدينا فانتفخ فى درعه فملأها فذهبوا ليخرجوه فتزايل لحمه ، فأقروه وحفروا له وألقوا عليه التراب حتى واراه . ولما مروا بعتبة بن ربيعة ليلقوه فى القليب وكان ابنه أبو حذيفة حاضرا نظر رسول الله ﷺ فى وجه ابنه فإذا هو كئيب قد تغير لونه فقال . « يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شىء » ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ماشككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للاسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت مامات عليه من الكفر ، بعد الذى كنت أرجو له أحزننى ذلك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له : خيرا

## البشرى بالنصر

ولما تم النصر أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مبشرين قبل مقدمه المدينة : عبد الله بن رواحه لأهل العالية[٣] ، وزيد بن حارثة لأهل المدينة راكباً على ناقة رسول الله ، فدخلا وهما يرفعان عقيرتهما إعلاما بالنصر للمسلمين ، والقتل والهزيمة للمشركين فتلقاهم الرجال والصبيان والولائد ، وطافوا بالمدينة وضواحيها يهللون ويكبرون الله على هذا النصر العظيم .

---

(١) القليب البئر التى لم تطو أى لم تبن جوانبها بالطوب فانهارت

(٢) رواه الدارقطنى فى سننه

(٣) العالية قرى ظاهر المدينه ومنها قباء .

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا بالمدينة ، وزعموا أن النبى قد قتل وأن المسلمين هزموا ، فلما جاء المبشران شرقوا بريقهم ، ورأوا أنهم قد ذلوا وهانوا حتى قال أحد زعماء اليهود : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشراف الناس وساداتهم ، وملوك العرب وأهل الحرم الآمن .

وقد جاءت البشرى والمسلمون منصرفون من دفن السيدة رقية بنت النبى ﷺ ، وكان تركها مريضة لما خرج لبدر ، وخلف معها زوجها عثمان ، فخفف من هول المصاب ما من الله به على المسلمين من نصر مؤزر وقد ضرب النبى ﷺ بهذا مثلا لإيثار مصلحة الإسلام والمسلمين على الأهل والولد .

## ( الاختلاف على غنائم بدر وقسمتها )

لما أراد المسلمون أن يقتسموا الغنائم التى غنموها فى بدر اختلفوا . فقال الشباب الذين خرجوا يتعقبون الكفار : نحن الذين نفينا عنها العدو ، ولولانا لما أصبتموها ، وقال الرجال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ ونافحوا دونه : نحن خفنا على رسول الله أن يصيب منه العدو غرة ، فاشتغلنا به عن جمع الغنائم ، وقال الذين جمعوا الغنائم : نحن الذين استحوذنا عليها وليس لأحد فيها نصيب ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجمع الغنائم حتى يحكم الله حكمه فيها فأنزل الله سبحانه قوله : « يسألونك عن الأنفال قل : الأنفال لله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين »[1]

وقد ذهب بعض كتاب السيرة كابن اسحاق وبعض العلماء كأبى عبيد القاسم بن سلام إلى أن النبى ﷺ قسمها بين المجاهدين بالبواء يعنى بالسواء . ولم يخمسها ، وهؤلاء يرون أن هذا الحكم كان فى مبدأ الأمر ثم نسخ فيما بعد بقوله سبحانه : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ، وللرسول ولذى

---

(١) الانفال ١ .

القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل..» الآية (١)

وذهب كثير من العلماء من المحدثين وغيرهم أن رسول الله ﷺ خمسها ، فأخذ الخمس لنفسه ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وقسم أربعة الأخماس الباقية بين المجاهدين ، ويرى هؤلاء أن سياق الآيات قبل آية الخمس وبعدها فى غزوة بدر وقصتها، وهو يقتضى أنها نزلت كلها جملة واحدة فى وقت واحد غير متأخر بعضها عن بعض حتى يقال بالنسخ ، قال ابن كثير فى بدايته : « وهو قول البخارى وابن جرير وغيرهما وهو الصحيح الراجح » وقال هؤلاء : إن ماورد فى رواية ابن اسحاق من أن الغنائم قسمت بالبواء أى ساوى فيها النبى بين الذين جمعوها وبين الذين ثبتوا تحت الرايات مع الرسول لم يخص بها فريقاً دون الآخر ، ولا ينفى هـذا تخميسها وصرف الخمس فى مواضعه ، ويشهد لهم أيضاً مارواه البخارى فى صحيحه من قصة الشارفين (٢) اللذين كانا لعلى رضى الله تعالى عنه فجب حمزة — رضى الله عنه — أسنمتهما ، وبقر بطنها ، وهو عمل وذلك قبل أن تحرم الخمر ، ففيها أن أحدهما كان من نصيبه فى غنائم بدر ، والآخر كان من الخمس الذى أفاء الله به على رسوله من بدر(٣) ، ومهما يكن من شىء فقد حسم الله الخلاف ، وبذلك زال الانقسام ، وحل الوئام وعاد الصفاء .

وقد أسهم النبى لبعض من لم يحضر الموقعة لعذر ، وهم أبولبابة الأنصارى لأنه كان مخلفاً على أهل المدينة ، وعاصم بن عدى لأنه خلفه الرسول على أهل قباء والعالية ، والحارث بن حاطب لأن الرسول خلفه على بنى عمرو ابن عوف ، والحارث بن الصمة ، وأخوات بن جبير لأنهما كسرا بالروحاء فلم يتمكنا من السير ، وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد لأنهما أرسلا

---

(١) الأنفال ٤١ (٢) الشارف : الناقه المسنة (٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠٢ وتفسير ابن كثير والبغوى ج ٣ ص ٩٤

يتجسسان الأخبار فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب ، وعثمان بن عفان لأن رسول الله كان خلفه على السيدة رقية ليمرضها .

وكذلك أسهم الرسول لمن استشهد ببدر ، فأعطى ذلك لورثتهم وهم أربعة عشر مسلماً : ستة من المهاجرين منهم عبيدة بن الحارث الذى جرح فى المبارزة الأولى ، ثم مات عند رجوع المسلمين من بدر ودفن « بالصفراء » وثمانية من الأنصار . ومافعله النبى هو غاية العدل والإنصاف ، وقد سبق به إلى رعاية أسر الشهداء وذويهم وضمان عيشة كريمة لهم بعد وفاة عائليهم قبل أن يعرف العالم الحديث ذلك .

## ( الأوبة إلى المدينة )

ثم قفل المسلمون إلى المدينة شاكرين الله وحامدين ، لايزهيهم النصر ، ولايبطرهم الغلب ، وقد سبقتهم البشرى بالنصر إلى المدينة وما جاورها ، وكان مع رسول الله الأسرى ، وكانوا نحواً من السبعين ، وفى الطريق تحت سرحة عظيمة بالقرب من « الصفراء » قسم رسول الله الغنائم بين المسلمين على حسب ما أراه الله ، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه ومن معه من المسلمين بالفتح العظيم ، والنصر المبين ، ودخل الجيش المنصور المدينة بين تهليل المهللين ، وتكبير المكبرين ، وضرب الولائد بالدفوف وترديد أهازيج النصر .

## ( وصاة النبى بالأسرى )

وصل الرسول المدينة قبل قدوم الأسارى بيوم ، وكان قد فرقهم بين أصحابه وقال : ( استوصوا بهم خيراً ) وهذا غاية الرحمة والإنسانية حيث أوصى بأناس طالما عذبوه وأصحابه ، وحاولوا فتنتهم عن دينهم ، وقد نفذ الصحابة وصية رسول الله بأمانة ، وكانوا سمحاء كرماء معهم ، فهذا أبو

عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يقول : كنت فى رهط الأنصار حين أقبلوا بى من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا ، ماتقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها ، فأستحى فأردها فيردها على مايمسها .

وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث وكان قد مر به اخوه مصعب ورجل من المسلمين فأسروه فقال له : شد يديك به فان أمه ذات متاع لعلها تفديه منك ، فقال له أبو عزيز : ياأخى هذه وصاتك بى ؟ فقال له مصعب : إنه أخى دونك فسالت أمه عن أغلى مافدى به قرشى فقيل لها أربعة آلاف درهم فبعثت بها فداء له ، وكان أخاً شقيقاً لمصعب وقد أسلم أبو عزيز بعد وحسن إسلامه ، وروى الحديث(١) .

ولما قدما المسلمون بالأسارى كانت السيده سودة بنت زمعة زوج النبى عند آل عفراء فى مناحتهم على عوف ومعوذا بنى عفراء وهما من شهداء بدر وذلك قبل أن ضرب الحجاب فلما أخبرت بقدوم الأسارى رجعت إلى بيتها ورسول الله فيه فإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو(٢) مجموعة يداه إلى عنقه بحبل فما ملكت نفسها حين رأته كذلك أن قالت: أى أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا متم كراماً ؟! قالت فوالله ما أنبهنى إلا قول رسول الله من البيت «ياسودة أعلى الله وعلى رسوله تحرضين» ؟! فقالت :والذى بعثك بالحق ماملكت نفسى أن رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ماقلت، فقبل النبى اعتذارها

---

(١) الروض الأنف ج ٢ ص ٧٨ الإجابة ص ١٣٣

(٢) هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود — ابن عم والد السيدة سوده ، وهو زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود

# ( قتل أسيرين )

وبينما كان النبى والمسلمون فى طريقهم إلى المدينة أمر بقتل أسيرين : أحدهما النضر بن الحارث ، والثانى عقبة بن أبى معيط وكانا من شر عباد الله ، وأكثرهم كفراً وعناداً وبغيا وحسداً وإيذاء للنبى والمسلمين ، وهجاء للاسلام وأهله ، ولم يأمر النبى بقتل أحد من الأسرى غيرهما .

ذلك أنه لما بلغ النبى فى مرجعه « الصفراء » عرض عليه الأسرى ، فنظر النبى ﷺ إلى النضر نظرة رأى فيها الموت ، فلما رأى ذلك قال لمصعب بن عمير — وكان أقرب من هناك به رحما — . كلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابه فهو والله قاتلى ، إن لم تفعل فقال مصعب : إنك كنت تقول فى كتاب الله وفى نبيه كذا وكذا ، وكنت تعذب أصحابه ، فقال النضر : لو أسرتك قريش ما قتلتك ابداً وأنا حى قال مصعب : والله إنى لأراك صادقاً ، ثم إنى لست مثلك فقد قطع الإسلام العهود ! ! وكان النضر أسير المقداد بن الأسود وكان يطمع أن ينال فى فدائه مالا كثيراً ، فلما هموا بقتله صاح . النضر أسيرى فقال النبى لعلى بن أبى طالب : اضرب عنقه ، واللهم أغن المقداد من فضلك .

أما عقبة بن أبى معيط فقد قتل « بعرق الظبية » ولما أمر النبى بقتله قال : فمن للصبية يا محمد ؟ قال « النار » ثم قال : أتقتلنى من بين قريش ؟ فقال النبى « نعم » ثم التفت إلى أصحابه وقال « أتدرون ما صنع هذا بى ؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقى ، وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عينى ستندران[1] . وجاء مرة بسلا[2] شاة فألقاه على رأسى وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى » وهذه القصة الثانية رواها البخارى ومسلم ، فقد كان النبى

---

(١) ستخرجان من مكانهما .

(٢) الكيس الذى يكون فيه الجنين فى بطن أمه « المشيمة » .

يصلى عند الكعبة ورؤساء الشرك جالسون فقالوا من يذهب إلى سلا جذور: بنى فلان فيأتى به فإذا سجد محمد وضعه على ظهره ؟ فقال عقبة هذا : أنا ، فذهب وجاء به ومعه فرث [١] ودم فوضعه على ظهر النبى ورأسه فصاروا يتضاحكون، ومكث النبى على هذا خشية أن يقوم فيقع فى المسجد الحرام فيقذره ، حتى انطلق أحد الناس فأخبر ابنته فاطمة، وكانت صغيرة السن فجاءت ، ونحت القذر عن أبيها . وقلبها يكاد يتفطر مما رأت وعيناها مغرورقتان بالدموع ، ثم التفتت إلى القوم ، فسبتهم ، ودعت عليهم على هذا العمل ، وقد قتله على بن أبى طالب ، وقيل: عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح .

ولما قتل النضر بن الحارث رثته أخته قتيلة بنت الحارث وكان مما قالت :

أمحمد يا خير ضنء [٢] كريمة ... من قومها والفحل [٣] فحل معرق

ما كان ضرك لو منت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق

والنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق

قال ابن هشام : يقال أن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال: «لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه [٤] » وليس هذا بعجيب من الرءوف الرحيم الذى وسع خلقه الناس جميعا : محسنهم ومسيئهم أما باقى الأسارى فلم يكن الرسول وأصحابه قد اتفقوا على رأى بالنسبة إليهم أيقتلون أم يفادون؟

## (أسارى بدر)

ولما استقر المقام للمسلمين بالمدينة بعد بدر استشار النبى أصحابه فيما يصنعون بالأسارى فقال الصديق أبو بكر — وكان رحيما رقيقاً — يا رسول الله قومك وأهلك ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفداء ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار

---

(١) الفرث . مايكون فى الكرش من فذر .

(٢) الضنء . بفتح الضاد وكسرها : الولد .

(٣) تريد الأب ، أى انه كريم الأبوين .

(٤) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠٥ .

وعسى أن يهديهم الله فيكونون لناعضدا ، فقال رسول الله ماترى يا بن الخطاب؟ فقال عمر — وكان صلباً فى الحق شديداً — والله . ما أرى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننى من فلان — قريب لعمر — فأضرب عنقه وتمكن علياً من أخيه عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين وهؤلاء صناديدهم ، وأئمتهم ، وقادتهم .

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله أنظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم ناراً ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئاً ، ومكث ساعة ثم خرج والصحابة ما بين قائل برأى أبى بكر ، وقائل برأى عمر ، وقائل برأى ابن رواحة فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال : « فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم » وكمثل عيسى قال : إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » وكمثل موسى قال : «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» أنتم اليوم عالة[1] فلا يفلتن أحد ، إلا بفداء أو ضربة عنق » .

فقال عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء فانى قد سمعته يذكر الإسلام فسكت النبى قال عبد الله : فما رأيتنى فى يوم أخوف أن تقع على حجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال النبى : « إلا سهيل بن بيضاء » فسرى عنه وهكذا رجح النبى صلى الله عليه وسلم رأى الصديق لما جبل عليه قلبه من الرأفة والرحمة ولما فيه من التخلق بصفة من صفات الرب — جل وعلا حيث قال : « سبقت رحمتى غضبى » .

---

(١) بمعنى فقراء فى حاجة إلى المال

# وصول النذير بالهزيمة إلى قريش

على حين كان المسلمون فرحين بنصر الله ، وما أفاء الله عليهم من الغنائم كان الحيسمان بن عبد الله الخزاعى يحث الطريق إلى مكة حتى كان أول من دخلها ، وأخبر أهلها بالهزيمة ، وقتل الكثيرين من صناديدهم وأشرافهم وأسر الكثيرين منهم ، وقد تشككوا أول الأمر ثم لم يلبثوا أن استيقظوا لما توالت عليهم النذر فكأنما نزلت عليهم صاعقة من السماء ، وكان أشدهم غيظا وكمداً أبو لهب بن عبد المطلب ، ولم يمكث إلا بضع ليال حتى رماه الله بمرض العدسة فقضى عليه ، وكانت قريش تتقى هذا المرض ، فتركاه ابناه بعد موته ثلاثا حتى أنتن ، فقال لهما رجل من قريش : ألا تستحيان ان أبا كما قد أنتن فى بيته ألا تدفنانه؟ فقالا : إنا نخشى عدوى هذه القرحة ، فقال : انطلقا وأنا أعينكما عليه ، فغسلوه قذفا بالماء من بعيد ما يدنون منه ثم احتملوه إلى أعلا مكة فأسندوه إلى جدار ثم ردموا عليه الحجارة ، وهكذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يموت هذه الميتة الشنيعة لعداوته للرسول ومناهضته للاسلام ، وعدم رعايته للرحم حرمة » .

ومكث قريش تنوح على قتلاها مدة ، ثم تواصوا فيم بينهم وقالوا : لاتفعلوا يبلغ محمد وأصحابه فيشمتوا بكم ، وكذلك تواصوا أن لايسرعوا فى بذل الفداء ، وقالوا : لا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنوا بهم لا يأرب[1] عليكم محمد وأصحابه فى الفداء وكان هذا من تمام ما عذب الله به أحياءهم فى ذلك الوقت فإن البكاء مما يبل فؤاد الحزين ، ويخفف من لوعة الحزن . وهول المصاب ، وكان الأسود ابن المطلب قد أصيب فى ثلاثة من ولده : زمعة وعقيل والحارث ، فقال لغلام له : هل بكت قريش على قتلاها لعلى أبكى على ولدى فان جوفى قد احترق .

---

(١) قال فى النهاية فى تفسير هذا الخبر أى يتشددون عليكم فى طلب الفداء

# ( إفتداء الأسرى )

ولم تطق قريش الصبر على ما اتفقوا عليه من عدم التسارع إلى الفداء ، وانسلوا واحداً وراء الآخر ، وقد كان فى الأسارى أبو وداعة بن ضبيرة السهمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن له بمكة ابناً كيساً تاجراً ذا مال وكأنهم به قد جاء فى طلب فداء أبيه » فلما قالت قريش : لا تعجلوا بفداء أسراكم .. قال المطلب بن أبى وداعة : صدقتم لا تعجلوا ، وكان هو أول من نقض هذا فانسل من الليل ، وقدم المدينة ، وفدى أباه بأربعة آلاف درهم وكان هذا أول أسير فدى ثم بعثت قريش فى فداء أسراهم .

فقدم مكرز بن حفص فى فداء سهيل بن عمرو ، وكان سهيل رجلا أعلم(١) من شفته السفلى فقال عمر بن الخطاب لرسول الله: دعنى انزع ثنيه سهيل بن عمر فيدلع (٢) لسانه فلا يقوم عليك خطيباً فى مواطن أبدا ، فكان جواب النبى هذا الجواب البالغ السمو فى الرحمة والإنسانية: ولا أمثل فيمثل الله بى وإن كنت نبياً وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمه. وقد صدقت نبوأة الرسول، فإنه لما جاور الرفيق الأعلى أراد بعض أهل مكة الارتداد كما فعل غيرهم من الاعراب والمنافقين، فقام سهيل هذا خطيباً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله .

« أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ألم تعلموا أن الله قال :« إنك ميت وإنهم ميتون »وقال. « وما محمد إلا رسول قد خلق من قبله الرسل ...» ثم قال : والله إنى لاعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس فى طلوعها فلا يغرنكم هذا — يريد أبا سفيان — من أنفسكم فإنه يعلم من هذا الامر ما أعلم لكنه قد ختم على صدره حسد بنى هاشم، وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم ، وكلمته تامة ، وإن الله ناصر من نصره،

---

(١) مشقوق الشفة

(٢) يخرج عند الكلام

ومقر دينه، وقد جمعكم الله على خيركم — يعنى أبا بكر — وإن ذلك لم يزد الاسلام إلا قوة، فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه، فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه، فكان معجزة من معجزات النبوة.

ومن الأسرى عمرو بن أبى سفيان بن حرب، فقالوا له: افد عمراً ابنك فقال: لن يجتمع على دمى ومالى. قتلوا حنظلة وأفدى عمرا؟ دعوه فى أيديهم فيمسكوه ما بدا لهم فبينما هو كذلك خرج سعد بن النعمان وكان شيخاً مسلماً إلى مكة معتمراً، فعدا عليه أبو سفيان فحبسه بابنه عمرو، فمشى قوم سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان، فيفكوا صاحبهم به، فأعطاهم إياه فأرسلوه إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد.

ومن الأسرى العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ابن إسحاق قال: لما أمسى رسول الله يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثاق بات النبى ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: مالك لا تنام يا رسول الله؟ فقال. سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه، فأطلقوه فسكت، فنام رسول الله[1] وروى الحاكم فى المستدرك عن ابن عمر قال: لما أسر العباس فيمن أسر يوم بدر أوعدته الأنصار أن يقتلوه فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال. «إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس، وقد زعمت الانصار أنهم قاتلوه» فقال عمر. أفآتيهم؟ فقال: «نعم» فأتى عمر الانصار فقال لهم ارسلوا العباس فقالوا: لا والله لا نرسله فقال عمر: فان كان لرسول الله رضا؟ قالوا. فان كان له رضا فخذه، فأخذه عمر فقال له. يا عباس أسلم فوالله لئن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله يحبه إسلامك.

ومع أن النبى تألم لألمه وهو فى الاسر فقد أبى إلا أن يأخذ منه الفداء، وقد فدى نفسه وابنى أخويه عقيل بن أبى طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب

---

(١) السيرة ح فتح البارى. جـ ٧ ص ٢٤٨ طبولاق

وحليفه عتبة بن عمرو أحد بنى الحارث بن فهر بمائة أوقية من الذهب ، ولما قال للنبى : إنه لا مال له . قال له : فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل : وقلت لها : إن أصبت فى سفرى فهذا لبنى : الفضل ، وعبد الله ، وقثم فقال . والله إنى لأعلم أنك رسول الله إن هذا شىء ما أعلمه إلا أنا وأم الفضل !! ولما قال : إنه خرج مستكرها وأنه كان قد أسلم قال له النبى . « أما ظاهرك فكان علينا ، والله أعلم بإسلامك وسيجزيك » وكذلك أبى أن يتنازل له الانصار عن الفداء . روى البخارى فى صحيحه عن أنس ابن مالك قال . إن رجالا من الانصار[1] استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إئذن لنا فلنترك لابن اختنا[2] العباس فداءه ، فقال « لا والله لا تذرون له درهما »[3].

وهذا غاية العدل والإنصاف فى المعاملة ، فرسول الله مع رحمته بعمه وشفقته عليه وتخوفه أن يقتل وهو يرجى من ورائه للاسلام خير كثير ، تأبى عليه نفسه السامية أن يفرق بينه وبين الأسارى فى الفداء أو أن يقبل أن يمن عليه الانصار خشية أن يكون عملهم هذا لمكانه من رسول الله وقرابته مع أنه ﷺ من على بعض الاسارى دون فداء ، وهذا ليس بعجيب ممن كان خلقه القرآن .

ومن الاسرى أبو عزة الشاعر ، كان فقيرا ذا عيال ، فقال : يارسول الله لقد عرفت مالى من مال ، وإنى لذو حاجة وذو عيال فامنن على ، فمن عليه رسول الله ، وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحدا ، فتعهد بذلك ومدح الرسول بشىء من شعره ثم لم يلبث أن أغراه المشركون بهجاء النبى والمسلمين ففعل بعد أن تمنع ، وصار يؤلب على المسلمين لأجل أحد ، وقد حضر الموقعة فأسر ، فسأل النبى أن يمن عليه فقال له : « لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول : خدعت محمدا مرتين ،

---

(١) هم بنو النجار ، وقد كان وقع فى أسرهم ، ولعل الذين أرادوا أن يقتلوه غير بنى النجار أو بعض آخر منهم فلا تنافى بين هذه الرواية والسابقة

(٢) هم إخوان أبيه عبد المطلب لأن أمه سلمى بنت عمرو من بنى النجار ففى الكلام تجوز .

(٣) البداية والنهاية جـ٣ ص ٢٩٩

ثم أمر به فضربت عنقه وقيل : إن الرسول قال له : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » قيل ، إن هذا من الأمثال التى لم تسمع إلا منه عليه الصلاة والسلام(١) .

ومن الأسرى الوليد بن الوليد افتداه أخواه خالد وهشام ، فلما افتدى ورجع إلى مكة أسلم ، فقيل له : هلا أسلمت قبل الفداء فقال خفت أن يعدوا اسلامى خوفا ، ولما أراد الهجرة إلى المدينة منعه أخواه ، فبقى بمكة حتى قر إلى النبى فى عمره القضاء .

ومن الأسرى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس صهر رسول الله ﷺ وزوج ابنته زينب — رضى الله عنها — وهو ابن أخت(٢) السيدة خديجة رضى الله عنها ، وكان من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة وكان تزوجها قبل النبوة ، فلما دعا النبى إلى دين الله مشى رجال من قريش إلى أبى العاص فقالوا له : فارق صاحبتك ونحن نزوجك بأى امرأة من قريش شئت قال : لا والله إذا لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش ، وكان رسول الله ﷺ يثنى عليه فى صهره كما ثبت فى صحيح البخارى ويقول : « حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فوفى لى » وكان أسر ببدر فلما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت السيدة زينب بنت الرسول فى فداء زوجها بمال وفى المال قلادة كانت للسيدة خديجة — رضى الله عنها — فاهدتها إليها وأدخلتها بها على أبى العاص ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وأهاجت فى نفسه ذكرى السيدة الجليلة التى واسته بنفسها ومالها خديجة فقال لاصحابه : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا فقالوا » نعم يارسول الله ، فأطلقوه وردوا عليها قلادتها ، وكان النبى قد أخذ عليه أن يخلى سبيل ابنته زينب

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٣

(٢) الروض الأنف ص ٨١، ٨٣ الإصابة جـ٤ ص ١٢٢ والاستيعاب (على هامش الاصابة) ٤ ص ١٢٥ — ١٢٩

فوفى بالعهد وأرسلها ، فبقيت عند أبيها إلى ما بعد الحديبية فأسر مرة أخرى ففر إلى المدينة واستجار بزوجته زينب — وكان الإسلام قد فرق بينه وبينها — فأجارته ، فأقر المسلمون إجارتها له ، ورجع إلى مكة ومعه ماله ، فأدى الامانات إلى أصحابها ، ثم عاد إلى المدينة مسلما ، فردها النبى ﷺ إليه بعقد ومهر جديدين على الصحيح .

ومن الأسرى وهب بن عمير بن وهب الجمحى وكان أبوه شيطانا من شياطين قريش ، شديد الإيذاء للرسول وأصحابه بمكة ، جلس يوما بعد الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب بدر فقال عمير : والله لولا دين على ليس عندى قضاؤه . وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد فأقتله فان ابنى أسير عنده فاغتنمها صفوان بن أمية فقال له : على دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أو أسيهم ما بقوا لا يسعنى شىء ، ويعجز عنهم ، فقال له عمير : فاكتم على ، قال : سأفعل ، ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له ، وسم ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينما عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، وما أكرمهم الله به إذ نظر إلى عمير بن وهب وقد أناخ بعيره على باب المسجد متوشحا سيفه ، فقال : هذا عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر ! ! وهو الذى حرش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر ، ثم دخل على رسول الله فأخبره فقال له . « أدخله على » فأقبل إليه عمر فأخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها ، وقال لمن كان معه من الأنصار : ادخلوه على رسول الله فلما رآه وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال . « أرسله يا عمر : أدن يا عمير » فدنا فقال له . « فما جاء بك ياعمير » ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم : فأحسنوا فيه . قال : « فما بال السيف فى عنقك » ؟ قال : قبحها الله من سيوف وهل أغنت شيئاً ؟ قال : « أصدقنى ما الذى جئت له » ؟ قال . ما جئت إلا لذلك ، قال . بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت . لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل

لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك على أن تقتلنى ، والله حائل بينك وبين ذلك ، فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ! ! قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان : فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للاسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله ﷺ : ( فقهوا أخاكم فى دينه وعلموه القرآن ؛ واطلقوا أسيره ) ففعلوا ، ثم قال يارسول الله إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله ، وأنا أحب أن تأذن لى فاقدم مكة فأدعوهم إلى الله ورسوله ، وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم ، كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم ، فأذن له رسول الله فالحق بمكه ، وكان صفوان حين خرج عمير يمنى نفسه الأمانى ، ويقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان يخرج فيتلقى الركبان يسألهم عن عمير ليتأكد من نجاح المؤامرة حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فسقط فى يده ، وحلف أن لا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه بنفع أبداً ، أما عمير فلما قدم مكه أقام بها يدعوا إلى الإسلام ويؤذى من خالفه أذى شديدا ، فأسلم على يديه ناس كثير ، وهكذا خرج كافراً جاهداً على قتل النبى ، فإذا به يعود مؤمناً صادق الإيمان !!! .

## قيمة الفداء

وكانت قيمة الفداء يومئذ ما بين الأربعمائة والأربعة آلاف درهم ، كما رواه أبو داود فى سننه، ومنهم من أخذ منه أربعون أوقية من ذهب عن نفسه كالعباس رضى الله عنه، ومن لم يكن له مال ويعرف القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم القراءة والكتابة، روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة فجاء غلام يبكى إلى أمه فقالت: ماشأنك فقال

ضربنى معلمى فقالت الخبيث يطلب بدخل بدرا والله لاتأتيه ابدا[١] ومن لم يكن يعرف القراءة والكتابة منوا عليه كأبى عزة الشاعر. والمطلب بن حنطب المخزومى أسره بعض بنى الحارث بن الخزرج فترك فى أيديهم حتى خلو اسبيله فلحق بقومه .

وقبول النبى ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء فى هذا الوقت الذى كانوا فيه أشد الحاجة الى المال يرينا سمو الاسلام فى نظرته الى العلم والمعرفة وإزالة الامية. وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم «اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم»[٣] واستفاضت فيه نصوص القرآن والسنه والترغيب فى العلم. وبيان منزلة العلماء وبهذا العمل الجليل يعتبر النبى ﷺ أول من وضع حجر الاساس فى إزالة الامية وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق فى هذا للاسلام.

## وعد الله الأسارى بالخير إن أسلموا

وقد وعد الله سبحانه الأسارى من آمن منهم وأسلم وحسن إسلامه بالعوض عما أخذ منهم فى الدنيا والآخرة قال عز شأنه: «يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم»[٤] وهو ترغيب لهم فى الإيمان، وعدة لهم بالعوض فى الدنيا والغفران فى الآخرة وكان العباس — رضى الله عنه — ممن ناله هذا الوعد الكريم فكان يقول: أبدلنى الله من ذلك عشرين عبداً — وفى رواية أربعين — كلهم تاجر بمالى، وأعطانى زمزم — يريد السقاية — وما أحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة، وكان يقول بعد ما ناله من الخير حتى رضى: وأنا بعد أرجو المغفرة التى وعدنا الله جل ثناؤه[٤].

---

(١) البداية والنهاية ج٣ ص٣٣٨ (٢) المرجع السابق ص٣١٢

(٣) الذى علم بالقلم، إشارة إلى العلم الكسبى (علم الانسان مالم يعلم) شارة إلى العلم الوهبى الذى يهديه الله لأنبيائه، وأوليائه

(٤) الأنفال/٦٨

## العتاب فى الفداء

وقد عاتب الله سبحانه النبى والمسلمين على اختيارهم الفداء على القتل الذى أشار به الفاروق — رضى الله عنه — وأنزل فى ذلك قوله سبحانه : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم[1] » . ولما نزلت الآيتان جاء عمر من الغد فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر يبكيان فقال : يارسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ! ! فقال رسول الله : للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء . وقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة » لشجرة قريبة منه ، وأخبره بما نزل من الآيات ، وهذا يدل على أن جمهرة الصحابه كانوا على رأى أخذ الفداء .

ولما نزلت الآيتان كف الصحابة أنفسهم عن الانتفاع بما أخذوا من الفداء وأسفوا لهذا العتاب فأنزل الله سبحانه : « فكلوا مما غنتم حلالا طيبا ، واتقوا الله إن الله غفور رحيم » .

## طنين المستشرفين بشأن أسارى بدر

يقف غير واحد من المستشرفين والمبشرين عند أسارى بدر ، وقتل أسيرين من سبعين أسيرا ، ويزعمون زورا وكذبا تعطش الدين الجديد للدماء

---

(١) الانفال ٦٧ ، ٦٨ تفسير الأيتين : أسرى : جمع أسير ، الأثخان فى الشىء المبالغة فيه والاكثار منه والمراد المبالغة فى تقتيل الكفار ، عرض الدنيا : الفداء . « لولا كتاب من الله سبق » يعنى لولا ما قدره الله فى الأزل وجرى به تقديره الحكيم من أنه لا يؤاخذ من اجتهد وبذل الوسع : وإن لم يصادف الصواب ، وقيل : من أنه لا يؤاخذ أهل بدر بما صنعوا ، وقيل من أنه لا يعذب قوما حتى يبين لهم الحلال من الحرام ، وما ينبغى بما لا ينبغى ، يعنى لولا هذا لنالكم عذاب شديدة بسبب إيثاركم عرض الدنيا على ثواب الاخرة ، وهذا درس تربوى عظيم ، وبهذا الدرس وغيره أنشأ الله خير جيل عرفته الدنيا قديما وحديثا وهم الصحابة الكرام ، والآية الثانية بمثابة الترضية والاعذار لهم بعد العتاب

ويرون أنه كان الأحسن أن يمن المسلمون على الأسرى وبحسبهم ما نالوا من غنيمة ، قالوا هذا وتغافلوا عما قام به هذان القتيلان ، وما قام به معظم هؤلاء الأسرى من تعذيب وإيذاء للنبى والمسلمين ، وصدهم الناس عن الإسلام ثلاثة عشر عاما ، ولم يكفهم مافعلوا بالمسلمين بمكة ، فهاهم لايزالون يحاربون الإسلام والمسلمين ، ويحاولون القضاء عليهم فى موطنهم الجديد وهانحن قد سمعنا عتاب الله للمسين أن قبلوا الفداء ، ولم يثخنوا فيهم قتلا ، ولو أنهم فعلوا لما عوتبوا ، ولحظوا بالثناء من رب العالمين .

يقولون هذا ، ويتجاهلون ماقام به المسيحيون باسم الصليب تجاه المسلمين من حروب دامية دامت حقبا من الزمان ، وحاولوا أن يغتصبوا جزءا عزيزا من أرض المسلمين فى فلسطين ، بل وأن يقضوا على الإسلام والمسلمين ويتناسوا الولاما قيض الله للاسلام والمسلمين من أمثال صلاح الدين الأيوبى البطل المسلم العربى فهزمهم وألقى بهم فى البحر ، وطردهم شر طردة !! ويتناسون ماقام به المسيحيون ضد المسلمين فى الاندلس ، وأيضا المجازر الكبرى التى قامت باسم المسيحية تجاه إخوانهم المسيحيين مثل مجزرة (سان بارتلمى) هذه المجزرة التى تعتبر سبة فى تاريخ المسيحية لاشىء مثلها قط فى تاريخ الإسلام ، هذه المجزرة التى دبرت بليل وقام فيها الكاثوليك يذبحون البروتستنتيين فى باريس وفى فرنسا غدرا وغيلة ، بل فى أحط صور الغدر ، وابشع صور الغيلة[1]

وتجاهلوا أيضا ماحدث فى أثناء الثورة الفرنسية والثورات المختلفة التى وقعت وتقع فى أمم أوروبا المختلفة . من تقتيل وتذبيح للألاف ، وماقامت وتقوم به الدول المسيحية فى العصر الحديث باسم قمع الثورات فى بلاد يحكمونها على كره من أهلها قصد استغلال خيراتها ، وامتصاص دماء بنيها ، وما رأيهم فيما تقوم به الدول المتحضرة اليوم فى الشرق والغرب ، وماجرى فى الحربين العالميتين الأولى والثانية من قتل الأسارى قتلا جماعيا والتنكيل تنكيلا جاوز حدود الإنسانية ؟ فلماذا أغمضوا عن هذا عيونهم ، وأصموا آذانهم؟

---

(١) حياة محمد لهيكل ص ٢٦٨

وفتحوها لقتل أسيرين حفلت حياتها بالمساوىء ، والجرائم تجاه النبى والمسلمين ؟ فأين هذا مما صنعه المسلمون مع الأسارى فى بدر من إحسان إليهم حسب وصاة نبيهم لهم حتى كانوا يؤثرونهم على أنفسهم بالطعام والشراب ؟!

إن ماجرى فى بدر وفى غير بدر من المسلمين فى مغازيهم وفتوحاتهم إنما هى رحمة وعدل من آثار هذا الدين : دين الرحمة والعدل ، ولقد لهج بذلك رجل لايمت إلى الإسلام بصلة ، وهو المؤرخ الكبير (غوستاف لوبون) حيث قال : « ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب »(١)

وإليكم أيها السادة المستشرقون والمبشرون هذه الحكمة « من كان بيته من زجاج فلا يرشق بيوت الناس بالحجارة »

## فضائل أهـــل بدر

لانعجب : وقد سمعت ماسمعت عن أهل بدر ، وما قدموه من التضحيات راضية بذلك نفوسهم ، وما كان لهذه الغزوة من أثر بعيد فى نشر الإسلام وظهوره على الاديان كلها ـ أن جعل الله سبحانه لأهل بدر من المنزلة والمكانة فى الدنيا والآخرة ماليس لغيرهم حتى صار من المآثر والمفاخر أن يقال : فلان بدرى . روى البخارى فى صحيحه عن حميد قال : سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه يقول : « أصيب حارثة(٢) يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبى ﷺ فقالت : يا رسـول الله قد عرفت منزلة حارثة منى فان يكن فى الجنة اصبر واحتسب ، وإن تكن الأخرى ترى ماأصنع فقال : ويحك ، أو هبلت — أى ثكلت — أو جنه واحده هى ؟ إنها جنان كثيرة.

---

(١) الوحى المحمدى ص١٢٩

(٢) هو حارثة بن سراقة من بنى عدى بن النجار الأنصارى وأبوه سراقه له صحبة واستشهد يوم حنين ، وأمه هى الربيع بنت النضر عمة انس ابن مالك .

وإنه فى جنة الفردوس » وفى رواية « إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » قال الحافظ بن كثير : وفى هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر فان هذا لم يكن فى حومة الوغى . بل كان من النظارة من بعيد ، وإنما أصابه سهم غرب[1] وهو يشرب من الحوض : ومع هذا أصاب بهذا الموقف الفردوس الذى هو أعلا الجنان ، ومنه تفجر أنهار الجنة والتى أمر الشارع أمته إذا سألوا الله الجنة أن يسألوه إياها ، فإذا كان هذا حاله فما ظنك بمن كان واقفا فى نحر العدو ، وعدوهم على ثلاثة أضعافهم عددا وعددا ؟ !

وروى الشيخان فى صحيحيهما قصة حاطب ابن أبى بلتعة ، وبعثه الكتاب إلى أهل مكة عام الفتح يخبرهم فيه بعزم رسول الله على قصد مكه ، وأن عمر استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ضرب عنقه ، لأنه قد خان الله ورسوله ، فقال له الرسول : « أليس من أهل بدر ؟ لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

والمراد عدم مؤاخذتهم عما عسى أن يبدر منهم بعد ذلك من الزلات والتجاوز عن سيآتهم ، كفاء ماقدموا للاسلام من مخاطرة بالنفس فى هذه الغزوة ، رما أظهروه من إيمان وبطولة ، وليس المراد أن الله سبحانه أباح لهم أن يفعلوا أى شىء أرادوه من المعاصى والآثام كما يتوهم ذلك ، وقد كان صحابة رسول الله ولا سيما أهل بدر أشد الناس تقوى لله ، وخوفا من الله على كثرة ما وعدهم من المغفرة والرضوان والنعيم المقيم فى الآخرة ، وكانوا يغلبون الخوف على الرجاء وقد كان الصديق على منزلته يشم من فيه رائحة الكبد المشوى من شدة الخوف من الله ، وكان الفاروق عمر على زهده وعدله يقول . ليت أمى لم تلدنى . وكان أبو الحسن على يقوم فى محرابه بالليل فيبكى

---

(١) أى أتاه من حيث لايدرى فان الذى رماه قصد غرته فرماه وحارثة لايشعر به.

بكاء الثكلى . ويتململ تململ السليم — اللديغ — من خوفه وخشيته لله . إلى غير ذلك من المثل الكثيرة التى زخرت بها سير الصحابة الكرام .

وروى مسلم فى صحيحه بسنده عن جابر : أن عبداً لحاطب جاء رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو حاطبا ويقول :ليدخلن حاطب النار فقال رسول الله : « كذبت لايدخلها . إنه شهد بدراً والحديبية » وروى البخارى فى صحيحه أن جبريل جاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال: ماتعدون أهل بدر فيكم ؟ قال « ومن أفضل المسلمين أو كلمة نحوها » قال . وكذلك من شهد بدراً من الملائكة(١)

وقد عرف الخلفاء الراشدون لأهل بدر منزلتهم . وقدمهم فى الإسلام . دينا ودنيا ، فقد جعل سيدنا عمر عطاء أهل بدر: لكل واحد خمسة آلاف(٢) فقال : لأفضلنهم على من بعدهم وكذلك عرف لهم العلماء منزلتهم لما تكلموا فى فضل الصحابة وجعلهم طبقات ، حتى أن بعضهم جعل الطبقة الأولى أهل بدر ، وهذا عرفان منهم بالفضل لذويه(٣)

## نتائج غزوة بدر

(١) كانت من نتائج غزوة بدر أن قويت شوكة المسلمين . وأصبحوا مرهوبين فى المدينة وما جاورها . وأضحى من يريدأن يغزوا المدينة، أو ينال من المسلمين أن يفكر،ويفكر قبل أن يقدم على فعلته » وإلا نزل به ماتنزل بقريش على عددها وعدتها .

(٢) أنها تركت بنفوس أهل مكة المشركين كمداً وأحزانا وآلاما بسبب هزيمتهم ومن فقدوا أو أسروا » فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بالعلة ومات ، وهذا أبو سفيان فقد ابنا له وأسر له ابن آخر ، وما من بيت من بيوت مكة إلا وفيه مناحة على قتل عزيز أو قريب ، أو أسر أسير

---

(١) البداية والنهاية جـ٣ ص٣٢٨ (٢) الباعث الحثيث إلى علوم الحديث ص٢٣٣
(٣) صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب فضل من شهد بدرا

فلا عجب أن كانوا صمموا فى أنفسهم على الأخذ بالثأر حتى أن بعضهم حرم على نفسه الاغتسال[١] حتى يأخذ بالثأر ممن أذلوهم ، وقتلوا أشرافهم وصناديدهم وانتظروا يترقبون الفرصـــة للقاء المسلمين والانتصاف منهم . فكان ذلك فى أحد .

(٣) إن النصر المبين فى بدر حرك ما كمن فى نفوس اليهود والمنافقين والمشركين من أهل المدينة . فهذا الذى وفد عليهم فارا مهاجرا يزداد سلطانه ونفوذه يوما بعد يوم ، ويكاد يكون صاحب الكلمة فى المدينة كلها لا فى أصحابه وحدهم ، وكان اليهود قد بدأ تذمرهم من قبل بدر ، وبدءوا يحيكون الدسائس والمؤامرات لتفريق وحدة المسلمين ، ولولا عهد الموادعة الذى كان بينهم وبين المسلمين لوقع الصدام السافر بين الفريقين ، لذلك ما كاد المسلمون يعودون من بدر منصورين حتى جعلت طوائف اليهود والمنافقين تتغامز ، وتستخف بالنصر الذى أحرزوه زاعمين أنهم لقوا أغمارا[٢] فى الحرب ، ولئن وقعت بينهم وبين المسلمين الحرب فسيرون الناس[٣] !! وبدءوا يتحرشون بالنبى والمسلمين ، وما كان النبى ليخفى عليه شىء من ذلك ، وإنما كان يراقبهم عن حذر ويقظة حتى استخفوا بالمقررات الخلقية ، والحرمات التى يعتز بها العرب ، واستعلنوا بالعداوة ، فلم يكن بد من حربهم وإجلائهم عن المدينة كما سنفصل ذلك فيما بعد إن شاء الله .

## مواطن العبرة فى بدر

إن فى بدر لعبرا وآيات يستجليها ذوو البصائر النيرة ، والقلوب المؤمنة والعقول الفاحصة المتحررة وصدق الله حيث يقول : « لقد كان لكم آية

---

(١) هو أبو سفيان بن حرب كان نذر بعد بدر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أغار على المدينة فى رجال من قومه ، ولكن لم ينل مأربا ، فخرج إليه النبى فى جماعة من أصحابه ، ولكنه فر هاربا ، وكان ذلك فى « غزوة السويق » .

(٢) لا خبرة لهم بالحروب ، وفنونها .

(٣) يعنون أنفسهم وأنهم هم أهل الخبرة والدربة فى الحروب .

فى فئتين التقتا ؛ فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

من هذه العبر والآيات :

(١) أثر القوى الروحية والمعنوية : وأساس هذه القوى هو الإيمان : الإيمان بالله . وأنه قوة لا تغالب ، وأن بيده النصر ، والموت والحياة ، وأن الموت فى سبيل الله خلود . والإيمان بالرسول ، وأنه لا ينطق عن الهوى ، وأن حبه إيمان ، وتفديته بالنفس فريضة ، وأن كل مصاب دونه هين ويسير . والإيمان باليوم الآخر ، وأن هناك حياة أخرى خيرا من هذه الحياة يوفى فيها كل عامل جزاءه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وإن الجنة للمتقين المجاهدين والنار للكفار والمتقاعسين عن نصرة الأنبياء والمرسلين . والإيمان بالرسالة المحمدية ، وأنها الشريعة العامة الخالدة التى يجب أن تسود الدنيا وأن يستظل بها البشر ، فقد ناط الله بها كل سعادة ، وربط بها كل هدى وحق وخير ، والإيمان بأنهم خير أمة أخرجت للناس ، وأنهم الأمة الوسط الشاهدة على الأمم كلها بعقيدتها وشريعتها ، وعلمها وعملها ، وأخلاقها وسلوكها ، وعلى الأمة الإسلامية أن تنشىء أبناءها على هذا الإيمان اليوم ، وحينئذ ستسترجع عزتها ، وسلطانها .

هذا الإيمان العميق الجذور ، المتشعب الفروع هو سر الانتصار فى هذه الموقعة وغيرها من مواقع الإسلام وأيامه المشهورة ، وهو سر الأسرار وعبرة العبر ، وإنا لنلمسه جليا فى مقالة السادة أبى بكر وعمر ، والمقداد . وسعد بن معاذ لما قال النبى ﷺ : « أشيروا على أيها الناس » ونلمسه أيضاً فى مقالة عمير ابن الحمام لما سمع النبى ﷺ يقول : «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» فرمى بتمرات فى يده كان يأكلها قال : إنى إن حييت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة ! !

ونحس هذا الإيمان المثالى فى طلب الصديق . أن يبارز ابنه عبد الرحمن .

وفى قتل الفاروق لخاله العاص بن هشام ، وقتل أبى عبيدة لأبيه ، ومصعب ابن عمير لأخيه . وفى مقالة أبى حذيفة لما رأى أباه عتبة وقد مات على الكفر ... إلى غير ذلك من المواقف المشرفة ، والمثل الإيمانية العليا .

(٢) من العبر أن النصر من عند الله ، وأن لله جنودا كثيرة منها الملائكة « وما يعلم جنود ربك إلا هو » والله سبحانه وتعالى قد أمرنا فى صريح الكتاب الكريم باعداد العده ، وأخذ الأهبة للأعداء ، وقد بلغ النبى والصحابة المدى فى هذا، فلم يدعوا وسيلة من وسائل القوة والنصر مما يقع تحت أيديهم وفى استطاعتهم إلا اتبعوها فضربوا بالسيوف والحراب ، ورموا بالسهام والنبال ، وحفروا الخنادق ، وصنعوا الدبابات بما يلائم عصرهم ، وتدربوا على فنون القتال ، وتعلموا الكر والفر ، ومع هذا كانوا على صلة وثيقة بالله ، توكل عليه ، وهم على صلاح واستقامه ، لم يغتروا بعدد ولاعدة ، وإنما يستنزلون النصر من عند الله ، ولذلك كان النبى كثيراً ما يلجأ إلى الدعاء عند حضور المواطن بل ويبالغ فيه كما حدث فى بدر ليثبت فى نفوسهم هذا المعنى الكريم ، ولذلك لما عرض الله سبحانه فى الكتاب الكريم لإمداد المسلمين بالملائكة ختم ذلك بقوله : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم »(١) وقوله : « وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم »(٢) وإنه لدرس عظيم يجب أن يعيه المسلمون فى كل قطر ، فما أجدرهم أن يأخذوا أنفسهم بتقوى الله والاستقامة على شريعته ، وأن يصلوا حبالهم بحبل السماء ، وإلا كانوا هم والأعداء فى المعاصى سواء ، وإن لايكن لنا عليهم فضل بالدين والاستقامة والطاعة فضلونا بالعدد والعدة ، وإذا تخلى الله سبحانه وتعالى عنا ، ووكلنا إلى أنفسنا واغترارنا عز علينا استنزال النصر من الله ، وصارت الغلبة لمن هم أكثر عدداً وعدة .

(٣) احترام النبى ﷺ لمبدأ الشورى فى الحرب ولو كانت من فرد واحد ،

---

(١) آل عمران/١٢٦ (٢) الأنفال/١٠

وهو تقرير لهذا المبدأ التى يعتبر من مبادىء الإسلام ، وذلك مثل ما حدث من أخذه برأى الحباب بن المنذر فى تخير مكان نزول الجيش، ورأى سعد بن معاذ فى بناء العريش ؛ واستشارة أصحابه فى القتال، لما علم بخروج قريش فى جموعها، وفى الأسارى أيقتلون أم يفادون ؟ وليس هذا بعجب ممن نزل عليه قول الله سبحانه « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »[1]

( ٤ ) إنسانية الرسول الفائقة : إنسانية مبعثها الرحمة التى امتلأ بها قلبه الكبير ، والعظمة النفسية التى تسمو عن أن تؤاخذ كل مذنب بذنبه ، وإنما تعفو وتسمح ، وتتسامى وتصفح ، وإنا لنلمس هذا فى الأمر بدفن القتلى وفى أمر أصحابه بالإحسان إلى الأسرى ، وفى إبائه على سيدنا عمر أن ينزع ثنيتى سهيل بن عمرو حتى لايقوم ضد النبى خطيباً ، وقوله هذه المقالة : « لا أمثل فيمثل الله بى وإن كنت نبياً » !! وفى موقفه لما سمع رثاء قتيله لأخيها النصر بن الحارث وقوله . « لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه » .

(٥) مواهب النبى ﷺ السياسية : هذه المواهب التى تفجر بها القلب المستنير الذى أشرق بالإيمان ، وامتلأ بالفيوضات الالهية والتجليات الربانية التى أفاض الله بها عليه ، والعقل الكبير الذى تربى على التأمل والنظر فى الكون، وترعرع فى حياطة الله ورعايته ، وتمرس بايات الوحى والحكمة ، فوسع العقول جميعاً ، ولو وزنت به العقول كلها لرجحها .

وإنا لنلمس هذه المواهب فى استشارة أصحابه لما ترجح جانب القتال بخروج جيش قريش ، فقد كان هذا بمثابه اختبار لإيمان القوم ، وتعرف مبلغ استعدادهم لنصرة الإسلام خارج المدينه ، وقد نجحوا فى هذا الاختبار أيما نجاح ، وأبانوا بما قالوا عن معدنهم الأصيل ، تجاه نبيهم محمد الذى يختلف عن معدن بنى إسرائيل معدن الجبن والخور والنذالة ، تجاه نبيهم موسى .

كما نلمس هذا أيضاً ، حين بدأت المبارزة فقد أخرج النبى ، كما رجحنا للثلاثة

---

(١) آل عمران/ ١٥٩

القرشيين ثلاثة من ألصق الناس به وذوى قرباه : اثنين من بنى هاشم وواحداً من بنى المطلب ، وبنو هاشم والمطلب سواء فى الجاهلية والإسلام ، وذلك ليكون إيذانا على رءوس الأشهاد بأن أقرباء النبى الأقربين سيكونون فى مقدمة المسلمين — مهاجرين وأنصارا — تضحية بالنفس ، وتفدية للرسول والإسلام ، وإنه لموقف معبر دونه الخطب والكلام .

ونلمس هذه الموهبة الفائقه فى موقف يعتبر من أحرج المواقف بين رأيين متعارضين، وكل من صاحبى الرأيين يعتبر وزير صدق للنبى ﷺ ، وانحاز إلى رأيه كثيرون ، وذلك حينما استشار اصحابه فى الأسرى ، فقد رأى الصديق ، الفداء ، ورأى الفاروق القتل ، ودخل النبى بيته وفكر فى الأمر فرأى بما جبل علية من الرحمة والتسامح رأى الصديق ، ولكن الرأى المعارض رأى عمر ، وهو من هو فى الإسلام وصاحب الموافقات ، وربما يكون فى هذا غضاضة على عمر ، وفكر الرسول ، ثم فكر فتفتق العقل الكبير عن هذا التصرف الحازم البصير ، فخرج وأثنى على كلا الرجلين ثناء نابعا من طبيعة الرجلين ، لا تحيف فيه على أحدهما ، ولا هضم لحقه ، ولا محاباة ولا مداهنة ، فشبه الصديق بنبيين رحيمين ابراهيم وعيسى عليهما الصلاه والسلام : وشبه الفاروق بنبيين اشتد غضبهما على قومهما ، بعد أن لم يدعا فى قوس الصبر منزعا ، وهما نوح وموسى عليهما الصلاة والسلام ، ثم رأى رأى الصديق ، وبهذه التقدمة البارعة قضى الرسول على ماعسى أن يداخل نفس الفاروق ، فاذا كان الرسول لم يأخذ برأيه فبحسبه شرفا وتقديرا أن يكون شبيها بنبيين من أولى العزم من الرسل ، وإنها لأمنية تتقطع دونها الأمانى ، وحلم ترنو إليه أى نفس مهما بلغت من أصاله الرأى ، وحسن التدبير ، والاقتناع بما رأت .

ومن هذه السياسة الحكيمة إسهام النبى لكل من لم يحضر الموقعة لتخلفه فى مصلحة عامة أو خاصة المسلمين وكذلك إسهامه من استشهدوا فى بدر وإعطاء حقوقهم لورثتهم وذويهم وبذلك كان للاسلام السبق فى تكريم الشهداء ورعاية

أسرهم وأبنائهم من قرابة أربعة عشر قرنا .

(٦) عدالة النبى التامة فى أخذ الفداء من القادرين عليه وعدم محاباته لذوى قرباه بل كان الأمر على خلاف ذلك فقد أغلا الفداء على عمه العباس ، ولم يقبل أن يتنازل له أخواله من الأنصار عن شىء منه ، وترك أمر صهره إلى خيار المسلمين فمنوا عليه لما رأوا زوجته السيده زينب أرسلت فى فدائه بقلادتها الغالية التى تحمل فى نفسها أعظم ذكرى لأمها السيدة خديجة، وفضل خديجة على الإسلام مذكور مشكور ، وقد دلل المسلمون بصنيعهم هذا على حس مرهف ، وشعور كريم ، وإنسانية فائقة ، وعلى حين فعل النبى هذا مع ذوى قرباه من على أناس لا يمتون إليه بصلة القربى لاعتبارات تدعو إلى ذلك .

(٧) أن النبى ﷺ له أن يجتهد فيما لم ينزل فيه وحى ، وأنه إذا اجتهد فى أمر من الامور ، وسكت الوحى عن هذا الاجتهاد ، كان ذلك دليلا على موافقته الصواب والحق ، واكتسب صفة إقرار الوحى لما أدى إليه الاجتهاد ، لأنة سبحانه حاشاه أن يقر نبيه على أمر يخالف الحق والصواب ، أما إذا اجتهد النبى ولم يصادف الصواب نزل الوحى معاتبا ومبينا ، وذلك كما حدث فى هذه الغزوة فقد نزل قوله تعالى معاتبا : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ... » والنبى فى كلتا الحالتين مأجور ، لأن الإسلام يقرر أن من اجتهد فان اصاب فله اجران وإن اخطا فله اجر ، وهذا يدل على مبلغ تقدير الإسلام للاجتهاد والدعوة إليه ، وتكريم المجتهدين ، وهذا الذى ذهبنا إليه من انه ﷺ له أن يجتهد ، هو ما عليه جمهور العلماء ، والمحققون منهم ، وهو الرأى الراجح المنصور .

(٨) حدوث بعض المعجزات النبوية الحسية ، فى هذه الموقعة ،فقد ذكر ابن إسحاق وغيره أن عكاشة بن محصن الأسدى حليف بنى عبد شمس قاتل يوم بدر

بسيفه حتى انكسر ، فأتى النبى ﷺ فأعطاه جذلا[1] من حطب فقال . «قاتل بهذا ياعكاشة » فأخذه فهزه فصار سيفا فى يده طويل القامة ، شديد المتن، أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين وكان يسمى «العون» ولم يزل هذا السيف عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله حتى استشهد على يد طليحة الأسدى أيام حروب الردة، وكان النبى يشيد بشجاعة عكاشه هذا فيقول . « منا خير فارس فى العرب » قالوا : ومن هو يارسول الله ؟ قال : « عكاشه بن محصن » فقال ضرار بن الأزوار الأسدى : ذاك رجل منا يارسول الله ، فقال : « ليس منكم ولكنه منا للحلف »[2] ويحسبه شرفا هذا التقدير الكريم .

وروى الواقدى بسنده فى مغازية عن رجال من بنى عبد الاشهل قالوا : انكسر سيف سلمة بن حريش يوم بدر ، فبقى أعزل لا سلاح معه ، فأعطاه رسول الله ﷺ قضيبا كان فى يده من عراجين ابن طاب — نخل بالمدينة رطبها جيد — فقال . « اضرب به » فاذا هو سيف جيد فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبى عبيد[3]

ومن ذلك ما أعلم به النبى عمه العباس لما اشتكى الفقر ، واخباره بما ترك من مال عند زوجته أم الفضل ، وقوله لها ان هلكت فهذا المال لبنى ، (وما حدث) به عمير بن وهب لما جاء متظاهرا بفداء ابنه ، وهو يريد قتل النبى باتفاق

---

(١) الجذل : ما عظم من أصول الشجر المقطع وقيل : هو من العيدان ما كان عن مثال شماريخ النخل وهو المراد .

(٢) الروض الأنف ص ٧٣ الجمالية .

(٣) البداية والنهاية ج٣ ص ٢٩٠ وفى البداية أبى عبيدة وهو خطا والصحيح أبى عبيد وهو أبو عبيد بن مسعود الثقفى وكان عبر الفرات إلى الضفة الأخرى لقتال الفرس على جسر ، فلما قتل أبو عبيد حال المسلمون جولة ثم انهزموا فقطع رجل الجسر حتى لا يفكر أحد من الجيش فى الفرار وكانت خطأه ترتب عليها أن قتل كثير من المسلمين وتهافتوا فى الفرات ولولا موقف المثنى بن حارثه ومعه بعض أبطال المسلمين لكانت الهزيمة ساحقه ماحقه (الاصابة ج٤ ص ١٣٠) و الاستيعاب ج٤ ص ١٢٤)

مع صفوان بن أمية ، فقد أنبأه نبأ المؤامرة فكانت سببا فى إسلامه ، وصدق إيمانه .

وما ينبغى لأحد أن يزعم أن المعجزات الحسية لا ضرورة إليها بعد القرآن فها هى قد بدت آثارها واضحة جلية فى إسلام البعض ، وتقوية يقين البعض الآخر ، وإثبات أنه نبى يوحى إليه ، فقد أخبر بمغيبات انتفى فى العلم بها كل احتمال إلا أنه خبر السماء وغير خفى ما يحدثه انقلاب عود أو عرجون فى يد صاحبه سيفا بتارا فى إيمانه وتقوية يقينه ، وجهاده به جهاد إلا يعرف التردد أو الخور ، وحرصه البالغ على ان يخوض المعارك بسيف خرقت به العادة . وصار مثلا وذكرى فى الاولين والآخرين .

## أحداث فى السنة الثانية

زواج على بفاطمة : فى هذه السنة تزوج أبو الحسن على بن أبى طالب رضى الله عنه السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعلى آله وبنى بها وقد ذكر البخارى أن ذلك كان بعد غزوة بدر بقليل . وقال الواقدى إنه بنى بها فى ذى الحجة من هذه السنه وإليك قصة خطبتها كما رواها البيهقى عن على قال . خطبت فاطمة من رسول الله ﷺ فقالت مولاة لى . هل علمت ان فاطمة خطبت من رسول الله ؟ قلت لا . قالت . فقد خطبت فما يمنعك أن تأتى رسول الله فيزوجك بها ؟ فقلت . أو عندى شىء أتزوج به ؟ فقالت . إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوجك فوالله ما زالت ترجينى حتى دخلت على رسول الله فما أن قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن اتكلم جلاله وهيبة . فقال رسول الله صلى ﷺ : ماجاء بك ، ألك حاجة » ؟ فسكت ، فقال : « لعلك جئت تخطب فاطمة » فقلت نعم : فقال « وهل عندك من شىء تستحلها به » ؟ فقلت لا والله يارسول الله ، فقال . « ما فعلت درع سلحتكها » ؟ فو الذى نفس على بيده إنها لخطميه ما قيمتها أربعة دراهم . فقلت عندى ، فقال قد زوجتكما فابعث إليها بها ، فاستحلها بها ، فان كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

وكان زواجا ميمونا مباركا انجبت منه السيدة الزهراء السادة حسنا وحسينا ومحسنا وأم كلثوم وزينب عليهم السلام أما محسن فمات صغيرا وعاش الحسن والحسين حتى بلغا مبلغ الرجال فمات الحسن ، واستشهد الحسين بكربلاء ولعلك تعجب إذا علمت أن السيدة الزهراء كان جهازها خميلا قطيفة — وقربه ووسادة أدم حشوها إذخر[1] وهكذا كان الأمر فى صدر الإسلام لا مغالات فى المهور، ولا إرهاق فى سبيل إعداد الجهاز كما هو الحال اليوم . وإنما الحال سماحة وبساطة وتعاون فى سبيل الحياة الزوجية الكريمة ولو كانت المغالاة فى المهور مكرمة لكان أولى بها رسول الله صلى الله وبناته ، وأهله ، وأصحابه الكرام الميامين .

## وفيات

فى هذا العام توفيت السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك عند قدوم المبشرين بالنصر ببدر إلى المدينة كما اسلفنا .

وفيها استشهد أربعة عشر من المهاجرين والأنصار فى بدر منهم عبيدة بن الحارث ابن المطلب . وعمير بن أبى وقاص أخو سعد بن أبى وقاص من المهاجرين ومعوذ وعوف أبنا عفراء . وعمير بن الحمام . وسعد بن خيثمة من الأنصار .

وفيها توفى بعد بدر السيد الجليل عثمان بن مظعون أحد السابقين الأولين وممن هاجر الهجرتين وكان أخا للنبى صلى الله عليه وسلم من الرضاع . ولما توفى دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله وبكى حتى سالت الدموع على وجهه رواه احمد والترمذى ، ثم شيع جنازته هو ، وأصحابه ، ولما دفن أمر النبى رجلا أن يأتى له بحجر، فلم يقدر الرجل على حمله لكبره فقام النبى وأحضره ووضعه عند رأسه وقال : « أعلم به قبر أخى ، وأدفن إليه من مات من أهلى » رواه أبو داود[2] ومن هنا . فأخذ جواز تمييز القبر بحجر ونحوه ولما توفى ابراهيم ابن النبى قال : « الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون » رواه الترمذى

---

(١) أدم : جلد ، إذخر : نبات طيب الرائحة .

(٢) نيل الأوطار ج ٤ ص ٥٥ ، ١٣٢

وقد وهم بعض المؤلفين فى السيرة[1] فذكر أنه توفى فى العام الأول وهو غلط والصحيح كما ذكرنا .

## السنة الثالثة للهجرة

فى هذه السنة واجه النبى خصوماً لم يكن له بهم سابق عهد ذلك أنه كان حالف معظم القبائل التى تسكن غربى المدينة ، بينها وبين ساحل البحر . فكاد يصبح طريق تجارة مكة إلى الشام مغلقا ، ولكن ماذا يصنع القرشيون والتجارة هى روحهم وعماد معيشتهم ، لذلك فكروا فى طريق صحراوى آخر من مكة إلى نجد ، ومنها إلى العراق والشام ، وكان بنو سليم وغطفان أهم من يسكن هذا الطريق من القبائل ، وكانوا حلفاء قريش يستخدمونهم فى تأمين متاجرهم إلى العراق ، وقد وثق القرشيون ما بينهم وبين سليم وغطفان وأغروا بمحاربة الرسول ، وقد كان من سياسة النبى الحكيمة فى محاربة هذه القبائل هى مبدأ المبادأة ، فما إن يعلم بعزمهم على حربه حتى يسرع إليهم بالخروج ليريهم أنهم أقوياء ، وقد أثمرت هذه السياسة ثمرتها فكان النبى إذا خرج إلى قوم منهم ألقى فى قلوبهم الرعب وفروا . فيعود غانما منتصرا ، وقد كفاه الله والمؤمنين القتال .

## غزوة الكدر

تجمعت جموع من بنى سليم وغطفان يريدون مهاجمة المدينة فلما علم النبى بعزمهم خرج إليهم على رأس مائتين من أصحابه . فلما وصلوا ماء لهم يسمى « قرقرة الكدر » وجدهم قد فروا ، فرجع ولم يلق كيدا ، وغنم المسلمون فيها خمسمائة بعير خمست ، فأخذ النبى الخمس ، ووزع الباقى على المجاهدين .

---

(١) هو المغفور له الشيخ الخضرى فى « نور اليقين » ص ١٠٨

# غزوة غطفان أوذى أمر

وفى شهر ربيع الأول تجمع بنو ثعلبة ومحارب — هما حيان من غطفان — وعلى رأسهم رئيس لهم يسمى « دعثور » يريدون الغارة على المدينة ، فخرج إليهم النبى فى أربعمائة وخمسين من أصحابه بعد أن خلف على المدينة عثمان بن عفان ، فلما سمعت الأعراب بمسيره رعبوا وفروا . وسار المسلمون حتى وصلوا ماء لهم يسمى ( ذا أمر ) فعسكروا به وأمطرت السماء مطراً غزيرا فابتلت ثياب رسول الله فذهب إلى شجرة هناك بنأى عن المعسكر ونشر عليها ثيابه . وشغل المسلمون بشئونهم . ورأى المشركون أن ينالوا من النبى على غرة فأرسلوا رجلا منهم شجاعا فقال أنه دعثور هذا ويقال غورث بن الحارث لقتل النبى صلى الله عليه وسلم ، فما شعر به النبى إلا وهو قائم على رأسه بالسيف مشهورا ، فقال : من يمنعك منى يامحمد ؟ فقال النبى : « الله » !!فرعب الرجل ، وسقط السيف من يده ، فتناوله الرسول ، ورفعه ، وقال له : « من يمنعك منى » ؟ فقال الرجل لأحد ، فعفا عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، فما كان من الرجل إلا أن أسلم ، وتعهد أن لايكثر على النبى جمعا ، وعاد إلى قومه ، فأخبرهم الخبر ، ودعاهم إلى الإسلام . وهكذا شاء الله سبحانه أن يخرج قاصدا قتل النبى صلى الله عليه وسلم ، فاذا به يعود مؤمنا به ومحبا له !! وصار يجمع قومه للرسول ، بعد أن كان يجمعهم عليه ، وقد قيل : إنه نزل[1] فى هذا قوله سبحانه : يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ؛ إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم ، واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[2] .

## « سرية زيد بن حارثة أو القردة »

علمت قريش من مبادأة الرسول لغطفان ، وسليم ، وخروجه إليهم أن قوة المسلمين المادية والمعنوية لايستهان بها ، وأن الطرق المطروقة إلى الشام أصبحت غير مأمونة ، وأن القبائل المتحالفة معهم أصبحت غير قادرة على حماية تجارتهم ،

---

(١) تفسير الالوسى جـ٦ ص ٧٦ (٢) المائدة /١١

فذكروا فى طريق وعر قليل الماء ، عرفهم به مرشد يأتمنونه فخرجت عيرهم فى تجارة عظيمة ، وكان رئيس العير صفوان بن أمية ، ومعه أبو سفيان بن حرب ، وآخرون ، واستأجروا رجلا من بنى بكر بن وائل يسمى : فرات بن حيان[١] ، ليدلهم على الطريق ، وتكتموا أمر هذه العير ، ولكن الأقدار ساقت يثربيا ، وهو نعيم بن مسعود الأشجعى فقد كان بمكة وعلم بخبر العير ، فلما قدم المدينة . وجلس فى رفقة له يشربون ومعهم رجل مسلم — وذلك قبل أن تحرم الخمر — فجرى على لسانه ذكر عير قريش والطريق الذى سلكته . فأسرع الرجل المسلم فأخبر النبى ، فأرسل من فوره زيد بن حارثة فى مائة راكب مجاهد ، وكان ذلك فى مستهل جمادى الأولى من السنة الثالثة فسارت السرية حتى لقوا العير عند ماء يسمى «القردة» ففر الرجال ، وأصاب المسلمون العير ، وكانت أول غنيمة ، ذات قيمة غنمها المسلمون ، وعادت السرية بها ، فخمسها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ خمسها خمسة وعشرين ألفا ، وقسم الباقى على رجال السرية ، وكان فرات بن حيان فيمن أسر ، فعرضوا عليه الإسلام فأسلم .

## «غزوة أحد»[٢]

تجهز قريش لأحد : لما أصيبت قريش فى بدر أرصدوا التجارة التى كانت تحملها العير لقتال النبى صلى الله عليه وسلم ، والثأر منه ومن أصحابه ، وأوقفوها بدار الندوة ، وكانت تبلغ خمسين ألفا دينار ، فسعى رجال من رؤسائهم قبيل أحد إلى أبى سفيان بن حرب ، فقالوا له : إن محمدا وترنا[٣] ، وقتل خيارنا . وإنا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استعدادا لحرب محمد وأصحابه ، وقد رضى بذلك كل من له فيها نصيب .

وصاروا يجمعون الجموع لقتال النبى ، واستنفروا حلفاءهم من الاحابيش ،

---

(١) حيان : بالياء المثناه . وقيل : بالباء الموحدة .

(٢) أحد : جبل بينه وبين المدينة نحو ستة أميال . وكانت الموقعة عنده

(٣) أصابنا فى أحبتنا وأهلنا .

والقبائل المنتشرة حول مكة من كنانة ، وأهل تهامة ، وعبأوا القوى لهذا الاستنفار ، فقد سعى صفوان بن أميه إلى أبى عزة الشاعر الذى كان فى الاسارى يوم بدر ، ومن عليه الرسول ، وقال له يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، وأخرج معنا ، فقال : إن محمدا قد من على فلا أريد أن أظاهر عليه ولم يزل به يغريه ، ويقول : لك على إن رجعت أن أغنيك، وإن قتلت أن أجعل بناتك مع بناتى يصيبهن ما أصابهن من عسر ، ويسر ، حتى قبل فخرج أبو عزة يسير فى تهامه ، ويدعو بنى كنانة لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك اشترك فى تأليب القبائل أبو عامر الذى كان يقال له : الراهب ، فسماه رسول الله : الفاسق .

ومازالت قريش تجمع الجموع حتى تكون جيش تعداده ثلاثة آلاف منها ، ومن حلفائها وأعراب كنانة ، وتهامة .

وقد اختلفوا : يخرجون بالنساء أم لا ؟ وكان آخر الامر أن ترجح رأى القائلين يخروجهن لما صرخت هند بنت عتبه امرأة أبى سفيان ، وأصرت على خروجهن فخرجت مع زوجها تؤلب وتحث على القتال ، وكذلك خرجت زوجات عكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص ، وصفوان بن أمية وغيرهن وسار هذا الجيش قاصدا المدينة ومعهم ثلاثة آلاف بعير ، ومائتا فرس ومن بينهم ستمائة دراع، وكان فى الجيش عبد حبشى يقال له «وحشى» وهو غلام لجبير بن مطعم فقال له جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى — وكان قتل يوم بدر مشركا — فانت حر ، وكانت هند تحرضه هى الأخرى على قتل سيدنا حمزة بن عبد المطلب الذى فجعها بقتل الأحبه من أهلها فى بدر فكانت كلما مرت به أو مر بها تقول له : ويها أبا دسمة اشف ، واستشف[1] ، وسار الجيش حتى وصل إلى الأبواء حيث القبر الطاهر : قبر السيدة آمنه بنت وهب أم النبى ، ففكر بعض سوقتهم فى نبش قبرها ، ولكن زعماءهم أبوا ذلك حتى لاتكون سنة سيئة فى العرب ،

---

(١) ويها : كلمة إغراء وتحريض . أبو دسمة : كنية وحشى .

وقالوا : لاتذكروا من هذا شيئا فلو فعلنا نبشت بنو بكر ، و بنو خزاعة موتانا، وتابعت قريش سيرها حتى نزلت عند بعض السفوح من جبل أحد على خمسه أميال من المدينة .

« وصول الخبر إلى الرسول » وكان العباس بن عبد المطلب يعلم ما صنعت قريش من تأليب القبائل ، وجمع الجموع ، وعزمها على مهاجمة المدينه ، فكتب كتابا إلى ابن أخيه محمد ﷺ يخبره فيه بما جرى ، وأعطاه لرجل من بنى غفار فأوصلة الرجل إلى النبى فقرأه عليه أبى بن كعب ، فاستكتمه الرسول ما فيه ، وأخبر بعض أصحابه واستكتمهم الخبر أيضا ، ثم أرسل النبى أنسا ومؤنسا ابنا فضاله يتسنطان أخبار قريش ، فألفياها قد قاربت المدينه ، وأرسلت خيلها وأبلها ترعى زروع يثرب المحيطه بها ، وأرسل بعدهما الحباب بن المنذر مستطلعا، فجاءت الرسل تؤكد ما أخبر به العباس وأن جيش قريش بمشارف المدينة ولم يعد الأمر سراً فقد توالت الأخبار بوصول قريش وعسكرتها بالقرب من أحد ، وأخذ المسلمون الحيطة للرسول ولأنفسهم ، حتى لقد بات وجوه المسلمين من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد النبوى خوفا على الرسول ، وأقاموا حراساً على مداخل المدينة بالليل .

## « مشاورة النبى أصحابه »

ولم يكن بد من أن يتشاور النبى والمسلمون فيما دهمهم ، فجمع النبى وجوه المهاجرين والأنصار وحضر معهم عبد الله بن أبى رأس المنافقين ، وكان ذلك فى يوم جمعة ، وكان رسول الله ﷺ رأى ليلة الجمعة رؤيا فلما أصبح قصها على أصحابه فقال : « إنى قد رأيت والله خيراً ، رأيت بقرا تذبح ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلماً ، ورأيت إنى أدخلت يدى فى درع حصينة ، فأولتها المدينة » وقد ورد فى تأويل بقية الرؤيا أن النبى قال : « فأما البقر فأناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم . . . فهو رجل من أهل بيتى يقتل »[1] فمن ثم كان رأى

---

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص٦٢ ط الحلبى

رسول الله المقام بالمدينة والتحصن بها فان هم دخلوا عليهم قاتلوهم ، ورأى هذا الرأى شيوخ المهاجرين والأنصار ورأى هذا الرأى أيضاً عبدالله بن أبى ابن سلول ، فقال : « يارسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فكيف وأنت فينا؟ فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين » .

ولكن الكثيرين ولا سيما الشباب ممن لم يشهد بدراً ، أو شهدها وأمتعهم الله بالنصر قالوا : يارسول الله : اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا ومن هؤلاء حمزة بن عبد المطلب فقال: والذى أنزل عليك الكتاب لنجالدنهم ، وصلى رسول الله ﷺ بهم الجمعة ، ووعظ الناس وذكرهم وحثهم على الثبات والصبر ، ثم دخل بيته فلبس لامته[1] ثم خرج عليهم ، فلما رآه الذين أشاروا بالخروج ندموا وقالوا : استكرهناك ولم يكن لنا ذلك ، يارسول الله إن شئت فاقعد ، فقال : « ماينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل أو يحكم الله بينه وبين أعدائه » وأذن مؤذن رسول الله بالخروج ، فخرج فى ألف من أصحابه واستعمل على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم ، ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب ابن عمير ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر. ولواء الأوس لأسيد بن حضير وسار الجيش ، وفى الطريق بصر النبى بكتيبة كبيرة فسأل عنها ، فقيل له هؤلاء حلفاء ابن أبى من اليهود فقال : « لاحاجة لنا فيهم إنا لانستعين بكافر على مشرك » ونعما فعل ، فهم قوم مرنوا على الخيانة والنفاق فلا يؤمن جانبهم .

فلما وصلوا إلى الشوط ـ مكان بين المدينة وأحد ـ انخذل عبد الله بن أبى بثلثمائة من أصحابه وقال أطاعهم وعصانى ، علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟

---

(١) عدة الحرب من درع ومغفر ونحوهما

فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والشك ، فتبعهم عبد الله بن عمرو ابن حرام والد جابر فقال : ياقوم ، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عند ماحضر من عدوهم ، فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكنا لانرى أنه يكون قتالا ، فلما استعصوا عليه قال : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغنى الله عنكم نبيه وفى هؤلاء المنخزلين نزل قول الله تعالى : « وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون » (١)

ولما رجع ابن أبى وأصحابه همت بنو سلمة وبنو حارثة أن ترجعا ، ولكن الله ثبتهما وعصمهما وفى ذلك نزل قوله سبحانه : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »(١)

« استعراض الجيش ورد بعض الصبيان » وفى الطريق استعرض رسول الله الجيش وكان خرج مع الرجال بعض الغلمان ممن لاطاقة لهم على الجهاد رغبه فى الجهاد وحباً للاستشهاد فى سبيل الله فردهم النبى لصغرهم منهم : عبد الله ابن عمر ، والبراء بن عازب ، وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت ؛ وخرابة بن أوس(١) وأجازهم يوم الخندق ، وكان الرسول رد سمره بن جندب ورافع بن خديج ، وهما أبناء خمس عشرة سنة ، فقيل له يارسول الله إن رافعاً رجل رام فأجازه فقيل له : فإن سمرة يصرع رافعاً فاجازه .

وما كان لنا أن نمر بهذا دون أن نشيد بأثر التربية الإسلامية ، آنذاك فى نفوس الشبان ، وأنهم لم يكونوا أقل من الرجال حباً للجهاد وتضحية فى سبيل العقيدة والمثل الانسانية العاليه ، وبهؤلاء الشباب وأمثالهم انتصر الإسلام وعلا على كل الأديان ، وكان المسلمون خير أمه أخرجت للناس ، وعسى أن يكون لشبابنا فى هؤلاء أسوة حسنه .

---

(١) آل عمران ١٦٥ ـ ١٦٧

## « نزول المسلمين بالشعب فى أحد والتعبئة للقتال »

ومضى رسول الله فى سبعمائة من أصحابه حتى وصل الشعب من أحد ، وجعل ظهره وعسكره إلى الجبل ، وقال : لايقاتلن أحد حتى آمره بالقتال وفى صبيحة يوم السبت الخامس عشر من شوال عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، وصف الصفوف وبوأ كل فريق مكانه ، وأمر رسول الله على الرماة عبد الله بن جبير ، وهو معلم بثياب بيض ، وكانوا خمسين رجلا ، وأوصاهم قائلا : « انضحوا بالنبل عنا لانؤتين من قبلكم ، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم » وفى هذا نزل قول الله تعالى « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم »(١)

## الرسول يحمس أصحابه :

وصار النبى يحمس المسلمين ، وينفخ فيهم من روحه ، وقوة إيمانه ، ويحثهم على الصبر والثبات فى هذه المواطن ، وابتدع طريقة تثير الحمية ، وتدعوا إلى الاستبسال فى القتال ، فقد أخذ بسيف فى يده وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فأحجم القوم ثم كرر الكلمة فقام رجال فأمسكه عنهم ، فقام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة فقال : وما حقه يارسول الله ؟ قال : أن تضرب به العدو حتى ينحنى قال : أنا آخذه بحقه فأعطاه إياه ، وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم أنه سيقاتل ، فأخرج عصابته تلك فاعتصب بها ، ثم جعل يتبختر بين الصفين فقال رسول الله : « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن »

« جيش قريش » وعبأت قريش جيشها ، وتصافوا للقتال ، وكان معهم

---

(١) قال فيه الشاعر :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع النظير
إذا ماراية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

مائتا فرس قد جنبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد . وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية ، وكان حامل لوائهم طلحة ابن عثمان من بني عبد الدار ، وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء يحمسهم . ويستثير حميتهم يا بني عبد الدار ، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ماقد رأيتم . وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا، فاما أن تكفونا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وتواعدوه . وقالوا : نحن نسلم إليك لواءنا غدا إذا التقينا كيف نصنع ؟ وهذا ما أراد أبو سفيان ، وقامت هند امرأة أبي سفيان في نساء من قريش وهن يتجولن بين الصفوف ، ويضربن بالدفوف ، ويحرضن على القتال ويقلن :

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار ضرباً بكل بتار[1]

ويقلن : نحن بنات طارق[2] نمشي على النمارق

مشي القطا النوازق والمسك في المفارق

والدر في المحانق

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وانف[3]

---

(١) ويها . كلمة تحريض وحث على القتال . حماة الأدبار : الذين يحمون أعقاب الناس . البتار : السيف القاطع .

(٢) قال السهيلي : فيقال إنها — أي هندا — تمثلت بهذا الرجز وأنه لهند بن طارق ابن بياضه فالته في حرب الفرس لا إنه فعلى هذا يكون انشاده . نحن بنات طارق — بالنصب على الاختصاص ... وإن كانت إرادت النجم فبنات مرفوع خبر مبتدأ أي نحن شريفات رفيعات كالنجوم ، وبعد أن استبعده ذكر عن بعضهم أنه استحسنه ( الروض الانف ج ٢ ص ١٢٩ — ١٣٠

(٣) النمارق . جمع نمرقة وهي الوسادة . النيارق — الخلاف ، المحانق — جمع محنقة وهي القلادة ، والوانق — العجب

« محاولة فاشلة » وحاول أبو عامر الفاسق — وقد تصاف الجيشان — أن يستنزل بعض الأنصار ، فقال: يامعشر الأوس أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك عينا يافاسق ، فلما سمع ردهم عليه قال : لقد أصاب قومى بعدى شر : ثم قاتلهم قتالا شديدا ، ورماهم بالحجارة.

« بدء القتال بالمبارزة » وابتدأ القتال بالمبارزة فقد دعا طلحة بن أبى طلحة العبدرى أحد حملة لواء المشركين يومئذ إلى البراز ، فأحجم عنه الناس فبرز إليه الزبير بن العوام ، فوثب حتى صار معه على جمله ، ثم ألقاه على الأرض وذبحه بسيفه ، فقال الرسول : ( إن لكل نبى حواريا [1] ؟ وحوارى الزبير وقال . « لو لم يبرز إليه أحد لبرزت أنا إليه . لما رأيت من إحجام الناس عنه ، وهذا يدل على شجاعة رسول الله الفائقة التى لاتدانيها شجاعة .

وخرج سباع بن عبد العزى من صفوف المشركين ، وهو يقول : هل من مبارز ؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال له : ياسباع يا ابن أم أنمار أتحاد الله ورسوله ! ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب ، ونادى أبو سعد بن أبى طلحه وكان أحد حملة لواء المشركين وقد سمع على بن أبى طالب يقول: أنا أبو القصم [2] فقال : هل لك يا أبا القصم فى البراز من حاجة ! قال نعم : فبرزا بين الصفين فاختلفا ضربتين ، فضربه على فصرعه ولم يجهز عليه ، فقال له بعض أصحابه : أفلا أجهزت عليه ؟ قال : إنه استقبلنى بعورته فعطفتنى عليه الرحم وعرفت أن الله قد قتله [3] .

« التحام الجيشين » ثم التحم الجيشان ، وحمى الوطيس ، وتعانقت السيوف

---

(١) الحوارى - المخلص الصفى الناصر

(٢) بضم القاف وفتح الصاد وروى بالفاء والقصم — بالقاف — القطع مع الأبانة ، والفصم — بالفاء — قطع من غير إبانة

(٣) وقد فعل ذلك سيدنا على يوم صفين مع بسر بن ابى ارطاه لما حمل عليه ليقتله أبدى له عورته فرجع عنه وكذلك فعل مع عمرو بن العاص حين شد عليه فى بعض أيام صفين فأبدى له سوأته فكف عنه

وحملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات ، فينضحهم الرماة بالنبال فينكصون على أعقابهم ، وأبلى كثير من المسلمين فى هذا اليوم بلاء حسنا، وأظهروا من البطولات ما أعجز المشركين .

فاندفع أبو دجانة[١] وقد اعتصب بعصابة الموت وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر فى الكبول[٢] أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحدا من المشركين إلا قتله ، ورأى — رضى الله عنه — إنسانا يخمش الناس خمشاً شديدا ، قال: فصمدت له فلما حملت عليه بالسيف ولول فإذا هى امرأة ، وهى هند بنت عتبة ، قال: فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة .

وقاتل على والزبير ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو طلحة الأنصارى ، وسعد ابن أبى وقاص ، وأبطال غيرهم كثيرون ، وقاتل أسد الله حمزة بن عبد المطلب قتال الأبطال لا يمر به أحد المشركين إلا أطاح برأسه ، ولا يقدر أحد أن يهوى إليه ، فقتل نفرا من حملة اللواء من بنى عبد الدار ، وبينما هو على هذه الحال ، كمن له وحشى فتمكن منه ، ثم رماه بحربته فأصابت منه مقتلا . وسأدع وحشيا يحدثنا عن هذا المشهد المؤلم المثير قال : كنت غلاما لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت حر قال : فخرجت مع الناس وكنت رجلا أقذف بالحربة قذف الحبشة ، قل ما أخطىء بها ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى عرض الناس كأنه الجمل الأورق[٣] يهد الناس

---

(١) أبو دجانة . بضم الدال وتخفيف الجيم واسمه : سماك بكسر السين بن خرشه بفتح الخاء والراء ، والشين

(٢) الكبول : آخر الصفوف فى الحرب ويروى أيضا الكبول جمع كبل وهو القيد

(٣) الأورق الذى لونه بين الأبيض والأسود «الرمادى»

بسيفه هداً ما يقوم له شيء ، فو الله إني لأتهيأ له أريده واستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني ، فلما دنا هززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في ثنته — تحت سرته — حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوي فغلب وتركته وإياها حتى مات ، ثم أخذت حربتي ورجعت ، ولم يكن لي بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق[1] وسرت قوة الإيمان في نفوس المسلمين ، وضاعفت من قوائم المعنوية ، فاذا السبعمائة يهزمون الثلاثة الآلاف ، حتى لقد قتل من حملة لواء المشركين ، من بني عبد الدار سبعة أو تسعة ، ولم يزل اللواء صريعا لا يجد من يحمله ، حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية ، فرفعته لقريش فاجتمعوا عليه وأنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، فحسوهم بالسيوف ، حتى كشفوهم عن المعسكر ، وولولت نساء المشركين ، وأصعدن في الجبل هربا ، قال الزبير بن العوام : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم[2] هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير ، وأضحت الهزيمة لا شك فيها وأقبل المسلمون على جمع الغنائم ، وما أكثرها وشغلوا بهـا عن مطاردة المشركين والإثخان فيهم ، وتطلع إلى الغنائم كثير من الرماة فتركوا أماكنهم فكانت بوادر الهزيمة .

« مخالفة الرماة أمر الرسول » ونسي معظم الرماة وصية الرسول اليهم أن لا يبرحوا مكانهم وقالوا : مالنا في الوقوف من حاجة ، وذكرهم رئيسهم عبد الله بن جبير قائلا : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ وقال لهم : أما أنا فلا أبرح مكاني ، فخالفه أكثرهم ، وانطلقوا إلى الغنائم وثبت معه عشرة رماة ، حينذاك اهتبل هذه الفرصة خالد بن الوليد ، فشد على بقية الرماة فقتلهم ، واندفع بخيله في ظهور المسلمين وأخذوهم على غرة وهم لاهون بجمع الغنائم ، وصاح في قريش : أن ارجعوا ، فعاد كل منهزم منهم ، واندفعت قريش كالسيل

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨

(٢) بفتح الخاء والدال جمع خدمة : الخلاخيل ، وقيل موضع الخلاخيل من الساق

الآتى إلى معسكر المسلمين ، وصار المسلمون بين نارين ، وهنالك دارت الدائرة على المسلمين وتحولت الصبادبورا[١] ، ووقع الاضطراب فى صفوفهم ، وصار كل واحد يلقى بما فى يده من مغنم ، وعاد إلى سيفه يسله ليقاتل به ، ولكن هيهات هيهات ، لقد تفرقت الصفوف وتمزقت الوحدة ، وابتلع البحر اللجى من جيش قريش ، هذه الفئة القليلة من المسلمين .

لقد كانوا من منذ ساعة يقاتلون ، بوحى من إيمانهم ، ودفاعا عن عقيدتهم ، وهاهم الساعة يقاتلون لينجوا من براثن الموت ، ويفلتوا من ذل الأسر ، وكانوا يقاتلون متراصين متضامنين ، وهم الآن يقاتلون مبعثرين مفرقين ، لا نظام يجمعهم ولا وحدة تشملهم ، وكانوا يقاتلون تحت قيادة حكيمة حازمة ، وهم الآن يقاتلون ولا قيادة لهم ، فلا تعجب إذا صار المسلمون يضرب بعضهم بعضا ، وهم لا يشعرون ، كما حدث فى قتل « اليمان[٢] » والد حذيفة ، فقد قتله المسلمون خطأ وهم لا يعرفونه ، واعتذروا لحذيفه فقال : يغفر الله لكم ، وأراد رسول الله أن يعطيه دية أبيه فأبى ، وتصدق بها على المسلمين فما زال فى حذيفة بقية خير حتى لقى الله عز وجل .

« شائعة قتل الرسول » واندفع المشركون نحو رسول الله ، يريدون قتله ، منهم ابن قمئة ، فتلقاه مصعب بن عمير ، فقتله ابن قمئه ظنا أنه رسول الله وصاح صائح ألا أن محمدا قد قتل ، وهنالك عظمت البلية ، وطاشت أحلام المسلمين ، وذهلوا عن أنفسهم ، فمنهم من ولى هاربا ، ولم ترده إلا حيطان المدينه فرجع استحياء ، وفى هؤلاء نزل قوله سبحانه « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم »[٣] ومنهم

---

(١) الصباريح تهب من المشرق ، والدبور تهب من المغرب .

(٢) هو حسيل بن جابر وسمى اليمانى لانه من ولد جروة بن مازن وكان جروة قد بعد عن أهله فى اليمن زمنا طويلا ثم رجع إليهم فسموه اليمانى .

(٣) آل عمران ١٥٥

من انطلق صاعدا فوق الجبل وألقى بسلاحه من هول الفاجعة ، ثم لم يلبثوا أن فاءوا إلى الرسول وإلى القتال بعد أن أفاقوا من أثر الصدمة ، ومنهم من قاتلوا دفاعا عن دينهم وحماية لأنفسهم ، وهم كثير منهم : حنظلة بن أبى عامر ، وكعب بن مالك ، وقتادة ابن النعمان ، وعبد الله بن عمرو بن حرام والدجابر.

وقدم أنس بن النضر عم أنس بن مالك ، على قوم ممن أذهلتهم الشائعة وألقوا بسلاحهم فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله فقال : ياقوم إن كان محمد قد قتل فان رب محمد لم يقتل ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على مامات عليه وقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما قال هؤلاء يعنى المسلمين — وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعنى المشركين — ثم لقى سعد ابن معاذ فقال : ياسعد إنى لأجد ريح الجنة دون أحد ، ثم التقى بنفسه فى أتون المعركة ، وما زال يقاتل حتى استشهد . فوجد به بضع وثمانون ، ما بين ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رميه بسهم فلم تعرفه إلا أخته ببنانه ، وفى هذا وأمثاله نزل قول الله سبحانه : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه . ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »(١) .

« الذين ثبتوا مع الرسول » وثبت حول النبى ثلة من المهاجرين والأنصار. وفدوه بأنفسهم ، قال ابن سعد : إنهم أربعة عشر رجلا منهم أبو بكر وسبعة من الأنصار . وذكر الواقدى فى مغازيه انه ثبت مع الرسول يوم أحد من المهاجرين سبعه : أبو بكر وعلى ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد ، وطلحه والزبير ، وأبو عبيدة . ومن الأنصار : أبو دجانه والحباب ابن المنذر ، وعاصم بن ثابت ، والحارث بن الصمه . وسهل بن معاذ : وأسيد بن حضير(٢) وذكر البغوى فى تفسيره انه كان ممن ثبت أبو بكر وعمر ، وفى هذا ما يرد ما ذكره الدكتور هيكل فى كتابه : « حياة محمد صلى الله عليه وسلم »(٣) من أن أبا بكر وعمر ممن انتحوا

(١) الأحزاب ٢٣ قضى نحبه : مات (٢) فتح البارى ج ٧ ص ٢٨٨

(٣) ص ٢٩١

ناحية الجبل والقوا بأيديهم ، والظن بالصديق فى قوة إيمانه ، وتفديته للرسول بنفسه فى الهجرة وغيرها أن يكون ممن ثبتوا وكذلك الظن بعمر ، ولعل هيكل أخذ بما رواه ابن اسحاق فى قصة أنس بن النضر من أنه وجد عمر ، وطلحة بن عبيد الله فيمن ألقوا بأيديهم ، وهى رواية مردودة ، فقد اتفقت الروايات كلها فى الصحيحين وغيرهما على أن طلحه كان ممن ثبت[١] وهو مما يوهن هذه الرواية ويضعفها ، ويقلل الثقة بها ، وليس لنا أن نأخذ ببعض ما تفيده وندع البعض .

وفى بعض الروايات أن المقداد ، وسعد بن عبادة ، ومحمد بن مسلمة ممن ثبتوا مع الرسول . والذى يظهر لى — والله أعلم — أن رسول الله ﷺ ، كان يدعو أصحابه إليه ، فصار كل من يسمع النداء يفىء إليه ، حتى تجمع حوله عدد كثير ، فمن ثم اختلفت الروايات فى ذكر العـــدد والأشخاص بحسب الأحوال والأزمان .

ثبات الرسول : وثبت رسول الله ﷺ كالجبل الأشم ، يدافع ويجالد جموع المشركين المحيطين به ، من كل ناحية وهو يقول : « إلى عباد الله إلى عباد الله » ففاء إليه الكثيرون ممن أذهلتهم شائعة أنه قتل ، فقعدوا عن القتال ، ومن تفرقوا يقاتلون بين الصفوف ، حتى تكونت حوله ثلة من أصحابه فسار بهم حتى وصل إلى الصخرة التى فوق الجبل ، وكان أول من عرف رسول الله بعد شائعة قتله كعب بن مالك ، فإنه رأى عينيه تزهران[٢] من تحت المغفر ، فنادى : يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ، فأشار إليه الرسول أن انصت ، وكانت تلك حكمة بالغة من الرسول ، فإن شائعة قتله كان من شأنها أن يخفف المشركون الوطأة على المسلمين ، فإذا ما علموا أنه لا يزال حيا عاودوا الكرة ، وكرروا محاولة قتله ، ولكن لم يلبث الخبر أن ذاع وانتشر بين المسلمين ، فقويت العزائم بعد خور ، وتجمعت الصفوف بعد تفرق ، ثم أراد رسول الله أن

---

(١) البداية والنهاية جـ٤ ص ٢٦، ٢٧ .

يعلو الصخرة التى فى الشعب من الجبل فلم يستطع لكثرة ما نزف من دمه الذكى، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به، حتى استوى عليها، فقال رسول الله حينئذ « أوجب طلحه » وبصر رسول الله بجماعة من المشركين، فيهم خالد ابن الوليد، على ظهر الجبل، فقال « لا ينبغى لهم أن يعلونا » ثم أرسل إليهم عمر بن الخطاب فى رهط من المهاجرين، فقاتلوهم حتى أهبطوهم من الجبل، وهذا يدل على أن المسلمين على الرغم مما أصابهم من جروح وهزيمة كانوا ولم يزالوا بهم قوة ومنعة.

ما نزل بالرسول من جراح: فقد رماه عتبه بن أبى وقاص فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وكان سعد بن أبى وقاص يقول: ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبه — يعنى أخاه — ولقد كفانى فيه قول الرسول: « اشتد غضب الله على من دمى وجه رسول الله »، وقد دعا عليه الرسول فما حال عليه الحول حتى مات كافرا، وشج رسول الله فى جبهته عبد الله بن شهاب، ورماه ابن قمئه — أقماه الله — فجرح وجنته ودخلت حلقتان من المغفر فيها فكان أن سلط الله عليه تيسا فقتله، ذلك أنه لما انصرف إلى مكة خرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل، فشد عليه تيسها فنطحه نطحه أردته من شاهق الجبل، فتقطع قطعا، وكان أبو عامر الفاسق قد حفر حفرة وغطاها ليقع فيها المسلمون، فوقع رسول الله فى حفرة منها، فأخذ على بن أبى طالب بيده، ورفعه طلحه بن عبيد الله حتى المستوى قائما، وأقبل أبى بن خلف، وهو مقنع فى الحديد قائلا: أين محمد لا نجوت إن نجا؟ فقال أصحاب النبى: يا رسول الله يعطف عليه رجل منا، فقال رسول الله: دعوه فلما دنا منه تناول الحربة من الحارث بن الصمه، قال الراوى: فلما أخذها رسول الله انتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله رسول الله فطعنه فى عنقه طعنه تدحرج منها عن فرسه، وهو يخور خوار الثور، ومات — لعنه الله — بسرف[1] والمشركون راجعون إلى مكة

(١) سرف كـكتف موضع قريب من التنعيم.

وبحسبه إنما قول الرسول : « اشتد غضب الله على رجل قتله رسول الله فى سبيل الله » رواه الشيخان وعالج أبو عبيدة بن الجراح إخراج حلقتى المغفر من وجه رسول الله ، وكره تناولها بيده فيؤذى الرسول ، فأزم على احدى الحلقتين بفمه فاستخرجها وقد سقطت ثنيته معها ، ثم أزم على الأخرى فأستخرجها فوقعت الثنية الاخرى ، فكان أبو عبيدة لذلك من أحسن الناس هتما ، ومص مالك ابن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم عن وجه رسول الله ﷺ ، ثم ازدرده — ابتلعه — فقال الرسول « من مس دمى دمه لم تصبه النار » .

« على وفاطمة يضمدان جراح النبى »

أصلح على وزوجه السيدة فاطمة،من شأن الجروح ، فكان على يسكب الماء بالمجن ، وفاطمة بنت الرسول تغسل ، فلما رأت أن الماء لايزيد الدم إلا كثرة ، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها والصقتها بالجراح فأستمسك الدم(١) وكان النبى يقول وقد أصابته الجراح والدم يسيل على وجهه يوم احد : « كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم ، وكسروا رباعيته وهو يدعو إلى الله ، فأنزل الله سبحانه : « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون (٢) فصبر النبى ورضى .

وقد كان ثبات النبى ﷺ موقفاً بطولياً فذاً ، لا يكون إلا من نبى يوحى إليه ، ولولا هذا الموقف لما تجمع الأبطال حول البطل ، ولكانت الهزيمة ساحقة ماحقة .

« مثل من البطولات فى الدفاع عن الرسول »

وقد أبدى بعض المسلمين فى ثباتهم حول الرسول ودفاعهم عنه يوم أحد بطولات فدائية ، لم يعرفها التاريخ لأحد إلا لأصحاب نبينا محمد ، وسواء فى ذلك المهاجرون والأنصار ومن هؤلاء :

طلحة بن عبيد الله من السابقين الأولين ، وكان الصديق أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذاك يوم كله لطلحة وتكاد تجمع الروايات على أنه

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى باب غزوة أحد (٢) آل عمران ١٢٧

ممن ثبت ، وقد روى البيهقى بسنده عن جابر أن المشركين رهقوا رسول الله وهو صاعد فى الجبل جماعة من الأنصار ومعهم أبو طلحة ، فقال رسول الله « ألا رجل لهؤلاء ؟ » فقال طلحة : أنا فقال : كما أنت يا طلحة فقال رجل من الأنصار ، أنا . فقاتلهم حتى قتل ، فلحقه المشركون ، وما زال يقول : ألا رجل لهؤلاء ؟ وطلحة يقول : أنا فيدخره ، ويتقدم أحد الأنصار فيقاتلهم حتى يقتل ، حتى قتلوا جميعا ، ثم قاتلهم طلحة فقاتل مثل قتال جميع من كانوا قبله ، وأصيبت أنامله فقال « حس » فقال رسول الله : « لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة ، والناس ينظرون إليك حتى تلج بك فى جو السماء » وروى البخارى فى صحيحه عن قيس بن أبى حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى ﷺ يوم أحد ولقد بقيت يده — رضى الله عنه — وساما دونه كل وسام إلى يوم القيامة .

ومنهم سعيد بن أبى وقاص الزهرى نثل له رسول الله ﷺ كنانته[1] يوم أحد وقال له : إرم فداك أبى وأمى ، وقد ثبت فى صحيح البخارى أن رسول الله لم يجمع أبويه لأحد فى الفدية إلا له .

ومنهم أبو طلحة الأنصارى ، روى البخارى فى صحيحه عن أنس قال : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ وأبو طلحة بين يدى النبى مجوب عليه بحجفة له[2] ، وكان أبو طلحه رجلا راميا شديد النزع[3] كسر يومئذ قوسين أو ثلاثه ، وكان الرجل يمر معه جعبته[4] فيقول النبى : انثرها لأبى طلحة ، ويشرف النبى ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة : بأبى أنت وأمى لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك[5] وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدى الرسول ويقول : إنى جلد يا رسول الله ، فوجهنى فى حوائجك ، ومرنى بما شئت .

---

(١) الكنانة كيس يوضع فيه السهام .

(٢) مجوب بضم الميم وفتح الجيم ، وكسر الواو المشددة : الحجفة بفتح الجيم والحاء الترس الذى يتقى به المقاتل . (٣) شديد النزع : أى الرمى بالقوس .

(٤) بضم الجيم : وعاء السهام .

(٥) صحيح البخارى — كتاب المغازى . باب غزوة أحد

ومنهم « أبو دجانة » فقد « ترس » بنفسه على رسول الله ، فحنى ظهره عليه ، والنبل يقع فيه حتى كثرت به الجراح

ومنهم « زياد بن السكن ، ويقال : عمارة بن يزيد بن السكن كان أحد النفر من الأنصار الذين قتلوا بين يدى رسول الله دفاعا عنه حينما غشية القوم وتكاثروا عليه لقتله[1] .

ومنهم فتى الفتيان « على بن أبى طالب » فقد كان ممن ثبت مع الرسول ، ونافح عنه ، وممن قاتل فى هذا اليوم قتال الأبطال .

« بطولة امرأة » وإنها لبطولة تستحق التسجيل ، وبطلتها هى السيدة نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية . روى ابن اسحاق وغيره أنها دخلت عليها أم سعد ابن الربيع فقالت لها : ياخاله أخبرينى خبرك قالت : خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وهو فى أصحابه والدولة والريح[2] للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسول الله ، فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلى قالت الراوية : فرأيت على عاتقها جرحا أجوف ، له غور ، فقلت لها : من أصابك بهذا ؟ قالت : ابن قمئة — أقماه الله — لما ولى الناس عن الرسول أقبل يقول : دلونى على محمد ، لانجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبتوا مع الرسول ، فضربنى هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان ، وقد غشى عليها من جراحها ، فلما أفاقت قالت : أى رسول الله وما صنع المشركون معه ؟ فقالوا لها بخير .

وروى الواقدى بسنده عن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما التفت يوم أحد يمينا وشمالا إلا وأراها تقاتل دونى »

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٨١ (٢) الغلبة والنصر

وإن الإنسان ليدهش من هذه الشجاعة التى لا نكاد نجد لها مثالا فى تاريخ الدنيا ، إن لهذه السيدة البطلة لتاريخا حافلا فى باب الجهاد فى الإسلام، فقد ذكر ابن عبد البر فى ترجمتها : أنها شهدت أحدا مع زوجها زيد بن عاصم وابنيها : حبيب وعبد الله ، وشهدت كذلك بيعة الرضوان ، وقد أبلت بلاء حسنا فى حروب الردة ، وكان مسيلمة الكذب ، قد ظفر بابنها حبيب وهو مقبل من عمان إلى المدينة وأخذه أسيرا[1]، فقال له: أتشهد أنى رسول الله؟ فيقول: لا أسمع ، فيقول أتشهد أن محمداً رسول الله فيقول نعم فيقطع منه عضوا ، وما زال يسأله ويجيب بما أجاب به حتى قطعه إربا إربا ، ومات شهيد عقيدته مرضيا عليه من ربه، وأبت عليه بطولته أن يداهن فى موطن تجيز له التقية أن يوافق ما دام قلبه مطمئنا بالإيمان ، ولكن المؤمنين الأبطال يأبى عليهم إيمانهم الفذ إلا العزائم ! !

ولما بلغها ما صنع الكذاب بحبيب عاهدت الله أن تموت دون مسيلمة ، فلما كان يوم اليمامة ذهبت إلى الصديق تستأذنه فى الخروج فقال لها : ما مثلك يحال بينه وبين الخروج ، فقد عرفناك ! وعرفنا جرأتك فى الحرب ! فاخرجى على اسم الله ! فخرجت هى وابنها عبد الله وأصيبت يومها باثنى عشر جرحا ، وفقدت يداً فى هذا اليوم وكانت حريصة على قتل مسيلمة ، ولم يهدأ بالها حتى قابلها ابنها البطل عبد الله بن زيد الذى شارك وحشيا فى قتل مسيلمة ، وسيفه يقطر دما من دمه ، فقالت له ، أقتلته ؟ قال : نعم ، فسجدت شكراً لله ، وعادت وقد فقدت فى حروب الردة يدا وابنا ، وعادت بيد وابن ، ولكنها كانت قريرة العين أن أبر الله قسمها ، وأن فقدت ماتقدت فى سبيل الله!![2] .

« مثل آخر من إيمان النساء » فقد مر رسول الله ﷺ بعد الموقعة بامرأة

---

(١) وذكر ابن عبد البر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه إلى مسيلمة الكذاب باليمامة ففعل به ما ذكرنا

(٢) الأصابة جـ٤ ص٤٧٩ ، وجـ١ ص ٣٠٦ والاستيعاب على هامش الأصابة جـ٤ ص٤٧٥ وجـ١ ص ٣٢٨

من بنى دينار ، وقد أصيب زوجها ، وأخوها ، وأبوها مع رسول الله بأحد ، فلما نعوا إليها قالت : مافعل رسول الله ؟ قالوا خيرا يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين فقالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل !! تريد صغيرة وهذا اللفظ من الاضداد :

## ومن جهاد النساء فى أحـــد »

وقد كان للنساء المسلمات جهاد مشكور فى أحد : يسقين العطشى ، ويداوين الجرحى . روى الشيخان فى صحيحيهما عن أنس قال : « ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر — زوج الرسول — وأم سليم — يعنى أمه — وأنهما لمشمرتان أرى خدم(١) سوقهما تنقزان(٢) القرب على متونهما ، تفرغان فى أفـــواه القوم ، ثم ترجعان فتملاتها ، ثم تجيئان فتفرغانه فى أفواه القوم » ومنهن أم سليط . روى البخارى فى صحيحه بسنده « أن عمر بن الخطاب قسم مروطا(٣) بين نساء من نساء المدينة فبقى منها مرط جيد فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين أعط هذا بنت رسول الله التى عندك يريدون أم كلثوم ، بنت على ، فقال عمر : أم سليط أحق به منها قال عمر : فانها كانت تزفر(٤) لنا القرب يوم أحد »(٥) وكان النساء يقمن بهذه الخدمات وهن على حالة من الوقار والاحتشام وعـدم التبرج ، والمخالطة المريبة فالإسلام لا يمنع المرأة من المشاركة فى الحرب بما يليق بحالها ، بل ومن الأخذ بالسلاح إذا لزم الأمر ، كما فعلت السيدة نسيبة وغيرها روى مسلم فى صحيحه بسنده عن أنس أن أم سليم اتخذت خنجرا يوم حنين ، فسألها النبى صلى الله عليه وصلم عن ذلك فقالت : « اتخذته إن دنا منى احد من

---

(١) جمع خدمه وهى الخلخال ، والسوق جمع ساق

(٢) تسرعان المشى وقيل ، تهرولان .

(٣) المرط كساء من صوف أو حرير تتلفع به المرأة وتتستر

(٤) مثل تحمل وزنا ومعنى .

(٥) صحيح البخارى — كتاب المغازى — غزوة أحد باب ذكر أم سليم

المشركين بقرت بطنه » وهكذا فلتكن النساء ، وروى مسلم أيضا عن أنس قال: « كان النبى صلى الله عليه وسلم يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا ، فيسقين الماء ، ويداوين الجرحى » وروى أيضا عن أم عطية الأنصارية قالت : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم ، فأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى »[1] . فالإسلام يبيح للمرأة المشاركة فى الجهاد ، ولكن بشرط التدين والتصون والتعفف وعدم الابتذال والوقوع فى المآثم ، وإلا كان ضررها أكثر من نفعها ، وإفسادها أكثر من إصلاحها .

« المقاتلون حمية » على حين كانت الكثرة من المسلمين تقاتل فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا كان فى صفوفهم من يقاتل حمية عن قومهم ممن يظهرون الإسلام : ولا يرجون الله واليوم الآخر ، ومن هؤلاء رجل يسمى: « قزمان » قال ابن اسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة قال : كان فينا رجل أتى — غريب — لا يدرى ممن هو يقال له « قزمان » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا ذكر له قال : ( إنه من أهل النار ) قال فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديداً ، فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين ، وكان ذا بأس فأثبتته الجراح فاحتمل إلى دار بنى ظفر ، فجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قزمان ، فابشر ، قال : بماذا أبشر ؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى ، ولولا هذا ماقاتلت ! فلما اشتدت به جراحه أخذ سهما من كنانته فقتل به نفسه وهكذا صدق الله مقالة رسوله ، وكانت خاتمة أمره خسرا ، ومآلا إلى النار حيث قتل نفسه

## « المشركات يمثلن بشهداء أحد »

لما وقعت الهزيمة بسبب مخالفة الرماة أمر الرسول وأصيب من أصيب من المسلمين انطلقت هند بنت عتبة والنسوة اللاتى كن معها إلى قتلى المسلمين يمثلن بهم

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد ـ باب غزو النساء مع الرجال

يحقد وغيظ وشراسة . فصرن يجدعن الآذان والأنوف . ويبقرن البطون حتى أن هنداً بقرت عن كبد سيد الشهداء حمزة فلاكتها — مضغتها — فلم تستطع أن تسيغها — تبتلعها — فلفظتها . وبالغن فى التمثيل بالشهداء ، ونسين صنع الرسول والمسلمين فى قتلاهم ببدر ، حيث أمر بدفنهم ، ولم يتركهم للسباع والطير ، فضلا أن يمثلوا بأحد منهم فشتان مابين الصنيعين ، وصنعت هند من الآذان والأنوف خلاخيل وأقراطاً وقلائد ، وأعطت وحشياقلائدها وخلاخيلها وأقراطها مكافأة له على جريمته النكراء ، بل بلغ الأمر بأبى سفيان بن حرب ، أن صار يضرب فى شدق سيد الشهداء حمزه برج الرمح ويقول : ذق عقق — يعنى ياعاق — فمر عليه الحليس بن زياد سيد الاحابيش يومئذ وهو يفعل ذلك فقال : يابنى كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ماترون لحما(١) ؟! فقال : ويحك اكتمها على فإنها كانت زلة .

( حزن الرسول على عمه ) وخرج رسول الله يتفقد القتلى ، ويتلمس عمه حمزة ، فوجده قد مثل به فبقر بطنه ، وأخرج كبده ، وقطعت أنفه وأذناه فقال : «لن أصاب بمثلك أبداً ، وما وقفت قط موقفاً أغيظ على من هذا» ثم قال « ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم مكانك » وقال المسلمون لما رأوا المثلة فى قتلاهم ، وحزن النبى البالغ على عمه حمزة

لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب .

« أمر الله بالعدل فى القصاص » ولم يلبث الوحى أن نزل بالأمر بمراعا العدل فى القصاص ومحببا فى الصبر والعفو فقال عز شأنه ( وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون(٢) فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر وكفر

---

(١) يعنى ميتا لا يقدر على الانتصار لنفسه (٢) النحل ١٢٦ ـ ١٢٨

عن يمينه ونهى عن المثلة وروى ابن اسحاق بسنده عن سمرة بن جندب قال : « ماقام رسول الله ﷺ فى مقام قط ففارقه ، حتى يأمرنا بالصدقة وينهانا عن المثلة » .

ولا يشكلن عليك كون هذه الآيات من سورة النحل وهى مكية ، لأن بعض العلماء قال : إنها مكية إلا هذه الآيات من خواتيم السورة فإنها مدنية ، نعم ذهب كثير من العلماء إلى أنها كلها مكية وعلى هذا فتكون هذه الآيات مما تكرر نزولها على حسب المناسبات والدواعى تذكيراً بما فيها من هذا الأدب الإسلامى العالى ، وهو رعاية العدل عند النصر والظفر ، وعدم الاستجابة لهوى النفس ، أو الإسراف فى الانتقام والتشفى ، وهو أدب إسلامى لم تصل إليه المدنية فى القرن العشرين (١).

« بعد الموقعة » و بعد الموقعة أشرف أبو سفيان بن حرب على المسلمين فقال : أفى القوم محمد فقال لهم النبى لا تجيبوه ، أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ أفى القوم ابن الخطاب ؟ والنبى يقول : لا تجيبوه ، فقال أبو سفيان : إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه أن قال : كذبت والله يا عدو الله إن الذى عددت لأحياء ، وقد بقى لك ما يسوءك فقال : يوم بيوم بدر والحرب سجال — يعنى يوم لك ويوم عليك — فقال له عمر . لا سواء ! قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار ، فقال أبو سفيان : وإنكم ستجدون فى القوم مثله لم آمر بها ولم تسؤنى ، ثم أخذ يرتجز : أعل هبل . أعل هبل (٢) ، فقال النبى : أجيبوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال : ( قولوا : الله أعلى وأجل ) فقال أبو سفيان لنا العزى ، ولا عزى لكم ، فقال النبى : أجيبوه قالوا : ما نقول قال : ( قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم ) ثم قال أبو سفيان : إن موعدكم بدر العام المقبل ، فقال رسول الله لرجل من أصحابه ( قل : نعم هو بيننا وبينك موعد ) روى هذا ابن اسحاق وأحمد والبخارى ، ومسلم .

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم للمؤلف ص ١٥

(٢) يعنى أظهر دينك . أو أعل هبل أى ازدد علوا

تعرف وجهة المشركين ؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على تعرف رغبة القوم حتى لا يميلوا إلى المدينة ، فأرسل ابن عمه عليا وقال له : أخرج فى آثار القوم ، وانظر ماذا يصنعون ، وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الأبل فانهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الابل فهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم فخرج على ، فوجدهم جنبوا الخيل : وامتطوا الإبل ، وتوجهوا إلى مكة ، وهذا يدل على أن المسلمين كانوا لايزالون أقوياء ، وعلى استعداد للقتال وأن الهزيمة لم توهن من قواهم المعنوية .

صلاة النبى بالمسلمين قاعدا : وصلى رسول الله بأصحابه الظهر قاعدا اكثرة مانزف من دمه . وصلى وراءه المسلمون قعودا .

دعاء وابتهال : وتوجه النبى إلى الله الذى بيده كل شىء بالدعاء والثناء ، على ما نالهم من الجهد والبلاء ، فقال لأصحابه . « استووا حتى أثنى على ربى عز وجل ، فصاروا خلفه صفوفاً ثم دعا بهذه الكلمات المؤمنه العذاب « اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادى لمن أضلات ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت . ولا مانع لما أعطيت . ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ، ورحمتك وفضلك ورزقك اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا ، وشر مامنعتنا ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إله الحق » رواه الامام أحمد .

## من استشهد فى أحد

وقد استشهد فى أحد من خيار المسلمين حوالى سبعين منهم أربعة من

المهاجرين ، وقيل ستة والباقى من الانصار . فمن المهاجرين :

(١) حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء وأسد الله وأسد رسوله ، قتله وحشى كما أسلفنا ، وقد بقى وحشى بمكة حتى فتحت ، ففر الى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف أعيته المذاهب ، فعزم على الفرار الى الشام أو اليمن فقيل له : ان النبى لايقتل أحدا من الناس دخل فى دينه ، فخرج حتى قدم على رسول الله بالمدينة فإذا هو واقف على رأسه يشهد شهادة الحق فقال له : « اوحشى أنت » ؟ قال نعم فحدثه بقتل حمزة ، فقال له : ويحك غيب وجهك عنى فلا أرينك ، ففعل فكان يتعمد أن لايلقى رسول الله كى لا يثير الكامن من الحزن ، ولا الذكريات المؤلمة ، فلما حصلت حروب الرده ، وخرج المسلمون إلى مسيلمة ، خرج معهم ومعه حربته التى قتل بها سيد الشهداء كى يكفر عن فعلته بقتل مسيلمة ؛ فأمكنه الله منه وشاركه عبدالله بن زيد بن عاصم فى قتله(١) ؛ فلذا كان يقول . قتلت خير الناس بعد رسول الله وقتلت شر الناس ؛ وكانت وفاته بحمص .

ولما قتل حمزة ومثل به جاءت أخته صفية بنت عبد المطلب لتراه ، وكان آخا شقيقا لها ؛ فقال رسول الله رحمة بها وشفقة عليها — لابنها الزبير بن العوام ( القها فأرجعها لاترى ما بأخيها ، فقال لها ابنها : أن رسول الله يأمرك أن ترجعى ؛ فقالت . ولم ؟ وقد بلغنى أنه مثل بأخى : وذلك فى الله ، فما أرضانا ما كان من ذلك !! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله ، فلما أخبر الزبير رسول الله بمقالتها قال . خل سبيلها فأتته ، فنظرت إليه ، وصلت عليه (٢) واسترجعت واستغفرت .

(٢) مصعب بن عمير وكان حامل اللواء يومئذ ، قتله بن قمئة لما اعترضه مفديا رسول الله بنفسه . ولما قفل رسول الله إلى المدينة لقيته حمنة بنت جحش زوجة مصعب — رضى الله عنه — فنعى إليها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى إليها خالها حمزة فاسترجعت واستغفرت ، ثم نعى اليها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت ، فقال رسول الله : (ان زوج المرأة منها لبمكان )

---

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى غزوة أحد باب قتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه والاصابة والاستيعاب ترجمة حمزة (٢) أى دعت له

(٣) عبد الله بن جحش بن السيدة أميمة بنت عبد المطلب ، وكان قد مثل به حتى سمى : المجدع فى الله ، وذكر الزبير بن بكار أن سيفه انكسر يوم أحد فأعطاه رسول الله عرجونا فصار فى يده سيفاً فقاتل به ، ثم بيع فى تركة بعض ولده بمائتى دينار .

واستشهد فى الأنصار — رضوان الله عليهم — كثيرون منهم : —

(٤) أنس بن النضر عم أنس بن مالك ، وقد قدمنا طرفاً من خبره .

(٥) سعد بن الربيع ، ولما افتقده رسول الله قال: « من رجل ينظر لى سعد بن الربيع أفى الأحياء هو أم فى الأموات » فذهب إليه رجل فوجده جريحاً فى القتلى وبه رمق ، فأخبره بمقالة رسول الله فقال . أنا فى الأموات فأبلغ رسول الله سلامى ، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول : جزاك الله عنا خير ماجزى نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف ثم لم يلبث أن مات فجاء الرجل وأخبر النبى بخبره .

(٦) عبد الله بن عمرو بن حزام والد جابر وفى الصحيحين عن جابر أنه لما قتل أبوه صار يكشف عن وجهه الثوب ويبكى ، وصارت عمته تبكى أيضاً فقال رسول الله :« تبكيه أو لاتبكيه لم تزل الملائكة تظله حتى رفعتموه ) وروى البيهقى عن جابر قال : نظر إلى رسول الله ﷺ فقال : ( مالى أراك مهتما ) فقال قتل أبى وترك ديناً وعيالا فقال له : ( ألا أخبرك ؟ ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحاً — يعنى مواجهة — وقال له : يا عبدى سلنى أعطيك . قال : أسألك أن تردنى الى الدنيا فاقتل فيك ثانية فقال الحق تبارك وتعالى : إنه سبق منى القول انهم إليها — أى الدنيا — لا يرجعون ، قال: ارب فأبلغ من ورائى فأنزل الله سبحانه ( ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ) وكان والد جابر قد خلفه على أخواته البنات السبع ، وقال له : ما كنت لأوثرك على نفسى فى الخروج مع رسول الله ، حتى كتب الله له الشهادة .

(٧) عمرو بن الجموح . وكان رجلا أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون المشاهد مع رسول الله فلما كان يوم أحد أرادوا منعه من الخروج وقالوا : إن الله قد عذرك ، فأتى النبي وقال : إن بني يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك ،فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة ، فقال رسول الله ( أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك ) وقال لبنيه: ( ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة ) فخرج فرزقها .

( ٨ ) حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة ، كان أبوه من أشد الناس عداوة للرسول ، وكان هو من خيار المسلمين وقد التقى هو وأبو سفيان بن حرب فلما علاه حنظلة رآه شداد بن الأوس وكان يسمى : ابن شعوب فقتله ، فقال رسول الله ﷺ : ( إن صاحبكم تغسله الملائكة ، فاسألوا أهله ما شأنه ) فسألوا صاحبته — زوجته — وهي جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول وكانت عروساً عليه تلك الليلة فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة — الصيحة للجهاد — فقال رسول الله : ( لذلك غسلته الملائكة ). وقد التقى به بعد استشهاده الوالد الفاسق القاسي فضربه برجله وقال : لقد نهيتك عن مصرعك هذا ولقد كنت — والله — وصولا للرحم ، براً بالوالد . ولا أدري لو لم يكن براً به فماذا كان سيلقى منه ؟ ! ! ويحسب حنظلة فضلا أن لا يزال ذكره مسكا يتضوع على مدى الأجيال .

(٩) عبد الله بن جبير أمير الرماة، وقد ذكر من كان معه بوصية رسول الله وأبى أن يبرح هو ومن وافقه حتى قتلوا شهداء .

قتلى المشركين : أما عدد من قتل من المشركين فكانوا عشرين .

## دفن شهداء أحد

وأمر رسول الله أن يدفن شهداء أحد حيث ماتوا ، وقد كان بعض أهالي الشهداء نقلوهم إلى المدينة المنورة ليدفنوا فيها ، ولكن نادى منادي رسول الله

: أن ردو القتلى إلى مضاجعهم ، فأعادوهم[١] وكان رسول الله يجمع بين الرجلين والثلاثة فى القبر الواحد ، بل وفى الكفن الواحد ، وكان يسأل : أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ فإذا أشير إليه قدمه فى اللحد ، وقال ، وقال أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يصل عليهم ، ولم يغسلوا[٢] وإنما أرخص لهم فى الدفن فى القبر الواحد ، لما كان بهم من الجراح والجهد الذى يشق عليهم معه أن يحفروا لكل واحد قبراً ، وقد دفن حمزة مع ابن أخته عبد الله بن جحش فى قبر ، ودفن عمرو بن الجموح مع صاحبه وصهره عبد الله بن حرام فى قبر ، ومصعب بن عمير وسعد بن الربيع فى قبر وهكذا.

وهذا الذى ذكرناه من أن شهداء أحد دفنوا بثيابهم ودمائهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم هو الذى ثبتت به الروايات الصحيحة فى الصحيحين وغيرهما وذلك لتكون دماؤهم وجراحاتهم شاهدة لهم يوم القيامة بفضلهم ومنزلتهم.

وفى الصحيحين وغيرهما أن النبى ﷺ قال : ( والذى نفسى بيده لا يكلم — يجرح — أحد فى سبيل الله والله أعلم بمن يكلم فى سبيله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم اللون لون الدم ، والريح ريح المسك )

ولذلك ذهب الجمهور من الفقهاء إلى عدم الصلاة على الشهداء الذين قتلوا فى جهاد الكفار ، وعدم تغسيلهم

وأما مارواه ابن اسحاق وغيره من أن النبى صلى عليهم ، وأنه صلى على حمزة سبعين صلاة بتعدادهم فقد قال الحافظ بن كثير : إنه ضعيف[٣] نعم ثبت فى صحيح البخارى ومسلم أنه ﷺ صلى عليهم بعد ذلك ببضع سنين كالمودع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر فقال : ( إنى بين أيديكم فرط وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، وإنى لأنظر إليه من مقامى هذا

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣

(٢) صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب من قتل من المسلمين يوم أحد.

(٣) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٤٠ — ٤١

وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدنيا ، أن تتنافسوها ، قال الراوى : وكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ ، ومن هنا ذهب بعض الفقهاء إلى مشروعية الصلاة على الشهيد : شهيد المعركة . وأما الجمهور فحملوا هذا على الدعاء أو أن ذلك خصوصية للنبى[١]

منزله شهداء أحد : ولما لشهداء أحد منزلة وتضحية فى سبيل الله كان النبى صلى الله عليه وسلم يزورهم ويسلم عليهم ، ويقول : «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » وكان أبو بكر يفعله ؛ وكان عمر يفعل ذلك ، وكان عثمان يفعله ، وحكى الواقدى زيارتهم عن السيدة فاطمة وسعد ، وأبى سعيد الخدرى ، وأبى هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وأم سلمة رضى الله عنهم أجمعين ، وبحسبهم فضلا أن الله أنزل فيهم وفى أمثالهم قوله سبحانه : ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » وقد قدمنا فى فصل الاستشهاد فى الإسلام من روى ذلك من الأئمة وبينا المراد بهذه الحياة فكن على ذكر من ذلك[٢] .

وقد بقى الشهداء بمكانهم حتى كان عهد معاوية وإجرائه العين من أحد فانفجرت العين عليهم فنقلوا من أماكنهم ؛ وفى رواية ابن اسحاق عن جابر قال : فأخرجناهم كأنما دفنوا بالأمس ، وهذا إكرام من الله للشهداء ، كما حرم على الأرض أن تأكل أجساد الانبياء ، روى الإمام مالك فى الموطأ أن عمرو بن الجموح . وعبد الله بن حزام الانصاريين كان قد حفر السيل قبرهما : وكان قبرهما مما يلى السيل ، وكانا فى قبر واحد[٣] وهما ممن استشهد يوم أحد فحفر عنهما ليغيرا من مكانهما ، فوجدا لم يغيرا كأنما ماتا بالأمس وكان احدهما قد جرح فوضع يده على جرحه . فدفن وهو وكذلك فأميطت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت . وكان بين أحد ويوم حفر عنهما

---

(١) فتح البارى ج ٣ ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) ص ٦٤ ، ٦٥ من هذا الكتاب.

(٣) لأنهما كانا متصاحبين ومتصاهرين فى الدنيا .

ست وأربعون سنة»[1].

من أصيب بالجراح يوم أحد : وأصيب كثيرون بجراح ولا سيما الذين كانوا يحيطون برسول الله منهم أبو دجانة ، وأبو طلحة ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وعبد الرحمن بن عوف فقد جرح عشرون جراحة أو أكثر . وكثرت ثنيته فهتم . وأصيبت يومئذ السيدة نسيبة بنت كعب بجرح غائر فى عاتقها .

معجزة نبوية : وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى سقطت على وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فكانت أحسن عينيه وأحدهما. وقد روى هذه القصة ابن إسحاق . والدارقطنى والبيهقى فى الدلائل وذكروا أنها كانت فى أحد . وروى البعض أن ذلك كان فى بدر والصحيح الأول ، ولما وفد حفيده عاصم بن عمر بن قتادة على عمر بن عبد العزيز — رضى الله عنه — وهو والى المدينة قال له : من أنت ؟ فقال له مرتجلا :

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه ... فردت بكف المصطفى أحسن الرد

فعادت كما كانت لأول أمرها ... فياحسنها عينا ، ويا حسن ما خد

فأجابه عمر متمثلا :

تلك المكارم لاقعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وصدق خامس الراشدين فتلك هى المفاخر الباقية حقاً ، فلا عجب إذا كان وصله وأحسن جائزته[2] .

## ( سبب الهزيمة فى أحد )

(١) مخالفة معظم الرماة أمر رسول الله ووصيته لهم أن لا يبرحوا أماكنهم سواء انتصروا أم انهزموا . وقد كان النصر للمسلمين فى الجولة الأولى فلما

---

(١) الموطأ كتاب الجهاد — باب الدفن فى قبر واحد من ضرورة «البداية و نهاية» جـ ٤ ص ٤٣ .

(٢) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٣٤.

تخلوا عن أماكنهم كانت الهزيمة .

(٢) إيثار بعضهم الغنيمة على الجهاد ، وعرض الدنيا على ثواب الآخرة فلولا أن الرماة سارعوا إلى الغنائم يحوزونها ، ولولا أن البعض شغلوا بالغنيمة عن الإنحاء فى المشركين لما حدث ما حدث ، وقد سجل الله ذلك فى كتابه فقال : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا . ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين [١] .

« وعده » يعنى بالنصر « تحسونهم » تقتلونهم « ما تحبون » أى النصر « ليبتليكم » أى يعاملكم معاملة المختبر ، ليظهر صادق الإيمان من غيره .

عبرة وعظة : وقد كانت أحد درسا قاسيا تعلم عنه المسلمون أن مخالفة الرسول لا تجر إلا إلى الخيبة والهزيمة فمن ثم لم يقعوا فى هذا الخطأ بعد ، ولم تقع مثل هذه الهزيمة ، كما تعلموا منه أن ما عند الله خير وأبقى ، وأن الغنائم ما هى إلا عرض زائل لا ينبغى أن تكون غرضاً لمجاهد فى سبيل الله كما كان اختبارا تميز به المؤمنون الصادقون من ضعفاء الإيمان والمنافقين وقد دل ما حدث فى أحد على أن الرسل وأتباعهم قد تنالهم الهزيمة فى بعض المواقف لخطأ أو لغير ذلك ولكن العاقبة بالنصر لا بد أن تكون لهم ، وهذه هى سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . وصدق الله : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز » [٢] وقد سجل الله سبحانه ذلك فى كتابه فقال : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنو ، ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين [٣]

---

(١) آل عمران ١٥٢ .
(٢) المجادلة ٣١ .
(٣) آل عمران ١٤٠ ، ١٤١ .

(قرح) جراح فى أحد فقد نزل بهم مثله فى بدر ( تداولها ) يوم لك ويوم عليك . ( وليعلم الله ... ) أى يظهر لعباده المؤمنين المخلصين من المنافقين ، وليكرم من أكرم من أهل الايمان بالشهادة ، ( وليمحص ... ) أى يطهرهم بالبلاء الذى نزل بهم مما عسى أن يكونوا اقترفوا حتى يصيروا كالذهب نقاء وصفاء ويهلك الكافرين والمنافقين ويكشف عن دخيلة نفوسهم .

## ما نزل من القرآن فى احد

وقد أنزل الله سبحانه فى أحد ، وما يتصل بها حوالى أربعين آية من سورة آل عمران ، وقد ذكرنا بعضها أثناء الدراسة التحليلية للغزوة ، وهـا هى بعض الآيات الأخرى منزلا لها على مواقعها ، وموجزا مقاصدها ومواضع العبرة فيها .

قال تعالى فى بيان سنة الله فى الأمم ، وأن النصر للرسل وأتباعهم ، والهلاك للمكذبين أعدائهم : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . إلى قوله : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

« ولا تهنوا » أى لا تضعفوا عن الجهاد بسبب ما جرى لكم ( ولا تحزنوا ) على ما أصابكم من قتل وجراح (وأنتم الأعلون) جمع الأعلى أى الأعلون شأنا ، لأن قتالكم لله ، وفى سبيل إعلاء كلمته ، وقتالهم للشيطان ، وإعلاء كلمة الكفر وأيضا فقتلاكم فى الجنة ، وقتلاهم فى النار ، ثم إنكم أصبتم منهم فى بدر أكثر مما أصابوا منكم (إن كنتم مؤمنين) أن العاقبة والنصر للمؤمنين ، أو إن كنتم من أهل الإيمان الصادق ، ففيه تهييج لهم وإلهاب لحماسهم لأن الإيمان الصادق لا يهن صاحبه ولا يحزن لما أصابه ويستهين بكل شدائد الحياة فى سبيل العقيدة الحقة والغاية الشريفة أما قوله تعالى : « إن يمسسكم قرح ... » الآية فقد سبق شرحها آنفا

ثم بين سبحانه أن الجنة حفت بالمكاره فلا محيص لمن يطلبها من الجهاد

والصبر والكفاح ، والقتل والجراح فقال سبحانه :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم : ويعلم الصابرين ، إلى قوله : «وأنتم تنظرون» ومعنى يعلم يظهر ، أو المراد تعلق علم الله بالشيء واقعا وحادثا ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، تحضروا مواطنه «فقد رأيتموه ، وأنتم تنظرون » عاينتم أسبابه ، وأبصرتم موارده

ثم عاتب الذين انهزموا وفروا أوقعدوا عن القتال لما أشيع أن النبي قتل مع أنه كسلفه من الأنبياء الذين مضوا، وسيموت كما ماتوا ، ولكل أجل كتاب فقال عز شأنه وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، إلى قوله سبحانه «وسنجزى الشاكرين ».

«انقلبتم ، انهزمتم وتخاذلتم ، وفعلتم فعل المرتدين وإن كان لا ردة، ومن فر أو تخاذل فلا يضر إلا نفسه ومن ثبت وقاتل وصابر فسيجزيه خير الجزاء ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله، بقضائه وقدره « كتابا مؤجلا » أى كتب ذلك كتابا مؤقتا لا تقدم عنده ولا تأخر ثواب الدنيا، من يرد بعلمه الدنيا أعطى من الدنيا «ثواب الآخرة» ومن قصد وجه الله ورضاءه أجزل له الثواب .

ثم عرض لاتباع الأنبياء فى الأمم السابقة ، وأنهم ما ضعفوا لما نالهم من قتل أو هزيمة ، إلهابا لحماسهم ، واثارة لنفوسهم فقال عز شأنه : (وكاين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ) إلى قوله : (والله يحب المحسنين ) .

« وكاين من نبى ... » أى وكثير وقرىء «قتل» و «قاتل» :

الربيون : الجماعات الكثيرة ، (فما وهنوا) تخاذلوا لما نزل بهم من هزيمة أو قتل أو جراح (وما ضعفوا) عن طلب عدوهم (وما استكانوا) لما أصابهم فى الجهاد دفاعا عن دينهم وهذا ظاهر على قراءة قاتل وعلى الاخرى يكون

المراد بقوله « فما وهنوا ... » الباقون بعدهم (ثواب الدنيا) النصر والظفر (وحسن ثواب الآخرة) الجنة ونعيمها (والله يحب المحسنين) الاحسان الإتقان ومراقبة الله فى الاعتقاد والقول والعمل ، أى يثيبهم .

ثم عاتبهم على فرارهم عن نبيهم وهو يدعوهم إليه فقال : ( إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ، ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون) .

(تصعدون ) من أصعد وهو الذهاب والإسراع فى الأرض هرباً ، وأما صعد فمعناه ارتقى فى جبل او نحوه ( ولاتلوون ) ولاتعطفون وترجعون (فى أخراكم) فى آخركم ومن ورائكم حينما قال ( إلى عباد الله ) (فأثابكم غماً بغم) أى غماً بسبب غم وهو ما نزل بهم من الهزيمة والقتل بسبب ما أدخلتموه على نفس الرسول بمخالفتكم أمره أيها الرماة ، أو غماً بعد غم ، وهو ما نزل بهم من الهزيمة وما حصل لهم لما أشيع أن النبى قتل : (على ما فاتكم) من النصر والغنيمة ( ولا ما أصابكم ) من القتل والجراح .

ثم وبخ الله المنافقين وضعفاء الإيمان الذين لم تهمهم إلا أنفسهم : وظنوا بالله ورسوله الظنون السيئة ، والذين زعموا أنهم لو لم يخرجوا لما قتل من قتل فقال : وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ، قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا ، قل: لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور).وليبتلى الله ما فى صدوركم....» أى أصابكم الله بما أصابكم ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر المؤمن من المنافق الناس ، أما هو سبحانه فعليم بما فى القلوب

( يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ) أى إن الله خاذل دينه ونبيه (قل لو كنتم .. ) فالخروج فى الجهاد لايقصر أجلا والجبن والتخلف فى

البيوت لايطيل عمرا وماقدره الله لابد أن يكون ، والله لاتخفى عليه خافية ، ويعلم ماتكنه صدوركم .

ثم حذر سبحانه المؤمنين أن يكونوا كالمنافقين الذين يفتحون عمل الشيطان فى نفوسهم بقولهم : لو ولو .. ولن تجر عليهم هذه التمنيات الباطلة إلا الحسرة والله سبحانه وتعالى هو الذى بيده الحياة والموت فقال: ( يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ماماتوا ، وماقتلوا ليجعل ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير).

(لإخوانهم) أى لأجل إخوانهم فى النفاق أو فى النسب (ضربوا فى الأرض) سافروا فيها لتجارة أوغيرها فماتوا (غزى) جمع غاز أى غزاة فقتلوا ( حسرة فى قلوبهم) أى ندامة فى الدنيا أن فاتهم ماأحبوا ، وفى الآخرة حينما يحرمون من النعيم وتتكشف لهم الحقائق ، والله قادر أن يرجع من خرج مجاهداً غانما سالما ، وأن يميت من أقام فى أهله ، ونكص عن القتال

ثم بين سبحانه أن الموت أو القتل فى سبيل الله هو أسمى الغايات وأشرفها وأن ما أعده الله للمجاهدين ولاسيما الشهداء من النعيم الدائم المقيم خير من الدنيا ومافيها فقال : ( ولئن قتلتم فى سبيل الله ، أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ، ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ) فيجازيكم على أعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر

ثم قال سبحانه معزيا للمسلمين ومسليا ، ومبينا أن ما أصابهم فى أحد قد أصابوا مثليه فى بدر،وأن ما أصابهم إنما هو بسبب مخالفتهم (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتهم مثليها قلتم : أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير ) (أنى هذا) ؟ أى من أين حصل لنا هذا ( قل من عند أنفسكم ) أى بسبب مخالفتكم أمر الرسول ورغبتكم فى الغنائم .

ثم ختم الحق سبحانه قصة أحد ببيان منزلة الشهداء عند ربهم فقال سبحانه (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون .

فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين) والخوف: ألم يحصل فى النفس من توقع حصول مكروه فيما يستقبل ، والحزن : ألم يحصل فى النفس من خوف فوات محبوب فيما مضى وأهل الجنة لايخافون فيها شيئا لأنها دار أمن وسلام فلامكروه فيها، ولايحزنون لأنهم سيجدون كل ماعملوه من خير محضرا وأن ما أعده الله لهم من النعيم يفوق أضعافا مضاعفة ما كانوا يحبون ويرجون وصدق الرسول الكريم حيث يروى عن رب العالمين : (أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر بله ما اطلعتم عليه ثم قرأ : (فلاتعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وقد قدمت مايتعلق بحياة الشهداء نسأل الله الكريم أن يرزقنا هذا النعيم المقيم تفضلا وكرما .

## ( آثار غزوة أحـــد )

رجع النبى إلى المدينة وقد دفن بأحد سبعين شهيدا ، وبأصحابه العائدين جراح ؛ فأظهر المنافقون واليهود بالمدينة فرحهم وفارت المدينة بالنفاق والتشفى ولم يقف أمرهم عند حد السرور والانشراح النفسى ؛ بل ظهـرت سخائم نفوسهم فى كلمات على ألسنتهم فقالت اليهود : لوكان نبيا ماظهروا عليه ولاأصيب منه ؛ ولكنه طالب ملك تكون له الدولة وعليه ؛ ونسوا ماحـل بأنبياء بنى إسرائيل من تقتيل وتشريد ، بل نسوا فرار موسى وأتباعه من فرعون وقومه ؛ ولولا أن أنجاهم الله لكانوا من المهلكين . وقال المنافقون لو كنتم أطعتمونا ولم تخرجوا لما أصابكم ما أصابكم .

وتجاوز أثر أحد المدينة إلى من حولها من الأعراب والقبائل الموالية لأهل الشرك ، فكان لا بد من استرجاع هيبة المسلمين ؛ وإيذان الناس جميعا أن المسلمين على الرغم مما نالهم لا يزالون أقوياء ، وقادرين على منازلة الأعداء ، فكان الخروج إلى غزوة حمراء الأسد .

## « غزوة حمراء الأسد »

كانت غزوة أحد فى يوم السبت الخامس عشر من شوال وفى يوم الأحد أذن مؤذن رسول الله فى الناس يطلب قريش وقال : ( لايخرجن معنا إلا من حضر معنا القتال ) فخرج الذين حضروا أحد من المسلمين ، واستأذن جابر بن عبدالله رسول الله فى الخروج ، لان تخلفه عن أحد كان لعذر كما أسلفنا ، فأذن له ، وقال ابن أبى رأس المنافقين : انا راكب معك فأبى عليه الرسول ذلك ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وحمل اللواء على بن أبى طالب، وساروا حتى وصلوا ( حمراء الأسد )(١) يوم الإثنين ؛ ومر برسول الله معبد بن أبى معبد الخزاعى . وهو يومئذ مشرك — وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة(٢) رسول الله — فقال : يامحمد أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك فيهم ، وكان المشركون لما غادروا المدينة. وبلغوا الروحاء قد أخذوا يتلاومون أن لم يستاصلوا المسلمين . فمر معبد بأبى سفيان وأصحابه وقد هموا أن يرجعوا إلى الرسول وأصحابه فقال له : ما وراءك يامعبد ؟ قال : قد خرج محمد فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله . يتحرقون عليكم تحرقا ، واجتمع إليهم من كان تخلف عنهم . ونصحه بعدم العودة . فخاف أبو سفيان إذا ما عادوا أن تكون الكرة عليهم فاسرع إلى مكة . ولكنه لجأ إلى حيلة فقد مر به ركب بنى عبد القيس يقصدون المدينة . فعرض عليهم أن يبلغوا النبى وأصحابه أن قريشاً قد اجمعت السير اليهم ، ووعدهم أن يوقر لهم ابلهم زبيبا إذا وافوا عكاظ فى الموسم . فمر الركب برسول الله وهو بحمراء الأسد. فاخبروه بما قال ابو سفيان . فقال : ( حسبنا الله ونعم الوكيل ) وأقام المسلمون بحمراء الأسد ثلاثة ايام . وفى يوم الأربعاء عادوا إلى المدينة وقد استردوا الكثير من هيبتهم ؛ بعد أن كدت تتزعزع بسبب أحد . وقد ذكر الله هذا الموقف المشرف فى قوله سبحانه ( الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح. للذين

---

(١) موضع على ثمانيه أميال من المدينة (٢) يعنى موضع سره وأهل مودته

أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ) إلى قوله . ( والله ذو فضل عظيم ) (١)

مخزاة لابن أبى )

كان عبدالله بن أبي بن سلول له مقام بقومه كل جمعه لا ينكر لشرفه فى قومه فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة ليخطب الناس قام فقال : ( أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه وعزروه ، واسمعوا له وأطيعوا ) ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ماصنع ، ورجع بالناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه . وقالوا : اجلس أى عدو الله لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت فخرج وهو يقول والله لكأنما قلت بجرا — أمراً عظيما — أن قمت أشدد أمره فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال : مالك ؟ وتلك ! فاخبره فقال له : له أرجع يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى.

## حوادث هذا العـــام

(تزوج عثمان بأم كلثوم ) فى هذه السنة تزوج سيدنا عثمان بن عفان السيدة أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أختها رقية عام بدر وقد عقد عليها فى ربيع الأول ودخل بها فى جمادى الآخرة ، ولما خطبها من النبى قال له : ( لو كان لى يا عثمان عشرة لزوجتك واحدة بعد الأخرى ) ويقال لم يتزوج أحد بابنتى نبى واحدة بعد الأخرى غيره ولهذا كان يقال له : ذو النورين :

---

(١) آل عمران ١٧٢ — ١٧٤ والمراد بالناس أولا . وقد عبد القيس ، والمراد بالثانى ابو سفيان واصحابه « حسبنا » كافينا. الوكيل متولى أمورنا وناصرنا — فانقلبوا بنعمة من الله . عافية وقوة . وفضل أجر عظيم . وقيل هى تجارة أصابوها فربحوا فيها « لم يمسسهم سوء » أذى من أعدائه واتبعوا رضوان الله بطاعتهم لرسول الله على ما بهم من جراح وآلام

تزوج النبي بحفصة : وفيها تزوج النبى صلى الله عليه وسلم بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبل النبى زوجاً لخنيس — مصغراً — ابن حذافة السهمى وكان بدرياً ، توفى بعد بدر ، وقيل بعد أحد والأول هو الصحيح وقد روى البخارى فى صحيحه أن عمر — رضى الله عنه — عرضها على عثمان بعد وفاة زوجته رقية ، فقال : لا حاجة لى فى الزواج . ثم عرضها على أبى بكر فسكت ، ولم يرجع له بقول حتى وجد عمر فى نفسه ثم خطبها النبى فأنكحها إياه، وقد بين له الصديق بعد خطبة النبى لحفصة أنه ما منعه من الجواب إلا أنه كان يعلم أن رسول الله ذكرها وأنه كره أن يفشى سر رسول الله(١) .

وقد وثق النبى بهذا الزواج علاقته بصاحبه ووزيره الثانى عمر، كما وثق من قبل علاقته بصاحبه ووزيره الأول أبى بكر بزواج عائشة ، وأيضا فقد كرم النبى بزواجه منها أباها ، كما كرم بذلك زوجها بعد مماته — وكان من أهل بدر — برعاية أرملته وضمها إليه ، وأزال عنها تأيمها .

مولد الحسن : وفيها ولد للسيدة فاطمة بنت رسول الله ابنها الحسن بن على، وفيها حملت بالحسين رضى الله عنهما ، وكان مولد الحسن فى رمضان عند الأكثر ، وقيل بعد ذلك.

## السنة الرابعة للهجرة

عاد النبى ﷺ من غزوة حمراء الأسد . وقد استرد بعض هيبة المسلمين فى المدينة وما حولها ، إلا أن بعض القبائل الضاربة حولها سولت لها أنفسها النيل من المسلمين لما أصابهم فى أحد . ولتحريض قريش إياهم على محاربتهم ، وكان للرسول عيون وجواسيس يأتون إليه بأخبار تلك الحركات العدائيه قبل وقوعها، فيسارع إلى وأدها فى مهدها قبل استفحالها فمن ذلك :

---

(١) صحيح البخارى — كتاب النكاح — باب عرض الرجل ابنته أو أخته على أهل الخير .

« سرية أبي سلمة بن عبد الأسد » ففي المحرم من هذه السنة بلغه عليه الصلاة والسلام أن طليحة وسلمة ابنى خويلد الأسديين قد جمعا الجموع لحرب النبي ، فأرسل أبا سلمة على رأس سرية تعدادها خمسون ومائة فساروا حتى وصلوا إلى أرضهم فلما سمعوا بهم هربوا وتفرقوا ، وتركوا نعما كثيرة لهم من الإبل والغنم فأخذوها غنيمة ، فخمست فأبقوا الخمس للنبي يصرفه كما أراه الله ، وقسموا بينهم الباقى ، وعادوا إلى المدينة ظافرين غانمين ، وقد أعادوا إلى النفوس من هيبة المسلمين شيئا مما ضيعت أحد . ثم لم يلبث السيد الجليل أبو سلمة أن توفى . فقد كان أصيب فى أحد بجرح ثم التأم . فلما خرج فى هذه السرية نغر[1] عليه الجرح ومات بسبب ذلك .

« سرية عبد الله بن أنيس » وفى نفس الشهر بلغه عليه الصلاة والسلام أن سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى المقيم بعرنة[2] يجمع الجموع لحربه . فأرسل عبد الله بن أنيس لقتله . فاستأذن عبدالله رسول الله أن يتقول حتى يتمكن منه ، فأذن له فخرج فلما وصل إلى ديار القوم قال له سفيان ممن الرجل ؟ قال من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد ، فجئت لأكون معك . قال : أجل إنى لفى الجمع له ، فمشى عبدالله معه وصار يحدثه ، وسفيان يستحلى حديثه حتى إذا أمكنته الفرصة منه قتله ، ثم عاد إلى المدينة وقد كفى الله المؤمنين القتال ، وهدأت بنو لحيان من هذيل بعد موت زعيمهم لتجد فرصة فتثأر فيها من المسلمين .

## سرية الرجيع[3]

فى صفر من هذه السنة قدم على رسول الله ﷺ رهط من عضل والقارة[4] فقالوا يارسول الله إن فينا إسلاما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى

---

(١) سال منه الدم

(٢) عرنة : بنيم العين وفتح الراء والنون : موضع قريب من عرفات كما فى القاموس =

الدين ويقرئونا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام فبعث رسول الله معهم نفراً ستة فى رواية ابن اسحاق ـ وقيل عشره ـ فى رواية البخارى ـ وهو الأصح ليؤدوا هذه المهمة السامية ، وليكونوا عيونا على قريش والمشركين وأمر عليهم عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح[1] ، فساروا حتى كانوا بالرجيع غدروا بهم ، واستصرخوا عليهم بنى لحيان من هذيل ـ هم قوم سفيان بن خالد الهذلى الذى قتله عبد بن أنيس ـ فنفروا إليهم فى مائتى رجل ، فلم يرع المسلمين وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم ، فلجأ رجال السرية إلى ربوة عالية ، واستعصموا بها ، وأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم ، فلجأ المشركون إلى الحديعة وقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم ، وأما عاصم وآخرون فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقدا أبدا ، وأبو التسليم ، وقاتلوا حتى استشهدوا ، واغتر بعهدهم خبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة ، وعبدالله بن طارق فنزلوا إليهم فلما استمسكوا بهم حلوا اوتار قسيهم فربطوهم بها ، فقال عبدالله : هذا أول الغدر حتى إذا كانوا بالظهران فى طريقهم إلى مكة انتزع عبدالله يده منهم ثم استأخر عنهم وأخذ بسيفه ليقاتلهم ، فرجموه بالحجارة حتى مات شهيداً ، وأما خبيب[2] وزيدا فباعوهما لأناس من أهل مكة باسيرين من هذيل ، فاشترى خبيبا بنوا الحارث بن عامر ليقتلوه بابيهم الذى قتله يوم بدر ، واشترى زيدا صفوان ابن أميه ليقتله بابيه فحبسوهما حتى انتهت الأشهر الحرام فاخرجوهما إلى التنعيم فقتلوهما .

---

(٣) الرجيع اسم موضع من بلاد هذيل بين مكة وعسفان على ثمانية أميال من عسفان

(٤) عضل بفتح المهملة والعجمة بطن من بنى اللهون — بفتح الهاء وقيل بضمين خزيمة ابن مدركة بن إلياس والقارة بالقاف وتخفيف الراء بطن من بنى اللهون أيضا

(١) وفى روايه ابن اسحاق أن أميرهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى

(٢) بضم الخاء وفتح الباء وسكون الياء مصغرا

وكان من أمر خبيب أنه وهو محبوس فى دار لبنى الحارث قد استعار من جارية لهم «موسى»(١) ليستحد بها لما دنا قتله . فاعارته إياه . وغفلت عن غلام لها درج حتى أتى خبيبا فوضعه على فخذه ، فلما رأت هذا المنظر فزعت فزعة شديدة وقالت فى نفسها : أصاب ـ والله ـ الرجل ثأره بقتل هذا الغلام فادرك زيد ما حدثت به نفسها فقال لها. أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله !! وكانت الجارية تحدث بعد أن اسلمت فتقول : ما رأيت أسير قط خيراً من خبيب. ولقد رأيته يأكل من قطف من عنب وما بمكة يومئذ ثمرة وإنه لموثق فى الحديد ـ وما كان إلا رزقا رزقه الله ! !

ولما خرجوا به إلى الحل ليقتلوه قال : دعونى أصل ركعتين . فكان أول من سن الركعتين عند القتل ، ثم انصرف إليهم وقال : لولا أن تروا أن ما بى(٢) جزع من الموت لزدت ، ولما رفعوه على الخشبة ، واوثقوه ليقتلوا صبرا قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك . فبلغه الغداة ما يفعل بنا ، اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ـ متفرقين ـ ولا تبق منهم أحداً .

ثم أنشد يقول :

ولست أبالى حين اقتل مسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على اوصال شلو ممزع (٣)

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله : ومات ـ رضى الله عنه ـ شهيد إيمانه وإخلاصه .

وأما زيد بن الدثنة(٤) فلما جاءوا به ليقتلوه ، وعاين الموت قال له أبو سفيان ابن حرب : انشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وانا جالس فى أهلى ! ! فقال أبو سفيان : ما رأيت أحد من

---

(١) هو الآلة الحادة المعروفة استعارها ليحلق بها شعر عانته (٢) ما . موصولة
(٣) الشلو : العضو ممزع . ممزق
(٤) الدثنة بفتح الدال وكسر الثاء ، وفتح النون المشددة

الناس يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمداً ! ! ثم قام إليه نسطاس ـ عبد لصفوان ـ فقتله رضى الله عنه .

ولما قتل عاصم بن ثابت أمير السرية أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد . وكان قتل ابنيها يوم أحد فنذرت لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحفة الخمر[١] . ولكن الله ـ عز شأنه ـ منعه . فبعث على جسده مثل الظلة من الدبر[٢] : وكذلك أرادت قريش أن تنال من جسده فلم يستطيعوا ، فقالوا : دعوه حتى يمسى فيذهب عنه الدبر فنأخذه ، فغيبه الله فى الوادى فما عرفوا له أثرا .

وكان عاصم ـ رضى الله عنه ـ قد أعطى الله عهدا أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا ابدا تنجسا ، فكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول حين بلغه أن الدبر منعته : يحفظ الله العبد المؤمن ، كان عاصم نذرا ان لا يمسه مشرك ، ولا يمس مشركا أبدا فى حياته ، فمنعه الله بعد وفاته ، كما امتنع منه فى حياته[٣] .

## (أصحاب بئر معونة)(٤) أو (سرية القراء)

وفى شهر صفر أيضاً وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو من رءوس بنى عامر فدعاه رسول الله إلى الاسلام ، فلم يسلم ، ولم يبعد ، وقال يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أخشى عليهم أهل نجد ، فقال أبو براء : أنا لهم جار فبعث رسول الله المنذر بن عمرو فى سبعين رجلا من خيار المسلمين ، وكانوا يعرفون

---

(١) القحف بكسر القاف أعلى الدماغ .

(٢) الزنابير او ذكور النحل (٣) البداية والنهاية جزء ٤ ص ٦٤

(٤) اسم موضع من بلاد هذيل بين مكة وعسفان .

بالقراء[١] ، وقيل فى أربعين رجلا والصحيح الأول منهم : الحارث بن الصمة ، وحرام بن ملحان ـ خال أنس بن مالك ـ وعامر بن فهيرة مولى الصديق فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل فلما أتاه لم ينظر فى الكتاب ، وأومأ إلى رجل فأنفذه بالرمح من خلفه فقال حرام : فزت ورب الكعبه ! ! ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا وقالوا : لن نخفر[٢] أبا براء وقد عقد لهم عقدا وجوارا فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم ـ رعلا وذكوان ، وعصية[٣] ـ فأجابوه فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فقال لهم المسلمون : والله ما إياكم أردنا وإنما نحن مجتازون فى حاجة للنبى صلى الله عليه وسلم ، فأبوا عليهم ، فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد فانهم تركوه وبه رمق . فأرث[٤] بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدا ، وإلا عمرو بن أمية الضمرى ، والمنذر بن محمد بن عقبة فقد كانا فى سرح القوم[٥] فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم حول العسكر . فقالا : والله إن لهذا الطير لشأنا . فأقبلا لينظرا فاذا القوم فى دمائهم ، وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة فقال المنذر لعمرو : ماترى ؟ فقال : أرى أن نلحق برسول الله فنخبره الخبر . فقال المنذر بن محمد : لكنى لا أرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو . وما كنت لأخبر عنه الرجال ! ! وقاتل القوم حتى قتل ـ رضى الله عنه ـ شهيد البطولة والوفاء ، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن جز نا صيته ، وأعتقه

---

(١) هم جماعة من حفظة القرآن كانوا يحتطبون بالنهار ، ويتدارسون القرآن ويصلون بالليل ويطعمون أهل الصفة ، وإذا دعوا إلى الجهاد لبوا سراعا .

(٢) تخفر بضم أوله : تنقض عهده وأما خفر الثلاثى فبمعنى وفى بالعهد

(٣) رعل بكسر الراء وسكون العين وذكوان بفتح الذال وعصية بضم العين وفتح الصاد وتشديد الياء أحياء من بنى سليم

(٤) أى رفع من بين القتلى وبه بقية حياة (٥) حيث ترعى إبلهم ودوابهم

عن رقبة كانت عن أمة فيما زعم ، فخرج عمرو قاصداً المدينة ، فلقى رجلين من بنى عامر ، وكان معهما عهد من الرسول وهو لا يعلم فأمهلهما حتى ناما فقتلهما ، وهو يرى أنه أصاب بهذا ثارا من بنى عامر ، فلما قدم عمرو وأخبر الرسول بقصتها قال .

« لقد قتلت قتيلتين لأدينهما » ثم قال : « هذا عمل أبى براء ، قد كنت لهذا كارها متخوفا » فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه إخفار ابن أخيه عامر إياه ، فذهب ابنه ربيعة إلى عامر بن الطفيل فطعنه بالرمح إنتقاما منه على فعلته النكراء ، فجرح ولكنه لم يمت ، ثم وفد على النبى بعد قاصداً الغدر به فمنعه الله منه ، وقد دعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم اكفنى عامرا » فأصابه الله بغدة[1] فى بيت امرأة من بنى سلول فكان يقول : غدة كغدة البعير فى بيت امرأة سلولية ، ثم ركب فرسه ، فمات على ظهره بالعراء ، تطعم منه والطيور والسباع .

وكان وصول خبر سرية الرجيع وبئر معونة فى يوم واحد فحزن النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون حزنا شديدا عليهم لم يخفف منه إلا أنهم شهداء عند ربهم يرزقون ، ولقد بلغ حزن النبى عليه الصلاة والسلام أنه مكث شهرا يدعو فى صلاة الصبح على رعل وذكوان وعصية الذين غدروا بالقراء . وروى البخارى أن النبى لما نعى القراء قال : « إن أصحابكم قد أصيبوا وأنهم قد سألوا ربهم فقالوا : ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ، ورضيت عنا ، فأخبرهم عنهم فأنزل الله فيهم قرآنا كان يتلى « بلغوا عنك قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » ثم نسخ بعد[2] .

وقفة عند سرية الرجيع وبئر معونة :

وإن لنا لوقفة ترينا كيف يستهين الإيمان بالكثرة حينما قاتل بضعة نفر غرباء عن ديارهم مائتى رجل فى عقر دارهم ، وكيف يسمو الإيمان عن الضعف والاستخذاء

---

(١) نوع من الطاعون يصيب الابل

(٢) صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب سرية الرجيع وبئر معونة

والترخص ويأبى إلا العزيمة . فقد كان يمكن لزيد وخبيب أن يظهرا كلمة الكفر، او أن ينالا من النبى : وقلبهما مطمئن بالإيمان . ليكون سببا فى نجاتهما من القتل والصلب ، ولكن أولى العزائم الثابته . والعقائد الصادقة يأبون إلا أن يموتوا أبطالا ، كما عاشوا أبطالا .

ولو أن خبيبا المأسور ليقتل بعد أن غرروا به قتل الغلام ، ثأرا من أهله لما كان أمرا مستنكراً ، فهو مظلوم انتصر لنفسه ، ولكنه الخلق الإسلامى الأصيل ، والقلب المؤمن ، والضمير الحى ترفع بصاحبها عن الغدر والغيلة حتى ولو كان على سبيل المجازاة ، وأن يؤخذ الغلام بجريرة أهله ، وإن هذه المعانى الشريفة لتستشفها فى قولة خبيب للجارية : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك ! !

وكنا نحب من المستشرقين الذين أسرفوا فى القول من أجل أسيرى بدر اللذين قتلا أن نسمع لهم كلمة فى قتل الأسيرين المؤمنين على فرق ما بين الموقفين ، وفى قتل من قتل غدرا وغيلة فى سريتى الرجيع وبئر معونة ، ولكن الأمر كما قيل .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

وقد يقول قائل : كيف يوافق النبى صلى الله عليه وسلم على إيفادهاتين السريتين مع أناس ليسوا بمسلمين ، وفى جوار رجل لم يدخل الإسلام مع احتمال أن يكون هذا استدراجا للمسلمين ومكيدة للايقاع بهم ، وقد كان النبى من من رجاحة العقل ، وبعد النظر ، والمواهب السياسية بالمنزلة التى لا تدفع والجواب عند ذلك نقول :

(١) إن حفظ الجوار كان من خيرة فضائل العرب والخلق المتأصل فيهم فاحتمال الغدر بهم مستبعد . ولاسيما أن القراء كانوا فى جوار رجل له منزلته فى بنى عامر ، وهو أبو براء . ولذلك لم يقبل بنو عامر يخفروه فى جواره فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل من بنى سليم .

(٢) أن إيفاد هاتين السريتين لم يكن إلا حلقة من حلقات الجهاد فى سبيل

الله ، والدعوة إلى هذا الدين ، والسهر على نشره بشتى الوسائل ، أليس غاية ما يحتمل أن يموتوا شهداء ؟ وهذا ما كان يرجوه كل مسلم آنئذ ! وصدق الله « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » إما النصر والغنيمة ، او الموت والشهادة .

## ( غزوة بدر الآخرة )

فى شعبان من نفس العام خرج الرسول وأصحابه إلى بدر لميعاد أبى سفيان واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبى . وسار فى ألف وخمسمائة من أصحابه . وكانت بدر محل سوق تعقد كل عام للتجارة فى شعبان يقيم فيها التجار ثمانية أيام يتبادلون فيها التجارة ، فلما وصلوا إليها أقاموا بها ثمانياً فى انتظار أبى سفيان .

وخرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى بلغ عسفان ،وقيل مجنة ، ثم ألقى الرعب فى قلبه فبدا له أن يرجع فقال : يامعشر قريش إن هذا العام عام جدب ، ولا يصلحكم إلا عام خصب . ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإنى راجع فارجعوا ، فرجعوا فسماهم أهل مكة جيش السويق[1] يريدون أنهم خرجوا لشرب السويق لا للحرب ، وكان أبو سفيان قد لجأ إلى حيلة يقصد بها إرهاب المسلمين حتى لايخرجون إلى بدر ، فيكون خلف الوعد من جانب المسلمين لامن جانبه ، فاتفق مع نعيم بن مسعود الأشجعى وجعل له جعلا على أن يذهب إلى المدينة فيرجف فيها بعظم جيش أبى سفيان وعدته ، فذهب نعيم وقال : للنبى وأصحابه ، إن قريشاً قد جمعت لكم الجموع ولكنهم لم يلتفتوا إلى مقالته ، وخرجوا وهم يقولون : « حسبنا الله ونعم الوكيل » وفى أثناء مقام المسلمين ببدر اشتغلوا بالتجارة فعادت عليهم بربح عظيم ، وقد ذكر الله هذا فى قوله « الذين قال لهم الناس » إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ،

---

(١) السويق . شراب يصنع من القمح أو الشعير .

وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم »[1] .

والمتتبع لمجريات الحوادث فى هـــذه الغزوة يرى أن المشركين قد باتوا يخشون المسلمين ، ولا يجرءون على لقياهم ، وكأنما كان نصرهم فى أحد فلتة لايطمعون فى مثلها ، فمن ثم لجأوا إلى الحيلة يدرءون بها عن أنفسهم عار خلف الوعد باللقاء ، ولكنهم لم يفلحوا ،وخيب المسلمين ظنونهم،وقد شعر المشركون بأثر تخلفهم فى إذهاب هيبتهم المزعومة فى النفوس ، ولذلك قال صفوان بن أمية لأبى سفيان : قد — والله — نهيتك أن تعد القوم ، قد اجترءوا علينا رأوا أنا أخلفناهم .

## حوادث فى هذا العام

«وفاة أبى سلمة» فى هذه السنة توفى أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشى المخزومى ، وأمه برة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وكان أخا رسول الله من الرضـاع ارتضعا من ثويبة مولاة أبى لهب ، وكان من السابقين الأولين ، هاجر إلى الحبشة هو وزوجته أم سلمة ، وقد ولد لهما بها أولاد ، ثم عادا إلى مكة ، وكان أول من هاجر إلى مكة ومعه زوجته فمنعها أهلها ثم لحقت به بعد عام ، وشهد بدراً وأحداً فأصيب فيها بجرح فمكث شهراً يداويه حتى برأ ، ثم بعثه رسول الله فى سرية فى أول هذا العام،فلما عاد انتقض جرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى فرضى الله عنه وأرضاه .

« وفاة عبد الله بن عثمان » وفى جمادى الأولى من هذه السنة مات عبد الله

---

(١) جمهور المفسرين على أن قوله تعالى «الذين استجابوا لله والرسول » إلى « والله ذو فضل عظيم » فى غزوة حمراء الأسد ، وقد عرضت لذلك آنفا ومنهم من يرى أنها نزلت فى غزوة بدر الاخرة ، وذكر الواقدى فى المغازى أن الاية الأولى فى غزوة حمراء الأســد، وهاتان الايتان فى غزوة بدر الاخرة.

بن عثمان رضى الله عنه وهو من السيدة رقية بنت الرسول، وكان ابن ست سنين، فصلى عليه رسول الله ﷺ ونزل والده عثمان رضى الله عنه فى حفرته .

«مولد الحسين» وفى ليال خلون من شعبان من هذا العام ولد الحسين بن على من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهو سيد شباب أهل الجنة، وقد قال فيه الرسول وفى أخيه الحسن : « هما ريحانتاى من الدليا » وقد رؤى أن رسول الله كان يشمهما ويقبلهما » .

## تزوج رسول الله بزينب بنت خزيمة

وفى شهر رمضان من هذه السنة تزوج رسول ﷺ زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله ينتهى نسبها إلى هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية ، وهى التى يقال لها أم المساكين ؛ لكثرة صدقاتها عليهم ، وبرها إياهم واحسانها إليهم ، وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث بن المطلب ، ثم خلف عليها أخوه عبيدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف أحد شهداء بدر ، وقيل كانت تحت عبد الله ابن جحش فقتل عنها يوم أحد ، وهذا يرجح أن زواج النبى بها فى السنة الرابعة لا فى السنة الثالثة كما زعم بعض كتاب السيرة[1] إذ أن عدتها على الرأى الأخير لا تنتهى إلا فى آخر صفر من السنة الرابعة قال ابن عبد البر : ولا خلاف إنها ماتت فى حياة النبى ﷺ وقيل لم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة ثم توفيت رضى الله عنها ، وقد أصدقها رسول الله أربعمائة درهم .

وقد ظهر مما ذكرنا الحكمة فى زواج رسول الله بها وأن ذلك كان تكريما للتضحية والاستشهاد فى شخص زوجها الذى مات عنها سواء أكان ذلك عبد الله ابن جحش أو عبيدة بن الحارث فكلاهما ممن أسلم وهاجر وسبق إلى الشهادة هذا إلى ما كانت تمتاز به من حب المساكين ، والبر بهم ، فما أجدرها أن تكون فى كفالة النبى وأن يحظى بزواجه منها بهذا الشرف الرفيع فى الدنيا والآخرة ، ولم نر أحداً ذكر أنها كانت ذات جمال ، أو شباب ، بل الظاهر أنها كانت مسنة

---

(١) هو الشيخ الخضرى — رحمه الله — نور اليقين ص١٤٣ .

وكغيرها من النساء فى الجمال مما يؤكد أن النبى ﷺ تزوجها لما ذكرنا من المعانى الشريفة ، وهذا يرد أى تقول على النبى فى هذا الزواج .

## تزوج النبى بأم سلمة

وفى شوال من هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ بالسيدة أم سلمة واسمها هند بنت أبى أمية المغيرة المخزومية القرشية وكانت قبل النبى عند الصحابى الجليل ابن عمها وأبى أولادها أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى[1] الذى توفى فى جمادى الأول من نفس العام وقد أنجبت منه سلمة ، وعمر وزينب ورقية فلما انقضت عدتها وحلت خطبها النبى ﷺ فى شوال من هذا العام فأرسل إليها عمر بن الخطاب فاعتذرت بأنها امرأة غيرى وأنها ذات عيال فلم يجد رسول الله بدا من أن يذهب إليها بنفسه، روى الإمام أحمد فى مسنده عنها قالت : « أتانى أبو سلمة يوما من عند رسول الله ﷺ فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولا سررت به قال : « لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول اللهم آجرنى فى مصيبتى ، وأخلف لى خيرا منها إلا آجره الله وأخلف له خيراً منها » قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفى أبو سلمة استرجعت ، وقلت اللهم آجرنى فى مصيبتى ، وأخلف لى خيرا منها ، ثم رجعت إلى نفسى فقلت من أين لى خير من أبى سلمة ؟ ! فلما انقضت عدتى استأذن على رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهابا لى فغسلت يدى من القرظ وأذنت له فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها ، فخطبنى إلى نفسه فلما فرغ من مقالته قلت يا رسول الله ما بى أن لا تكون بك الرغبة ، ولكنى امرأة بى غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى منى

---

(١) أبو سلمة هو عبد الله عبده الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وهى هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فهما يلتقيان فى الجد الثانى واسم أبيها حذيفة وقيل سهيل . وكان يسمى « بزاد الراكب » لجوده كان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه ومعه زاد بل يكفى رفقاءه من زاد معهما بلغوا .

شيئا يعذبنى الله به ، وأنا امرأة قد دخلت فى السن ، وأنا ذات عيال ، فقال : أما ما ذكرت من الغيرة فسيذهبها الله عنك — يعنى بسبب دعائه لها كما فى رواية أخرى — وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك ! ! وأما ما ذكرت من العيال فأنما عيالك عيالى ، فقالت : قد سلمت لرسول الله ، فقالت أم سلمة : فقد أبدلنى الله بأبى سلمة خيراً منه رسول الله ﷺ وقد زوجها إياه ابنها سلمة وأصدقها رسول فراشاً حشوه ليف ، وقدحا ، وصحفه ، ومجشة — أى رحى — وقد تربى أولادها الصغار فى بيت النبى مما جعلهم لا يشعرون بمرارة اليتم وذل الحاجة .

« الحكمة فى زواجها » ومن ثم نرى أن زواج رسول الله بها لم يكن إلا جبراً لخاطرها وكسرها ، وحفظا لها ولأولادها من الضيعة ، وقد سمعت آنفا أنها ما كانت تعدل بأبى سلمة أحداً ، ولولا أن رسول الله تقدم إليها لما رضيت بالزواج من أى رجل أيا كان فى قومها ، لأنها لا ترى خيراً من أبى سلمة إلا رسول الله الذى لم يكن يخطر لها على بال أثناء مقالتها ، وايضا فقد كان هذا الزواج وفاء بحق زوج من خيار المسلمين ، وخاطر بنفسه فى سبيل الله ، وبهذا الزواج ضرب رسول الله أروع الأمثال فى باب المواساة بالنفس والمال ، ووضع الأساس الصالح لأولى الأمر فى رعاية حقوق المواطن المؤمن الصالح ، والجندى الباسل المضحى بنفسه فى سبيل الله ورسوله ، فهذه الاعتبارات السامية هى التى حدت برسول الله أن يتزوج بها ، لا كما يزعم بعض المتخرصين من أن ذلك كان لجمالها ، وهى بشهادتها كانت مسنة ومهما قيل فى بقاء مسحة من جمال الشباب عليها فهناك — ولا ريب — من الشابات الأبكار الشريفات من يفقنها فى هذا ، وللشباب ما له من سحر وفتنة ، وإنكار ذلك مكابرة ، ولا أدرى كيف يرغب رجل شهوانى — كما زعموا — فى امرأة مسنة مترهلة ، وذات شغل شاغل بعيالها ؟ ألا كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

وقد كانت عاقلة عالمة راوية روت عن رسول الله بالذات ، وبالواسطة وعن غيره من الصحابة ، وعنها روى الكثيرون ، وقد ساهمت فى نشر العلم

والحكمة عن رسول الله ، وبسبب سؤالها للنبي نزلت بعض آيات القرآن وتشريعاته ، وهى آخر أمهات المؤمنين وفاة كما قال الحافظان الذهبي وابن حجر ، وكان وفاتها سنة اثنتين وستين بعد مقتل الحسين إبان حكم يزيد بن معاوية ، وقيل غير ذلك وبموتها انطفأ آخر مصباح من مصابيح أمهات المؤمنين طالما شع النور والهدى والعلم فرضى الله عنها وأرضاها .

« تعلم زيد بن ثابت كتابة اليهود ولغتهم » وفى هى السنة تعلم زيد بن ثابت كتابة اليهود ، ففى صحيح البخارى تعليقا عن خارجة بن زيد « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتعلم كتاب يهود ليقرأه على النبى صلى الله عليه وسلم إذا كتبوا إليه فتعلمه فى خمسة عشر يوما »[1] وفى مسند الإمام أحمد أن رسول الله لما قدم المدينة ذهب بزيد إلى رسول الله وقالوا : يارسول الله هذا غلام من بنى النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة فأعجب ذلك رسول الله وقال « يازيد تعلم لى كتاب يهود فإنى والله ما آمن يهود على كتاب » قال زيد : فتعلمت له كتابهم ، مامرت خمس عشرة ليلة حتى حذقته ، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه ، وأجيب عنه إذا كتب » وهذا ذكاء مفرط ، وقوة حافظة ، ومن لوازم تعلم الكتابة تعلم اللسان ، وقد ثبت أنه كان يعرف السريانية والعبرانية[2] وقد كان — رضى الله عنه — ممن حفظ القرآن كله على عهد رسول الله ، ومن أشهر كتاب الوحى بين يديه ، وهو الذى تولى كتابة القرآن وحده فى الصحف فى عهد الصديق ، وكان أحد الكاتبين المصاحف فى عهد عثمان رضى الله عنها ، وأمر رسول الله زيدا بتعلم لغه اليهود وكتابتهم يدل على أن الإسلام يحبب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم ، ويتعرف على علومهم ومعارفهم ولاسيما إذا دعت لذلك ضرورة

---

(١) صحيح البخارى — كتاب الأحكام باب ترجمة الحكام أى الترجمة لهم

(٢) البداية والنهاية جـ٥ ص ٣٤٦ ، فتح البارى جـ١٣ ص ١٥٨ ، ١٠٩

# السنة الخامسة

غزوة دومة الجندل »[١] فى ربيع الأول من سنة خمس بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بدومة الجندل جمعا كبيراً من الناس وأنهم يظلمون من مر بهم ويريدون أن يدنوا من المدينة ، فندب أصحابه إلى الخروج ، فخرجوا فى ألف واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ، وكانوا يسيرون الليل ، ويكمنون النهار ، ومعهم هاد خربت يقال له «مذكور» فلما دنوا من دومة الجندل ، هجموا على الماشية والرعاء ، فأصابوا من أصابوا ، وهرب من هرب ، فلما علم أهل دومة الجندل ، رعبوا وتفرقوا ، فنزل رسول الله بساحتهم فلم يجد أحداً ، فأقام بها أياما ، وبث السرايا والعيون فأصاب محمد بن سلمة رجلا منهم ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن أصحابه ، فقال: هربوا أمس ، فعرض عليه الاسلام فاسلم ورجع رسول الله إلى المدينة بعد أن غاب عنها شهراً ،[٢] وقد امتازت هذه الغزوة بأمرين .

(١) أنها أول غزوة بعيدة عن المدينة من جهة الشام إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد عن خمس ليال ، وقد كانت بمثابة إعلان عن دعوة الاسلام بين سكان البوادى الشمالية وأطراف الشام الجنوبية ، وأحسوا بقوة الاسلام وسطوته ، كما كانت إرهابا لقيصر وجنده .

(٢) أن سير الجيش الاسلامى هذه المسافات الطويلة قد كان فيه تدريب له على السير إلى الجهات النائية ، وفى أرض لم يعهدوها من قبل ، ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الاسلامية للفتوحات العظيمة فى بلاد آسيا وأفريقيا فيما بعد .

مصالحة عيينة بن حصن : وصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عائد

---

(١) بضم الدال وفتح واحدة على الحدود بين الحجاز والشام.

(٢) البداية والنهاية ٤ ص ٩٢

عيينة بن حصن الغزارى وهو الذى كان يسميه عليه الصلاة والسلام

« الأحمق المطاع » لأنه كان يتبعه ألف قناة لايسأله أصحابها : فيم غضب ؟ وقد أقطعه الرسول أرضا يرعى فيها دوابه على بعد ست وثلاثين ميلا من المدينة؛ لأن أرضه كانت قد أجدبت .

## (غزوة بنى المصطلق) (١) أو «المريسيع» (٢)

وفى شعبان من سنة خمس بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بنى المصطلق الذين ساعدوا قريشا على حرب المسلمين فى أحد بقيادة رئيسهم رئيسهم الحارث ابن أبى ضرار يجمعون الجموع لحربه ، فخرج إليهم فى سبعمائة من أصحابه بعد أن استخلف على المدينة أبا ذر الغفار وقيل غيره ، وأعطى راية المهاجرين إلى أبى بكر الصديق ، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة ، وساروا حتى دهموهم وهم عند ماء لهم يسمى « المريسيع » وهم غارون (٣) ، وأنعامهم تسقى على الماء، فأمر عمر بن الخطاب فنادى فيهم : أن قولوا أن لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ، فأبوا ، فترامو ا بالنبل ، ثم أمر رسول الله المسلمين فحملوا حملة رجل واحد ، فقتل منهم عشرة ، وأسر سائرهم ، ولم يقتل من المسلمين إلا هشام بن صبابة ، ، قتله أحد الانصار خطا ظنا أنه من الأعداء ، وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة ، ألفى بعير ، وخمسة آلاف شاه هـذا عدا السبايا من النساء

---

(١) المصطلق : بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء وكسر اللام لقب لحزيمة بن كعب ، وهم بطن من خزاعة . والمريسيع : بضم الميم وفتح الراء وسكون الياء وكسر السين ماء بنى خزاعة .

(٢) قد اختلف فى زمن هذه الغزوة ، فذهب ابن اسحق أنها فى شعبان سنة ست ووافقه الطبرى وقال موسى بن عقبة : إنها فى شعبان سنة خمس ، ووافقه الحاكم ، والبيهقى ، وأبو معشر وهو الراجح الذى تشهد له الأحاديث الصحيحة .

(٣) غافلون .

والاسارى من الرجال، وكان شعار المسلمين يوم المريسيع ( يامنصور: أمت أمت).

تصرف نبوى حكيم ) وكان بنو المصطلق من أعز العرب داراً وأشرفهم نسباً ، وأسر نسائهم على هذه الحال مما يترك فى نفوسهم ، ونفوس حلفائهم جراحا لا تندمل ، وحزازات لا تنسى ، والعربى يهون عليه المال مهما غلا ، ولكن لا يهون عليه أن ينال فى عرضه ، أو تخدش كرامته وشرفه ، لذلك لم يرتح قلب النبى الكبير لما تم من سبى واسترقاق ، وفكر ثم فكر ، حتى تفتق العقل الكبير عن هذا التصرف الحكيم ، فقد كانت من السبايا يومئذ جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق ، وقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس ، أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسها ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت يارسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس أو لابن عم له فكاتبته[1] على نفسى فجئت أستعينك على كتابتى، فوجد الرسول الفرصة سانحة لتخليص بنى المصطلق مما وقعوا فيه ، فقال لها: ( فهل لك فى خير من ذلك قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أقضى عنك كتابك وأتزوجك قالت : نعم ، وخروج الخبر إلى الناس ، وفشا بينهم أن رسول الله قد تزوج جويرية بنت الحارث ، وكان المسلمون عند حسن ظنه ، وبعد نظره فقالوا أصهار رسول الله يسترقون ؟ !! فاطلقوا كل من بايديهم قالت عائشة ـ راوية القصة ـ فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة من أهل بيت من بنى المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .

وبفضل هذا التصرف النبوى الحكيم أسلم بنو المصطلق عن طواعية جميعاً ، وصاروا أعوانا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم .

---

(١) أى على أن يعتقها نظير مال، وروى أن النبى لم يجعلها فى سهم أحد تكرمة لها حتى قدم أبوها بعد فى فدائها بإبل، فلما بلغ العقيق غيب بعيرين من الفداء صنابها ، فلما قدم على الرسول قال له : اين البعيران اللذان غيبتهما فى شعب كذا ؟ فلم يملك الرجل نفسه أن شهد شهادة الحق وقال: والله ما أطلع على ذلك إلا الله ، وأسلم معه ابنان له وناس من قومه ، وأرسل فى طلب البعيرين فدفع الابل ، وسلمت إليه ابنته فأسلمت فخطبها رسول الله من أبيها فزوجه إياها ، وأيا كان الأمر فقد من الصحابة على من بايديهم من قومها لمصاهرة رسول الله فيهم .

« سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٩٥ »

# ( حدثان عظيمان )

وفى هذه الغزوة نجمت حادثتان عظيمتان : إحداهما كادت تحدث فتنة بين المسلمين لولا أن النبى تدارك ذلك بموهبته السياسية الفائقة ، والثانية حادثة الإفك التى حسم الكلام بشأنها وحى السماء ، ونزل بسببها تشريع عام خالد.

« الحدث الأول » بينما المسلمون على الماء يستقون ، وكان مع عمر غلام أجير له من بنى غفار يسمى جهجاه بن مسعود الغفارى يقود له فرسه فتزاحم جهجاه ، وسنان بن وبر الجهنى حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء وتضاربا فصرخ الجهنى : يا معشر الأنصار ، وصاح الغفارى : يا معشر المهاجرين فاجتمع الفريقان ، وكادوا يقتتلون ، فذهب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ دعوها فانها منتنة ، وأزال ما بينهما من شحناء ونيم الفتنة ، ولكن عبدالله بن أبى رأس النفاق أراد أن يوقظها ، ويذكى لهبها فقال ـ وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم ـ : أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول : « سمن كلبك يأكلك » أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على الحاضرين من قومه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتوهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، فسمع ذلك زيد بن أرقم فسعى إلى رسول الله فأخبره ، وعنده عمر بن الخطاب سيف الحق ، فاستأذن رسول الله فى قتله ، أو أن يأمر به من يقتله ، فقال ذو الخلق العظيم ، والسياسى الحكيم : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، ولكن آذن بالرحيل » ! !

« إعتذار ابن أبى » ولما بلغ ابن أبى أن زيداً أخبر الرسول بما سمع منه ذهب إلى رسول الله ، وحلف بالله ماقلت ماقال لك ، ولا تكلمت به فقال بعض الحاضرين من الأنصار من أصحابه لرسول الله : عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ماقال الرجل ترضية للرسول ، ودفعا عن ابن أبى

سير النبى بالجيش ليشغلهم عن الفتنة

وارتحل النبى بالمسلمين فى وقت لم يكن يرتحل فيه ، فلقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ، وقال : يارسول الله لقد رحت فى ساعة ما كنت تروح فى مثلها ؟ فقال له : او ما بلغك ماقال صاحبكم ؟ قال : أى صاحب يارسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبى ، قال : وما قال ؟ قال : زعم انه إن رجع الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ! فقال أسيد فأنت يارسول الله تخرجه منها إن شئت هو — والله — الذليل وأنت العزيز ثم قال يارسول الله ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك ، وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فانه ليرى أنك قد استلبته ملكا ! وسار رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم الثانى حتى آذنتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا ان وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما

وبهذا التصرف البالغ الغاية فى السياسة الرشيدة قضى على الفتنة قضاء مبرما . ولم يدع مجالا للحديث فيما قال ابن أبى .

« نزول سورة المنافقين » وفى هذه الحادثة أنزل الله سورة بتمامها وهى « المنافقون » وفيها نزل قوله سبحانه : « هم الذين يقولون : لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ، ولرسوله ، وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » ولما نزلت السورة أخذ رسول الله بأذن الغلام الصادق اللقن ، وقال : « هذا الذى أوفى الله بأذنه » وقد شاء الله أن تتحقق مقاله ابن أبى لاعلى ما أراد ، فكان الرسول وأصحابه هم الأعزاء ، وكان ابن أبى وجماعته هم الأذلاء ! !

« مثل أعلى للايمان » وقد تجلى فى هذه الحادثة موقف بطولى لإيمانى سماعن الرحم والعاطفة ، وعز فى تاريخ الدنيا بله سير الصحابة ، ذلك أن المؤمن الصادق عبد الله بن عبدالله بن أبى أتى رسول الله فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبدالله بن أبى فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلا فمرنى به وأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ، ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى

نفسى أن أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبى يمشى بين الناس فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار ! ! ماذا ترى يكون جواب الرسول الكريم ؟

إنه لموقف محرج حقا ، أيوافق الرسول ؟ إنه إن فعل فسيستريح من شر مستطير طالما نال من النبى والمسلمين ، وأضر بالدعوة الإسلامية ، ولكن كيف ؟ ونبينا محمد إنسان بشر قبل أن يكون نبيا ، وانسانيته فاقت كل مايتصور من إنسانية ، وفطرته هى أرقى ما عرفت الدنيا من فطرة سليمة ، وهو فى عقله وخبرته بالنفوس البشرية ، وغرائزها فى المحل الذى لا يطاول وهو يعلم يقينا أن الابن فى مأساة نفسية وعاطفية تغلب عليها بقوة إيمانه ، وسمو نفسه ، وحبه لله ولرسوله ! ! لقد ضرب الابن أروع مثل الايمان والتضحية بعاطفة الأبوة ، فليضرب النبى الانسان ذو القلب الكبير والخلق العظيم أروع المثل فى العفو والرحمة وحسن الصحبة فيقول : « بل نترفق به ، ونحسن صحبته مابقى معنا » ! ! !

يالروعة العفو ، ويالجلال العظمة الإنسانية ! !

ويسمو الإيمان ثم يسمو ، فلا يرضى الإبن المؤمن الصادق من الأب بالاعتذار وإنكار ما قال ، بل يقف لأبيه وهم آيبون عند مدخل المدينة ، وبيده سيفه قائلا له : قف ، فوالله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله فى ذلك ، فلما أذن له تركه يدخل وقد أشاح عنه بوجهه .

« آثار هذه السياسة النبوية الحكيمة » وقد كان لتسامح الرسول مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد ، فقد كان ابن أبى كلما أحدث حدثا ، كان قومه هم الذين يعاتبونه ، ويأخذونه ويعنفونه ، ويعرضون قتله على النبى ، والرسول يأبى ويصفح ، فأراد رسول الله ان يكشف لسيف الحق عن آثار سياسته الحكيمه فقال : كيف ترى ياعمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى لأرعدت له آنف لو أمرتك اليوم بقتله لقتلته » ! ! فقال عمر : قد — والله — علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه أعظم بركة من أمرى ! !

« احتيال وغدر » وقدم من مكة مقيس بن صبابه ، فقال : يا رسول الله جئتك مسلما ، وجئتك أطلب دية أخى الذى قتل خطأ ، فأمر له الرسول بدية أخيه هشام ، فأقام بالمدينة غير كثير ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكة مرتداً ، ولهذا كان مقيس من الذين أهدر النبى دماءهم يوم الفتح ، وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبه .

## ( حادثة الافك )

وهى حادثة أخرى تمخضت عنها هذه الغزوة ، وهى أشد شناعة وفظاعة من الأولى لأنها تناولت بيت النبوة فى أحب نسائه إليـــه وهى الصديقة بنت الصديق وإليك هذه القصه كما رواهـا الإمامان البخارى ومسلم فى صحيحيهما بالسند عن عائشة رضى الله عنها ـ واللفظ للبخارى ـ قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج ـ يعنى إلى سفر ـ أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ، فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج سهمى ، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل الحجاب ، فأنا أحمل فى هودجى وانزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى إذا جاوزت الجيش ـ يعنى لقضاء حاجتها ـ فلما قضيت شأنى اقبلت إلى رحلى فإذا عقد لى من جزع ظفار[1] قد انقطع فالتمست عقدى ، وحبسنى ابتغاؤه ، واقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت ركبت ، وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم ، إنما يأكلن العلقه[2] من الطعام ... وكنت جاريه حديثه السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ،

---

(١) جزع بفتح الجيم وسكون الزاى خرز معروف فى سواده بياض كالمروق وظفار بفتح الظاء وكسر الراء الأخيره للبناء مدينة باليمن (٢) العلقه : القليل من الطعام

فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فأممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت انهم سيفقدونني فيرجعون إلى ، فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش ، فادلج[1] فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد انسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى ، وكان يرانى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه[2] حين عرفنى ، فخمرت ـ غطيت ـ وجهى بجلبابى ، والله ما كلمنى كلمه ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حتى اناخ راحلته فركبتها ، فانطلق يقود به الراحلة ، حتى اتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين[3] فى حر الظهيره ، فهلك من هلك ، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن سلول ، فقدمنا المدينه ، فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا اشعر بشىء من ذلك ، وهو يريبنى فى وجعى انى لا أعرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت ارى منه حين اشتكى ، إنما يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ (٤) ثم ينصرف ، ولاأشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت[5] ، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع[6] وهو متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل . . . ، فانطلقت أنا وأم مسطح وهى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة [7] فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى وقد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت . تعس مسطح ، فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلا شهد بدراً ؟ قالت : أى هنتاه[8] أو لم تسمعى ما قال ؟ قلت وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً على مرضى ، فلما رجعت إلى

---

(١) أدلج بتشديد الدال سار من آخر الليل

(٢) قوله : « إنا لله وإنا إليه راجعون » إعظاماً وتألماً لما حدث من تأخرها بغير قصد

(٣) نازلين للاستراحة فى وقت شدة الحر (٤) اسم إشارة للمؤنثة

(٥) نقه : بفتح القاف الذى برأ من مرضه ولم تكتمل صحته (٦) مكان خارج المدينة

(٧) مسح بكسر الميم وسكون السين ، اثاثة بضم الهمزة (٨) يعنى ياهذه

بيتي ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلت أتأذن لى أن آتى أبواى؟ وأنا حينئذ أريد أن استيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى رسول الله صلى الله عليه فجئت أبواى فقلت لأمى : يا أمتاه . ما يتحدث الناس؟ فقالت : يا بنية هونى عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها فقلت : سبحان الله ، أو قد يحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكى ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبى طالب وأسامة بن زيد رضى الله عنهما حين استلبث الوحى يستأمرهما فى فراق أهله،فاما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم لهم فى نفسه من الود ، فقال : يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيراً، وأما على بن أبى طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة ، فقال : « أى بريرة ، هل رأيت من شىء يريبك ؟ » قالت بريرة : لا والذى بعثك بالحق ، إن رأيت عليها امراً أغمصه (١) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السين تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن (٢) فتأكله.فقال رسول الله وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرنى (٣) من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً « لقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى ، فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة — وهو سيد الخزرج — وكان قبل ذلك رجلا صالحاً ولكن احتملته (٤) الحمية ، فقال لسعد : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، فقام أسيد بن حضير (٥) وهو ابن عم سعد بن معاذ

---

(١) بالغين والصاد أى أعيبه

(٢) ما يأكل البيوت من شاة أو طير

(٣) من ينصرنى عليه وينتقم منه

(٤) أى غلبته العصبية

(٥) هو بالتصغير فى اسمه واسم أبيه

فقال لسعد بن عبـــادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فانك منافق تجادل عن المنافقين ،(١) فتثاور الحيان الأوس والخزرج ، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت ، فمكثت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، فأصبح أبواى عندى ، وقد بقيت ليلتين ويوما . . . ، فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى ، فأستأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى ، فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس ، ولم يجلس عندى منذ قيـــل ما قيل قبلها ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى ، فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : أما بعد : يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه ، فلما قضى مقالته قلص دمعى(٢) حتى ما أحس منه قطره فقلت لأبى : أجب رسول الله فيما قال ، قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمى : أجيبى رسول الله قالت : ما أدرى ما أقول لرسول الله ، قلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن — إنى والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم ، وصدقتم به : فلئن قلت لكم : إنى بريئة — والله يعلم إنى بريئة — لا تصدقونى بذلك ، ولئن أعترفت لكم بأمر — والله يعلم أنى منه بريئة — لتصدقنى ، والله ما أجد لكم ولى مثلاً إلا قول أبى يوسف : « فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحياً يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فوالله مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خرج أحد من أهـــل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء (٣) . حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان(٤) .

---

(١) أى صنيعك فى المجادلة عن ابن أبى صنيع المنافقين (٦) جف من شدة الحزن والأسى

(٢) بضم الموحدة وفتح الراء وبالمد الحالة التى كانت تعتريه عند الوحى

(٣) بضم الجيم حبات اللؤلؤ أو الفضة

من العرق وهو فى يوم شات من ثقل الوحى الذى ينزل عليه ، فلما سرى عن رسول الله صلى عليه وسلم سرى عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها: يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك ، فقالت أمى : قومى إليه ، فقلت ، والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل،وأنزل الله — عز وجل — « إن الذين جاءوا بالأفك عصبة منكم . . . » العشر الآيات كلها — يعنى إلى قوله تعالى : «وأن الله رءوف رحيم»[1] — فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئا أبداً بعد الذى قال لعائشة — يعنى عنها — ما قال ، فأنزل الله « ولا يأتل[2] أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى ، والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » قال أبو بكر : بلى والله إنى أحب أن يغفر الله لى!! فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً ، قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب إبنة جحش عن أمرى ، فقال : يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت : يارسول الله أحمى سمعى وبصرى ، ما علمت إلا خيراً قالت : وهى التى كانت تسامينى[3] من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الأفك »[3] :

وقد بينت الروايات الأخرى فى الصحيحين وغيرهما ، أن الذين خاضوا فى هذا الحديث الآثم رأس النفاق أبن أبى ، وحمنة بنت جحش ،ومسطح بن أثاثه، وحسان بن ثابت وأن الذى تولى معظم الحديث ، وإلا رجاف به ابن أبى وتليه حمنة فى هذا ، وقد تاب هؤلاء — ما عدا ابن أبى — ولا سيما حسان بن ثابت فقد اعتذر عما كان منه وقال يمدح عائشة بما هى له أهل .

حصان رزان ما تزن بريبه  وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

---

(١) سورة النور ١١ — ٢٠

(٢) لا يحلف  (٣) تناظرنى وتحرص على أن تكون لها حظوتى عند رسول الله

(٣) صحيح البخارى — كتاب التفسير — سورة النور صحيح مسلم — كتاب التوبة باب حديث الافك

عقيلة حى من لؤى بن غالب كرام المساعى مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها وطهرها من كل سوء وباطل(١)

وزاد الحاكم فى روايه له من غير رواية ابن اسحاق .

حليلة خير الخلق دينا ومنصبا نبى الهدى والمكرمات الفواضل
رأيتك ـ وليغفر لى الله ـ حرة من المحصنات غير ذات الغوائل

وقد تخلقت السيدة عائشة بأخلاق زوجها وأبيها فعفت ، وكان يستاذن عليها لما كبر وعمى فتأذن له ، بل كانت تكره — رضى الله عنها — أن يسب عندها لمنافحته عن رسول الله وآل بيته وتقول : إنه الذى قال :

فان أبى ووالدتى وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

« إقامة الحد على من قذف عائشة » ولما نزلت الآيات ببراءة عائشة أقام النبى صلى الله عليه وسلم الحد على مسطح وحسان وحمنة ، رواه أصحاب السنن وهذا يرد ما رجحه الماوردى ، من أنهم لم يجدوا اعتماد على أن الحد لا يثبت إلا باقرار أن بينه ! ولا أدرى أى بينه بعد النص القرآنى الدال على كذبهم ، وهو يستلزم ثبوت الحد ، وأما ابن أبى رأس النفاق فقيل إنه لم يحد سياسة وتأليفا لقومه وأتباعه وإلى هذا ذهب ابن القيم فى الهدى ، والذى رجحه الحافظ ابن حجر فى النفخ أنه أقيم عليه الحد استناداً إلى ما رواه الحاكم فى الإكليل(٢) .

« صفوان بن المعطل السلمى » : ويقال له الذكوانى نسبة إلى ذكوان بن ثعلبه بطن من بنى سليم ، وصحابيا فاضلا ، لا يغمص فى دين ولا فى خلق . أول مشاهده المريسيع ، وقيل الخندق ، وبحسبه تزكية قول الرسول فيه : ما علمت عليه إلا خيراً وقد ثبت فى الصحيحين أنه لما بلغه حديث الإفك قال : سبحان الله

---

(١) حصان : عفيفة ، رزان عاقلة ، تزن بضم التاء : ترمى وتتهم جائعة الغرائل : جمع غافلة أى عن الشر والاثم ، عقيلة : كريمة . خيمها بكسر الخاء أصلها .

(٢) فتح البارى ح ٨ ص ٣٨٨ .

والذى نفسى بيده ما كشفت عن كنف أنثى قط ، وما زعمه ابن إسحاق أنه كان حصوراً لم يثبت، ففى بعض الروايات الصحيحة أنه تزوج ، وفى الصحيح أنه قتل شهيداً فى سبيل الله ، فقيل : استشهد فى غزوة أرمينية فى خلافه عمر سنه تسع عشرة ، وقيل بل عاش إلى سنه أربع وخمسين فاستشهد بأرض الروم فى خلافه معاويه(١)

## وقفات عند قصة الافك

وما كان لنا أن نمر بهذا الحادث دون أن نقف وقفات ، نستخلص منها عبراً وعظات ، وأخلاقاً ساميات ، منها :

( ١ ) صيانة الله سبحانه أنبياءه أن تقع من زوجاتهم خيانة زوجيه وذلك لأن زنا الزوجه مما يمتد أثره السيىء إلى الزوج، فصان الله زوجاتهم عن ذلك حتى لا يكون منفراً منهم ، ومعوقا عن الاهتداء بهم ، أما الكفر فيجوز عليهن وذلك كامرأتى نوح ولوط عليهما السلام ، لأن الكفر لا تتعدى معرته إلى الزوج ، وأما ما ذكره الله عنهما فى قوله « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا »(٢) فقد أجمع المفسرون سلفا وخلفا على أنه ليس المراد الزنا وإنما الخيانة فى الدين روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « ما زنت امرأة نبى قط وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما فكانت امرأة نوح تخبر أنه مجنون، وإذا ما آمن به أحد أخبرت به قومه الكافرين ، وكانت امرأة لوط تدل قومه على أضيافه إذا نزل به ضيف » .

( ٢ ) إن فى هذه القصه عزاء وسلوى للعفيفات اللاتى يرمين زوراً وكذبا بالفاحشه ، فهذه الصديقه بنت الصديق ، وزوج الرسول ، والمبرأة من فوق سبع سماوات قد رميت بما هى براء منه ، من المنافقين ومن شايعهم من ضعفاء الإيمان ،

---

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٣٧١ .

(٢) التحريم ١٠

ومن قبل رمى اليهود صـــديقة بنى إسرائيل السيدة مريم البتول بالزنا ، فما دنس ذلك من شرفها ، ولا أنزل من كرامتها عند ربها ، بل زادها رفعة وشرفا ، ولا تزال هذه القصة تتكرر على مسرح الحياة ، فليكن للمحصنات المؤمنـــات الغلافلات اللاتى لا يسلمن من قالة السوء فيها عزاء وسلوى .

( ٣ ) أدب الصحابة — رضوان الله عليهم — فى معاملة النساء المسلمات ولاسيما نساء النبى، والمبالغة فى توقى مواطن الريبة والتهمة ، فقد ثبت أن صفوان — رضى الله عنه — أكتفى بالاسترجاع حتى استيقظت السيدة عائشة وفى استرجاعه ما يدل على استفظاعه وأسفه أن تترك زوجة النبى فى العراء ، ولم يكلمها قط غير أنه سألها عن شأنها وعرض عليها الركوب ، وحين الركوب أولاها ظهره ولما ركبت قاد بها ولم يسر خلفها ، وقديماً فعل نبى الله موسى عليه الصلاة والسلام ذلك مع ابنة شعيب عليه الصلاة والسلام فقد قال لها : سيرى خلفى ودلينى على الطريق خشية أن تضرب الريح ثوبها فتكشف أو تصف بعض جسمها . وهذا غاية الأدب والعفة ولذلك قالت ابنة شعيب — وقد سمعت ورأت — كما قال الله سبحانه : « قالت إحداهما : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين »[1] .

( ٤ ) حسن معاشرة النبى ﷺ لأزواجه ورحمته بهم ، وضبط النفس حتى فى المواقف التى يستبد بالنفس البشرية فيها الغضب ، فتخرج عن حد الاعتدال، فعلى الرغم مما قيل فى عائشة مما يجرح القلب ، ويؤذى النفس كان يدخل وهى مريضه فيسأل عنها وإن لم تجد منه ﷺ اللطف الذى كانت تجده منه حينما كانت تشتكى ، وغايه ما يطمع فيه من بشر كريم فى مثل هذا الموقف المؤلم المحير أن

---

(١) القصص/٢٦ ، أما أمانته فقد حدثناك عنها ، وأما قوته فقد قيل : لأنها شاهدته وهو ينحى عن البئر ، وما كان يطيق ذلك إلا الجماعة من الرجال وقيل : لأنها رأته وقد دفع الرعاء عن البئر على كثرتهم ، ولم يخشهم ، وسقى لهما .

يكظم غيظه ، ويكف غضبه ، أما الملاطفة فامر خارج عن طوق البشر ولن تكون إلا ممن فقد غيرته ، وذهبت من نفسه معالم الرجوله والنخوة :

ويبلغ السمو الإنسانى بالرسول فى معاملة عائشة حينما دخل عليها وهى فى بيت أبيها وقال لها « ياعائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئه فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فان العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه » ! !

يا لعظمة النفس ، إن العظيم حقا هو الذى يعلم أن كل بنى آدم خطاء ، ويبشر المذنبين طريق التوبة ، والقوى حقا هو الذى يرحم ضعف الناس ! !

كان يمكن للنبى صلوات الله وسلامه عليه أن يطلق عائشه ، وبذلك يستريح من ألم النفس الواصب ، ويقطع قالة السوء ، ولكن كيف يكون هذا ؟ وهو الذى وسع بصدره وخلقه الناس جميعا على اختلاف مشاربهم وفطرهم وطبائعهم ، حتى استحق ثناء الحق جل وعلا حيث يقول : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

( ٥ ) كرامة بيت أبى بكر رضى الله عنه على ربه ، فقد شاء الله أن يبرىء عائشة من فوق سبع سماوات وأن ينزل فى شأنها قرآنا يتلى إلى يوم الدين ، وهذا بعض ما جوزى به رجل دخل فى الإسلام من أول يوم ، وبذل نفسه وأهله وماله لله ولرسوله ، ولم يزد - وقد تلظى بنار هذه الفتنة — على أن قال والله ماقيل لنا هذا فى الجاهلية فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام ، ! ! وما جوزيت به سيدة قدمت للرسول كل خير ، ووفرت له كل وسائل الراحة النفسية والبيتية حتى تفرغ لأداء رسالة ربه ، ولم تملك حينما نزل بها البلاء ، وجل المصاب ، إلا أن قالت كما قال نبى الله يعقوب عليه الصلاة والسلام « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون »[1] .

---

(١) يوسف/١٨

# تفسير آيات الإفك

قال الله تبارك وتعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ».

« الإفك » أشنع الكذب وأفحشه « عصبة منكم » الجماعة من العشرة إلى الأربعين منهم عبد الله بن أبى رأس المنافقين ، وزيد بن رفاعه ، وحسان ابن ثابت ، ومسطح بن أثاثه ، وحمنة بنت جحش « لا تحسبوه شرا لكم » خطاب للمسلمين ولا سيما من بلغ منهم الأذى مبلغه ( بل هو خير لكم ) يعنى فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فلأنه نزل بسببه تشريع عام خالد يحفظ الحرم ويصون المجتمع ، ولما تمخض عنه من تبرئة عائشة حبيبة رسول الله والشهادة لآل بيت الرسول بالطهر والعفاف ، وتبرئة الرجل الصالح صفوان ، وأما فى الآخرة فلما لهم من رفعة الدرجات وبالصبر على المحنة والبلاء ، « لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم » جزاء ما اجترح من الذنب على قدر ما خاض فيه والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . كبر الشىء معظمه ، وهو ابن أبى فهو الذى كان يجمعه ويذيعه ويشيعه .

ثم أدب الله المؤمنين والمؤمنات عما كان ينبغى أن يسلكوه فى هذه القصة من أدب فقال : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا : هذا إفك مبين » لولا ، هلا « مبين » بين ظاهر يعنى هلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، وظنوا بأخوانهم خيراً ، ولو أنهم فعلوا لتبين لهم أن أم المؤمنين أولى بالبراءة وأحرى ، ولتعففوا عن النطق بهذا الهجر من القول ، وممن تأدب بهذا الأدب الالهى السامى سيدنا أبو أيوب الأنصارى فقد قالت امرأته أم أيوب : أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة رضى الله عنها ؟ قال : نعم وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله قال : فعائشة والله خير منك ! !

ثم قال تعالى : « لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك

عند الله هم الكاذبون » « عند الله » يعنى فى حكمه وشريعته ، لأنهم لم يستطيعوا أن يأتوا بشهداء ، وحكم القاذف فى الإسلام إن لم يات بهم أن يحد حد القذف ، وقد حد النبى صلى الله عليه وسلم الأربعة الذين صرحوا بالقذف لما تبين كذبهم بشهادة الوحى .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » « لولا » حرف امتناع لوجود يعنى لولا انى تفضلت أن أتفضل عليكم بضروب النعم فى الدنيا التى من جملتها الإمهال وقبول توبة التائبين ، والترحم عليكم فى الآخرة بالعفو والمغفرة ، لعاجلتكم بالعقوبة فى الدنيا والعذاب الدائم فى الآخرة وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كحسان ومسطح وحمنة ، فأما من خاض فيه من المنافقين كابن أبى وأضرابه فليسوا مرادين لأنهم ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يؤهلهم لاستحقاق هذا .

ثم بين سبحانه الأحوال والملابسات التى كانت توجب أن ينزل بهم العذاب فقال : « إذ تلقونه بألسنتكم ، أى يتلقفه بعضكم من بعض من غير تحر وتثبت ثم يذيعه « وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم » يعنى ان قالة السوء التى تلقتم بها ليس لها ما يسندها من علم أو دليل ، وليست نابعة عن اعتقاد وإنما هى شكوك وأراجيف لا تعدو طرف اللسان ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » هذه جريمة من جرائمهم وهى استصغارهم لذلك وهو عظيمة من العظائم عند الله ولو لم تكن عائشة زوجة نبى لما كان هينا ، فكيف وهى زوجة خاتم الأنبياء ، وسيد ولد آدم على الإطلاق ، وهى بالمنزلة التى لا تخفى عليكم نسبا وشرفا ودينا ؟ ثم قال سبحانه « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » « سبحانك » كلمة تعجب من الأمر المستفظع « بهتان » كذب فاحش وهذا تأديب آخر للمؤمنين أنه كان الأليق بهم أن يستعظموا هذه المقالة ، ويطهروا السنتهم من النطق بها ثم حذرهم سبحانه أن يعودوا لمثل هذه المقالة الفاحشة

التى تجافى الأيمان فقال : ( يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم ) .

ثم قال سبحانه : ( إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم تعلمون ) هذا تأديب إلهى ثالث لمن سمع قالة السوء أو علم بفاحشة أن لا يذيعها ويشيعها لما فى إشاعة الفاحشة من إثارة بواعث الشر فى النفوس ، وإيقاظ الفتنة بين الناس ، وفى ذلك ما فيه من الاضرار بالأسر والجماعات . ومن أدب النبوة فى هذا قول رسولنا صلى الله عليه وسلم : « من ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة » رواه مسلم وقال : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله تعالى فى قعر بيته » رواه أبو داود ثم قال سبحانه : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم » جواب لولا محذوف أى لعاجلكم بالعقوبة ، وفى هذا تكرير للمنة بترك المعاجلة وفى حذف الجواب إيجاز معجز لتذهب النفس فيه كل مذهب فلله در التنزيل . وما أبلغه وما أكثر بركاته.

ومما يتصل بآيات الإفك قوله سبحانه « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » « المحصنات العفائف « الغافلات » يعنى عن الفاحشة وهذا أسمى وصف يدل على العفة ، فإن من العفائف من تخطر الفاحشة ببالها ثم لا تلبث أن تزول ، ولكن أعف العفة أن تكون المرأة غافلة عن التفكير فيها والخطور بنفسها ، ويدخل فى هذه الأوصاف أمهات المؤمنين دخولا أوليا ولا سيما عائشة التى كانت سبب نزولها ، فالذين يرمون بالزنا المحصنات الغافلات المؤمنات ملعونون فى الدارين على ألسنة الخلق والملائكة . ومطرودون فى الآخرة من رحمة الله ، ولهم عذاب هائل لايقادر قدره لعظم ما ارتكبوه « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » ومعنى شهادة الجوارح المذكورة انه عزوجل ينطقها بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر

عنها من الذنوب والآثام «دينهم الحق» أى يعطيهم جزاءهم المطابق لمقتضى العدل والحكمة وافياً تاماً . «الحق المبين» الحق الظاهر ألوهيته والظاهر حقيته .

ثم ساق سبحانه دليلا على براءة السيدة عائشة على ماهو السنة الجارية الغالبة فيما بين الناس فقال : ( الخبيثات ) أى من النساء ( للخبيثين ) من الرجال ( والخبيثون للخبيثات ) ذكره وإن كان مفهوماً مما سبق مبالغه فى التأكيد ( والطيبات ) من النساء ( للطيبين ) من الرجال ( والطيبون للطيبات ) أى والطيبون من الرجال الطيبات من النساء لا يتجاوزوهن إلى من عداهن وحيث كان رسول الله أطيب الطيبين ، وخير الأولين والآخرين فقد ثبت كون الصديقة من أطيب الطيبات ، واتضح بطلان ما قيل فيها من الترهات ( أولئك ) إشارة إلى آل البيت النبوى رجالا ونساء ، ويدخل فيه السيدة عائشة دخولا أولياً [ مبرءون مما يقولون ] منزهون عما يقوله أهل الأفك فى حقهم من الأكاذيب [ لهم مغفرة ورزق كريم ] مغفرة لما عسى أن يقع منهم من خلاف الأولى أو مالا يسلم منه إنسان من الذنب ، ورزق دائم لا يزول ولا يحول وهو الجنة.

ورحم الله الإمام الزمخشرى حيث قال فى تفسيره [ ولو قلبت القرآن ، وفتشت ما أوعد به العصاة لم تر الله قد غلظ فى شىء تغليظه فى إفك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد ، والعتاب البليغ ، والزجر العنيف ، واستعظام ماركب من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه — ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث[1] لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا ، وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة ، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا ، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذى هم أهله حتى يعلموا عند ذلك ( أن الله هو الحق المبين ) فأوجز فى ذلك وأشبع ، وفصل وأجمل ، وأكد وكرر ، وجاء بما لم يقع فى وعيد المشركين

(١) يريد قول الله تعالى « إن الذين يرمون المحصنات . . . » إلى قوله تعالى « الحق المبين »

عبدة الأوثان إلا بما هو دونه فى الفظاعة وماذلك إلا لأمر ، وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه كان بالبصرة يوم عرفه ، وكان يسأل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات فقال : من أذنب ذنبا ثم تاب عنه قبلت توبته إلا من خاض فى أمر عائشة، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك ، وقد برأ الله أربعة بأربعة : برأ يوسف بلسان الشاهد ( وشهد شاهد من أهلها ) وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه[1] وبرأ مريم بانطاق ولدها حين نادى من حجرها ( إنى عبد الله ) وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام، فى كتابه المعجز ، المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات فانظركم بينها وبين تبرئة أولئك ، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتنبيه على أنافة محل سيد ولد آدم ، وخيرة الأولين والآخرين، وحجة الله على العالمين ، ومن أراد أن يتحقق من عظمة شانه صلى الله عليه وسلم ، وتقدم قدمه ، وإحرازه لقصب السابق دون كل سابق — فليتلق ذلك من آيات الإفك ، وليتامل كيف غضب الله له فى حرمته ، وكيف بالغ فى نفى التهمه عن حجابه[2] .

## « غزوة الخندق والأحزاب »

كانت قريش تود لو أتيحت لها الفرصة للقضاء على النبى والإسلام ولا سيما بعد ما أصابها من نكسة بسبب نكوصها عن الخروج فى بدر الآخيرة ، وكان الأعراب الذين نال منهم النبى وصحابته موتورين ويتحينون الفرصة

---

(١) هذه القصة رويت فى صحيح البخارى وقد أشار إليها الله فى قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » وكانوا رموه بأنه « آدر » أى منتفخ الخصية ، وبينما هو ذات يوم يغتسل فى البحر وقد ترك ثيابه على حجر إذ فر الحجر بثوبه ، فصار يجرى وراءه وهو يقول : ثوبى ياحجر فرأى الناس أن ليست به أدرة .

(٢) تفسير الكشاف ج٢ ص ٧٨ .

للانتقام ، وكان اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير الذين أجلاهم النبى عن المدينة مغيظين محنقين ، ويسعون ما وسعتهم الحيلة فى القضاء على هؤلاء الذين أجلوهم عن ديارهم ، ونسوا عفو النبى عنهم ، وكان يمكنه أن يبيدهم بدل إجلائهم فلا تعجب إذا كانت قوى الشر الثلاث هـذه قد تعاونت قصد القضاء على الاسلام والمسلمين فكانت غزوة الأحزاب .

( تأليب اليهود على النبى ) وحمل اليهود وزر التاليب فخرج وفد منهم على رأسهم حيى بن أخطب النضرى ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ونفر من وائل حتى قدموا على قريش ، فدعوهم إلى حرب النبى وقالوا : إنا سنكون معكم حتى نستأصله فرحبت قريش بمقدمهم ، واستجابوا لدعوتهم ، وحرضوهم على مواصلة مسعاهم .

( تفضيل اليهود الوثنية على الاسلام ) وانتهزت قريش وجود هذا الوفد الحانق المضلل فقالوا لهم : يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ فقالوا : بل دينكم خير من دينه . وأنتم أولى بالحق منه ، وإنها لسقطة من اليهود وهم أهل كتاب أن يفضلوا الوثنية على التوحيد ، وقد سجل الله عليهم هذا الموقف المخزى فقال سبحانه : ( ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا[1] وكفى اليهود خزيا أن يهوديا مثلهم قد آخذهم على هذا الموقف المشين قال الدكتور اسرائيل ولفنسون فى كتابه ( تاريخ اليهود فى بلاد العرب ) : كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش ، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بان عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الاسلامى ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم .

---

(١) النساء ٥١ ، ٥٢ (٢) حياة محمد ص ٣٢٠

( استمرار اليهود فى تأليب القبائل ) وخرج هؤلاء النفر ، فطافوا على بنى مرة ، وبني فزارة ، وبنى أشجع وسليم ، وبنى سعد وأسد وكل من له عند المسلمين ثأر يحرضونهم ويعلمونهم أن قريشا معهم .

( خروج الأحزاب ) وتجمعت الأحزاب لحرب رسول الله والمسلمين فخرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب فى أربعة آلاف ، معهم ثلثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة الذى قتل أبوه وهو يحمل اللواء يوم أحد ، وخرجت غطفان يرأسها عينيه بن حصن الأحمق المطاع الذى صالحه رسول الله وأقطعه أرضا يرعى فيها سوائمه . وكان معه الف فارس ، وخرج بنو مرة فى أربعمائة برئاسة الحارث بن عوف المرى ، وتجهزت بنو سليم فى سبعمائة مقاتل ، وبنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدى . وبنو اشجع ، وهكذا تحزبت الأحزاب حتى صاروا عشرة آلاف قائدهم العام ابو سفيان بن حرب ، وساروا قاصدين المدينة . وكانت الخندق فى شوال سنة خمس عند جمهور العلماء من أهل المغازى وغيرهم ، وهو الصحيح (١)

( استشارة الرسول أصحابه ) واتصل نبأ هذا الجمع الحاشد بالرسول ، فاستشار أصحابه ، أيقيمون فى المدينة أم يخرجون للقاء العدو ؟ ولما كان عدد المهاجمين عظيما لا قبل للمسلمين على الوقوف أمامهم فى سهل منبسط كسهل بدر دون أن تكون العاقبة عليهم فرأى المسلمين على أن يتحصنوا بالمدينة ولكن أيجدى التحصن أمام هذا الجيش الكبير ؟ وهنالك تقدم سيدنا سلمان الفارسى إلى رسول الله يعرض عليه أن يحفر المسلمون خندقا فى الجهة الشمالية وهى عورة المدينة لا يستطيع المهاجمون نفاذا إلى المدينة إلا منها ، إذ أن بقية مداخل المدينة ضيقة المسالك مشتبكة البيوت والنخيل لا يفكر العدو فى النفاذ منها ، لما يخشى أن يحل ، من اسطح المنازل ونحوها ، ثم هى لاتتسع إلا لعدد من المهاجمين مما يسهل على المسلمين تصيدهم وأبادتهم ، فاستحسن الرسول الفكرة ، ودعا له بخير .

---

(١) البدايه والنهايه ص ٤٠ وفتح البارى ج ٧ ص ٣٦٤ و ٣٧٥

« حفر الخندق » وشرع المسلمون فى حفر الخندق فى جو بارد ورسول الله معهم يحفر ويحمل التراب بنفسه ، وقد جعل لكل عشرة منهم أربعين ذراعاً ، واحتق المهاجرون والأنصار فى سلمان كل يريد أن يكون من قبيلة ، فحسم الرسول الأمر بقوله : « سلمان منا أهل البيت » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى ما بهم من النصب والتعب نشطهم بمثل قوله :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فيجيبون قائلين : نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبداً

وهكذا تجاوبت المشاعر بالإيمان ، والعزائم بالكفاح والجلاد.

وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن البراء بن عازب قال : لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله ﷺ رأيته يحمل من تراب الخندق حتى وارى عنه التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر فسمعته يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة وهو ينقل التراب يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فانزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لقينا

إن الأولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

ثم يمد صوته بآخرها » يعنى يقول : أبينا . أبينا (١)

ولا نسل عما كانت تصنعه هذه الكلمات المؤمنة العذاب فى نفوسهم من مضاعفة الجهد ، والاستهانة بالنصب والتعب ، وبهذا العمل الدائب أتموا حفر الخندق فى ستة أيام ، وقد استعانوا بالأحجار الصلبة فاتخذوا منها متاريس يتحصنون بها .

« تخازل المنافقين » على حين كان المؤمنون المخلصون يجدون فى حفر الخندق كان المنافقون يتخاذلون ، ويتسللون إلى أهليهم دون إذن الرسول

---

(١) فى مد الصوت بهذا المقطع من البيت مافيه من التطابق بين اللفظ والمعنى والمعبر ، فهو أباء أبى متصل ممدود لا يعرف الضعف والاستخذاء ولا الاستكانة والاستسلام.

أما المؤمنون فقد كان الواحد منهم إذا عرضت له الحاجة الملحة استاذن الرسول ، فإذا قضى حاجته رجع إلى عمله رغبة فى الخير ، وطلباً للأجر ، وقد أنزل الله فى هؤلاء وأولئك قوله : ( إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه .... ) إلى قوله ( قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم )(١)

( نبوءات صادقة ) وفى أثناء الحفر عرضت للمسلمين صخرة بيضاء صلده شق عليهم كسرها ، فذهب سلمان إلى رسول الله فأخبره عنها فجاء فأخذ المعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعها وبرقت منها برقة أضاءت مابين لابتيها — يعنى المدينة — حتى كأنها مصباح فى ليل مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر المسلمون ، ثم ضربها الثانيه فكذلك ، ثم الثالثة فكذلك فسألوا رسول الله عن ذلك ، فقال : لقد أضاء لى من الأولى قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ، فاخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، ومن الثانيه القصور الحمر من أرض الروم ، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، ومن الثالثة قصور صنعاء ، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها فابشروا ، فاستبشر المسلمون وقالوا : موعود صادق(٢) وقد صدق الله نبوأة نبيه فكانت معجزة ظاهرة من معجزات النبى ، إذ لم يمض على هذه الحادثة إلا نحو ربع قرن حتى فتحت هذه البلاد كلها ودخلت تحت لواء الإسلام ولذلك كان أبو هريرة — رضى الله عنه — يقول حين فتحت هذه الامصار ؟ افتتحوا مابدا لكم فو الذى نفس أبى هريرة بيده ماافتتحتم من مدينه ولا تفتحونها إلى يوم القيامه إلا وقد أعطى الله محمداً صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك !!

وكنت أحب من المنكرين لنبوة سيدنا محمد أن يتأملوا فى هذه النبوءات التى صدقها الزمن ، مع أنها قيلت فى ظروف ، وملابسات ما كانت تشجع

---

(١) النور ٦٢ ، ٦٣ روى عذه القصة ابن اسحاق وابن جرير الطبرى ، والطبرانى وروى أصلها الامام البخارى فى صحيحه .

عليها ، فإن أشد الناس تفاؤلا ما كان يجول بخاطره أن يقول هذا ، او يفكر فيه اللهم إلا أن يكون نبياً يوحى إليه .

ولا جائز لقائل أن يقول : لعلها رمية من غير رام فأصابت (لأنا نقول: إن تاريخ حياته صلى الله عليه وسلم ، وما عرف عنه من الاتئاد ، والتروى فى الأمور ، وعدم المجازفة فى القول ، والبصر بالعواقب ونحو ذلك ما أقر به الأعداء . والأصدقاء يرد هذا الجواز ، ويبعده ، فلم يبق إلا أنها نبؤات صادقة من نبوءات الوحى ، فاعتبروا يا أولى الأبصار !!

( جيش المسلمين ) وبعد أن أتم المسلمون الحفر خرج النبى وأصحابه فى ثلاثة آلاف من المسلمين بعد أن استخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وكان يحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة ، ولواء الأنصار سعد بن عبادة، وأمر الذرارى والنساء فجعلوا فوق الآطام (الحصون )وأسند ظهر الجيش إلى جبل ( سلع ) وجعل الخندق بينه وبين المشركين .

دهشة المشركين من الخندق ) وأقبلت قريش بجموعها وهى ترجوان يكون المسلمون بأحد ، فجاوزته الى المدينة فإذا بهـا أمام الخندق فدهشت وعجبت لأن العرب لم يكن لهم عهد بهذا النوع من الدفاع ، واتخذت قريش ومن تابعها مكاناً لها حول الخندق ، وعسكرت غطفان ومن تبعها من أهل نجد بمكان آخر ورأوا أن لا سبيل إلى اجتياز الخندق فاكتفوا بالترامى بالنبال عدة أيام ، وأيقنوا أنهم سيقضون أياماً طوالا فى هذا الشتاء القارص البرد ، العاصف الرياح ، المنذر بالمطر بين حين وآخر .

« نقض بنى قريظة العهد » وخرج حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظى صاحب عهدهم فلما سمع به كعب أغلق بابه دونه ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له وقال : ياحيي انك امرؤ مشئوم وانى عاهدت محمداً عهداً فلست بناقض ما بينى وبينه ولم ار منه إلا وفاء وصدقاً ، وما زال حيي به حتى فتح له فقال : ويحك يا كعب لقد جئتك بعز الدهر قال : وما ذاك ؟ قال :لقد جئتك بقريش على قادتها وسادتها و بغطفان على قادتهـا وسادتها ، وقد عاهدونى على

أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه ، فقال كعب : دعنى يا حيى فإنى لم أر من محمد لا وفاء وصدقا ! ! وتكلم عمرو بن سعد القرظى فذكر وفاء الرسول ومعاهدتهم إياه وقال : إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه ، ولكن حيبا ما زال بكعب يقتله فى الذروة والغارب (١) حتى غلبت عليه يهوديته فاستجاب له ، ونقض ما بينه وبين الرسول من عهد ، ومزقوا الصحيفة التى كان فيها العهد إلا بنى سعنة : أسد وأسيد وثعلبة فإنهم خرجوا إلى رسول الله ووفوا بالعهد .

(استجلاء الرسول الخبر) فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما عبد الله ابن رواحة ، وخوات بن جبير وقال : (انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا أحق ما بلغنا عنهم ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لى لحنا أعرفه (٢) ولا تفتوا فى أعضاء المسلمين ، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس ) فخرجوا حتى أتوهم فوجدوا أن الخبر صحيح ووقعوا فى رسول الله ونالوا منه ، فجعل سعد بن معاذ يشاتمهم فأغضبوه ، فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة ، ثم أقبل السعدان ومن معهما فقالوا : عضل القادة أى غدر كغدرهم باصحاب سرية الرجيع ، فقال رسول الله : (الله أكبر أبشروا يامعشر المسلمين) ثم تقنع بثوبه واضطجع ، ومكث طويلا فعرفوا أنه لم يأته خبر عن بنى قريظة ثم رفع رأسه ، وقال : ( أبشروا بفتح الله ونصره ) .

(اشتداد البلاء والخوف ) وعظم البلاء على المسلمين ، واشتد الخوف ، فقد أتاهم العدو من فوقهم ، ومن أسفل منهم ، وتنوعت الظنون وكثرت الهواجس ، فأما المؤمنون المخلصون فازدادوا إيمانا ، وأيقنوا أن نصر الله لا بد أن يكون ، وأما المنافقون وضعفاء الإيمان فقد كشفوا عن خبيئة نفوسهم حتى قال بعضهم : كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ! !

---

(١) هذا مثل يضرب فى المراوضة والمخاتلة وأصله فى البعير يستصعب عليك فتأخذ القرادة من ذروته وغاربه من سنامه وتفتل هناك فيجد البعير لذة فيأنس عند ذلك .

(٢) يعنى أسلوب التعريض والتلويح لا التصريح .

وعزم البعض على الرجوع إلى المدينة ، وتعلل بعضهم بأن بيوتهم مكشوفة غير محصنة ، واستأذنوا النبى ورجعوا ، وهكذا استحكم البلاء ، ولاح الشر من كل مكان ، ولن تجد أدق فى تصوير هذه الحالة من قوله سبحانه (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ... » الآيات[1] .

وقد اضطر الرسول وقد نقضت قريظة العهد أن يرسل مسلمة بن أسلم فى مائتين وزيد بن حارثة فى ثلثمائة لحراسة المدينة خوفاً على النساء والذرارى من غدر اليهود وهكذا تضاءل عدد الجيش الواقف للدفاع قبالة الخندق بانسحاب بعض المنافقين أولا ، ثم بهذا العدد الذى وجهه النبى لحراسة المدينة .

( اقتحام بعض المشركين الخندق ) وقد شجع نقض قريظة العهد وطول المقام أمام الخندق بلا قتال بعض المشركين على اقتحام الخندق ، فتيمموا مكانا من الخندق ضيقا وأكرهوا خيلهم فاقتحموه منه ، فجالت بهم فى أرض سبخة بين الخندق وسلع منهم عمرو بن ود ، وعكرمة بن أبى جهل ، وضرار ابن الخطاب بن مرداس ، فأسرع إلى الخروج إليهم سيدنا على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم .

(قتل عمرو بن ود ) وكان عمرو بن ود أشجع فارس فى العرب وقد قاتل يوم بدر حتى اثبتته الجراحة فلم يشهد أحدا، فلما كان يوم الخندق خرج معلما[2] ليرى مكانه فلما اقتحم الخندق قال : من يبارز ؟ فبرز إليه على بن ابى طالب فقال له يا عمرو إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى

---

(١) الاحزاب الايه ٩ وما بعدها

(٢) جعل لنفسه علامه ليعرف بها .

خلتين إلا أخذتها منه قال : أجل قال : فإنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الاسلام فقال : لا حاجة لى بذلك ، فقال له فإنى أدعوك إلى النزال ، قال له : لم يا ابن أخى فوالله ما أحب أن اقتلك ؟ فقال له على ، لكنى والله أحب أن أقتلك فحمى عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم أقبل على على فتنازلا وتجاولا فقتله على رضى الله عنه ، فخرجت خيل الباقين منهزمة حتى اقتحمت الخندق هاربة .

وأقبل نوفل بن عبدالله بن المغيرة على فرس له بعد ماغربت الشمس يريد أن يجتاز الخندق فهوى هو والفرس فصرعا ، وقيل بل نزل إليه على بن أبى طالب فقتله ، وقيل قتله الزبير بن العوام .

فأرسل أبو سفيان بن حرب يعرض دية جثته مائة من الأبل فرفض عليه الصلاة والسلام وقال : « خذوه فإنه خبيث : خبيث الدية ، نحن لا نأكل ثمن الموتى » !!

ورمى سعد بن معاذ يومئذ بسهم فقطع أكحله[1] وكان جرحه سببا فى وفاته كما ستعلم ، واستمرت المناوشة والمراماة بالنبال يوماً كاملا ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخندق حراسا حتى لا يقتحمه المشركون بالليل ، وكان يحرس بنفسه ثلمة فيه مع شدة البرد .

« محاولة لتفريق الأحزاب » ثم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخذل بين الاحزاب ويفرق جمعهم ، فبعث إلى عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف المرى وهما قائدا غطفان وساومهما على أن يأخذا ثلث ثمار المدينه على أن يرجعا بمن معهما فقبلا ، ولكن الرسول ما كان ليبرم أمراً لم ينزل فيه وحى حتى يستشير أصحابه .

فأرسل إلى سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة فذكر لهما ذلك فقالا : يارسول

---

(١) عرق فى الذراع

الله أمراً نحبه فنصنعه ؟ أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به ؟ أم شيئا تصنعه لنا ؟ فقال : « بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحد ، وكالبوكم — اجتمعوا عليكم — من كل جانب ، فاردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرة » فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الاوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يا كلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟!!

والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فانت وذاك » .

ويرى بعض المؤرخين أن عوض الرسول عهد الصلح هذا لم يقصد به العرض حقيقة وإنما كان سبر الغور الأنصار ، وتعرفا لمبلغ استعدادهم للذود عن المدينة ، والتضحية بالنفس فى سبيل العقيدة ، وقد ظهر له صلى الله عليه وسلم أن الاخطار والمخاوف ، وتكالب عوامل الشر لم تزدهم إلا إيمانا وصلابة فى الدفاع عن دينهم .

« الحرب خدعة » إن الله سبحانه إذا أراد شيئا هيأ له الأسباب ويسر له الوسائل ، وقد ساقت الاقدار نعيم بن مسعود الأشجعى وهو من غطفان إلى رسول الله ، وكان صديقا لقريش واليهود ، فقال : يارسول الله انى قد أسلمت وقومى لا يعلمون بإسلامى ، فمرنى بأمرك حتى أساعدك ، وتفتق العقل الكبير عن هذا التوجيه الرائع والايمان إلى العمل السياسى البارع ، فقال له : « أنت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل ؟ ولكن خذل عنا ما أستطعت فإن الحرب خدعة[٢] » وكان نعيم عند حسن ظن النبى وأهلا لتوجيهه فخرج من عند النبى وتوجه الى بنى قريظة فقال : يابنى قريظة

---

(١) خدعة بفتح المعجمة وضمها مع سكون المهملة . وبضم أوله . وفتح ثانية . وهى أشهر لغاتها وأفصحها الأولى حتى قال ثعلب : أنها لغة النبى ومعنى الأولى أن الحرب تنتهى بخدعة واحدة والثانية أن الشأن فى الحرب الخداع ، والثالثة صيغة مبالغة أى كثيرة الخداع .

تعرفون ودى لكم : وخوفى عليكم ، وإنى محدثكم حديثا فاكتموه عنى قالوا : نعم لست عندنا بمتهم فقال : لقد رأيتم ماوقع بينى قينقاع والنضير ، وان قريشا وغطفان ليسوا مثلكم ، فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم ، وأما أنتم فتساكنون الرجل - يريد الرسول - ولا طاقة لكم بحربه وحدكم ، فأرى أن لا تدخلوا فى هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم ، بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفا منهم يكونون بأيديهم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه ، فاستحسنوا رأيه وقالوا : قد أشرت بالرأى .

ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال : أنتم تعرفون ودى لكم ومحبتى إياكم ، إنى محدثكم حديثا فاكتموه عنى ، فقالوا نفعل ، فقال لهم : إن بنى قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان جمعا من أشرافهم ، ونعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان إنكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس إلى ، ولا أظنكم تتهمونى قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم قال لهم : فاكتموا عنى قالوا : نفعل ثم أخبرهم بما أخبر به قريشا ، وحذرهم مثل ما حذرهم .

نجاح التدبير ، فلما كانت ليلة السبت من شوال أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان وفدا برئاسة عكرمة بن أبى جهل إلى بنى قريظة فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر — الإبل والخيل - فأغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ، ونفرغ ما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم أن اليوم يوم السبت ، ولم يصبنا ما أصابنا إلا من التعدى فيه ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب[1] واشتد عليكم القتال أن تذهبوا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا به ، فلما

---

(١) ضعضعتكم ونالت منكم .

رجعت إليهم الرسل بذلك قالوا : والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق !! فأرسلوا إلى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فلما انتهت إليهم الرسل بذلك قالت قريظة : إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ! ! فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن . وهكذا بلغ هذا التدبير المحكم غايته بالتفرقة بين قريظة والأحزاب .

( دعاء وابتهال ) وفى هذه الغمرة من الشدائد والمخاوف كان النبى ﷺ وأصحابه لا ينفكون عن الدعاء والتوجه إلى رب الأرض والسماء . ففى الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا يوم الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم اهزمهم وزلزلهم ) وفى رواية ( اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم ) وعن أبى سعيد الخدرى قال : قلت يوم الخندق يا رسول الله هل من شىء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر قال : ( نعم اللهم استر عوراتنا . وآمن روعاتنا ) رواه أحمد فى مسنده .

(هزيمة الأحزاب ) واستجاب الله لرسوله والمؤمنين ، ونزل المدد من السماء. وأرسل الله عليهم ريحا شديدة فى ليلة شاتية باردة فهدمت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وأطفأت نيرانهم ، وفعلت فيهم جنود الله المرئية وغيرها الأفاعيل ، فامتلأت قلوبهم رعباً وخوفاً ، وساد الهرج والمرج والجلبة والصياح .

( تعرف أخبار القوم ) وكان رسول الله متيقظا لا ينام وقائماً لا ينفك عن الصلاة ، فلما سمع الجلبة قال : ( من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ، أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة ) فما قام رجل من القوم من شدة الخوف والبرد والجوع ، فلما لم يقم أحد دعا حذيفة بن اليمان قال : فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال : يا حذيفة اذهب فادخل القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا قال : فذهبت فدخلت فى القوم وجنود الله تفعل بهم ما تفعل فقام أبو سفيان فقال : لينظر كل امرىء من جليسه ؟ فأخذ حذيفة بيد الرجل الذى كان إلى جنبه فقلت : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان ، وتنادى الأعراب بالرحيل ، وقام طليحة بن خويلد الأسدى

فقال : إن محمداً قد بدأكم بشر فالنجاء النجاء ! ! ثم نادى أبوسفيان بالرحيل فقال : يامعشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف[1] وأخافتنا قريظة ، ولقينا من شدة الريح ما ترون فارتحلوا فإنى مرتحل ! ! ثم قام الى بعيره وركبه ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فأسرعت إلى ديارقومها.

ثم رجع حذيفة ورسول الله يصلى وعليه كساء يمنى ، فلما فرغ من صلاته أخبره الخبر ، فغطاه رسول الله بطرف كسائه ، حتى ذهب عنه القر فما زال نائماً حتى أصبح.

« الأوبة إلى المدينة » وآب النبى وأصحابه إلى المدينة ، وقد أزال الله الكرب ، وكشف الغمة ، ووعد أصحابه أن لايغزوهم المشركون بعد هذا بل هم الذين سيغزونهم ، فما قامت للمشركين بعدها قائمة ، وما زال أمر المسلمين فى ازدياد حتى توج ذلك بفتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

وعاد الرسول والمسلمون وهم يكبرون ويقولون : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير : آيبون تائبون . عابدون ساجدون ، لربنا حامدون ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده .

## ما نزل من الآيات فى غزوة الأحزاب

وقد انزل الله سبحانه فى هذه الغزوة بضع عشرة آية من سورة الأحزاب وإليك تفسيرها موجزا :

قال عز شأنه « يا أيها الذين آمنوا » خطاب للمؤمنين الذين هم أهل العبرة والذكرى « اذكروا نعمة الله عليكم » وهى رجوع الأحزاب مدحورين

---

(١) الكراع : الخيل : الخف الابل

مخذولين . ورجوعكم منصورين آمنين « إذ جاءتكم جنود » قريش وغطفان وأتباعهما « فأرسلنا عليهم ريحا » عاصفة فى ليلة مطيرة فضربت أجسامهم واقتلعت خيامهم ، وأطفأت نيرانهم ، وكفأت قدورهم وجنوداً لم تروها » هم الملائكة ألقوا فى قلوبهم الرعب والخوف فذهبت معنوياتهم ورجعوا « وكان الله بما تعملون بصيرا ) بتاء الخطاب أى من نصرة نبيكم فيجازيكم أحسن الجزاء وقرىء فى السبع بالياء أى من تأليبهم على نبيه وتحزبهم عليه فهو وعيد لهم .

ثم صور سبحانه ما نزل بهم من بلاء وشدة لتعظم النعمة بأبلغ عبارة فقال : ( إذ جاءوكم من فوقكم ) هم قريش وغطفان وأحلافهما ( ومن أسفل منكم ) هم بنو قريظة لما نقضوا العهد وأرادوا أن يطعنوهم من ظهورهم[1] ( واذ زاغت الابصار ) فلا تثبت ولا تستقر على حال من شدة الخوف ( وبلغت القلوب الحناجر ) لما كان من شأن الخائف المذعور أن تنتفخ رئتاه فتضغطان على القلب فيرتفع قليلا كنى بذلك عن شدة الخوف ( وتظنون بالله الظنونا ) الحسنة من جانب المؤمنين وهى أن الله ناصر رسوله مهما اشتد البلاء والجهد ، والسيئة من جانب المنافقين وضعفاء الايمان الذين زعموا أن الله خاذل رسوله ودينه.

( هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ) تصوير بالغ فى الاعجاز لما اعتراهم من الضيق والانحصار بين عدوين لدودين . الاحزاب واليهود .

ثم قص الله سبحانه ماقاله المنافقون وضعفاء الايمان فقال : ( واذ يقول المنافقون ، والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ) باطلا

---

(١) وقيل : « من فوقكم » بنو قريظة ، ومن أسفل منكم . قريش وغطفان ، وقيل من فوقكم عيينه بن حصن ومن معه ومن أسفل منكم أبو سفيان ومن معه ، والاول أولى . ويشهد له ماروواه الحاكم عن حذيفة قال: ( لقد رأينا ليلة الاحزاب وأبو سفيان ومن معه من مكة من فوقنا ، وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة أشد ظلمة ولا ريحا منها فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون : إن بيوتنا عورة . فمر بى النبى ولم يبق معه الا ثلاثمائة فقال. ( اذهب وأتينى بخبر القوم) ودعا لى فاذهب الله عنى القر والفزع فدخلت عسكرهم ، فاذا الريح فيه لا تجاوزه شبرا . فلما رجعت رأيت فوارس فى طريقى فقالوا اخبر صاحبك — أن الله عز وجل كفاه اليوم ) فتح البارى ج ٧ ص .

وزخرفا من القول ويمثل هؤلاء من قال : إن محمدا يعدنا ملك ملك كسرى وقيصر ولا يقدر الواحد منا أن يذهب الى الغائط وهناك طائفه أخرى وهم عبدالله بن أبى وأصحابه حرضت على الرجوع الى المدينة متعللين بالتعلات الباطله وهم المعنيون بقوله سبحانه ( إذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ) يثرب هى المدينة وكانت تعرف بهذا فى الجاهلية وسماها النبى ( طابة ) و ( طيبة ) وهناك طائفة ثالثة اعتذرت بالأعذار الواهية وهم المرادون بقوله سبحانه ( ويستأذن فريق منهم النبى يقولون : إن بيوتنا عورة ) يعنى مكشوفة للعدو والسراق غير محصنة وهم قوم من بنى حارثة ويمثلهم أوس بن قيظى ، وقيل هم قوم من بنى حارثة وبنى سلمة : وقد أكذبهم الله فى هذا فقال : ( وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً ) .

ثم بين سبحانه أن القائلين ذلك قوم جبناء لا ينتصرون لدين ولا حق ولا فضيلة ولاتهمهم إلا أنفسهم فقال سبحانه : ( ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها ) بالمد أى لاعطوها وبغيره أى لجاءوا بها والمراد بالفتنة الشرك والردة ، أقطارها : جوانبها وهى المدينة ( وما تلبثوا بها إلا قليلا ) يعنى أنهم لو سئلوا الفتنة لما تريثوا فى الإجابة إلا قليلا ثم أعطوها وهذا يدل على نفاقهم وضعف اعتقادهم ( ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ) هم بنو حارثة هموا أن ينكصوا يوم أحد مع بنى سلمة فثبتهما الله ثم عاهدا الله أن لا يعودوا لمثلها أبداً ، فلما كانت غزوة الأحزاب نكصوا وعادوا لما هموا به .

ثم بين سبحانه لهم أن الجبن لا ينجى من القدر ، وأن الموت بسيف ، أو بدونه لا بد أن يكون ؛ وهبوا أنكم فررتم من أسباب الموت فما تتمتعون فى الحياة إلا قليلا ، فان الحياة مهما طالت فهى قصيرة ، وعمر تأكله ذرات الدقائق والثوانى وإن كثر فهو قليل فقال ( قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا ) ثم بين سبحانه أن الموت والحياة ، والخير والشر بيد الله ، ولو أراد الله بكم سوءاً نزل بكم ، ما عصمكم منه أحد

منكم ولو أراد بكم خيراً ما منعه أحد عنكم، فقال ( قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا ) وليا ينفعكم ونصيراً يدفع الضر عنكم .

ثم قال سبحانه ( قد يعلم الله المعوقين منكم ) المنكصين من القتال ونصرة الإسلام ( والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ) هلم : تعالوا ، البأس : الحرب وهم عبدالله بن أبى ومن رجع معه إلى المدينة فلم يكتفوا بزلتهم بل حاولوا استزلال غيرهم إلى القعود عن نصرة رسول الله ( أشحة عليكم ) بخلاء بالمعونة والانفاق فى سبيل الله ثم صور الله جبنهم أبلغ تصوير بقوله : ( فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ) جاء الخوف أى أسبابه لم تستقر أعينهم على حال كالذى غشيته سكرات الموت ( فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ) نالوكم بألسنة بذيئة سليطة ( أشحة على الخير ) يعنى أن شحهم عليكم إنما هو لأن أنفسهم شحيحة بالخير ( أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ) فان من شأن النفاق أن يحبط الله به الأعمال فلا ثواب لها ، ثم بين الله شدة خوفهم وجبنهم فقال : ( يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب — يعنى مرة ثانية — يودوا لو أنهم بادون فى الاعراب ) أى مقيمون فى البادية حتى لا يصيبهم أذى ( يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا ) يعنى أنهم حتى وهم مقيمون بالبادية لايجرءون أن يتعرفوا أخباركم بأنفسهم ، بل يتعرفونها ممن يأتى من ناحيتكم ومثل هؤلاء لاترجون قتالهم معكم ونصرتهم لكم ، لانهم إن قاتلوا فمراءاة وسترا لنفاقهم وتضليلا لغيرهم .

ثم أقبل على المؤمنين فقال : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثير » .

الاسوة بضم الهمزة وكسرها : القدوة ورسول الله صلى الله عليه وسلم محل القدوة فى الصبر على الشدائد ، والثبات فى الحروب ، والصدق عند اللقاء ، وفى كل شىء محل الائتساء : وإنما يأتسى برسول الله الذين يرجون رحمة الله وثواب

الآخره ولا ينفكون عن ذكر الله ، ومثل هؤلاء قلوبهم حاضرة ، وضمائرهم حية ، وأعمالهم كلها خير وصلاح .

ثم ذكر الله سبحانه المؤمنين وصدقهم فى عقيدتهم ، وتصديقهم بما وعدهم الله ورسوله مهما عظم البلاء ، وأن ذلك لايزيدهم إلا ثباتاً على الايمان ، وصبرا على البلاء ، وتسليما للقضاء ، فقال سبحانه : ( ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما ) فانظر الفرق بين الصورتين : صورة المؤمنين المشرقة ، وصورة المنافقين المخزية، ثم بين سبحانه أن من المؤمنين من سبق إلى الشهادة ، ووفى بعهده ، وأن منهم من ينتظرها ويترقبها ، وأن هؤلاء وأولئك صدقوا الله بالايمان ، وثبتوا على الوفاء فقال عز شأنه ( من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ) النحب : النذر اللازم ، وقد أريد به هنا الموت ، وكأن المجاهد الذى خرج مخاطرا بنفسه فاستشهدوا قد نذر نفسه لله ، ثم وفى بنذره ومن هؤلاء الذين قضـــوا نحبهم من استشهدوا فى بدر وأحد وغيرها.

ثم بين سبحانه أن الغاية من البلاء والاختبار بالمحن والشدائد أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق فيجازى الأول خيراً والثانى شرا فقال: (ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم — يعنى إن تابوا — إن الله كان غفورا رحيما ) ثم ختم الله القصة بتذكيرهم بنعمة الله عليهم بهزيمة الأحزاب . وارتدادهم صاغرين فقال : ( ورد الله الذين كفـــروا بغيظهم لم ينالوا خيرا — نصرا — وكفى الله المؤمنـين القتال وكان الله قوياً عزيزا ) ومن كان ملاذه القوى العزيز الذى لايغالب فقـــد آوى إلى ركن شديد وحليف عظيم .

# زواجه صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش

هى السيدة زينب بنت جحش الأسدية أخت شهيد أحد المجدع فى الله عبدالله بن جحش وأمها السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهى من أوسط العرب دارا ونسبا ، تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن طلقها مولاه زيد بن حادثة وقد حقق الله سبحانه بذلك غرضين شريفين إبطال حرمة زوجة الإبن المتبنى والقضاء على غنجهية الجاهلية بالاعتزاز بالأحساب والأنساب ، ذلك أن العرب كان من عادتهم التبنى ، وكانوا يلحقون الابن المتبنى بالإبن العصبى وتجرى عليه حقوقه فى الميراث وحرمة زوجه على من تبناه ، وكانت تلك العادة متأصلة فيهم كما كان كبيرا عندهم أن تتزوج بنات الاشراف من موال وإن أعتقوا وصاروا احرارا : فلما جاء الاسلام كان من مقاصده أن يزيل الفوارق بين الناس التى تقوم على العصبية وحمية الجاهلية ، فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب لافضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، وأن يقضى على بدع الجاهلية ، وقد شاء الله أن يكون أول عتيق يتزوج بعربية فى الصميم من العرب هو زيد بن حارثة ، وأن يكون أول سيد يبطل هذه العادة الجاهلية هو رسول الله : فما على بنات الأشراف أن يتزوجن بعد من الموالى وهذه زينب بنت جحش قد اقترنت بزيد ، وما على سادات العرب أن يتزوجوا بازواج أدعيائهم بعد فراقهم لهن ، وإمام المسلمين ومن يصدع بأمر الله قد فتح هذا الباب الموصد ، وتزوج حليلة متبناه بعد فراقها وقد كان ما أراده الله فى تشريعه الحكيم !!

فرسول الله يخطب زينب لزيد فتأنف وتأبى ويأبى بعض أهلها ، وينزل الوحى من السماء بقوله تعالى ، ( وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ) (١) فلم يكن بد من الاذعان والخضوع لما أراد الله

---

(١) الأحزاب/٣٦

ورسوله . فيتزوجها زيد ، ولكنه وجد منها تعاظما وترفعا ، وكان يؤذيه ذلك ، فرغب فى فراقها وذهب إلى النبى ﷺ يعرض عليه طلاقها وكان ينصحه بامساكها ، وكان جبريل قد أخبر رسول الله بأن زينب ستكون من أزواجه وسيبطل الله بزواجه منها هذه العادة الجاهلية ، ولكن النبى وجد غضاضة على نفسه أن يأمر زيداً بطلاقها ثم يتزوجها ، فتشيع القالة بين الناس أن محمدا تزوج حليلة ابنه كما كان يدعى فى الجاهلية ، ويصير عرضة للقيل والقال ، وإرجاف المرجفين ، وهو فى دعوته إلى الله أحوج إلى تأييد المؤيدين ، وقطع طريق التقول عليه من المبغضين ، فهذا القدر من خشية الناس حتى أخفى فى نفسه ما أظهره الله بعد من تزوجه بها هو ماعاتبه الله عليه ، وقد صدع الوحى بالسبب الباعث على زواج النبى منها فقال عز شأنه « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ـ يعنى بالإسلام وهو زيد — وأنعمت عليه — يعنى بالعتق — أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا كها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا »[1] ثم رد الله سبحانه على من عسى أن يتقول على النبى بسبب زواج النبى من زينب أو من غيرها من أمهات المؤمنين ، ويفترى عليه فقال : « ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدوراً ، الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبا »[2] نعم هذه سنة الله فى الأنبياء السابقين فقد كان لداود مائة من الزوجات فضلا عن السرارى وكان لسليمان مايزيد عن المائة فلئن كان لخاتم الأنبياء أكثر من أربع فليس ببدع من الرسل . ثم بين الله بطلان التبنى وبطلان ما يترتب عليه من الحقوق

---

(١) الاحزاب ٣٧

(٢) الاحزاب ٣٨ ـ ٣٩

والآثار فقال عز شأنه «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما»[١] كما بين الله سبحانه ابطال التبنى فى الإسلام ، وبين أنه لايستقيم فى منطق العقل أن يكون دعيا وابناً فقال عزشأنه « ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم[٢] أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ،والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ، أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما[٣]

ومن بعدها صار يدعى مولى النبى «زيدبن حارثة» ولايقال « زيدبن محمد» وكذلك صنع المسلمون فى مواليهم .

## «الروايات الصحيحة تؤيد ماذكرناه»

وهذا الذى ذكرناه فى تفسير الخشية هو ماجاءت به الروايات الصحيحة والحسنة ففى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه أن هذه الآية « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة وفى رواية أخرى عنه قال : جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » قال أنس: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية ) يعنى لما فيها من عتاب ، وهذا من أكبر الأدلة على أنه نبى يوحى إليه قال الحافظ الكبير بن حجر فى فتح البارى[٤] تعليقا على رواية البخارى :«وقدأخرج ابن أبى حاتم هذه القصة من طريق السدى فساقها سياقا واضحا حسنا ولفظه « بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش،وكانت أمها أميمة بنت عبدالمطلب

---

(١) الأحزاب ٤٠ (٢) جمع دعى وهو المتبنى

(٣) الأحزاب ٤ ، ٥ (٤) ج ٨ ص ٤٢٥

عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك ثم رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجها إياه، ثم أعلم الله عز وجل نبيه بعد أنها من أزواجه فكان يستحى أن يأمر بطلاقها وكان لا يزال بين زيد وزينب ما يكون بين الناس فأمره رسول الله أن يمسك عليه زوجه، وأن يتقى الله وكان يخشى أن يعيب عليه الناس ويقولوا : تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيدا . وروى ابن أبى حاتم أيضا والطبرى عن على بن الحسين بن على قال : أعلم الله نبيه أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها فلما أتاه زيد يشكوها وقال له « اتق الله وأمسك عليك زوجك » قال الله : قد أخبرتك أنى مزوجكها وتخفى فى نفسك ما الله مبديه .

وهذا ماذهب إليه المحققون من المفسرين وغيرهم فى تفسير الخشية كالزهرى، والقاضى بكر بن العلاء القشيرى، والقاضى أبى بكر بن العربى والقاضى عياض فى الشفا.(١) والحافظ المؤرخ ابن كثير فى التفسير والبداية والنهاية .

« روايات واهية مدسوسة » .

ورويت روايات واهية ساقطه فى بعض كتب التفسير والقصص التى لا تعنى بالنقد والتمييز بين الروايات مثل ما روى عن قتادة وابن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى بيت زيد فى غيبته فرأى زينب فى زينتها، وفى رواية: أن الريح كشفت عن ستر بيتها فرآها فى حسنها فوقع حبها فى قلبه، فرجع وهو يقول : سبحان الله العظيم، سبحان مقلب القلوب فلما حضر زيد أخبرته بكلام رسول الله، فذهب إليه وقال : بلغنى أنك أتيت منزلى فهلا دخلت يارسول الله، لعل زينب أعجبتك فأفارقها فقال له رسول الله: أمسك عليك زوجك واتق الله، فنزلت الآية « وإذ تقول . . . » وقد ذكر هذا الهراء فى تفسير الجلالين، والزمخشرى، والنسفى وابن جرير والثعلبى إلا أن ابن جرير ذكر بجانب هذا الباطل المكذوب رواية على بن الحسين الآنفة وهى الصحيحة .

---

(١) تفسير القرطبى، والالوسى عند تفسير هذه الآية .

وذكر مثل هذه الروايات الباطلة عقلا ونقلا غفلة شديدة وقد تذرع بها أعداء الإسلام فى التهجم على النبى ، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم متهم بالكذب والتحديث بالغرائب ورواية الموضوعات ، وقد تنبه لزيفها وبطلانها الكثيرون من المحدثين ، والعلماء الراسخين قال الحافظ ابن حجر فى الفتح[1] بعدماذكر الصحيح فى تفسير الحشية «ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبى حاتم والطبرى، ونقلها كثير من المفسرين ، لا ينبغى التشاغل بها ، وما أوردته هو المعتمد» وقال الحافظ بن كثير فى تفسيره[2] عند تفسير هذه الآية: « ذكر ابن أبى حاتم، لا ابن جرير هنا آثارا عن بعض السلف رضى الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحا لعدم صحتها فلا نوردها» .

## « اباطيل المبشرين والمستشرقين »

وقد نسج المستشرقون والمبشرون المحترفون الذين يتأكلون بالأختلاق على الإسلام ونبيه ، من تلك الروايات الواهية المردودة أثوابا من الكذب والخيال ، وصوروا النبى صلوات الله وسلامه عليه بصورة الرجل الذى لاهم له إلا إشباع رغباته الجنسية ، والجرى وراء النساء يقول الدكتور محمد حسين هيكل — رحمه الله — « ويطلق المبشرون والمستشرقون لخيالهم العنان حين يتحدثون من تاريخ محمد فى هذا الموضوع حتى ليصور بعضهم زينب ساعة رآها النبى وهى نصف عارية أو تكاد ، وقد أنسدل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يكنة من كل معانى الهوى ، وليذكر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب وكانت ممدة على فراشها فى ثياب نومها ، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها فكتم ما فى نفسه ، وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلا ! ! وأمثال هذه الصور التى أبدعها الخيال كثيرا تراه فى موير ، وفى درمنجم وفى واشنطن ارفنج وفى لامنس وغيرهم من المستشرقين

---

(١) ج ٨ ص ٤٢٥

(٢) ج ٥ ص ٥٦٠

والمبشرين »[1] وكذلك صوروا النبي بصور الرجل الشهواني الغارق في لذات الجسد ، الذي لم يكتف في الزواج بواحدة ولا بأربع بل أطلق لنفسه العنان في التزوج بالنساء ، ومن هؤلاء القسيس « فندر » في كتاب له حشاه بالجهل والسفه ، والزور والبهتان ، والتجني الآثم على النبي صلى الله عليه وسلم .

« تهافت كلامهم »

ما اتفق خصوم الاسلام على شيء كما اتفقوا على تشويه سمعة النبي في موضوع تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم وقد اعتمد هؤلاء في طعنهم على بعض ما أطلعناك عليه من روايات مختلفة مدسوسة عند أئمة النقد وعلماء الرواية ، أغلب الظن أنها من صنع أسلافهم من اليهود والزنادقة من الفرس وغيرهم الذين عجزوا أن يقاوموا سلطان الاسلام وقوته ، فلجأوا إلى الكذب والدس ، وجاز هذا الزور على بعض الأغرار من المسلمين ، فرووه وذكروه في كتبهم ، ولكنه ما كان يخفى على العلماء الراسخين فنبهوا على كذبه ، وحذروا من التصديق به ، وهكذا نرى أنهم أقاموا من مزاعمهم قصرا على أساس من خيوط العنكبوت وما أوهنها من أساس .

وثمة حجة دامغة تذهب بالقصة من أساسها ، فالسيدة زينب هي بنت عمة رسول الله ، وقد ربيت على عينه ، وشهدها وهي تحبو ، ثم وهي شابة ، وله بحكم صلة القرابة معرفة بها وبتفاتنها ؛ ولاسيما أن النساء كن يبدين من محاسنهن ما حرمه الاسلام فيما بعد ، وهو الذي خطبها لمولاه زيد فتمنعت حتى نزل الوحي أن لا خيرة لأحد بعض قضاء الله ورسوله ، فغير معقول والحال كما ذكرت أن لا يكون شاهدها ، فلو كان يهواها ، أو وقعت من قلبه فأي شيء كان يمنعه من زواجها من أول الأمر ، وأشارة منه كانت كافية لأن يقدمها له أهلها وما ملكت ، فمثله وهو في الذروة من قريش نسبا ودينا وخلقا وخلقة وصحة ممن تتطاول إليه الأعناق وتهفو القلوب ، فلو كان كما يزعم المتخرصون تمتد عينه إلى كل من يهوى ويستحسن لتزوجها وهي بكر

---

(١) حياة محمد ص ٣٠٨

عذراء لا آن يسكت حتى يجنى جناها ويقطف زهرتها رجل مولى له ، ثم بعد ذلك يرعى حيث رعى فلولا أنه يتزوج لتشريع أو لحكمة سامية لما رضى بذلك .

وأيضا فحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن حياة حب واستهتار ولا عرف عنه أنه كان صريع الغوانى وإنما كانت حياة الشرف والكرامة والعفة والترفع عن الدنايا قبل نبوته وبعدها ، ماعرفت الدنيا أطهر ذيلا منه ولا أعف منه ، ولا لمست يده قط يد امرأة لاتحل له ، ولما بايع النساء على الايمان والطاعة ، ونبذ المعاصى والفجور بايعهن بدون مصافحة ، مع أن المصافحة كانت من ملازمات البيعة والمعاهدة فى الجاهلية والاسلام ، وكيف يكون على ذلك الخلق الذى لا نرضاه لرجل من سوقة الناس فضلا عن أنبياء الله ورسله — من خاطبه مولاه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ولو كان رسول الله متيما بالنساء ومغرما بمفاتنهن — كما زعموا — لأشبع رغبته بالأزواج الكثيرات وهو فى ميعة الصبا وشرخ الشباب أيام أن كان الغيد الكواعب ، والخيرات الحسان من بنات الأشراف تشرئب أعناقهن إلى أن يكن حليلات له ، ولاسيما وأن التعدد عند العرب فى الجاهلية لم يكن له حد محدود ، ولكنه قضى زهرة شبابه ، ومعظم حياته الزوجية مع سيدة كانت عند اقترانه بها تعدو الأربعين ، ورضيها قانعاً بها حتى توفاها الله قبيل الهجرة ، ومهما قيل فى السيدة خديجة ، وما كانت تتمتع به من جمال فى شبابها فهناك — ولاشك — غيرها من الأبكار الشابات من يفقنها فى الجمال وللابكار ما لهن من جاذبية وروعة وسحر ، ومن قضى بغير ذلك فقد خالف سنة الله فى الفطرة .

## « تعدد الزوجات سنة من سنن الأنبياء »

وأحب أن أقول للمبشرين ، والمستشرقين ، وأبواقهم المتابعين لهم : إن تعدد الزوجات سنة من سنن الأنبياء والمرسلين ، وإن التسرى فى الحروب ليس بدعا فى الإسلام ، فقد نصت التوراة التى يعترف بها هؤلاء على إباحة تعدد الزوجات والسرارى بدون تحديد ، ففى التوراة : إذا خرجت لمحاربة أعدائك ،

ودفعهم الرب إلهك إلى يدك، وسبيت منهم سبيا، ورأيت فى السبى امرأة جميلة الصورة، والتصقت بها، واتخذتها لك زوجة فحين تدخلها إلى بيتك تحلق رأسها، وتقلم أظفارها، وتنزع ثياب سبيها عنها، وتقعد فى بيتك، وتبكى أباها، وأمها شهرا من الزمان، ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها، فتكون لك زوجة، وإن لم تسر بها فأطلقها لنفسها[1] » .

وقد نصت التوراة على أن إبراهيم أبا الأنبياء عددا لزوجات، وجدعون وهو من الأنبياء عند اليهود تزوج نساء كثيرات جمع بينهن أما داود فقد نصت على أنه تزوج سبعا ذكرتهن بأسمائهن، ثم قالت : إنه تزوج غير ذلك نساء كثيرات، واتخذ سرارى بدون قيد[3] وكذلك نصت التوراة على كثرة نساء نبى الله سليمان ـ عليه السلام ـ وكثرة سراريه كثرة تفوق الحد .

ففى التوراة : « وكانت له ـ سليمان ـ سبع مئين من النساء السيدات، وثلاث مئين من السرارى)[4] .

فإذا كان تعدد الزوجات، والسرارى مباحا بنص التوراة التى يقدسونها لأنبيائهم، فكيف اعتبروه نقيصة، ومطعنا لسيد البشر، وخاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه ؟ ! !

ومن قبل طعن أسلافهم اليهود فى النبى بسبب هذا فرد عليهم القرآن أبلغ رد، وذكرهم بأن التعدد سنة من سنن الأنبياء والمرسلين الذين كانوا قبله روى أن اليهود عيرت رسول الله ﷺ، وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء، والنكاح، ولو كان نبيا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء[5]، فأنزل الله سبحانه فى الرد عليهم قوله : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك، وجعلنا لهم

---

(١) سفر التثنية — الإصحاح ٢١ فقرة ١٠ ومابعدها

(٢) سفر صموئيل الثانى — الاصحاح ٣ فقر ٣٠ — ٥، وسفر صموئيل الأول الاصحاح ١٨ (٣) سفر صموئيل الثانى — الاصحاح ١٥ فقرة ١٣

(٤) سفر الملوك الأول — الاصحاح ١١ فقره ٣ (٥) تفسير الالوسى ح ١٣ ص١٦٨ ط منير

أزواجاً ، وذرية ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب»(٢) فقد ألقمهم هذا الرد حجرا ، وباءوا بالخزى والبهتان .

وأرى من المناسب هنا أن أبين أن التوراة والقرآن ، وأن إباحا تسرى المسبيات فى الحروب والتزوج بهن ، ولكن شتان ما بين أدب التوراة فى الاسترقاق والتسرى . وأدب القرآن ، والفرق بينهما فرق ما بين شريعة مؤقتة لزمن خاص، وبين شريعة عامة خالدة ، وهى شريعة القرآن، والإسلام لا يبيح حلق الرأس!! ولا تقليم الأظافر ! ! ولا الأستذلال !! وما الاسترقاق ، والتسرى فى الإسلام إلا لون من ألوان التربية ، ، والبر ، والإحسان ، وقد رأيت كيف أكرم النبى جويرية بنت الحارث المصطلقية ، وسترى كيف عامل صفية بن حيي النضرية ، وريحانة اليهودية القرظية ، ومارية القبطية المصريه .

« الحكمة فى تعدد زوجاته عليه الصلاة والسلام »

ولو أن هؤلاء الطاعنين بحثوا بحثا مجردا عن الهوى والتعصب فى أسرار تعداده صلوات الله وسلامه عليه لأزواجه لكبروا إعجابا لنبل المشاعر الإنسانية عند الرسول ، ولكنه الهوى يعمى ويصم ، فلم يكن زواج رسول الله بزوجاته إلا لحكم عاليه ومقاصد سامية ، وهناك حكم عامة وحكم خاصة.

الحكم العامة :

( ١ ) إن نبينا محمدا صلوات الله وسلامه عليه هو خاتم الأنبياء والرسل ، ودينه خاتم الأديان ، وشريعته عامة لكل البشر فى كل زمان ومكان ، وكان حريصا غاية الحرص على أن تبلغ عقائد هذا الدين، وشرائعه، وآدابه .وأخلاقه إلى جميع البشر رجالا ونساء . وكبارا وصغارا ، وقد كانت زوجاته خير معوان له على تحقيق هذا الواجب الذى هو من أهم واجبات الرساله ، وهو التبليغ ، ولا سيما فيما يتعلق بحياة النبى صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيئية مما هو

---

(٣) الرعد /٣٨

مناط التشريع ، ولا يعتبر من أسرار الحياة الزوجية وطبيعى أنه لا يمكن أن يبلغ ما يتعلق بهذا إلا زوجاته صلى الله عليه وسلم ، لأن أصحابه مع حرصهم على تبليغ كل ما يصدر عنه إلا أنهم ما كانوا ليطلعوا على حياته فى بيتـــه ومعاشرته أزواجه .

وقد كن رضى الله عنهن مصابيح هداية وإرشاد . ووسائل تبليغ فى حياة النبى وبعد وفاته ومن يطلع على كتب الاحاديث والسنن يعلم إلى أى حد تحدثن وروين ، وأفتين فى مسائل مما يتعلق بالمباشرة الزوجية ، والمضاجعة وآدابها . والإكسال بعد الجماع والاغتسال بعده أو عدم الاغتسال ، والقبلة أثناء الصوم وكيف يتمتع الرجل بامرأته أثناء الحيض والنفاس من غير المباشرة المحرمة إلى غير ذلك مما يجب على كل مسلم ومسلم معرفته وإلا وقع فى الإثم والحرج من حيث لا يدرى .

والمرأة بحكم فطرتها وحيائها تركن إلى المرأة وسؤالها فى مثل هذا من غير تحرج أو استحياء ولم يقتصر استفتاؤهن وسؤالهن عما يشكل وبخاصة فيما يتعلق بحياة النبى الزوجية على النساء بل كان كبار الصحابة يرجعون إليهن فى ذلك ولا سيما السيدة عائشه رضى الله عنها روى عن مسروق أنه قال « رأيت مشيخة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يسألونها عن الفرائض »

وروى أبو بردة بن أبى موسى الاشعرى عن أبيه قال « ما أشكل علينـا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أمر قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما » وروى هشام بن عروة عن أبيه قال : « ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا طب ولا شعر من عائشة » وكذلك كانت زوجات النبى صلى الله عليه وسلم فى العلم والفقه وإن تفاوتن فى ذلك » ولم يبلغن مبلغ السيدة العاقلة العالمة المبرأة من فوق سبع سموات الصديقة بنت الصديق رضى الله عنها ـ ومنهن من عاشت بعد النبى صلى الله عليه وسلم ما يقرب من نصف قرن تنشر الهدايه والعلم كالسيدة عائشة رضى الله عنها .

فقد توفت سنة ثمان وخمسين للهجرة والسيدة أم سلمى رضى الله عنها ـ فقد

توفيت سنة اثنين وستين للهجرة وهكذا نرى أن تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم كان ضرورة دينية لامحيص عنها

(٢) إقامة الحجة على أنه صلى الله عليه وسلم نبي حقاً فقد توفى عن تسع نسوة وقع ذلك فلم يشغله هذا التعدد عن القيام بتبليغ شريعه ربه ونشر دينه فى حياته حتى عم الجزيرة العربية كلها وماجاورها من أطراف الممالك الأخرى. وإن الإنسان المنصف ليعجب حقاً من هذا إن الواحد منامهما بلغ من العقل وحسن الكياسة تكون عنده الزوجة فضلا عن الثنتين والثلاث والأربع ومع ذلك يكون فى هم من شأنها وإرضائها ويكون فى حيرة من التوفيق بين القيام بحقوقها وحقوق بنيها والقيام بأمور معاشه ومعادة وما كل إليه من المهمام وهذا رسول الله صلى عليه وسلم قد جمع بين تسع فى حياته وهن مختلفات السن والطبائع والأمرجه ومع هذا فقد قام بأعباء الرسالة خير قيام وأنها لبطولة حقاً تستحق الأعجاب لا الغمز واللمز الاعتراض.

أيضاً فإن الواحد مناً تكون عنده الزوجتان فيحار كيف يوفق بينهما ويتعذر عليه الاستحواذ على رضائهما والعدل بينهما وهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت عنده تسع نسوة فوفق بينهن وأكتسبن رضاه حتى كن يتسابقن فى ذلك وذلك بسبب سعة عقله صلى الله عليه وسلم ورحابة صدره وحسن خلقة وبعد نظره وعجيب سياسته وكمال كياسة ولست أغفل هنا أمر امهما أعانه صلى الله عليه وسلم على كل هذا وهو أنهن رضى الله عنهن كن خيار نساء هذه الأمة دنيا وخلقا، وعلما وعملا، طلباً لمرضاة الله ورسوله حسبما أشار إليه الحق تبارك وتعالى فى قوله «يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن فى بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وأتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً، واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة الله كان لطيفا خبيراً»[1].

---

(١) الأحزاب ٣٢-٣٤

ولعلك تعجب معى إذا علمت أن هذه الحياة الزوجية الطويلة مع هذا العدد الكثير لم يحص الرواة على كثرة تتبعهم لسيرة النبى عليه الصلاة والسلام واستقصائهم لاخباره ، وأخبار أهل بيته — إلا حادثتين ، أو ثلاث عكرت من صفو هذه الحياة الزوجة المثالية ، وسأعرض لها فى آخر الكتاب تحت عنوان «النبى الزوج»

(٣) من الحكم العامة الوقوف على استواء سرة ، وعلنه صلى الله عليه وسلم ، وأنه فى معاملته لأهله كمعاملته لصحبه ، وأنه لايحكم تصرفة فى هذا إلا التدين الصادق ، والخلق الكريم ، ومراقبة الله فى السر والعلن ، إذ الشأن فى النساء أن لايحفظن سراً كيفما كان ، فلو كان منه صلى الله عليه وسلم فى السر ما يخالف العلن لعلمنه ، ولو علمنه لأذعنه بمقتضى طبائعهن البشرية ، وهذا أمر معهود فى النساء ، ولاسيما الضرائر ، ولكن لم يكن شىء من هذا ، فكان ذلك من الأدلة على أنه نبى حقا ! !

إن كثيراً من الزعماء ، والساسة ، ورجال الاصلاح يخالف ظواهرهم بواطنهم ، وعلانيتهم سرهم ، مما يسجل عليهم النفاق ، والخداع ويعود عليهم بالنقص والمؤاخذه ، ويبين الفرق الشاسع بين النبى وغير النبى ، وبحسبنا هذا فى الحكم العامة .

« الحكم الخاصة » أما السيدة خديجة رضى الله عنها لأنها أول زوجة فهو زواج الفطرة ، وكذلك السيدة سودة بنت زمعة لايسال عنها أيضاً ومع ذلك فقد كان فى زواجه صلى الله عليه وسلم منها تكريم لها ، وللاسلام والعقيدة فى شخصها ، وشخص زوجها الذى مات عنها بعد رجوعهما من هجرة الحبشة الثانية ولم يكن له عند تزوجها غيرها ، لأن ذلك كان بعد موت السيدة خديجة ، ولم تكن ذات جمال بل كانت ذات عيال ، وقد أبدت للنبى إشفاقها عليه من زواجها بما يسببه له صبيتها من إقلاق راحة فأبدى لها ترحيبا بأولادها أما زواجه بعائشة وحفصه فجاء توكيداً للعلاقة والإخاء بينه وبين وزيريه أبى بكر وعمر وليس أدل على هذا بالنسبة لحفصة أن أباها عمر دخل عليها وهى

تبكى فقال لها : لعل رسول الله طلقك ، لقد طلقك مرة ثم راجعك من أجلى والله لو طلقك مرة ثانية لا أكلمك أبدا ،

وزواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة التى كانت تلقب بأم المساكين لكثرة تصدقها عليهم وبرهابهم تكريم لهذا الخلق الكريم فيها ، وتكريم للشهادة فى شخص زوجها الذى توفى عنها .

وزواجه بالسيدة أم سلمة جبر لكسرها وتعويض لها عن فقد عائلها الذى مات عنها بعد أحد بشهور ، وعرفان لتضحياتها وتضحيات زوجها أبى سلمة فى سبيل الله والإسلام فقد هاجرا إلى الحبشة ، وكانا أول مهاجرين إلى المدينة ومهما قيل فى أم سلمة ، وأنها كانت ذات جمال فى شبابها فقد كان فى كبر سنها ، وما مرت به من أحداث جسام ، وما أنجبت من أولاد ، وما رزئت به من فقد الرجل الذى كانت تقول فيه : ومن خير من أبى سلمة؟ما يذوى هذا الجمال ، إن لم يذهب به .

وزواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق كان لحكمة سامية جداً ، فقد كان هذا سببا فى أن من الصحابة على من فى أيديهم من سبايا بنى المصطلق مما تسبب عنه إسلام أبيها وإسلام قومها فكانت أيمن امرأة على قومها .

وزواجه بالسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان حفظ لها من الضيعه وهى فى بلاد نائية عن بلاد قومها ، فقد تنصر زوجها عبيد الله بن جحش بالحبشة ومات بها ، وثبتت هى على عقيدتها فلم يكن أجمل مما فعله رسول الله معها ، وقد عقد عليها النبى وهى بالحبشة ، ولم يدخل بها إلا بعد خيبر عام سبع فكيف يكون هذا من رجل صار همه فى النساء وإشباع رغباته الجنسية منهن ؟!!

وزواجه بالسيدة زينب بنت جحش كان لما ذكرته آنفا من إبطال بعض عادات الجاهلية.

وأما زواجه صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيى بن أخطب فقد كانت فى سبى خيبر فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بها اصطفاها لنفسه ضناً بكرامتها

ومنزلتها فى قومها ، فأعتقها وتزوجها بعد ما انقضت عدتها وأحسن إليها غاية الإحسان فى عشرتها وكثيراً ما كان ينتصر لها عند ماتبدر من بعض أزواجه بادرة فى النيل منها ، وهذه غاية الانسانية والإحسان لامرأة طالما نال النبى والمسلمين من قومها شر كثير ، ولم يألوا جهداً فى محاربة دعوه الاسلام .

وأما زواجه من السيدة ميمونه بنت الحارث الهلالية فقد وثق به مابينه وبين قبيلة من أعز قبائل العرب وأشرفها ، وقد زوجها إياه عمه العباس وأصدقها عنه فى عمرة القضاء ، ودخل بها بعد أن حل كما كان فيه تكريم لعمه العباس ، وزوجه أم الفضل فقد كانت أختها ، وقد عرضت فيما سبق لزواج النبى بأغلبهن بافاضة وتوسع : وسأعرض فيما يأتى لمن بقيت منهن .

والعجب من هؤلاء المستشرقين المتعصبين ، والمبشرين المحترفين أنهم إذا وقعوا على ما يرضى أحقادهم ، ويشفى غليلهم من باطل الروايات ومتهافتها هللوا له وطبلوا ، وتجاهلوا البيئة وأحكامها ، والعادات وسلطانها إلى غير ذلك مما يتفيقهون به باسم العلم وقواعد البحث ، ولم يعيروا نقد السند أو المتن أية أهمية بينما يطيشون كثيرا فى الحكم على روايات فى غاية الصحة . بأنها موضوعة . ولا حامل لهم فى الحالين إلا الهوى والتعصب ، والحقد الموروث ، والتجنى الآثم .

«وبعد» فلعلك — أيها القارىء الفطن — قد تيقنت أن ساحة الرسول الكريم بريئة من كل ما زعموا وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال فأنى يؤفكون ؟!!

«خطبة النبى لزينب وفضلها» :

روى الإمام أحمد ومسلم بصندها عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب قال النبى ﷺ لزيد : اذهب فذكرها على[1] فانطلق حتى أتاها وهى تخمر عجينها قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، أن رسول ﷺ ذكرها فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى وقلت : يا زينب أبشرى أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر

---

(١) أخطبها لى من نفسها

ربى عز وجل ثم قامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بدون إذن » وقد علم الله سبحانه ما سيكون من أمر هؤلاء الطاعنين فألهم نبيه أن يرسل زيدا لخطبتها ليكون فيه قطع لألسنتهم ورد لفريتهم ، فهذا الإعظام لزينب لأن رسول الله رغب فيها ، وإبائه على نفسه أن يمتد إليها طرفه لن يكون من رجل ترك زوجته وهو كاره فراقها ، وقد كانت زينب رضى الله عنها تدل على زوجات النبى وتقول : « زوجكن أهلكن وزوجنى الله من فوق سبع سماوات ، وكانت زينب من المهاجرات الأول وكانت كثيرة الخير والصدقة وتصل الرحم ، وبحسبها وصف إحدى ضراتها لها وهى السيدة عائشة رضى الله عنها بالورع والتقوى كما مر فى حديث الإفك ) وكانت أولى زوجات النبى لحوقا به . روى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن عائشة أم المؤمنين قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرعكن لحوقا بى أطولكن يدا قالت فكن يتطاولن أينا أطول يدا قالت : فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق )[1] وقد توفيت سنة عشرين من الهجرة وصلى عليها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ودفنت بالبقع وهى أول أمرأة صنع لها القبة فوق النعش ليستر شخصها[2]

## نزول آية الحجاب صبيحة عرسها

ولما دخل بها النبى صلى الله عليه وسلم ، أولم يولم عليها مالم يولم على غيرها ، وكان ذلك سببا فى نزول آية الحجاب . روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما وغيرهما ـ واللفظ للبخارى ـ عن أنس رضى الله عنه قال : ( بنى على النبى صلى الله عليه وسلم بزينب أبنة جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعيا فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون ، ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعو فقلت يانبى الله ما أجد أحداً أدعوه ، قال : ارفعوا طعامكم وبقى ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت فخرج النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) فهمن ـ رضى الله عنهن ـ أن المراد بالطول الطول الحسى ثم ظهر لهن أن المراد الطول المجازى طول اليد فى الخير والبر (٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٤٩

فانطلق إلى حجرة عائشة فقال : « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله » فقال : وعليك السلام ورحمة الله ، كيف وجدت أهلك بارك الله لك ، فتقرى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشه ، ويقلن له كما قالت عائشة ثم رجع، النبى ﷺ فاذا ثلاثه من رهط فى البيت يتحدثون ، وكان النبى شديد الحياء فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة فما أدرى آخبرته أو أخبر أن القوم خرجوا حتى إذا وضع رجله فى أسكفة[1] الباب دأخله وأخرى خارجه أرخى الستر بينى وبينه وانزلت آية الحجاب » والمراد بها قوله تعالى :« يا أيها الذين آمنو لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ـ نضجه ـ ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، أن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » ولما نزلت قال بعضهم : أنتهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب؛لئن مات محمد لأتزوجن عائشةفنزل تتمة الآية السابقة »وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما »[2] وقد كان نزول آية الحجاب من موافقات عمر رضى الله عنه . روى البخارى فى صحيحه عن أنس قال : قال عمر رضى الله عنه : قلت : يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب »[3]

## « تشريع الحجاب فى الاسلام »

وبنزول هذه الآية كان تشريع الحجاب فى الإسلام بالنسبة لأزواج النبى والمراد عدم إبداء شىء من أجسامهن للأجانب عنهن ، وعدم محادثتهن أو

---

(١) الأسكفه بضم الهمزة وسكون السين وضم الكاف وفتح الفاء المشددة عتبة الباب السفلى

(٢) الأحزاب ٥٣

(٣) صحيح البخارى ـ كتاب التفسير سورة الأحزاب ـ باب للا يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى

طلب شيء منهن إلا من وراء حجاب أى ستر يكون بينهن وبين غيرهن ، ولما نزلت قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ : ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب ؟ فأنزل الله قوله : لاجناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ، ولا إخـوانهن ، ولا أبناء إخوانهن ، ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ، ولا ماملكت أيمانهن ، واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا »(١)

ونزل أيضا فى شأن نساء النبى فى أدب الخطاب والإقامة فى البيوت قوله تعال « يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلاتخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً )(٢)

( فلا تخضعن ) أى لا تلن أو تتكلمن بكلام مريب موهم ( قرن ) أقمن والزمن بيوتكن ( الجاهلية الاولى ) هى ماقبل الإسلام فهى كقولهم : جاهلية جهلاء فقد كان النساء لايتحاشين كلام الرجال الاجانب ، والتنكسر فى حديثهن وإظهار بعض محاسنهن كالعنق ، والصدر ، والساقين ، والساعدين فجاء الإسلام فابطل ذلك ، ومن العجب المؤلم ان تتجاوز جاهلية القرن العشرين الجاهلية الاولى فى باب التبرج والسفور حتى أضحى عريا !!!

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية وإن كانت خطابا لأزواج النبى فحكمها لجميع نساء الامة وإنما خص نساء النبى لمنزلتهن وعظم فضلهن ، ومكانهن من النبى صلى الله عليه وسلم ، قال الامام الآلوسى فى تفسيره : ( والمراد أمرهن — رضى الله عنهن — بملازمة البيوت ، وهو أمر مطلوب من سائر النساء . أخرج الترمذى ، والبزار عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ( إن المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان

---

(١) الاحزاب ٥٥ (٢) الاحزاب ٣٢،٣٣

وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهى فى قعر بيتها » وأخرج البزار عن أنس قال: « جئن[1] النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن: يارسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله تعالى: فهل لنا عمل ندرك به فضل المجاهدين فى سبيل الله تعالى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « من قعدت منكن فى بيتها فانها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى : » وقد يحرم عليهن الخروج بل قد يكون كبيرة كخروجهن لزيارة القبور إذا عظمت مفسدته وخروجهن إلى المسجد وقد استعطرن وتزين إذا تحققت الفتنة ، أما إذا ظنت فهى حرام غير كبيرة ، وما يجوز من الخروج كالخروج للحج وزيارة الوالدين وعيادة المرضى وتعزية الأموات من الأقارب ونحو ذلك فانما يجوز بشرط مذكورة فى محلها[2]

يعنى مع الاستتار وعدم إبداء الزينة وعدم مخالطة الأجانب ، وعند أمن الفتنة ، وقال الإمام القرطبى فى تفسيره « معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت ، وإن كان الخطاب لنساء النبى صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى ، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء ، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن ؟ والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة على ما تقدم فى غير موضع »[3]

وقد فصل الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم مايتعلق بالنساء المسلمات من غض البصر وحفظ الفروج وعدم إبداء مواضع الزينة من عنق وصدر وساق وعضد وساعد، وشعر ونحوها من العورة الظاهرة إلا للمحارم قال سبحانه وتعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو أبائهن أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بنى اخوانهن ، أو بنى أخواتهن ،

---

(١) أما على لغة « أكلونى البراغيث » أو النون علامة جمع الاناث والنساء فاعل

(٢) تفسير الالوسى ج ٦ ص ٦ (٣) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ١٧٩

أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ؛ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ؛ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم «تفلحون»(١)

« الخمر» بضم الخاء والميم جمع خمار وهو ماتستر به المرأة رأسها وعنقها «والجيوب» فتحات الثياب من عند العنق كن فى الجاهلية يسدلن الخمر على ظهورهن فتبدو نحورهن وصدورهن وما حواليها فأمرن بلفها على الإعتناق والصدور كى لا يظهر شىء منها ، وكن يضربن بأرجلهن ليتنبه الناس إلى انهن ذوات خلخال فيتلقتن إليهن فنهين عن ذلك ؛ وفى النهى عن الزينة نهى عن إبداء مواضعها بطريق أولى وأبلغ .

أما احتجاب المرأة بالنسبة إلى الاجانب منها فكل بدن المرأة عورة إلا وجهها وكفيها ، ويستأنس لهذا بالحديث الذى رواه أبو داود فى سننه عن عائشة رضى الله عنها « أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى ﷺ وعليها ثياب رقاق فاعرض عنها وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه وجمهور الفقهاء على تقييد إظهار الوجه والكفين بأمن الافتتان بها وإلا فلا يجوز .

وكان النساء فى أول الإسلام كما كن فى الجاهلية متبذلات تبرز المرأة فى درع وخمار لا فرق بين الحرة والأمة ، وكان الفتيان وأهل الشطارة(٢) يتعرضون للاماء إذا خرجن بالليل إلى قضاء حوائجهن فى الخلاء وربما تعرضوا للحرائر ظنا أنهن إماء فأمرن أن يخالفن بزيهن زى الإماء بأن يدنين عليهن من جلابيبهن فيغطين الوجه والاعطاف فيعرفن ويهبن ، ولا يطمع

---

(١) سورة النور ٣١ (٢) أهل الهوى واللؤم والتعدى على الحرم .

فيهن فاسق قال تعالى شأنه : « يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً رحيما»(١) «يدنين» أى يرخين ولذلك عدى بعلى لأنه ضمن معناه، «جلابيبهن» جمع جلباب وهو ما تلتف به المرأه فوق درعها وثيابها كالملاءة ، والملحفة بحيث يستر جميع البدن ، ولايصفه ولايشف ماتحته .

وقد بينت السنة النبوية كل ما يتعلق بالنساء من احتجاب وتصون وتعفف ، وعدم السفور والخلاعة والابتذال بما لا مزيد عليه ، وبحسبنا هذا القدر فى هذا المقام وندع التفصيل لمقام آخر .

## ( تزوج النبى بأم حبيبة بنت أبى سفيان )

وفى هذه السنة على مارجحه ابن كثير فى بدايته(٢) تزوج النبى صلى الله عليه وسلم السيدة أم حبيبة — رملة وقيل هند والأول أصح — بنت أبى سفيان بن حرب بن أميه بن عبد شمس وأمهما صفية بنت أبى العاص بن أمية ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاما، وكانت قبل النبى تحت زوجها عبيد الله بن جحش ، وكانا أسلما وهاجرا إلى الحبشة فولدت بها حبيبة وبها كانت تكنى وقيل ولدتها بمكة ثم هاجرت بها ، ثم تنصر زوجها وبقيت على إسلامها ، ثم مات ، فلما انقضت عدتها كتب رسول ﷺ إلى النجاشى أن يتولى له العقد عليها ، وقيل أرسل له عمرو بن أمية الضمرى بذلك ، فولى النجاشى العقد وأمهرها عن سول الله ﷺ أربعمائة دينار وتولى نكاح أم حبيبة ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص ، وقد بقيت السيدة أم حبيبة بالحبشة معززة مكرمة حتى قدمت إلى المدينة مع مهاجرى الحبشة سنة سبع،

---

(١) الأحزاب ٥٩

(٢) وقيل سنة ست وقيل سبع ويرجح الأول أن عمرو بن العاص إنما ذهب الى الحبشة بعد الخندق وجد عند النجاشى عمرو بن أمية الضمرى لأجل خطبتها للنبى .

ولما بلغ أباها أبا سفيان تزوج النبى بها قال : « هو الفحل لا يقدع أنفه[١] » وكان من سرورها بهذا الزواج أن أهدت الجارية التى أرسلها النجاشى لتعرض عليها زواج رسول الله بها سوارين من فضة ، وبعض الدنانير ، ولكن الجارية ردته بأمر سيدها النجاشى ، وجاءت لها بعود وورس ، وعنبر ، قالت : فقدمت به على رسول الله ﷺ[٢] .

« الحكمة فى تزوج النبى بها » ومما ذكرنا يتبين للمنصف أن النبى لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة ، أو إشباع رغبة جنسية فالنبى لم يدخل بها إلا بعد خيبر ، وإنما أراد المواساة بالنفس ، فقد تنصر زوجها وثبتت على إيمانها ، ومات فأصبحت أيما ، فكان عملا إنسانيا كريما أن عقد عليها وصارت بذلك فى عداد أمهات المؤمنين ، وحظيت بهذا الشرف الرفيع كفاء هجرتها وثباتها وتحملها ، وناهيك بالاحترام البالغ الذى وجدته فيما بعد فى نفوس المسلمين ، والحفاوة البالغة التى أحاطها به ملك الحبشة العادل الكريم ألا إنه موقف كريم تغص به حلوق المنقولين على الرسول العظيم

« وفاتها » وكانت وفاتها بالمدينة سنة أربع وأربعين فرضى الله عنها وأرضاها .

## ( فرض الحج )

وفى هذا العام على ماذهب إليه الكثيرون[٣] شرع الله فريضة الحج بقوله سبحانه « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » وقيل بقوله وأتموا الحج والعمرة لله » والصحيح الأول لأن الإتمام إنما يكون بعد المشروعية وقد ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة والإجماع حتى صار ركنا من أركان الإسلام معلوما

---

(١) مثل يضرب للكفء الكريم والفحل ذكر الابل ، وكان من عادة العرب إذا كان الفحل غير كريم ضربوا أنفه ليبعد عن الناقة ، وإذا كان كريما تركوه

(٢) الإصابة جـ ٣ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦

(٣) وقيل فى السنة السادسة وإليه ذهب الشافعى ، وقيل فى السنة التاسعة .

من الدين بالضرورة والحج شريعة قديمة من لدن أبى الأنبياء الخليل إبرهيم عليه السلام ، فانه لما فرغ من بناء البيت بمعاونة ابنه اسماعيل أمره الله أن يقف على جبل « أبى قبيس » بمكة وينادى فى الناس بالحج فقال : ياربى وما يبلغ صوتى؟ فقال الله : « أذن يا إبراهيم وعلى البلاغ » فأذن إبراهيم قائلا : « يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا » فاسمع الله سبحانه نداءه من كان فى أصلاب الرجال ، أو أرحام الأمهات ، أو عالم الذر قبل أن يوجدوا !! ومن يومها ومن أراد الله لهم الحج يجيبون قائلين : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

وهو العبادة التى بقى العرب محافظين عليها إلى وقت البعثة المحمدية إلا أنهم كانوا شابوها بالوثنية بما نصبوه على الكعبة ، وعلى الصفا والمروة من أصنام يتمسحون بها ويتبركون ، وكذلك غيروا فى بعض المناسك وبدلوا وابتدعوا ، فلما جا الاسلام قضى على ماشابه من وثنيه وعادات جاهلية ، ورجع به إلى ما كان فى عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام من صفاء ورمز إلى التوحيد والوحدة ، والألفة والمحبة .

وللحج حكمته وفلسفته التى لا يتسع لها المقام هنا ولو لم يكن فيه إلا أنه مؤتمر المسلمين الأكبر لكفى ، فما بالك وفيه ما فيه من تزكية النفوس والسمو بالأرواح وغفران الذنوب . والتقوى والمساواة بين الناس جميعا وألوان العبر والعظات .

نعم إنه المؤتمر السنوى الأكبر الذى يتلاقى فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها فيتقاسمون السراء والضراء ، ويتجاوبون فى الآلام والآمال ، ويتشاورون فى كل ما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم ، ويتعاونون على البر والتقوى ، والتكافل والتناصر ، ألا ما أعظمه من مؤتمر لو اهتبل فرصته المسلمون ! !

وليس فى الحج وثنيه كما يزعم بعض أعداء الإسلام وليس أدل على ذلك من أن كل شعيرة ونسك من مناسكة لا ينفك عن التهليل والتكبير ، والثناء على الله العلى العظيم ، وإنما الأمر كما قيل .

أمر على الديار : ديار سلمى أقبل ذا الجدار ، وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

فالطواف بالكعبة ليس تعظيما للحجارة ، وإنما هو تعظيم لرب البيت وتقبيل الحجر الأسود ليس حبا للحجر ، وإنما هو حب لرب الحجر ، وهو الله سبحانه وعلى المسلم إذا خفى عليه شيء من حكم تشريعات الله تبارك وتعالى أن يقول : سمعنا وأطعنا ، لا يتهم الشريعة ، بل يتهم عقله القاصر ، ويقول كما قال الفاروق الملهم العبقرى « اللهم أنى أعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك » رواه البخارى .

« وفاة سعد بن معاذ » قدمنا فى الخندق أن سعدا رضى الله عنه أصيب فى أكحله أثناء المراماة بالنبل فلما أصيب قال : « اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها ، فانه لا قوم أحب إلى أن أجاهد من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقرعينى من قريظة ، وقد استجاب الله دعوة وليه سعد وأقر عينه فيهم ، فحكم فيهم بقدرته وتيسيره ، وجعلهم هم الذين يطلبون ذلك كما سيأتى ، فأمر النبى باحضاره من خيمة « رافدة » التى كانت بالمسجد لتمريض الجرحى فجعل بنى قريظة يتحلقون حوله ويقولون له : أحسن فى مواليك فقال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم !! ثم حكم فيهم بقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم فقال له النبى : « لقد حكمت فيهم ياسعد بحكم الله من فوق سبع سماوات » ثم أرجع إلى خيمته بالمسجد ، فلم يرعهم إلا الدم يسيل فى المسجد ، فدخلوا فاذا جرحه قد انفجر ومات شهيداً رضى الله عنه وقد شيعه رسول الله والصحابة حتى واروه فى قبره .

وقد كان — رضى الله عنه — سيد الأوس ، ومن خيار المسلمين ومن ذوى السوابق فى الاسلام ، وقد ورد فى فضله أحاديث كثيرة منها ماروى فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اهتز العرش لموت سعد بن معاذ وإنما اهتز فرحا بروحه وترحيبا بمقدمه ولقائه

ربه ، ولما أهديت إلى النبى ﷺ جبة صار الصحابة يعجبون من لينها وحسنها فقال : أتعجبون من هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير منها أو ألين (حشره الله سبحانه مع النبيين والصديقين والشهداء .

## ( السنة السادسة )

أهلت السنة السادسة للهجرة والمسلمون على أحسن حال من القوة والمنعة بالمدينة وما جاورها منتصرين على قريش ومن تحزب إليهم من عرب ويهود فقد ارتد الاعراب مهزومين كما لقى يهود بنى قريظة القصاص العادل بقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم .

وقد أرسل النبى عدة سرايا فى هذا العام لتأديب بعض القبائل المجاورة جزاء على غدرها أو مباغتة لها فى عقر دارها قبل أن تنفذ ما بيتته من مهاجمه المدينة ، كما قام ببعض الغزوات التى أجلها خطرا غزوة الحديبية .

## سرية محمد بن مسلمة قبل نجد

فى المحرم من هذه السنة أرسل النبى عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة فى ثلاثين راكبا لشن الغارة على بنى بكر بن كلاب فسار إليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهموهم على غرة ، فقتلوا منهم عشرة وفر الباقون ، واستاقوا الإبل والشاء ، وقفلوا راجعين إلى المدينة ، فلقيهم ثمامة بن أثال الحنفى سيد بنى حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه فلما قدموا على النبى عرفه وأحسن معاملته ، وأطلق سراحه بعد ثلاث بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يسلم ، فما كان من ثمامة إلا أن عاد وأسلم وصار من خيار المسلمين وقد قدمنا قصته ، ويرى ابن كثير أن هذه السرية كانت بعد خيبر[1] فقد روى قصته البخارى وابن اسحاق عن أبى هريرة وأنه شاهد ذلك وأبو هريرة وإنما أسلم عقب خيبر سنة سبع .

---

(١) البداية والنهاية — ٤ ص ٤٩

# غزوة بنى لحيان

بنو لحيان هم الذين غدروا بعاصم بن ثابت وإخوانه أصحاب سرية الرجيع، ولم يزل رسول الله عازما على الاقتصاص منهم حتى جمادى الأول من هذه السنة، فخرج فى مائتى راكب من أصحابه بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأتبع طريقة التعمية فسلك طريق الشام ليرى أنه لا يريد بنى لحيان، فلما وصل إلى منازلهم هربوا، وتمنعوا فى رءوس الجبال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لو أنا هبطنا عسفان[1] لرأت قريش أنا قد جئنا مكة » فذهبوا إليها ليداخل أهل مكة الرعب، ثم أرسل فارسين حتى جاءا « كراع الغميم »[2] ليرى قريشا من نفسه القوة، وفى عسفان استقبلهم جمع من المشركين على رأسهم خالد بن الوليد، فصلى النبى بأصحابه صلاة الظهر فقال المشركون: قد كانوا على حال لو أصبنا منهم غرتهم ثم قالوا: تأتى عليهم صلاة[3] هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، فنزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك، وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم، وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة، ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا »[4].

وكانت هذه أول صلاة خوف صلاها رسول الله[5]، وبذلك شرعت هذه

---

(١) موضع قرب مكة.

(٢) موضع جنوب عسفان بثمانية أميال.

(٣) هى صلاة العصر،

(٤) النساء ١٠٢

(٥) البداية والنهاية ج ٤ ص ٨١، ١٤٩

الصلاة التى تدل على يسر الإسلام وسماحته ، وصلاحيته لكل زمان ومكان ، وقيل إن مشروعية صلاة الخوف كانت فى غزوة « ذات الرقاع » وكانت على ما ذهب إليه ابن اسحاق سنة أربع وذهب الإمام البخارى إلى أنها كانت سنة سبع عام خيبر واستدل بأدلة فليرجع إليها من يشاء(١) .

## سرية كرز بن جابر الفهرى

وفى شوال من هذا العام قدم على المدينة جماعة من عكل وعرينة(٢) فأظهروا الإسلام ، وبايعوا رسول الله وكانوا هزالا مصفرة ألوانهم فلم يوافقهم هواء المدينة فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يلحقوا بإبل له خارج المدينة فيشربوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا ، فلما صحوا قابلوا الإحسان بالكفران وقتلوا الراعى ، ومثلوا به وسمروا عينيه ، واستاقوا الإبل فلما بلغ الخبر النبى أرسل وراءهم كرز بن جابر الفهرى فى عشرين فارسا فلحقوا بهم وجاءوا بهم إلى المدينة فأمر رسول الله أن يقتص منهم ، فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسمرت أعينهم(٣) : وألقوا فى الحرة يستسقون فلا يسقون حتى ماتوا(٤) .

وما فعل بهم ليس مثلة وإنما هو قصاص وحد : ذاك أنهم سرقوا وقتلوا ، ومثلوا ، وكفروا ، وحاربوا الله ورسوله فأقيم عليهم حد السرقة ، والبغى ، واقتص منهم بالقتل والتمثيل كما فعلوا .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٣

(٢) عكل بضم العين قبيلة من تيم الرباب وعرينا مصغرا حى من بجيلة

(٣) أى فقأت بالمسامير ، لأنهم فقأوا عينى الراعى بوضع الشوك فيهما

(٤) صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب قصة عكل وعرينة وكتاب الطهارة — باب أبوال الابل .

# ( سرية عمرو بن امية الضمرى )

جلس أبو سفيان بن حرب ذات يوم فى نادى قومه فقال : ألا رجل يذهب إلى محمد فيقتله غدرا فنستريح منه فتقدم له رجل من الأعراب وقال له : إنى هاد، بالطرق خريت ومعى خنجر مثل خافية النسر ، فأعطاه راحلة ونفقة وأوصاه أن يخفى أمره ، فخرج الرجل حتى وصل المدينة فسأل على النبى حتى انتهى إليه، وهو فى جماعة من أصحابه ، فلما رآه قال : « إن هذا الرجل يريد غدراً والله حائل بينه وبين ما يريد » فوقف فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال النبى : أنا فذهب ينحنى على رسول الله كأنه يسر إليه شيئا فجبذه أسيد بن حضير وقال: تنح عن النبى ، وجذب بداخل إزاره فاذا الخنجر ، فقال يارسول الله هذا غادر، فأسقط فى يده الأعرابى وقال : دمى . دمى ، وأخذ أسيد بن حضير بتلابيبه ، فقال له النبى : « أصدقنى ما أنت وما أقدمك ؟ فان صدقتنى نفعك الصدق ، وإن كذبتنى فقد أطلعت على ما هممت به » فقال الأعرابى فأنا آمن ؟ قال : «وأنت آمن » فأخبر النبى بخبر أبى سفيان وما جعل له ، فحبس عند أسيد بن حضير ، ثم دعا به من الغد فقال : « قد أمنتك فاذهب حيث شئت أو خير لك من ذلك؟» قال وما هو ؟ فقال النبى : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » فاسلم الرجل وقال : يا محمد ما كنت لأفرق من الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلى وضعفت : ثم أطلعت على ما هممت به ، وما سبقت به الركبان ولم يطلع عليه أحد فعرفت أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبى سفيان حزب الشيطان ! ! فجعل النبى يبتسم ، وأقام الرجل أياما ، ثم استأذن وخرج ثم أراد النبى أن يجازى أبا سفيان بما صنع فقال لعمرو بن أمية الضمرى — وكان شجاعا فاتكا فى الجاهلية — ولسلمة بن أسلم بن حريش : « أخرجا حتى تأتيا أباسفيان بن حرب ، فان أصبتما منه غرة فاقتلاه ، فخرجا حتى أتيا مكة ، وطافا بالبيت وصليا ركعتين ، ففطن أهل مكة لعمرو وقالوا : ما جاء عمرو إلا بشر وهموا بقتلهما ففرا حتى قدما المدينة ولم يقضيا مما أرادا وطراً ، وهكذا أراد رسول الله

امرا ، وأراد الله أمرا ، وكان ما أراد الله فقد نجى أبا سفيان حتى أسلم ليلة الفتح ، وتشرب بهـذا الدين الحنيف ، وصار من أنصاره بعد أن كان من أعدى أعدائه .

## ( غزوة الحديبية )[1]

ها هى السنة السادسة كانت تنتهى ، وقد أصبح المسلمون مرهوبى الجانب فى الجزيرة ، ولئن لم تكن فيها موقعة فاصلة فقد حفلت ببرايا كثيرة تمخضت عن قوة المسلمين ، ورعب المشركين وهزيمتهم ، وهاهم المسلمون قد اشتاقوا إلى زياره الكعبة البيت الحرم ، : بيت آبائهم وأجدادهم ومتعبدهم وقبلتهم ، فقد مضى نحو ست سنين ولما يتشرفوا بزيارة هذا البيت ، ويقضوا شيئا من حاجات النفس المشوقة إليه ، وأزكى هذا الشوق ، وقوى الأمـل فى نفوسهم رؤيا رآها رسول الله ﷺ فقد رأى أنهم يدخلون المسجد الحرام محلقين رءوسهم ومقصرين ، ولكن كيف للمسلمين هذا ، والمشركون حريصون على صدهم عن البيت ، وأهون عليهم أن يموتوا جميعا من ان يدخلها عليهم المسلمون عنوة لذلك رأى النبى ﷺ بثاقب فكرة أن يستنفر العرب ومن حوله من الأعراب ، ليخرجوا معه معتمرين كى تعلم قريش أنه لا يريد حربا ، فاستجاب له بعض الأعراب ، وأبطأ عنه الكثيرون .

### « خروج النبى معتمراً » :

وفى ذى القعدة من هـذا العام خرج رسول الله ﷺ فى زهاء الف

---

(١) الحديبية — بضم الحاء وفتح الدال وياء ساكنة وباء موحدة مكسورة وياء منهم من خففها ومنهم من شددها — قرية بالقرب من مكة على مرحلة منها سميت ببئر هناك مسجد الشجرة التى بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها .

وخمسمائة[١] من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق بهم من الأعراب واستخلف على المدينة نميلة بن عبد الله الليثى، وأحزم بالعمرة[٢] هو والكثيرون من أصحابه وساق معه الهدى سبعين بعيراً حتى يكون إيذانا للناس أنه لم يرد حربا وإنما خرج زائراً للبيت ومعظما له .

وصول النبأ إلى قريش : وخرج رسول الله حتى إذا كان بعسفان[٣] لقيه بشر بن سفيان الكعبى فقال : يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قدموا إلى كراع الغميم[٤] فقال رسول الله ﷺ : « ياويح قريش قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين وإن يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش ؟ ! فو الله لا أزال أجاهد على هذا الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ٥) ثم تفادى رسول الله الاصطدام بخيل المشركين فقال:

---

(١) ذكر ابن اسحاق فى سيرته أنهم كانوا سبعمائة وهو خلاف ما ذكره المحدثون فى الصحاح وغيرها وكتب السير من أنهم كانوا بضع عشرة مائة ، وقد استنتج ذلك مما روى أن النبى ساق سبعين بدنه كل بدنه عن عشرة وهذا ليس بلازم فان بعضهم قد يهدى بغير الابل كما أن بعضهم لم يكن محرما كأنى قتادة كما ثبت فى الصحيح ( صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب غزوة الحديبية ) .

(٢) هذا هو الصحيح وهو ماذكره المحدثون وكتاب السير لا ماذكره الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » من أن النبى أذن فى الناس بالحج .

(٣) قرية على مرحلتين من مكة أى مسيرة يومين

(٤) واد أمام عسفان بثمانية أميال .

(٥) السالفة صفحة العنق وهو كناية عن الموت .

« من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها فقال رجل من أسلم : أنا ، فسلك بهم طريقا وعرا صعبا خرجوا منه بعد مشقة وجهد ، فافضوا إلى أرض سهلة منبسطة فقال رسول الله : قولوا ، نستغفر الله ونتوب إليه ، فقالوها فقال : والله إنها للحطة[1] التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها ، ثم سلكوا طريقا انتهى بهم إلى ثنية المرار قرب الحديبية ، وكان هذا المكان بركت ناقة رسول الله فزجروها فلم تقم « فقالوا : خلأت — حرنت — القصواء ، فقال الرسول : « ماخلأت القصواء ، وما هو بخلق لها ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » ثم قال للناس « انزلوا » فقالوا : ما بالوادى من ماء ينزل عليه ، فأخرج سهما من كنانته فاعطاه رجلا من أصحابه فنزل به فى بئر فغرزه فى جوفه ، فجاش بالماء حتى ضرب الناس بعطن ، فشربوا وسقوا دوابهم .

« رسل قريش » رأت قريش أن لاقبل لها بحرب المسلمين والإدارت عليهم الدائرة ، ونمى إليها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لايريد حربا فأرسلت إليه من يفاوضه تعرفا على قوة المسلمين وعزمهم على القتال من جهة ، وطمعا فى صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية من جهة أخرى

« بديل بن ورقاء » فأتاه بديل بن ورقاء فى رجال بن خزاعة وكانت خزاعة عيبة[2] نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمها وكافرها لايخفون عنه شيئا كان بمكة — فسألوه عما جاء به فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا ، وإنما جاء

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى :

« وإذ قلنا أدخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا ، وقولوا حطة .. » البقرة ، ٥٨ ، ٥٩ » فبدلوا وغيروا ، وسخروا ، ونهكموا ، ومعنى « وقولوا حطة » أى حط يارب عنا ذنوبنا ، وأغفرها لنا وفى المقارنة دلاله عنصر الصحابة وصاعتهم للرسول » وخيث اليهود ، ولؤم طباعهم ، وعصيانهم لنبى الله موسى

(٢) عيبة مد بفتح المهملة وسكون التحتانية ما ترضع فيها الثياب لحفظها أى موضع النصح له ، والأمانة على سره كأنه شبه الصدر الذى هو مستودع السر بالعيبة التى هى مستودع الثياب بنو الهون بن خزيمة بن مدركة ؛ وبنو الحارث بن عبد مناه بن كنانة ، وبنو المصطلق من خزاعة كانوا تحالفوا فى ابن تحت جبل يقال له : اسبشى أسفل مكه ، وقيل سموا بذلك لتجمعهم ، والتحبش التجمع ، والحباشة الجماعة (فتح البارى جزء ص ٢٤٢)

زائر للبيت ومعظما له ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يامشر قريش إنكم تعجلون على محمد وأنه لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا للبيت فأتهموهم وقالوا : وإن جاء لايريد قتالا ! ! فو الله لاتتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة .

« مكرز بن حفص » ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص فلما رآه رسول الله قال هذا رجل غادر فلما انتهى إلى رسول الله قال له نحو ماقال لبديل فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال

( حليس بن علقمة ) ثم بعثوا بحليس سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله قال : ( إن هذا من قوم يتألهون[1] فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله إعظاما لما رأى فأخبرهم بما رأى ، فقالوا له : أجلس فإنما أنت أعرابى لاعلم لك ، فغضب الحليس وقال: يامعشر قريش والله ماعلى هذا حالفناكم ، أيصد عن بيت الله من جاءه معظما له ! ! والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ماجاء له أو لأنفرن بالأحابيش[2] نفره رجل واحد ، قالوا : مه كف عنا حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به .

( عروة بن مسعود الثقفى ) ثم بعثوا إلى رسول الله حكيما يطمئنون اليه ، وهو عروة بن مسعود الثقفى ، فخشى أن يناله من التعنيف وسوء المقالة مانال من سبقه وهو من يعرفون فقالوا له صدقت ما أنت عندنا بمتهم فخرج حتى أتى رسول الله فجلس بين يديه ثم قال : يامحمد أجمعت أوشاب[3] الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك - بلدك لتفضها بهم ؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل[4] قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لاتدخلها عليهم أبدا وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا ، فلم يتمالك الصديق نفسه - وقد احفظته هذه

---

(١) يتبعدون ويعظمون شعائر الله

(٢) الأحابيش جمع أحبوش - بفتح الهمزة والباء - وهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة ، وبنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة وبنو المصطلق من خزاعة . كانوا قد تحالفوا تحت جبل يقال له الحبشى أسفل مكة ، وقيل سموا بذلك لتجمعهم والتبحش ، والحباشة الجماعة « فتح الباري ج ٥ ص ٢٤٢

(٣) أوشاب : اخلاط

(٤) العوذ : جمع عائذ وهو من الإبل الحديثة النتاج ، والمطافيل جمع مطفل التى معها أولادها والمراد انهم خرجوا ومعهم النساء والأولاد والكلام على الاستعارة

المقالة الكاذبة ـ أن رد على عروة ردا جارحا مؤلما ، فقال: من هذا يامحمد ؟ قال هذا ابن أبى قحافة ، فقال له : أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها ولكن هذه بهذه

« مثل أعلى للحب وللايمان » وكان عروة يتناول لحية رسول الله وهو يكلمه : والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله وهو مدجج فى السلاح ، فجعل يقرع يد عروة بنعل سيفه ويقول له : أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لاتصل إليك ، فاغتاظ عروة وقال : من هذا يامحمد :! قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة ، فقالى : أى غدر وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس(١) فكلمه رسول الله بنحو ما كلم به من سبقه وأنه ماجاء يريد حربا ، وكان عروة يرمق أصحاب رسول الله ويتعرف أحوالهم فرأى أمرا عجبا : رأى رسول الله لايتنخم نخامه إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ! وإذا أمرهم ابتدروا أمره: أيهم ينفذه أولا ! وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ! وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ومايحدون النظر إليه تعظيما له ! فرجع عروة إلى قريش فقال : يامعشر قريش إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ،والنجاشى فى ملكه وأنى والله مارأيت ملكا فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه لقد رأيت قوما لايسلمونه لشىء ابداً ، وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها،فانى لكم ناصح، فقالت قريش: لا تتكلم بهذا ولكن نرده عامنا هذا ويرجع من قابل.

« رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وقد رأى رسول الله حرصا على حرمة البيت ، وأيثاراً للسلام على الحرب أن يرسل رسلا إلى قريش بمكة لاحتمال أن لايكون عند رسل قريش من الشجاعة مايحملهم على المصارحة بالحقيقة فارسل خراش بن أمية الخزاعى إلى قريش وحمله على بعير له ليبلغ اشرافهم ماجاء الرسول إليه ، لكنهم استبد بهم

---

(١) كان المغيرة قد قتل جماعة فى الجاهلية فتحمل ديتهم عمه عروة هذا ، فلهذا استنكر معاملته له ، ولكنه الأيمان يسمو بصاحبه عن الأهل والولد والمال !! وغدر — بضم العين وفتح الدال — كثير الغدر .

الحمق والغضب، فعقروا به البعير ، وارادوا قتله لولا ان منعتهم الأحابيش أحلافهم، فخلوا سبيله

« سفارة عثمان بن عفان رضى الله عنه »

ثم دعا رسول الله عمر بن الخطاب ليكون رسولا إلى أهل مكة فقال : يارسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى من يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى إياها ، وغلظتى عليها ،ولكنى أدلك على رجل أعزبها منى عثمان بن عفان ، فقبل الرسول منه الإعتذار واستحسن ماعرضه عليه ،فدعا عثمان فأرسله إلى أبى سفيان وأشراف قريش ليخبرهم بقصد رسول الله ، فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاصى[1] ، فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله، فقالوا لعثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم !!

« بيعة الرضوان »

واحتبست قريش عثمان عندها ، وبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان قد قتل فقال رسول الله : « لا نبرح حتى نناجز القوم » ودعا إلى البيعة تحت شجرة سمرة هناك فبايعه بعضهم على الموت ، وبعضهم على أن لايفروا ، ولم يتخلف عن المبايعة إلا الجد بن قيس فقد لصق بإبط ناقته يستتر من الناس ، وكان أول من بايع أبوسفيان وهب بن محصن أخو عكاشة بن محصن ، ولما تمت البيعة للحاضرين ضرب رسول الله باحدى يديه على الأخرى وقال : وهذه لعثمان ، فكانت يد رسول الله لعثمان خيرا من يده لنفسه ؛ وهذه البيعة هى بيعة الرضوان لقول الله سبحانه وتعالى ( لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا )[2] وهو صلح الحديبية.

وبهذه البيعة أصبح المسلمون على استعداد لمناجزة قريش ، وجعل كل واحد منهم يترقب يوم الظفر ويوم الاستشهاد بنفس رأضية وقلب مطمئن ، وأنهم لفى

---

(١) هو ابن عم عثمان قيل أسلم قديما، وهاجر مع زوجته فاطمة بنت صفوان لهاذكره ابن اسحاق والأحثرون على أنه أسلم أيام خيبر وشهدها مع النبى صلى الله عليه وسلم

(٢) الفتح / ١٨

استعداد للمناجزة إذ ترامى إليهم أن عثمان لم يقتل ، ثم لم يلبث أن جاء إليهم سالما ، وبذلك كفى الله المؤمنين القتال ، وحقق رغبتهم فى السلام .

« مناوشات قريش » وأرسلت قريش نحوا من خمسين رجلا منهم عليهم مكرز بن حفص ليطيفوا بعسكر المسلمين عسى أن ينالوا منهم غرة ، فأسرهم حارس الجيش محمد بن مسلمة ، وهرب رئيسهم ، وأتى بهم إلى رسول الله ففا عنهم تشبثا منه صلى الله عليه وسلم بخطة السلم ، واحتراما للشهر الحرام ان يسفك فيه دم ، وقد بهتت قريش حين عرفوا ذلك ، وسقطت كل حجة لهم فى أن النبى يريد حربا ، وأيقنوا أن أى اعتداء من جانبهم على المسلمين لن تنظر إليه العرب إلا على أنه غدر لئيم ، للمسلمين الحق كل الحق فى أن يدفعوه — وما أقدرهم — بكل ما أوتوا من قوة وفى هذا نزل قول الله : « وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم » وكان الله بما تعملون بصيراً[1] .

( بشائر الصلح ) لم يكن بد لقريش وقد جرى ما جرى من أن تفكر فى الصلح جديا ، وأن تنتهى هذه الحالة التى قد تدور بسببها الدائرة عليهم فأرسلوا سهيل بن عمرو إلى النبى ﷺ وقالوا له : ائت محمدا وصالحه ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبدا ، فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ورآه تفاءل به وقال : « لقد سهل لكم من أمركم » وتكلم سهيل فأطال الكلام ، وتراجع هو والنبى ﷺ حتى انتهيا إلى صيغة الصلح ، وتم الاتفاق ولم يبق إلا الكتاب .

## شروط صلح الحديبية

وكانت شروط الصلح على ما يأتى :

---

(١) الفتح / ٢٤

(١) وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين[١] يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وأن بينهم عيبة مكفوفة فلا إسلال — سرقة — ولا إغلال — خيانة —

(٢) من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه .

(٣) من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل ، فدخلت خزاعة فى عهد رسول الله ودخلت بنو بكر فى عقد قريش .

(٤) أن يرجع النبى وأصحابه من غير عمرة هذا العام ، فاذا كان العام القابل خرج عنها المشركون فيدخلها المسلمون ويقيمون بها ثلاثا ليس معهم من السلاح إلا السيوف فى قربها — اغمادها — وقبل النبى هذه الشروط على ما فى بعضها بادىء الرأى من إجحاف بالمسلمين ، لأنه يصدع بامر الله وإلهامه ولن يضيعه الله أبدا ، ولحرصه على أن يسود السلام ويحفظ للبيت حرمته .

« رأى المسلمين فى الشروط » أما المسلمون فرأى بعضهم كالصديق ما رأى الرسول فى الشروط وسلموا بها ورأى بعضهم ولا سيما فى الشرط الثانى اجحافا بحق المسلمين ، وقالوا : سبحان الله ! ! كيف نرد إليهم من جاء مسلما ، ولا يردون إلينا من جاء مرتدا ؟ فاجابهم الرسول بهذا الجواب الحكيم ، أنه من ذهب منا اليهم فابعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا .

ومن هذا الفريق عمر بن الخطاب — رضى الله تعالى عنه — وكما هو معروف عنه من الصلابة فى الحق وحب المراجعة فيما لم يستبن له فيه وجه الحق والصواب أبى إلا أن يعلن عما فى نفسه فذهب إلى الصديق — رضى الله عنه — فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى

---

(١) ذكر المغفور له الشيخ محمد الخضرى فى كتابه « نور اليقين » ص ١٩٠ أن مدة الصلح كانت أربع سنين وقد تابعه بعض الكتاب المعاصرين ، والذى فى السير وكتب الحديث أن المدة عشر سنين وأما رواية الأربع فضعيفة منكرة

قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ ! ! فقالوا أبو بكر : يا عمر الزم غرزه[١] — طريقته — فانى أشهد أنه رسول الله، فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله وكأن الفاروق لما يزل فى نفسه بعض الحرج فى قبول هذا الشرط ، فرأى أن يستبين من الرسول وجه الحق وأن يسمع منه فأتى رسول الله وقال له : الست برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال الرسول : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى[٢] فلم يكن بد من أن يذعن الفاروق وينتظر ماتجىء به الأيام ؛ ولم تلبث الأحداث أن أظهرت بعد نظر الرسول كما ستعلم عن كثب .

وقد استشعر الفاروق وقد هدأت ثورته النفسية أنه ربما يكون قد جانبه الصواب فى التردد فى السؤال ، أو احتمال أن يظن به الشك فكان يقول : مازلت أصوم وأتصدق، وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافه كلامى الذى تكلمت يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً ؛ وفى صحيح البخارى : قال عمر : فعملت لذلك أعمالا أى الأعمال الصالحة المذكورة.

« رؤيا رسول الله » وكذلك كانت هناك مسألة أخرى تتردد فى نفس بعض المسلمين وهى الرؤيا التى رآها رسول الله فى دخولهم المسجد الحرام فقد ظنوا أنها هذا العام ؛ فلما لم تتحقق وانتهى الصلح بالتأجيل وجدوا لذلك أسى وحزنا فى نفوسهم حتى بين لهم الرسول أن الرؤيا ليس بلازم أن تتحقق هذا العام ، فقد سأل الفاروق عمر رسول الله عن هذا ، فقال : « أفاخبرتك أنك تأتيه هذا العام ؟ » قال : لا ، قال فانك آتيه ومطوف به ، وكذلك سأل الفاروق الصديق عن الرؤيا ، فاجابه بما أجاب به الرسول[٣] .

---

(١) الغرز للبعير كالسرج للفرس ، والمراد الزم أمره وطريقته وإياك والمخالفة .

(٢) هذا ما ورد فى السيرة لابن اسحاق ، وفى الصحيح أنه أتى النبى أولا فسأله ، ثم أتى أبا بكر بعد ذلك فسأله وقد رجحت ما فى السيرة على ما فى الصحيح لأن بقاء شىء من الشك بعد سؤال الفاروق للصديق حتى سأل النبى فازال ما بقى عنده . أقرب من بقاء شىء من الشك بعد سؤال عمر للنبى حتى سأل الصديق فاجابه وأزال ما بقى عنده والله أعلم

(٣) صحيح البخارى — كتاب الشروط — باب الشروط فى الجهاد ، والمصالحة مع أهل الحرب ... » وصحيح مسلم — كتاب الجهاد والسير أسباب صلح الحديبية .

# كتابة كتاب الصلح

ودعا رسول الله على بن أبى طالب ليكتب الكتاب ، فقال له: « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل أما الرحمن فلا أدرى ماهو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم فأبى المسلمون فقال النبى : اكتب باسمك اللهم ، ثم قال : « هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : والله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب ، اسمك واسم أبيك فقال رسول الله : ( والله إنى لرسول الله حقا وإن كذبتمونى ) ثم أمر عليا بمحو ما كتب وكتابة محمد بن عبد الله ، فامتنع على تأدباً فاخذ رسول الله الصحيفة فمحاها وكتب محمد بن عبد الله وهو لايحسن أن يكتب[1] وبعد أن فرغ سيدنا على من كتابة الشروط . اشهد الرسول على الكتاب رجالا من المسلمين وهم أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعلى ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبى وقاص ، ومحمود بن مسلمة ، وشهد من المشركين حويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص ، وكتب من شروط الصلح نسختان: نسخة للنبى ونسخة لقريش .

، وقفة عند هذا الصلح ، وإن لنا هنا لوقفة ترينا مبلغ صبر الرسول واحتماله ، وتنازله عن بعض حقوقه فى سبيل إتمام الصلح ، ولو أن النبى استجاب لرغبات بعض المسلمين أو لهوى فى نفسه لما تم الصلح ، وهذا يدل على أنه نبى يوحى إليه كما يدل على سمو نفسه سموا يعلو على الجاه وعن هوى النفس ، وعن الألقاب ، وكل ذلك كان حرصا على الوفاء بما وعد به حينما قال : « والله لا يسالونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ، وإن ما حدث فى صلح الحديبية ليعتبر مثلا يحتذى فى المساهلة فى الشروط طلبا للأمن والسلام ، فهل يكون فيما صنعه رسول الله قدوة للقواد والزعماء والرؤساء فى عالمنا المضطرب الخائف

---

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى - باب عمرة القضاء وباب الحديبية وكتاب الشروط - باب الصلح فى الجهاد .

الذى يشاهد كل يوم مؤتمرات واجتماعات فى سبيل السلام والحد من التسابق المجنون فى سبيل التسلح ثم تنتهى إلى لا شىء ؟ !!

« أبو جندل بن سهيل بن عمرو » .

وبينا على يكتب الكتاب جاء أبو جندل بن سهيل يوسف فى قيود الحديد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام إليه أبوه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه وقال : يا محمد هذا أول من أقاضيك عليه أن ترده ، فقال النبى : إنا لم نقض الكتاب بعد ، فقال سهيل فوالله إذاً لم أصالحك على شىء أبدا فقال النبى : فأجزه لى فأبى فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ألاترون ما قد لقيت ؟ فازداد الناس غما فقال له الرسول : « يا أبا جندل اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم »

( نحر النبى هديه ) ولما فرغ النبى من كتابة العهد قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا ( ثلاث مرات ) فما قام منهم أحد فقد أذهلهم ماهم فيه من الغم الحزن عن أمر الرسول ، فدخل رسول الله على زوجه أم سلمة وكانت خرجت القرعة عليها فى سفر رسول الله هذا ، فذكر لها ما وجد من الناس ، فقالت — وكانت عاقلة حازمة — : يانبى الله اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، فلما رأوا مافعل الرسول قاموا فنحروا ، وحلق بعضهم وقصر آخرون ، فقال الرسول : ( يرحم الله المحلقين ) قالوا : والمقصرين يارسول الله ، قال : يرحم الله المحلقين قالوا : والمقصرين قال : يرحم الله المحلقين قالوا : والمقصرين قال : والمقصرين قالوا : يارسول الله لم ظاهرت — كررت — الترحيم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال : لأنهم لم يشكوا .

## ( الأوبة إلى المدينة ونزول سورة الفتح )

ثم آب رسول الله ﷺ وهو مغتبط بما أتم من صلح وفى الطريق أنزلت عليه سورة الفتح روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا فسأله عمر عن شىء فلم يجبه ( ثلاثا ) قال عمر : فحركت بعيرى ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فى القرآن فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بى ، فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل فى قرآن ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال: « لقد أنزلت على الليلة سورة لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » ورواه أيضاً الامام أحمد والترمذى والنسائى والطبرانى ، وقد بينت رواية الطبرانى ورواية أخرى لأحمد ان نزولها كان مرجعه من الحديبية ، وهو المراد بالسفر المذكور ، وقد اختلف فى مكان نزولها فقيل : بالجحفه ، وقيل : بكراع الغميم ، وقيل بضجنان والأماكن الثلاثة متقاربة[1] وهذا يدل على أن هذه السورة نزلت بعد صلح الحديبية لا بعد فتح مكة ، كما يزعم بعض الناس .

## ( صلح الحديبية فتح مبين )

وقد بنيت هذه الرواية الصحيحة وغيرها أن المراد بالفتح فى مفتتح السورة هو صلح الحديبية وما جرى فيها من البيعة ، وقد ورد ذلك مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم، روى أحمد وابو داود والحاكم من حديث مجمع بن حارثة قال : ( وشهدنا الحديبية فلما انصرفنا وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا عند كراع الغميم ، وقد جمع الناس يقرأ عليهم ( إنا فتحنا لك فتحا مبينا ) فقال رجل : يا رسول الله أو فتح هو قال : ( أى والذى نفسى بيده إنه لفتح ، كما ورد ذلك صريحاً عن بعض الصحابة ، روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه ( إنا فتحنا لك فتحا مبينا ) قال : الحديبية

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج٧ص١٥٨، وفتح البارى ج٨ ص٤٧٣

وروى بسنده عن البراء بن عازب قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ) يعنى الفتح فى قوله ( إنا فتحنا . . . )[1] وما أحسن ما ورد عن الصديق رضى الله عنه فى هذا قال : ما كان فتح فى الاسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين عهد وربه ، والعباد يعجلون ، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد ، وقال الامام الزهرى : ( ما فتح فى الاسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلم بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد فى الاسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان دخل فى الاسلام قبل ذلك أو أكثر ) وليس أدل على هذا من أن المسلمين كانوا فى الحديبية حوالى ألف وخمسمائة وكانوا فى فتح مكة عشرة آلاف[2] .

ولكى تزداد يقينا بأن صلح الحديبية فتح مبين نسوق لك ما أفاده المسلمون من هذا الصلح .

## مكاسب المسلمين من صلح الحديبية

( ١ ) اعترفت قريش بالمسلمين اعتراف الند بالند ، وفى ذلك دعاية للاسلام لا يستهان بها إن لم تكن ذات بال عند قريش فسوف يسمع بها العرب ، وفى ذلك تمهيد لاتساع نفوذ الاسلام وسطوته .

( ٢ ) إن هذه الهدنة ضمنت للمسلمين الانصراف إلى تبليغ دعوة الاسلام فى كافة أنحاء الجزيرة وما يتاخمها من الدول والامارات ، وهذا ما كان فقد كاتب النبى الملوك والأمراء وبذلك انتشر الاسلام أضعاف انتشاره من قبل .

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب التفسير ـ سورة الفتح

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص٣٢٢

(٣) اعتراف المشركين بمجيء المسلمين معتمرين من العام القابل أكسب المسلمين الحق فى زيارة البيت من غير مناجزه ولا حرب وهـذ ما كان يديره المسلمون

(٤) كان أشد ما أحفظ بعض المسلمين من الصلح : أن من أتى المسلمين من قريش رد ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لايرد ، وقد أثبت الواقع أنه لم يرتد مسلم وبذلك أصبح هذا البندمن الشرط غيرذى خطر ، كما كان النبى يعلم بثاقب فكره ، واستضاءة قلبه بنور الوحى وفيوضاته أن الفقرة الأولى من هذا الشرط ستجر على قريش متاعب كثيرة قد تضطرها إلى التنازل عنه بل والالحاح فى ذلك ، وهذا ما صدقته الحوادث بأسرع مما كان يظن .

( سعى قريش فى التنازل عن هذه الفقرة من الشرط )

فقد جاء أبو بصير عروة بن أسيد الثقفى من قريش إلى المسلمين بالمدينة ، فأرسلت قريش فى طلبه رجلين فسلمه لهما النبى وقال له : « يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم عهداً ولا يصح فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ، ومخرجا ، فانطلق إلى قومك » فقال أبو بصير : يارسول الله أترددنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ ! فكرر عليه النبى قوله ، فخرج مع الرجلين حتى إذا كان بذى الحليفة تحايل على أحد الرجلين فأخذ منه سيفه فضربه به حتى برد ، وفر الآخر يعدو حتى دخل مسجد المدينة ، فلما رآه رسول الله قال : ( قد رأى هذا ذعراً ) وأخبر رسول الله بما جرى فامنه ، ولم يلبث أبو بصير أن جاء وقال : يا رسول الله قـد — والله — أوفى الله ذمتك قد رددتنى إليهم ، ثم أنجانى الله منهم فقال النبى : ( ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد )[1] ففطن الرجل لمقالة الرسول ، وخرج حتى نزل ( العيص ) على ساحل البحر فى طريق قريش إلى الشام ، ولم يلبث أن انفلت أبو جندل ولحق به ، وهكذا صنع كل من ضيق عليه واحتجز بمكة

---

(١) ويل أمه كلمة ذم والمراد بها هنا المدح مسعرحرب : مثيرها ومحركها ومسعر بالنصب على التمييز وهو وصف له بالأقدام .

حتى تكون منهم نحو السبعين رجلا فقطعوا على قريش تجارتها ، فماذا كان من أمر قريش ؟ لقد أرسلت إلى رسول الله تناشده الله والرحم أن يرسل إليهم ويؤويهم ، وأن من أتاه مهاجراً من المسلمين فهو آمن ولا يرد.

وهكذا صدق الله فراسة نبيه ، وعلم المسلمون الذين امتعضوا من هذا الشرط أن أمر رسول الله أعظم بركة من أمرهم ، وأن رأيه لهم أولى من رأيهم لأنفسهم ، وازدادوا إيمانا بأن الله ناصر نبيه ، وناشر دينه ، ورضى الله عن الصحابى الجليل سهل بن حنيف فقد كان يقول : ( اتهموا الرأى فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أستطيع أن أرد على رسول الله أمره لرددت والله ورسوله أعلم ) رواه البخارى ، وأخرج البزار عن عمر قال : « اتهموا الرأى على الدين فلقد رأيتنى أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برأى وما ألوت عن الحق » وفيه قال : « فرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبيت حتى قال لى : « يا عمر ترانى رضيت وتأبى » ؟!!

## تفسير سورة الفتح

قال الله تعالى : ( بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ) هو صلح الحديبية كما سبق أن دللنا عليه ( ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ) قد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم على الطاعة والبر والاستقامة قبل البعثة وبعدها فالمراد بالذنوب الأمور التى خالف فيها الأولى وذلك مثل ما حدث فى أسارى بدر ، وترجيحه رأى القائلين بأخذ الفداء ، ومثل إذنه للمعتذرين عن تبوك ، وهذه ليست ذنوبا لكنها اعتبرت كذلك بالنسبة لجلالة قدره وعظم منزلته عند ربه فهو من قبيل ما قيل : حسنات الأبرار سيآت المقربين ( ويتم نعمته عليك ) بهذا النصر على المشركين . ( ويهديك صراطاً مستقيما ) ، بما يشرعه لك ولأمتك من الشرائع العادلة والدين القيم ( وينصرك الله نصراً عزيزاً ) فيما تستقبل من أمرك حتى يظهر دينك على الأديان كلها ( هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ) السكينة : الطمأنينة والوقار والآية تدل على زيادة الايمان ( والله

جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما ) لله جنود كثيرة لا يعلمها إلا هو ولو أراد أن يسلط عليهم ملكا واحدا لأبادهم ولكنه تعالى شرع لكم الجهاد لما فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة .

ولما بين الله ما يتعلق بنبيه ذكر ما أعده لعباده المؤمنين المجاهدين فقال (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار . . . ) الآية ثم ذكر ما يتعلق بالمنافقين والمشركين فى قوله ( ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء ) وهو أن الله لن ينصر نبيه والمؤمنين وسيهلكون (عليهم دائرة السوء . . . ) أى ما يظنونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم فهم مخذولون وهالكون فى الدنيا ولهم العذاب الأليم فى الآخرة ثم أكد سبحانه قدرته على الإنتقام من أعداء فقال : ( ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما ) قويا لا يغالب ، منتقما بحكمة .

ثم قال تعالى : ( إنا أرسلناك شاهداً ) على أمتك وعلى الأنبياء أنهم بلغوا ( ومبشرا ) للمؤمنين ( ونذيراً ) للكافرين ( لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه ) أى تنصروه ( وتوقروه ) وتعظموه وتكرموه ( وتسبحوه بكرة وأصيلا ) الضمير لله عز شأنه أى تنزهوه وتقدسوه فى أول النهار وآخره والمراد فى جميع الأوقات ثم قال سبحانه وتعالى تشريعا لنبيه وتكريما : (إن الذين يبايعونك) يعنى فى الحديبية وغيرها ( إنما يبايعون الله ) لأنك إنما تبايع بأمر الله وشرعه وطاعته (يد الله فوق أيديهم) أى هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم فالله هو المبايع فى الحقيقة بواسطة رسوله ثم بين عاقبة النكث والوفاء ( فمن نكث ) نقض العهد ( فانما ينكث على نفسه ) لأن وبال ذلك وضرره عليه ( ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ) النصر فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة .

( سيقول لك المخلفون من الأعراب ) كان النبى استنفر الأعراب قبل

الخروج إلى مكة معتمراً عام الحديبية فتثاقل الكثيرون منهم وتعللوا بتعلات باطلة كقولهم ( شغلتنا أموالنا وأهلونا ) نساؤنا وأبناؤنا ( فاستغفر لنا ) قالوه تقية ومصانعة لا أعتقاداً بدليل قوله : ( يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ) وكان قعودهم ظنا منهم أنه يدفع عنهم الضر ويحصل لهم النفع فرد عليهم بقوله سبحانه: ( قل فمن يملك لكم من الله شيئاإن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعا) استفهام إنكارى بمعنى النفى أى لا أحـــد ( بل كان الله بما تعملون خبيراً ) فيجازيكم بسرائركم .

ثم بين سبحانه أن تخلفهم ليس لعذر وإنما هو تخلف نفاق فقال : ( بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ) طمعاً أن يستأصلهم العدو ( وزين ذلك فى قلوبكم ) زينه لكم الشيطان والهوى ( وظننتم ظن السوء ) وهو أنهم لن يرجعوا ( وكنتم قوما بورا ) هلكى .

« ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للكافرين سعيراً ) ناراً مسعرة وهو تسجيل عليهم بالكفر ثم بين سبحانه أنه المتصرف فى الكون كله على حسب مشيئته فقال : ( ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعـــذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيما ) فمن تاب منكم وندم فباب المغفرة مفتوح له .

ثم بين سبحانه أن هؤلاء المتخلفين لا هم لهم إلا المغنم ولا يعنيهم نصرة الإسلام فقال ( سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ) هى مغانم خيبر ( يريدون أن يبدلوا كلام الله ) هو ما وعد الله أصحاب بيعـــة الرضوان أن مغانم خيبر لهم وحدهم لا يشاركم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين « قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ) أى من قبل مرجعنا إليكم أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية (فسيقولون : بل تحسدوننا) أن نشركم فى الغنائم فرد الله عليهم زعمهم فقال : ( بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ) الفقه : الفهم والعلم .

ثم بين سبحانه أن لهم فرصة لتدارك ما فاتهم والتكفير عن سيئاتهم فقال : ( قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى باس شديد ) هو بنو حنيفة

وأضرابهم من المرتدين وقيل : أهل فارس والروم ( تقاتلونهم أو يسلمون ) أى ينقادون إليكم بلا قتال ويدخلون فى سلطانكم ( فان تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنا ) النصر فى الدنيا والثواب فى الآخرة ( وإن تتولوا كما توليتم من قبل ) فى الحديبية ( يعذبكم عذابا أليما ) بالذلة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، ثم بين سبحانه أصحاب الأعذار فى القعود عن الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج ، ومنها عارض كالمرض فقال . ( ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ) الآية .

ثم بين سبحانه رضوانه على أهل بيعة الحديبية فقال : ( لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ) هى شجرة سمرة كانت هناك وقد بنى عندها مسجد ، وقد كان الناس يأتون الشجرة ويصلون عندها حتى كان زمان خلافة الفاروق عمر فقطعها خشية أفتتان البعض بها ( فعلم ما فى قلوبهم ) من الإيمان وأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا ) هو صلح الحديبية ( ومغانم كثيرة يأخذونها ) هى مغانم خيبر ( وكان الله قويا عزيزاً ) لا يغالبه غالب ( وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ) هى جميع المغانم التى غنموها فيما بعد من العرب وغيرهم ( فعجل لكم هذه ) مغانم خيبر ( وكف أيدى الناس عنكم ) لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة وكذلك كف أيدى اليهود وغيرهم عن خلفتموهم وراء ظهوركم بالمدينة من عيالكم ونسائكم ( ولتكون آية للمؤمنين ) عبرة لهم أن الله ناصرهم وأن الخيرة فيما أختاره الله لهم وإن كرهوه فى الظاهرة ( ويهديكم صراطا مستقيما ) بانقيادكم لأمره وطاعتكم لرسوله ( وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديراً ) الأخرى : قيل فتح مكة ، وقيل : فتوح فارس والروم ، ثم بين سبحانه أنه لم يخير لهم القتال لحكم تجلت لا لضعفهم ولو أنهم قاتلوكم لأنتصرتم عليهم فقال ( ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيراً ، من دون الله أما أنتم فالله وليكم وناصركم « سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » أى سنة الله وعادته فى الأمم أن ينصر أهل الإيمان على أهل الكفر والحق على الباطل وأن العاقبة والنصر فى النهاية إنما هى للمتقين المخلصين .

ثم قال تعالى : « وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيراً » امتنان من الله على عباده المؤمنين حيث كف أيدى المشركين عنهم فلم ينلهم منهم سوء وكف أيدى المسلمين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام وصد كلا من الفريقين عن الآخر لحكم بالغة يعلمها وأوجد بينهم صلحا فيه خيرة للمؤمنين ، وعافية لهم وكان المشركون قد أرسلوا عيونا على المسلمين نحوا من سبعين فأسرهم المسلمون وجاءوا بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعفا عنهم بعد أن أمكنه الله منهم .

ثم قال تعالى : « هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام أن تعتمروا به ، والهدى معكوفا أن يبلغ محله » يعنى وصدوا الهدى الذى سقتموه وبقى محبوسا بالحديبية عن أن يبلغ محل نحره وهو الحرم ثم بين سبحانه الحكمة فى أنه لم يأذن له فى القتال مع قدرتهم عليه بقوله : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات » هم المستضعفون والمستضعفات ممن أسلموا وأقاموا بمكة ولم يستطيعوا الهجرة ( لم تعلموهم أن تطؤوهم أى تقتلوهم بغير علم ( فتصيبكم منهم معرة بغير علم ) أى ينالكم بقتلهم سبة وإثم ويقول المشركون : قتلوا إخوانهم فى الدين وجواب لولا محذوف تقديره لسلطناكم عليهم فقاتلتموهم وأبدتموهم ( ليدخل الله فى رحمته من يشاء ) متعلق بمحذوف أى كففناكم عنهم ليكون لهم فسحة فيفىء بعضهم إلى الإسلام ، وهذا ما كان فقد أسلم منهم بين الحديبية والفتح أبطال مغاوير كخالد بن الوليد وعمرو ابن العاص ، وعثمان بن طلحة بن عبد الدار ( لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ) تزيلوا : تميزوا يعنى لو تميز المؤمنون عن الكافرين لسلطناكم عليهم فقتلتموهم قتلا ذريعا .

( إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية : حمية الجاهلية ) هى الغضب والأنفة فأبوا أن تدخلوا مكة معتمرين ، وأبو أن يكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وأبو أن يكتبوا : محمد رسول الله ( فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ) فلم تأخذهم الحمية فيعصوا الله فى قتالهم ، ولكنهم كظموا غيظهم ، وأذعنوا لنبيهم

( وألزمهم كلمة التقوى ) هى كلمة الإيمان : لا إله إلا الله محمد رسول الله فعملوا بموجبها ووقفوا عند ما أمر الله ورسوله ( وكانوا أحق بها وأهلها ) أحق بكلمة التقوى وأهلا للعمل بها وأحترامها ( وكان الله بكل شىء عليما ) فقد وسع علمه كل شىء ، أما علمكم فقاصر ومن كان هذا شأنه فليتهم عقله ، وليلتزم ما امر به الله ونبيه ، وليتنه عما نهيا عنه وكن على ذكر على كلمة الصحابى الجليل سهل بن حنيف الآنفة .

ثم بين سبحانه أن رؤيا رسول الله صادقة ولا بد أن تتحقق فقال : ( لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله ) تعليم للخلق أن يلتزموها فى كل شىء وإن كان المتكلم بالقرآن سبحانه عالما بكل شىء وصدق الله ( ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ) ( آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ) ذلك أن رسول الله كان قد رأى فى المنام قبل الخروج إلى الحديبية أنه دخل مكة وطاف بالبيت فاخبر اصحابه بذلك فلما ساروا إلى الحديبية لم يشكوا أن هذه الرؤيا سيكون تأويلها هذا العام فلما حدث ماحدث من قضية الصلح ورجوعهم وقع فى نفس بعض الصحابة من ذلك شىء حتى سأل عمر رسول الله عن ذلك فأخبره أنه لم يقل هذا العام ، وأنه سيأتيه ويطوف به وهذا ما كان فقد وقع تأويل الرؤيا فى العام القادم ( فعلم مالم تعلموا ) وهو أن الصلاح والخير كان فى الصلح وتأخير الدخول للحكم التى ذكرها الله آنفا « فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » وهو صلح الحديبية وقيل : فتح خيبر ثم بين سبحانه أن الله ناصر نبيه وناصر دينه وسيعلو على الأديان كلها فقال : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » أنك المبعوث رحمة للعالمين ثم ختم سبحانه السورة ببيان صفة النبى وصحابته وأنهم لجلالتهم ضرب الله لهم الأمثال فى التوراة والانجيل ، وأشاد بذكرهم فى القرآن فقال : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، لا تأخذهم فى المشركين شفقة ولكنهم متوادون متراحمون بينهم فهو كقوله سبحانه : « أذله على المؤمنين أعزة على الكافرين » « تراهم ركعا

سجدا » كناية عن كثرة صلاتهم ومواظبتهم عليها « يبتغون فضلا من الله ورضوانا » أى يطلبون بأعمالهم الصالحهم ثواب الله ورضوانه وهو أعظم من الثواب « ورضوان من الله أكبر » « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » عليهم سيما الصلاح من الخشوع والتواضع وحسن السمت وإشراق الوجه « ذلك مثلهم فى التوراة » وبحسبهم فضلا أن ينوه الله سبحانه بهم فى توراته التى أنزلها على موسى عليه السلام « ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه » فرخه وهو أول ما يبدو منه « فآزره » فواه وشده « فاستغلظ » ترعرع وطال « فاستوى على سوقه » غلظ وقوى « يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » وكذلك أصحاب رسول الله كانوا قلة فكثروا ، وضعفاء فقووا ، وآزروه ونصروه حتى بلغ رسالة ربه ، وعم دينه المشارق والمغارب « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم » من لبيان الجنس أى هم « مغفرة » لذنوبهم « وأجرا عظيما » ثواباً جزيلا ورزقاً كريما لا يعلم قدره إلا الله ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل ، وكل من اقتفى أثر الصحابة ، ونهج نهجهم فهو فى ركابهم ، وإن كان لهم الفضل ، والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة رضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم .

## المهاجرات المؤمنات

كان من شروط الصلح كما أسلفنا أن من جاء قريش إلى النبى مسلماً رد ، فما إن استقر المقام للنبى بالمدينة حتى جاءت نسوة مؤمنات من قريش منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط فجاء أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلماه فيها أن يردها إليهما فأبى وروى أنه قال : ( كان ذلك فى الرجال لا فى النساء ) فأنزل الله سبحانه قوله : ( يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فان علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى

الكفار . . . ) الآية[1] ، وهكذا صدق الله نبيه فيما قال وأن النساء لايدخلن فى العهد الذين مضى وأنهن يختبرن فان ظهر إيمانهن لا يرجعن إليهم أبداً .

## تفسير الآيتين الواردتين فى هذه الحادثة

( فامتحنوهن ) وكانت صيغه الإمتحان كما روى ابن جرير عن ابن عباس: أن تقسم بالله ماخرجت من بغض زوج ، وبالله ماخرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ماخرجت التماس دنيا ، ولا عشقا لرجل ، وبالله ماخرجت إلا حبا لله ولرسوله ، فاذا قالت ذلك اكتفى به فى إيمانها وحرم إرجاعها إلى المشركين وذلك لأى المرأة لا يؤمن عليها الفتنة أما الرجل فله فى أرض الله الواسعة ملجأ كما صنع أبو جندل وأبو بصير وغيرهما (الله أعلم بايمانهن ) يعنى يكفيكم هذا فى اختبارهن فلكم الظاهر والله يتولى السرائر .

( فإن علموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولاهم يحلون لهن ) وهذه الآية هى التى حرمت النساء المسلمات على أزواجهن المشركين فان أسلم زوجها فهو أحق بها ما لم تتزوج غيره وقد رد رسول الله ﷺ ابنته زينب لأبى العاص بن الربيع لما أسلم ، بعد نزول هذه الآية قيل بالعقد الأول وقيل بعقد ومهر جديدين ( وآتوهم ما أنفقوا ) أى أعطوا أزواج المهاجرات المسلمات من المشركين ما انفقوا من مهور ( ولا جناح عليكم ) أيها المسلمون ( أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ) أى مهورهن بشرط انقضاء عدتهن ( ولا تمسكوا بعصم الكافر ) جمع كافرة والمراد المشركات لا الكتابيات ، نهى المسلمون عن الاستمرار مع زوجاتهم المشركات بهذه الآية كما نهوا عن زواجهن ابتداء بقوله سبحانه ( ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ) ولما نزلت آية الممتحنة طلق المسلمون أزواجهم المشركات فقد كان لسيدنا عمر زوجتان بمكة فطلقهما ، فتزوج أحداهما معاوية بن أبى سفيان وتزوج الأخرى أبو جهم بن حذافة وهما على شركهما قبل أن يسلما .

---

(١) سورة الممتحنة ١٠

( وأسألوا ما أنفقتم ) يعنى إذا لحقت امرأة منكم بالمشركين مرتدة فأسألوا ما أنفقتم من المهر ممن تزوجها منهم قبل لم ترتد امرأة مسلمة قط، وقيل ارتدت واحدة ثم عادت فأسلمت فيما بعد ( وليسألوا ما انفقوا ) يعنى للمشركين الذى لحقت زوجاتهم المؤمنات بكم أن يسألوا ما انفقوا من المهر ممن تزوجها منكم وهذا غاية العدل فى التشريع ولذا قال ( ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ) أى عليم بما يصلح العباد حكيم فى تشريعه .

ولما نزلت قال المسلمون : رضينا بما حكم الله وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا من أداء مهور من ارتددن أو ثبتن على كفرهن فانزل الله ( وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ) يعنى لو ذهبت إليهم امرأة مرتدة ولم يعطوا زوجها ما أنفق من مهر فأعطوه مما بأيديكم من مهور النساء اللاتى جئن مهاجرات ، ولا تعطوا مهورهن لازواجهن المشركين وذلك على سبيل المعاقبة والمقابلة بالمثل .

وقيل معنى ( عاقبتم ) غنمتم أى من ذهبت زوجته مرتدة إلى المشركين ولم يعطوه ما أنفق من مهر فاعطوها مما غنمتم ( واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون ) أى اتقوا الله واحذروا أن تتعدوا ما شرعه الله لكم ، ولا تستحيبوا لأهوائكم فى معاملة أعدائكم لأن الشأن فى المؤمن أن يتقى على كل حال .

## أحداث وتشريعات فى هذا العام

(١) فى هذا العام كان تشريع صلاة الخوف وهى تدل على يسر الشريعة الإسلامية وملاءمتها لكل زمان ومكان ولجميع الأحوال وقد اختلفت الفقهاء فى كيفيتها بناء على اختلاف الأحاديث والآثار الواردة فيها ، وليس هنا مكان تفصيل ذلك ، وإنما يطلب ذلك من كتب التفسير والحديث والفقه .

(٢) وفى هذا العام كان تحريم النساء المسلمات على أزواجهن المشركين بعد الحديبية، وتحريم النساء المشركات على ازواجهن المسلمين ، قبل للاسلام وقيل لاختلاف الدار .

# تحريم الخمـــر

وقد اختلف العلماء وأصحاب السير فى وقت تحريمها قيل سنة أربع، وهو الذى يدل عليه كلام ابن إسحاق ، فقد ذكر أنه كان فى واقعة بنى النضير ، وقيل سنة ست وهو الذى جزم به الدمياطى فى سيرته ، واستظهر الحافظ فى الفتح أنه كان سنة ثمان[1] والذى ترجح عندى أنه كانت ست .

ومهما يكن من شىء فقد كانت الخمر ممتزجة بلحوم العرب ودمائهم حتى بلغ من بعضهم وهو أبو محجن الثقفى أن قال فى الجاهلية .

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفـــلاة فإننى ... أخاف إذا مامت أن لا أذوقها

لذلك كان من حكمة الشارع الحكيم أن حرمها بالتدريج فإن النفوس البشرية يشق عليها ترك ما تعودته دفعة واحدة ( وشديد عادة منتزعة ) فقد نزل فيها أول ما نزل قوله سبحانه : ( يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما[2] والآية وإن لم تقطع بالتحريم إلا أن فيها ترجيح جانب الحرمة على الحـــل ، فمن ثم تركها قوم واستمر على شربها آخرون .

ثم إن بعض المسلمين وهو عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً لأصحابه فأكلوا وشربوا ثم قام أحدهم يصلى بهم وهو لا يعى فقرأ ( قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ) فترك حرف النفى فى الآية وهو ( لا ) فأنزل الله سبحانه ( يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون[3] فقالوا : ما لنا ولشىء يمنعنا عن صلاتنا ، فكانوا يتركونها عند الصلوات ، وفى الأوقات

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٨ ص ٢٢٤ ، وجـ ١٠ ص ٢٤
(٢) البقرة ٢١٩ .
(٣) النساء ٤٣ .

القريبة منها حتى إذا ما صلوا العشاء شربوا وناموا فيصحوون وقد زال أثر السكر وبذلك صار من السهل تحريمها تحريماً باتاً ، وهذا ما كان .

فقد صنع بعض المسلمين طعاماً ، فأكلوا وشربوا حتى لعبت الخمر برءوسهم ، فتهاجوا بالأشعار فتشاجروا حتى شج احدهم رأس الآخر بعظم فقال الفاروق عمر : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً فأنزل الله سبحانه ( يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون)[1] فقال عمر : انتهينا انتهينا وبذلك حرمت الخمر تحريماً باتاً قاطعاً روى هذا الإمام أحمد، وأصحاب السنن، ولما حرمت نادى منادى رسول الله : ألا إن الخمر قد حرمت ، فقام الناس إلى ما عندهم منها فأهرقوه حتى سالت بها طرق المدينة ، وبذلك نجح الإسلام أيما نجاح فى تحريمها على تأصلها فيهم ، وقد حاولت بعض الدول ـ الولايات المتحدة ـ فى العصر الحديث تحريمها بسطوة القانون ففشلت ، وأين قانون الإنسان من شريعة الرحمن ؟ فاعتبروا يا أولى الأبصار .

وروى أنه لما نزلت آية التحريم البات قال ناس : يا رسول الله فكيف بمن قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا على فراشهم وكانوا يشربونها فانزل الله سبحانه قوله : ( ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين)[2] رواه البخارى فالآية إعذار لمن كان يشربها قبل التحريم ومات على ذلك ، وليس فيها إباحة شربها لأن شربها لا يجامع التقوى بأى حال من الأحوال .

( ما هى الخمر ؟ ) والخمر هى كل ما أزال العقل أو غير منه روى البخارى فى صحيحه عن ابن عمر قال : قام عمر على المنبر فقال : ( أما بعد فإنه نزل

---

(١) المائدة ٩٠، ٩١.

(٢) المائدة ٩٣ .

تحريم الخمر وهى من خمسة : العنب والتمر ، والعسل والحنطة والشعير ، والخمر ما خامر العقل ) وقد خطب عمر بهذا وهو بمحضر من كبار الصحابة فلم ينكر عليه أحد ، وإلى هذا ذهب جماهير العلماء سلفاً وخلفاً ، وقد روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال : ( كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ) وفى رواية ( كل مسكر خمر وكل خمر حرام ) والخمر بجميع أنواعها حرام قليلها وكثيرها سواء ، ويحد شاربها وإن لم يسكر ، روى أبو داود فى سننه أن النبى ﷺ قال : ( ما أسكر الفرق منه ملء الكف منه حرام ) وكل ما أسكر فهو خمر سواء أكان من العنب ، أو التمر ، أو الزبيب ، أو البصل ، أو الشعير ، أو الذرة ، والعبرة ليست بالأسماء ، وإنما العبرة بالإسكار ، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هؤلاء الذين يتحايلون على الشرع ويسمون الخمر بغير اسمها فقال ( ليشربن أناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها ) رواه أحمد والبخارى فى التاريخ .

( حكمة تحريم الخمر ) والخمر مضرة بالصحة[1] مذهبة للأموال ، مفسدة لما بين الناس من أواصر المحبة والأخوة ، مغواة للشيطان ، صارفة عن ذكر الله وعن الصلاة ، سالبة للعقل الذى هو أشرف ما وهب الله الانسان معرضة شاربها للعربدة والتعدى على الدماء والأعراض ، فهى أم الخبائث فلا تعجب إذا كان الاسلام حرمها فيما حرم على المسلمين ليكون المجتمع الاسلامى على خير ما يكون ديناً وخلقاً ، وأمناً وسلاماً .

وقد يقول قائل : إن القرآن الكريم قرر فى آية البقرة أنها لم تخل من منافع فكيف جعلتها سبباً لكل هذه المآثم ؟ وأقول لمن يزعم ذلك : إن المراد بالمنافع فى الآية الدنيوية وهى ما يتخيله شاربها بعد شربها من النشوة وإدخال الفرح والسرور على نفسه ونسيان الهموم ، وما ينتفع به بعض الناس من صنعها

---

(١) انظر ما كتبه الطبيب النطاسى الدكتور عبد العزيز إسماعيل فى كتابه « الاسلام والطب الحديث » .

أو بيعها أو الانجار فيها ، وهى منافع لا توازى فى معيار الحق والفضيلة شيئاما فيها من مفاسد ومباذل ومآثم ، على أن هذه الآية كانت قبل التحريم فكان من الحكمة مجاراتهم فيما يزعمونه منافع حتى لا ينفروا ، ثم لما تهيأوا للتحريم حرمها وجردها من أيه منفعة أو مصلحة .

## تبليغ الإسلام فى العالم

« مكاتبة الملوك والأمراء »

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلح الحديبية وقد أمن شر قريش ومناوأتها لدعوة الإسلام ، ووجد الرسول الفرصة سانحة لتبليغ رسالة الإسلام للناس جميعاً عربهم وعجمهم إذ قد أرسل للبشر كلهم قال تعالى « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً »(١) وقال « وما أرسلناك إلى رحمة للعالمين »(٢) وقال « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »(٣) :

وقد كان هذا كسباً كبيراً للدعوة ، فقد شهدت آفاقاً واسعة ، ووجدت أرضا خصبة ، ونفوسا مستعدة لتقبل الدين الجديد بعد أن عاشت البشرية فى ليل داج مظلم ، ولم يكن ليخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعانيه العالم ولا سيما الدولتان اللتان كانتا تقتسمان النفوذ فى العالم حينئذ : فارس والروم من انحراف دينى وفساد خلقى ، واضطراب اجتماعى ، وما وقع بينهما من حروب وغارات أنهكت قواهما مما جعل هذه الشعوب على استعداد لقبول الاسلام ، الذى ينعمون فيه بالايمان والأمان ، والحرية ، والاخاء ، والعدل والمساواة ، ولذلك

---

(١) الاعراف ٥٨

(٢) الأنبياء ١٠٧

(٣) سبأ ٢٨ .

لم تكد تنتهى ثلاثون عاما من دعوتهم إلى الاسلام ، حتى كانت هذه البلاد قد دخلت فى الاسلام ، واستظلت بلوائه ، وقد كان بدء إرسال الكتب بعد الحديبية فى أواخر سنة ست أو أوائل سنة سبع ولذلك آثرت ذكر هذه الكتب فى هذا الموضع .

ولما عزم رسول الله على مكاتبة الملوك والأمراء خرج على أصحابه ذات يوم فقال : « أيها الناس إن الله قد بعثنى رحمة وكافة ، فلا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم » فقال أصحابه : وكيف اختلف الحواريون يارسول الله ؟ قال دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه ، فأما من بعثة مبعثاً قريباً فرضى وسلم ، وأما من بعثة مبعثاً بعيدا فكره وجهه وتثاقل » ثم ذكر أنه مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والنجاشى وغيرهم ، يدعوهم إلى الاسلام ، فأجابه أصحابه إلى ما أراد ، ثم صنع له خاتم ، من فضة نقش عليه ( محمد رسول الله ) ليختم به هذه الكتب .

## كتاب رسول الله إلى القيصر (هرقل)

وجه رسول الله دحية بن خليفة الكلبى بكتاب إلى قيصر وأمره أن يدفعه إلى حاكم ( بصرى ) ليوصله إلى هرقل ونص الكتاب : ( بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك إثم الاريسيين (١) ( قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا : إشهدوا بأنا مسلمون )

( موقف هرقل من الكتاب ) ولما وصل الكتاب إلى هرقل وكان الرجل عاقلا قال : ائتونى برجل من قومه أساله عنه ، فالتمسوه فصادفوا أبا سفيان فى

---

(١) الفلاحين والاتباع والمراد رعيته لانها غالبا تتبع ملكها وراعيها.

ركب من قومه ذاهبين بتجارتهم إلى الشام بعد صلح الحديبيه فجاءوا بهم إليه فسالهم بوساطة ترجمانة أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان أنا ، فقال له : ادن منى ، فاجلسه أمامه ، ثم أجلس بقية قومه خلفه حتى لا يخجلوا من رد كذبه عليه اذا كذب ، ثم ساله عن نسبه ، وهل ادعى ذلك أحد قبله ، وعن مبلغ صدقه ؟ وهل كان من آبائه من ملك ؟ وأيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم . وأيزيدون أم ينقصون ؟ وهل يرتد أحد من أتباعه سخطة لدينه ؟ وهل يغدر إذا عاهد ؟ وكيف حربكم وحربه ؟ وبم يأمركم ؟ كل ذلك وأبو سفيان يجيب بما هو الحق ثم استخلص هرقل الحق من كلام أبى سفيان فقال له : انى سألتك عن نسبه فزعمت انه فيكم ذو نسب . وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها ! وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فزعمت أن لا ، فلو كان احد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتم بقول قيل قبله وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال فزعمت ان لا ، فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ! وسألتك هل كان من آبائه ملك فقلت : لا فلو كان من آبائه ملك لقلت : رجل يطلب ملك ابيه ! وسألتك اشراف الناس يتبعونه ام ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم ، وهم اتباع الرسل ! وسألتك أيزيدون ام ينقصون فقلت . بل يزيدون ، وكذلك أمر الايمان حتى يتم وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه ، بعد ان يدخل فيه ، فذكرت ان لا.....!

وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ! وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر ! وسألتك هل قاتلتموه ؟ فقلت : نعم . وان الحرب بيننا وبينه سجال ، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبه ! وسألتك بماذا يأمر فزعمت انه يامركم ان تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عما كان يعبد أباؤكم . ويامركم بالصلاة والصدق والعفاف ، والوفاء بالعهد واداء الامانة ، ثم قال وهذه صفة نبى كنت أعلم أنه نبى ولكن لم أعلم انه منكم ، وان يك ماقلت حقا فيوشك أن يملك موضع قدمى هاتين ولو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت قدميه ! ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرىء

على الحاضرين فعلت أصوات من حوله من عظماء الروم وكثر لغطهم وأمر بأبي سفيان وأصحابه فأخرجوا فقال أبو سفيان : لقد عظم أمر ابن أبي كبشة[١] ، هذا ملك بني الأصفر[٢] يخافه ، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام .

ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم في دسكرة له ، ثم أمر بأبوابها فأغلقت ثم قال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وان يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة فلما رأى قيصر نفرتهم وغضبهم قال : ردوهم علي ثم قال لهم : إنما قلت مقالتي آنفا اختبر بها شدتكم على دينكم ، فسجدوا له ورضوا عنه[٣] ، وهكذا غلبه حب ملكه على الاسلام ، فذهب بائمة وإثم رعيته كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكنه مع هذا أكرم دحية ورده رداً جميلا .

## كتاب كسرى

ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة السهمي بكتاب إلى كسرى[٤] ملك الفرس وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين فدفعه إلى هذا كسرى ونصه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى . وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله ، فإني أنا رسول

---

(١) قيل هو كنية أبيه من الرضاعة واسمه الحارث بن عبد العزى كانوا ينسبونه إليه استهزاء .

(٢) هم الروم .

(٣) صحيح البخاري — باب بدء الوحي وكتاب الجهاد — باب دعاء النبي الناس إلى الاسلام .

(٤) كسرى لقب لكل ملك الفرس وهو كسرى بن برويز بن هرمز بن أنوشروان .

الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فان تسلم تسلم ، وان أبيت فان اثم المجوس عليك » فلما قرىء الكتاب عليه مزقه فلما بلغ رسول الله ذلك دعى عليه قائلا : اللهم مزق ملكه وقد استجاب الله لنبيه فقتله ابنه شيرويه، ولم تقف حماقة كسرى عند تمزيق الكتاب بل أرسل الى « باذان » عامله على اليمن . ابعث من عندك رجلين إلى هذا الرجل الذى بالحجاز ، ففعل باذان . فلما قدما على النبى قال : أبلغا صاحبكما أن ربى قتل ربه فى هذه الليلة ، وكان ذلك ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الآخرة سنة سبع من الهجرة فخرجا من عند النبى حتى قدما على باذان فأخبراه بمقتل كسرى ، وقالا له يقول لك: ان أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء ، ثم لم ينشب باذان ان جاءه كتاب شيرويه يخبره بقتل أبيه واوصاه أن لا يهيج النبى حتى يأتيه أمره فيه فقال : ان هذا الرجل لرسول ، فاسلم واسلم الأبناء من فارس الذين كانوا باليمن .

## كتاب المقوقس عظيم مصر

وأوفد عليه الصلاة والسلام حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس عظيم مصر وأميرها من قبل الروم بكتاب ونصه . « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وان توليت فأنما عليك إثم القبط ، ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فأن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[1] فوفد حاطب على المقوقس وكان بمدينة الاسكندرية فناوله الكتاب ، فقبله واكرم حاطبا وأحسن نزله .

ثم بعث إلى . وقد جمع بطارقته ، وقال : إنى سائلك عن كلام ، فأحب أن

---

(١) انظر صورة هذا الخطاب فى كتاب « الوسيط فى الادب العربى وتاريخه » ص١٢٢

تفهم عنى ، قال : قلت هلم ، قال : أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبى ؟ قلت بلى ، هو رسول الله ، قال : فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها ؟ ! قال : فقلت : عيسى بن مريم اليس تشهد أنه رسول الله ؟ قال : بلى ، قلت فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا ؟ !

سر منه وقال له : أنت حكيم قد جاء من عند حكيم[1] ثم قال إنى نظرت فى أمر هذا النبى فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكذاب ، وسأنظر ، ثم كتب رد الخطاب ، فقال فيه : « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظنه بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط ، وبثياب وأهديت إليك بغلة تركبها والسلام » وإحدى الجاريتين مارية التى تسراها رسول الله وولدت له ابراهيم والأخرى أعطاها حسان بن ثابت ، فولدت له عبد الرحمن بن حسان وقيل أربع جوار ، ومما أهدى غلام خصى اسمه « مابور » وحمار أسمى عفيرا أو يعفورا وقد أسمى النبى البغلة دلدلا وكانت فريدة بيضاء بين البغال التى عرفتها بلاد العرب .

وخطاب المقوقس هذا يدل على إكباره لرسول الله كما يدل على أنه لم يسلم ، ولم يبعد ، والذى يبدو أن الرجل خاف على ملكه ولولا هذا لآمن ونال حظه من الإسلام .

## كتاب النجاشى

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة مع عمرو بن أمية الضمرى ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٧٢

النجاشى عظيم الحبشة سلام على من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعـــوك بدعاية الله فإنى أنا رسوله فأسلم تسلم « ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد الا الله ولانشرك به شيئا ،ولايتخذ بعضنا بعضا ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » فان أبيت فعليك اثم النصارى من قومك » (١) .

ولما وصله الكتاب احترمه وكرم حامله وقال له : انى أعلم والله أن عيسى بشر به ولكن أعوانى بالحبشة قليل فانظرنى حتى أكثر الأعوان وألين القلوب وفى بعض الروايات انه أسلم والصحيح خلافه ففى صحيح مسلم عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب الى كسرى ، وإلى قيصر ، وإلى النجاشى ، وإلى كل جبار يدعوهم الى الله تعالى وليس بالنجـاشى الذى صلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم بعث اليه رسول الله بكتاب آخر مع عمرو ايضا بشأن مساعدة مهـاجرى الحبشة على الخروج إلى المدينة ، فاعد لهم سفينتين حملتاهم اليها فوصـلوا عقب فتح خيبر كما سيأتى إن شاء الله

## بقية الكتب

« كتاب المنذر بن ساوى »

ووجه عليه الصلاة العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين يدعوه وقومه إلى الإسلام فأسلم فأقره النبى على إمارته وأوصاه بالنصح والطاعة والإصـلاح ،وأن لايكره أحداً على الاسلام ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية .

« كتاب أمير بصرى »

وأرسل عليه الصلاة والسلام الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى أمير بصرى

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٣

فلما بلغ مؤته ـ قرية بمشارف الشام ـ تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى قال له : أين تريد ؟ قال : الشام قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال نعم فأمر به فضرب عنقه ولم يقتل لرسول الله رسول غيره

« كتاب أمير دمشق »

ووجه عليه الصلاة والسلام شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى أمير دمشق من قبل هرقل يدعوه إلى الاسلام ، ويعده ملكه إن أسلم فلما وصله الكتاب رمى به ، وقال : من ينتزع منى ملكى ؟ واستعد ليرسل جيشا لحرب النبى وقال لشجاع : أخبر صاحبك بما ترى ، ثم أرسل الى قيصر يستأذنه فى ذلك وصادف ذلك مجىء دحية بكتاب رسول الله إلى هرقل فكتب اليه ينهيه عن عزمه ، فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاعا بالحسنى ووصله بنفقه وكسوة.

« كتاب ملك اليمامة »

ووجه النبى سليط بن عمر العامرى بكتاب الى هوذة بن على ملك اليمامة يدعوه الى الاسلام ووعده أن يجعل له ماتحت يديه إن أسلم فكتب فى رد الكتاب ماأحسن ماتدعوا اليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الأمر أتبعك ، فلما بلغ كتابه الرسول قال . « لو سألنى قطعة من الأرض مافعلت ، باد وباد مافى يديه » فلم يلبث أن مات منصرف الرسول من فتح مكة

« كتب أخرى »

وكذلك ارسل النبى الى جبلة بن الايهم الغسانى ، والى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن والى جيفر وعبد أبنى الجلندى ملكى عمان والى غيرهم من الملوك والأمراء فمنهم من أجاب وأسلم ومنهم من رد ردا سيئا

ويلاحظ على هذه الكتب الخبرة الدقيقه بنفوس من أرسل إليهم ، وحسن تخير الالفاظ المناسبه لكل ، والمثيرة للعواطف والمشاعر ، كما يلاحظ أن بعض

من لم يسلم كان رده رداً جميلا رقيقاً مما يدل على قوة الإسلام وسطوته ، وسماحة دعوته فلا تعقيد فيها ولا غموض ، وأن الصحابة الذين حملوا الكتاب ، كانوا عند حسن ظن الرسول بهم ، ووفوا بما عاهدوه عليه من الاقدام ، وأن لا ينكصوا . كما نكص بعض رسل عيسى عليه الصلاة والسلام ، كما كان عجيباً أن لم يقتل من الرسل على كثرتهم إلا واحد ، وهذا يدل على أن العالم حينئذ كان يستشرف إلى دين جديد سمح ينقذه من الحضيض الذى هوى إليه فكان هذا الدين هو الاسلام .

## ( السنة السابعة )

## غزوة ذى قرد[1]

لم يختلف أصحاب السير أنها كانت سنة ست قبل الحديبية وإن اختلفوا فى شهرها ، وجزم الإمام البخارى بأنها كانت قبل خيبر بثلاث ليال على ما ثبت عنده من أحاديث صحيحة ، وقد رجح الحافظان ابن كثير وابن حجر ما ذهب إليه البخارى[2] ولذلك آثرت ذكرها هنا تبعاً لما فى الصحيح .

أغار عبد الرحمن بن عيينة بن حصن الفزارى فى جماعة من قومه غطفان على لقاح[3] النبى ﷺ بالغابة وعلى اللقاح رجل من غفار ومعه امرأته فقتلوا الرجل واستاقوا اللقاح وأخذوا معهم المرأة ، وكان أول من سمع بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع ، فقد لقيه غلام لعبد الرحمن بن عوف فأخبره فتوشح سيفه ، وتنقب قوسه ، وأخذ نبله وصعد على جبل فرآهم فصاح واصباحاه[4] (ثلاثاً) وخرج يشتد فى آثار القوم ، وكان عادياً لا يسبقه أحد حتى لحق بهم فجعل يرميهم بالنبل ويقول :

---

(١) بفتح القاف والراء وحكى الضم فيهما وهو ماء على نحو يريد من بلاد غطفان .

(٢) فتح البارى - جـ٧ ص ٣٧ .

(٣) جمع لقحة بكسر اللام وفتحها الابل ذوات اللبن .

(٤) كلمة فقال عند استنفار الغافل .

خذها وأنا ابن الأكوع  اليوم يوم الرضع[1]

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هاربا ، وكان رسول الله ﷺ قد سمع صياح ابن الأكوع فنادى فى المدينة « الفزع . الفزع » فترامت الخيول إلى رسول الله ، فأمر عليهم سعدا وقال : اخرج فى طلب القوم حتى الحقك . منهم المقداد بن الأسود، وعباد بن بشر ، وجعد بن زيد ، وعكاشة بن محصن ، وأبو قتادة ، وما زال سلمة يكر ويفر ، حتى استنقذ منهم اللقاح واستلب منهم أكثر من ثلاثين بردة ، وثلاثين رمحاً ألقوها متخففين منها ، وهم يظنون أنه ما فعل ذلك إلا ومعه كمين أو وراءه مدد ، ولما أدركهم الفرسان المسلمون حمل أبو قتادة على عبد الرحمن بن عيينة فقتله ، وقتل عكاشة رجلا وابنه ، وقتل من المسلمين محرز بن فضلة ، وأخذ المشركون فى السير هرباً ، ولم يلبث رسول الله أن جاء فى خمسمائة من أصحابه وأقام على ذى فرد يوماً وليلة ، فقال سلمة : يا رسول الله لو سرحتنى ومائة رجل لاستنقذت بقية السرح ، وأخذت بأعناق القوم فقال العفو الكريم : « يا سلمة ملكت فأسجح[2] ، إنهم الآن ليغبقون فى غطفان[3] » أى فاتوا ووصلوا إلى بلادهم .

وقسم النبى الغنيمة عليهم وأعطى سلمة سهمين : سهم الراجل وسهم الفارس، تقديراً له ، وأردفه على ناقته العضباء ، وهم عائدون إلى المدينة ، وقال : « خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة » وعاد المسلمون بعد أن لقنوا غطفان درسا لن ينسوه .

« لا نذر فى معصية » وكانت امرأة الغفارى قد غافلت المشركين ، وركبت ناقة من إبل النبى حتى قدمت عليها المدينة ، وكانت نذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنها ، فلما أخبرت الرسول تبسم وقال : « بئسما جزيتيها أن

---

(١) جمع راضع وهو الثيم أى يوم هلاك اللئام.

(٢) اى إذا قدرت فاعف.

(٣) ليغبقون : يشربون لبن العشى ، والغبوق — بفتح العين — ما يشرب بالماء.

حملك الله عليها وتجاك بها ، ثم تنحريها ، إنه لا نذر فى معصية ، ولا فيما لا يملكين وإنما هى ناقة من إبلى »

« الوفاء حتى للحيوان » وإن هذه القصة لترينا حسن العهد ، وغاية الوفاء اللذين كان يتخلق بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الوفاء الذى شمل بنى الإنسان والحيوان ، وقد كان هذا ردسا علمه رسول الله هذه المرأة ليكون عبرة للأجيال ، إن صاحب الخلق العظيم يعلمنا أن نقابل الإحسان بالإحسان والجميل بالجميل ، والنعم بالشكر ، لا بالجحود والكفران ، وأن الوفاء لازم حتى للحيوان وبعد أن بين لها الرسول الكريم أن هذا وإن كان لا يليق خلقا ومروءة فهو لا يجوز شرعا ، إذ لا نذر فى معصية ولا فيما لا يملكه الإنسان.

## ( غزوة خيبر )

وفى هذه السنة كانت غزوة خيبر ، وبالانتصار فيها تم القضاء على شوكة اليهود فى جزيرة العرب وسنرجىء الكلام عليها إلى بحث موقف الاسلام من اليهود بعد الفراغ من حوادث هذا العام .

## ( غزوة ذات الرقاع[1] )

خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمع من أصحابه قيل : أربعمائة وقيل : سبعمائة قبل نجد يريد بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان لما بلغه أنهم يجمعون الجموع له ، واستخلف على المدينة أباذر ، وقيل عثمان بن عفان ، فساروا حتى وصلوا « نخلا » فلقى بها جمعا من غطفان فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب ، وخاف المسلمون أن يأخذهم المشركون على غرة فصلى النبى بأصحابه صلاة الخوف ، وذلك أن طائفة منهم صفت مع النبى صلى الله عليه

---

(١) اختلف فى تسميتها « ذات الرقاع » فقيل : لانهم كانوا يلفون على أرجلهم الخرق لما حفيت أقدامهم ، وقيل : لأنهم رقعوا راياتهم فيها .

وسلم ووقفت طائفة تجاه العدو فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائماً ،وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا فصفوا تجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التى بقيت من صلاته ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم . ثم سلم بهم . وقد ورد عن النبى فى صفة صلاة الخوف كيفيات أخرى حملها بعض العلماء على التوسع والتخيير ، وأن أية طريقة منها جائزة ، وحملها البعض الآخر على اختلاف الأحوال فاذا اشتد الخوف أخذ بأيسرها مؤونه ، وأقلها عملا ، وهـذا يدل على يسر الاسلام وسماحته ، وصلاحيته لكل زمان ومكان . وقد اختلف فى تحديد وقتها فالإمام البخارى يرى أنها كانت سنة سبع بعد خيبر وساق أدلته على ذلك ، أما أصحاب السير فذهبوا إلى أنها قبل خيبر ، وإن اختلفوا فى تحديد زمانها فقيل سنة أربع ، وقيل سنة خمس ، وقيل فى أوائل سنة ست

## ( قدوم مهاجرى الحبشة )

وفى هذا العام وفد على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة من بقى من مهاجرى الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب ، ومعه بضعة وخمسون رجلا من أهل اليمن وهم الأشعريون ، منهم أبو موسى الأشعرى، وأخوه أبو بردة، وأبوهم، ففى صحيح البخارى عن أبى موسى أنه بلغهم مخرج النبى صلى الله عليه وسلم وهم باليمن ، فخرجوا مهاجرين إليه وركبوا سفينة ولكن الرياح عاكستها ،وألقت بها إلى الحبشة ، فوافوا جعفر وأصحابه هناك ، فأقاموا معهم حتى بعث النبى عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى أن يجهز إليه جعفر ومن معه ، فجهزهم وحملهم فى سفينتين وعادوا مكرمين إلى المدينة، وكان قدومهم بعد فتح خيبر ، وقد سر النبى بمقدم جعفر وأصحابه ، وقال : « ما أدرى بايهما أنا أسر بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر ؟ » وكان فيمن قدم مع جعفر زوجته أسماء بن عميس والسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان زوج الرسول وخالد بن سعيد بن العاص ، وزوجته ، وولده ، وعمرو بن سعيد بن العاص والأشعريون

---

(١) فتح البارى ج ٧ ص ٣٣٤ (٢) المرجع السابق ص ٣٤٠

ولما قدمت أسماء ورآها الفاروق عمر قال لها : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم ، فغضبت ، وقالت : كلا والله كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا فى دار البعداء البغضاء ، وذلك فى الله ، وفى رسول الله ثم أخبرت النبى بمقالة سيدنا عمر فقال لها : « ليس بأحق بى منكم ، له ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » اى هجرتهم إلى الحبشه ، ثم هجرتهم إلى المدينة ، فما فرح أصحاب السفينة بشىء أعظم من فرحهم بمقالة الرسول .

ولما لهم من منزلة ، ولما تحملوه فى سبيل الإسلام قسم لهم جميعاً من غنائم خيبر ، ولم يقسم لأحد لم يشهدها غيرهم إلا ما كان من أمر أبى هريرة فقد قدم على النبى مسلماً ، وهو بخيبر بعد فتحها ، فكلم النبى أصحابه فى شأنه فاشركوه فى غنيمتهم .

## سرية بشير بن سعد

بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد الأنصارى لقتال بنى مرة بناحية فدك ، فلما ورد بلادهم لم ير منهم احداً ، فاستاق نعمهم ، وكان القوم بالوادى فجاءهم الصريخ [1] ، فأدركوه ليلا وهو راجع ، فتراموا بالنبل ، ولما أصبح الصباح اقتتل الفريقان قتالا مريراً حتى قتل عامة من كان مع بشير وصمد هو يومئذ صمود الأبطال ، ومازال يقاتل حتى أثخنته الجراح ، وظنوا أنه مات ، ثم لم يلبث وقد انصرف عنه العدو أن تحامل على نفسه حتى جاء إلى رسول الله وأخبره الخبر .

## « سرية غالب بن عبد الله »

وفى رمضان سنة سبع بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبى ،

---

(١) المغيث

إلى الميفعة[١] من أرض بنى مرة فى جماعة من الصحابة منهم أبو مسعود البدرى، وكعب بن عجرة، وأسامة بن زيد، فأدرك أسامة بن زيد ورجل من الأنصار «مرداس بن نهيك»[٢] فلما شهرا عليه السيف قال: أشهد أن لا إله إلا الله فكف عنه الأنصارى وقتله أسامة، وقد لامه الصحابة على هذا حتى سقط فى يده، فلما قدموا على رسول الله أخبروه فقال: «يا أسامة كيف لك بلا إله إلا الله»؟ فقال: يارسول الله إنما قالها متعوذا من القتل، فقال النبى: «فهلا شققت عن قلبه فنظرت إليه»؟! ومازال النبى يردد قوله: «فكيف لك بلا إله إلا الله» حتى تمنى أسامة أنه لم يكن أسلم قبل ذلك اليوم وقال: إنى أعطى الله عهداً أن لا أقتل رجلا يقول: لا إله إلا الله ابداً» فقال النبى «بعدى يا أسامة» قال: بعدك وهذا يدل على عظم حرمة كلمة التوحيد، وأن الرجل مادام أظهر كلمة الإسلام فهو معصوم الدم.

وقد حدث مثل ذلك من المقداد وغيره من الصحابة متأولين[٣] فأنزل الله هذا التأديب الإلهى فى قوله: «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا، ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعلمون خبيرا» النساء الآية ٩٤

## عمرة القضاء والقضية والقصاص[٤]

ها هو العام قد استدار، وحل ميعاد عمرة القضاء، فما إن وافى ذو القعدة من عام سبع، حتى أذن مؤذن رسول الله أن يتجهزوا للعمرة، وخرج مع

---

(١) بكسر الميم وسكون الياء وفتح الفاء على ثمانية برد من المدينة بناحية نجد

(٢) «مرداس» بكسر الميم و «نهيك» بفتح النون وكسر الهاء.

(٣) فتح البارى ج ٨ ص ٢٠٨، وتفسير القرطبى ج ٥ ص ٣٣٦، ٣٣٧

(٤) سميت عمرة القضاء لأنها كانت قضاء عن العمرة الأولى وأنكر السهيلى ذلك.

رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من كان معـــه بالحديبية إلا من مات أو استشهد ، وخرج معه آخرون حتى بلغت عدتهم ألفين ، واستخلف على المدينة عويف بن الأضبط الديلى وقيل أبارهم ، وسار رسول الله يلبى والمسلمون يلبون بعد أن أحرموا بالعمرة ، وساقوا أمامهم الهدى ، وشهدت الصحراء هذا المشهد الرائع الذى لم تشهده من قبل ، وعجت الصحراء بالتهليل والتكبير والتلبية ، والمسلمون يغذون السير يحدوهم الشوق إلى بيت الله الحرام ، ويستخفهم الفرح بالعودة إلى البلد الطيب الذى فيه ولدوا ، وعلى ترابه ترعرعوا ، وفى مغانيه كانت ذكريات الطفولة ومآرب الشباب .

وكان رسول الله — رعاية للحيطة ، وأخذاً للحذر — قد ساق أمامه الخيل وعليها محمد بن مسلمة ، والسلاح مع بشير بن سعد حتى إذا غدر أهل مكة بهم أو أهاجهم هائج كان السلاح قريباً منهم ، وفى مر الظهران التقى نفر من قريش بمحمد بن مسلمة فى خيل المسلمين ، ورأوا السلاح مع بشير بن سعد ، فرجعوا سراعا فأخبروا قريشاً ، ففزعت قريش وقالوا : والله ما أحدثنا حدثاً ، وإنا على كتابنا وهدنتنا ففيم يغزونا محمد فى أصحابه ؟ ولما بلغ رسول الله بطن يأجج حيث ينظر أنصاب الحرم[1] ترك الخيل والسلاح وبعثت قريش مكرز بن حفص فى نفر منهم فالتقوا بالنبى ببطن يأجج ، فقالوا يا محمد ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، وقد شرطت أن لا تدخل مكة إلا بالسيوف فى القرب فقال له النبى : « إنى لا أدخل عليهم السلاح » فقال مكرز : هذا الذى تعرف به : البر والوفاء .

ثم رجع إلى قريش فأخبرهم ، فخرجوا إلى رءوس الجبال ، وأخلوا مكة

---

= وقد سميت بالقضاء لانها كانت بسبب التقاضى والصلح بين المسلمين والمشركين فى الحديبية ، وتسمى عمرة القضية أيضا لما ذكرنا ، وتسمى عمـــرة القصاص لأنها كانت قصاصاً عن عمرة الحديبية وقيل لقول الله تعالى : « والحرمات قصاص » لأنهم لما منعوا المسلمين من الاعتمار فى شهر حرام كان جزاؤهم أن يدخلوا عليهم مكة فى شهر حرام من العام القابل .

(١) العلامات الدالة علية .

للمسلمين ، واكتفوا بالنظر إليهم عن عل ، واستبد الحنق والغضب ببعضهم فذهبوا إلى الخندمة ، كراهة أو ينظروا إلى النبى ، وإلى أصحابه ، وتهيأ المسلمون لدخول البلد الحرام ، وركب رسول الله على ناقته القصواء ، وهؤلاء الغر الميامين ، والأبطال الأشاوس يحيطون به ، وهم متوشحون سيوفهم والكل يقول : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » والبطل المقدام عبد الله بن رواحة آخذ بزمام الناقة وهو يرتجل ويقول .

خلوا بنى الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير فى رسوله
يا رب إنى مؤمن بقيله ... أعرف حق الله فى قبوله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

وأنكر ابن هشام أن البيتين الأخيرين من كلام ابن رواحه وأنهما لعمار ابن ياسر يوم صفين ، وقال : إنما يقاتل على التأويل من أقر بالتنزيل وفيما قاله نظر ، فإن موسى بن عقبة والحافظ البيهقى رويا هذا ، والمسلمون قد قاتلوا المشركين على تأويله ، كما قاتلوهم على ما أوجبه التنزيل[1].

ودخل المسلمون المسجد الحرام ليطوفوا بالبيت ، وكان المشركون قد أرجفوا وقالوا : إنه يقدم عليكم وقد وهنتهم حمى يثرب وتطلعوا من رءوس الجبال ليروا الذين أضعفتهم الحمى والغربة ، فلما علم النبى بهذه المقالة اضطبع بردائه وصار يهرول[2] وأمر المسلمين أن يضطبعوا ويهرولوا وقال : رحم الله

---

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٢٨ ، فتح البارى جـ ٧ ص ٤٠٢ .

(٢) الأضطباع أن يضع منتصف إزاره تحت إبطه اليمنى ثم يطرح طرفه على كتفه اليسرى ، والهرولة فوق المشى العادى ، ودون الجرى مع تقارب الخطا وهز الكتفين ، ومعنى تنم عن القوة والفتوة وهذا أصل هذه السنة ثم أبقاها الشارع لما فيها من التذكير بنعمة الله على المسلمين حيث أعزهم بعد ذلة ، وقواهم بعد ضعف ونصرهم ومكن لهم فى الأرض بعد ضيعة ، وقد ذكر المرحوم الشيخ الخضرى فى سيرته : أن النبى طاف بالبيت وهو على =

أمراً أراهم اليوم من نفسه قوة ، فكان إذا استلم الحجر الأسود هرول وهرولوا حتى إذا استلم الركن اليمانى وواراه البيت منهم مشى ومشوا حتى يستلم الركن عند الحجر الأسود وهكذا فعل الأشواط الثلاثة الأولى ومشى فى الأربعة الباقية ، ولولا الرحمة بهم ، والاشفاق عليهم لهرول بهم الأشواط كلها ، وبعد الطواف وصلاة ركعتين عند مقام ابراهيم سعوا بين الصفاء والمروة ، ثم حلقوا وذبحوا هديهم وبذلك تمت عمرتهم ورأى المشركون هذا المشهد المؤثر المعبر ، فخاب ظنهم ولم يكتموا ما بأنفسهم فقالوا : مايرضون بالمشى ، أما إنهم لينفرون نفر الظباء ، وازدادوا كمدا إلى كمد .

« إقامة النبى بمكة » ومكث النبى ، والمسلمون بمكة ثلاثة أيام ، يطوفون بالبيت ويصلون ، ويعبون من ماء زمزم ، وقد قضوا بعد حاجات النفس المشوقة إلى بيت الله الحرام ، وفى صبح اليوم الرابع جاء سهيل بن عمرو وحويطب ابن عبد العزى إلى رسول الله وهو يتحدث مع سعد بن عبادة ، فصاح حويطب نناشدك الله والعهد لما خرجت عن أرضنا فقد مضت الثلاث فقال سعد : كذبت ليس بأرضك ولا بأرض آبائك والله لايخرج ، ولكن رسول الله حسم المخاصمة وقال لهما : « إنى قد نكحت فيكم امرأة ـ ميمونة ـ فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ، ونصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا » وذلك تطييبا لنفوسهم ، وتأليفا لقلوبهم ، ولكنهما أبيا فأمر رسول الله أبا رافع فأذن بالرحيل ، فارتحل الرسول وأصحابه حتى نزلوا بسرف ـ قرية قرب مكة ـ وأقاموا هناك وفيها بنى النبى صلى الله عليه وسلم بزوجه ميمونة ، ثم ارتحلوا إلى المدينة وألسنتهم تلهج بالشكر والثناء على الله ، أن صدق وعده ، ونصر عبده ، وهم يرددون قول الله سبحانه « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » .

---

— نالته ، واستلم الركن بمحجن فى يده وهذا ليس بصحيح وإنما كان ذلك فى حجة الوداع وهذا الذى ذكرناه هو عاذكره ابن اسحاق وثبت فى الأحاديث الصحاح .

« حادثة وقضية » ولما خرج النبى من مكة تبعته فاطمة ابنة حمزة شهيد أحد وكان جارية صغيرة ، وقالت : ياعم ياعم ، فتناولها على وقال لفاطمة : دونك ابنة عمك فحملتها فلما رجعوا الى المدينة اختصم فيها على ، وزيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب فقال على : أنا اخذتها وهى ابنة عمى ، وعندى ابنة رسول الله وهى أحق بها ، وقال جعفر ابنة عمى وخالتها تحتى[1] ، وقال زيد ابنة أخى[2] فقضى النبى بها لخالتها وقال : « الخالة بمنزلة الام » ثم طيب خاطر كل واحد من هؤلاء الثلاثة فقال لعلى . « أنت منى وأنا منك » وقال لجعفر : « أشبهت خلقى وخلقى[3] » وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » ولما كبرت قال على للنبى: ألاتتزوج ابنة حمزه فقال : « إنها ابنة أخى من الرضاعة » .

وإن لنا هنا لوقفة عند هذه القضية الشائكة ، فكل من الثلاثة أدلى بحجته ، وعلى وجعفر تربطهما بالنبى صلة القرابة الوثيقة ، وهما بالنسبة للبنت ابناء عمومة ، وزيد تربطه بالنبى علاقة تربية ومحبه بهما آثر النبى على أهله حتى تبناه النبى ثم أبطل ذلك الإسلام فيما ابطل ، قضية محيرة حقا ، ولكن ذا القلب الكبير والعقل الواسع قضى فيها خير ما يكون القضاء ، فزيد مهما نال من شرف الاخوه وحقها لحمزة فهو دون على وجعفر فى استحقاق ابنة حمزة ، وقد يرى بعض بنى هاشم فى تربيتها فى بيت مولى لهم ما يخل بمنزلتهم فى قريش ، أو ترى البنت الهاشمية فى ذلك غضاضة عليها فبقى التفاضل بين على وجعفر ، كلاهما من بنى هاشم ؛ و كلاهما ابن عم لها ، وكلاهما من السابقين الأولين من المهاجرين ومنزلتهما فى الإسلام معروفة ، فليكن التفاضل بما وراء ذلك فمن ثم قضى بها لجعفر ، لأن خالتها عنده والخالة كما قال الصادق

---

(١) لان أم البنت هى سلمى بنت عميس اخت اسماء بنت عميس

(٢) لأن النبى كان آخى بن حمزة وزيد حين عقد المؤخاه بين المسلمين

(٣) الأولى بفتح الخاء وسكون اللام والثانية بضم الخاء واللام .

الصدوق بمنزلة الام ، وقد يبدو بادىء الرأى أن عليا كان أولى بها ، لأنه ابن عم ، وزوجه بنت عم لها ، ولكن كيف ؟ وابنة العم مهما بلغت من الكرم والتسامح والرعاية لن تكون كالخالة ، وربما ترى فى وجود ابنة العم معها — وهى من تحل لزوجها — منافسا لها ، فلا تعجب إذا كان صاحب القلب المضىء ، والنظر الرحيب قد قضى بهذا القضاء العادل الحكيم فقضى بها لجعفر ، أو إن شئت الدقة فقل لخالتها التى عنده أسماء بنت عميس ، وهى من هى دينا وخلقا وتضحية فى سبيل الله ورسوله ولا يخفى على العارف بالنفوس البشرية ، وما يدب فيها من الخواطر والهواجس ما عسى أن يداخل نفوسهم من ألم أو خواطر لفوات ما كانت تحب وتهوى ، أو هوان وضعف منزله ، فيطيب خاطر الثلاثة بهذه الاوصاف المشرفة الموزونة بميزان عادل دقيق لا يمكن أن يكون إلا ممن أوتى جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصارا ، وبهذا جمع النبى صلوات الله وسلامه عليه بين جلال الحق العادل وجمال تطييب الخاطر .

## ( تشريعات وحوادث هذا العام )

« تحريم لحوم الحمر الأهلية وغيرها » وفى غزوة خيبر حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الحمر الأهليه — الإنسية — وحرم لحوم كل ذى ناب من السباع ، و كل ذى مخلب من الطير ، روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر » ورويا بسندهما عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه جاء فقال : أكلت الحمر ، ثم جاءه جاء فقال : أكلت الحمر ، ثم جاءه جاء فقال : أفنيت الحمر فأمر مناديا ينادى فى الناس إن رسول الله ينهاكم عن لحوم الحمر الأهلية فانها رجس فأكفئت القدور وإنها لتفور باللحم »

وروى مسلم عن ابن عباس قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن كل ذى ناب من السباع و كل ذى مخلب من الطير » و بينت رواية الترمذى أن ذلك كان فى خيبر(١)

## (تحريم نكاح المتعة)

وفى خيبر أيضا حرم النبى نكاح المتعة ، وهو النكاح لأجل ، ولم يكن يستلزم طلاقا ولا عدة ، ولا يستوجب ميراثا ، وقد كان هذا النكاح معروفا فى الجاهلية ، فلما جاء الاسلام أباحها فى بعض الغزوات للضرورة القصوى ففى حديث ابن مسعود « أنهم كانوا اذا غزوا اشتدت عيهم العزبة فأذن لهم فى الاستمتاع » وقد ورد فى حل المتعة ثم تحريمها أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما،فى الصحيحين عن على رضى الله تعالى عنه قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المتعة ، عام خيبر ، ولحوم الحمر الاهلية »وفى صحيح البخارى عن على أيضا التصريح بأن نكاح المتعة نسخ ، وتحرير المقال، فى هذا المقام، الذى كثر فيه القيل والقال ، أن تحريم المتعة بعد اباحتها وقع مرتين : الأولى يوم خيبر ، والثانية يوم فتح مكة أبيحت ثلاثة أيام ثم حرمت بعد ذلك تحريما مؤبدا إلى يوم القيامه ، ووقع الاجماع بعد ذلك على تحريمها من جميع العلماء إلا الشيعة ، وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول باباحتها ، وروى عنه أنه رجع عنه ، بل قد ورد عنه كان يبيحها للضروره ، فقد روى الخطابى والفاكهى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس لقد سارت بفتياك الركبان ، وقال فيها الشعراء ، فقال : والله مابهذا أفتيت وماهى إلا كالميته لاتحل إلا للمضطر ، فاذا ثبت ذلك وأنه رجع عن مقالته فقد تأكد الإجماع على حرمتها بعد الفتح إلى يوم القيامه ، وأجمع العلماء على أنه متى وقع نكاح المتعه الآن حكم ببطلانه سواء كان قبل الدخول ، أو بعده ،إلا ماورد عن زفر من الحنيفه فى انه يتأيد نكاحه، وكأنه يرى التوقيت من باب الشروط الفاسدة فى النكاح ،فإنها تلغى ويصح النكاح

---

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٥٤٠ ، صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٣ ص ٨٢ ، ٩٦

ولاأدرى كيف يستحل الشيعه نكاح المتعه ، ويقولون ببقائه بعد مائبت فى الصحيحين عن الإمام على رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عنها وانها منسوخه (١) والحق أحق ان يتبع

## ( زاوج النبى بصفية بنت حيي النضرية )

هى السيدة صفية بنت حيى بن أخطب من ذرية هرون بن عمران ، ومن سبط لاوى بن يعقوب ، ولما أجلى النبى يهود بنى النضير من المدينه ، ذهب عامتهم إلى خيبر وفيهم أبوها حيي سيد بنى النضير وبنو أبى الحقيق ، وكانت صفيه حينئذ دون البلوغ فلما بلغت تزوجها سلام بن مشكم ثم خلفه عليها كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وكان عنده كنز بن النضير فجىء به إلى الرسول بعد هزيمة يهود خيبر ، فسأله عن الكنز فجحده ، فقال له النبى : « أرأيت إن وجدناه ، عندك أقتلك » ؟ قال : نعم فأتى رسول الله رجل من اليهود فقال : يارسول الله إنى رأيت كنانه يطيف بهذه الخربة كل غداة ، فأمر الرسول بالخربة فحفرت ، فأخرج منها بعض الكنز ، ثم سأله عما بقى فأبى أن يؤديه ، فدفعه رسول الله إلى محمد بن مسلمة ، فضرب عنقه باخيه محمود بن مسلمة الذى قتلة اليهود فى خيبر ، ولما فتح المسلمون القموص ، حصن بنى أبى الحقيق كانت صفية فى السبى ، فأعطاها دحية الكلبى ، فجاء رجل إلى النبى فقال : يارسول الله أعطيت دحية صفية بنت حيى سيدة قومها ، وهى ما تصلح إلا لك ، فاستحسن النبى ما أشار به الرجل ، وقال لدحية : « خذ جارية من السبى غيرها » ثم أخذها رسول الله وأعتقها وجعل عتقها صداقها وهكذا رد النبى إليها بصنيعه هذا اعتبارها ، وحفظ لها شرفها وسيادتها وذكر ابن سعد عن الواقدى قال : لم يخرج النبى من خيبر حتى طهرت صفية من حيضها فحملها وراءه ، فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها فأبت عليه فوجد فى نفسه ، فلما كان بالصهباء نزل بها

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٩ ص ١٧٩ — ١٨١ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٩ ص ١٣٦

هناك فمشطتها أم سليم ، وعطرتها ، وزفتها إلى النبى وبنى بها ، فسألها «وما حملك على الامتناع من النزول أولا » ؟ فقالت خشيت عليك من قرب اليهود فعظمت فى نفسه ، ومكث رسول الله بالصهباء ثلاثة أيام ، وأولم عليها ودعا المسلمين ، وما كان فيها من لحم وإنما التمر والأقط والسمن ، فقال المسلمون : احدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه : فلما ارتحل وطأ لها خلفه ومد عليها الحجاب ، فأيقنوا أنها إحدى أمهات المؤمنين ، وقد بلغ من اكرام النبى لها أنه كان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب ، وقد بلغ من أدبها أنها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته ، فكانت تضع ركبتها على ركبته وتركب .

ولما كانت ليست بعربيه ولا قرشية كان بعض نساء النبى يدللن عليها ويحاولن النيل منها ، ولكن العادل المنصف ، وناصر الضعفاء كان ينتصر لها وينافح عنها ويلقنها كيف ترد عليهن ، فقد بلغ النبى أن عائشة وحفصة نالتا منها فقال لها : « الا قلت : وكيف تكونان خيرا منى ! وزوجى محمد
موسى » رواه الترمذى ، بل بلغ من انتصار النبى لها أن هجر زينب جحش مدة لنيلها منها ، ووصفها لها باليهودية ، رواه ابن سعد فلا عجب أن كانت تحب رسول الله حبا جما ، وشديدة الوفاء والاخلاص له ، ففى مرض موته اجتمع نساؤه حوله ، فقالت صفيه : يانبى الله لوددت أن الذى بك بى فغمزن ببصرهن ، فقال « مضمضن » فقلن : من أى شىء ؟ فقال « من تغامزكن بها والله أنها لصادقة » وقد روت عن النبى الأحاديث ، وروى عنها ، وكانت صفية عاقلة حليمة صادقة ، يروى أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه فقالت : إن صفية تحب السبت ، وتصل اليهود ، فبعث إليها فسألها عن ذلك ، فقالت : أما السبت فإنى لم أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة ، وأما اليهود فإن لى فيهم رحماً ، فانا أصلها فقبل منها ، ثم قالت للجارية : ما حملك على هذا ؟ قالت : الشيطان ، فقالت لها : اذهبى فأنت حرة وكانت وفاتها فى رمضان سنة خمسين فى زمن معاوية وقيل سنة اثنتين وخمسين رضى الله عنها وارضاها[1] .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص١٩٦ ، الإصابة والاستيعاب جـ ٤ ص ٣٤٧ .

« حكمة زواجه بها ، ومما ذكرنا يتبين لنا أن النبى لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة ، أو إشباعاً للغريزة الجنسية كما يزعم الأفاكون ، وإنما أراد اعزازها وتكريمها وصيانتها من أن تفترش لرجل لا يعرف لها شرفها ونسبها فى قومها ، هذا إلى ما فيه من العزاء لها فقد قتل أبوها من قبل وزوجها وكثير من قومها ، ولم يكن هناك أجمل مما صنعه الرسول معها ، كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبى واليهود عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للاسلام ، والانضواء تحت لوائه والحد من مكرهم وسعيهم بالفساد ، وقد ضرب النبى بزواجه بها بعد أن أعتقها فى باب التسامح والعفو المثل الأعلى فطالما نال النبى والمسلمين قومها الشر الكثير ، ولا سيما ابوها الذى جمع الجموع فى الأحزاب وكان دائم التأليب على النبى ، وكان للنبى أن يدعها مملوكة له يستحقها بملك اليمين ، أو يتركها سبيه عند رجل ربما لا يعرف لها قدرها ، ولكنه النبى الإنسان الذى أدبه ربه فاحسن تأديبه وأوفى فى مكارم الأخلاق على الغاية .

« حراسة أبى أيوب للنبى » ولما أعرس الرسول بصفية فى قبة له ، بات السيد الجليل أبو أيوب الأنصارى يحرس رسول الله ويطيف بالقبة من بعد ، فلما أصبح الصباح ورأى النبى مكانه قال : « مالك يا أبا أيوب » ؟ قال : يارسول الله خفت عليك من هذه المراة ، وقد قتل أبوها ، وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فسر الرسول بعمله الذى ينبىء عن غاية الحب والايمان وقال : اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحرسنى » .

## ( زواج النبى بميمونة بنت الحارث )

وفى ذى القعدة من هذا العام تزوج النبى ﷺ السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية ، أخت أم الفضل لبابة الكبرى ، زوج عمة العباس وكانت قبل النبى عند أبى رهم بن عبد العزى وقيل عند حويطب بن عبد العزى[1] وكانت جعلت أمرها

---

(١) ذكر المرحوم الشيخ الخضرى فى « نور اليقين » ص ٢١٢ أنها كانت تحت حمزة بن عبد المطلب ولم أر هذا لغيره .

إلى أختها أم الفضـــل ، فجعلت أم الفضل أمرها إلى زوجها العباس ، فعرضها العباس — وقد تأيمت — على رسول الله فقبل[1]، وأصدقها العباس عن الرسول أربعمائة درهم ولما بلغتها خطبة النبى وهى راكبة على بعير قالت : الجمل وما عليه لرسول الله ، وقد أراد النبى أن يدخل بها وهو بمكة ، فأبى المشركون ذلك كما ذكرنا ، فخرج وبنى بها وهو بسرف ، وكانت آخر امرأة تزوجها رسول الله ممن دخل بهن كما قال ابو سعد وقد اختلفت الروايات فى الصحيحين وغيرهما أتزوجها النبى وهو محرم أم وهو حلال ؟ فعن ابن عباس تزوجها وهو محرم وروى غيره أنه تزوجها وهو حلال ، فمن ثم جمع العلماء بين الروايات بأنه عقد عليها وهو محرم ودخل بها وهو حلال بعد قضاء عمرته ، وقد شاء الله أن تكون وفاتها بسرف حيث بنى بها النبى ، ودفنت هناك وكانت وفاتها سنة إحدى وخمسين وقيل سنة إحدى وستين فرضى الله عنها وأرضاها[2] .

(الحكمة فى زواجها) قد سمعت أن العباس عرضها على الرسول فكان من أدب النبى مع عمه — والعم صنو الأب — أن لا يرد له رغبة شريفة ، ولاسيما أن فى تحقيق هذه الرغبة توثيق الصلة بعمه العباس ، وتأليفه إلى الدخـــول فى الإسلام ، ويزوج عمه أم الفضل وهى من السابقات إلى الإسلام ، وبابن عمه جعفر فقد كانت زوجته أسماء بنت عميس أختا لميمونة من أمها ، كما كانت سلمى بنت عميس زوجة سيد الشهداء حمزة أختاً لها من أمها ولعل النبى أراد ما هو أهم من هذا وهو استمالة البطل المغوار خالد بن الوليد فقد كانت ميمونة أختاً لأمه أم لبابة الصغرى ، هذا إلى ما فى زواج الرسول بها من توثيق صلته بقبيلة من أشرف القبائل العربية ، وهم بنو هلال وبغيرها من قبائل العرب ؛ فقد ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب[3] أن ميمونة بنت الحارث كان لها ثلاث أخوات

---

(١) وقيل : إن النبى أرسل جعفر بن أبى طالب فخطبها عليه ، فلعلها لما بلغتها الخطبة وكلت من يتولى العقد .

(٢) الإصابة جـ ٤ ص ٤١١ .

(٣) جـ ٤ ص ٤٠٤ .

شقيقات ، وأربع اخوات من أمها. وكلهن كن متزوجات فى أشرف القبائل وبعضهن كن من المنجبات ، ولأولادهن منازل عالية فى الإسلام ، وكان النبى يسمى أم لبابة الكبرى ، وميمونة وأسماء وسلمى ( الأخوات المؤمنات ) ويحسبهن ذلك شرفاً .

## ( موقف النبى من اليهود وموقفهم منه )

ذكرنا فيما سبق أن النبى ﷺ لما قدم المدينة وادع اليهود وكتب بينه وبينهم كتاباً شرط لهم فيه وشرط عليهم وأقرهم على دينهم بشرط أن لا يغدروا، ولا يمالئوا عليه عدوا ، ولكن اليهود قوم فى طبيعتهم الغدر والدس والخيانة فقابلوا هذا الإحسان بالإساءة وحاربوا الدعوة الإسلامية بأساليبهم الماكرة حربا لا هوادة فيها ، فقد هموا بقتل النبى وهل بدارهم لولا أن عصمه الله منهم، وطالما سعوا فى افسادها ما بين المسلمين ولا سيما الأوس والخزرج من أخوة ومحبة كانت بفضل اعتناقهم الإسلام ، وكثيراً ما نقضوا العهود وحاولوا طعن المسلمين من ظهورهم ، وكثيرا ما ألبوا عليه المشركين والقبائل كما حدث فى غزوة الأحزاب ، وهكذا كانت حياتهم فى المدينة وما جاورها سلسلة من المخازى ، والمؤمرات الدنيئة ، فلم يكن بد من أن يقف النبى منهم موقفاً حازماً فأجلاهم عن المدينة واستراح من شرورهم ، وقتل من يستحق منهم القتل ، ولم تأت السنة السابعة حتى تقوض سلطانهم فى شبه الجزيرة ولم يعد لهم شأن يذكر ، وأذعنوا لسلطان الإسلام وسطوته وهذا إيجاز يحتاج إلى تفصيل وإليك البيان .

## ( محاولتهم الوقيعة بين الأوس والخزرج )

مر شاس بن قيس وكان شيخاً كبيراً عظيم الكفر ، شديد الطعن على المسلمين على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس يتحدثون ففاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم فى الإسلام بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من

العداوات والإحن فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة — الأوس والخزرج — بهذه البلاد لا والله ما لنا إذا اجتمعوا بها من قرار ، فأمر شابا من اليهود كان معه فذكرهم بيوم بعاث[1] وما كان فيه ، وماتقاولوا فيه من الأشعار ففعل فتكلم القوم وتفاخروا ، وتواثبوا حتى قال أحدهم للاخر : إن شئتم رددتها — أى الحرب — الآن جذعة ، وغضب الفريقان ، وتنادوا : السلاح السلاح موعدكم الحرة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فذهب إليهم فى جماعة من المهاجرين حتى جاءهم فقال : « يامعشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ، الله الله » فأفاق القوم من غضبهم ، وعلموا أنها نزعة شيطانية وكيد من عدوهم فألقوا السلاح ، وبكوا وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين وفى هذا نزل قول الله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ) إلى قوله ( كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون )[2] ولولا حكمة النبى لكان من وراء هذه الفتنة شر كثير .

## « الجدل بين اليهود والمسلمين »

( من مخازى بنى إسرائيل وأكاذيبهم )

وثارت بين المسلمين واليهود حرب كلامية ، تذرع فيها اليهود بالأباطيل والاختلاق على الله وعلى الرسل ، ونسبوا إليهم مالايليق بهم ، روى ابن اسحاق بسنده عن ابن عباس قال : دخل أبوبكر رضى الله عنه بيت المدراس[3]

---

(١) بضم الباء ، وفتح العين : يوم جرت فيه حرب بين الأوس والخزرج وكان الغلب للأوس

(٢) آل عمران ١٠٠ — ١٠٣ (٣) المدراس الكنيسة التى يدارسون فيها كتبهم

فوجد من اليهود ناسا كثيرين قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له : فنحاص[١] بن عاز وراء من علمائهم وأحبارهم ، فقال له أبو بكر : ويحك يافنحاص اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراه والإنجيل ، فقال فنحاص : والله ياأبا بكر مابنا إلى الله من حاجة ، وإنه إلينا لفقير ! وإنا عنه لأغنياء ، لو كان غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم[٢] ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا !! فغضب الصديق وضرب وجهه ضربة شديدة — على ما كان يتصف به الصديق من الحلم والرزانه والوقار — وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك ياعدو الله ، فذهب فنحاص شاكيا إلى رسول الله ، فقال الرسول لأبى بكر ماحملك على ماصنعت فأخبره بمقالة فنحاص وتجرئه على الله ، فجحد فنحاص فانزل الله سبحانه وتعالى : ( لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ...) الآيتين[٣]

وزعموا أيضاً أن الله أخذ عليهم العهد أن لايؤمنوا برسول حتى يقدم قربانا ، فتأتى نار من السماء فتأكله . وأنهم لن يؤمنوا برسول الله حتى يكون كذلك ، وقد أكذبهم الله ورد عليهم ردا مفحما فقال : ( الذين قالوا : إن الله عهد الينا أن لانؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل : قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين[٤]

وقد يستبد ببعضهم الغضب والحمق ، فينكر بعض الحقائق الثابتة التى يقر بها ، جاء مالك بن الصيف ليخاصم النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى :

---

(١) فنحاص : بكسر الفاء وسكون النون

(٢) يريد قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة »

(٣) و (٤) آل عمران ١٨١ — ١٨٣

« أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى ، أما تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين » — وكان حبرا سمينا — فغضب وقال : « ما أنزل الله على بشر من شىء » فلما لامه أصحابه على مقالته قال : أغضبنى محمد فقلت ذلك ، وقد ذكر الله مقالتهم ، والرد عليها فى قوله : « وماقدروا الله حق قدره ، إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها ، وتخفون كثيراً ، وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل الله ، ثم ذرهم ، فى خوضهم يلعبون »[1] إلى غير ذلك مما أثاروه من جدل حول تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . وأى المسجدين أفضل الكعبة أم بيت المقدس ؟[2] وأى النبيين هو الذبيح إسماعيل أم اسحاق ؟[3] وحكم الزانى المحصن فى التوراة أهو الرجم أم الجلد ؟ وتحريفهم التوراه ، ولاسيما فيما يتعلق بالبشارة بالنبى ، وقد كانوا قبل البعثة المحمدية يقولون للأوس والخزرج : إنه قرب زمان نبى يبعث فى آخر الزمان سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم » فلما جاءهم النبى العربى المؤيد بالوحى والمعجزات الباهرة كفروا وعاندوا وصدق الله فى قوله : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون »[4] وهكذا ثارت حرب كلامية فى هذا المسائل وغيرها وكان للمسلمين فيها الغلب والحجة . واليهود البهت والعجز .

## « اليهود بالجزيرة العربية »

كان يساكن المسلمين بالمدينة يهود بنى قينقاع ، ويهود بنى النضير ، ويهود بنى قريظة ، كما كانت تسكن منهم جالية كبيرة بخيبر وما جاورها . وإليك

---

(١) الأنعام ٩١ (٢) قد أوضحت أفضليه الكعبة فى الجزء الأول

(٣) قد حققت ذلك فى الجزء الأول (٤) البقرة ٨٩ ، ١٠١

ماحاكوه من دسائس ، وما هموا به من شر ، وما قاموا به من مناهضة للدعوة لترى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على حق فيما صنع معهم وأن أجلاءهم كان لابد منه لتأمين الدعوة .

## « يهود بني قينقاع »

لما انتصر المسلمون ببدر حرك هذا الأحقاد فى نفوس الأعداء ولاسيما اليهود ، وصاروا يرجفون بالمدينة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعظهم بالحسنى ويدعوهم إلى ترك المعاندة والدخول فى الاسلام ، فذهب رسول الله إلى يهود بنى قينقاع ، وجمعهم فى سوق لهم ، ثم قال « يامعشر يهود احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهدالله إليكم » فقالوا: يامحمد لايغرنك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحروب فأصبت منهم فرصة ، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس» وتمادوا فى غيهم فأنزل الله فى شأنهم محذراً قوله تعالى : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ، قد كان لكم آية فى فئتين التقتا : فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة... ) الآيه[1] يريد سبحانه فئتى المؤمنين والكافرين فى بدر فلم يرعووا .

( تماديهم فى الشر ) ، وتمادوا فى الشر ولم يعبأوا بالقيم الخلقية ، والتقاليد الكريمة العربيه ، ذلك أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع ، ثم جلست إلى صائغ هناك منهم فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى عمل مشين ، فقد عقد طرف ثوبها إلى ظهرها وهى لاتشعر ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا منها ، فصاحت واستغاثت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله فتجمع اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين فغضب المسلمون ووقع الشر بينهم وبين اليهود ولاتنس مالهذا العمل الدنىء من أثارة النفوس العربيه التى جبلت على حمايه الاعراض ، وصيانة النساء من مثل هذا العبث ،

---

(١) آل عمران ١٢ ، ١٣

والاستهانة بكل شيء فى سبيل الشرف والكرامة .

«غزوة بنى قينقاع» لذلك لم يجد النبى بداً من غزوهم وقد نقضوا العهد بهذه الفعلة النكراء ، واخبرهم بنقض العهد الذى كان بينه وبينهم تأدباً بادب القرآن فى هذا حيث يقول : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين »(١) ثم حاصرهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكم الله ورسوله ، فاستشار الرسول كبار أصحابه فأشاروا بقتلهم وكان لهم حليفان: عبد الله بن أبى المنافق ، وعبادة بن الصامت ، فأما عبادة فقد تبرأ إلى الله ورسوله منهم وقال : يارسول الله أتولى الله ورسوله وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم(٢) وأما ابن أبى فقال : يا محمد أحسن فى موالى فاعرض عنه الرسول ، ثم كرر مقالته والرسول يعرض عنه ، وما زال يلح على الرسول ويقول : إنى أخشى الدوائر حتى قبل شفاعته فيهم على أن يخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الأموال ، ووكل رسول الله عبادة بن الصامت باجلائهم وأمهلهم ثلاث ليال فذهبوا إلى أذرعات على حدود الشام وبذلك أزال الله سبحانه عن المسلمين شر شوكة من الشوكات الثلاث التى كانت فى ظهورهم آنذاك وكان ذلك فى أوائل سنة ثلاث وقيل فى شوال سنة ثنتين للهجرة وفى شأن ابن أبى وموالاته لهم ، وعبادة بن الصامت ، وبراءته منهم أنزل الله آيات كريمة ، لتكون درساً للمسلمين يعلمهم من يوالون ، ومن لا يوالون فقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض — نفاق — يسارعون فيهم يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى انفسهم نادمين ، والمراد عبدالله بن أبى وأصحابه إلى قوله تعالى ( إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا

---

(١) الأنفال ٥٨ (٢) هذا هو الصحيح لاماذكره الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » ص ٢٧٤ من أنه حدث النبى بحديث ابن أبى وشفع فيهم .

الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون »[1] يعنى عبادة بن الصامت ومن على شاكلته من المؤمنين .

## « قتل كعب بن الأشرف »

كان كعب بن الأشرف[2] شديد العداوة للاسلام ورسوله، ولما هزم المشركون ببدر قال ، لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ليطن الأرض خير من ظهرها ، ثم خرج إلى مكة يندب من مات ، ويحرض على رسول الله والمسلمين ولما عاد إلى المدينة صار يشبب[3] بنساء المسلمين ، ويقذع فى هجاء النبى وأصحابه ، فقال رسول الله : من لكعب بن الأشرف فإنه آذى الله ورسوله ؟ فقال محمد بن مسلمة الأنصارى الاوسى : أنا : وقال : إئذن لى أن أقول شيئا فيك ، فقال له النبى « قل » وانضم إليه نفر من قومه منهم أبو نائلة وكان أخا كعب من الرضاع ، وعباد بن بشر بن نهيك ، والحارث بن أوس فاجتمعوا فيما بينهم كى يحكموا الخطة لاغتيال عدو الله كعب ، فخرج حتى أتى كعبا فوقع فى الرسول حتى ركن إليه كعب ، واستسلفه وسقا أو وسقين فقال : نعم ولكن ارهنونى قال: أى شىء تريد ؟ قال نساءكم قالوا : وكيف وأنت أجمل العرب ؟ قال فارهنونى أبناءكم قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فتكون مسبة وعارا علينا ، ولكن نرهنك السلاح وذلك حتى لا ينكر منهم مجيئهم بالسلاح، فواعده أن يأتيه ليلا بالسلاح فخرج محمد بن مسلمة ومعه أبو نائلة وصحبه وكلهم من الأوس حتى أتوه فناداه محمد بن مسلمة وأبو نائلة فأراد أن ينزل فقالت له امرأته أين تخرج الساعة؟ إنى أسمع

---

(١) المائدة ٥١ — ٥٥

(٢) قال ابن اسحاق وغيره : كان عربيا من بنى نبهان وهم بطن من طيىء ، وكان أبوه أصاب دماً فى الجاهلية فأتى المدينة فحالف بنى النضير ، فشرف فيهم وتزوج عقيلة بنت أبى الحميق فولدت له كعبا ، وكان طويلا جسيما فى البطن وهامته .

(٣) التشبيب : ذكر محاسن النساء والتعرض لهن

صوتاً يقطر منه الدم : فقال لهما: إنما هو أخى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة[١] ، إن الكريم لو دعى إلى طعنة بليل لأجاب ، ثم قال محمد إذا جاء فسآخذ بشعره فأشمه فإذا رأيتمونى استمكنت منه فاضربوه فنزل كعب اليهم متوشحا سيفه وهو ينفح منه ريح المسك فقال له محمد : ما رأيت كاليوم ريحا أطيب أتأذن لى أن أشم رأسك ؟ قال نعم فشمه ـ وكذلك فعل أبو نائلة[٢] ـ فلما استمكن منه قال : دونكم فاقتلوه ففعلوا ثم أتوا النبى فأخبروه[٣]، وبذلك أراحوا المسلمين من هذا الشر المستطير وهكذا كان الرسول إذا رأى من أحد من اليهود غدراً وتأليباً عليه ومحاربة للدعوة أرسل إليه من يريحهم من شره ، وكان قتله فى ربيع الأول من السنة الثالثة كما ذكره ابن سعد فى طبقاته .

## ( غزوة بنى النضير )

وكان يهود بنى النضير ممن عاهدهم النبى وواعدهم على أن يأمن كل فريق الآخر لكنهم لم يفوا بالعهد وهموا بقتل الرسول ذلك أن عمرو بن أمية الضمرى الذى نجا من سرية القراء لقى أثناء رجوعه إلى المدينة رجلين من بنى عامر ، فقتلهما . وهو يظن أنه أصاب بذلك بعض الثأر من بنى عامر الذين غدروا بهم، ولم يشعر بعهدهما الذى لهما من رسول الله فقال له الرسول : « لقد قتلت رجلين لأدينهما[٤] وكان بين بنى عامر وبنى النضير عهد وحلف ، فخرج رسول الله إلى بنى النضير يستعينهم فى دية الرجلين فى جماعة من صحابته منهم أبو بكر وعمر

---

(١) اسمه سلكان بن سلامة بن وقش، وقيل اسمه سعد ، ولقبه سلكان وكان أخا كعب من الرضاع كما كان نديمه فى الجاهلية وبركن إليه وذكر الواقدى أن محمد بن سلمة كان أخاه من الرضاع أيضا

(٢) فى السيرة لابن هشام : « أن أبا نائلة ، هو الذى وقع فى الرسول ، وأنه هو الذى أخذ برأسه حتى قتلوه » ولعل الاثنين اشتركا فى النيل من الرسول ، والأخذ برأسه وقد آثرت ذكر ما فى صحيح البخارى ،

(٣) صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ـ باب قتل كعب بن الأشرف .

(٤) لأدفعن الدية إلى أهلهما .

وعلى ، فلما جاءهم أظهروا له حسن الاستعداد لإجابته ، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة ، وكان رسول الله ﷺ جالساً إلى جنب جدار من بينهم ، فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه ؟ فانتدب لذلك الشقى عمرو بن جحاش فقال أنا لذلك ، فصعد ليلقى الصخرة ، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، فلما استلبث النبى أصحابه قاموا فى طلبه حتى انتهوا إليه بالمدينة ، فاخبرهم بما كانت اليهود اعترمته من الغدر بهم ، فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة إليهم يخبرهم الخروج من جواره بالمدينة وأمهلهم عشرة أيام وإلا حاق بهم الهلاك فأيقنوا أن الله أطلعه على ما أرادوا وصاروا متحيرين لا يدرون ما يفعلون وبينما هم فى حيرتهم وترددهم جاءهم رسل أهل النفاق ابن أبى وأتباعه أن اثبتوا وتمنعوا ، فأنا لن نسلمكم : إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فقويت عند ذلك نفوسهم وحمى حيى بن أخطب وبعثوا إلى رسول الله أنهم لا يخرجون ، ونابذوه بنقض العهود وفى ذلك نزل قول الله تعالى « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لتخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبدا ، ولئن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ، ثم لا ينصرون ، لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون »[1] .

« حصار بنى النضير » وأمر رسول الله بالتهيؤ لحربهم وقتالهم ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وسار إليهم فى شهر ربيع الأول من السنة الرابعة حتى نزل بدارهم فحاصرهم ست ليال ، وقيل : خمس عشرة ليلة وقاتلوهم ، ثم أمر رسول الله بقطع نخيلهم وتحريقها ليكون ذلك أدعى إلى تسليمهم فقطعت ، ففزعوا وجزعوا ونادوا : يا محمد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها ، ولم يكن هذا إفساداً إنما هو وسيلة لنشر السلام

---

(١) الحشر ١٢ ، ١٣ .

والأمان والتقليل من إراقة الدماء ، وكان أمر الله وإذنه ، وعبثاً انتظر اليهود نصر ابن أبي وجماعته . وخذلهم كما خذل بنى قينقاع من قبل وكان مثله ومثلهم كما قال الله ، كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جراء الظالمين.(١) وملأ الرعب قلوبهم ، واشتد الحصار عليهم ، وأيقنوا ان حصونهم لا تمنعهم من سوء المصير فسألوا رسول الله أن يجليهم ويؤمنهم على دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة أى السلاح ، فصالحهم رسول الله على الجلاء وعلى أن لكل ثلاثة منهم بعيرا يحملون عليه ماشاءوا من أموال ، فصاروا يخربون بيوتهم بأيديهم ليحملوا منها ما استطاعوا مما يحرصون عليه ، ولكيلا ينتفع بها المسلمون ، فمنهم من خرج إلى خيبر كحيى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع ، ومنهم من ذهب إلى أذرعات بالشام ، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من غلال وسلاح وعقار ودور ، ولما كان المسلمون قد أخذوها صلحا بدون حرب ولا قتال ، فكانت فيئا من حق رسول الله يتصرف فيها كيف شاء ، وقد قسمها على المهاجرين دون الأنصار بعد أن استبقى منها قسما خصصت غلته لذوى القربى والفقراء والمساكين ، وبذلك أغنى الله المهاجرين وأزال فاقتهم ، ولم يأخذ من الفىء من الأنصار إلا أبو دجانة ، وسهل بن حنيف ، والحارث بن الصمة فقد شكوا فقرا ، ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان فاحرزا أموالهما ، وبإجلاء بنى النضير أراح الله المسلمين من شوكة ثانية كانت تقض مضاجعهم ، ولو أن هؤلاء الأشرار نجحوا فى مكيدتهم لقضوا على الإسلام فى مهده ، وأية خسارة كان سيمنى بها العالم لو لم يستضىء بنور الإسلام وتعاليمه ؟ ، ولكن الله بالغ أمره لامحالة ، وقد أنزل الله سورة الحشر فى هذه الغزوة وإليك موجز تفسيرها

## ( ما نزل فى غـــزوة بنى النضير )

( سورة الحشر ) ( بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما فى السموات وما فى

---

(١) الحشر ١٦ ، ١٧ .

الأرض ) أى نزهه وقدسه ( وهوالعزيزالحكيم ) القوى الذى لايتصرف إلا عن حكمة ( هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ) هم يهود بنى النضير والحشر: الجلاء . والحشر الأول من المدينة إلى خيبر والثانى من خيبر والجزيرة إلى الشام ( ما ظننتم أن يخرجوا ) لشدة بأسهم ، وحصانة حصونهم . وكثرة عددهم وعددهم ( وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ) بأسه وعذابه ( فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ) يظنون فسلط عليهم المؤمنين ذوى البأس الشديد فلم تغن عنهم حصونهم شيئا ( وقذف فى قلوبهم الرعب ) الذى نصر به النبى من مسيرة شهر ( يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ) فكان اليهود يخربون ليحملوا معهم ما أمكن والمسلمون يخربون نكاية فيهم ( فاعتبروا يا اولى الأبصار ) العقول والبصائر واحذروا أن تقعوا فيما وقعوا فيه من الاغترار بالقوة والمال وترك جانب الله. ومحاربة الله ورسوله.

( ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ) الخروج من المدينة ( لعذبهم فى الدنيا ) بالأسر والقتل (ولهم فى الآخرة عذاب النار ) ولكنهم باستسلامهم وقوا أنفسهم من القتل والأسر ، ولكن بقى لهم عذاب الآخرة ( ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ) بسبب مخالفة الله ورسوله (ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب) وعيد لكل من يخالف أمر الله ويحارب رسوله .

ثم بين سبحانه أن قطع النخل ليس إفسادا كما زعموا لأنه بامر الله وشرعه فقال ( ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها ) اللينة : النخله أو نوع منها ( فباذن الله وليخزى الفاسقين ) يعنى اليهود ، ثم بين سبحانه معنى الفىء ووصفه فقال ( وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ) أوجف أسرع وتكلف ، ركاب : إبل . يعنى أن الفىء ما أخذ بدون حرب ولا قتال ولا تعب وهو ما أخذ صلحا و ( ما ) فى ( فما أوجفتم ) نافية ، أما الغنيمة : فهى

ما أخذت بحرب وقتال ( والله على كل شيء قدير ) ومنه تمكينهم من مال بنى النضير ثم ذكر الله مصارف الفيىء وبين أنه لرسول الله يضعه حيث شاء فى ذوى القربى والمساكين . . . وليس للمجاهدين فيه نصيب فقال ( ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ) أى مما جعل الله مصرفه لهؤلاء ، حتى لا يكون المال متداولا بين الاغنياء دون الفقراء فالآية تبين أن البر ومواساة الفقراء تلحقهم بالاغنياء وتزيل من فقرهم وحاجتهم ( وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ) أصل عام فى طاعة رسول الله فى كل ما يأمر به من قرآن أو سنة والانتهاء عما ينهى عنه ( واتقوا الله ) أن تخالفوا أوامر رسوله ونواهيه لأنها من أمر الله ونهيه ( إن الله شديد العقاب ) لكل من خالف رسوله .

ثم بين سبحانه من هم أحق بهذا الفيىء فقال : ( للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ) الجنة ونعيمها ورضوان من الله أكبر ( وينصرون الله ورسوله ) بالتضحية بالنفس والجهاد فى سبيل الله ( أولئك هم الصادقون ) المخلصون فى إيمانهم وقد خصهم الرسول بالفيىء فى هذه الغزوة إغناء لهم وتعويضا عما تركوه راضين من دور وعقار ومال ، ثم أثنى على الأنصار بما هم أحق به وأهل له فقال : ( والذين تبوءوا الدار ) المدينة ( والإيمان من قبلهم ) ى أخلصوا الايمان وصدقوا الله فيه « من قبلهم » راجع لتبوء الدار فقد كانت موطنهم قبل هجرة المهاجرين إليها ( يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ) أى مما أعطى المهاجرون من هذا الفيىء . وغيره ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) شدة فقر وحاجة ( ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ) الفائزون ولعلك على ذكر مما ذكرناه فى مآثر الأنصار وضوان الله عليهم .

ثم بين الله عز شأنه ما يجب أن يتخلق به التابعون ومن جاء بعدهم إلى

يوم القيامة وهو موقفهم من المهاجرين والأنصار خيار هذه الأمة الذين زكاهم الله ورسوله فقال : ( والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ) فليتق الله الذين يتناولون الصحابة رضوان الله عليهم بالنقد الجرىء والتجريح ، وليتادبوا بادب القرآن فى هذا ، ثم ذكر الله المنافقين وكيف أغروا بنى النضير على المعاندة حتى يئسوا منهم ، ونزلوا على حكم الرسول فقال : ( ألم تر إلى الذين نافقوا ...) إلى قوله ( ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ) وقد ذكرتها أثناء الغزوة ثم بين الله أن اليهود لا يجرءون على قتالكم إلا وهم متحصنون فقال تعالى ( لايقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد ) أى هم يدعون القوة والبأس فيما بينهم فإذا لقوكم انهارت قواهم ، وأماعت شجاعتهم والمراد بالحصون الحسية والمعنوية ، فتشمل الحصون المثبتة ، والمتاريس ، والخنادق ونحوها كما كان أولا وتشمل أيضا الدبابات والطائرات ، والقواعد التى يوجهون منها الصواريخ كما هو اليوم ، ولو لم يكن إلا عنايتهم ببناء المسالح ، والقرى المحصنة اليوم — المستعمرات — لكفى فى بيان أسرار الإعجاز فى الآية فاعتبروا يا أولى الأبصار ( تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ) تحسب اليهود والمنافقين متفقين فى ظاهرهم ولكنهم مختلفون فى بواطنهم ، فاهواؤهم متشعبة وقلوبهم متفرقة ( كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ) هم بنو قينقاع الذين سبقوا بالغدر والخيانة ( ولهم عذاب أليم ) فقد أجلوا فى الدنيا ولهم العذاب فى الآخرة .

ثم بين سبحانه أن مثل المنافقين فى إغرائهم اليهود وتخليهم عنهم ( كمثل الشيطان إذ قال للأنسان اكفر .... ) الآيتين وإلى هنا انتهى ما يتعلق ببنى النضير .

ثم بعد ذلك نادى الله المؤمنين وأوصاهم بتقوى الله وأن يقدموا ماينفعهم فى آخراهم ، ولايكونوا كاليهود الذين نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم ، ثم

خلص من ذلك إلى أن السبب فى العصيان والمخالفة ، واتباع هوى النفس إنما هو لعدم الفقه والتأمل فى القرآن هذا الكتاب الذى لو نزل على الجمادات لخشعت وتصدعت ، فكيف لاتخشع له قلوبكم وتلين جلودكم ؟ ( لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ) .

ثم ختم السورة بتقديس الله فى ذكر الكثير من اسمائه فقال ( هو الله الذى لاإله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، إلى قوله « يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وبذلك ختم السورة بما بدئت به فسبحانه سبحانه فى البدء والنهاية ، وتقديسا له ثم تقديسا فيها مضى ، وفى الحال. وفيها يستقبل ، وعلى كل حال .

## ( غزوة بنى قريظة )

قدمنا فى غزوة الاحزاب أن حيي بن أخطب فى جماعة من بنى النضير ألبوا العرب على محاربة الرسول بالمدينة حتى كانت غزوة الخندق ، وأنهم سعوا إلى بنى قريظة ـ والمشركون يحاضرون المدينة ـ أن ينقضوا ما بينهم وبين النبى وأنهم نجحوا فى ذلك حتى اشتد الكرب على المسلمين وأصبحوا بين نارين : نار المشركين ونار اليهود حتى اضطر النبى إلى أن يرسل بعض المسلمين لحراسة الذرارى والنساء من غدر اليهود ، بعد أن نقضوا العهد ، ولما عاد النبى من الخندق ووضع سلاحه جاءه جبريل فقال : أوضعت السلاح يارسول الله ؟ قال نعم ، فقال جبريل : ماوضعنا السلاح ، وأن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة فانى عامد إليهم فمزلزل بهم ، فأمر رسول الله مناديا ينادى فى الناس : « الايصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » فأخذ بعضهم بظاهر الامر ، فلم يصلوا العصر حتى جاءوا بنى قريظة وقد غربت الشمس ، وقال بعضهم فإنما أراد الاسراع ، وصلوا فى الطريق ، فلما علم النبى لم يعنف واحدا منهم ،[1] وخرج رسول الله ﷺ

---

(١) لأن كلا الفريقين مجتهد ، إن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر

وراءهم فيمن بقى من الصحابة ولواؤه معقود لابن عمه على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فلما عاين بنو قريظه جيش المسلمين امتلأت قلوبهم رعبا ، وتحصنوا بحصونهم ، وحاصرهم المسلمين خمسا وعشرين ليلة حتى اشتدبهم الحال ، وأيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، فقال لهم كعب بن أسد : أرى أن تسلموا فقد استبان لكم أنه نبى مرسل ، وأنه الذى بشر به كتابكم ، فتأمنوا على دمائكم ونسائكم وأبنائكم وأموالكم ، فأبوا فقال لهم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ونخرج إلى محمد مستميتين فى القتال حتى يحكم الله بيننا وبينه ، فان نهلك لم نترك وراءنا شيئا نخشى عليه ، وإن نغلب فلن نعدم النساء والأبناء فأبوا فقال الليلة ليلة السبت ، وعسى أن يكون محمد وأصحابه أمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة ، فأبوا وتخوفوا أن يعدوا فى السبت فيصيبهم ما أصاب من قبلهم ، فأعرض عنهم ورماهم بعدم الحزم .

« استشارتهم أبا لبابة » فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ارسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بنى عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس نستشيره فى أمرنا ، فأرسله الرسول إليهم . فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء وبكى الصبيان فكأنه رق لهم فقالوا : يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم وأشار بيده إلى حلقه يعنى الذبح ، فاستشعر أبو لبابة أنه زل ، وندم ندما تصوره هذه العبارة التى قالها : فو الله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله !!

« توبة أبى لبابة » فاستحيا أبو لبابة أن يقابل رسول الله وقال : والله لا أنظر فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحدث لله توبة نصوحا يعلمها الله من نفسى ، وعاد إلى المدينة فربط نفسه إلى سارية من سوارى المسجد النبوى وكانت من جذوع النخل ، وقال : لا أبرح مكانى حتى يتوب الله على مما صنعت ، فلما علم الرسول الكريم قال : « لو جاءنى لاستغفرت له ، وإذ قد فعل هذا فلن أطلقه حتى يقضى الله فيه ما يشاء » وأقام على هذه الحال ست ليال أو أكثر تأتيه امرأته فى وقت كل صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلى ثم يرتبط حتى نزلت توبته من السماء فى قول الله تعالى : ( وآخرون

اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم »[1] فتتابع إليه الناس يبشرونه بتوبة الله عليه وأرادوا أن يحلوه فأبى وقال : لا يحلنى إلا رسول الله فلما خرج الرسول إلى صلاة الفجر حله من رباطه ، ولم يكتف أبو لبابة بما صنع بنفسه وقال : يا رسول الله إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب ، وأن انخلع من مالى كله ، فقال النبى : « يجزيك الثلث » فتصدق به .

وإن لنا هنا لوقفة ترينا مبلغ قوة الإيمان ، وتذكر القلب ويقظة الضمير من صحابة رسول الله الذين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وسرعان ما يتوبون ، ومبلغ ما وصل إليه المجتمع الإسلامى حينئذ من حياء من من المعاصى والرذائل ، وتقدير للقيم الخلقية ، والمعانى الروحية واستهانة بالنفس والولد والمال فى سبيل رضاء الله ورسوله ، وأن هذا المجتمع لم يصل إليه أى مجتمع متحضر إلى وقتنا هذا .

• نزول بنى قريظة على حكم رسول الله ، فلما لم ير بنو قريظة فائدة من تحصنهم ، وأنهم لا ناصر لهم من دون الله عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعاملهم معاملة بنى النضير ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه ففعلوا ، فأمر برجالهم فكتفوا ثم سعى إلى رسول الله رجال من الأوس راجين أن يعاملهم معامله بنى قينقاع حلفاء إخوانهم الخزرج ، فقال لهم السيد الحكيم : « ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم » ؟ فقالوا : بلى ، فاختاروا سعد بن معاذ وكان فى خيمة فى المسجد النبوى معدة لمعالجة الجرحى وتمريضهم بسبب سهم أصيب به فى الخندق فأرسل رسول الله فى طلبه ، فجاء راكباً ، فالتف حوله جماعة من الأوس قائلين له : أحسن فى مواليك ، ألا ترى مافعل ابن أبى فى مواليه ؟ فقال لهم : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ثم قال : فانى أحكم فيهم أن تقتلوا الرجال وتسبوا

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٤ ص ٢١٢

النساء والذرية ، فقال له رسول الله : « لقد حكمت فيهم ياسعد بحكم الله[1] من فوق سبع سماوات » فنفذ فيهم الحكم فإذا كما قيل ثلثمائة ، وقيل أربعمائة ، وقيل أكثر من ذلك ، وقتل معهم حيى بن أخطب وهو السبب فيما نزل بهم من قتل وبلاء ، فقد كان دخل معهم حصنهم بعد انصراف قريش وغطفان ، وعاد سعد إلى الخيمة بالمسجد ، فلم يلبث — وقد أقر الله عينه — أن انفجر جرحه فمات شهيداً رضى الله عنه وأرضاه .

وبالقضاء على بنى قريظة تخلص المسلمون بالمدينة من آخر شوكة فى ظهورهم ، وأصبحت المدينة كلها — ماعدا المنافقين — على قلب رجل واحد وموئل الإسلام ، وحصنه الحصين .

« دم بنى قريظة فى عنق حيى » وفى الحق أن دم قريظة معلق فى عنق حيى بن أخطب النضرى ، وإن كان قتل معهم فهو الذى حمل قريظة على نقض العهد وجسم العداوة بين اليهود والمسلمين ، حتى اعتقدوا أن اليهود لاتطيب نفوسهم إلا باستئصال النبى وأصحابه ، وهو الذى دخل معهم حصنهم وأغراهم بعدم التسليم والاستمرار فى المقاتلة ، ولو أنهم استسلموا من أول الأمر لما أهدرت دماؤهم ، ولقبل النبى منهم ماقبل من بنى قينقاع وبنى النضير من قبل وعفوه عن الآخرين بعد أن هموا بقتله .

وقبل أن يستعظم أحد حكم سعد عليهم واعتبار ذلك قسوة ، عليه أن يتدبر فيما لو نجح المشركون فى عبور الخندق والتقوا بالمسلمين وجها لوجه ، ونفذ بنو قريظة خطتهم التى هموا بها بمهاجمة المسلمين من ظهورهم ، والتعدى على

---

(١) وهو ماقضى به كتابهم المقدس « العهد القديم » فى حق العدو المهزوم ففى سفر التثنية الاصحاح ١٣ فقرة ١٣ ، ١٤ « وإذا دفعها الرب الهك لى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء ، والأطفال ، والبهائم ، وكل ما فى المدينة . كل غنيمتها لنفسك . وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب لهك » وهكذا يتبين لنا أن ماقضى به سيدنا سعد لم يخرج عما حكمت به التوراة وأيضا فهم ليسوا أعداء مهزومين فحسب بل هم خائنون غادرون غير وافين بالعهد

نسائهم وذراريهم — ماذا يكون الحال ؟ وإلى أى مدى ستكون الكارثة ؟ لاشك أن الكارثة ستكون بالنسبة إلى من اقتص منهم من بنى قريظة أضعافاً مضاعفة من رجال المسلمين ونسائهم وأولادهم.

وفى شان بنى قريظة نزل قول الله تعالى «وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم[1] وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا »[2] يعنى الذين ظاهروا الأحزاب وهم قريظة.

«قسمة أموال قريظة» وقسم النبى أموال بنى قريظة بعد ما أخرج الخمس جعل للفارس ثلاثة أسهم : سهمين للفرس ، وسهما لراكبه أو للراجل وكانت الخيل يومئذ ستا وثلاثين ، وبعث رسول الله سعيد بن زيد بسبايا من بنى قريظة إلى نجد فاشترى بها خيلا وسلاحاً ليزيد فى قوة المسلمين الحربية .

«ريحانة» وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفى من نسائهم ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة فعرض عليها الإسلام فامتنعت ، ثم أسلمت بعد ذلك فسر رسول الله باسلامها ، وقد عرض عليها أن يعتقها ويتزوجها فاختارت أن تستمر على الرق ليكون أسهل عليها وعليه ، وقيل إن رسول الله ﷺ لما خيرها اختارت الإسلام ، فاعتقها وتزوجها وضرب عليها الحجاب ، فغارت عليه غيرة شديدة فطلقها ، فشق عليها وأكثرت البكاء فراجعها ، ولم تختلف الروايات أنها ماتت فى حياة النبى قيل لما رجع من حجة الوداع ، وقيل قبلها فرضى الله عنها[3]

«من استشهد» واستشهد من المسلمين يوم بنى قريظة خلاد بن سويد طرحت عليه امرأة رحى فجرحته جرحاً بالغاً فمات فقال النبى « إن له لأجر

---

(١) جمع صيصية وهى الحصن . وكل مايتحصن به يقال له : صيصة ومنه سمى قرن الثور (٢) الأحزاب ٢٠ — ٢٧ (٣) الاصابة ج ٤ ص ٣٠٩

شهيدين » وقد أمر رسول الله بقتل هذه المرأة . ولم يقتل من بنى قريظة امرأة غيرها . ومات فى أثناء الحصار أبو سنان بن محصن فدفن هناك رضى الله عنهما وأرضاها .

## ( قتل سلام بن أبى الحقيق )[1]

كان أبو رافع سلام بن أبى الحقيق فيمن حزب الأحزاب على رسول الله ، وكان شديد الإيذاء له وللمسلمين . وكان تاجراً مشهورا بأرض الحجاز ، وقد اتخذ من ثرائه وسيلة لمحاربة الدعوة الإسلامية ، وكان مما صنع الله لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأوس والخزرج كانا يتسابقان فى سبيل إرضاء الرسول وخدمة الإسلام . لاتصنع الأوس شيئاً إلا وقالت الخزرج : والله لا يذهبون بهذا الفضل فلا ينتهون حتى يفعلوا مثله أو أكثر منه ، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك وكان الأوس قد قتلوا كعب بن الأشرف فقال الخزرج والله لايذهبون بهذا الفضل علينا ، فذكروا من رجل فى عداوة رسول الله كابن الأشرف ؟ فذكروا ابن أبى الحقيق وكان بقصره بخيبر فاستأذنوا رسول الله فى قتله فأذن لهم ، فخرج من الخزرج خمسة نفر وهم : عبد الله ابن عتيك ، ومسعود بن سنان الأسلمى . وعبد الله ابن أنيس الجهنى حليف الأنصار ، وأبو قتادة الأنصارى ، وخزاعى بن أسود وأمر عليهم رسول الله عبد الله بن عتيك . وأوصاهم أن لايقتلوا وليداً ولا أمرأة ، فلما وصلوا إلى خيبر قال لهم عبد الله : مكانكم ، وانطلق إلى الباب ، وتحايل على البواب حتى دخل ثم توجه إلى بيت أبى رافع وصار يفتح الابواب التى توصل إليه ، وكلما فتح باباً أغلقه من داخل حتى انتهى إليه فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله فلم يمكنه تمييزه ، فنادى يا أبا رافع فقال : من ؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئاً ،

---

(١) سلام : بتشديد اللام ، الحقيق : بضم الحاء المهملة ، وفتح قاف مصغرا ، وقيل : اسمه عبد الله ، وقد اقتصر ابن اسحاق على الأول . وذكر البخارى الاسمين ( وكان له أخوان مشهوران من أهل خيبر . أحدهما : كنانة وكان زوج صفية بنت حيى قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، والثانى : الربيع ابن الحقيق وقد قتلا فى غزوة خيبر ) .

فعاد عبد الله يناديه وفى كل مرة بغير صوته حتى استمكن منه وقتله دون أن يؤذى أحداً من ولده وزوجه ، ثم خرج من البيت وكان نظره ضعيفاً فوقع من فوق السلم فانخلعت رجله ، فعصبها بعمامته ، وصار يتحامل على نفسه حتى وصل إلى أصحابه فأخبرهم فقالوا : النجاة النجاة حتى انتهوا إلى الرسول فلما رآهم قال أفلحت الوجوه ، وحدثوه بما كان ، ثم قال لعبد الله : « ابسط رجلك » فمسحها عليه الصلاة والسلام فكأنه لم يشتكها قط [1] وعادت أحسن مما كانت، فلله در هذه النفوس المؤمنة التى استهانت بالموت فى سبيل الله ، وكانت اسمى أمانيها أن تفوز برضاء الله ورسوله .

وكان قتل أبى رافع — كما قال ابن سعد — فى رمضان سنة ست ، وقيل فى ذى الحجة سنة خمس وقيل غير ذلك

## « غزوة خيبر »

لئن كانت المدينة قد تطهرت من اليهود وغدرهم فهاهى خيبر [2] لا تزال حصناً حصيناً لليهود من أهلها ، ومن نزح إليها من يهود بنى النضير الذين يحملون الحقد ، والضغن على الإسلام والمسلمين ، وغير بعيد عنا ما قام به زعماء بنى النضير الذين اتخذوا خيبر مقاماً لهم ، من تأليب العرب على المسلمين فى الخندق ، وحملهم بنى قريظة على نقض العهود التى كانت بينهم وبين الرسول ، ومن ثم نجد أن خيبر أصبحت مركزاً لتجمعات اليهود يقومون منها بما يريدون من غدر ومكايد ، ولئن كان المسلمون بعد فتح الحديبية قد أمنوا قريشاً والجنوب ، لكنهم لم يأمنوا ناحية الشمال ، ولاسيما أهل خيبر الذين لا ينسون ما فعل بإخوانهم اليهود ، وليس ببعيد أن يستعينوا بهرقل أو كسرى فى النيل من المسلمين ، وما كان رسول الله ﷺ — وهو السياسى المحنك — ليخفى عليه شيئاً من هذا ، لذلك لم يكد يرجع من الحديبية ويستريح بالمدينة شهراً

---

(١) صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب قتل أبى رافع

(٢) قرية فى شمال المدينة بينها وبين الشام .

أو نحوه حتى أمر بالتجهز للخروج إلى خيبر ، على أن لا يغزو معه إلا من شهد الحديبية كما أمر الله ، وأراد بعض الأعراب الذين تخلفوا عن الحديبية أن يخرجوا معه فقال لهم : ( لا تخرجوا معى إلا رغبة فى الجهاد ، أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً ) وقد أراد الرسول بذلك أن يبين لهم أن لا حاجة له بالذين لا هم لهم إلا الغنيمة ، ولا يهمهم نصر الإسلام ، وولى على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى وصحب معه من أزواجه السيدة أم سلمة .

( الخروج إلى خيبر ) وخرج رسول الله ﷺ فى مطلع عام سبع فى جيش تعداده ألف وستمائة ومعهم مائتا فرس وقيل ثلثمائة وكل واثق بنصر الله ، وذاكر قول الله سبحانه فى سورة الفتح التى نزلت منصرفة من الحديبية : ( سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ) وكان من شأن رسول الله أنه إذا غزا قوماً لم يغر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً كف وإن لم يسمع أذانا أغار ، فوصل إلى خيبر ليلا ، فبات حتى أصبح لم يسمع أذانا فركب وركب معه أصحابه ، فاستقبلهم يهود خيبر بمساحيهم ومكاتلهم[1] ، فلما رأوا رسول الله والجيش قالوا محمد والجيش معه : فقال رسول الله : ( الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين )

( ضخامة القوتين ) وقد كان يهود خيبر من اشد الطوائف اليهودية باساً وا كثرها مالا ، وأوفرها سلاحاً وكذلك كان المسلمون كثيراً عددهم وافراً سلاحهم ممتلئة قلوبهم بالإيمان ، واثقة نفوسهم بنصر الله مصممين على استئصال هذا الشر مهما كانت التضحية ، فلا عجب إذا كانت قريش والجزيرة كلها وقفت تنتظر ما يسفر عنه التقاء هاتين القوتين ، حتى حدث من البعض

---

(١) مساحيهم : جمع مسحاه وهى المجرفة وهى من حديد ، المكاتل جمع مكتل — بكسر الميم وهو الزنجيل ، وهو شىء يصنع من الخوص يحمل فيه التمر والتراب وغيرهما .

التراهن على أى الفريقين سيكون له الغلب ؟ ووقف المسلمون أمام حصون خيبر متأهبين للقتال ، وهم كاملو العدة ، وكانت حصونهم ثلاثة مجاميع وكل مجموعة ثلاثة حصون تمتد من الجنوب إلى الشمال يتخللها النخيل والزروع والمنازل المتفرقة وهذه المجاميع هى : النطاة ، والشق ، والكتيبة ، أما النطاة فكانت ثلاثة حصون : ناعم ، والصعب ، وقلة ، وكانت الشق حصنين : أبى ، والبرىء ، وأما الكتيبة فكانت ثلاثة حصون : القموص ، والوطيح ، والسلالم وتشاور اليهود فيما بينهم فأشار عليهم زعيمهم سلام بن مشكم فأدخلوا أموالهم وعيالهم حصنى الوطيح والسلالم وأدخلوا ذخائرهم حصن ناعم ، ودخلت المقاتلة وأهل الحرب حول حصن النطاة ، والتقى الجمعان حول حصن نطاة واقتتلوا قتالا شديداً وضيق المسلمون الحصار على حصون خيبر ، واليهود يستميتون فى الدفاع عنها لأنهم يعلمون أن هزيمتهم ماهى إلا القضاء الأخير عليهم فى جزيرة العرب وتتابعت الايام والقتال يشتد ، فالمسلمون يبدون من ضروب الشجاعة والاستبسال والتضحية ما هم أهل له ، واليهود يستميتون فى الدفاع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأعطين الراية غداً رجلا يفتح الله عليه يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » فبات الناس ليلتهم يتمنى كل منهم أن يعطاها حتى أن عمر قال : ما أحببت الإمارة إلا يومئذ فلما أصبح الصباح قال : « أين على بن أبى طالب » ؟ فقالوا : هو يا رسول الله يشتكى عينيه فدعاه فبصق رسول الله فى عينيه ودعا له فبرأ بإذن الله فاعطاه الراية وقال له : « انفذ إليهم ، ثم ادعهم إلى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليه من حق الله تعالى ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » رواه البخارى ومسلم ، ولما ذهب إليهم خرج مرحب اليهود يختال فى سلاحه ، ويرتجز ويدعوا إلى المبارزة قائلا :

أنا الذى سمتنى أمى مرحب  شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن حيناً وحيناً أضرب  إذا الليوث أقبلت تحرب[1]

---

(١) أى مغضبة

فبرز له سيدنا على وهو يرتجز ويقول :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره[1] كليث غابات كريه المنظره

أكيلهم بالصاع كيل السندره[2]

فقتله ، وقيل بل قتله محمد بن مسلمة الموتور الثائر الذى قتل اليهود أخاه محمود ابن مسلمة بالامس ، وخرج بعد مرحب أخوه ياسر يقول هل من مبارز؟ فبرز له الزبير بن العوام فقتله ، ثم كان أن سقط حصن ناعم ، ثم لم تلبث الحصون أن تهاوت حصناً بعد حصن، فاستولى اليأس على اليهود فطلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم الصلح على أن يحقن دماءهم ، فقبل الرءوف الرحيم وصارت أرضهم لله ، ولرسوله وللمسلمين ، فلما أراد النبى إجلاءهم سألوه أن يقرهم على أن يعملوا فى الأرض ولهم نصف الثمر فقال لهم : (نقركم على ذلك ما شئنا) رواه البخارى وقد قتل من اليهود فى هذه الغزوة ثمانية وتسعون رجلا، واستشهد من المسلمين نحو خمسة عشر رجلا .

(قصة الشاة المسمومة) ومع هذه المساهلة فى الصلح، والإحسان إليهم بالكف عن قتلهم وإجابة مطلبهم ، مازالت نفوسهم مملوءة بالحقد والبغضاء وانتهاز الفرص للنيل من النبى والمسلمين، وليس أدل على هذا أن النبى بعد أن صالحهم واطمأن، أهدت إليه زينب بنت الحارث أمرأة سلام بن مشكم — وهو ممن قتل فى الحرب — شاة مشوية ، وسألت أى عضو أحب إلى نبيهم ؟ فقيل لها : الذراع ، فاكثرت فيه من السم ، ثم سمت سائر الشاة. وجاءت بها ووضعتها بين يدى النبى، فتناول الذراع، فلاك منها قطعة ، فلم يسغها[3]، وكان معه بشر بن البراء بن معرور ، وقد أخذ منها قطعة فأساغها، وأما رسول الله فلفظها وقال: إن هذا العظم يخبرنى انه مسموم ثم دعا بها فاعترفت فقال لها : ( ما حملك على هذا ؟ ) قالت : بلغت من قومى مالم

---

(١) حيدرة من أسماء الأسد .

(٢) مكيل واف .

(٣) لاك : مضغها ، فلم يسغها : لم يبلعها .

يخف عليك ، فقلت : إن كان كذاباً استرحنا منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز عنها، ومات بشر من أكلته هذه، ويروى ان النبى قتلها به قصاصا، وهكذا نجى الله نبيه من غدر هذه اليهودية . كما نجاه من غدرهم وهمهم بقتله فيما قبل ولم يزل أثر هـذا السم يعاود النبى صلى الله عليه وسلم كل عام حتى اختاره الله لجواره .

فى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما زالت أكلة خيبر تعاودنى حتى قطعت ابهرى[1] .

(تقسيم غنائم خيبر ) وبعد الموقعه وحيازة الغنائم خمسها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فأبقى الخمس لنفسه يصرفه فى مصارفه ثم قسم الباقى نصفين: نصفا قسمه فى الغانمين . ونصفا ارصده لما ينوبه فى الحاجات والمصالح ، وقد جعل الفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهما ، ولم يقسم رسول الله إلا لمن شهد الحديبية من حضر منهم خيبر ومن غاب، ولم يغب عن خيبر ممن شهد الحديبية إلا جابر بن عبد الله ، فضرب له بسهمه ، وكذلك أسهم النبى لأصحاب السفينة الذين قدموا من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب بعد أن استأذن أصحابه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل إلى عبد الله بن رواحة أخذ النصف من غلتهم فشكوا إلى رسول الله شدة خرصة — تقديره — وأرادوا أن يرشوه فقال : يا أعداء الله تطعمونى السحت !! والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلى ، ولأنتم أبغض من القردة والخنازير ، ولا يحملنى بغضى إياكم ، وحبى اياه على أن لا أعدل ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض ، فلما استشهد فى موته ولى بعده جبار بن صخر[2] .

( مثل أعلى للتسامح ) وقد كان من إحسان النبى معاملة يهود خيبر أنه كان

---

(١) عرق متصل بالقلب اذا قطع مات الانسان وهو كناية عن الموت

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٠١

من بين ما غنم المسلمون منهم عدة صحف من التوراة ، فطلب اليهود ردها. فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع صلى الله عليه وسلم ماصنع الرومان حينما فتحوا أورشليم، وأحرقوا الكتب المقدسة ، وداسوها بأرجلهم ، ولا ما صنع النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة(١)

## (يهودى فدك وتيماء ووادى القرى)

ثم أرسل النبى صلى الله عليه وسلم إلى يهود فدك(٢) من يطلب إليهم الانقياد والطاعة ، فصالحوا رسول الله على أن يحقن دماءهم ، ويتركوا أموالهم فكانت فدك فيئا لرسول الله خاصة ينفق منها على نفسه وعلى من يمون ويقول، ثم عاملهم على العمل فى الارض بنصف ما يخرج منها .

ولما بلغ يهود تيماء ما انتهى إليه أمر أهل خيبر، صالحوا على دفع الجزية وبقوا فى بلادهم وأموالهم آمنين .

ثم دعا رسول الله يهودى وادى القرى إلى الاستسلام والطاعة، فأبوا وقاتلوا فقاتلهم ، ولكن سرعان ما استلموا ، وصالحوا على ما صالح عليه أهل خيبر ، فتركت لهم الأرض يزرعونها بشطر ما يخرج منها .

وبهذا النصر المتتابع دان اليهود كلهم لسلطان الاسلام ، وانتهى ما كان لهم من نفوذ وكيان، ولم تقم لهم قائمة بعد، وبهذا أصبحت الدولة الإسلامية بمأمن من ناحية الشمال إلى بلاد الشام .

---

(١) حياة محمد ص٣٧٧

(٢) فدك . بفتحتين بلد بينها وبين مدينة النبى صلى الله عليه وسلم يومان، وبينها وبين خيبر دون مرحلة.

(٣) تيماء : وزن حمراء موضع قريب من بادية الحجاز يخرج منها إلى الشام على طريق البلقاء .

## ( إجلاء الفاروق عمر لهم عن جزيرة العرب )

ولم يزل يهود خيبر ومن صالح صلحهم ، يعملون فى أرضها على نصف مايخرج منها حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومدة خلافة الصديق أبى بكر — رضى الله عنه — وصدراً من خلافة الفاروق عمر — رضى الله عنه — حتى أجلاهم إلى بلاد الشام بعد أن أعطاهم — قيمة ما كان لهم من التمر — مالاوإبلا وعروضاً وذلك لأمور : —

(١) لما قاموا به من الغدر والأفساد فقد كان لابنه عبد الله مال بخيبر ، وكان يختلف إليه بين الحين والحين فعدوا عليه من الليل ، وألقوه من فوق السطح وهو نائم ففدعت يداه ورجلاه .

(٢) ولما ثبت عنده من قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يبقى بجزيرة العرب دينان » فقال : من كان له من أهل الكتابين عهد فليأت به أنفذه له ، وإلا فانى مجليكم فاجلاهم ، أخرجه بن أبى شيبة وغيره ولا سيما أن إبقاء رسول الله لهم ، وإقرارهم فى بلدهم كان مشروطا بمشيئة المسلمين ففى الصحيحين ( نقركم ماشئنا وفى رواية ابن اسحاق : ( على أنا اذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم ).

(٣) لأن إقرارهم عليها إنما كان لأنهم أقدر على العمل فى الأرض . وأعمر لها من غيرهم ، ولأن المسلمين كانوا فى قلة من الأيدى العامله : لاشتغالهم بالجهاد ونشر الاسلام ، والعمل فى زراعاتهم بالمدينة ، فلما كثروا لم تعد حاجة اليهم لا سيما أنهم أصبحوا مصدر قلق ، وافساد ، روى عمر بن شيبة فى اخبار المدينة قال : لما كثر العيال — أى الخدم — فى أيدى المسلمين وقووا على العمل فى الأرض أجلاهم عمر ، فلهذه الاعتبارات مجتمعة كان الاجلاء[٢] ونعما فعل اللهم المحدث ، فإن الحجاز قطب الاسلام ، وقلبه النابض ، فكان من الحكمة أن

---

(١) القدع بفتحتين : اعوجاج الرسغ من اليد ، أو الرجل . فينقلب الكف أو القدم إلى الجانب الآخر .

(٢) فتح البارى جـ ٥ ص ٢٥٠

يبقى القطب قويا متماسكا ، والقلب سليما من عـوامل الضعف والفساد ، كى تبقى الاطراف سليمة قوية تؤدى وظائفها المطلوبة منها ، فهل يقيض الله لهم من أبطال المسلمين والعرب من يجليهم من الأرض المباركة ( فلسطين ) كما أجلوا عن البلد الطيب (المدينة) والأرض الطاهرة ( الحجاز )؟!

## ( السنه الثامنة )

## ( اسلام خالد ، وعمرو ، وعثمان بن طلحة )

وفى مستهل هذا العام أسلم ثلاثة من خيار ، قريش وسادة بيوتاتها ، وهم عمرو ابن العاص ، وخالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة بن أبى طلحة.

( إسلام عمرو ) وقد كان هاجر إلى الحبشة بعد غزوة الأحزاب فى رواية ابن اسحاق لما ضاقت نفسه بانتصارات الإسلام وبعـد صلح الحديبية فى رواية البيهقى فصادف هناك عمرو بن أمية الضمرى[1] فأراد أن يوقع به حتى زجره النجـاشى ، ثم كان أن أسلم وأقام بالحبشة حتى قدم على النبى أوائل هذا العـام مظهرا إسلامه.

( إسلام خالد ) أما خالد فكان من أشد الناس على النبى والمسلمين ، ولـكن الله لما أراد له الـكرامة ، نظر فرأى أنه لا يشهد مشهدا ضد النبى إلا وقد خذل فيه ، وهو الفارس المعلم والقائد المحنك ، وفى الحديبية كان على خيل المشركين ولقى رسول الله بعسفان ، وتربص بالمسلمين شرا وهم يصلون ، ولـكن الله أعلم نبيه فصلى صلاة الخوف ، فوقع ذلك من نفس خالد وقال : الرجل ممنوع !!

فلما كانت عمرة القضاء تغيب فيمن تغيب من المشركين ، كراهة رؤية المسلمين وهم بمـكة ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه اخاه الوليد بن الوليد وتعجب

---

(١) قيل كان هناك ليوصل كتاب النبى إلى النجاشى بشأن تزويجة من أم حبيبه ، وقيل بشأن قدوم جعفر وأصحابه وقيل كان يحمل كتاب النبى إلى النجاشى داعيا له إلى الإسلام .

كيف يغيب الإسلام عن مثل خالد فكتب له أخوه هذا الكتاب : ( بسم الله الرحمن الرحيم فأنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ! ومثل الإسلام جهله أحد ؟! وقد سألنى رسول الله عنك وقال : أين خالد ؟ فقلت : يأتى الله به فقال : « مثله جهل الإسلام ؟ ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين كان خيرا له ، ولقدمناه على غيره » فاستدرك يا أخى ماقد فاتك من مواطن صالحة » فلما وصل خالداً الكتاب وقع سؤال النبى عنه من نفسه ، واستشعر مافيه من معان وتقدير كريم ، فازداد رغبة فى الإسلام . وقوى هذه الرغبة فى نفسه رؤيا رآها : رأى أنه كان فى بلاد ضيقة مجدبة . فخرج منها إلى بلاد خضراء واسعة فقال : إن هذه لرؤيا !! فكانت البلاد الضيقة — كما عبرها له الصديق فيما بعد — هى دنيا الشرك الذاهبة القاحلة . وكانت البلاد الخضراء الواسعة هى دنيا الإسلام الفسيحة الخصبة . وأدركته لحظة من لحظات التجلى الإلهى ، فعزم على الخروج إلى رسول وعرض هذه الفكرة على صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل فأبيا . ثم عرضها على عثمان بن طلحة فأسرع الاجابة . وخرج خالد وعثمان حتى كانا بالطريق بين مكة والمدينة التقيا بعمرو بن العاص . فقال له أين ياأبا سليمان — يعنى خالدا — ؟ قال : والله لقد استقام المنسم — أى تبين الطريق ووضح — وإن الرجل لنبى أذهب والله فاسلم فحتى متى ؟! وصار الركب الميمون المبارك حتى دخلوا المدينة . فأصلحوا من شأنهم ولبسوا صالح ثيابهم . ثم قصدوا إلى النبى . وكان البشير قد جاء بالبشرى إلى رسول الله فسر بمقدمهم . ولقيهم أخوه الوليد فقال لخالد : أسرع فأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سر بمقدمك وهو ينتظركم ،فأسرعوا حتى وقفوا على الرسول وهو يبتسم ،فسلم عليه خالد بالنبوة فرد السلام بوجه طلق ، ثم شهد شهادة الحق فقال النبى له : ( تعالى ، الحمدلله الذى قد هداك كنت أرى لك عقلا رجوت ان لايسلمك إلا إلى خير ) فقال خالد : يارسول الله إنى قد شهدت تلك المواطن عليك معاندا للحق فادع الله أن يغفرها لى ، فقال الرسول الكريم « الاسلام يجب ما كان قبله » .

وتقدم عثمان بن طلحة فبايع ، وتقدم عمرو بن العاص فبايع ، قال عمرو : فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فاستحييت أن أرفع طرفي حياء منه فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي فقال : « إن الإسلام يجب ما كان قبله ، والهجرة تجب ما كان قبلها » فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ ، وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا ، ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة ، ولقد كنت عند عمر بهذه المنزلة ، وكان عمر على خالد كالعاتب ، وكان قدومهم وإسلامهم في أول صفر سنة ثمان من الهجرة[1] وباسلام خالد وعمرو اكتسب الإسلام اثنين من أبطال الإسلام وقواده . الذين كانت لهم يد طولى في غزوات الإسلام وفتوحاته .

## ( غزوة مؤتة )[2]

في جمادى الأول من عام ثمان الموافق سنة ٦٢٩ م جهز رسول الله ﷺ جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله إلى أمير بصرى داعيا له إلى الإسلام ، وقيل : إن النبي كان أرسل سرية إلى ذات الطلح على حدود الشام يدعون إلى الإسلام ، فكان جزاؤهم القتل ، ولم ينج منهم إلا رئيسهم بعد أن ظنوا أنه مات ، وأمر على الجيش زيد بن حارثة ، وقال : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة » وسار الجيش وعدته ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار بعد أن ودعهم المسلمون قائلين : صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا سالمين وخرج رسول الله يشيعهم ويوصيهم قائلا : ( اغزوا باسم الله ، قاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا في الصوامع معتزلين ، فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ، ولا شيخا فانياً ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بناء ... ) ثم

---

(١) ذكر الشيخ الخضري — رحمه الله — في نور اليقين إسلام خالد وصاحبيه في سنة سبع والتحقيق ما ذكرته ( البداية والنهاية جـ٤ ص ٢٣٦ ) .

(٢) مؤنه — مهموزة الواو ، وحكى غير الهمزة قرية من أرض البلقاء بطرف الشام .

مضوا فى سبيل الله حتى وصلوا ( معانا ) من أرض الشام فبلغهم أن هرقل قد نزل ( مآب ) فى أرض الشام فى مائة ألف من الروم ، وانضم اليهم مائة ألف أخرى من متنصرة العرب من لخم ، وجذام والقين وبهراء ، وبلى . فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على ( معان ) ليلتين وقالوا : نكتب إلى رسول الله نخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له فقال عبد الله بن رواحة : يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة . ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة ، فتشجع الناس وقالوا : صدق ابن رواحة ، وسار الجيش الإسلامى تحدوه الرغبة فى إعزاز دين الله وحب الشهادة حتى التقوا بجموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء ( مشارف ) فانحاز المسلمون إلى مؤتة وتحصنوا بها .

( التقاء الجيشين ) والتقى الجمعان غير المتكافئين عدداً وعدة ، وقاتل المسلمون قتال الأبطال وصمدوا أمام هذا الجيش العرمرم ، وقاتل زيد بن حارثة حامل اللواء حتى استشهد ، فولى القيادة جعفر بن أبى طالب وحمل اللواء ، وكان على فرس له شقراء ، فزل عنها وعقرها ، وتقدم يقاتل وهو يحمل اللواء ويقول.

يا حبذا الجنة واقترابها  طيبة وباردا شرابها
والروم روم قد دنا عذابها  كافرة بعيدة أنسابها
على إن لاقيتها ضرابها

وكان جعفر يحمل اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضدية حتى ضربه رجل من الروم ضربة فقطعته نصفين ، فاستشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة بعد أن خط فى كتاب البطولة الإسلامية سطورا مشرقة ، وكان جزاؤه من ربه أن أبدله الله بيديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء ، ولما التمس فى القتلى وجد به بضع وتسعون جرحا . وكان ابن عمر إذا حيى ابن جعفر قال : السلام عليك يا ابن ذى الجناحين . فأخذ الراية عبد الله بن رواحه ، ثم تقدم بها فى جموع الروم وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد وهو يقول:

أقسمت يانفسى لتنزلنه لتنزلن أو ليكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالى أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة فى شنه (١)
ويقول: يانفسى إن لا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلى فعلهما هديت

ومازال يتقدم باللواء ويقاتل حتى قتل شهيداً

ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم فقال : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم فقالوا : أنت ، فقال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد المخزومى ، فلما أخذ الراية قاتل قتال الأبطال حتى اندقت فى يده تسعة أسياف وما صبرت معه إلا سيف يمانيه ، واستعمل دهاءه وحنكته الحربية حتى انحاز بالجيش ، وأنقذه من هزيمة منكره كادت تقع ، وكان الليل قد أقبل ، فانتهز خالد هذه الفرصة وغير نظام الجيش ، فجعل المقدمة ساقة ، والساقة مقدمة ، والميمنة ميسرة ، والميسره ميمنة ، وصف صفا طويلا وراء الجيش ، فلما أصبح الصباح أنكرت الروم ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم ، وسمعوا من الجلبة ، وقعقعة السلاح ، ما قد ظنوا معه أنهم جاءهم عدد فرعبوا وانكشفوا ، وما زال خالد يحاورهم ، ويداورهم ، والمسلمون يقاتلونهم فى أثناء انسحابهم بضعة أيام حتى خاف الروم أن يكون هذا استدراجاً لهم إلى الصحراء ، فتحاجز الفريقان وانقطع القتال .

« بلاء المسلمين » وقد أبلى البطل خالد وأصحابه الأبطال بلاء حسنا فى هذا اليوم ، وبفضل ثباتهم وشجاعتهم تبدلت هزيمتهم نصراً ، وأى نصر يرجى أكثر من صمود جيش تعداده ثلاثة آلاف أمام جيش تعداده مائتا ألف وانسحابهم وهم موفورو العدد محفوظو الكرامة ، وإنه لشىء نادر فى تاريخ الحروب أن يقف

---

(١) أجلبوا : صاحوا . الرنه صوت ترجيع شبه البكاء ، النقطة : الماء القليل الصافى ، الشنة : السقاء البالى ، فيوشك أن تهراق أو ينخرق السقاء ضرب ذلك مثلا لنفسه فى جسده

جندى واحد أمام سبعين من الجنود المدججين بالسلاح، ولكنه الإيمان ! الذى يصير من الجبناء شجعانا، ومن الشجعان أبطالا، ولعل مما يثير العجب أن جميع من استشهد من المسلمين فى مؤتة ثمانية ، وقيل اثنا عشر .

« نعى رسول الله الأمراء » وأطلع الله سبحانه رسوله على ما جرى فقام على المنبر فقال : « أخذ الراية زيد فاصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرفان ، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » رواه البخارى ومن يومها وقد عرف خالد بسيف الله المسلول ، وفى رواية ابن اسحاق : « ولقد رفعوا إلى فى الجنة فيما يرى النائم على سرير من ذهب ، فرأيت فى سرير عبد الله ازورارا عن سريرى صاحبيه ، فقلت عم هذا ؟ فقيل لى : مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى » ويا لها من عبره ! فاذا كان بعض التردد من الشجاع المغوار ابن رواحة قد جعله فى منزلة دون صاحبيه فما بالك بمن ينكص على عقبيه مؤثرا الحياة على الشهادة طمعا فى جاه أو مال ، أو عرض من أعراض الحياة ؟ ! ! إن مثله لا يقام له عند الله وزن وإن عرض عند سواد الناس جاهه ، وبذمال قارون ماله .

« لقاء الجيش » وخرج الرسول والمسلمون للقاء الجيش ؟ فجعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون لهم يافرار فررتم فى سبيل الله ، ولكن الرسول العليم ببواطن الأمور ، والمقدر لموقف الجيش قال لهم : « ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله »

« مثل أعلى للاستحياء » ومع منافحة الرسول عن أصحاب مؤتة قد اعتزل بعض المسلمين فى بيته خشية سماع هذه الكلمة الثقيلة على أسماع المؤمنين الشجعان « يافرار » روى ابن اسحاق عن أم سلمة زوج النبى ﷺ أنها قالت لأمرأة سلمة بن هشام بن المغيرة : مالى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ؟ ! فقالت : مايستطيع أن يخرج ، كلما خرج صاح به الناس : يا فرار فررتم فى سبيل الله حتى قعد فى بيته مايخرج ، وهذا يدل على مبلغ ما وصل

إليه الخلق الإسلامى آنئذ من حب البطولة وإيثار الشهادة فى سبيل الله على الفرار ، والاستحياء من المثالب والمساوىء ، وتقدير للقيم الخلقية ، والمعانى الأدبية

« إكرام النبى لآل جعفر » لما أصيب جعفر دخل رسول الله على أسماء بنت عميس فقال : « ائتنى ببنى جعفر » فأتت بهم فشمهم وقبلهم وزرفت عيناه فقالت اسماء : أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء ؟ قال : « نعم أصيبوا هذا اليوم » فجعلت تصيح وتولول فقال النبى : « لاتغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فانهم قد شغلوا بأمر صاحبهم » وهذا هو الأصل فى صنع الطعام لأهل الميت لا مايصنعه بعض الناس اليوم بقصد التفاخر والمقابلة بالمثل ، وقد لايصيب أهل الميت منه شىء

ولما قارب الجيش المدينة تلقاهم الصبيان يشتدون ورسول الله مقبل مع الجيش على دابة له فقال : خذوا الصبيان فاحملوهم واعطونى ابن جعفر فأتى بعبد الله فحمله بين يديه ، وبعد ثلاث دخل على أسماء وقال لها : « لا تبكوا على أخى بعد اليوم أدعو لى بنى أخى » فجىء بهم كأنهم أفرخ ، فدعا بالحلاق فحلق لهم رءوسهم ثم قال : « أما محمد فشبيه عمنا أبى طالب ، وأما عبد الله فشبيه خلقى وخلقى » ثم أخذ بيمين عبد الله وقال : « اللهم اخلف جعفراً فى أهله ، وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه » (ثلاثا) ولما ذكرت له أمهم يتمهم وضعفهم قال لها : « العيلة تخافين عليهم ، وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة » رواه الإمام أحمد .

وهذا غاية ماينتظر من تكريم أبناء الشهداء ، وبذلك وضع الرسول الكريم الأساس الصالح لهذا التقليد الشريف :

« نهى آل جعفر عن النياحة » روى البخارى فى صحيحه عن عائشه رضى الله عنها قالت : « لما قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله ابن رواحة جلس رسول الله ﷺ يعرف فى وجهه الحزن فأتاه رجل فقال :

أى رسول الله إن نساء جعفر وذكر بكاءهن فأمره أن ينهاهن فذهب الرجل ثم أتى فقال والله لقد غلبننا ، فقال رسول الله : « فاحث فى أفواههن من التراب » .

« رثاه أسماء بنت عميس زوجها » ورثت أسماء زوجها فقالت

فآليت لا تنفك نفسى حزينة عليك ولا ينفك جلدى أغبرا
فلله عيناً من رأى مثله فتى أكر وأحمى فى الهياج وأصبرا

فلما انقضت عدتها خطبها الصديق رضى الله عنه فتزوجها فأولم عليها ، وكان فى الناس على بن أبى طالب، فلما ذهب الناس استأذن على أبا بكر فى أن يكلم أسماء من وراء الستر فأذن له ، فلما اقترب من الستر نفحه ريح طيبها فقال لها — متباسطا معها — .

من القائلة :فآليت لاتنفك نفسى حزينة عليك ولا ينفك جلدى أغبرا

فقالت : دعنا منك يا أبا الحسن فانك امرؤ فيك دعابة ، فولدت للصديق ابنه محمدا ثم لما توفى الصديق تزوجها بعده على بن أبى طالب فولدت له أولاداً رضى الله عنهم أجمعين .

## غزوة ذات السلاسل[1]

وفى جمادى الآخرة بلغه صلى الله عليه وسلم أن جمعا من قضاعه يتجمعون فى ديارهم وراء وادى القرى ، ليغيروا على المدينة ، فأرسل لهم عمرو بن العاص

---

(١) ضبطها ابن الأثير فى النهاية ، بضم السين الأولى ، وكسر الثانية ، وضبطها صاحب القاموس بفتح السين الأولى . سميت باسم ماء بأرض جذام يقال له السلسل . وقيل لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا . وذكر ابن سعد أنها وراء وادى القرى وبينها وبين المدينة عشرة أيام . ونقل ابن عساكر الاتفاق على أنها كانت بعد غزوة مؤته إلا ابن اسحاق فقال : إنها كانت قبلها

فى ثلثمائة من خيار المسلمين ، لأن أم عمرو كانت من بلى ؛ ولعل فى هذا تأليفاً لهم فلما صار إلى هناك خاف كثرة عدوه فبعث إلى رسول الله يستمده فندب لذلك المهاجرين والأولين ، فانتدب أبو بكر وعمر فى مائتين من سراة المهاجرين ، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وقال له : « إذا أنت قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا » فلما قدم على عمرو قال له : إنما جئت مدداً لى فقال له أبو عبيدة : لا ولكنى على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه فأبى عمرو ، فتذكر أبو عبيدة وصاة رسول الله وكان رجلا سهلا هيناً عليه أمر الدنيا فقال له يا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : « لا تختلفا » وإنك إن عصيتنى أطعتك . وبذلك حسم الخلاف . وسار عمرو بمن معه حتى وصل إلى بلاد بلى ، فكان كلما انتهى إلى موضع به جمع تفرقوا حتى انتهى إلى آخر بلاد بلى وعذره ، فلقى جمعاً ليس بالكثير ، فاقتتلوا ساعة وتراموا بالنبل ، وحمل عليهم المسلمون فهزموا وتفرقوا ، وأوغلوا هربا فى البلاد ، ثم عاد المسلمون منتصرين بعد أن أروهم سلطان الاسلام وسطوته ، وفى الطريق أصيب عمرو بن العاص بجنابة من أثر احتلام ، فتيمم وصلى بأصحابه ، فلما قدموا على رسول الله سألهم عن أحوالهم فى غزوتهم كما هى عادته ، فاخبروه بما كان من أمر عمرو واحتلامه وتيممه وصلاته من غير اغتسال فقال رسول الله : « يا عمرو صليت باصحابك وأنت جنب » فقال : يارسول الله احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل ، فاشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيممت ثم صليت بأصحابى الصبح ، وإنى سمعت الله يقول : « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » فضحك النبى ولم يقل شيئا ، وكان سكوت النبى تقريراً له على هذا ، وتقريره أحد وجوه السنن المعروفة وقد نجح عمرو فى إرجاع هيبة الإسلام لأطراف الشام ، وإرجاع أحلاف المسلمين لصداقتهم الأولى ، ودخول قبائل أخرى فى حلف مع المسلمين ، وإسلام الكثيرين من بنى عيسى ، وبنى مرة ، وبنى ذبيان ، وكذلك دخلت فزارة وسيدها عيينة بن حصن فى حلف مع المسلمين ، وتبعها بنو سليم ،

وعلى رأسهم العباس بن مرداس ، وبنو أشجع ، ومعظم من لم يكن قد حالف المسلمين من القبائل المجاورة للمدينة ، وأصبح المسلمون أقوى عنصر سياسى فى شمال بلاد العرب ، وإن لم يكن فى بلاد العرب جميعها (١) .

## « فتح الفتوح فى الاسلام »

« فتح مكة » لما أبرم صلح الحديبية كان من شروط الصلح أن من أحب أن يدخل فى عهد النبى فليدخل ، ومن أحب أن يدخو فى عهد قريش فليفعل ، فدخلت خزاعه فى عهد رسول الله ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش وقد مضى على الصلح قرابة عامين ولم يحدث من المسلمين ما يخل بالعهد ، وقد حدث بعد مؤتة أن خيل إلى قريش أن المسلمين قد ضعفوا وزالت هيبتهم ، وخيل إلى بنى بكر أن ينالوا من خزاعة احلاف الرسول ، وقد كان بين بنى بكر وخزاعة ثارات فى الجاهلية ودماء ، فبيت بنو بكر خزاعةوهم على ماء يسمى ( الوتر ) وأصابوا منهم ، واعانتهم قريش بالرجال والسلاح تحت جنح الليل ، وما زالوا يقاتلونهم حتى الجاوهم إلى الحرم ، ولجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء ، ومولى لهم يسمى : أبا رافع فركب عمرو بن سالم إلى رسول الله بالمدينةيخبره بغدر قريش وإخلافهم العهد ولما وقف على النبى أنشده أبياناً منها :

يارب إنى ناشد محمـــدا ... حلف أبيه وأبينا الأتلدا
فانصر رسول الله نصراً أبدا ... وادع عباد الله يأتوامدد
فى فيلق كالبحر يجرى مزيدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا ... فهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال له رسول الله : « نصرت يا عمرو بن سالم » .

ثم خرج أيضاً بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول

(١) محاضرات فى السيرة وتاريخ الخلفاء للدكتور محمد مصطفى زباده .

الله فاخبروه بما جرى ، ثم انصرفوا آيبين إلى مكة وفى الطريق لقيهم أبو سفيان وهو ذاهب إلى المدينة فقال له : لعلك ذهبت إلى محمد بالمدينة ، فأنكر بديل وتعلل بتعلات أخرى ، ولكن أبا سفيان جاء إلى مبرك ناقته ، فرأى فى بعرها نوى يثرب ،فأيقن أنه جاء النبى مستنصراً .

« سفارة أبى سفيان بن حرب » وأدركت قريش مغبة غدرها و نقضها للعهد، فأرسلت أبا سفيان إلى المدينة يؤكد العهد ويمد فى المدة ، فلما وصلها قصد إلى بيت ابنته أم حبيبة زوج الرسول فلما هم بالجلوس على فراش رسول الله طوته فعجب وقال : يا بنية أرغبت بى عن الفراش أم رغبت به عنى ؟ فقالت هو فراش رسول الله ﷺ ،وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه !! وكانت صدمة له لم يفق منها حتى قال : يا بنية والله لقد أصابك بعدى شر ، وخرج مغضبا ، ثم كلم رسول الله فى العهد وإطالة المدة فلم يحظ منه بطائل ، فخرج قاصدا أبا بكر فكلمه أن يكلم رسول الله فقال ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال له : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ افوالله لو لم أجد لكم إلا الذر لجاهدتكم به ، ثم خرج فدخل على على بن أبى طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله والحسن غلام يدب بين يديه فقال : يا على إنك أمس القوم بى رحما وأقربهم منى قرابة ،وقد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا فاشفع لى إلى رسول الله ، فقال له : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ، فقالت: والله ما يبلغ بنى ذلك أن يجير بين الناس ،وما يجير أحد على النبى ﷺ (١) فقال يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى فقال على: والله ما أعلم شيئا يغنى عنك شيئا ولكنك

---

(١) لا مخالفة بين هذا وقوله عليه الصلاة والسلام : (ويجير على المسلمين أدناهم ) لأن المراد بالثانى من يجير واحداً ونفراً يسيرا ، وأما قول السيدة فاطمة فالمراد به الاجازة العامة أى لا يمنع أحد الامام من غزوة قوما.

سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك فقال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ فقال لا والله ولكن لا اجد لك غير ذلك فقام أبو سفيان فقال: إنى قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره وعاد من حيث أتى ، فلما قدم على قريش أخبرهم بما كان وإجارته بين الناس فقالوا له : هل أجاز ذلك محمد؟قال:لا، قالوا: ويحك مازاد الرجل على أن لعب بك فما يغنى عنا ما قلت .

« تجهز النبى للخروج » ولم يلبث رسول الله أن أخذ التجهز للخروج إلى مكة ، وأذن فى الناس بالتجهيز ، وأخفى مقصده إلا عن بعض خاصته كالصديق،وكان عرض رسول الله أن يبغت قريشا فى عقر دارها من غير أن تأخذ أهبتها حرصا أن لا تراق الدماء فى بلد الله الحرام ، فلما تجمعت الجموع وتهيأت للمسير أخبرهم بمقصده وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها ».

« كتاب حاطب إلى قريش » ولما أجمع ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبى بلعته كتابا يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ، ثم أعطاه مولاة لبعض بنى عبد المطلب تسمى سارة، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قرشاً،فجعلته فى عقاص شعرها، ثم خرجت به فاذا الوحى ينزل على رسول الله بما صنع حاطب ، فبعث عليا ، والزبير ، والمقداد وقال . انطلقوا حتى تأتوا ( روضة خاخ ) فان به ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقوا تتعادى بهم خيلهم حتى أدركوها فقالوا لها أخرجى الكتاب فقالت : ليس معى كتاب فقالوا لها : لتخرجن الكتاب ، أو لتكشفن الثياب فخافت وأخرجته من عقاصها فأتوا به إلى النبى فاذا فيه: « يا معشر قريش فان رسول الله جاءكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل . فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله ، وانجز له وعده ، فانظروا لأنفسكم والسلام »[1]

فقال النبى : « ياحاطب ماهذا ؟ » فقال يارسول الله لاتعجل على إنى كنت أمرأ ملصقا فى قريش ـ يعنى حليفا ولم يكن من أنفسها ـ وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم ، وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتى بها ، ولم أفعله ارتدادا عن دينى

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٤٢٠

ولارضا بالكفر بعد الإسلام ، فقال الرسول العظيم : « أما إنه قد صادقكم » فقال عمر : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال الرسول : « إنه قد شهد بدراً ، ومايدريك لعل الله قد أطلع على من شهد بدرا فقال : « اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم ، فبكى عمر وقال : الله ورسوله أعلم!! فأنزل الله هذا التأديب الإلهى وهو صدر سورة الممتحنة « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى، وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم ، إلى قوله سبحانه « فقد ضل سواء السبل » (١)

« العظيم من يرحم الضعفاء » وإنا لنا هنا لوقفة فما كان حاطب منافقا ، ولاضعيف الإيمان ، بتزكية الرسول له . ولكن فى النفس الانسانية جوانب ضعف تطغى عليها فى بعض الأحيان ، وتهوى بها إلى مالاترضاه لنفسها وكل بنى آدم خطاء وما كان هذا الضعف الإنسانى ليخفى على صاحب القلب الكبير ، والقوى الأمين صاحب الخلق العظيم ، فلا تعجب إذا كان الرسول صدقه فيما قال ، ورحم ضعفه، ونافح عنه ، والقوى حقا هو الذى يرحم الضعفاء ، والعظيم حقا هو الذى يلتمس المعاذير لمن يستزلهم الشيطان فى غفوة من صدق الإيمان ووازع الضمير !!

« مسيرة الجيش إلى مكة » ثم مضى رسول الله لغزوته واستخلف على المدينة أبارهم كلثوم بن حصين الغفارى وكان خروجه لعشر مضين من رمضان من السنة الثامنة ، فصام وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد ـ موضع بين مكة والمدينة ـ أفطر حتى قدم مكة وانسلخ الشهر ، وخرج معه المهاجرون والأنصار لم يتخلف منهم أحد ، وانضم إليهم آلاف من سليم ومزينة وغطفان وغيرهما ، وما إن وصل مر الظهران حتى صار تعداد الجيش عشرة آلاف وقيل إثنا عشر ألفا، وشهدت الصحراء العربية ، الجيش العرمرم الذى لم تشهد له مثيلا من قبل ، فى عقيدته وإيمانه ، وإيثاره الموت على الحياة والآخرة على الدنيا .

« إسلام العباس وبعض القرشيين » وكان العباس بن عبد المطلب عم الرسول قد خرج من مكة مهاجرا إلى الله ، واحتمل معه أهله وولده ، فلقى

---

(١) الممتحنة / ١

الرسول بالجحفة(١) فأسلم وقد سر الرسول باسلامه غاية السرور ، إذ قد كان ناصراً له ومؤيداً ، وفى هم شاغل به وبدعوته مع بقائه على دين قريش ، وإقامته بمكة على سقاية الحاج ، وخرج من قريش أيضاً أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمى ، وعبد الله بن أبى أمية المخزومى ، فلقيا رسول الله « بنبق العقاب » والتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما وقالت يا رسول الله إبن عمك ، وابن عمتك ، وصهرك يلتمسان الدخول عليك فقال : « لا حاجة لى بهما أما ابن عمى فبالغ فى اساءتى ، وأما ابن عمتى فهو الذى قال بمكة ما قال » فلما بلغهما ذلك كان مع أبى سفيان بنى له فقال : والله ليأذنن لى أو لآخذن بيد بنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعا ، فلما بلغ النبى ذلك رق لهما ، فدخلا عليه وأسلما .

« تخوف العباس على قريش » ورأى العباس علو نجم ابن أخيه وقوته ، وأحس منزلة النبى فى قلوب هذه الآلاف المؤمنة التى لايقدر على أن يصدرها عن غايتها صاد ، والتى لا قبل لمكة ولا لغيرها بهم ، فقال : واصباح قريش والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر ، فركب بغلة رسول الله البيضاء وذهب ناحية الأراك على أن يجد حطابا ، أو صاحب لبن ، أو ذا حاجة ذاهباً إلى مكة فيخبره بمكان رسول الله حتى يخرجوا إليه فيستأمنوه ، فكان أن التقى بابى سفيان وصحبه .

---

(١) وقيل برابغ والقربتان متجاورتان ، وقد درست الجحفة وبقيت رابغ ، ويرى بعض المؤرخين أن العباس كان قد أسلم من قبل ولكنه أخفى إسلامه لمصلحة الدعوة فقد كان بمثابة العين لرسول الله على قريش ، ثم أعلن إسلامه قبل الفتح ، ومنهم من يرى . أنه ذهب إلى المدينة قبل الفتح وأسلم وسار مع جيش الفتح . ويشكك بعض المؤرخين فى هذا وذاك والصحيح ما ذكرناه أولا

«أبو سفيان يستطلع الأخبار لقريش» ها هو رسول الله والجيش قد وصل إلى مر الظهران،(١) وقد عميت الأخبار عن قريش لا يأتيهم خبر عنه، ولا يدرون ماهو فاعل بهم، وبينما هم فى حيرة من أمرهم خرج أبو سفيان ابن حرب وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يستطلعون الأمر لقريش، وكان رسول الله قد أمر أصحابه أن يوقدوا ناراً فأوقدوا عشرة آلاف نار، حتى كانوا قريباً من مر الظهران رأوا نيرانا كنيران الحجيج فى عرفة فقال أبو سفيان مارأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكراً فقال بديل: هذه والله خزاعة، فقال أبو سفيان خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، وبينما هما يتحاوران عرف العباس صوت أبى سفيان، فقال: أباحنظلة! وأجاب أبو سفيان: أبا الفضل! فقال العباس ويحك يا أباسفيان هذا رسول الله ﷺ فى الجيش، فقال أبو سفيان: فما الحيلة؟ فداك أبى وأمى، فقال العباس فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله فاستأمنه لك، فركب وسار الآخران وراءهما، فكلما مروا بنار قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلة رسول الله، حتى مروا بنار عمر بن الخطاب وعرف أبو سفيان فوجأه فى عنقه، وهم بقتله حتى أجاره العباس، واركض العباس البغلة، وعمر يشتد فى إثرها حتى دخل العباس ومعه أبو سفيان على رسول الله، ثم دخل عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عهد فدعنى فلأضرب عنقه، فقال العباس: انا أجرته، ثم جلس إلى رسول الله يناجيه فلما أكثر عمر فى شأن أبى سفيان قال العباس: مهلا ياعمر فو الله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت هذا، ولكنك عرفت أنه من بنى عبد مناف! فقال عمر: مهلا ياعباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بى إلا إنى قد عرفت أن

---

(١) قرية بالقرب من مكة بوادى الظهران

إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب!! وحسم رسول الله الخلاف بينهما فقال : ( إذهب به ياعباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به ) أما حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء فقد أسلما .

إسلام أبى سفيان، وبات أبو سفيان ليلته ورأى فيها ماملأ نفسه إعجابا !! رأى المسلمين لما سمعوا الأذان انتشروا فتوضأوا ، ثم اقتدوا بالرسول يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده فقال : يا عباس ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه ؟ ! قال نعم والله لو أمرهم بترك الطعام والشراب لأطاعوه! ورأى أعجب من ذلك، ذلك أنه لما توضأ رسول الله ﷺ جعلوا يبتدرون وضوءه فقال : يا عباس مارأيت كالليلة ولاملك كسرى وقيصر!! وفى الصباح غدا به العباس إلى رسول الله فقال له « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك ان تعلم أن لا إله إلا الله ؟ فقال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد ، قال الرسول : ويحك ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ فقال : أما هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئا ، فقال له العباس: ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد شهادة الحق وأسلم ، فقال العباس : أن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا فرأى رسول الله بنور قلبه ، وواسع عقله أن يكون هذا الشيء مما يتعلق بحقن الدماء ، ونشر الأمان ، وأن لا يقتصر على أبى سفيان حتى يأمن أكثر عدد من الناس فقال : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن »

« حبس أبى سفيان بمضيق الوادى » ورأى الرسول الحكيم أن يوقف أبو سفيان حيث تمر عليه كتائب جيش المسلمين ليرى قوة المسلمين فيكون نذيراً لقريش بالتسليم والجنوح إلى السلام إبقاءا على أنفسها فقال : « ياعباس أحبسه بمضيق الوادى عند خطم[1] الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها »

---

(١) هو المكان الناتىء منه فى الطريق ليتمكن من رؤية الجيش كله

فخرج بأبي سفيان — وقيل كان معه حكيم وبديل — فحبسه حيث أمره رسول الله ، ومرت القبائل على راياتها ، فمرت قبيلة فقال يا عباس من هذه ؟ قال : غفار فيقول : مالي ولغفار ، وهكذا كلما مرت قبيلة قال مثل ذلك ، حتى اقبلت كتيبة لم ير مثلها فقال : ياعباس من هذه ؟ فقال هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية فقال سعد : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة ، فقال أبو سفيان : ياعباس حبذا يوم الذمار — أى يوم الحرمة ورعاية العهد —

« الكتيبة الخضراء » ثم مر رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء يحيط به المهاجرون لايرى منهم إلا الحدق من الحديد[1] يحمل الراية الزبير بن العوام فقال سبحان الله ياعباس من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين ، فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء من قبل ولاطاقة والله يا أباالفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما !! فقال العباس : يا أبا سفيان أنها النبوة !! قال : نعم إذا ، وبلغ أبو سفيان الرسول مقالة سعد بن عبادة فقال : « كذب — أى أخطأ — سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة[2] وأمر بالراية أن تؤخذ من سعد وتعطى لابنه قيس ؛ وقيل أعطاها لعلى بن أبى طالب ، وقيل للزبير والذى نرجحه الأول وهو ما يتفق وما عرف عن الرسول من حكمة وبعد نظر ، إذ لم يرد أن يغضب أبا سفيان وصحبه بابقاء الراية مع سعد ، وقد يطغى سيفه فيسرف فى القتل ، فأخذها من سعد تأديباً له وزجراً عما قال ، وفى الوقت نفسه لم يغضب سعداً لأنه أخذها منه ، وأعطاها لابنه وأى إنسان لايود لابنه من الفخار والمنزلة مايود لنفسه بل واكثر .

---

(١) عدة الحروب من ترس ؛ وغفر ، وسلاح ، والعرب تعبر عن الاسود اد بالاخضرار والعكس ومنه قوله تعالى « مدهامتان » أى خضراوان شديدتا الخطرة حتى كأنها سوداوان

(٢) هذا ماذكر فى صحيح البخارى وذكر ابن اسحاق أن ذلك عند الدخول والذى نرجحه ما فى الصحيح

( رجوع أبي سفيان إلى مكة ) ثم رجع أبوسفيان مسرعا حتى إذا وصلها نادى بأعلا صوته : يامعشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لاقبل لكم به . فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقالوا وما تغنى دارك فقال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد إلامن غلبت عليه الحمية ، وصمم على القتال .

« دخول مكة » وسار الجيش الإسلامى حتى وصل ( ذاطوى ) وفى هذا المكان رأى الرسول الحكيم ، والقائد المحنك أن يفرق الجيش فرقاو أوصاهم أن يكفوا أيديهم ، ولايقاتلوا إلا من قاتلهم ، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفلها من كدى ، وأمر الزبير بن العوام أن يدخل فى فرقته من شمالها، وقيس ابن سعد بن عباده بن الأنصارى من جانبها الغربى ، ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم من أعلاها من كداء بين يديه أبو عبيدة بن الجراح فى فرقة من الجيش ، دخلها وهو راكب ناقته ومطاطىء رأسه حتى أن شعر لحيته ليمس واسطة رحله تواضعا لله وشكرا ، ومعظما له ومكبرا ، حين رأى ماأكرمه الله من الفتح ، وقد اردف وراءه أسامة بن زيد فلما بلغ الحجون[1] أمران تركز رايته هناك ، وأن تضرب له قبة فضربت فاستراح بها هو وزوجتاه ميمونة وأم سلمة ، فقال له أسامة بن زيد أين تنزل غدا يارسول الله ؟ فقال : وهل ترك لنا عقيل من رباع أودور ؟ وفى رواية أخرى : ( منزلنا غدا إن شاء الله بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر )[2] رواها البخارى .

ودخلت الجيوش مكة ولم يلق منها مقاومة تذكر إلا جيش خالد بن الوليد

---

(١) مكان بأعلى مكة بالقرب من مقبرتها و ( كداء ) بفتح الكاف كسحاب جبل باعلى مكة ، و( كدى ) بالضم والقصر جبل باسفل مكة

(٢) يعنى لما تحالفت قريش أن لايبايعوا بنى هاشم ولاينا كحوهم ولايؤوهم وحصروهم فى الشعب وقد اختار النبى ذلك المكان ليتذكروا ماأصابهم من بلاء ، فيشكروا الله على ماأنعم عليهم من الفتح العظيم ومبالغة فى الصفح عن الذين أساءوا ، ومقابلتهم بالعفو والإحساس ، وقد كان الخفيف وجاه الشعب

فقد كان يقيم فى أسفل مكة أشد قريش عدواة للرسول ، ومن اشتركوا مع بنى بكر فى نقض عهد الحديبية ، هؤلاء لم يرضهم أن يستسلموا من غير إراقة دماء ولم يعتدوا بما منحوا من أمان فأعدوا عدتهم للقتال ، ومن هؤلاء صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، وحماس بن قيس ، فلما دخل جيش خالد أمطروه بنبالهم ولكن خالداً لم يلبث أن فرقهم ، ولم يقتل من رجاله إلا اثنان ضلا طريقهما ، أما قريش ففقدت ثلاثة عشر رجلا فى رواية ، وأربعة وعشرين فى رواية أخرى ، ولم يلبث صفوان وعكرمة وسهيل أن ولوا الأدباء منهزمين .

وكان حماس بن قيس يعد سلاحا قبل مقدم جيش المسلمين فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى ؟ فقال : لمحمد وأصحابه ، فقالت : والله ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شىء فقال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم ، فلما شهد الموقعة مع صحبه وهزموا جاء حماس لاهثا وهو يقول : أغلقى على بابى ، فقالت : فأين ما كنت تقول ؟! فقال لها :

إنك لو شهدت يوم الخندقة ... إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمه ... ضربا فلا يسمع إلا غمغمة
لهم نهيت خلفنا وهمهمه ... لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمة(١)

ولما قيل لرسول الله : هذا خالد بن الوليد يقتل ، فقال قم يا فلان فأت خالدا فقل له يرفع يديه من القتل وكان هذا الفتح المبين فى صبيحة العشرين

---

(١) الخندقة المكان الذى كانت به الموقعة ، أبو يزيد : سهيل بن عمرو : المؤتمة : الاسطوانة أو المرأة مات عنها زوجها الغمغمة : أصوات غير مفهومة ، نهيت : صوت الصدر ، همهمة : كلام خفى أو صوت يتردد فى الصدر عند الحرب والطعن .

من رمضان سنة ثمان فلا عجب أن كان المسلمون يحتفلون فى هذا اليوم بالذكرى الخالدة : ذكرى الفتح المبين .

## «اجارة أم هانىء رجلين»

وكانت السيدة أم هانىء بنت أبى طالب زوج هبيرة بن أبى وهب المخزومى فر إليها يوم الفتح رجلان من أحمائها[1] ، وهما الحارث بن هشام ، وزهير بن أبى أمية المخزوميان فدخل عليها أخوها على بن أبى طالب يريد قتلهما فمنعته أم هانىء ، ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ وهو فى أعلى مكة ، فلما رآها قال: « مرحبا بك وأهلا يا أم هانىء ما جاء بك » ؟ فقالت يا نبى الله كنت أمنت رجلين من أحمائى فأراد على قتلهما ، فقال رسول الله ﷺ : « قد اجرنا من أجرت يا أم هانىء »[2] وقد أسلم الحارث وزهير ، وأما هبيرة زوجها فلم يسلم وأقام بمكة حتى مات كافراً .

إلى الكعبة ، ثم قصد رسول الله الكعبة فطاف بها سبعاً ، يستلم الركن بمحجن فى يده ، وكان على الكعبة ثلثمائه وستون صنما مشدودة إليها برصاص ، فصار يطعنها بعوده فى يده وهو يقول « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » ( جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ) فجعلت الأصنام تتهاوى وتسقط إلى غير رجعة ، ورجعت الكعبة كما كانت على عهد الخليل إبراهيم رمز التوحيد ، وعبادة الله وحده .

( فى جوف الكعبة ) ثم دعا النبى عثمان بن طلحة بن أبى طلحة بن عبدالدار حاجب الكعبة فأخذ منه المفتاح ففتحت له الكعبة ، فدخلها وكبر فى جوانبها وصلى فيها ركعتين ، ورأى على جدرانها صور الملائكة وغيرهم ، وصورة ابراهيم واسماعيل بيدها الأزلام يستقسمان بها فقال : قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط ، وأمر بالصور فأزيلت ، وبالأصنام فاخرجت .

---

(١) جمع حم أقارب زوج المرأة كالأب والأخ والعم .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(آذان بلال على الكعبة) وبعد أن طهرت الكعبة من الأصنام أمر النبى عليه الصلاة والسلام بلالا ، فأذن فوقها مما اهاج غيظ الذين لم يكونوا قد تخلصوا من عنجهية الجاهلية حتى لقد قال بعضهم : الحمد لله الذى توفى فلاناً قبل أن يرى هذا العبد الأسود على ظهر الكعبة ! ! ومن يومها ومن منذ أربعة عشر قرناً إلى يومنا وإلى ما شاء الله وبلال وخلفاؤه ينادون إلى الله كل يوم خمس مرات « إن لا إله إلا الله وإن محمدا رسول الله ، وإن الله أكبر من كل كبير ، وداعين الناس إلى الفلاح ، وإلى خير العمل وهى الصلاة .

(اليوم يوم بر ووفاء) ولما خرج رسول الله ﷺ قام إليه على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ومفتاح الكعبة بيده فقال : يا رسول الله أجمع لنا الحجابة مع السقاية فقال النبى ﷺ (أين عثمان بن طلحة) ؟ فدعى له فقال : (هذا مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء) وقال : (خذوها يا بنى شيبة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم[1] ولا يزال مفتاح الكعبة فيهم إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله ويقال للحجبة : الشيبيون نسبة إلى شيبة بن عثمان بن أبى طلحة وهو ابن عم عثمان هذا لا ولده ، وله أيضاً صحبة للنبى ورواية ، فقد انتقلت من عثمان بن طلحة إلى ابن عمه شيبة وما زالت فى نسله إلى اليوم وفى هذه الحادثة نزل قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » الآية[2] .

« خطبة يوم الفتح » ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب الكعبة ، وقد تكاثر الناس فى المسجد ، وأوجس المشركون خيفة ، وكادت تغص حلوقهم بقلوبهم من شدة الخوف ، وصارت أبصارهم مشدودة إلى الرسول ، ولكن المظلوم المنتصر أبى إلا أن يضرب مثلا نادراً فى العفو ، فقام خطيباً وكان مما قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ألا إن كل مأثرة كانت فى الجاهلية ، أو دم ، أو مال يدعى

---

(١) فتح البارى ج ٨ ص ١٥ .
(٢) النساء ٥٨ .

فهو موضوع تحت قدمى هاتين إلا ما كان من سدانة البيت وسقاية الحاج فانهما أمضيتهما لأهلها على ما كانت ، ألا وإن قتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الابل : أربعون منها فى بطونها أولادها ، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب» ثم تلا هذه الآية «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ثم قال يا معشر قريش ما ترون إنى فاعل بكم » ؟ قالوا خيرا أخ كريم ، وابن أخ كريم قال : إذهبوا فانتم الطلقاء » !!

« العفو عند المقدرة » ألا ما أجمل العفو عند المقدرة ، وما أعظم النفوس التى تسمو على الأحقاد وعلى الانتقام، بل تسمو على أن تقابل السيئة بالسيئة، ولكن تعفو وتصفح ، والعفو عن من ؟ عن قوم طالما عذبوه وأصحابه وهموا بقتله مراراً، وأخرجوه وأتباعه من ديارهم وأهليهم وأموالهم ولم ينفكوا عن محاربته والكيد له بعد الهجرة !!

إن غاية ما يرجى من نفس بشرية كانت مظلومة فانتصرت أن تقتص من غير إسراف فى إراقة الدماء ، ولكنه النبى ! والنبوة من خصائصها كبح النفس ومغالبة الهوى ، والعفو والتسامح ، أليس من صفاته التى بشرت بها التوراة أنه ليس بفظ ولا غليظ ، ، ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يقابل السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ؟ لقد ضرب النبى صلوات الله وسلامه عليه بعفوه عن أهل مكة للدنيا كلها ، وللاجيال المتعاقبة مثلا فى البر والرحمة والعدل والوفاء وسمو النفس لم تعرفه الدنيا ، ولن تعرفه فى تاريخها الطويل .

ارجع ببصرك قليلا إلى ما فعله الغالبون بالمغلوبين فى الحربين العالميتين فى قرننا هذا : قرن الحضارة كما يقولون ، لتعلم علم اليقين فرق ما بين النبوة وغير النبوة ، والإسلام ، وغير الاسلام .

« اسلام ابى قحافة » وبعد الفتح جاء أبو بكر الصديق بأبيه أبى قحافة

يقوده وقد كف بصره ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه » ؟ فقال أبو بكر : هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه ! فأجلسه رسول الله بين يديه ثم مسح صدره وقال : « أسلم » فاسلم ، وهنأ رسول الله أبا بكر بإسلام أبيه ، وكان رأس أبى قحافة قد اشتعل شيبا ، فقال الرسول : « غيروا من شعره ، ولا تقربوه سوادا » .

( إسلام الحارث وعتاب ) وكان الحارث بن هشام ، وعتاب بن أسيد وأبوسفيان بن حرب جلوسا بفناء الكعبة ، وبلال يؤذن فوق ظهر الكعبة فقال فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا ، فسمع منه ما يغيظه فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لأتبعته ، فقال أبوسفيان : لاأقول شيئا لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصا ، فطلع عليهم رسول الله فقال : ( قدم علمتم الذى قلتم ) ثم ذكره لهم ! فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ما أطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك !

( إسلام فضالة بن عمير ) وكانت نفسه قد حدثته أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال له الرسول : ( أفضالة ) ؟ قال نعم فضالة يارسول الله ، قال : ( ماذا كنت تحدث به نفسك ) ؟ قال لاشىء كنت أذكر الله فضحك النبى ثم قال : ( استغفر الله ) ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله مارفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب لى منه قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث تعنى حديث الهوى والغرام . فقال : لا وأنبعث يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت : لا ... يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمدا وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بينا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

نعم إن الإسلام يغير من سلوك من يعتنقه ، ويرشده إلى القيم الخلقية الكريمة ، ويغير من نظراته إلى الحياة حتى يصير منه إنسانا آخر فى عقيـــدته ، وسلوكه ، وأخـلاقه !!

## « هدار النبي بعض الدماء »

لقد كان النبي صلوات الله وسلامه عليه حريصا غاية الحرص على أن تبقى لمكة حرمتها ، وأن يتم الفتـــح من غير إراقة دماء ، وقد أوصى أمراء الجيوش أن لايقاتلوا إلامكرهين ، وتوج هذا بالعفو عن أهل مكة عفوا شـاملا بيد أنه استثنى بضعة عشر رجلا أمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين باستار الكعبة ، لأنهم عظمت جرائمهم فى حق الله وسوله ، وحق الاسلام ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح . قال الحافظ ابن حجر فى الفتح . وقد جمعت أسماءهم من متفرقات الأخبـار وهم : عبد العزى بن خطل ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وعكرمة بن أبى جهل ، والحويرث بن نقيد ـ مصغرا ـ ومقيس بن صبابه ، وهبار بن الأسود ، وقينتان كانتا لابن خطل : فرتنى ، وقريبة ، وسارة مولاة بنى عبد المطلب ، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلاطل الخزاعى ، وذكر الحـاكم أن فيمن اهدر دمه كعب بن زهير ، ووحشى بن حرب وهند بنت عتبة[1]

ومن هؤلاء من قتل ، ومنهم من جاء مسلما تائبا فعفا عنه الرسول ، وحسن إسلامه ، إليك بعضا منهم.

( عبد الله بن خطل وقينتاه ) كان اسمه عبد العزى فلما أسلم سمى : عبد الله وقد بعثه رسول الله مصدقا ،[2] وبعث معه رجلا من الأنصار ، وكان معه مولى

---

(١) فتح البارى ج ٧ ص ٩ (٢) المصدق بتخفيف الصاد وتشديد الدال ـ هو الذى يأخذ صدقات النعم ، وأما المصـــدق ـ بتشديد الصاد ـ فهو الذى يعطى الناس ، ويتصدق عليهم

له فغضب عليه فقتله ، ثم ارتد مشركا ، وكانت قينتاه تغنيان بهجاء رسول الله والمسلمين فلهذا أهدر النبي دمه ودم قينتيه ، وقد اشترك في قتله أبو برزة الأسلمي ، وسعيد بن حريث المخزومي ، وقتلت احدى قينتيه ، واستؤمن للأخرى .

( عبد الله بن أبي سرح ) كان ممن يكتب الوحي لرسول الله ، ثم ارتد وزعم أنه كان يزيف الوحي على الرسول ، ولما أهدر الرسول دمه ذهب مع أخيه من الرضاع عثمان بن عفان كي يطلب له الأمان فاعرض عنه الرسول طويلا ثم قال : نعم فلما انصرف مع عثمان قال الرسول : ( أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد صمت فيقتله ) ؟ فقالوا : يارسول الله هلا أومأت إلينا ، فقال : « أنه لاينبغي لنبي ان تكون له خائنة الأعين » وقد حسن إسلامه فيما بعد ، وولاه الفاروق عمر بعض أعماله ، وكذلك فعل عثمان .

( الحويرث بن نقيد ) ولما تحمل العباس بن عبد المطلب بفاطمة وأم كلثوم ليذهب بهما إلى المدينة يلحقهما برسول الله نخس بهما الحويرث الجمل الذي هما عليه فسقطتا على الأرض ، وهي نذالة وعمل عار عن المروءة وقد قتله سيدنا علي بن أبي طالب .

( مقيس بن صبابة ) كان قتل أخ له مسلم خطأ ، فأخذ ديته ورضي ثم التمس من القاتل غرة فقتله وارتد مشركا فقتله رجل من قومه نميلة بن عبدالله .

(هبار بن الأسود) كان أبو العاص بن الربيع زوج السيدة زينب بنت الرسول أسر في بدر فأطلقه المسلمون ، فأخذ عليه رسول الله أن يرسل إليه ابنته ، ففي بما وعد ، وأرسل بصحبتها أخاه كنانة بن الربيع[1] فلما علمت قريش بخروجها

---

(١) هذا ماذكره ابن اسحاق وذكر الحافظ في الاصابة أنه كنانة بن عدي بن ربيعة بن عبد العزى فهو ابن عم أبي العاص لا أخوه . وقال ابن عبد البر أنه ابن أخيه ( الاصابة ج ٣ ص ٣٠٧ ) ولعل للاختلاف في نسبة أهو أبو العاص بن الربيع بن ربيعة بن عبد العزى أم أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى كما ذكر الحافظ في الفتح

علانية سعوا إليها كى يردوها فكان أول من أدركها هبار بن الأسود فروعها بالسيف وهى فى هودجها فسقطت وكانت حاملا فأجهضت، ولم يزل يعاودها المرض بسبب هذا حتى توفاها الله ، فلما أهدر النبى دمه هرب حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالجعرانة بعد الفتح لقيه فأسلم وقال : يارسول الله هربت منك وأردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك، وكنا يارسول الله أهل شرك فهدانا الله بك، وانقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل فقال العفو الكريم : ( قد عفوت عنك ، وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الإسلام ، والإسلام يجب ما قبله )

(عكرمة بن أبى جهل) لما أهدر النبى دمه هرب قاصداً اليمن ، وكانت امرأته أم حكيم بنت الحارث قد اسلمت قبل الفتح فأخذت له أمانا من رسول الله ﷺ فلحقته وقد هم بركوب البحر فقالت : جئتك من عند أبر الناس، وخيرهم ، لاتهلك نفسك ، وأنى قد استأمنته لك ، فرجع معها، فلما رآه رسول الله وثب قائما فرحا به، وقال مرحبا بمن جاءنا مسلما مهاجرا، ثم التمس من النبى أن يستغفر له كل عداوة عاداه اياها فاستغفر له ، وكان ـ رضى الله عنه ـ بعد ذلك من خيرة المسلمين ، وأغيرهم على الإسلام ومن أبطال الفتوحات الإسلامية .

(هند بنت عتبة بن ربيعة) زوج أبى سفيان وهى التى أغرت وحشياً بقتل حمزة، والتى مثلت بقتلى المسلمين فى أحد ، وكانت أختفت ثم جاءت إلى النبى مسلمة فعفا عنها فقالت : والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء ، أحب إلى أن يعزوا من أهل خبائك !!

وأما وحشى بن حرب قاتل سيد الشهداء حمزة فقد مضت قصة اسلامه فى غزوة أحد ، وأما كعب بن زهير فستأتى قصته بعد .

## « خطبة النبي غداة الفتح مؤكدا حرمة مكة »

وفى غداة الفتح بلغ النبى ﷺ أن خزاعة حلفاءه عدت على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك برجل قتل فى الجاهلية فغضب وقام بين الناس خطيباً فقال : ( يا أيها الناس أن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، ولا يعضد - يقطع - فيها شجرا ، لم تحل لأحد كان قبلى ، ولا تحل لأحد يكون بعدى ، ولم تحل لى إلا هـذه الساعة غضباً على أهلها ، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم أن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها فقولوا : أن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم ، يا معشر خزاعة : ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع ، لقد قتلتم قتيلا لأدينه فمن قتل بعد مقامى هذا ، فأهله بخير النظرين : إن شاءوا قدم قاتله ، وإن شاءوا فعقله )(١) ثم ودى رسول الله الرجل الذى قتلته خزاعة فأى احترام لحرمة الدماء حتى ولو كانت غير مسلمة فوق هذا ؟ وهل يشك أحد فى حرمة البلد الأمين بعد هذه الخطبة البليغة المؤثرة ، واستمرارها إلى يوم القيامة ؟

« إسلام قريش رجالا ونساء » لقد كان من أثر عفو النبى الشامل عن أهل مكة ، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهل مكة رجالا ونساء وأحراراً وموالى فى دين الله طواعية واختياراً وبانطواء مكة تحت راية الإسلام دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وتمت النعمة ، ووجب الشكر ، وصدق الله حيث يقول ، « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره أنه كان توابا » فالمراد بالفتح فى هـذه السورة فتح مكة ولما نزلت قال النبى : « نعيت إلى نفسى » فقد فهم منها قرب انتهاء أجله(٢) .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده من طريق ابن اسحاق صاحب . السيرة . ورواه أيضا من غير طريقه ، وأصل الحديث فى الصحيحين والعقل : الدية

(٢) كان نزولها فى أوسط أيام التشريق فى حجة الوداع كما سيأتى ، وإنما ذكرتها هنا =

« بيعة الرجال » وبايع رسول الله ﷺ الناس جميعا الرجال والنساء ، والكبار والصغار ، وبدأ ببيعة الرجال فقد جلس لهم على الصفا ، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وجاء مجاشع بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح فقال يارسول الله جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة فقال عليه الصلاة والسلام . ذهب أهل الهجرة بما فيها . فقال : على أى شيء تبايعه ؟ قال : « أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد » رواه البخارى ، وقد روى فى الصحيحين وغيرهما أن رسول الله قال يوم الفتح : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية . وإذا استنفرتم فانفروا » ، والمراد أن الهجرة التى كانت واجبة من مكة قد انتهت بفتح مكة فقد عز الإسلام ، وثبتت أركانه ودعائمه ، ودخل الناس فيه أفواجا ، أما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، أو من بلد لايقدر أن يقيم فيه دينه ويظهر شعائره إلى بلد يتمكن فيه من ذلك فهى باقية إلى يوم القيامة ، ولكن هذه دون تلك ، فقد تكون واجبة ، وقد تكون غير واجبة ، كما أن الجهاد والإنفاق فى سبيل الله مشروع وباق إلى يوم القيامة ولكنه ليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل فتح مكة قال عز شأنه : ( لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير )[1]

« بيعة النساء » ولما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء ، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة على أن لايشركن بالله شيئاً ، ولايسرقن ، ولايزنين ، ولايقتلن أولادهن ، ولايأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولايعصين فى معروف ، ولما قال النبى : ولايسرقن قالت هند : يارسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لايعطينى ما يكفينى ويكفى بنى فهل على من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال لها : « خذى من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف » ، ولما قال : ولايزنين قالت هند : وهل تزنى الحرة ؟ ولما عرفها رسول الله قال لها : ( وإنك لهند بنت عتبة ؟ ) قالت : نعم ، فاعف عما سلف عفا الله عنك

---

= إستشهاداً على إنتشار الاسلام بعد الفتح حتى عم الجزيرة ، ولبيان أن المراد بالفتح فى الآية فتح مكة .

(١) الحديد ١٠

وقد بايعن رسول الله من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: (لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط) وفى رواية: ما كان يبايعهن إلا كلاماً ويقول: (إنما قولى لامرأة واحدة كقولى لمائة امرأة)[١]

## « أكان فتح مكة عنوة[٢] أم صلحاً »؟

وقد اختلف العلماء فى ذلك، فقال مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وجماهير العلماء، وأهل السير: إن مكة فتحت عنوة

وقال الشافعى — ورواية عن أحمد — إنها فتحت صلحاً.

وقد احتج الجمهور بأدلة منها:—

(١) حديث أبى هريرة الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه وفيه: أن رسول الله ﷺ ناداه، فقال أبو هريرة: لبيك يارسول الله، قال: «اهتف لى بالأنصار» فلبوا سراعاً، قال: فأطافوا به، ووبشت قريش أو باشاً لها[٣] وأتباعاً، فقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لهم شىء — يعنى من النصر — كنا معهم وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا، فقال رسول الله ﷺ: « ترون إلى أوباش قريش، وأتباعهم » ثم قال[٤] بيديه أحداهما على الأخرى[٥] ثم قال: « حتى توافونى بالصفا » قال: فانطلقنا فما شاء أحد منا أن يقتل أحدا إلا قتله، وما أحد منهم يوجه إلينا شيئاً، فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش[٦] لا قريش بعد اليوم!! ثم قال: « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ..[٧] ».

---

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٣١٩

(٢) قال فى المصباح المنير: « دعنا يعنو عنوة إذا أخذ الشىء قهراً ... وفتحت مكة عنوة أى قهراً »

(٣) جمعت جموعا من قبائل شتى لمحاربة جيش المسلمين (٤) أشار

(٥) يريد الاشارة إلى القتل

(٦) يعنى جماعاتهم، ويعبر عن الجماعة المجتمعة بالسواد، والخضرة ومنه السواد الأعظم

(٧) صحيح مسلم — كتاب الجهاد والسير — باب غزوة الفتح

(٢) وقوع القتال من خالد بن الوليد وجيشه ، وهذا أمر ثابت فى الصحاح وكتب السير .

(٣) قوله ﷺ - كما فى الصحيحين - : ( أحلت لى ساعة من نهار ) ونهيه عن التأسى به فى ذلك .

(٤) أذنه ﷺ أن ينادى فى الناس بقوله : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن .. » ، فلو كان دخولهم مكة صلحاً لم يحتج إلى هذا

(٥) حديث أم هانىء - وهو فى الصحيحين - حين أجارت رجلين من أحمائها أراد على أخوها قتلهما ، فأخبرت النبى بذلك ، فقال : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء » ، فكيف يكون دخولها صلحاً ويخفى على مثل علىٍّ ؟!

واحتج الإمام الشافعى بأمور منها:

(١) ما قاله الإمام النووى من أنه احتج بالأحاديث المشهورة من أن النبى ﷺ صالحهم بمر الظهران قبل دخول مكة .

(٢) لأنها لم تقسم بين الغانمين ، ولم يملكوا دورها ، بل بقيت على ملك أهلها وقد رد الجمهور بما يأتى : —

(١) أى أحاديث مشهورة رويت فى هذا ؟! وما ذكره الإمام النووى - رحمه الله تعالى - إن أراد به ما وقع من قوله ﷺ : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .. » فإن ذلك لا يسمى صلحاً إلا إذا التزم من أشير إليه بذلك الكف عن القتال والذى ورد فى الاحاديث الصحيحة والسير ، أن قريشاً لم يلتزموا ذلك ، بل استعدوا للقتال ، وجمعوا أوشاب القبائل كما فى حديث مسلم ، وإن كان المراد بالصلح وقوع عقد بين النبى وبينهم فهذا لم ينقل قط .

(٢) وأما عدم القسمة بين الغانمين .. فإنها لا تستلزم عدم العنوة ، فقد تفتح البلد عنوة ، ويمن الإمام على أهلها ، ويترك لهم دورهم ، لأن قسمة الأرض المغنومة بين الغانمين ليس متفقاً عليها بل الخلاف ثابت بين الصحابة فمن بعدهم ،

وقد فتحت أكثر البلاد عنوة ، فلم تقسم ، وذلك فى زمن عمر وعثمان ، مع وجود أكثر الصحابة ، وقد زادت مكة على ذلك بأمر يمكن أن تكون مختصة به دون بقية البلاد ، وهى أنها دار النسكين — الحج والعمرة — ومتعبد الخلق وقد جعلها الله تعالى حرماً آمناً سواء العاكف فيه ، والباد

وجنحت طائفة منهم الإمام الماوردى إلى أن بعضها فتح عنوة ، والواقع بينهم وبين خالد وجيشه من قتال وإن كانت دارت عليهم الدائرة وبعضها وقع صلحا . وقد قرر ذلك الإمام الحاكم فى الإكليل ،

والحق أن الراجح والصحيح أن فتحها كان عنوة ، وبقوة السلاح ، ولو أمكنهم أن يقاتلوا أيضا الجيش الذى كان فيه النبى صلى الله عليه وسلم لفعلوا ، وقد ناوشوا جيش خالد ، ولكنهم لم يلبثوا أن هزموا ، واستلموا ولكن النبى صلى الله عليه وسلم للاعتبارات التى ذكرناها ، وتأليفا لقلوب من لم يدخل منهم فى الاسلام يوم الفتح عاملهم معاملة من فتحت بلدهم بأمان وصلح[1] ونحسبنا هذا القدر فى هذا المقام

( مخاوف الأنصار وتبديدها ) لما رأى الأنصار سرور رسول الله بالفتح ، وحفاوته بالكعبة والمسجد الحرام ، وذهابه إلى الصفا داعيا وشاكراً لله على عظيم نعمائه — تخوفوا أن يقيم رسول الله فى بلده ، ولا يرجع إليهم فيحرموا منه ، فقال بعضهم لبعض فيما بينهم : أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ، ورأفة بعشيرته ، أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ فأوحى الله إليه بما جرى ، فذهب إليهم فأخبرهم بما قالوا فأقروا فطفقوا أنهم قائلا : « كلا إنى عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم ، والممات مماتكم ) فأقبلوا إليه يبكون ويقولون : والله ماقلنا الذى قلنا إلا الضن بالله ورسوله ، فقال رسول الله : ( إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم )

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم جـ ١٢ ص ١٣٠ ، ١٣١ ، فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ ٨ ص ٩ ، ١٠

( مدة إقامة النبى بمكة ) وأقام رسول الله ﷺ بمكة بضعة عشر يوماقيل: خمسة عشر يوماً، وقيل سبعة عشر يوماً وقيل تسعة عشر وهى أرجح الروايات، لأن أكثر الروايات الصحيحة على هذا،[1] وكان النبى يقصر الصلاة فى هذه المدة ويفطر، لأنه كان على سفر ولم يرد الإقامة، وكان إذا صلى قال: (يا أهل البلدصلوا أربعافإنا سفر) رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن.

وفى هذه المدة أرسل النبى بعد الصحابة للدعوة إلى الإسلام، وهدم الأصنام والأوثان، والأنصاب.

## ( بعث خالد بن الوليد الى بنى جذيمة )

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة داعيا إلى الإسلام، ولم يبعثه مقاتلا فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فقام رجل منهم يسمى: جحدرا فقال: ويلكم يابنى جذيمة إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحى أبداً فلم يزالوا به حتى وضع سلاحه، فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد فكتفوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا، أسلمنا فجعلوا يقولون: صبانا صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسراً وقتلا فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يوما أمر خالد أن يقتل كل واحد أسيره فامتثل البعض، وأمتنع عبدالله بن عمر وأمتنع معه آخرون من قتل أسراهم، فلما قدموا على رسول الله أخبروه فغضب ورفع يديه إلى السماء قائلا: « اللهم إن أبرأ إليك مما صنع خالد » مرتين.

---

(١) فتح البارى جـ ٢ ص ٤٤٩

وقد أنكر على خالد الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف وقال له : عملت بأمر الجاهلية فى الاسلام ، وكانت بينهما ملاحاة قال له فيها عبد الرحمن : إنك ثارت لعمك الفاكه بن المغيرة ، وكان بعض بنى جذيمة قتلوه فى الجاهلية[١] وكذلك أنكر على خالد بعض كتاب السير والتاريخ ، ورموه بما رماه به إبن عوف .

والظن بمثل خالد أنه إنما أراد نصرة الاسلام وأنه اجتهد فى أمر وتاول فأخطأ ، ففهم من كلامهم صبأنا أنهم يتبرأون من الاسلام ، لأنهم يريدون الاسلام ، ولعل هذا هو السبب فى أن النبى صلى الله عليه وسلم عذره ، ولم يعزله وإن كان تبرأ من فعله إلى الله ، وما كان رسول الله يداهن ، أو يخاف فى الحق لومة لائم .

وبعض من يعذر خالداً ، وينتصر له يزعم إن خالداً قال : ما قاتلت حتى أمرنى بذلك عبد الله بن حذافة السهمى ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الاسلام وليس من شك فى إن لخالد من المواقف المشهودة ، والتضحية بالنفس ، ما يغفر له مثل هذه الهنات ، والله يغفر لهم جميعا .

( تعويض النبى بنى جذيمة عن الدماء والأموال ) ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وقال له : « يا على أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، وإجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » فخرج حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله معه ، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من مال حتى ميلغة الكلب[٢] ، وبقيت معه بقية من المال ، فقال لهم : هل بقى لكم دم أو مال لم يؤد لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإنى أعطيتكم هذه البقية احتياطاً لرسول الله مما لا يعلم ولا تعلمون ثم رجع إلى رسول الله فاخبره بما صنع فقال له : ( أصبت وأحسنت ) .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٣٣١ .

(٢) إناء من خشب كان يعد لشرب الكلب

وبهذا التصرف النبوى الحكيم واسى النبى بنى جذيمة ، وأزال ما فى نفوسهم من أسى وحزن .

## ( هدم العزى )

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى ثلاثين فارساً لهدم العزى ، وهى هيكل بنخلة تعظمه قريش ، وكنانة ومضر ؛ وكان ذلك لخمس بقين من رمضان ، فذهب إليها وهدمها .

وهو يقول :

يا عُزّ كفرانك لا سبحانك  إنى رأيت الله قد أهانك

## (هدم سواع)

وأرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص لهدم سواع وهو أعظم صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة ؛ فذهب إليه وهدمه .

## ( هدم مناة )

وبعث سعد بن زيد الاشهلى فى عشرين فارساً لهدم مناة وهى صنم لكلب وخذاعة ، وهيكلها بالمشلل ، وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد فتوجهوا إليها وهدموها ، وبهذا الفتح المبين وسقوط دولة الأصنام والهيا كل أصبح توحيد الله على كل لسان ، وأضحت الكعبة منارة التوحيد فى الأرض وعادت كما كانت على عهد الخليل ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

## « غزوة حنين »[1]

لما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين ، ودانت له قريش فزعت هوزان وثقيف وقالوا : قد فرغ محمد لقتالنا ، فلنغزه قبل أن يغزونا ، وأجمعوا أمرهم

---

(١) حنين مصغراً واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا من جهة عرفات

على هذا ، وولوا عليهم مالك بن عوف النصرى ، فاجتمع إليه هوازن ، وثقيف ، ونصر ، وجشم ، وسعد بن بكر قوم السيدة حليمة السعدية ، وناس من بنى هلال ، ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب ، وكان معهم دريد بن الصمة ، وكان معروفاً بشدة البأس فى الحرب وأصالة الرأى ، إلا أنه كان كبيراً فلم يكن له إلا الرأى والمشورة ، وكان رأى مالك بن عوف أن يخرجوا ووراءهم النساء والذرارى والأموال حتى لا يفروا ، فلما علم بذلك دريد سأله : لم ذلك ؟ فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فقال دريد : راعى ضأن والله وهل يرد المنهزم شىء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ! وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ! ولكنه لم يستمع لمشورته

( خروج رسول الله ) فلما علم رسول الله ﷺ بما أجمعوا عليه خرج إليهم لخمس خلون من شوال من هذا العام وقيل لست ، ليغزوهم قبل أن يغزوه فى اثنى ألفاً منهم العشرة الآلاف الذين كانوا فى فتح مكة ، وألفان من الأعراب والطلقاء ، والمؤلفة قلوبهم والنساء ، يرجون الغنائم وخرج فى الجيش ثمانون من المشركين منهم صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، واستخلف النبى على مكة عتاب بن أسيد (١) الأموى العبشمى ، وكان عمره عشرين عاماً

( استعارة دروع صفوان ) وكان ذكر لرسول الله أن عند صفوان بن أمية دروعا وسلاحا فلما عزم الأمر أرسل إليه وهو يومئذ مشرك ، فقال : يا أبا أمية اعرنا سلاحك نلق به عدونا غدا » فقال : أغصبا يا محمد ؟ فقال : « بل عارية مضمونه » فاعاره مائة درع بما يكفيها من السلاح ، وسأله رسول الله أن يكفيهم حملها ففعل ، فلما تمت الموقعة جمعت دروع صفوان فوجدوا أن بعضها فقد ، فعرض عليه رسول الله أن يضمنها له ، فأبى وقال أنا اليوم فى الإسلام أرغب .

---

(١) قال فى المصباح المنير وأسد أسيد مثل كريم أى متأسد جرىء . وبه سمى ، ومنه « عتاب بن أسيد » وعتاب بتشديد التاء صيغة مبالغة ثم سمى به ، وعبشمى : نسبة إلى عبد شمس

( مسيرة الجيش ) وسار رسول الله حتى كان قريبا من معسكر العدو صف الفزاة، وعقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لعلى بن أبى طالب، ولواء الخزرج الحباب بن المنذر ، ولواء الأوس لأسيد بن حضير ، وكذلك فعل مع القبائل الأخرى وركب النبى بغلته ولبس درعين والبيضة والمغفر، واغتر بعض المسلمين بهذه الكثرة حتى قال : لن نهزم اليوم من قلة ، وفى الطريق إلى حنين مروا بذات أنواط[1] فقال بعض حديثى العهد بالإيمان: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط !! قال رسول الله ﷺ : ( الله أكبر !! قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة قال: إنكم قوم تجهلون إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم ) .

( التقاء الجيشين ) وكان مالك بن عوف قد سبق رسول الله ﷺ إلى حنين، فأعدوا أنفسهم ، وكمنوا فى مضايق الوادى وأحنائه ، وأقبل رسول الله ﷺ فى أصحابه حتى نزلوا بالوادى فى عماية الصبح ، وإنهم لكذلك إذ شدت عليهم قبائل هوازن وثقيف شدة رجل واحد، وخرج من كان مستترا فى شعاب الوادى ومضايقه ، وأمطروهم بالسهام ، فاختلط أمر المسلمين وأذهلتهم المفاجأة ، فلووا أعنة خيلهم ، وأزمة إبلهم متقهقرين لا يلوون على أحد حتى وصلت فلول المنهزمين إلى مكة .

( ثبات الرسول ) ورأى رسول الله الجيش على كثرته قد اختل نظامه واضطرب أمره ، وولى الكثيرون الأدبار فماذا يصنع ؟ إنه ليعلم أنه رسول الله وأنه ناصره ، وإنه للبطل الذى لم يعرف عنه الفرار قط ، فعزم على الثبات ولو أن يكون وحده ، وثبت رسول الله ، وصار يركض بغلته البيضاء ركضا فى نحر العدو[2] ، والعباس عم الرسول آخذ بلجامها يكفها به إرادة أن لا تسرع

---

(١) شجرة عظيمة كانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب ، يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم . ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما .

(٢) قال الحافظ فى الفتح : ومما ينبه عليه هنا أن البغلة البيضاء التى كان عليها فى حنين غير البغلة البيضاء التى أهداها له ملك « أيلة » لأن ذلك كان فى تبوك ، وغزوه حنين كانت

وأبو سفيان بن الحارث بن عم الرسول آخذ بركابه ينافح عنه ، ورسول الله ينادى : أنا النبى لا كذب . أنا ابن عم المطلب[1] وكان من دعائه فى هذا اليوم: ( اللهم أنزل نصرك ، اللهم إنك أن تشأ لا تعبد فى الأرض بعد اليوم )

( من ثبت مع الرسول ) وثبت مع رسول الله عدا هذين رهط من المهاجرين، وآل البيت ، منهم : أبو بكر ، وعمر ، وعلى بن أبى طالب، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، والفضل ، وقثم ولدا العباس ، وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن ، ولكن ماذا تفعل هذه الثلة فى هذا البحر اللجى من جيش الأعداء ؟ فتفتق عقل النبى عن هذا الأمر الحكيم ، فقد أمر عمه العباس — وكان رجلا جسيما صيتا — أن ينادى :: يا معشر الأنصار ، يا أصحاب الشجرة يا اصحاب سورة البقرة ، فنادى بها.

(استجابة المسلمين) وحركت هذه الكلمات ذات الذكريات، مكامن الايمان والشجاعة فى النفوس، وأزالت ما غشى النفوس من هلع وفزع ، فثاب الفارون إلى رشدهم ، وأجابوه : لبيك . لبيك ، وجعل الرجل منهم إذا لم يستطع أن يلوى عنق بعيره ينزل عنه ، ويأخذ سيفه ورمحه ويؤم الصوت حتى تجمع حول الرسول عدد كبير .

( الآن حمى الوطيس ) واشتد القتال، وأشرف رسول الله على المعركة فقال : « الآن حمى الوطيس »[2] وأمد الله المؤمنين بجند من عنده ، وأشتدت مطاردة المسلمين للفلول المنهزمة من هوازن وثقيف ، وما هى إلا ساعة حتى انهزم

---

قبلها . وقد وقع فى مسلم من حديث العباس أن البغلة التي كانت تحته فى حنين أهداها له فروة بن نفاثة — بضم النون بعدها فاء خفيفة . ثم مثلثة — وهذا هو الصحيح . وذكر أبو الحسين بن عيدوس أن البغلة التى ركبها يوم حنين « دلدل » وكانت شهباء أهداها له المقوقس. وأن التي أهداها له « فروة » يقال لها « فضة » ذكر ذلك أبن سعد . وذكر عكسه . والصحيح ما فى مسلم ( فتح البارى ح ٦ ص ٥٧ ) وفروة كان عاملا للروم على بلاد «معان» وما جاورها من بلاد الشام

(١) انتسب إلى جده لأنه كان أشهر وأذكر عند العرب . أما أبوه فقد مات وهو شاب

(٢) أى اشتدت رحى الحرب وهى من الكلم التى لم يسبق النبى إليها .

المشركون ، وجيء بالأسارى وهم مكتفون ، وأفاء الله على رسوله والمؤمنين أموالهم وأبناءهم ونساءهم ، وقتل من المشركين عدد غير قليل منهم دريد بن الصمة.

وممن قاتل فى هذا اليوم قتال الأبطال السادة على بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد فقد جرح جراحات بالغة ، وأبو قتادة حتى سماه الصديق أسدا من أسد الله ، وهكذا بفضل ثبات النبى كان النصر بعد الهزيمة ، ولولا ثبات الرسول لما تجمع الأبطال حول سيدهم ، ولما ثاب المسلمون إلى نبيهم وقد كان لهذا النصر أثره فى نفوس كثير ممن بقى من أهل مكة على شركهم فأسلموا لما عاينوا نصر الله لنبيه ، وإعزازه لدينه ، وفى غزوة حنين أنزل الله سبحانه قوله « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم »[1]

( تشفى بعض الأعراب وضعفاء الايمان ) ولما انهزم المسلمون تكلم بعض جفاة الأعراب ، ومن كانوا حديثى عهد بالاسلام بكلام ينم عن التشفى والشماتة ، فقال كلدة بن الحنبل — وهو أخ لصفوان بن أمية لأمه : ألا بطل السحر اليوم! فقال له صفوان ، وكان لايزال مشركا فى المدة التى جعل له فيها الرسول الخيار : اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربنى — يملكنى — رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن !! ومر رجل قرشى بصفوان بن أمية فقال له : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لايجبرونها أبداً ، فزجره أمية وقال . تبشرنى بظهور الأعراب ؟! وقال عكرمة بن أبى جهل لهذا الرجل : الأمر ليس بيدك ، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شىء ان أديل عليه اليوم فإن العاقبة له غداً ! فقال سهيل بن عمرو : والله إن عهدك بخلافه لحديث فقال عكرمة : يا أبا يزيد إنا كنا على غير شىء ، وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لايضر ولا ينفع ! وقال

---

(١) التوبة ٢٥ — ٢٧

أبو سفيان بن حرب : لاتنتهى هزيمتهم دون البحر ، وقد أكذب الله كل هذه الاماني ، وكانت العاقبة للرسول والمؤمنين

( موقف انسانى للرسول ) ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة مقتولة قتلها خالد بن الوليد ، والناس واقفون عليها ينظرون ويتعجبون من خلقها حتى لحقهم رسول الله على راحلته ، فانفرجوا عنها ، فقال : ( ما كانت هذه لتقاتل ) وقال لأحدهم : ( الحق خالداً فقل له : لايقتلن وليداً ولا امرأة ولا عسيفاً ) أى أجيراً

( حنين درس فى التربية النفسية ) وقد كانت حنين درساً أفاد منه المسلمون فقد كان فى الجيش اخلاط كثيرون من المشركين والأعراب ، والمؤلفة قلوبهم ، وهؤلاء لايقاتلون عن عقيدة واخلاص ، وإنما يقاتلون لمغنم أو عصبية ، كما كانت درساً فى التربية النفسية علم المسلمين أن النصر ليس بكثرة العدد والعدة ، وأن الاغترار بذلك ليس من أخلاق الإسلام ، فهم لما اغتروا بكثرتهم كانت الهزيمة ، وذلك ليكون المسلمون على صلة قوية بالله ، فلا يلهيهم العدد والعدة عن تذكر الله ، والتوكل عليه ، فليتوكلوا على الله ، ثم ليأخذوا ما استطاعوا فى إعداد فى إعداد العدة للأعداء حسبما أمر الله به فى قوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ... ) وقد أشار الله إلى هذا المعنى بقوله : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم »[1] « وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم »[2]

( غنائم حنين ) وأمر رسول الله بجمع السبى من النساء والذرارى والغنائم من الإبل والغنم والمال ، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير ، وأكثر من أربعين ألف شاه ، وأربعة آلاف أوقية من الفضه ، وأمر أن تساق إلى الجعرانة فتحبس هناك ريثما تقسم ، وجعل على الغنائم مسعود بن عمرو الغفارى

---

(١) آل عمران ١٢٦

(٢) الانفال ١٠

( من استشهد من المسلمين ) وممن استشهد فى حنين أيمن بن عبيد ابن أم أيمن مولاة رسول الله وحاضنته ، وزيد بن زمعة بن الأسود جرح به فرسه فمات ، وسراقة بن مالك الأنصارى

## ( سرية أوطاس )

لما انهزمت هوازن وثقيف ذهبت فرقة منهم فيها رئيسهم مالك بن عوف فلجأوا إلى الطائف فتحصنوا بها ، وسارت فرقة أخرى فعسكروا بمكان يسمى ( أوطاس )(١) وتوجهت فرقة ثالثة نحو نخلة (٢) ، وهم بنو غيرة من ثقيف فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آثار من توجه قبل أوطاس سرية وأمر عليهم أبا عامر الأشعرى ، فلما التقوا تناوشوا القتال ، وقد أبلى أبو عامر بلاء حسناً حتى قيل : إنه قتل تسعة منهم ، ثم رماه أحدهم بسهم فأثبته فى ركبته فعجز عن القتال ، فاستخلف على السرية ابن أخيه : (٣) أبا موسى الأشعرى ، فقتل قاتل عمه ، ولم يلبث أبو عامر أن مات من جرحه بعد أن أوصى أبا موسى أن يقرىء رسول الله منه السلام ، وأن يستغفر له ، وقاتل أبو موسى القوم حتى هزمهم ، فلما رجع بعد الموقعة أخبر الرسول بخبر عمه الدعاء له ولأبى موسى رضى الله عنهما.

( سبايا أوطاس ) وفى يوم أوطاس أصاب المسلمون سبايا لهن أزواج من أهل الشرك فتأثم أناس من أصحاب رسول الله من غشيانهن وكفوا فأنزل الله هذه الآية : (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم)(٤) فاستحلوا فروجهن ، رواه أحمد ومسلم والترمذى والنسائى

---

(١) أوطاس : واد فى ديار هوازن

(٢) مكان بين مكة والطائف

(٣) وهم ابن اسحاق فقال له : أنه ابن عمه والذى فى صحيح البخارى أن أبا عامر عم أبى موسى ، وهو الصحيح

(٤) النساء الآية ٢٤

وقد استدل جماعة من السلف على إباحة الأمة المشركة بهذه الآية ، وخالفهم الجمهور فقالوا : هذه قصة عين فلعلهن أسلمن أو كن كتابيات .

## ( غزوة الطائف )[1]

أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ للمسير إلى الطائف حيث ذهب إليها مالك بن عوف رئيس المشركين فى حنين فى فلول من الجيش المنهزم ، وكانت الطائف مدينة محصنة لها أبواب تغلق عليها كأكثر مدن العرب فى ذلك العهد ، وكان أهلها ذوى دراية بحرب الحصار ، وذوى ثروة طائلة جعلت حصونهم من أمنع الحصون ، فصار إليهم رسول الله فى جيش كثيف فى شوال سنة ثمان حتى نزل قريباً من حصونها ، فضرب به عسكره فصار أهل الطائف يرمون بالنبل من فوق حصونهم ، فأصابوا عدداً من المسلمين فتأخر إلى الوضع الذى يوجد فيه مسجد الطائف الذى بنته ثقيف لما أسلمت بعد ، وكان مع رسول الله من نسائه أم سلمة وزينب بنت جحش ، فضرب لهما قبتين ، فكان يصلى بينهما بأصحابه ، ومكث المسلمون حول الحصون بضعاً وعشرين ليلة وقيل سبع عشرة ليلة يترامون هم وأهل الطائف بالنبال والسهام .

(إسلام بعض العبيد) وأمر رسول الله من يؤذن فى ثقيف : أن من خرج إلينا من العبيد فهو حر ، فخرج إليهم جماعة بعد أن تسوروا الحصن منهم أبو بكرة[2] ؟ نفيع بن مسروح الحبشى ، وكان عبدا للحارث بن كلدة فتبناه فمن ثم ذكر فى نسبه أنه نفيع بن الحارث . والمنبعث ويحنس ، ووردان فى رهط من رقيقهم يبلغ ثلاثا وعشرين رجلا فأسلموا فأعتقهم رسول الله . ودفع كل واحد منهم إلى رجل من المسلمين يعوله ويحمله . فلما قدم أهل الطائف بعد مسلمين قالوا يارسول الله رد علينا رقيقنا فقال : ( لا ، أولئك عتقاء الله )[3] .

---

(١) الطائف بلد كثير الأعناب والنخيل على ثلاث مراحل من مكة .

(٢) كان عبدا لأبى يسار بن مالك من ثقيف وقال الواقدى : كان مولى يسار نفسه .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٤٨ .

( الرمى بالمنجنيق واستعمال الدبابات ) ثم أمر رسول الله برميهم بالمنجنيقات(١) وذكر ابن هشام أن رسول الله أول من رمى به ، وكان أول استعمالهم له فى حصار الطائف ، ويقال إن سلمان الفارسى هو الذى أشار به وعمله بيده ، ورأى المسلمون أن يستعملوا الدبابات(٢) ليتوصلوا بها إلى نقب الحصن وتقويض أساسه ، فيسهل عليهم الدخول والتلاقى مع الأعداء وجها لوجه ، فدخل نفر من الصحابة تحت دبابة ثم زحفوا إلى جدار الحصن لينقبوه ، ولكن أهل الطائف كانوا من المهارة والدربة فى الحرب ما أكره المسلمين على الفرار من تحتها ، وعدم الاستفادة منها ، ذلك أنهم أحموا قطعاً من الحديد بالنار حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات فأحرقتها ، ففر الجنود المسلمون من تحتها خيفة أن يحترقوا ، فرميتهم ثقيف بالنبال فقتلت بعضهم ، وهكذا لم تفد هذه المحاولة الجادة المبتكرة فى نقب الحصون ، والدخول منها وهذا يدل على لون من ألوان إعداد العدة للأعداء ، وعلى مبلغ تقبل النبى والصحابة واستعمالهم لكل سلاح مستطاع فى الحروب .

( تقطيع الأعناب والزروع ) وكانت الطائف مشهورة بزروعها وكرومها وكانت تمثل ثروة عظيمة لأهلها ، فأمر رسول الله أصحابه بتقطيعها عسى أن يكون هذا حاملا لهم على الاستسلام ، وشرع المسلمون يقطعون الكروم ويحرقونها ، فلما رأى المشركون أن المسلمين جادون أرسلوا إلى الرسول مع أبى سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبه أنه إن شاء فليأخذه لنفسه ، أو ليدعه لله وللرحم ، وكان رسول الله عطوفاً رحيما فتركه لهم .

« مشورة نوفل بن معاوية الدئلى » ولما طال حصار الطائف استشار رسول الله نوفل بن معاوية الدئلى فقال « ما رأيك فى المقام عليهم » ؟ فقال : يا رسول الله ، ثعلب فى جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك !! وكان

---

(١) المنجنيق آلة يرمى بها الحجارة كانت تقوم مقام المدفع اليوم .

(٢) الدبابة مشددة آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقب . وسميت بذلك لدبيب من فى جوفها (قاموس) وقد كانت حينذاك تكسى بالجلود الغليظة فلذلك أحرقتها كرات النار .

رسول الله قد رأى رؤيا قصها على صاحبه أبي بكر قال : إني رأيت كأني أهديت لي قبعة مملوءة زبداً ، فنقرها ديك فهراق مافيها ، فقال الصديق ماأظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد ! فقال رسول الله : « وأنا لا أرى ذلك » ولما نما إلى الفاروق عمر ما قاله رسول الله أنه يؤذن له في اقتحام ثقيف جاء إلى الرسول فقال : « أو ما أذن فيهم ؟ قال : لا ، فقال : أفلا أؤذن بالرحيل ؟ قال : بلى ، فأذن بالرحيل .

وعاد رسول الله ﷺ من غير أن يفتح الطائف ، ولو أن رسول الله أقام على حصارهم لاشتد بهم الجهد ، ولا اضطروا بعد القتال إلى الاستسلام ، ولكن الحكمة الالهية اقتضت أن يؤخر الفتح عامئذ ، لئلا يستأصلوا قتلا وأسراً ، وقد كان رسول الله — كما هو دأبه — حريصاً على عدم الإسراف في القتل وإراقة الدماء ، كما كان حريصاً على هدايتهم ولما قيل له وهم قافلون من الطائف : يارسول الله احرقتنا نبال ثقيف . فادع الله عليهم قال : ( اللهم اهد ثقيفاً واكفنا مؤنتهم ) ولو أننا رجعنا القهقرى إلى ما قبل الهجرة ، وقد خرج إليهم داعياً إلى الله ، وأن يؤوه حتى يبلغ رسالة ربه لرأينا أنهم ردوا عليه وكذبوه ، وأغروا به الصبيان والسفهاء حتى رموه بالحجارة فأدموا عقبيه ، فرجع مغموماً لم يستفق إلا عند قرن الثعالب ، فناداه جبريل فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وماردوا عليك ، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداه هذا الملك وقال له أنا رسول ربك بعثني إليك لتأمرني فيهم بما شئت : إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ؟ — جبلين — فقال الرءوف الرحيم « أرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لايشرك به شيئاً » رواه البخاري ومسلم ، وكذلك استأنى بهم رسول الله بعد هذه القصة بنحو عشر سنين ، وفك حصارهم ، واستجاب الله دعاءه ، فقدموا من العام المقبل في رمضان مسلمين .

## وفد هوازن واسترداد السبايا

وعاد رسول الله من حصار الطائف إلى الجعرانة[١] حيث وجد الغنائم والسبايا فيقسمها فوافاه بها وفد هوازن وقد جاءوا مسلمين فقالوا : يا رسول الله إنا أهل وعشيره ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فأمنن علينا ، من الله عليك ، وقام إليه خطيبهم زهير بن صره فقال : يارسول الله إنما فى الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتى كنا يكفلنك ثم أنشده بعض الشعر ، وكان رسول الله أعرف الناس بالجميل ، وأرحم الناس بكليم القلب ، وكسير الجناح ، فقال لهم : نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ وقد كنت استأنيت بكم )[٢] فقالوا : يارسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا ! بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا ، فقال رسول الله : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فأنى سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » فلما صلى رسول الله الظهر بالناس قاموا فقالوا مثل ماقال لهم ، فقام النبى فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : (أما بعد فان أخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم ، فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم ان يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يفىء الله به علينا فليفعل ثم قال : ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ) فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ، وقال الأنصار مثل ذلك ، وتمنع أناس منهم الاقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، والعباس ابن مرداس ، ومازالوا بهم رسول الله حتى ارضاهم ؛ وبذلك ردت إلى هوازن

---

(١) بكسر الجيم والعين وتشديد الراء وقد تسكن العين وتخفف الراء موضع بين الطائف ومكة وهو إليها أقرب .

(٢) كان رسول الله انتظرهم بضعة عشرة ليلة حين قفل من الطائف وأخر قسمة النبى عسى أن يحضروا مسلمين فيشفع لهم إسلامهم .

نساؤها وذراريها بفضل النبى وبره ورحمته ، وحسن كياسته وسياسته ، فهو ﷺ يعلم أن العربى يضحى بكل مال ، ولا يضحى بامرأته ، وذريته ، ويموت راضياً فى سبيل صيانة عرضه

وأكمل رسول الله بره وصلته ، فسأل وفد هوازن عن رئيسهم عوف بن مالك ، فقالوا هو بالطائف مع ثقيف فقال : « أخبروه أنه إن أتانى مسلماً رددت إليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل » فلما بلغ ذلك مالكا انسل من ثقيف خفية ، وركب فرسه حتى أتى رسول الله بالجعرانة ، أو بمكة ، فأسلم فرد عليه رسول الله أهله وماله وأعطاه المائة مما جعل لسانه ينطلق بمدح النبى ، واستعمله النبى على من أسلم من قومه ، وقد أسرت هذه المعاملة الكريمة مالكا ، فكان يقاتل بمن أسلم من قومه ثقيفاً لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم.

( الشيماء بنت الحارث ) وكان فى السبايا الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله من الرضاع وكان بعض المسلمين قد عنف عليها فقالت: والله إنى لأخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ، فتعرف عليها ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، وقال لها : « إن أحببت فعندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك وترجعى إلى قومك فعلت » ؟ فقالت بل تمتعنى وتردنى إلى قومى فمتعها وأعطاها وردها إلى قومها ويقال : إنه أعطاها غلاما يقال له مكحول وجارية فزوجتهما ، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية .

## ( قسمة الغنائم )

لما رد رسول السبايا على هوزان ، وأعطى بعضهم ما أعطى من الإبل تخوف بعض الناس ولاسيما الأعراب أن يرد إليهم أموالهم أيضاً فألحواعلى الرسول

فى قسمة الغنائم حتى ألجؤه إلى شجرة هناك ، وخطفوا رداءه فقال « ردوا على ردائى أيها الناس ، فوالذى نفسى بيده لو كان لى عدد هذه العضاة نعما لقسمته فيكم ، ثم لاتجدونى بخيلا ولاجبانا ولا كذابا » ثم أخذ وبرة من سنام بعير ثم رفعها بين أصبعيه وقال : « أيها الناس والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط فإن الغلول[1] عار وشنار على أهله يوم القيامة ، فجعل كل من أخذ شيئاً من الغنيمة يرده ولو كان زهيداً . رواه البخارى ، ثم خمس رسول الله ﷺ الغنيمة فأخذ الخمس لنفسه وأعطى منه اناسا اسلموا يتألفهم بذلك ، واناسا لم يسلموا ليحببهم فى الإسلام ، فأعطى مائة من الإبل لكل من أبى سفيان ، وابنيه : معاوية ويزيد ، والحارث بن هشام ، وحكيم بن حزام وكان كلما أعطاه الرسول مائة استزاده حتى قال له : « يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه . ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولايشبع واليد العليا خير من اليد السفلى » رواه البخارى . وقد أثرت هذه الموعظة فى نفس حكيم فأخذ المائة وترك ماعداها ثم قال والذى بعثك بالحق لا أرزأ[2] أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا ، فكان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما يعرضان عليه العطاء فلا يأخذه ، وأعطى عيينه بن حصن والأقرع بن حابس مائة ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن كلدة وغيرهم واعطى غير هؤلاء دون المائة كالعباس بن مرداس فأنشأ يقول

أتجعل نهبى ونهب العبيد[3] بين عيينه والأقرع
فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

---

(١) فى القاموس : « والخياط للكتاب ، كبير ما يخاط به الثوب ، والابرة » والغلول : الخيانة فى الغنيمة يعنى أدوا الخيط والإبرة .

(٢) لا أنقص يعنى لن آخذ من أحد شيئا .

(٣) النهب النصيب ، والعبيد ، بضم العين على صيغة التصغير فرسه .

فقال النبي « اقطعوا عني لسانه » فأكملوا له المائة ، وأعطى صفوان ابن أمية — وكان لايزال مشركا — عطاء كثيرا حتى قال : ما طابت بهذا نفسي أحد ، وكان يقول مازال رسول الله يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلى ، حتى ماخلق الله شيئاً أحب إلى منه ، وكان من البواعث على إسلامه .

وكان رسول الله ﷺ يعلم أن بعض النفوس عبيد الاحسان فتألفهم بذلك ، وهو ضرب من ضروب السياسة الشرعية الحكيمة ، ولهذا جعل الشارع الحكيم للمؤلفة قلوبهم سهما في الزكاة ، ونعما فعل الرسول ، فإن كثيرين ممن لم يسلموا قد أسلموا ، وكثيرين ممن أسلموا ولم تشرب قلوبهم حب الايمان قد صاروا بعد من أجلاء المسلمين ، وأعظمهم نفعاً للإسلام .

ثم قسم رسول الله الغنائم بين سائر المجاهدين فأصاب الراجل أربعة من الابل وأربعون شاة ، وأصاب الفارس ثلاثة أمثال ذلك .

« اعتراض بعض المنافقين » ولما قسم النبي غنائم حنين وأعطى للمؤلفة قلوبهم ما أعطى جاء رجل من المنافقين يقال له : ( ذو الخويصرة ) من بني تميم فقال : يا رسول الله اعدل ، فقال الرسول : ويلك ومن يعدل إن لم أعدل ؟ لقد خبت وخسرت إذا لم أعدل » فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ائذن لي أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي : « معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ويمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية » وقال معتب بن قشير — وكان منافقاً — : ما أريد بهذه القسمة وجه الله ، فلما أخبر بذلك رسول الله قال : « رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر » ولم يكن رسول الله يفعل هذا لهوى نفسه ، فحاشاه من ذلك ، وإنما الأمر كما قال : « إني أعطي قوماً أخاف هلعهم وجزعهم ، وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى » .

« معتبة الأنصار ، لما أعطى رسول الله ﷺ قريشاً والمؤلفة قلوبهم وغيرهم من سائر العرب ولم يعط الأنصار ، وجد بعض الأحداث منهم فى نفسه وقالوا : يغفر الله لرسول الله يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فلما نميت المقالة إلى رسول الله أرسل إليهم وجمعهم فى قبـــة وحدهم ، فلما اجتمعوا قام خطيبا فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « ما حديث بلغنى عنكم » ؟ فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله ...» ثم قال : « يامعشر الانصار ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بـــين قلوبكم » ؟ قالوا : بلى ثم قال : « ألا تجيبون يا معشر الأنصار » ؟ قالوا : وما نقول يارسول الله ؟ وبماذا نجيبك ؟ المن لله ولرسوله فقال النبى : ( والله لو شئتم لقلتم فصدقتم : وصدقتم : جئتنا طريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، وخائفا فأمناك ، ومخذولا فنصرناك » فقالوا : المن لله ولرسوله ، فقال رسول الله ﷺ : ( أوجدتم فى نفوسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة — شىء يسير — من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا ، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ، فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعباً ، وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، اللهم أرحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الانصار[1] » فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ربا وبرسوله قسما ، ثم انصرفوا .

فهل سمعت فى باب الاسترضاء أروع من هذه الخطبة البليغة الجامعة بين الحق والصراحة ، والرقة والاستعطاف ؟ وهل سمعت فى تهدئة النفوس الغاضبة ، أو الثائرة مثل هذه الكلمات الرقاق التى تضرب على أوتار القلوب ، وتهز المشاعر ، وتستولى على الوجدان ؟ ومن أعجب العجب أنك لا تجد فيها كلمة مداهنة أو مخادعة ،

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى — باب غزوة الطائف ، وصحيح مسلم — كتاب الزكاة — باب إعطاء المؤلفة قلوبهم .

أو كلمة مزوقة دعت إليها المجاملة ، أو عدة بالوعود الكاذبة ، والأمانى البراقة كما يفعل دهاقين السياسة ، وقواد الحروب ، وزعماء الإصلاح ولا سيما فى العصر الحديث ، ولكنها النبوة التى تسمو عن كل هـذا ، وتأبى إلا الإذعان للحق والإقرار بالفضل لذويه .

( عمرة الجعرانة ) واعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعد قسمة الغنائم ثم من الجعرانة فى أواخر ذى القعدة هذا العام ، ودخل مكة بليل فطاف وسعى ثم تحلل من عمرته ، ثم عاد هو وأصحابه من المهاجرين والأنصار إلى المدينة وقد دانت لهم مكة وما جاورها ومن الله عليهم بهذا النصر المبين .

( عتاب بن أسيد ) وقد استعمل على مكة عتاب بن أسيد[1] وكان عمره نيفاً وعشرين سنة ، وأخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس فى دينهم . ويعلمهم القرآن . ولما ولاه رسول الله مكة جعل رزقه كل يوم درهما فقام فخطب الناس فقال : أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم فقد رزقنى رسول الله كل يوم درهماً فليست لى حاجة إلى أحد ، وهذا غاية القناعة ، وكان متعففاً عن أموال المسلمين روى عنه أنه قال : ما أصبت فى عملى هذا الذى ولانى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ثوبين معقدين كسوتهما مولاى كيسان ، وقد بقى والياً على مكة مدة الصديق ، ثم فى خلافة عمر إلى سنة اثنتين وعشرين فتوفاه الله[2]

( الحج هذا العام ) وحج الناس فى هـذا العام على ما كانت العرب تحج وكان أمير الحج فى هذا العام عتاب بن أسيد.

---

(١) عتاب — بتشديد التاء — ابن أسيد — بفتح أوله وكسر السين — ابن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس الأموى أبو عبد الرحمن ، ويقال : أبو محمد ، وأمه زينب بنت عمرو بن أمية وقد أسلم يوم الفتح كما ذكرنا . وقد استعمله النبى على مكة بعد أن رجع من الطائف ، وقبل لما سار إلى حنين واستعمر والياً عليها حتى مات

(٢) الاصابة ج ٢ ص ٤٥١

## « إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى »

كان كعب ممن أهدر النبي دماءهم لكثرة هجائه لرسول الله والمسلمين فلما آب النبي إلى المدينة بعد غزوة الطائف كتب بجير بن زهير إلى أخيه كعب أن رسول الله لا يقتل من جاءه تائباً مؤمناً ، فإذا جاءك كتابي هذا فاسلم وأقبل وبعد مطارحة شعرية بينهما خرج كعب قاصداً المدينة ، فنزل على رجل كان بينه وبينه معرفة من جهينه ، فغدا به إلى رسول الله في صلاة الصبح ، فلما فرغ من صلاته قال له صاحبه : هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه ؛ فقام كعب إلى رسول الله فجلس إليه ، ووضع يده في يده وكان رسول الله لا يعرفه ، فقال : يارسول الله إن كعب بن زهير قد جاء يستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن جئتك به ؟ قال : نعم ، فقال : إذاً أنا يارسول الله كعب فوثب إليه رجل من الأنصار مستأذناً رسول الله أن يضرب عنقه ، فقال له : « دعه عنك فإنه جاء تائباً مسلماً » فمن ثم وجد على الأنصار في نفسه ، ولم يذكرهم بشيء في قصيدته . بل يقال : أنه عرض بهم في بعض شعره ، ثم أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته المشهورة الطويلة ومطلعها .

بانت سعاد فقلبي متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن قرير العين مكحول

ومنها : إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيل

ويقال أنه لما أنشد رسول الله قصيدته أعطاه بردته ، وهي التي صارت إلى الخلفاء ، قال ابن كثير : هذا من الأمور المشهورة جدا ، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه فالله أعلم ، قال ابن هشام . ويقال أن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده : بانت سعاد « لولا ذكرت الأنصار

بخير فإنهم لذلك أهل » وكانت هذه إيماءة كريمة من رسول بعد أن أحس غضب الأنصار عليه فقال يمدح الأنصار .

من سره كرم الحياة فلا يزل ... في مقنب من صالح الأنصار
ورثوا المكارم كابرا عن كابر ... إن الخيار هم بنو الأخيار
ومنها: والبائعين نفوسهم لنبيهم ... للموت يوم تعانق وكرار

## تشريعات وأحداث في هذا العام

في هذا العام حرمت المتعة تحريماً باتاً إلى يوم القيامة

وفي ذي القعدة عنها تزوج رسول الله فاطمة بنت الضحاك الكلابية فاستعاذت بالله منه فقال لها لقد عذت بعظيم الحق باهلك ؛ وقد أدركها الندم فيما بعد وكانت تقول : أنا الشقية وقيل إن رسول الله دخل بها ، فلما خير نساءه اختارت قومها ففارقها ، ورد هذا ابن عبد البر ، واحتج لذلك بما ثبت في الحديث الصحيح عن عائشة أن النبي لما خيرهن بدأ بها فاختارته ، وتتابع أزواج رسول الله كلهن على ذلك .

« إسلام أبي العاص بن الربيع » قدمنا أن أبا العاص بن الربيع صهر رسول الله كان أسر في بدر فأرسلت السيدة زينب زوجه في فدائه قلادة قلدتها إياها أمها السيدة خديجة فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة وقال ( إن شئتم أن تردوا عليها قلادتها وتطلقوا لها أسير فافعلوا ) ففعلوا وأخذ عليه لرسول عهداً أن يرسل إليه ابنته فوفى بالعهد ، وكان ما كان من ترويع هبار بن الأسود لها وكانت حاملا فأجهضت . واستمرت السيدة زينب عند النبي ، وبقي زوجها على كفره بمكة حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص في تجارة لقريش ، فلما قفل من الشام لقيته سرية ، فأخذوا ما معه وأعجزهم هربا ، وجاء تحت جنح الليل إلى زوجته زينب فاستجار بها فأجارته ، فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الصبح وكبر وكبر

الناس ، صرخت من صفة النساء : أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع فلما سلم رسول الله أقبل على الناس فقال « أما والذى نفس محمد بيده ما علمت من شىء حتى سمعت ما سمعتم وإنه يجير على المسلمين أدناهم » ثم انصرف إلى ابنته زينب فقال : « أى بنية أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك ، فانك لا تحلين له » ثم حث رسول الله أصحابه على رد ما كان معه ، فردوه بأسره ، فأخذه أبو العاص وذهب به إلى مكة فأعطى كل ذى حق حقه ، ثم قال لهم : هل بقى لأحد منكم عندى مال يأخذه ؟ قالوا : لا فجزاك الله خيرا فقد وجدناك وفيا كريما قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم فقد أداها الله إليكم ، ثم خرج حتى قدم المدينة وقد اختلفت الرواية فى رد رسول الله إليه زوجته زينب أكان بالنكاح الأول ، أم بنكاح ومهر جديدين ؟ فالذى رواه ابن اسحاق عن ابن عباس أنه ردها بالنكاح الأول ، وهو ما رواه الإمام أحمد وأبو دواد والترمذى وابن ماجه وروى الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه أن رسول الله رد بنته على أبى العاص بمهر جديد ونكاح جديد ، ولكن قال فيه الإمام أحمد : إنه حديث ضعيف والحديث الصحيح الذى روى أن النبى ﷺ أقرها على النكاح الأول ، والأول وإن كان صحيحاً إلا أن العمل عند الفقهاء على الثانى ، فإن القاعدة عندهم أن المرأة إذا أسلمت وزوجها كافر فإن كان قبل الدخول تعجلت الفرقة ، وإن كان بعده انتظر إلى انقضاء العدة فإن أسلم فيها استمر على نكاحها ، وإن انقضت ولم يسلم انفسخ نكاحها ، والسيدة زينب انقضت عدتها ولا محالة فقد نزل تحريم المسلمات على المشركين عام ست ، وأبو العاص أسلم سنة ثمان ، ويعجبنى فى هذا الموضوع قول بعض العلماء : إن فى قضية زينب والحالة هذه دليل على أن المرأة إذا اسلمت وتأخر إسلام زوجها حتى انقضت عدتها فنكاحها لا ينفسخ بمجرد ذلك بل يبقى بالخيار إن شاءت تزوجت غيره ، وإن شاءت تربصت وانتظرت إسلام زوجها أى وقت كان وهى

امرأته ما لم تتزوج وهذا القول فيه قـــوة وله حظ من جهة الفقه والله أعلم(١)

(وفاة السيدة زينب) وفى هذا العام توفيت السيدة زينب بنت رسول الله وزوج أبى العاص بن الربيع ولدت قبل المبعث بعشر سنين وكانت أكبر بناته ﷺ تليها رقية ثم أم كلثوم ثم فاطمة رضى الله عنهن، كان رسول الله محبا لهـا أسلمت قديماً ثم هاجرت قبل اسلام زوجها بست سنين، وكانت قد أجهضت فى هجرتها كما أسلفنا ثم نزفت، وصار المرض يعاودها حتى توفيت رضى الله عنها ولذا كان رسول الله يقول: (هى خير بناتى أصيبت فى) ولما ماتت قال رسول الله (اغسلنها وترا: ثلاثا أو خمسا، واجعلن فى الآخرة كافورا)(٢) وكانت ولدت من أبى العاص عليا، ثم مات وقد ناهز الاحتلام، وأمامة وهى التى كان يحملها رسول الله وهو يصلى كما فى الصحيحين ولما كبرت تزوجها سيدنا على ابن طالب بعد موت خالتها فاطمة، ثم تزوجت بعد على المغيرة بن نوفل بن الحارث فولدت له يحى وقيل إنها لم تلد لعلى ولا للمغيرة ولذلك قال الزبير: ليس لزينب عقب.

(مولد ابراهيم بن النبى) وفى ذى الحجة من هذا العام ولد ابراهيم بن النبى من السيدة مارية القبطية التى كان أهداها له المقوقس عظيم مصر فتسراها حتى ولدت له فصارت أم ولد وأنزلها منزلة الأزواج، وكان رسول الله قد رزىء بقد أولاده الذكور صغاراً كما رزىء بفقد رقية وهو ببدر، ثم بوفاة زينب سنة ثمان، لذلك لا تعجب إذا كان رسول الله ﷺ قد فرح بمولد ابراهيم فرحا شديدا وخرج إلى أصحابه فبشرهم قائلا: ولد

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٣٢، ٣٣٣

(٢) ليت طيب الرائحة وهو فضلا عن كونه يطيب الميت يجفف جسمه ويجعله صلبا متماسكا ويمنع اسراع الفساد إليه

لى الليلة غلام فسميته باسم أبى ابراهيم ولدته مارية بالعالية حيث كانت تقيم فى الموضع الذى يقال له اليوم مشربة ابراهيم ، وكانت قابلة مارية سلمى مولاة النبى امرأة أبى رافع، فبشر به أبو رافع النبى فوهب له عبدا ، وفى اليوم السابع عق عنه بكبش ، وحلق رأسه أبو هند، وتصدق بوزن شعره ورقا[1] على المساكين ثم دفعه رسول الله إلى أم سيف امرأة قين بالمدينة يقال له : أبو يوسف لترضعه، وكان النبى ﷺ ينطلق إلى بيت مارية كل يوم فيأخذه ويقبله وتنافست نساء الأنصار فى إرضاعه فكان النبى يجاملهن ولا يرد لهن طلبا ، كما كان يغدق على من ترضعه الكثير من خيره وبره ، وأرصد لذلك قطعة من الغنم واللقاح فتروح كل ليلة على بيت من ترضعه فتشرب من لبنها وتسقى رضعها حتى لقد أثار ذلك مكامن الغيرة فى نفوس أزواجه ، ورسول الله بشر وإنسان ، والأولاد ولا سيما البنين الصالحين ذكر باق بعد الموت ، وحياة موصولة لحياة الآباء ، فليس يبدع أن يهفو قلبه إلى إبراهيم، وأن يحل إبراهيم من نفس النبى هذه المنزلة ، وأن يرى فيه العزاء والسلوى وهو فى سن الستين عن فقد الأحبة قبل البعثة وبعدها وأن يملأ إبراهيم جانبا من جوانب القلب الإنسانى الكبير .

( سرية بنى المصطلق ) وبعث الرسول ﷺ الوليد بن عقبة بن أبى معيط لأخذ صدقات بنى المصطلق فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلا متقلدين السلاح تحية أثناء قدومه ، ومعهم ابل الصدقة فلما رآهم الوليد هابهم وظن أنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم من عداوة فى الجاهلية ، فرجع مسرعا إلى المدينة وأخبر الرسول بما ظن، فأرسل الرسول ﷺ خالد بن الوليد فى سرية لتعرف حقيقة أمرهم فسار إليهم حتى ديارهم ، وكمن بالقرب منهم ليلا ، فإذا بمؤذنهم يؤذن للصلوات، فأتاهم خالد فلم ير منهم إلا الطاعة ، فأخذ الصدقات وعاد إلى المدينة وأخبر الرسول بخبرهم وفى هذه الواقعة أنزل الله هذا التأديب الإلهى فى قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما

---

(١) الورق بكسر الراء الفضة .

بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»[1] وهذه الآية أصل فى التثبت فى الأخبار واشتراط العدالة فى الرواة ، والبحث عن أحوالهم حتى كان من ذلك علم ( الجرح والتعديل ) فى الإسلام .

## ( السنة التاسعة )

( سرية طيىء ) فى ربيع الأول من هذا العام أرسل رسول الله ﷺ على ابن أبى طالب فى خمسين فارسا لهدم ( الفلس )[2] صنم لطى فسار إليه وهدمه وأحرقه ، ولما حاربه عباده هزمهم واستاق نعمهم وشاءهم وسبى منهم سبايا فيهن « سفانة »[3] بنت حاتم الطائى المشهور ، ولما رجع على المدينة جعلت سفانة فى حجرة عند باب المسجد كان السبايا تقيم فيها فلما مر بها رسول الله قامت إليه فقالت : يا رسول الله هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن على من الله عليك ، فقال لها : ومن وافدك ؟ قالت عدى بن حاتم ، قال : الفار من الله ورسوله ! ثم مضى وتركها ، فكررت هذا من الغد ، وبعد الغد ، فمن عليها وقال : « لا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ، ثم آذنينى » فلما أعلمته بأنها وجدت رفقة ثقاة كساها وحملها وأعطاها نفقة ، فشكرت النبى على هذا الجميل ، وكان مما قالت ، « شكرتك يد افتقرت بعد غنى ؛ ولا ماسكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سببا لردها عليه » ثم ارتحلت حتى قدمت على أخيها عدى بالشام ، لأنه لما سمع بخيل رسول الله ﷺ احتمل باهله وولده وتركها وفر إلى الشام ، فلما وصلت إليه وبخته على صنيعه ، فلم يجد ما يعتذر به ، ثم أخبرته بما لقيت من رسول الله من كرم وحسن معاملة ، وقالت له : أرى أن تلحق به سريعا فإن يكن نبيا فللسابق

---

( ١ ) الحجرات / ٦ .

( ٢ ) فى القاموس : الفلس بالكسر صنم لطيىء .

( ٣ ) سفانة بفتح السين وتشديد الفاء كما فى القاموس

إليه فضله ، وإن يكن ملكا فأنت أنت ، فما كان منه إلا أن أخذ بمشورتها ، وقدم على النبى ، ثم أسلم كما سنذكره إن شاء الله أثناء الوفود :

## ( غزوة تبوك )[1]

وكانت فى رجب فى العام التاسع ، وكان سببها ما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت له الجموع تريد غزوة فى بلاده ، وكان من سياسة رسول الله الحكيمة أنه إذا علم أن قوما هموا بغزوه أن يبادئهم قبل أن يغزوه وكان قلما يخرج لغزوة إلا ورى بغيرها ؛ ليعمى الأخبار على الإعداء إلا فى هذه الغزوة فإنه أخبر بمقصده ، لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو حتى يأخذ الناس لذلك عدتهم ؛ وقد اتفق أن كانت هذه الغزوة فى زمان عسرة من الناس وجدب فى البلاد ، وشدة الحر ، كما كانت حين طابت الثمار ، فالناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، لذلك أمر الرسول بالتجهز واستنفر لذلك أهل المدينة وماحولها ، وأهل مكة وماجاورها ، واستنفر أيضاً الأعراب الضاربين فى الجزيرة العربية ممن أسلموا ، كى يتكون من ذلك أكبر جيش يمكن اعداده لمقاتلة الروم ، ذوى العدد والعدة ، والدربة فى الحروب .

« الحث على تجهيز الجيش » وحث رسول الله على البذل والإنفاق فى سبيل الله فقال : « من جهز جيش العسرة فله الجنة » وتسابق الخيرون فى هذا المضمار فتبرع عثمان بن عفان رضى الله عنه بثلثمائة بعير باحلاسها وأقتابها[2] ، وبألف دينار [3] جاء بها فصبها فى حجر النبى ﷺ فجعل يقلبها ويقول :

---

(١) تبوك : موضع معروف فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق .

(٢) جمع حلس وهو كساء يوضع على ظهر البعير تحت الرحل . والأقتاب جمع قتب وهو مايوضع على ظهر البعير للركوب .

(٣) وأما رواية عشرة آلاف دينار فسندها واه كما قال الحافظ ولعلها كانت بعشرة آلاف درهم فتتوافق الروايتان .

« اللهم أرض عن عثمان فإنى عنه راض » ويقول « ماعلى عثمان ماعمل بعد اليوم، رواه أحمد والترمذى ، وجاء أبو بكر الصديق بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم فقال له الرسول : «هل أبقيت لأهلك شيئاً » ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله ، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية من ذهب ، وجاء العباس وطلحة بمال كثير ، وجاء عاصم بن عدى بمائة وسق من تمر وجاء أحد الأنصار بصاع من تمر[1] وأرسلت النساء ما استطعن من حلى وهكذا ضرب المسلمون أروع ألوان التضحية والبذل. وتكاثر الراغبون فى الجهاد على رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغون الظهر والنفقة حتى لم يبق لديه شىء .

« البكاءون » وجاء جماعة إلى رسول الله وكانوا سبعة يسألونه ما يحملهم عليه فلم يجدوا ، فرجعوا وهم يبكون أسفاً وحزناً على مافاتهم من شرف الجهاد مع رسول الله ، والمساهمة فى النفقة فيه ، وقد عذرهم الله حيث قال : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله . ماعلى المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم ، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت : لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ؛ أن لايجدوا ماينفقون »[2] وقد روى أن يامين بن عمرو جهز اثنين وجهز عثمان ثلاثة . والعباس اثنين[3] .

وإن لنا هنا لوقفة تريتا كيف بلغ حب الجهاد والبذل فى سبيل الله فى نفوس الصحابة . وأنهم كانوا يؤثرون رضاء الله ورسوله على كل محبوب لديهم وبهذه المعانى والخصائص النفسية فتحوا العالم وسادوا الدنيا .

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى جـ ٤ ص ٢١٢

(٢) التوبة / ٩١ ، ٩٢

(٣) نور اليقين ص ٢٤٦

« خروج الجيش » ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخميس فى جيش كثيف يزيد عن الثلاثين الفاً يتقدمهم عشرة آلاف فارس فى مشهد مثير يستولى على المشاعر، ويستهوى القلوب، ويثير العزائم حتى وصل إلى ثنية الوداع حيث عسكر هناك، وضرب عبدالله بن أبى عسكره أسفل من عسكر النبى، وقد استخلف النبى على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى وقيل: سباع بن عرفطة الغفارى، واستخلف على أهله على بن أبى طالب، فأرجف به المنافقون وقالوا: ماخلفه إلا استثقالا له حتى قال على لرسول الله: أتخلفنى فى النساء والصبيان؟ فقال له: « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » رواه البخارى ومسلم.

( تخلف المنافقين وتخذيلهم عن الرسول ) ثم لم يلبث ابن أبى أن تخلف وتخلف معه كثير من المنافقين، وقال بعضهم: يغزو محمد بنى الأصفر ـ الروم ـ مع جهد الحال والحر والبلد البعيد! أيحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب! والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال! وتعلل بعضهم بالتعلات الباطلة من بعد الشقة وشدة الحر وهم الذين ذكرهم الله فى قوله: ( وقالوا: لاتنفروا فى الحر، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون[1] وقوله: ( لوكان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة .. )[2] الآية ومن هؤلاء الجد بن قيس. فقد قال له الرسول ( ياجد هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر؟ ) فقال: يارسول الله، أو تأذن لى؟ ولا تفتنى، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء منى وإنى خشيت إن رأيت بنى الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه الرسول.

« تحريق بيت سويلم » وبلغ رسول الله أن ناساً من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن رسول الله فى غزوة تبوك، فبعث

---

(١) التوبة / ٨١ (٢) التوبة / ٤٢

إليهم طلحه بن عبيد الله فى نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة ، فاقتحم بعضهم من ظهر البيت فانكسر رجله ، وأفلت الآخرون.

« المعتذرون » وجاء قوم من المنافقين يعتذرون إلى رسول الله ﷺ ليس لهم عذر ، وإنما هو النفاق والشك وكراهية الجهاد ، فاذن لهم بناء على ظاهر حالهم ولكن الله عاتبه على الإذن لهم فقال : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » إلى قوله « فهم فى ريبهم يترددون (١) وفى شأن المنافقين المتخلفين عن تبوك أنزل الله آيات كثيرة فى سورة التوبة ، وسنعرض لهم فيما بعد.

« المتخلفون من غير نفاق » وتخلف جماعة من المسلمين لا يتهمون فى إيمانهم ، ولكن عن كسل ، وميل إلى الراحة ، منهم الجماعة الذين ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، ومنهم الثلاثة الذين خلفوا ، وسنعرض لهم فيما يأتى ومن المتخلفين من تدارك أمره ، فلحق بالرسول فى الطريق أو فى تبوك.

« مسيرة الجيش إلى تبوك » ثم سار الرسول قاصداً تبوك وأعطى اللواء الأعظم الصديق أبا بكر — رضى الله عنه — ولا يخفى على القارىء الفطن ما فى إعطائه صلى الله عليه وسلم اللواء فى آخر غزوة غزاها الصديق وتخليفه عليا فى أهل بيته من إشارة لطيفه إلى أن الصديق أحق الصحابة بالخلافة ووزع الرسول الرايات ، فأعطى الزبير بن العوام راية المهاجرين ، وأسيد ابن حضير راية الأوس ، والحباب بن المنذر راية الخزرج ، وسار الجيش فى جهد شديد من قلة الظهر حتى كان الرجلان والثلاثة يعتقبون على بعير واحد ، ومن قلة المؤنة حتى كان الرجلان ، والثلاثة يقتسمون التمرة فيما بينهم ، حتى استأذنوا رسول الله أن ينحروا رواحلهم فيأكلون منها ، فاذن لهم فجاء الفاروق عمر فقال يا رسول الله إن فعلنا قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة ، فقال الرسول : « نعم » ودعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم حتى اجتمع من ذلك شىء يسير ، فدعا رسول الله بالبركة ثم قال : ( خذوا فى أوعيتكم ) فأخذوا حتى ما تركوا فى العسكر

(١) التوبة/٤٣ — ٤٥

وعاء إلا ملأوها ، وأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضـــلة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( أشهد أن لا إله إلا الله . وأنى رسول الله لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة ) رواه مسلم والبيهقى[1] وأصيبوا بعسرة فى الماء حتى عطشوا عطشاً شديداً كادت تنقطع منه رقابهم حتى كان الرجل منهم ينحر بعيره فيعتصر ما فى كرشه من ماء فيشربه ، ثم يجعل ما بقى على كبده فقال أبو بكر : يا رسول الله إن الله قد عودك فى الدعاء خيرا فادع الله لنا فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعهما حتى أمطرت السماء فشربوا وملأوا ما معهم ثم ذهبوا فنظروا ، فلم يجدوها جاوزت العسكر ، وقد ذكر ابن اسحاق أن هذه القصة كانت وهم بالحجر ، وأنهم قالوا لرجل معهم منافق : ويحك هل بعد هذا من شىء ؟ فقال : سحابة مارة ! وهكذا لم ينفك المنافقون عن شكهم وإرجافهم بل قال بعضهم — يقال إنه زيد بن نصيب[2] — وقد ضاعت ناقة رسول الله : هذا محمد يخبركم أنه نبى ويخبركم خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ؟ فقال الرسول : إنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها هى فى الوادى ( حبستها شجرة بزمامها ) فانطلقوا فوجدوها كما أخبر الرسول فجاءوا بها ، وقد دلل النبى بمقالته تلك على أنه نبى حقاً يوحى إليه ، وهكذا الأنبياء لا يعلمون إلا ما علمهم الله سبحانه ، ولا يزعمون لأنفسهم عـــلم الغيب وإنما ذلك شأن المشعوذين والدجالين ، أما زيد بن اللصيب فقيل : إنه تاب ، وقيل : ما زال منافقاً حتى هلك .

( كن أبا خيثمة ) وكان أبو خيثمة — رضى الله عنـــه — ممن تخلف من غير عذر . فرجع بعد ما سار رسول الله إلى أهله فى يوم حار . فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى بستان له . وقد رشت كل واحدة منهما عريشها ،

---

(١) البداية والنهاية جـ ٥ ص ١٠ .

(٢) فى الاصابة : زيد بن لصيب بلام مهملة ومثناه مصغرا ، وقيل بنون فى أوله وآخره موحدة يعنى با ثم ذكر عن ابن اسحاق قصته هذه فى تبوك ( الاصابة جـ ٤ ص ٥٧١ ) .

وبردت فيه ماء ، وهيأت فيه طعاماً ، فلما رأى ذلك قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح[1] . والريح . والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ! وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ، فى ماله مقيم ! ! ما هذا بالنصف والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى الحق برسول الله فهيئا زادا ففعلنا . ثم ركب راحلته ولحق برسول الله حين نزل بتبوك ، فلما دنا من الجيش قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل . فقال رسول الله ( كن أبا خيثمة ) فنظروا فإذا هو أبو خيثمة. فسلم على الرسول وأخبره خبره . فدعا له بخير . وكذلك لحق برسول الله عمير بن وهب الجمحى[2] .

( كن أبا ذر ) لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك جعل الرجل يتخلف عنه فيقولون : يا رسول الله تخلف فلان فيقول : « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم . وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » . حتى قيل يارسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره . فقال مقالته تلك . فتلوم — انتظر — أبو ذر بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره . ثم خرج يتبع رسول الله ماشياً ، ونزل رسول الله فى بعض منازله ، ونظروا فاذا رجل ماش على الطريق فقال رسول الله ، ( كن أبا ذر ) فتامله القوم فإذا هو أبو ذر فقال رسول الله ﷺ : ( يرحم الله أبا ذر ) يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده ) وقد صدقت نبوءة الرسول ففى عهد عثمان خرج إلى الزبدة[3] وأقام بها حتى مات ، فلما حضرته الوفاة أوصى امرأته وغلامه فقال : إذا أنا مت فاغسلانى ، وكفنانى ، وضعانى على الطريق ، فأول ركب يمر فقولوا : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ ، فلما مات فعلوا به كذلك ، فإذا ابن مسعود

---

(١) الضح بكسر الضاد الشمس وضوءها (قاموس) .

(٢) البدايه والنهايه جـ ٥ ص ٧ ، ٨

(٣) الزبدة : على وزن قصبه مكان على الطريق بين المدينه والعراق على ثلاثه أيام من المدينة .

مار فى رهط من الكوفة فقال : ماهذا ؟ فقيل له : جنازة أبى ذر فبكى وقال صدق رسول الله (يرحم الله ابا ذر ...)ونزل فتولى دفنه بنفسه .

« النزول بالحجر » ولما مر رسول الله بالحجر — ديار ثمود — قال : ( تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم ) ثم قنع[1] رأسه وأسرع السير حتى أجازوا الوادى رواه البخارى ومسلم . وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال : ( نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا و نصبوا القدور باللحم فامرهم رسول الله ﷺ ، فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الابل ثم ارتحل بهم حتى نزل البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال : (إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلاتدخلوا عليهم ) وذكر ابن اسحاق نحو ذلك وكذا البخارى فى صحيحه وهكذا لايجد النبى فرصة للاعتبار إلا ذكرهم وحذرهم.

( انسحاب الروم ) ولما وصل جيش المسلمين تبوك لم يجد أحداً هنالك لأن الروم لما بلغهم مسير هذا الجيش الذى يؤثر الموت على الحياة آثروا الانسحاب إلى بلاد الشام ليتحصنوا بحصونها . فلم ير النبى داعياً لتتبعهم داخل بلادهم . وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن يناجزه ويقاومه .

## ( وفود صاحب أيلة وأهل جرباء وأذرح )[2]

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك بضعة عشر يوما . ليريهم أن سلطان الله فى الأرض لا يرهب أحداً ، وليؤمن الحدود الشمالية بمعاهدة المجاورين له .

---

(١) غطاها بثوبه

(٢) « أيلة » بفتح الهمزة وسكون الياء قرية بين ا حجاز والشام على خليج العقبة، الجرباء: قرية من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام ، أذرح بفتح الهمزة وسكون الذال ، وضم الراء آخره حاء مهملة : بلد فى أطراف الشام من نواحى البلقاء مجاورة لأرض الحجاز ، وهى قريبة من الجرباء .

وكان يحنه بن رؤبة[1] صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود فأتى إلى رسول الله وصالحه وأعطاه الجزية . فأمنه وكتب له كتابا .

وأتاه أهل جرباء وأذرح وصالحوه أيضا وأعطوه الجزية . فأمنهم وكتب لهم كتابا .

وأهدى صاحب أيلة النبى ﷺ بغلة بيضاء . وكساه بردا وكتب له ببحرهم أى ببلدهم رواه البخارى .

( كتاب رسول الله ليحنة ) (بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر . لهم ذمة الله ، وذمة محمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر ) وأعطاهم النبى برده مع كتابه زيادة فى الأمان لهم .

( كتاب أهل جرباء وأذرح ) ( بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبى رسول الله لأهل جرباء ، وأذرح إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد . وإن عليهم مائة دينار فى كل رجب . ومائة أوقية طيبة . وأن الله عليهم كفيل بالنصح والاحسان إلى المسلمين . ومن لجأ إليهم من المسلمين )

( بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر ) وبهذه العهود أمن النبى هؤلاء ، وأمن مجىء الروم من ناحيتهم ولم يبق إلا أكيدر دومة[2] فيخشى انتقاضه أو معاونته لجيوش الروم إذا جاءت من ناحيته فأرسل إليه الرسول ﷺ خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس وأخبره بأنه سيجده يصطاد البقر ، فذهب إليه خالد فإذا أكيدر

---

(١) يحنه — بضم أوله وفتح الباقى ابن رؤبة — بضم الراء وسكون الهمزة وفتح الباء فى آخر تاء — ملك أيله كما فى القاموس.

(٢) دومه هى المعروفة بدومة الجندل بين المدينة ودمشق ، وأكيدر على صيغة المصغر هو ابن الملك الكندى ملكها .

وأخوه حسان فى نفر من أهل بيته يصطادون بقر الوحش ليلا فلم يجدوا مقاومة تذكر ، فقتلوا أخاه وأسروا أكيدرا ، وكان عليه قباء من ديباج ـ حرير ـ مخوص بالذهب[1] فاستلبه خالد منه وأرسل به إلى رسول الله قبل قدومه عليه فصار الصحابة يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه فقال الرسول لهم: ( أتعجبون من هذا ؟ فو الذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا ) ثم قدم خالد بأكيدر على رسول الله فحقن دمه وأمنه ، وصالحه على الجزية . ثم خلى سبيله وذكر بعض الكاتبين فى السيرة أنه أسلم[2] ، وقد اختلف الكاتبون فى تاريخ الصحابة فى إسلامه وعدمه، والراجح أنه لم يسلم[3] وقيل أنه أسلم ثم ارتد.

## « الأوبة الى المدينة »

وبعد أن أقام النبى بتبوك مدة استشار أصحابه فى مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام فقال الفاروق عمر أن كنت أمرت بالسير فسر ، فقال عليه الصلاة والسلام . « لو كنت أمرت بالسير لما استشرت » فقال عمر يارسول الله إن للروم جموعاً كثيرة ، وليس بالشام أحد من أهل الاسلام وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعنا فى هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمرا ، فاستجود النبى رأيه . واتبع مشورته بالرجوع إلى المدينة فعادوا حامدين شاكرين .

ونعما أشار به الفاروق فانه ربما يكون من المخاطرة الحرب فى بلاد الشام مع أن الجزيرة لم تكن أسلمت أو استسلمت كلها . وقد تم ذلك بعد تبوك . قدمت ثقيف مسلمة ومذعنة فى هذا العام وما بعده حتى صارت الجزيرة كلها على قلب رجل واحد ، وبذلك حصل التهيؤ للجهاد والفتوحات خارج الجزيرة وتبليغ الاسلام للناس كافة ، وهذا ما قام به الخلفاء الراشدون بعد وفاة الرسول .

---

(١) مزين بالذهب

(٢) حياة محمد ص ٤٤٤

(٣) الاصابة فى تاريخ الصحابة ج ١ ص ١٢٥ ١٢٨

(موت ذى البجادين)[1] وفى طريق الأوبة مات عبد الله ذو البجادين ، فحفروا له ونزل رسول الله فى حفرته . وأبو بكر وعمر يدليانه إليه. وإذا هو يقول : ( أدنيا لى أخاكما ) فدلياه فلما هيأه لشقه قال : ( اللهم إنى قد أمسيت راضيا عنه فارض عنه ) .

« مكيدة بعض المنافقين » كان بعض المنافقين فى الأوبة تأمروا على رسول الله أن يزحموه فى الطريق وهو على رأس عقبة ـ مكان عال — ولكن الله عصمه منهم روى البيهقى عن خذيفة بن اليمان قال : كنت آخذ بخطام ناقة رسول الله ، وعمار يسوق الناقة ، حتى إذا كنا بالعقبة إذا باثنى عشر رجلا قد اعترضوه فيها قال : فانبهت رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرخ فيهم ، فولوا مدبرين ، فقال رسول الله : « هل عرفتم القوم؟ » قلنا لا يارسول الله قد كانوا متلثمين ، قال : « هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا؟ » قلنا : لا قال : « أرادوا أن يزحموا رسول الله فى العقبة فيلقوه منها ! » قلنا : أولا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : « لا ، أكره أن يتحدث العرب أن محمدا قاتل بقومه حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم » ودعا عليهم ، وروى الإمام أحمد فى مسنده نحو ذلك وزاد : أن عمارا صار يضرب وجوه رواحلهم ينحيها عن رسول الله حتى قال : (قد قد) يعنى كفى ، كفى ، وهم الذين عناهم الله بقوله سبحانه ( وهموا بما لم ينالوا )[2] يعنى قتل الرسول .

## « هدم مسجد الضرار وتحريقه »

كان أبو عامر الراهب من حمل لواء العداوة لرسول الله من أول يوم قدم فيه المدينة . وقد دعاه رسول الله إلى الإسلام . وقرأ عليه القرآن فأبى

---

(١) البجاد بكسر الباء الجيم هو الكساء الغليظ المخطط ، كان يريد الاسلام فتعقدوه وضيقوا عليه حتى خرج من بينهم وليس عليه إلا بجاد فشقه باثنين ، فائتزر بواحد وارتدى بالآخر وقدم على رسول الله فيقوله : ذو البجادين لذلك

(٢) التوبة ص ٧٤ .

وقد كان يسمى الراهب لتنصره وترهبه فى الجاهلية فلما أبدى عدواته لله ورسوله قال النبى : « لا تقولوا : الراهب . بل قولوا : الفاسق » . وقد دعا عليه النبى أن يموت بعيدا طريدا فأصابته الدعوة ، وهو الذى ألب قريشاً على المسلمين فى أحد ، وحفر الحفائر فى ميدان المعركة كى يقع فيها المسلمون ولم يكف عن محاربة الرسول بعد أحد ، فلما رأى أمر الرسول فى ارتفاع وظهور ، ورأى النصر يتوالى عليه ولا سيما بعد حنين ، وهزيمة هوازن فر إلى هرقل ملك الروم يستنصر به ، فوعده ومناه وأقام عنده ، فكتب إلى جماعة من المنافقين بالمدينة يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم عليهم بجيش يقاتل به رسول الله ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لتبليغ كتبه ، ويكون مرصدا لهم إذا قدم عليهم بعد ذلك فشرعوا فى بناء هذا المسجد وكانوا اثنى عشر رجلا منهم : خذام بن خالد ومن داره أخرج مسجد الشقاق . وثعلبة بن حاطب[1] ومعتب بن قشير ، ونبتل بن الحارث ، ومجتمع بن جارية وهو الذى كان يصلى بهم فيه[2] فلما فرغوا من بنائه وأحكموه جاءوا إليه صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز لتبوك وسألوه أن يصلى لهم فيه ليحتجوا بصلاته فيه على تقديره واعتباره ، وذكروا للنبى أنه بنوه لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة ، والليلة الباردة فعصمه الله من الصلاة فيه وقال : « أنا على جناح سفر ولكن إذا رجعنا — أن شاء الله — أتيناكم فصلينا لكم فيه ، فلما رجع

---

(١) أو ابن أبى حاطب كان المنافقين وهو الذى روى أنه منع الزكاة لما اغتنى وترك الجمعة والجماعة فنزل فيه قوله تعالى « ومنهم من عاهد الله » الايات من سورة التوبة وهو غير ثعلبة بن حاطب الأنصارى من بنى أمية بن زيد وهو من أهل بدر وذكر ابن الكلبى أنه مات بأحد ، وقد نبه إلى ذلك الحافظ ابن حجر فى الإصابة ( ج ١ ص ١٩٨ ) وساق أدلة على ذلك ، وقد وهم ابن اسحاق حيث عد الثانى ممن بنى مسجد الضرار ووهم ابن عبد البر فى الاستيعاب حيث نسب إليه القصة السابقة.

(٢) سيرة ابن هشام ٢ ص ٥٣٠

النبي من تبوك . ولم يبق بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما أراد به بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فدعا رسول الله مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وقيل أخاه عامر ! وقال : « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه » فذهبا فحرقاه وهدماه وفى هذا نزل قول الله تعالى : « والذى اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصـــاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن أن أردنا إلا بالحسنى ، والله يشهد أنهم لكاذبون لاتقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى فى أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه رجال يحبـــون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين »[1]

ولايزال أعداء الاسلام من المنافقين الملحدين والمبشرين والمستعمرين يقيمون أماكن باسم العباده وماهى لها وإنما المراد بها الطعن فى الإسلام وتشكيك المسلمين فى معتقداتهم وآدابهم ، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدرس والتعليم ليتوصلوا بها إلى بث سمومهم بين أبناء المسلمين ، وصرفهم عن دينهم ، وكذلك يقيموت المنتديات باسم نشر الثقافة والغرض منها خلخلة العقيدة السليمة من القلوب ، والقيم الخلقية من النفوس ، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحة ، والخدمة الإنسانية والغرض منها التأثير على المرضى والضعفاء وصرفهم عن دينهم وقد اتخذوا من البيئات الجاهلة والفقيرة ولاسيما فى بلاد افريقيا ذريعة التوصل إلى أغراضهم الدنيئة التى لايقرها عقل ولاشرع ولاقانون ، وكل هذه أخطر بكثير من مسجد الضرار الذى حاربه الله ورسوله أشد المحاربة .

« الوصول إلى المدينة » ولما وصل النبى والمسلمون إلى المدينة تلقاهم النساء والصبيان والولائد من ثنية الوداع وهن ينشدن الأناشيد ، ويرحبن بالرسول الكريم ، وأصحابه الغر الميامين ، والجيش المظفر المنصور .

« طـــوائف المتخلفين » كان المتخلفون فى غزوة تبوك أربعة أصناف

---

(١) التوبة / ١٠٧ ، ١٠٨

(١) مأمورون مأجورون كعلى بن أبى طالب ، ومحمد بن مسلمة

(٢) ومعذورون وهم الضعفاء والمرضى والمقلون الذين لا يجدون ما ينفقون، ولا يجد الرسول ما يحملهم عليه كالبكائين وأمثالهم .

(٣) وعصاة مذنبون وهم الثلاثة الذين خلفوا ، وأبو لبابة وأصحابه الذين ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد حتى يتوب الله عليهم .

(٤) وآخرون ملومون مذمومون يظهرون خلاف ما يبطنون وهم المنافقون[١] .

« المنافقون » أما المنافقون فقد جاءوا إلى رسول الله يعتذرون عن تخلفهم، ويحلفون الأيمان الكاذبة ، وينتحلون المعاذير فاعرض عنهم النبى وترك حسابهم لله سبحانه وتعالى وفى هؤلاء نزل قول الله تعالى « يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم إلى قوله: (والله سميع عليم)[٢] وقوله : ( وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق .. ) الآية[٣] إلى غير ذلك من الآيات المتكاثرة التى كشفت عن المنافقين وأساليبهم فى سورة التوبة .

« أبو لبابة وأصحابه » وهم قوم تخلفوا كسلا وميلا إلى الراحة لا شكا ولا نفاقا وكانوا سبعة وقيل عشرة، فقد أوثقوا أنفسهم فى سوارى المسجد[٤] تعبيرا عن بالغ ندمهم فمر بهم رسول الله ﷺ فقال : ( من هؤلاء ) ؟ قالوا : أبو لبابة وأصحابه ، تخلفوا عنك وعاهدوا الله عز وجل أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت تطلقهم وترضى عنهم ، فقال : ( وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله عز وجل هو الذى يطلقهم رغبوا عنى ، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ) فلما أن بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى

---

(١) البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٧

(٢) التوبة ٩٤–٩٨ (٣) التوبة ١٠١ (٤) هى الأعمدة

يكون الله هو الذى يطلقنا ، فأنزل الله سبحانه قوله : ( وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً ، وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم أن الله غفور رحيم ) فأرسل إليهم رسول الله فاطلقهم وعذرهم فجاءوا باموالهم ، وقالوا : يارسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا ، وكان هذا شأن الصحابة — رضى الله عنهم — إذا تاب الله عليهم من ذنب قدموا أموالهم شكراً لله فقال : « ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا » فأنزل الله سبحانه قوله : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها .. » إلى قوله تعالى : ( فينبئكم بما كنتم تعلمون )[1] فاخذ رسول الله ثلث أموالهم وترك لهم الباقى .

« الثلاثة الذين خلفوا ، وهم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة ابن الربيع لم يبالغوا فى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه فلذلك نزلت توبة هؤلاء وتأخرت توبة كعب وصاحبيه خمسين ليلة وهم المرادون بقوله سبحانه : « وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب الله عليهم والله عليم حكيم »[2] وإليك خلاصة قصة هؤلاء الثلاثة وسأحرص على إيراد لفظها لأنها قطعة من الأدب النفسى والقولى .

روى البخارى ومسلم وغيرهما — واللفظ للبخارى — [3] عن كعب قال : « لم أتخلف عن رسول الله فى غزوة غزاها إلا فى غزاة تبوك غير إنى كنت تخلفت فى غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وانما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد .. حتى كانت تلك الغزوة التى غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفاوزو عدداً كثيراً .. والمسلمون مع رسول الله كثير لايجمعهم كتاب حافظ — يريد الديوان — ... فتجهز إليها رسول الله فطفقت أغدو لكى أتجهز

---

(١) سورة التوبة ١٠٢ — ١٠٥

(٢) التوبة /١٠٦

(٣) صحيح البخارى — كتاب المغازى — حديث كعب مالك

معهم فأرجع ولم أقض من جهازى شيئا . . فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله والمسلمون معـــه ولم أقض من جهازى شيئا فقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغـدوت بعد أن فصلوا — خرجوا — ولم أقض شيئا . . فلم يزل أبى حـتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم — وليتنى فعلت — فلم يقدر لى ذلك ، فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموسا(١) عليه النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال : « ما فعل كعب » ؟ فقال رجل من بنى سلمة . يا رسول الله حبسه برداه ونظره فى عطفه(٢) ، فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت والله يارسول الله ماعلمنا عليه إلا خيرا ، قال كعب : فلما قيل إن رسـول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لن أخرج منه أبداً بشىء فيه كذب فأجمعت صدقة ، فأصبح رسول الله ﷺ قادما ، فكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجـلا ، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله عز وجل ؛ فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم الغضب ثم قال : « تعال » فجئت أمشى حـــتى جلست بين يديه فقال لى : ماخلفك ، ألم تكن قد ابتعت ظهراً ، ؟ فقلت بلى والله لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديثا تجد على فيه أنى لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لى من عـذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حـين تخلفت عنك فقال رسول الله ﷺ « أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك » . . ثم قلت :

---

(١) مطعونا عليه (٢) العطف : الجانب والمراد إعجابه بنفسه

هل لقى هذا أحد ؟ قالوا نعم رجلان قالا مثل ماقلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت من هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى . . . ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض ، فما هى التى أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فقد استكانا وقعدا فى بيوتهما : وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين . وأطوف فى الأسواق ولايكلمنى أحد . وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم اصلى قريباً منه ، فاسارقه النظر [1] ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى . وإذا التفت نحوه أعرض حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت [2] جدار حائط ـ بستان ـ أبى قتادة ـ وهو ابن عمى وأحب الناس ـ فسلمت عليه ، فوالله مارد السلام ، فقلت يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى قال : وبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط [3] أهل الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى اذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك غسان ، فإذا فيه ( أما بعد فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولامضيعة ، فالحق بنا نواسك ) فقلت : وهذا أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور — الفرن — فسجرته بها فاقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى فقال : رسول الله يأمرك أن تعتزل أمرأتك ، فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولاتقربها ، وأرسل الى صاحبى بمثل ذلك ، فقلت لامرأتى : ألحقى باهلك

---

( ١ ) أطر إليه خلسة ( ٢ ) علا عليه ودخل

( ٣ ) جيل من الناس يسكنون سواد العراق

فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ، قال كعب : فجاءت أمرأة هلال ابن أمية إلى رسول الله فقالت : يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال : « لا ، ولكن لايقربك » فقالت : إنه والله مابه حركة إلى شىء ، والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومنا . . . قال فلبثت بعد ذلك عشر ليال وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله عز وجل قد ضاقت على نفسى ، وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع[1] يقول بأعلى صوت . يا كعب أبشر ، فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج ، وآذن رسول الله بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبى مبشرون وركض رجل إلى فرسا ، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىّ فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقانى الناس فوجا فوجا يهنئونى بالتوبة يقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنانى والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة ، فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال — وهو يبرق وجهه من السرور — « : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » قلت : يارسول الله إن من توبتى أن انخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله فقال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير » قلت : فانى أمسك سهمى الذى بخيبر ، وقلت : يارسول الله إنما نجانى الله بالصدق وإن من توبتى ألا أتحدث إلا صدقاً مابقيت فو الله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك

---

(١) بفتح السين وسكون اللام

لرسول الله أحسن مما أبلاني ، ماتعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا كذباً ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : «لقد تاب الله على النبى والمهاجرين» إلى قوله: «وكونوا مع الصادقين»[1] .

«وقفات عند هذه القصة» وإن لنا فى هذه القصة لعبراً وعظات وآيات بينات ، تدل على فضل الصحابة وما وصلوا اليه من سمو فى الدين والأخلاق ، وتقدير للمعانى الروحية والقيم الأدبية ، منها .

(١) صدق الإيمان وقوة اليقين وحضور القلب وكيف يسمو الإيمان بصاحبه حتى يرى السعادة الحقة الكاملة فى رضوان الله ورسوله ، والشقاوة كل الشقاوة فى غضبهما وإنا لنلمس هذا فى قول كعب : حتى تنكرت لى الأرض فما هى بالتى أعرف ، وفى بعض الروايات : تنكرت لنا الحيطان وتنكر لنا الناس حتى ما هم الذى نعرف ، وهذا المعنى يجده الحزين والمهموم فى كل شىء حتى قد يجده فى نفسه فينكرها ، بل نلمس هـذا المعنى بصورة أكبر فى قول الله عنهم : (وضاقت عليهم أنفسهم) والإنسان قد تضيق به الأرض من سوء من يجاوره أو لعدم وجوه من يشاكله ، ومع هذا فيكون فى اطمئنان من قلبه ، ورضى من نفسه ، ورحابة من صدره ، ولكن أضيق الضيق أن الضيق بالإنسان نفسه وحينئذ تصير الحياة مهما أحيطت بمظاهر النعيم جحيما لايطاق ، ويكون الموت خيرا من الحياة ، وهذا يدل على مبلغ ما كان يتمتع به هؤلاء الثلاثة من قلوب متيقظة ونفوس شفافة وضمائر حية.

(٢) إن المقاطعة والهجر كان نوعاً من أنواع التأديب والزجر فى صدر الإسلام ، وقد أثمر هذا اللون من التأديب ثمرته ووصل بهم إلى هذه الخاتمة السعيدة الموفقة ، وإن أضر شىء على أى مجتمع أن يجد فيه أهل الفسق

---

(١) التوبة ١١٨ — ١١٩

والفجور وأهل الظلم والابتداع ، وأهل الاستهتار بالقيم الدينية والخلقية صدورا رحبة ، ونفوساً ترضى عن فعلهم ، بل وتحتضنهم ، ولو أن العصاة والمذنبين والمنحرفين عن الصراط المستقيم وجدوا من المجتمعات التى يعيشون فيها نبذا لهم ومقاطعة وازدراء لكان هذا من أقوى العوامل الدافعة إلى أن يرشد الغاوى، ويستقيم المعوج ، ويصلح الطالح .

(٣) إن المتأمل فى القصة يعجب كيف أن الصحابة نفذوا ما أمر به الرسول من المقاطعة حتى ولو كانوا فى غيبة عن أعين الرقباء ، فهذا كعب ينشد ابن عمه كلمة عسى أن يجد فيها ما يخفف ما به من حزن وأسى ، ولكنه يأبى عليه هذه الكلمة ويكل علم ذلك إلى الله ورسوله ، وهذه غاية ما يطمع فيه مجتمع من أمانة ومراقبة لله .

(٤) فى أثناء المحنة تعرض كعب لمحنة أخرى كانت أقسى وأشد من الأولى فهذا هو ملك غسان يكتب له كتاباً وهو فى أشد أوقات المقاطعه وضيق النفس يفسح له من صدره ، ويفتح له باب الأمانى الحلوة، والجاه العريض، ويستغل ما كانت عليه حالته النفسية فيقول له : قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولامضيعة فالحق بنا نواسك ! ! لو أن كعب ـ رضى الله عنه ـ كان رقيق الإيمان ، ضعيف النفس والخلق لوجد فى هذه الفرصة السانحة المغرية ما يرغم به أنوف مقاطعيه ونابذيه ، ولكن أدرك بادىء ذى بدء أنها محنة أخرى أقسى من الأولى فلا يرضيه أن يجيب الرجل بالسلب ، أو يرمى بالكتاب ويمزقه، ولكنه رمى به فى التنور ليصير رمادا . ويصير كل ما به دخانا يتبدد فى الهواء ، وخرج الرجل من محنته وهو أقوى ما يكون إيمانا ، وأصفى ما يكون روحاً وأكرم ما يكون أخلاقاً ، فيالعظمة هذه النفوس المؤمنة الكبيرة ! !

(٥) هذه القصة توحى بما كان يتمتع به المجتمع الإسلامى آنئذ من تقدير للقيم الدينية والخلقية ، فغاية ما يطمع فيه الفرد أن يكون على كمال فى دينه ومن أجل النعم عندهم نعمة التوبة أنها الجديرة بان يهنأ بها المسلم وإنا لنلمس هذا

المعنى فى قول الرسول لكعب : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » وخلع كعب ثوبيه الوحيدين لمن بشره بالتوبة ومجىء المسلمين أفواجاً لتهنئة كعب وصاحبيه ، وعدم نسيان كعب لطلحه بن عبد الله مصافحته وتهنئته له .

( ٦ ) إن من أدب الصحابة — وهم خير من يمثل الإسلام — أن من شكر الله على نعمائه أن يخرج شيئاً من ماله صدقة على الفقراء والمساكين والمحتاجين براً بهم ومواساة لهم ، ترى لو أن كل من حصلت له نعمة دينيه أو دنيويه جعل شيئاً من ماله لله فهل كنت تجد بائساً أو محروماً ، أو جائعاً أو عارياً ؟ فلا تعجب وقد كون الصحابة هذا المجتمع المثالى فى عقيدته ، وسلوكه ، وأخلاقه أن خاطبهم الله سبحانه هذا الخطاب الشريف : ( كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله )[1] ( وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً[2]

( تبوك خاتمة الغزوات ) وبغزوة تبوك تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة العربية كلها ، وأمن النبى صلى الله عليه وسلم الحدود الشمالية ، وأمن من كل عادية عليها ، وأقبل سائر العرب وفوداً يقدمون الطاعة ، ويعلنون لله الإسلام وقد كانت هذه الغزوة خاتمة غزوات النبى ﷺ وصدق وعد الله تعالى : « ( هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »[3].

## « تفسير ما نزل من الآيات فى تبوك »

لقد أنزل الله سبحانه فى تبوك آيات كثيرة وإليها تفسيرها موجزاً :

قال عز شأنه : « يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل

---

(١) آل عمران / ١١٠ (٢) البقرة / ١٤٣

(٣) سورة التوبة الآية ٣٣

الله إثاقلتم إلى الأرض » نزلت فى الحث على غـزوة تبـوك ، وكانت فى زمان عسرة من الناس ، وشدة من الحرحين طابت الثمار والظلال فكان لا بد من الترغيب فى الخروج ، والتنفير من القعود « إثاقلتم » أصلها تثاقلتم أدغمت التاء فى الثاء فصارت ساكنة فأتى بهمزة الوصـل أى تكاسلتم وملتم إلى المقام فى الدعة وطيب الثمار « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » أفعلتم هذا رضاء للدنيا بدل الآخرة ، ثم زهـد فى متـاع الدنيا ورغب فى الآخرة فقال : « فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » ثم أوعدهم على ترك الجهاد فقال : « إلا تنفروا » هى إن الشرطية المدغمـة فى « لا » النافية « يعذبكم عذاباً أليماً « جواب الشرط يعنى فى الآخرة ، أو فيها وفى الدنيا كمنع المطر عنهم ( ويستبدل قوماً غيركم ) خيراً منكم وأطوع (ولا تضروه شيئاً ) بتركـكم النفير ( والله على كل شىء قدير ) فهو ينصر نبيه بدونكم .

ثم بين الله أن نصرة نبيه ليست متوقفة عليكم ، وإلا فقد نصره الله على أعدائه لما خرج مهاجراً ليس معه إلا صاحبه الصديق ولا أعوان معه ولاسلاح وقد أيده بجنود لم تروها وهم الملائكة ، فأنجاه الله منهم وهم مسلحون وهو على قيد أزدع منهم فقال : ( إلا تنصروه فقد نصره الله ) إلى قوله ( والله عزيز حكيم ) وهو من الاستطرادات اللطيفة البديعة.

ثم عاد إلى الحث على غزوة تبوك فقـال : ( انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ) قيل إنهـا أول ما نزل من سورة براءة ، وهو قول سـديد يتفق وما روى أن صدر السورة نزل قبيل خروج أبى بكر أميراً على الحج سنة تسع أو بعد خروجه بقليـل وتبوك قبـل حجة الصديق قطعاً ومعناها : شباباً وشيباً ، وأغنياء وفقراء ، وأقوياء وضعفاء ، ومشاه وركبـاناً ، فى العسر واليسر ، والمنشـط والمكره ، ثم من العلماء من

يرى أن ذلك كان فى أول الأمر بسبب ما لابس تبوك من ظروف ، ثم نسخ بآية ( ليس على الضعفاء ولا على المرضى ..... ) وآية ( فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ) ومنهم من يرى أنها محكمة . وكان بعض السلف الصالح على هذا ويخرج للجهاد على أى حال(١) منهم أبو أيوب الأنصارى ، وعمرو بن الجموح والمقداد بن عمرو من الصحابة ومن التابعين سعيد بن المسيب كما قدمنا .

( ذلكم ) أى الجهاد بالنفس والمال ( خير لكم ) فى الدنيا لما فيه من العزة والظهور على الأعداء والآخرة لأن الله ضمن للمجاهدين فى سبيل الله الجنة ثم وبخ الله المتخلفين فى تبوك فقال : لو كان عرضا قريباً ) أى غنيمة قريبة المتناول ( وسفراً قاصدا ) قريبا هينا ( لاتبعوك ) لخرجوا معك ( ولكن بعدت عليهم الشقة ) المسافة ( وسيحلفون بالله ) لكم إذا رجعتم إليهم قائلين ( لو استطعنا ) الخروج (لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم ...) . بالتخلف عن غير عذر والايمان الكاذبة .

كان جماعة استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخلفوا عنه فأذن لهم وكان الأولى أن لا يأذن لهم لأنهم لا أعذار لهم ، فعاتبه الله على هذا ، وهذا من ألطف أنواع الملام ، حيث قدم العفو على العتاب ، وهو يدل على غاية إكرام الله لخاتم أنبيائه ، وحفاوته به فقال : ( عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين ) .

ثم بين الله أنه لا يستأذنه المؤمنون المخلصون فى التخلف عن الجهاد وإنما ذلك شأن المنافقين فقال : ( لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم ) شكت ونافقت (فهم فى ريبهم يترددون ) يتحيرون لا يثبتون على حال.

ثم هون الله الأمر على نبيه فى شأن المتخلفين ، وأنهم لم يكونوا جادين

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٤ ص ١٧٩

فى اعتذارهم ، وأن الخير فى عدم خروجهم فقال : ( ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ) من سلاح وكراع[1] ( ولكن كره الله انبعاثهم ) خروجهم معكم مع أمرهم به شرعا (فثبطهم) بعد التوفيق ( وقيل اقعدوا مع القاعدين ) المرضى والزمنى والنساء والصبيان ، أى قال بعضهم لبعضهم ذلك ، ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال : لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ) أى فسادا وشرا ( ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ) الإيضاع الإسراع أى لأسرعوا بالسعى فيما بينكم بالفتنة والبغضاء والنميمة ( وفيكم سماعون لهم ) : أى مستجيبون لأحاديثهم ووسوستهم ، ثم بين الله سبحانه أنهم طالما فكروا فى كيدك وخذلان دينك ، وتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم كما فعل ابن أبى فى أحد ، ولكن الله رد كيدهم فى نحرهم ، ونصرك وأظهر دينك فقال ( لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق ) النصر ( وظهر أمر الله ) دينه على كره منهم قال تعالى : ( ومنهم من يقول ائذن لى ولاتفتنى ) نزلت فى الجد بن قيس كما قدمنا ثم بين الله تأصل عداوة هؤلاء المنافقين فقال ( إن تصبك حسنة ) نصر أو غنيمة ( تسؤهم ) تحزنهم ( وإن تصبك مصيبة ) من قتل أو هزيمة ( يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ) أى حذرنا بالقعود عن الغزو ( ويتولوا وهم فرحون ) بما نالكم من مصيبة ( قل ) لهم يامحمد ( لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ) هو تعز بالقضاء بعد نزول البلاء ولن يخفف عن الإنسان ألم المصيبة إلا الإيمان بالقدر خيره وشره ، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ( هو مولانا ) ناصرنا وحافظنا ( وعلى الله فليتوكل المؤمنون ) ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل ( قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ) إما النصر والغنيمة أو الشهادة والمغفرة ( ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ) فيهلككم كما أهلك الأمم الخالية ( أو بأيدينا ) بالقتل أو السبى ( فتربصوا ) ماوعدكم به الشيطان ( إنا معكم

---

(١) الكراع بضم الكاف جماعة الخيل .

متربصون ) ماوعدنا الله به ( قل أنفقوا طوعاً أو كرها ) أى طائعين او مكرهين قيل نزلت فى الجد بن قيس حين اعتذر وقال : أعينكم بمالى ( لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ) عاصين لله ورسوله ، وبعد أن ذكر الله سبحانه أصنافاً من المنافقين ومقالاتهم ونيلهم من النبى والمسلمين رجع إلى أخبار تبوك فقال ( فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ) أى مخالفين له أو متخلفين بعده ) وقالوا لاتنفروا فى الحر ) أى قال بعضهم لبعض ذلك ( قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا ) فى الدنيا ( وليبكوا كثيراً ) فى الآخرة ( جزاء بما كانوا يكسبون ) من النفاق ( فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ) أى ردك والمراد بالطائفة الذين تخلفوا نفاقاً ( فأستأذنوك للخروج ) معك فى غزوة أخرى ( فقل لن تخرجوا معى أبدا فى سفر ( ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ) يعنى فى غزوة تبوك ( فاقعدوا مع الخالفين ) الرجال الذين تخلفوا بغير عذر ( ولا تصل على أحد منهم مات أبدا . . . ) نزلت بسبب صلاة النبى على ابن أبى المنافق كما سيأتى وحكمها عام فى كل من عرف نفاقه .

قال تعالى : ( وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ) المعذرون : قرىء بالتشديد من عذر فى الأمر إذا قصر فيه وحقيقته أن يوهم أن له عذراً فيم فعل ولاعذر له ، أو أصله المعتذرون أدغمت التاء فى الذال ونقلت حركتها إلى العين ، وهم الذين يعتذرون بالباطل وهم جماعة من الأعراب جاءوا يعتذرون ولاعذرلهم ، وقرأ يعقوب ومجاهد : المعذرون بالتخفيف ، وهم المبالغون فى العذر يقال فى المثل « لقد أعذر من أنذر » قال ابن اسحاق إنهم نفر من بنى غفار ( وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ) يعنى المنافقين قال عمرو بن العلاء : كلا الفريقين كان سيئاً ، قوم تكلفوا عذراً بالباطل وقوم تخلفوا من غير تكلف عذر فقعدوا جرأة على الله تعالى فأوعدهم الله بقوله ( سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ) ثم بين الله تعالى الأعذار

التى لاحرج على من قعد عن القتال بسببها ، سواء ما كان منها لازماً لاينفك عن صاحبه ، أو عارضاً فقال : « ليس على الضعفاء ، ولاعلى المرضى ولاعلى الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ماعلى المحسنين من سبيل ) طريق بالعقوبة والمؤاخذة ( والله غفور رحيم ) بهم ( ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ) لتوفر لهم الظهر والنفقة ( قلت لاأجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لايجدوا ماينفقون ) وهم البكاءون كما اسلفنا وفى الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : وهو راجع من تبوك ( إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولاسرتم مسيراً إلا وهم معكم ) قالوا وهم بالمدينة ؟ قال : ( نعم حبسهم العذر ) ( إنما السبيل ) الحجة بالعقوبة ( وعلى الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ) النساء جمع خالفه ( وطبع الله على قلوبهم ) بسوء إختيارهم « فهم لايعلمون ، النافع من الضار .

ثم أعلم الله نبيه بأنه عند رجوعه إلى المدينة سيأتى المنافقون المتخلفون يعتذرون وأوصاه بأن لايصدقهم فقال : ( يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم ) لن نصدقكم ( قد نبأنا من اخباركم ) فيما سلف ( وسيرى الله عملكم ورسوله ) فيم يستقبل أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ( ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ) من خير أو شر ويجازيكم عليهما ( سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم ) أخبار بانهم سيشفعون اعتذارهم بالأيمان الكاذبة (لتعرضوا عنهم ) لتصفحوا عنهم ولاتؤنبوهم ( فاعرضوا عنهم ) احتقارا لهم ( إنهم رجس ) نجس بواطنهم واعتقاداتهم ( ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ) يجترحون من السيآت ، ثم بين سبحانه إلحاحهم فى الحلف فقال : (يحلفون لكم لترضوا عنهم ) فلا تركنوا إليهم ( فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم

الفاسقين ) أى إن فرض أنكم رضيتم عنهم فلن يرضى الله عنهم لأنهم فاسقون خارجون عن طاعة الله ورسوله .

ثم بين الله طوائف الأعراب أى أهل البدو ، وأن منهم كفارا ، ومنافقين ومؤمنين ، وأنهم اعرق فى الكفر ، والنفاق من غيرهم فقال : الأعراب أشد كفراً ونفاقا ) من أهل الحضر لغلظ قلوبهم ، وبعدهم عن مراكز العلم والاستنارة وهى المدن ( وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ) أجدر : أحرى لبعدهم عن سماع القرآن ، ومعرفة السنن وهما أصل الدين والفقه والعلم ( والله عليم حكيم ) عليم بقلوب خلقه حكيم فيما شرعه من شرائع .

ثم ذكر صنفاً آخر من الأعراب فقال ( ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ) المغرم التزام ما لا يلزم فهم لا يرجون على الإنفاق ثواباً ولا يخافون على إمساكه عقاباً ، إنما ينفقون خوفا ورياء ( ويتربص بكم الدوائر ) الحوادث والشرور والآفات ( عليهم دائرة السوء ) قرىء بفتح السين وضمها أى سينزل به البلاء والشرور ما يترقبونه للمؤمنين ( والله سميع عليم ) سميع لدعاء عباده عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان ثم ذكر الصنف الفاضل المؤمن الخير فقال : ( ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله ) طاعات تقربهم من الله (وصلوات الرسول ) أى دعائه واستغفاره لهم ( ألا إنها قربة لهم ) حقا وواقعا ( سيدخلهم الله فى رحمته ) جنته ( إن الله غفور رحيم ) ثم استطرد سبحانه إلى ذكر خيار المؤمنين فقال : ( والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . . . ) الآية .

ثم بين الله أن فى الأعراب منافقين ، وفى أهل المدينة منافقين فقال ( وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ) أى مرنوا عليه ( لا تعلمهم ) يا محمد يقينا وإنما تعلمهم بعلاماتهم وأماراتهم فهو

لا ينافى قوله سبحانه فى سورة ( محمد ) ( ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول )[1] أو معناه لا تعلمهم جميعا وهو لا ينافى أنه كان يعلم بعضهم ، وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم أسر إلى حذيفة بأسماء بعضهم ( نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ) اختلف فى تفسير المرتين على أقوال عدة ، فقيل الفضيحة فى الدنيا وعذاب القبر ، وقيل المصائب فى الأموال والأولاد وقيل بافتضاح أمرهم ، وبما كان يداخلهم من والغم والحزن عند ظهور الإسلام والذى يترجح عندى أن المراد به التكثير لا التحديد فهو مثل قوله سبحانه ( فارجع البصر كرتين ) ويكون المراد ما ينزل بهم فى الدنيا من بلاء ومصائب وافتضاح ، وما كان يحز فى نفوسهم كلما حصل للمسلمين نصر وظهور وللإسلام انتشار ( ثم يردون إلى عذاب عظيم ) عذاب جهنم خالدين فيها أبدا.

قال تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » . الآية هم أبو لبابة وأصحابه وقد قدمنا قصتهم ( خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ) بها من ذنب تخلفهم بغير عذر كسلا وتهاونا لا نفاقا ولا شكا ( وتزكيهم بها ) من شبهة النفاق إلى منازل الخلصين ، والضمير فى ( أموالهم ) قيل للمذكورين فى الآية السابقة فأنهم لما تاب الله عليهم عرضوا على النبى ان يتصدقوا بأموالهم ، فأخذ منهم الثلث وترك الباقى وعلى هذا يكون المراد بالصدقة صدقة النفل ، كفارة لذنوبهم ومن العلماء من يجعل الآية مستقلة عما قبلها وأنها تشريع عام لجميع الناس فقالوا . إن المراد صدقة الفرض وهى الزكاة « وصل عليهم » ادع لهم واستغفر لهم « إن صلاتك سكن لهم » طمأنينة لهم أن الله قد قبل منهم توبتهم على الأول ، وزكاتهم على الثانى وكان من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه رجل بصدقة قوم دعا لهم أو

---

(١) فحواه ومعناه الذى يفهم منه نفاقهم ، وذلك بما يبدو منهم رغما عنهم ويظهر فلتات لسانهم ، وعلى قسمات وجوههم ورضى الله عن ذى النورين عثمان حيث قال : ( ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه ) .

بصدقته دعا له وهل هذا الدعاء واجب ، أو مستحب ، وفى صدقة الفرض أم فى صدقة التطوع أم فيهما معا ؟ خلاف بين العلماء[١] « ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة عن عباده ، ويأخذ الصدقات » هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحو السيآت ( وأن الله هو التواب الرحيم ) ومن شأن التواب أنه يقبل توبة من تاب إليه بشروطها ( وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ) حث للتائبين أن يتداركوا ما فاتهم من الغزو ويعملوا صالحا فيما يستقبلون من أمرهم « وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون » وعد للطائعين ووعيد للمخالفين بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى يوم القيامة فيجازيهم عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر ( وآخرون موجون لأمر الله ) هم الثلاثة الذين خلفوا فقد قبل الله توبة أبى لبابة وأصحابه وأرجأ توبة هؤلاء الثلاثة حتى تاب عليهم ( إما يعذبهم وأما يتوب عليهم ) أى هم تحت عفو الله ، إن شاء عفا عنهم وإن شاء عذبهم ولكن رحمته تسبق غضبه ( والله عليم حكيم ) عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو ، حكيم فى أفعاله وأقواله ، منزه عن العبث والهوى ، ثم أنزل الله التوبة عليهم فى قوله سبحانه : ( لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ) أى وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها ، « ويزيغ » يميل ولم يرد الميل عن الدين بل أراد الميل إلى التخلف والانصراف عن السير للشدة التى نزلت بهم ( ثم تاب عليهم ) توكيد للأولى ( إنه بهم رؤف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا ) إلى قوله : ( وكونوا مع الصادقين ) أى وتاب عن الثلاثة . . وقد ذكرنا قصتهم سابقا مستوفاة ومعنى خلفوا أى أرجىء قبول توبتهم عن توبة أبى لبابة وأصحابه ، وقيل تخلفوا عن غزوة تبوك ، ومعنى ( ثم تاب عليهم

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٤ ص ٢٣٥

ليتوبوا ) أى ليستقيموا على التوبة ويستمروا عليها .

قال تعالى : ( ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ) هذا عتاب من الله للمتخلفين عن رسول الله فى غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من احياء العرب ومعنى « ما كان » ماصح وماينبغى ( ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ) أى ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن أن يصيبهم من الشدائد ما نزل به فيختاروا الراحة والدعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشقة السفر ومعاناة التعب ، فأنهم حرموا أنفسهم من الأجر ( ذلك بأنهم لايصيبهم ) فى سفرهم ( ظمأ ) عطش ( ولانصب ) تعب ( ولا مخمصة ) مجاعة ( فى سبيل الله ولايطؤن موطئاً ) أما مصدر أواسم مكان ( يغيظ الكفار ) وطؤهم إياه ، ونزولهم به ( ولاينالون من عدو نيلا ) قتلا أو أسراً ، أو غنيمة أو هزيمة إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لايضيع أجر المحسنين ) أى كتب لهم بهذه الأعمال التى ليست داخلة تحت قدرهم ، وإنما هى ناشئة عن أفعالهم ـ أعمالا صالحة وثواباً جزيلا، فهوسبحانه لايضيع عنده شىء مهما قل ( ولاينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ) قليلة أو كثيرة ( ولا يقطعون واديا ) فى السير إلى الأعداء ( إلا كتب لهم ) ثواب ما قدموه من نفقة أو قطع واد ( ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ) أى أحسن جزاء أعمالهم .

وأما ما يتعلق بمسجد الضرار من الآيات فقد ذكرناه فيما سبق ، وأما ما يتعلق بالمسجد الذى أسس على التقوى فقد ذكرناه فى أول هذا الكتاب أثناء الكلام عن مسجد قباء ، والحمد لله الذى هدانا لهذا .

## ( قدوم ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم )

وكان قدومهم على النبى صلى الله عليه وسلم فى رمضان بعد رجوعه من تبوك ، وكان من خبرهم بعد أن فك حصارهم ورجع عنهم أن اتبعه أحد

أشرافهم عروة بن مسعود الثقفى حتى أدركه قبل أن يصل المدينة فأسلم وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فقال له : ( إنهم قاتلوك ) فقال عروة — وكان فيهم محببا مطاعا — : يارسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم ، فلما عاد من الطائف أشرف على علية له ودعاهم إلى الإسلام ، فرموه بالنبل من كل وجه ، فاصابه سهم فقتله ، فقيل له — وهو يحتضر — : ما ترى فى دينك ؟ فقال . كرامة اكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلى ، فليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم ، فدفنوه ، فقال فيه رسول الله : ( إن مثله فى قومه كمثل صاحب ياسين فى قومه )[1] ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا ، وائتمروا فيما بينهم ، فرأوا أن لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا ، فأجمعوا أمرهم أن يرسلوا رجالا منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلوا عبد ياليل ومعه خمسة من أشرافهم منهم عثمان بن أبى العاص ، وكان أصغرهم ، فلما وافوا المدينة وجدوا المغيرة بن شعبة فلما رآهم ذهب يشتد إلى رسول الله يبشره بقدومهم ، فلقيه الصديق فأخبره عنهم وأنهم قدموا يريدون البيعة والإسلام إن شرط لهم شروطا ، ويكتبوا لهم كتابا ، فأقسم عليه الصديق أن لا يسبقه حتى يبشر هو الرسول بمقدمهم ، فقبل ودخل الصديق على رسول الله فبشره ثم خرج إليهم المغيرة فعلمهم كيف يحيون رسول الله ، فلما قدموا على الرسول حيوه بتحية الجاهلية ، وضربت لهم قبة بالمسجد النبوى ليكون ذلك أدعى إلى دخولهم فى الإسلام ، والتأدب بآدابه ، وكان خالد بن سعيد بن العاص

---

(١) قال السهيلى : يحتمل أن يريد به المذكور فى سورة ياسين الذى قال لقومه : اتبعوا المرسلين ! فقتله قومه ! واسمه حبيب بن مرى ويحتمل أن يريد صاحب إلياس وهو اليسع ! فان الياس يقال فى إسمه ياسين أيضا وفيه قال الله تعالى : « سلام على آل ياسين » الروض الأنف ج٢ ص ٣٢٥

هو الذى يسعى بينهم وبين الرســـول ، وهو الذى كتب لهم كتابهم وكان فيما اشترطوا على رسول الله أن يدع له الطاغية[١] ثلاث سنين فأبى ، فسألوه سنة فأبى ، فسألوه شهرا بعد مقدمهم ليتألفوا سفهاءهم فأبى عليهم أن يدعها شيئا ما ، وهكذا الأنبياء لا يفرطون فى التوحيد قيد شعرة ، وسألوه أيضا أن لا يصلوا ، ولا يكسروا أصنامهم بأيديهم فقال : ( أما كسر أصنامكم بأيدكم فسنعفيكم من ذلك ، وأما الصلاة فلا خير فى دين لا صلاة فيه ) واشترطوا على رسول الله مع ذلك أن لا يحشروا ، ولا يعشروا ولا يجبوا[٢] ، ولا يستعمل عليهم غيرهم ، فأعطاهم ذلك رواه أحمـــد ، ثم قال ( سيتصدقون ، ويجاهدون إذا أسلموا ) يعنى أنهم سيقبلون الجهاد ، ويخرجون الزكاة إذا انشرحت صدورهم للاسلام ، وهذا ما كان ، ثم سألوه عن الزنا والربا ، والخمر فحرم عليهم كل ذلك[٣] فلما أسلموا صاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بقى من شهر رمضان وكان رسول الله يأتيهم كل ليلة ، فيعظهم ويفقههم وهو قائم فأبطأ عليهم ذات ليلة فسألوه ، فقال : « طرأ على حزبى فكرهت أن أجىء حتى أتمه » فسألوا الصحابة كيف تحزبون القرآن ، فقالوا : ( ثلاث وخمس وسبع وتسع ، وإحدى عشرة سورة ، وحزب المفصل وحده ) رواه أبو داود ثم أمر عليهم بمشورة الصديق عثمان بن أبى العاص ، لحرصه على القرآن والنفقة فى الإسلام ، وكان مما أوصاه به أنه قال « من أم قوماً فليخفف ، فإن فيهم الضعيف والكبير ، وذا الحاجة فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء » رواه أحمد ومسلم وفى سنن ابن ماجه أن النبى بين له أن يقرأ بسورة ( اقرأ باسم ربك ) وأشباهها من

---

(١) ضم ثقيف وهى الثلاث

(٢) أن لايحشروا : لايندبون إلى المغازى ، ولاتضرب عليهم البعوث ، ولايعشروا ، ولايجبوا أى لاتؤخذ منهم صدقاتهم .

(٣) البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٩ ـ ٣٤

القرآن ، وكانت تلك حكمة بالغة من الرسول ؛ فإن قوماً رغبوا أن يتحللوا من الصلاة ينبغى أن يخفف عنهم فى الصلاة حتى لايسأموا ، ولعل فى هذا بلاغاً للذين ينفرون الناس أو بعضهم بأطالة الصلاة .

فلما رجعوا إلى بلادهم بعث معهم رسول الله أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم ( اللات ) فتولى المغيرة هدمها حتى جاء على أساسها بعد أن أشفق عليه قومه أن يصاب كما هى عقائدهم الخرافية ، فأيقنوا — وقدفرغ من هدمها وهو معافى — أنها حجارة لاتضر ولاتنفع ، وهكذا طهر الله أرض ثقيف من الأصنام ، ووفقهم إلى عبادة الله وحده .

وذكر موسى بن عقبة — فى مغازية — أن وفد ثقيف لم يجرءوا أن يصارحوا قومهم ، بإسلامهم وماعاهدوا الرسول عليه ، وقالوا : إنه يريد يحرم علينا الربا والزنا والخمر ، فنفروا وقالوا : لانطيع له أبداً ، وتأهبوا للقتال ومكثوا على ذلك يوماً أو يومين ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب فرجعوا وقالوا : ارجعا إليه فشارطوه على ذلك وصالحوه . فقالوا لهم : فانا قد فعلنا ذلك ووجدناه اتقى الناس ، وأوفاهم وأرحمهم وأصدقهم ، وقد بورك لنا ولكم فى سيرنا ، وفيما قاضيناه ؛ فاقبلوا القضية ، واقبلوا عافية الله ، وقالوا : فلم كتمتمونا ؟ قالوا أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان فأسلموا وحسن إسلامهم .

ولما هدم المغيرة الطاغية وأخذ مالها وحليها دفع منها بأمر رسول الله دية عروة بن مسعود ، وأخيه الأسود بن مسعود والد الصحابى قارب بن الأسود ، وكان الأسود قد مات مشركا ولكن رسول الله رأى ذلك تأليفاً وإكراماً لولده قارب .

( كتاب رسول الله لهم ) بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبى ورسول الله إلى المؤمنين إن عضاه ( وج ) وصيده لا يعضد[1] ، من وجد يفعل شيئاً

---

(١) العضاه كسحاب شجر ذو شوك ، وج : أرض الطائف ، يعضد : يقطع قال السهيلى حرم حضاهه وشجره على غير أهله كتحريم المدينة ومكة .

من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه، وإن تعد ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به النبي محمداً ، وإن هذا أمر النبي محمد ) وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله فلا يتعده أحد يظلم نفسه فيما أمره به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكره أبو عبيد في كتاب الأموال وزاد فيه شهادة علي وابنيه الحسن والحسين رضي الله عنهم .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله قال : ( إن صيد وج وعضاهه حرم محرم لله ) وكذا رواه أبو داود وذلك قبل نزول الطائف وحصاره تقيضاً ، وقد اختلف الأئمة في هذا الحديث فمنهم من ضعفه كأحمد والبخاري وغيرهما ومنهم من صححه كالشافعي وقال بمقتضاه[1] .

( موت النجاشي ) وفي رجب من هذا العام مات أصحمة بن أبجر النجاشي ملك الحبشة ، أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يهاجر إليه ، وقد أحسن إلى المسلمين الذين هاجروا غاية الإحسان ، ولما مات نعاه النبي إلى أصحابه في اليوم الذي مات فيه ، وخرج بهم إلى المصلى وكبر عليه أربع تكبيرات رواه البخاري وغيره ، وهذا هو الأصل في مشروعيه صلاة الجنازة على الغائب .

« موت السيدة أم كلثوم » بنت سيد البشر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت وفاتها في شعبان من هذا العام وكان سيدنا عثمان تزوجها سنة ثلاث بعد موت أختها رقية ، ولم تنجب له أولاداً ، وقد اشتركت في تغسيلها أم عطية والسيدة صفية بنت عبد المطلب ، وأسماء بنت عميس ، وصلى عليها رسول الله والمسلمون ، ولما ذهبوا لدفنها وقف النبي على قبرها وعيناه تذرفان بالدموع ، فقال : « هل فيكم أحد لم يقارف الليلة » ؟ فقال أبو طلحة : أنا فقال : « إنزل في قبرها » فنزل ونزل معه علي ، والفضل وأسامة بن زيد وبموتها لم يبق من بنات النبي إلا السيدة فاطمة رضي الله عنهن .

---

(١) البداية والنهاية ج ٥ ص ٣٤

( موت ابن أبى ) وفى شوال من هذا العام مرض عبد الله بن أبى المنافق ومات فى ذى القعدة ، وكان النبى يعوده فى مرضه ، وفى اليوم الذى مات فيه دخل عليه وهو يجود بنفسه فقال له : ( قد نهيتك عن حب يهود ) فقال : يارسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لى ، ولم أرسل إليك لتوبخنى ، ثم سأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه فأجابه قال الحافظ ابن حجر : وهذا مرسل مع ثقة رجاله ، وكان قد عهد ابن أبى إلى ابنه بذلك[1] فلما توفى جاء ابنه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله ليصلى عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ، يارسول الله أتصلى عليه وقد نهاك[2] ربك أن تصلى عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما خيرنى الله فقال : ( أستغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وسأزيده على السبعين ) قال : إنه منافق فصلى رسول الله عليه فأنزل الله : ( ولاتصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره ) الآية رواه البخارى عن ابن عمر ، وفى رواية أخرى له عن عمر نفسه أن النبى لما قام ليصلى عليه قام عمر فقال : يارسول الله أتصلى عليه وقد قال كذا وكذا يعدد مساوئه ، فتبسم الرسول وقال أخر عنى ياعمر ، فلما أكثرت عليه قال : ( أنى خيرت فاخترت ، لو أعلم أنى لو زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها ) ثم صلى عليه فلم يلبث إلا قليلا حتى نزلت الآية [3] .

وإنما صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إجراء له على حكم الظاهر وهو الإسلام ، ولما فيه من إكرام ولده عبد الله وكان من خيار

---

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٢٦٨

(٢) ليس فى القرآن نهى عن الصلاة على المنافقين قبل نزول آية ( ولاتصل ) والظاهر أن عمر فهم ذلك من قوله : سبحانه : ( استغفر لهم ) الآية أو من قوله تعالى : ( ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ) الآية

(٣) صحيح البخارى — سورة التوبة — باب ولاتصل الخ

الصحابة وفضلائهم ، وهو الذى عرض على النبى أن يقتل أباه لما قال مقالته يوم غزوة بنى المصطلق كما ذكرنا ، ولما فيه من مصلحة شرعية ، وهو استئلاف قومه ومتابعيه ، فقد كان يدين له بالولاء فئة كبيرة من المنافقين فعسى أن يرعوا عن نفاقهم ويعتبروا ويخلصوا لله ولرسوله ، ولو لم يجب صلى الله عليه وسلم ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهى الصريح لكان سبة وعارا على ابنه وقومه ، فالرسول الكريم اتبع أحسن الأمرين فى السياسة إلى أن نهى فانتهى ، وأنه لم يفعل ذلك لاعتقاده أنه يغفر له وليس أدل على ذلك مما رواه أبو الشيخ عن قتادة : أنهم ذكروا القميص بعد نزول الآية فقال عليه الصلاة والسلام : « وما يغنى عنه قميصى ، إنى لارجو أن يسلم به أكثر من ألف من بنى الخزرج » أى يتخلصوا من نفاقهم ، وينقادوا ظاهراً وباطناً لله ولرسوله ، وأما إعطاؤه القميص فلأن الضن به يخل بالكرم وقد كان من خلق رسول الله أن لا يرد طالب حاجة قط ، على أنه كان مكافأه له على إعطائه العباس عم الرسول قميصه لما جيء به أسيراً يوم بدر[1] ، وكان من خلق رسول الله وآل بيته رد الجميل بخير منه .

وقد استشكل بعض العلماء حديث عمر وابنه ، واستبعدوا أن يفهم النبى من الآية التخيير لأن الظاهر أن « أو » للتسوية فى عدم النفع ، وأن يفهم من ذكر السبعين التحديد لأن ظاهر السياق أنها للتكثير ، فقال بعضهم إنه خبر آحاد لا يعول عليه ، وأنكر بعضهم صحته[2] ، وكل هذا وذاك غير سديد فالحديث صحيح رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجة وكفى بهم أئمة .

والذى ظهر لى — والله أعلم — بعد النظر والتأمل فى الآية والأحاديث ، وما قاله الأئمة — أن الآية تحتمل التسوية ، وهو الأظهر وأن المراد بالسبعين

---

(١) تفسير الألوسى ج ١٠ ص ١٠٤

(٢) فتح البارى ج ٨ ص ٢٧٢ — ٢٧٣

التكثير لا التحديد وهو الاظهر أيضاً وفى رواية عمر السابقة ما يدل على أن النبى كان يرى ذلك فقد قال : « لو أعلم أنى زدت على السبعين غفر له ، لزدت » وتحتمل أيضاً التخيير فى « أو » وتحتمل التحديد فى لفظ السبعين وهما مرجوحان قطعا .

والرسول صلى الله عليه وسلم — وهو أفصح العرب ، وأعرفهم بأساليب البيان ، ما كان يخفى عليه ذلك ولكنه رجح أحد الاحتمالين وإن كان مرجوحا للحكم السياسية ، والاغراض التى ذكرناها آنفاً ، وقد أطلت النفس فى هذا وعرضت لما لم يعرض له المؤرخون غالباً ، لان دراستنا للسيرة من جوانبها التحليلية من القرآن والسنة وهذا هذا السر فى عنايتى بالتشريعات وتواريخها ، وحكم التشريع فيها ، وإعطائى للقارىء صورة واضحة لكل تشريع ، وعنايتى بتفسير الآيات القرآنية فى كل موضوع ، وهو المنهج الذى سلكه إمام أهل المغازى محمد بن إسحاق ، وابن هشام ، والدراسات على هذا المنهج هى أجدى الدراسات وأنفعها ، والحمد لله الذى هدانا لهذا .

## « حج الصديق أبى بكر بالناس »

لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من تبوك تواردت عليه الوفود ، ودخل الناس فى دين الله من كل فج ، فلما حل موسم الحج اراد الحج ولكنه قال : « انه يحضر البيت عراة مشركون يطوفون بالبيت فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك » فارسل الصديق أميراً على الحج سنة تسع ، وبعث معه بضعا وثلاثين آية من صدر سورة براءة ليقرأها على أهل الموسم[1] ، فلما خرج دعا النبى صلى الله عليه وسلم علياً — رضى الله تعالى عنه — وراءه ، وقال له اخرج بهذه الآيات من صدر سورة براءة فأذن — أعلم — بها فى الناس اذا اجتمعوا ، فخرج

---

(١) هذا ما عليه الأكثر وقيل أنها نزلت بعد خروج الصديق وأرسل عليا وراءه للحكمة التى سنذكرها .

على على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم « العضباء » حتى أدرك الصديق أبا بكر بذى الحليفة ، فلما رآه الصديق قال له : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ثم سارا فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التى كانوا عليها فى الجاهلية، وكان الحج فى هذا العام فى ذى الحجة كما دلت على ذلك الروايات الصحيحة لا فى شهر ذى القعدة كما قيل ، وقد خطب الصديق قبل يوم التروية معلماً الناس مناسكهم ثم خطب يوم عرفة ، ويوم النحر ، وكان كلما خطب أمير الحج « الصديق » قام أبو الحسن « على » فقرأ على الناس صدر سورة براءة ثم ينادى فى الناس بهذه الأمور الأربعة روى الترمذى فى جامعه عن زيد بن يثيع قال : سألت عليا بأى شىء بعثت فى الحج ؟ قال بعثت بأربع : أن لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة(١) أشهر ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا ، قال الترمذى : « حديث حسن صحيح وخرجه النسائى أيضاً وفيه قال على : « فكنت أنادى حتى صحل(٢) صوتى » .

وقد أمر الصديق أبا هريرة فى رهط آخرين أن يؤذنوا فى الناس يوم النحر بهذه الأمور مساعدين لعلى حتى يصل البلاغ إلى الناس جميعاً ، فلم يكن ثم افتيات عليه ، وإنما هى معاونة على الخير ، روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة قال : ( بعثنى أبو بكر الصديق فى الحجة التى أمره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع فى رهط يؤذنون فى الناس يوم النحر : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ) فكان حميد بن عبد الرحمن بن عوف يقول : يوم النحر يوم الحج الأكبر من أجل حديث أبى هريرة وبيان ذلك أن هذا الحديث مع الآية القرآنية ( وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج

---

(١) يعنى من يوم التأذين على الصحيح بمنى فى عشر من ربيع الآخر

(٢) صحل صوته كفرح فهو أصحل . وصحل : بح واحتد فى بحح

الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ...) يدلان على أن يوم النحر[١] هو يوم الحج الاكبر .

وقد ذكر ابن اسحاق أن قريشاً ابتدعت قبل الفيل أو بعده أن لا يطوف أحد ممن يقدم عليهم من غيرهم أول مايطوف إلا فى ثياب أحدهم فان لم يجد طاف عريانا ، فان خالف وطاف بثيابه ألقاها إذا فرغ ، ثم لم ينتفع بها ، فلما جاء الإسلام هدم ذلك كله فيما هدم من العقائد والخرافات ، وقال العلامة ابن كثير : كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها يتأولون فى ذلك أنهم لايطوفون فى ثياب عصوا الله فيها ، وكانت قريش وهم الحمس[٢] — يطوفون فى ثيابهم ، ومن أعاره أحمسى ثوباً طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه ، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسى ثوباً طاف عرياناً وربما كانت امرأة ، فتطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان الناس يطوفون عراة بالليل وكان هذا ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه أهواءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستنداً إلى أمر من الله وشرعه ، فانكر الله عليهم ذلك فقال : وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها قل إن الله لايأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون )[٣] .

---

(١) ومن السلف وغيرهم من يرى أن يوم الحج الاكبر هو يوم عرفة . وسمى الحج الأكبر احترازاً عن العمرة لأنها تسمى . الحج الأصغر

(٢) الحمس : جمع أحمس كأحمر سميت قريش بذلك ، لتحمسها أى تشددها على أنفسها فى عبادتها ودينها ، وقيل : سموا حمساً بالكعبة لأنها حمساء حجرها أبيض يضرب إلى السواد

(٣) تفسير ابن كثير والبغوى ج٣ ص ٤٦٤

وقد كان المشركون يجتمعون مع المسلمين فى الحج ، فاراد الله أن لا يكون ذلك فقد دالت دولة الشرك والأوثان ، وأصبحت كلمة الله هى العليا ، وقد امتثل المشركون فلم يأت مشرك عام حجة الوداع ، وانفرد المسلمون بالبيت لايشاركهم فيه أحد قال الله سبحانه وتعالى :( يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هـذا ، وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ان الله عليهم حكيم )

والمراد من نجاسة المشركين النجاسة المعنوية ، وهى نجاسة المعتقدات ، أو المراد أنهم لايتنزهون عن النجاسات غالباً ، ولا يغتسلون من الجنابات ، وجمهور العلماء على عدم تمكنهم من دخول الحرم كله ، وبعضهم حملها على المسجد الحرام خاصة دون الحرم وبقية المساجد ، وبعضهم قال : المراد عدم تمكينهم من أداء الحج والعمرة استناداً إلى سبب النزول ، والحق ما ذهب إليه الجمهور :

وهنا شبهة نرى لزاماً أن نعرض لهـا ونبين الحق فيها وهى : لم عدل النبى عن تبليغ أبى بكر صدر سورة براءة ووكل ذلك إلى على

والجواب : أن صدر سورة براءة تضمن نقض العهود المطلقة غير المقيدة بوقت ، أو التى مدتها فوق أربعة أشهر فيما زاد عن أربعة أشهر ، وكان العرب تعارفوا فيما بينهم فى عقد العهود ونقضها أن لايتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه ، فأراد الله سبحانه وتعالى : أن يكون المبلغ عن النبى رجل من أهله حتى يقطع ألسنة العرب بالاحتجاج على أمر هو من تقـاليدهم ، ولا سيما أنه ليس فيه منـافاة للاسلام ، فلذلك تدارك النبى ﷺ الأمر ، روى الترمذى ـ وحسنه ـ وأحمد من حديث أنس قال : « بعث النبى ﷺ براءة مع أبى بكر ، ثم دعا عليـاً فأعطاه إياها وقال : « لا ينبغى لأحد أن

يبلغ هذا إلا رجل من أهل بيتى » وفى رواية الطبرانى أن جبريل عليه السلام هو الذى قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « إنه لن يؤديها عنك إلا أنت أو رجل منك » فهذا هو السبب لا ما زعمته الرافضة من أن ذلك للاشارة إلى أن علياً أحق بالخلافة من أبى بكر ، ولا أدرى كيف غفلوا عن قول الصديق له : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، وكيف يكون المأمور أحق بالخلافة من الأمير ؟ ، وقد كانت هذه الحجة بمثابة التوطئة للحجة الكبرى وهى حجة الوداع .

## « عام الوفود »

لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وأسلمت هوازن ، وعاد من تبوك وقد أظهر هيبة الإسلام ؛ وجاءت ثقيف إليه مسلمة . تواردت عليه الوفود من كل ناحية ، وفى حديث عمرو بن مسلمة فى قصة الفتح عند البخارى قال : « كانت العرب تلوم — تنتظر — باسلامهم الفتح فيقولون : أتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبى صادق ، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم باسلامهم وبدر — أى قومى — بإسلامهم . . » واتفقوا على أن توارد الوفود كان سنة تسع قال ابن هشام : حدثنى أبو عبيدة قال : كانت سنة تسع تسمى سنة الوفود[1] وقد ذكر هذه الوفود ابن إسحاق وابن هشام فى السيرة والواقدى فى مغازيه ، وكاتبه محمد بن سعد فى طبقاته[2] ، وهو أوفى ماجمع فى ذلك ، والبخارى فى صحيحه[3] وتابعهم معظم الكاتبين فى السيرة قال الحافظ فى الفتح : ومجموع ما ذكروه يزيد على الستين .

ومما ينبغى أن يتنبه إليه أن الذين تعرضوا لذكر الوفود لم يقتصروا على

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٦٠

(٢) الطبقات ج ١ من ص ٢٩١ — ٥٥٩

(٣) فتح البارى ج ٨ من ص ٦٨ — ٨٤

الوفود سنـــة تسع بل استطردوا إلى ذكر بعض الوفود قبلها وبعدها ، فقد ذكر ابن إسحاق وفد ضمام بن ثعلبة مع أنه كان فى رجب سنة خمس[١] وابن سعد وفد مزينة مع أنه قال إنه كان فى رجب سنة خمس ، وذكر البخارى فى الوفود ، وفد عبد القيس مع أنه كانت وفادتهم سنة خمس أو قبلهـا ، ولم يتعرض لوفادتهم الثانية وهى المرادة هنا . وكذلك ذكر ابن سعد وفد محارب مع أنه قال : إن قدومه كان سنة عشر فى حجة الوداع ؛ وقد نبه إلى هذا الحافظ المؤرخ ابن كثير فى بدايته[٢] ، والحافظ ابن حجر فى فتح البارى شرح صحيح البخارى[٣] ، وقد تابع بعض الكتاب المتأخرين فى السيرة السابقين فيما ذكروا من غير تحر وتحقيق .

وقد رأيت أن أذكر أهم هذه الوفود لما فى أخبارها من فقه وعلم، وخلق وأدب وحسن سياسة النبى صلى الله عليه وسلم ، وغاية كياسته فى معاملة هذه الوفود ، وإجاباته لهم ومحاوراته معهم .

## « وفد بنى تميم »

وكان السبب فى قدومهم — كما ذكر الواقدى — أنهم أغاروا على قوم من خزاعة ، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وســـلم عيينـة بن حصن الفزارى فى خمسين رجلا ليس فيهم أنصارى ولا مهاجرى ، فأسر منهم أحد عشر رجلا ، وإحدى عشرة أمرأة ، وثلاثين صبياً ، فقدم رؤساؤهم وأشرافهم بسبب أسراهم فى وفد عظيم منهم : عطارد بن حاجب بن زرارة ، والأقرع ابن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، وقيس بن عاصم ، فدخلوا المسجد ، وقد أذن بلال الظهر والنـاس ينتظرون رسول الله ﷺ

---

(١) كنت قد ذكرت هذا فى الطبعة الأولى بناء على ماذكر ابن كثير نقلا عن الواقدى وقد قال ذلك أيضا غيره . ثم ظهر لى أن قدوم ضمام كان سنة تسع وهو الذى صححه الحافظ ابن حجر [الفتح جـ١ ص ١٤٤] ويكون الحق معه ابن اسحاق فى ذكره عام الوفود

(٢) جـ٥ ص ٤٠/٦١ (٣) جـ٨ ص ٦٩

ليخرج إليهم ، فتعجل هؤلاء ، فصاروا ينادون من وراء حجرات نساء النبى ﷺ : أخرج يا محمد فإن مدحنا زين ، وذمنا شين ، وأكثروا من هذا النداء الجافى العارى عن الأدب فى مخاطبة الرسول ، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً وقال : ذاك الله عز وجل ، فأنزل الله بسببهم هـذا التأديب الإلهى موبخاً لهم على ما فعلوا فقال عز شأنه « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم[1] » ولما خرج إليهم قالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقال قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام عطارد بن حاجب فخطب خطبته ثم جلس ، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس وكان يعرف بخطيب رسول الله ﷺ : « قم فأجب الرجل فى خطبته » فقام ثابت فقال أحسن مما قال عطارد ، ثم قام الزبرقان بن بدر شاعرهم فقال قصيدته ، فقال رسول الله ﷺ لحسان : « قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال ، فقال حسان قصيدة مطلعها :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجيـة تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع[2]

فلما فرغ حسان من قصيدته قال الاقرع بن حابس : وأبى إن هذا لمؤتى له — أى مؤيد مستهل له — لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهن أعلى من أصواتنا ، فأسلموا وجوزهم[3] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاحسن جوائزهم ، وقال قيس بن عاصم ، وكان يبغض عمرو بن الأهتم : يا رسول الله إنه كان رجل منا فى رحالنا ، وهو غلام حدث وأزرى به ، ولكن رسول الله أعطاه مثل ما أعطى القوم .

ومما يستطرف ما رواه البيهقى أنهم لما قدموا سأل رسول الله عمرو بن الأهتم

---

(١) الحجرات ٤ ، ٥ (٢) السيرة جزء ٢ ص ٢
(٣) أى أعطاهم جوائزهم وهى العطايا والمنح .

عن الزبرقان بن بدر فقال : مطاع فى أدنيه ، شديد العارضة[١] ، مانع لما وراء ظهره ، فقال الزبرقان : لقد علم منى أكثر مما قال ، وما منعه أن يتكلم الا الحسد ، فقال عمرو أنا أحسدك ؟ فوالله أنك للئيم الخال ، حديث المال ، أحمق الوالد ، مضيع فى العشيرة ، ولقد صدقت فيما قلت أولا ، وما كذبت فيما قلت آخراً ، ولكنى رجل اذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، واذا غضبت قلت أقبح ما وجدت ، فقال رسول الله : « إن من البيان لسحراً »[٢]

## « وفد بنى عبد القيس »

وكانت لهم وفادتان : الاولى قبل الفتح وهى التى قالوا فيها : بيننا وبينك كفار مضر ( قريش ) وكان ذلك قديما سنة خمس أو قبلها وكانوا ثلاثة عشر رجلا وفيهم الأشج[٣] الذى قال له النبى : ( ان فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم[٤] والاناة ) وفيها سألوا عن الأيمان والاشربه وعلى هذه اقتصر الإمام البخارى عن ابن عباس قال : أول جمعة جمعت فى مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم فى مسجد عبد القيس بجوانى — قرية بالبحرين — وهذا يدل على تقدم اسلامهم .

الثانية : كانت فى سنه الوفود وكانوا أربعين رجلا وهى التى اقتصر عليها ابن اسحاق وهى المراده هنا قال ابن اسحاق : وقام على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارود بن عمرو فى وفد عبد القيس ، وكان نصرانياً ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ عرض عليه الإسلام ورغبة فيه فقال : إنى كنت على دين ، انى تارك دينى لدينك أفتضمن لى دينى ؟ فقال رسول الله « نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ماهو خير منه » فأسلم وأسلم أصحابه

---

(١) العارضة : القدرة على الكلام .

(٢) يعنى كالسحر فى قوة التأثير والاستيلاء على الالباب .

(٣) اسمه المنذر بن عائذ . بالذال المعجمة العصرى وقيل غير ذلك (٤) العقل

فخرج الجارود راجعاً الى قومه ، وكان حسن الإسلام صلباً فى دينه ، وقد أدرك الردة فلما رجع من رجع منهم قام الجارود فتشهد ودعا إلى الاسلام فقال : « أيها الناس انى أشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله وا كفر من لم يشهد » . وانها لمكرمة له ، ويؤيد تعدد وفادتهم ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم : « مالى أرى ألوانكم تغيرت » ؟ ففيه إشعار بأنه كان رآهم قبل هذا (١)

## « وفد بنى حنيفـــه »

وقدم وفد بنى حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب فنزلوا فى دار رملة بنت الحارث وكانت معدة للوفود ، فجعل يقول : « إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتبعته » فاتاهم رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفى يد رسول الله ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه ، فقال له : « لو سألتنى هـذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وإنى لأراك الذى أريت فيه مارأيت ، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عنى ، ثم انصرف عنه قال ابن عباس : فسألت عن قول رسول الله ﷺ ( إنك أرى الذى أريت فيه ما أريت ) فأخبرنى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ( بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمنى شأنهما فاوحى إلى فى المنام أن أنفخهما فنفختهما فذهبا ، فأولتهما كذابين يخرجان ) رواه البخارى والكذابان : أحدهما الأسود العنسى الذى أدعى النبوة بصنعاء وقد قتل قبل وفاة النبى بيوم وليلة ، وجاء الخبر بذلك صبيحة دفن النبى ، والآخر مسيلمة ادعى النبوة فى بنى حنيفة حتى قتل فى خلافة الصديق وفى رواية أخرى للبخارى أن مسيلمة قال للنبى : إن شئت خلينا بينك وبين الأمر ، ثم جعلته لنا بعدك ، فاجابه النبى بما أجاب به ، وسياق هـذه القصة فى الصحيح يخالف

---

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٦١

ماذكره ابن اسحاق وهو أن مسيلمة وفد مع قومه ، وأنهم تركوه فى رحالهم يحفظها لهم ، وذكروه لرسول الله ﷺ ، وأخذوا منه جائزته ، وأنه قال لهم (إنه ليس بشركم) وأن مسيلمة لما ادعى أنه أشرك فى النبوة مع رسول الله احتج بهذه المقالة ؛ وهذا مع شذوذه ضعيف السند ، لانقطاعه ، وأمر مسيلمة كان عند قومه أكثر من ذلك فقد كان يقال له : رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم ، فالمعول عليه ما فى صحيح البخارى[1]

## « وفد أهل نجـــران[2] »

وقد روى أن رسول الله ﷺ كتب لهم كتابا يدعوهم فيه الى عبادة الله وحده ونبذ عبادة العباد فإن أبوا فالجزية ، فإن أبوا فالحرب والظاهر أن هذا الكتاب كان سنة تسع[3] بعد نزول قوله تعالى : (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولايحرمـون ماحرم الله ورسوله ، ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون )فكانهم لما جاءهم كتاب رسول الله خرجوا اليه فى أربعة عشر من أشرافهم وقيل فى ستين راكباً منهم ثلاثة نفر يؤول اليهم أمرهم : العاقب ، وهو أمـــيرهم وصاحب مشورتهم والذى يصدرون عن رأيه ، والسيد وهو صاحب رحلتهم ، وأبو الحارث أسقفهم ، وحبرهم ، وصاحب مدارسهم ، فقدموا على النبى ﷺ ، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحبرة ، وأردية مكفوفة بالحرير ، وفى أيديهم خواتيم لذهب فقاموا يصلون فى المسجد نحو المشرق ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوهم » ثم أتوا النبى ﷺ ، فأعرض عنهم ولم يكلمهم ، فقال لهم عثمان من أجل زيكم هذا ، فانصرفوا يومهم هذا ، ثم غدوا عليه بزى الرهبان فسلموا عليه ، فرد

---

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٧٣ (٢) نجران بفتح النون بلد كبير على سبع مراحل من مكة الى جهة اليمن حوله قرى كثيرة (٣) فتح البارى ج ٨ ص ٧٦

عليهم ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا وقالوا : كنا مسلمين قبلكم فقال النبى ﷺ يمنعكم من الإسلام ثلاث : (عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولداً ) وكثر الجدال والحجاج بينه وبينهم ، والنبى يتلو عليهم القرآن ويقرع باطلهم بالحجة وكان مما قالوه لرسول الله . مالك تشتم صاحبنا وتقول إنه عبد الله ، فقال : ( أجل إنه عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ) فغضبوا ، وقالوا : هل رأيت إنسانا قط من غير أب فان كنت صادقا فأرنا مثله فأنزل الله فى الرد عليهم قوله سبحانه ( إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين ) فكانت حجة دامغة شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه ، فلما لم تجد معهم المجادله بالحكمة والموعظة الحسنة دعاهم إلى المباهلة[1] امتثالا لقول الله عز شأنه ( فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ) وخرج النبى ومعه على ، والحسن ، والحسين ، وفاطمة وقال . ( وإذا أنا دعوت فأمنوا ) فائتمروا فيما بينهم فخافوا الهلاك لعلمهم أنه نبى حقا وأنه ماباهل قوم نبيا الاهلكوا ، فأبوا أن يلاعنوه وقالوا : احكم علينا بما أحببت ، فصالحهم على ألفى حلة ، ألف فى رجب ، وألف فى صفر ، وعلى عارية ثلاثين درعا ، وثلاثين رمحاً ، وثلاثين بعيراً ، وثلاثين فرساً إن كان باليمن كيد ، واشترط عليهم أن لايتعاملوا بالربا وأمنهم على أنفسهم ودينهم وأموالهم وكتب لهم كتابا جاء فيه : « ولنجران وحاشيتهم جوار الله ، ذمة محمد النبى رسول الله على أنفسهم ، وملتهم ، وأرضهم ، وأموالهم ، وغائبهم وشاهدهم وبيعهم ، لايغير أسقف على سقيف . ولاراهب عن رهبانيته ، ولا واقف عن

---

(١) الدعاء باللعنة ، ثم شاعت فى مطلق الدعاء ؛ والمباهلة مشروعة حيث يتعذر عن طريق الجدال والمناظرة الوصول إلى الحق ، ويأبى الخصم — كما هنا — الخضوع للحجة والبرهان فلم يبق إلا اللجوء إلى استنزال غضب الله ، ولعنته . وهلاكه على القوم الكاذبين

وقفانيته » وأشهد على ذلك بعض المسلمين ، ثم رجعوا إلى بلادهم فلم يلبث العاقب والسيد إلا يسيرا حتى رجعا الى النبى فأسلما ، وأنزلهما دار أبى أيوب الانصارى وأقام أهل نجران على ذلك حتى توفى الله نبيه .

وتولى الصديق الخلافة فاحسن معاملتهم وأوصى بهم عند وفاته ، وفى عهد الفاروق عمر تعاملوا بالربا ، فاخرجهم من أرضهم وكتب لهم : « هذا : ما كتب عمر أمير المؤمنين لنجران من سار منهم انه آمن بامان الله لايضرهم أحد من المسلمين ، وفاء لهم بما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، أما بعد فمن وقعوا به من أمراء الشام ، وأمراء العراق فليوسعهم من جريب الأرض فاعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة ، وعقبة لهم بمكان أرضهم لاسبيل عليهم عليهم فيه لأحد ، ولا مغرم أما بعد : فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فانهم أقوام لهم الذمة ، وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن تقدموا ، ولا يكلفوا إلا من ضيعتهم التى اعتملوا غير مظلومين ولامعنوف عليهم ) وأشهد على ذلك عثمان بن عفان وآخر فوقع أناس منهم بالعراق فنزلوا النجرانية التى بناحية الكوفة ، وذهب بعضهم إلى الشام[1] وماحدث من النبى وخليفتيه هو غاية العدل والإحسان والتسامح مع النصارى ولولا أنهم تعاملوا بالربا ، وأصبحوا يكونون خطرا اجتماعيا واقتصاديا فى بلاد اليمن لما أجلاهم الفاروق ، ولكنهم هم الذين أساءوا لأنفسهم بنقض العهد الذى عاهدهم عليه رسول الله ﷺ .

( بعث أبى عبيده معهم ) ولما عزموا على الرجوع الى بلادهم قالوا للنبى ابعث معنا رجلا أميناً ليقبض منهم مال الصلح فقال لهم ( لابعثن معكم رجلا أمينا حق أمين » فاستشرف له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « قم يا أبا عبيدة بن الجراح » فلما قام قال : « هذا أمين هذه الأمة »

---

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٥٨

## « وفد طيء وعدى بن حاتم »

قدمنا أن رسول الله ﷺ من على سفانة أخت عدى لما جيء بها فى سبايا طيء وأن عدياً كان هرب بأهله وولده لما سمع بخيل المسلمين فذهبت أخته إليه بالشام ، وأشارت عليه أن يقدم على رسول الله فيسلم فذهب إلى المدينة حتى جاء المسجد النبوى فسلم عليه فقال : من الرجل فقلت : عدى بن حاتم فقال لى : « يا عدى أسلم تسلم » ثلاثاً فقلت : إنى على دين قال : « أنا أعلم بدينك منك » ألست ركوسياً ، وأنت تأكل مرباع قومك[1] ؟ قلت : بلى ، قال : ( هذا لايحل لك فى دينك ) قلت : نعم ، وكان رأى من تواضع النبى مع الناس ومعه ما جعله يعتقد أنه نبى مرسل . يعلم ما يجهل وليس يملك ، ثم قال النبى « لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخولك فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فو الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم » فاسلم وحسن إسلامه ، وشارك من فتح بلاد فارس ، ورأى المرأة تخرج من أقاصى البلاد إلى الكعبة وهى آمنة ، وكان يقول : وايم الله ولتكونن الثالثة .

## « وفد زيد الخيل »

وقدم وفد من طيء على رسول الله وفيهم زيد الخيل[2] وهو سيدهم فلما انتهوا إليه كلموه ، فعرض عليهم الإسلام ، فأسلموا وحسن إسلامهم وقد

---

(١) الركوسية : دين بين النصارى والصابئة كما فى النهاية ، والمرباع ربع الغنيمة .

(٢) قيل : سمى زيد الخيل لخمسة أفراس كانت لها أسماء أعلام

أجاز رسول الله كل رجل خمس أواق فضة ، وأجاز زيد اثنتى عشرة أوقية ونشا وقال : ( ماذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فانه لم يبلغ الذى فيه ) ثم سماه زيد الخير ، وقطع له قيد[1] ، وأرضين وكتب له بذلك كتاباً ، ثم رجع مع قومه ، فلما كان بالطريق مات ، فعمدت امرأته إلى كل ما كان معه من الكتب فحرقتها ومنها كتاب رسول الله بما أقدمه إياه .

## (( وفد بنى عامر ))

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بنى عامر وفيهم عامر بن الطفيل ، وأربد ابن قيس فلما انتهوا إلى رسول الله قال عامر : يا محمد ما تجعل لى إن أسلمت ؟ فقال : « لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم » قال عامر : أتجعل لى الأمر — إن أسلمت — من بعدك ؟ فقال رسول الله : ( ليس ذاك لك ولا لقومك ، ولكن لك أعنة الخيل ) قال : أنا الآن فى أعنة خيل نجد ، أجعل لى الوبر ولك المدر ، فقال رسول الله : « لا » قال : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا ، فقال النبى ﷺ : « اللهم أكفنى عامر بن الطفيل » وكان هو وأربد قد تواطئا على اغتيال النبى فعصمه الله منهما فلما خرجا راجعين إلى بلادهم نزل عامر فى بيت امرأة من بنى سلول ، فأصيب بغدة[2] فى عنقه فصار يقول : أغدة كغدة الآبل ، وموت فى بيت سلولية ، فوثب على فرسه ، وأخذ رمحه ، وصار يعدو بفرسه حتى سقط عنه ميتاً :

وأما أربد فقد وصل إلى أرض بنى عامر فقالوا : ما وراءك يا أربد ؟ قال : لاشىء ، والله لقد دعانا إلى عبادة شىء لوددت أنه عندى الآن فآمره بالنبل حتى أقتله ، فخرج بعد ذلك بيوم أو يومين معه جمل له يبيعه ، فأرسل

---

(١) فتح الياء وسكون الياء اسم قرية

(٢) داء يصيب البعير وهو شبيه بالذبحة التى تصيب ابن آدم

الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقهما ، وفى شأن عامر وأربد انزل الله سبحانه قوله « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام . . . » إلى قوله تعالى : « وهو شديد المحال »[1].

## ( قدوم رسول ملوك حمير إلى رسول الله )

وفى شهر رمضان سنة تسع مرجع رسول الله ﷺ من تبوك وفد عليه مالك بن مرارة الرهاوى رسول ملوك حمير بكتابهم وإسلامهم ، فأمر بلالا أن ينزله ويكرمه وكتب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال ، وإلى نعيم بن عبد كلال ، وإلى النعمان قيل ذى رعين ، ومعافر ، وهمدان : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله النبى إلى الحارث بن عبد كلال . . . أما بعد ذلكم فانى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا الله فانه قد وقع نبأ رسولكم منقلبنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به ، وخبرنا ما قبلكم ، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وأن الله قد هداكم بهداه ان أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبى ﷺ وصفيه ... » ثم ذكر زكاة الزرع والإبل والبقر والغنم ، وكذلك أرسل إلى زرعة ذى يزن يوصيه برسله وعماله إليهم خيرا[2]

## ( وفد أهل اليمن )

وقدم على النبى ﷺ فى سنة تسع وفد اليمن ، وقد جاءوا فوجدوا وفد بنى تميم عند النبى ولكنهم كانوا أفقه منهم وأرق ، روى البخارى فى صحيحه أنه لما جاء بنو تميم إلى رسول الله ﷺ قال : « أبشروا بنى تميم » فقالوا : أما اذ بشرتنا فاعطنا ، فتغير وجه رسول الله ﷺ فجاء ناس من أهل اليمن فقال النبى :

---

(١) سورة الرعد الاية ٨ — ١٣

(٢) البداية والنهاية ج ٥ ص ٧٥

« اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم » قالوا : قد قبلنا يارسول الله جئناك لنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر[1] ما كان ، قال : ( كان الله ولم يكن شىء قبله — وفى رواية غيره — وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض وكتب فى الذكر كل شىء )[2] وفى شان هذا الوفد روى البخارى فى صحيحه أيضاً عن النبى ﷺ قال : ( أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة ، والين قلوبا ، الإيمان يمان والحكمة يمانية ، والفخر والخيلاء فى أصحاب الإبل ، والسكينة والوقار فى أهل الغنم ) .

وقد ترجم البخارى فى باب الوفود « باب قدوم الاشعريين وأهل اليمن ، وليس معنى هذا أن قدوم الاشعريين كان سنة تسع فالثابت فى الصحيح والسير أن قدومهم كان سنة سبع عقب خيبر ، وهذا يشهد لما ذكرته فى صدر فصل الوفود من عدم التقيد بالوفود التى وفدت عام تسع .

## ( وفـــود أخرى )

### « وفد وائل بن حجـر »

وقدم وائل بن حجر بن ربيعة أحد ملوك اليمن ، وفد بشر النبى به أصحابه فقال : « يأتيكم بقية أبناء الملوك ) فلما دخل رحب به وأدناه من نفسه وبسط له رداءه وقال : « اللهم بارك فى وائل ، وولده ، وولد ولده ، واستعمله على الأقيال من حضرموت .

### « وفد الأزد »

وقد وفد الأزد من اليمن فاعجب الرسول مارأى من زيهم وهيئتهم ، ثم سألهم ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون ، فسألهم عن حقيقة قولهم وايمانهم ، فذكروا خمس

---

(١) يعنى بدء الخلق

(٢) فتح البارى جـ ٨ ص ٩ ، جـ ٦ ص ٢٣٠

عشرة خصلة : خمس أمرتنا بها رسلك أن نؤمن بها وخمس أمرتنا أن نعمل بها وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً ، فقال رسول ﷺ : « ما الخمس التى أمرتكم بها رسلى أن تؤمنوا بها ، ؟ قلنا : أمرتنا أن نؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت، قال: (وما الخمس التى أمرتكم أن تعملوا بها ) ؟ قلنا : أمرتنا أن نقول : لا إله إلا الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤتى الزكاة، ونصوم رمضان ، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فقال : وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية قالوا : الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء ، والرضا بمر القضاء ، والصدق فى مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء فقال لهم الرسول : ( حكماء علماء . كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء )[1] .

وقدم الأشعث بن قيس فى ثمانين راكبا من أشراف كندة وكان من ملوكهم، وقد رجلوا جمتهم[2] ، وتكحلوا عليهم جيب الحبرة قد كففوها بالحرير فلما دخلوا على رسول الله ﷺ مسجده قال لهم : « ألم تسلموا ؟ » قالوا : بلى قال: « فما بال هذا الحرير فى أعناقكم » فشقوه منها فألقوه ، وأسلموا ، ثم ارتد الاشعث فيمن ارتد من الكنديين بعد وفاة النبى ، ثم أسر وجىء به إلى الصديق ، فندم ، ورجع إلى الإسلام ، وزوجه الصديق أخته أم فروة ، وقد حسن حاله وشارك فى الفتوحات الإسلامية ، وقد اتفق الذين كتبوا فى تاريخ الصحابة على عده من الصحابة .

## « وفد الداريين »

وقدم وفد الداريين[3] على رسول الله منصرفه من تبوك وهم عشرة نفر فيهم تميم الدارى وأخوه نعيم ، وكانوا نصارى فاسلموا وأقاموا بالمدينة حتى توفى رسول الله ، وكان النبى أقطع تميما أرضا بالشام ، فلما تولى الخلافة الصديق أعطاه ذلك .

---

(١) البداية جـ ٥ ص ٩٤ (٢) الجمه الشعر يبلغ المنكبين ، ورجلوا : سرحوا

(٣) نسبه إلى الدار بطن من لخم .

« وفد تغلب »

وقدم وفد تغلب ستة عشر رجلا مسلمين ونصارى عليهم صلب الذهب فنزلوا دار رملة بنت الحارث — وكانت معدة للوفود — فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم النصارى منهم على أن يقرهم على دينهم على أن لا يصبغوا أولادهم فى النصرانية(١) ، وأجاز المسلمين منهم بجوائزهم .

وبذلك أظهر الله دينه على الأديان كلها ، ودانت الجزيرة من بلاد الشام إلى بلاد حضرموت لله ولرسوله ، إلا بعض بطون من قبائل العرب لم تلبث أن أسلمت وأذعنت سنة عشر .

## ( السنة العاشرة )

« سرية خالد بن الوليد » فى ربيع الآخر أو جماد الأولى من سنة عشر أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام فإن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم ، فخرج خالد حتى قدم إليهم ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا ، فاقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله ، وسنة نبيه ، ثم أرسل إلى رسول الله كتابا يخبره خبرهم ، فكتب إليه أن يبشرهم وينذرهم وأن يقبل ، ويقبل معه وفدهم ، فاقبل خالد ومعه وفدهم منهم قيس بن الحصين ، فكلمهم وسألهم : بما كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا : إنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحدا بظلم ، قال : « صدقتم » ثم أمر عليهم قيس بن الحصين . وعادوا إلى قومهم فى شوال أو صدر ذى القعدة .

« بعث عمرو بن حزم » ثم بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حزم ليفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ،

---

(١) أى أن لا يعمدوهم فى ماء المعمودية

ويأخذ منهم صدقاتهم ، وكتب له كتابا عهد إليه فيه عهده ، وأمره بأوامره وبين له المنهج الذى يتبعه معهم فى الحكم ، والتربية ، والتعليم ، والتأديب ثم ختمه بما يأخذه من المغانم وهو الخمس ، وبين له أنصبه الزكاة فى الزروع وفى الإبل والبقر والغنم ، وقد ذكر الكتاب بطولة الامام محمد بن اسحاق[1] فى سيرته ، والنسائى فى سننه ، والبيهقى فى السنن .

« سرية على بن أبى طالب » وفى رمضان أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فى جمع إلى بنى مذحج ، وهى قبيلة يمانية ، وعممه بيده ، وقال « سر حتى تنزل بساحتهم فادعهم إلى قول : لا إله إلا الله فأن قالوا : نعم فمرهم بالصلاة ولاتبغ غير ذلك ، ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس ، ولاتقاتلهم حتى يقاتلوك ، فلما انتهى إليهم لقى جموعهم فدعاهم إلى الاسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل ، فصف على أصحابه وأمرهم بالقتال ، فقاتلوا حتى هزموا عدوهم ، فكف عن طلبهم قليلا ثم لحقهم ودعاهم إلى الاسلام ، فأجابوا وبايعه رؤساؤهم وقالوا : نحن على من وراءنا من قومنا فخذ منها حق الله ففعل .

« وفد بجيله »[2] وقدم جرير بن عبد البجلى فى رمضان سنة عشر على النبى ومعه من قومه مائة وخمسون رجلا وكان رسول الله ﷺ قال : « يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن على وجهه مسحة ملك . فطلع جرير على راحلته ومعه قومه فأسلموا وبايعوا وروى أن رسول الله بسط عليه كساء ثم التفت إلى أصحابه وقال : إذا أتاكم كريم قوم فاكرموه ، وفى الصحيحين عن جرير قال : « بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم »

## « وفد أحمس »

وقدم قيس بن عزرة الأحمسى فى مائتين وخمسين رجلا من أحمس — أخوة

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٥٩٤ (٢) بجيله على وزن حنيفة قبيلة باليمن

بجيلة ـ فقال لهم رسول الله ﷺ : من أنتم ؟ فقالوا : نحن أحمس الله ، وكان يقال لهم ذاك فى الجاهلية فقال لهم : « وأنتم اليوم لله » وقال لبلال : « أعط ركب بجيلة وابدأ بالأحمسيين » ففعل.

ولما أسلم جرير قال له رسول الله « ألا تريحنى من ذى الخلصة ،[1] فانطلق فى مائة وخمسين من أحمس وكانوا أصحاب خيل فاشتكى إلى رسول الله أنه لايثبت على الخيل فضرب فى صدره ودعا له قائلا : ( اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا ) ألم يسقط بعد عن فرس ثم ذهب ومن معه حتى جاء إليها فخربها وحرقها ، وأرسل إلى رسول الله من يبشر بذلك فبارك رسول الله على خيل أحمس ورجالها (خمس مرات) رواه البخارى ومسلم .

## « بعث العمال والقضاء والأمراء إلى اليمن »

( بعث معاذ بن جبل إلى اليمن ) بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى الإمام المقدم فى علم الحلال والحرام إلى اليمن قاضيا ومفقهاً ، وأميرا ومصدقا[2] ، وجعله على أحد مخلا فيها[3] وهو الأعلى وفى طبقات ابن سعد ( أن النبى ﷺ كتب إلى أهل اليمن لما بعث معاذا : ( إنى بعثت لكم خير أهلى ) ولما خرج معاذ متوجها إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يودعه ويوصيه ، ومعاذ راكب ، ورسول الله يمشى تحت راحلته فاوصاه بوصايا كثيرة منها ( اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن ) رواه أحمد والترمذى وقال : له وقد وضع رجله فى ( الغرز )[4] :

---

(١) بيت باليمن لخثعم كانوا بنوه يضاهئون به الكعبة وبه نصب تعبد .

(٢) بتشديد الدال : آخذ الزكاة (٣) المخلاف بكسر الميم بلغة أهل اليمن : الاقليم والكورة والرستاق وكانت إمارة معاذ على المخلاف الأعلى واليمن مخلافان

(٤) هو للابل كالسرج للفرس وهو مايركب عليه

( حسن خلقك للناس ) رواه مالك فى الموطا وقال له أيضاً : ( إنك ستأتى قوما أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم لى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فأن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليله ، فان هم أطاعوا لك بذلك فاخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب ) رواه البخارى ومسلم وغيرهما ، وما أجمله من منهج يجب أن يسلكه المربون والمعلمون ، والهداة ، والمصلحون ، وكذلك أراد النبى أن يعرف علمه بالقضاء حين بعثه قال له : ( كيف تصنع أن عرض لك قضاء ) ؟ قال : بما فى كتاب الله ، قال : ( فان لم يكن فى كتاب الله ) ؟ قال : فسنة رسول الله ﷺ ، قال ( فان لم يكن فى سنة رسول الله ) ؟ قال : أجتهد ـ وفى لا آلو ـ أى لا أقصر قال : فضرب رسول الله صدرى ثم قال: ( الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله ) رواه أحمد ، وأبو داود والترمذى ، وابن ماجه وهذا يدل على فقه معاذ ، وعلمه باصول القضاء . فلما فرغ رسول الله من وصاياه قال له : ( يامعاذ انك عسى أن لاتلقانى بعد عامى هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى ) فبكى معاذ خشعاً لفراق الرسول ، وكذلك وقع الأمر كما أشار الرسول ، فقد أقام معاذ باليمن ، ولم يقدم إلا بعد وفاة الرسول ﷺ

« بعث أبى موسى الأشعرى » وكذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعرى اليمنى الى مخلاف اليمن الآخر وهو الاسفل ، قاضيا ومفقها وأميرا ومصدقا ، وأوصاه ومعاذا فقال : « يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا » وقد عملا بوصية النبى ، وانطلق كل واحد منهما إلى عمله وصارا يتزاوران ويتحابان فى الله ، رواه البخارى ، وسأل أبو موسى رسول الله فقال : يا نبى الله إى أرضنا بها شراب من الشعير ـ المزر ـ وشراب من العسل ـ البتع ـ فقال : ( كل مسكر حرام ) وقد دل بعث النبى لابى موسى

على أنه كان عالما فطنا حاذقاً ، ولولا ذلك لم يوله النبى صلى الله عليه وسلم الإمارة ، والقضاء ولو كان فوض الحكم لغيره لم يحتج إلى توصيته بما وصاه به ، ولذلك اعتمد عليه عمر ، ثم عثمان ، ثم على ، وأما الخوارج والروافض فطعنوا فيه ونسبوه إلى الغفلة وعدم الفطنة لما صدر منه فى التحكيم بصفين ، قال ابن العربى وغيره والحق أنه لم يصدر منه ما يقتضى وصفه بذلك ، وغاية ما وقع منه أن اجتهاده أداه إلى أن يجعل الأمر شورى بين من بقى من أكابر الصحابة من أهل بدر ونحوهم لما شاهد من الإختلاف الشديد بين الطائفتين بصفين ، وآل الأمر إلى ما آل إليه[1] .

بعث على بن أبى طالب ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبى طالب إلى اليمن ليقبض خمس الغنائم التى غنمها خالد بن الوليد ، وهو يجاهد فى اليمن وليخلفه فى الجهاد ، فذهب واستلمه واصطفى منه جارية لنفسه ، فأنكر ذلك نفس أحد الصحابة عليه وهو بريدة الاسلمى وكان فى نفسه من على شىء فلما قدم على النبى ذكر ذلك له فقال: ( يا بريدة أتبغض عليا ؟) قال نعم قال:(لاتبغضه فان له فى الخمس أكثر من ذلك)رواه البخارى قال بريدة فما كان أحد من الناس أحب إلى من على ، وفى صحيح البخارى أن عليا بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخمس بذهيبة لم تخلص من تبرها من الخمس، فقسمها النبى بين أربعة : عيينة بن حصن ، والاقرع بن حابس ، وزيد الخيل ، وعلقمة بن علاثة العامرى ، وكذلك بعثه مصدقا كما رواه البيهقى[2] .

وقد وكل إليه القضاء أيضا روى أحمد وأبو داود والترمذى عن على قال بعثنى النبى صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، فقلت يا رسول الله تبعثنى إلى قوم أسن منى وأنا حديث السن لا أبصر القضاء ، فوضع يده على صدرى وقال : ( اللهم ثبت لسانه ، واهد قلبه ) وقال : ( يا على إذا جلس إليك الخصمان فلا

---

(١) فتح البارى جـ٧ ص٥٠

(٢) البدايه والنهايه جـ٥ ص١٠٥ .

تقض بينهما حتى تسمع من الآخر ، فانك إن فعلت ذلك تبين لك » قال على فما أشكل على قضاء بعد[1] ، ثم رجع على رضى الله عنه إلى رسول الله فوافاه بمكة فى حجة الوداع .

( أمراء وعمال آخرون ) قال ابن اسحاق : ( وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات ( الزكاة ) إلى كل ما أوطأ الاسلام من البلدان .

فبعث المهاجرين أبى أمية بن المغيرة إلى صنعاء ، فخرج عليه الاسود العنسى وهو بها .

وبعث زياد بن لبيد الانصارى إلى حضرموت وعلى صدقاتها .

وبعث عدى بن حاتم على طيىء وصدقاتها ، وعلى بنى أسد .

وبعث مالك بن نويرة اليربوعى على صدقات بنى حنظلة .

وفرق صدقة بنى سعد على رجلين منهم ، فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية منها ، وقيس بن عاصم على ناحية .

وكان قد بعث العلاء بن الحضرمى على البحرين » .

وفى صحيح البخارى أن النبى استعمل ابن اللتبية — وقد سماه ابن سعد وغيره عبد الله — على صدقات بنى سليم ، وممن استعملهم النبى يزيد بن أبى سفيان على صدقات بنى فراس وكانوا أخواله[2] .

## ( جملة المغازى ، والسرايا ، والبعوث )

ها نحن قد انتهينا — ولله الحمد والمنه — من غزوة تبوك وهى آخر غزوة

---

(١) فتح البارى ٨٠ ص ٥٣ .

(٢) الإصابة جـ ٣ ص ٦٥٦ .

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلنذكر جملة المغازى والسرايا والبعوث فأقول وبالله التوفيق .

روى الشيخان فى صحيحيهما بسندهما[١] عن أبى إسحاق السبيعى قال : كنت إلى جنب زيد بن أرقم ، فقلت له : كم غزا النبى صلى الله عليه وسلم من غزوة .

قال : « تسع عشرة » فقلت : كم غزوت أنت معه ؟ قال سبع عشرة ، قلت فأيهن كانت أول ؟ قال : العسير ، أو العشيرة[٢] فذكرت لقتادة قال : العشيرة[٣] .

وروى مسلم فى صحيحه بسنده عن بريدة قال ( غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة قاتل فى ثمان منهن ، وعلى هذا يتفق ما رواه زيد بن أرقم ، وما رواه بريدة فى العدة ويكون مرادهما الغزوات التى خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سواء قاتل أو لم يقاتل ، وأما قوله ( قاتل فى ثمان منهن ، فلعله لم يعد الفتح ـ كما قال الإمام النووى ـ ويكون مذهبه أنها فتحت صلحا ، كما قال الشافعى وموافقوه ، أو لعله اعتبر الخندق وبنى قريظة غزوة واحدة ، ويقول بريدة ـ رضى الله عنه ـ قال موسى بن عقبة من أئمة أهل المغازى[٤] .

ولا يعكر على هذا ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : ( غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ـ باب غزوة العشيرة ، وباب « كم غزا النبى » وصحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير باب عدد غزوات النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) الأولى بالشين المعجمة بلا هاء . والثانية بالسين المهملة وبالهاء على صيغه المصغر فيهما .

(٣) عنى بالشين المعجمه ، وبالهاء على صيغه المصغر ، وهى التى اتفق عليها أهل السير وإن كان الكل صحيحا .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ١٩٥ ، فتح البارى جـ ٧ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

عشرة غزوة ، قال جابر : لم أشهد بدراً ، ولا أحدا منعنى أبى ـ وذلك ليكون مع أخواته البنات ـ فلما قتل عبد الله يوم أحد لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة قط » ومقتضى هذا أن عدد غزوات الرسول صلى الله صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرين .

وذلك لأن زيداً فاته ذكر اثنتين منها وهما الأبواء ، وبواط ، فقد كانتا قبل العشيرة قطعاً ، وكأن ذلك خفى عليه لصغره ، ولعلها خفيتا أيضاً على بريدة أو نساها على أن ذكر الاقل لا ينفى ذكر الاكثر والعبارة فى الروايتين غير حاصرة .

والذى ذكره ابن اسحاق فى سيرته أنها سبع وعشرون غزوة ، قال : ( وكان جميع ماغزا رسول الله ﷺ بنفسه سبعاً وعشرين غزوة ، منها : غزوة ودان ، وهى غزوة الابواء ، ثم غزوة بواط من ناحية رضوى ، ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع ، ثم غزوة بدر الأولى بطلب كرز بن جابر ، ثم غزوة بدر الكبرى ، التى قتل فيها صناديد قريش ، ثم غزوة بنى سليم حتى بلغ الكدر ثم غزوة بحران ، معدن بالحجاز ، ثم غزوة أحد ، ثم غزوة حمراء الأسد ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوه ذات الرقاع من نخل ، ثم غزوة بدر الآخره . ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة الخندق ثم غزوة بنى قريظة ، ثم غزوة بنى لحيان من هزيل ، ثم عزوه الحديبية ، لا يريد قتالا ، قصده المشركون . ثم غزوة تبوك . قاتل منها فى تسع غزوات : بدر وأحد والخندق ، وقريظة ، والمصطلق ، والفتح وحنين ، والطائف[1] أقول : ولم يذكر إبن إسحاق » « غزوة بنى قينقاع » مع أنها أولى بتسميتها غزوة من عمره القضاء وهذا يدل على أن المسألة اعتبارية ، وهى مما تختلف فيها الأنظار ولا أدرى السبب فى عدم ذكر غزوة بنى قينقاع إلا أن يكون سهوا ، والعصمة لله ولرسوله وكذلك خالفت إبن إسحاق فى ترتيبه للغزوات بناء على الدليل والبرهان ، وقد بينت ذلك

---

(١) سيره بن هشام ج٢ص ٦٠٨ ـ ٦٠٩

ثم قال ابن اسحاق : وكان بعوثه ﷺ وسراياه ثمانياً وثلاثين من بين بعث وسرية . ثم شرع ـ رحمه الله ـ فى تفصيل ذلك .

وقال موسى بن عقبه فى مغازيه « قاتل رسول الله ﷺ بنفسه فى ثمان بدر ، ثم أحد ، ثم الأحزاب ، ثم المصطلق ، ثم خيبر ، ثم مكة ، ثم حنين ، ثم الصائف » فأهمل غزوة قريظة لأنه اعتبرها والأحزاب غزوة واحدة ، بينما أفردها ابن اسحاق وعلى هذا لاتنافى بين ماذكره موسى بن عقبة ، وما ذكره ابن اسحاق .

وكذلك عد بن سعد فى « الطبقات » المغازى سبعاً وعشرين ، وتبع فى ذلك الواقدى وهو موافق لما ذكره ابن اسحاق كما قدمنا قال الحافظ بن حجر فى الفتح : « إلا أنه لم يفرد وادى القرى من خيبر اشار إلى ذلك السهيلى ، وكأن الستة الزائدة من هذا القبيل ، وعلى هذا يحمل ما أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيب قال : « غزا رسول الله ﷺ أربعاً وعشرين غزوة » وأخرجه يعقوب بن سفيان عن سلمه بن شبيب عن عبد الرزاق ، فزاد فيه « ان سعيداً أقال أولا ثمانى عشرة ، ثم قال أربعا وعشرين » قال الزهرى فلا أدرى أوهم ـ غلطة أو كان شيئاً سمعه بعد ، قلت ـ أى الحافظ ـ : وحمله على ماذكرته يدفع الوهم ويجمع الاقوال والله أعلم .

وأما البعوث والسرايا فقد عدها ابن اسحاق ثمانياً وثلاثين ، وعدها الواقدى ثمانياً وأربعين ، وعدها ابن سعد ستاً وخمسين ، وحكى ذلك ابن الجوزى فى « التلقيح » وعدها المسعودى ستين ، وبلغها إلى الحافظ العراقى فى نظم السيرة زيادة على السبعين ووقع عند الحاكم فى « الاكليل » أنها تزيد على مائة ، فلعله أراد ضم المغازى إليها ، كما قال الحافظ فى الفتح .

فلا يهولنك ـ أيها القارىء الفطن ـ ما ترى من اختلاف فى العدة ، فالعبارات ليست حاصرة ، والعدد كما يقول بعض الاصوليين لامفهوم له ، فذكر الأقل لاينفى ذكر الأكثر ، والمسألة كما قلت لك اعتبارية ، فمن ثم اختلفت

العبارات فى العدة ؛ لاختلاف الاعتبارات ؛ وكل أخبر بما علم وقد يكون عند الواحد من صحابة رسول الله ﷺ ما ليس عند الآخر ، وقد يشهد الواحد منهم ما لا يشهد الآخر .

وهذا هو اللائق بصحابة رسول الله ﷺ ، والرعيل الأول من المسلمين الذين نشروا الاسلام وضحوا فى سبيله بالنفس والنفيس ، والاهل والولد ، وكان الواحد منهم لأن يخر من أعلا جبل ، أهون عليه من أن يكذب على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أو يصفه بما ليس فيه ، أو ينسب اليه ما لم يصدر عنه .

وكانوا من العدالة ، ومن الصدق ، والضبط بالمحل الأرفع ، وكيف لا ؟ وقد أثنى الله عليهم بالثناء المستطاب فى القرآن الكريم ، وضرب بهم الامثال فى التوراة والانجيل ، وأثنى عليهم الرسول الكريم غاية الثناء .

ولا تعجب — ياقارئى الحصيف — إذا كنت أعنى بالتوفيق بين الآيات القرآنية ، والاحاديث والمرويات ، لأن هذا من جل مقاصدى فى هذا الكتاب أن أبين أن آيات الله يصدق بعضها بعضا ، وتتعارف ولا تتناكر ، وتتآلف ولا تتخالف ، وأن الاحاديث الصحيحة الثابتة لايرد بعضها بعضا ، ولا يناقض بعضها البعض الآخر ، وأن لهذه وتلك مخارج صحيحة لمن أعمل الذهن ، وقدح الفكر ، وتناولها بالقلب المؤمن ، والعقل المتئد البصير ، رزقنى الله وإياك : إيماناً ثابتاً لايتزعزع ، وقلباً بصيراً تقياً ، من الشكوك نقياً ، وعلماً نافعاً . ولساناً ذاكراً . وبالحق قوالا . وعن الاسلام . ورجالاته منافحاً . وأتم على وعليك نعمة الاسلام . ولسان حالى وحالى يقول :

ابى الاسلام لا أب لى سواه  إذا افتخروا بقيس أو تميم

## « حجة الوداع »

ها هى الوفود قد جاءت تترى من كل ناحية ، وأضحت الجزيرة العربية مؤمنة موحدة ، وها هى دعائم الإسلام وشرائعه قد استقرت وبينها النبى بقوله وعمله ولم يبق من أصول الإسلام ما هو فى حاجة إلى البيان القولى والعملى من النبى ﷺ إلا الحج ، وها هو الصديق قد مهد بالحج سنة تسع للنبى أن يحج بالناس ليوقفهم على مناسكه كما شرعه الله من لدن الخليل ابراهيم عليه الصلاة ، ولينفى عن الحج ما شابه من بدع ومستحدثات ، وإنا لنلمس هذا المعنى جلياً فى قوله صلى الله عليه وسلم ( كونوا على مشاعركم فانكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم ) رواه النسائى وأبو داود والترمذى وابن ماجه وقوله فى هذه الحجة وهو يرمى جمرة العقبة : ( لتأخذوا مناسككم فإنى لاأرى لعلى لا أحج بعد حجتى هذه ) رواه مسلم .

وتسمى هذه الحجة حجة الوداع ، لأن النبى ﷺ ودع المسلمين بهذا القول ، وحجة الإسلام لأنه لم يحج بعد الهجرة غيرها ، وأما قبل الهجرة فقد حج مراراً قبل النبوة وبعدها ، وحجة البلاغ لأن النبى بلغ الناس شرع الله فى الحج قولا وعملا ، وذكرهم بالمهم من شرائع الإسلام ، وحقوق الانسان ، وأشهد الله والناس على ذلك .

( الأذان بالحج ) ولم يكد يحل شهر ذو القعدة من هذا العام حتى أخذ رسول الله فى التجهز للحج ، وأذن فى الناس بذلك ، وأمرهم بالتجهز ، فصادفت الدعوة هوى فى النفوس ، فجاء الناس من كل فج وصوب ، من القرى والبوادى ، والسهل والجبل ، والوديان والصحارى ، مشاة وركباناً ، تحدوهم الرغبة الصادقة فى حج بيت الله مهوى القلوب ، ومثابة للناس ، والحرص على أن يحظوا بالشرف الرفيع شرف مصاحبة الرسول ، والنظر إليه ، والسماع منه ، وضرب حول المدينة الخيام لمائة ألف أو يزيدون ، وحد بينهم

الإسلام ، وربط قلوبهم على المحبة والإخاء ، بعد أن كانوا أوزاعاً متفرقين ، وأعداء متنابذين .

( الخروج للحج ) وفى يوم السبت الخامس والعشرين من ذى القعدة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الالوف المؤلفة بعد أن صلى الظهر بالمدينة أربعاً ، وقد استخلف عليها أبا دجانة ، وقيل : سباع بن عرقطة حتى وصل إلى ذى الحليفه[1] فصلى العصر بها ركعتين ثم بات بها ، فلما أصبح اغتسل للأحرام ، وتطيب وليد[2] رأسه ، وصلى ركعتين وكان رسول الله قد ساق معه الهدى ، قيل مائة ، وقيل دون ذلك ، فأشعر واحدة منها وقلدها نعلين ، وتولى إشعار الباقى وتقليده غيره ، ثم ركب ناقته (القصواء) وأهل بالحج قائلا : ( لبيك اللهم لبيك ) لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك لبيك ) ولما أشرفت ناقته على البيداء أدخل العمرة على الحج قائلا : لبيك بعمرة وحجة ، وأما المسلمون فمنهم من أحرم بحج ، ومنهم من أحرم بعمرة . ومنهم من أحرم بعمره وحج معاً كما روى فى الصحيحين ، وسار الرسول والمسلمون وهم يلبون ويكبرون ويهللون ، لا ينفكون عن ذلك كلما علوا شرفا ـ مكانا عاليا ـ أو هبطوا واديا ، وتجاوبت الأصداء بالتوحيد والتهليل ، وشهدت الصحراء هذا المشهد الفريد الذى لم تشهد له مثيلا من قبل ، ولن تشهد له مثالا من بعد .

( بم أحرم النبى ) ؟ وقد اختلفت الروايات فى الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث والسير فى صفة إحرامه صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع اختلافا كثيراً ، واختلف تبعاً لذلك أئمة العلم والفقه والحديث : أكان رسول الله مفرداً . أم قارناً ، أم متمتعاً ؟[3] (وليس من شأنى هنا أن أعرض لذلك بالتفصيل . فذلك

---

(١) موضع على ستة أميال من المدينة وهو ميقات أهلها .

(٢) التليد : دهن الرأس بشىء لزج كصمغ مثلا حتى لا يتشعث ولا تنولد به هوام .

(٣) المفرد : المحرم بالحج فقط ، القارن : أن يحرم بالحج والعمرة معا . أو يحرم بالحج ثم يدخل عليه العمره ، أو بالعكس . المتمتع : أن يعتمر ولا فى أشهر الحج حتى إذا فرغ منها أحرم بالحج .

يحتاج إلى رسالة ، ولكنى أقول : إن الذى عليه المحققون من العلماء أن رسول الله ﷺ أهل بالحج ، ثم أدخل عليه الإحرام بالعمرة فصار قارنا ، واستمر على ذلك لم يتحلل من عمرته حتى قضى النسكين لأنه كان ساق معه الهدى كما ذكرنا ، ثم إنه ﷺ أمر من أحرم بالحج ولم يسق الهدى أن يجعله عمرة ويتحلل منها ، ثم يهل بالحج يوم التروية ، فمن ثم حصل هذا الاختلاف ، فمن روى أو رأى أنه أهل بالحج فقط أراد ما أهل به أولا ، ومن قال : إنه كان قارنا أراد آخر أحواله ، ومن قال إنه متمتعاً أراد التمتع اللغوى وهو الانتفاع بالجمع بين الحج والعمرة فى اشهر الحج ، أو أنه فهم من أمره بالاقتصار على العمرة والتحلل منها ثم الإحرام بالحج بعد أن كان متمتعا[1] .

وأحب أن يضع القارىء الفطن فى اعتباره أنه من المستبعد أن تتفق عشرات الألوف هذه كلها على رواية أو رأى ، إذا لم يسمع الكل من النبى أو يروا ماصنعه فى وقت واحد ، وبذلك لا يهوله هذا الاختلاف ، ويستبعد من تفكيره أن يكون مبعثه التناقض ، أو الهوى والتزيد .

وفى سرف ـ مكان قريب من مكة ـ أمر رسول الله من أحرم بالحج ولم يسق الهدى أن يجعل حجة عمرة ، وفى ( ذى طوى ) على مشارف مكة بات الرسول وأصحابه حتى صلى بهم الصبح ، ثم اغتسل لدخول مكة .

( وفى مكة ) ودخلت هذه الجموع الحاشدة مكة من الثنية العليا نهارا جهارا ، وكان ذلك فى يوم الأحد الرابع من ذى الحجة فلما عاين الرسول البيت قال : ( اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، فحينا ـ ربنا ـ بالسلام اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيما ، وتكريماً ومهابة وبراً ، وزد من حجه أو اعتمره تكريماً وتشريفا ، وتعظيما وبرا ) رواه الشافعى والبيهقى .

---

(١) راجع صحيح مسلم بشرح النووى ج ٨ ص ١٣٥ ، وفتح البارى ج ٣ ص ٣٢٥ والبداية والنهاية ج ٥ ص ١٤٠

( الطواف بالبيت ) وطاف رسول الله ﷺ وهو راكب ناقته ، يستلم الحجر الأسود بمحجن فى يده ، لأجل ان يراه الناس فيقتدوا به ويسألوه ، ولأجل أن لا يصرف عنه الناس فقد غشوه من كل جانب وطاف بطوافه المسلمون وأمرهم أن يضطبعوا ويرملوا فى الأشواط الثلاثة الأولى[1] ، ويمشوا على هيئتهم فى الأربعة الباقية حتى إذا فرغ من طوافه أتى مقام ابراهيم وهو يتلو قول الله تعالى : ( واتخذوا من مقام[2] إبراهيم مصلى ) فصلى وراءه ركعتين ، ثم استلم الحجر مرة أخرى .

( إلى الصفا والمروه ) ثم خرج من باب بنى مخزوم إلى الصفا وهو يقرأ قول الله تعالى : ( إن الصفا والمروه من شعائر الله ) الآية ، أبدأ بما بدأ الله به فصعد عليه حتى عاين البيت فاستقبله قائلا : ( لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله أنجز وعده وصدق عبده ، وهزم الأحزاب وحده ) ثم نزل إلى المروة ، ثم رجع إلى الصفا وهكذا حتى أتم سبعة أشواط ، فلما فرغ من السعى بينهما أمر أصحابه بأن من لم يكن معه هدى فليجعل حجه عمرة وليتحلل منها ، فتباطأ بعض الصحابة فى ذلك تأسفاً على عدم الاقتداء به ، فطيب خاطرهم ، وبين لهم السبب فى عدم تحلله فقال : ( لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ، ولجعلتها عمرة ) فحل الناس كلهم وقصروا ، ولم يبق محرما إلا النبى ومن ساق معه الهدى .

( إلى الأبطح ) ثم سار رسول الله والناس معه حتى نزلوا بالأبطح — مكان فسيح شرقى مكة — وأقام هناك إلى يوم الأربعاء يصلى بأصحابه ، ولم يعد إلى الكعبة من تلك الأيام كلها .

---

(١) الرمل هو الهرولة ، وقد بينت معنى ذلك وحكمه فى ص٣١١ وما بعدها من كتابنا هذا

(٢) هو الحجر الذى قام عليه سيدنا ابراهيم الخليل وهو يبنى الكعبة ولا يزال موجودا إلى يومنا هذا تجاه باب الكعبة ، أما المحجن : فهو عصا معقوفة فى آخرها

( قدوم على ) وقدم على بن أبى طالب — رضى الله عنه — من اليمن فوافى النبى بهذا المكان ، ووجد زوجته السيدة فاطمة قد أحلت كما حل أزواج النبى ، ولبست ثياباً مصبوغة فقال : من أمرك بهذا ؟ قالت : أبى ، فأخبر الرسـ ـول بذلك فقال : ( صدقت ، صدقت ) ثم قال له : ( بم أهللت ) قال : ( يا هلال كاهلال النبى ) وكان معه هدى ساقه معه ، فقال له النبى : ( أمكث على إحرامك ) وقدم أبى موسى الأشعرى أيضاً ، لم يكن ساق الهدى فامره الرسول أن يفسخ حجه العمرة ويتحلل منها ، رواها الشيخان .

( الخروج إلى منى ) وفى يوم الخميس الثامن من ذى الحجة ، ويقال له يوم التروية ، خرج النبى وأصحابه إلى منى بعد أن أحرم بالحج الذين كانوا قد تحللوا من عمرتهم من الأبطح ، وساروا حتى جاءوا منى ، فصلى بهم النبى الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء والفجر .

( إلى عرفات ) وبعد شروق الشمس خرج النبى قاصداً عرفات ، وأمر ان تضرب له قبة ( بنمرة )[1] فسار رسول الله ولا تشك قريش إلا أنه سيقف بالمشعر الحرام[2] كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية ، ولكن النبى أخلف ظنهم ، وسار حتى أتى عرفات ائتماراً بأمر الله فى قوله : ( ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ) فوجد القبة قد ضربت ، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس ركب ناقته ( القصواء ) حتى أتى بطن الوادى ( وادى عرنة ) وهنـا لك خطب خطبته المشهورة الجامعة .

« خطبة عرفة » قال صلى الله عليه وسلم بعد أن حمد الله وأثنى عليه « أيها الناس : اسمعوا قولى ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الوقف أبداً ، أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حـ ـرام إلى أن تلقوا ربكم

---

( ١ ) بفتح النون وكسر الميم موضع بجانب عرفات

(٢) جبل بالمزدلفة يسمى قزح

كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد فمن كانت عنده أمانة ، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

إلا إن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع[١] وربا الجاهلية موضوع ، وان أول ربا أبدأ به رباعمى العباس بن عبد المطلب .

وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم ابن[٢] ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب .

وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية[٣] .

والعمد قود ،[٤] وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس : ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيماسوى ذلك ، مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس : إن النسىء[٥] زيادة فى الكفر يضل به إلى الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ، ثلاثه متواليات وواحد فرد : ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس : إن لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا . لكم عليهن

---

(١) أى باطل (٢) اسمه إياس ، وقيل حارثة والأول أصح وهو ابن ابن عم النبى

(٣) السدانة خدمة الكعبة والسقاية . سقاية الحجيج (٤) قصاص

(٥) كانت العرب تدين بالأشهر الحرم التى يحرمون فيها القتال وربما كانوا يستحلون ثلاثه شهور متواليه لحاجتهم إلى الحرب والقتال ، فيؤخرون حرمه المحرم إلى صفر ويجعلون صفر مكانه حتى صار التحريم لعدد الأشهر لا لذواتها ، وقد عاب عليهم القرآن هذا لاتباعهم الهوى فى التحليل والتحريم .

أن لا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا باذنكم فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعظوهن ، وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح[1] ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن ، عوان[2] عندكم لا يملكن لأنفسهم شيئا ، وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله[3] ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد .

أيها الناس . إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد ، فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم ، وآدم من تراب : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد .

أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، وإنه لاوصية لوارث ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث .

والولد للفراش ، وللعاهر الحجر[4] ، ومن أدعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا[5] ، وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ويقلبها على الناس :

---

(١) غير شديد ولا مؤلم (٢) جمع عانيه وهى الأسيرة أى كالأسيرات فى ضعفهن

(٣) عقد النكاح .

(٤) العاهر : الزانى . الحجر : الرجم ، والمراد أنه لاينسب إليه الطفل لأن الولد للفراش

(٥) الصرف التوبه . العدل : الفديه

اللهم أشهد ، اللهم أشهد ، اللهم أشهد ، والسلام عليكم ورحمة الله »(١) ، وكان جرير بن عبد الله البجلى يستنصت الناس ، وكان ربيعة بن أمية بن خلف يبلغ عن رسول الله ﷺ .

وبعد أن فرغ رسول الله من هذه الخطبة الجامعة أذن بلال ثم أقام فصلى النبى بالناس الظهر ، ثم أقام فصلى بهم العصر ، جامعاً بينهما جمع تقديم ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب ناقته حتى جاء الصخرات التى فى أسفل جبل الرحمة فوقف عندها مستقبلا القبلة ، حتى غربت الشمس ، وقال : « وقفت ههنا وعرفات كلها موقف » ، وأكثر من الدعاء لأمته فى هذا اليوم العظيم يوم عرفه ، وكان يوم جمعة ، هذا اليوم الذى تسكب فيه العبرات ، وتستجاب الدعوات ، ويتجلى الله فيه على عباده ، فيباهى بهم الملائكة ، ويقول : « يا ملائكتى هؤلاء عبادى جاءونى شعثاً غبراً(٢) يرجون رحمتى ويخافون عذابى ولم يروني ، فكيف لو رأونى فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل لغفرتها لهم ، أفيضوا عبادى مغفوراً لكم ولمن شفعتم فيه »(٣) .

وقد روى « أن النبى لما كثر من الدعاء لأمته بالمغفرة أوحى الله إليه أنه غفر كل شىء إلا ظلم بعضهم بعضاً » قول البيهقى .

« ما نزل فى يوم عرفة » وفى هذا اليوم المشهور نزل على النبى ﷺ قول الله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . ولما نزلت هذه الآية بكى بعض الصحابة — ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه — وكأنهم فهموا منها الإشارة إلى قرب أجل الرسول ، ولما قيل لسيدنا عمر : ما يبكيك ؟ قال : أنه ليس بعد الكمال إلا النقصان .

« خطأ مشهور » وهو ما يزعمه البعض من أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن ، وهو غلط لم يقل به أحد من العلماء ، والحق أن آخر آية نزلت

---

(١) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٦٠٣ — ٦٠٥ صحيح مسلم بشرح النووى ج ٨ ص ١٨٢ — ١٨٤ : والبداية والنهاية ج ٥ ص ١٧٠ . ١٧١

(٢) بضم الشين ، والغين جمع أشعث وأغبر

(٣) رواه عبد الرازق فى مصنفه وأصله صحيح مسلم كتاب الحج من باب فضل يوم عرفه وروى نحوه الامام أحمد فى مسنده

في قوله تعالى في سورة البقرة : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » والمراد بإكمال الدين . إما إتمام حجهم على حسب ما شرع الله ، وإذلال الشرك وأهله بحيث لم يشاركهم فيه أحد من المشركين ، وهو تمام النعمة عليهم ، وأما إكمال الحلال والحرام ، وهذا لا ينافي نزول شيء بعدها لا يتعلق بالحلال والحرام[1] .

« إلى المزدلفة » ثم ركب النبي ناقته بعد الغروب ، وشد زمامها حتى لتكاد رأسها تمس مقدمة الرحل وأردف وراءه أسامة بن زيد وهو يشير إلى الناس قائلا « السكينة ، السكينة ، ليس البر بالإيضاع »[2] حتى أتى إلى « المزدلفة »[3] فصلى بها المغرب والعشاء جامعا بينهما جمع تأخير بأذان وإقامتين ولم يتنفل بينهما ، ثم اضطجع ﷺ حتى صلى الفجر ، ثم ركب ناقته حتى أتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، ودعا الله وأكثر من الدعاء وهلل ، وكبر ، وما زال واقفاً حتى أسفر الصبح جداً .

وقد روى « أن النبي عاود الدعاء لأمته في المزدلفه . فأكثر من الدعاء ، فأوحى الله إليه : إني قد غفرت لهم لا ظلم بعضهم بعضاً ، فقال : يارب انك قادر على أن تثيب المظلوم خيراً من مظلمته ، وتغفر لهذا الظالم ، فلم يجبه هذه العشية ، فلما كان غداة المزدلفة أعاد الدعاء ، فأوحى الله إليه أنه غفر لهم كل شيء ، فجعل ابليس يدعو على نفسه بالويل والثبور ، ويحثو التراب على رأسه ، رواه أبو داود الطيالبي ، وروى نحوه البيهقي ، وابن ماجه .

« إلى منى » ثم دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منى قبل أن تطلع الشمس مردفاً وراءه الفضل بن العباس حتى أتى وادى محسر[4] فأسرع بدابته ،

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم للمؤلف ص ١٢٥

(٢) الاسراع .

(٣) مكان معروف سميت بهذا لأن الناس يزدلفون أى يقتربون فيها إلى الله بالدعاء

(٤) بضم الميم وفتح الحاء وكسر السين المشددة

ثم قصد إلى الجمرة الكبرى « جمرة العقبة » فرماها بسبع حصيات صغار يكبر عند كل حصاة منها ، حتى إذا فرغ من الرمى انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده ، وقال : « نحرت ههنا ومنى كلها منحر » ونحر سيدنا على الباقى وهى تمام المائة ، ثم أمر أن يؤخذ من كل بدنه بضعة[1] ، فجعلت فى قدر فطبخت ، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها ، ثم حلق صلى الله عليه وسلم شعره والصحابة مطيفون به ، ما يريدون أن تقع شعرة إلا فى يد واحد منهم ، وبذلك أحل صلى الله عليه وسلم وليس ثيابه وتطيب قبل أن يطوف بالبيت ، والمسلمون جميعاً يقتدون به فى كل ما يصنع من المناسك ، ثم أمر عليا أن يتصدق بلحوم البدن وجلودها وجلالها ، ففعل .

« إلى الكعبة » ثم ركب صلى الله عليه وسلم حتى جاء البيت ليطوف طواف الإفاضة ، وهو ركن من أركان الحج بالاجماع ، فطاف وصلى بمكة الظهر ولم يسع بين الصفا والمروة ، ثم أتى بنى عبد المطلب وهم يسقون الناس على بئر زمزم وقال : « وقال انزعوا بنى عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم » فناولوه دلوا فشرب منه حتى تضلع ، وأتى السقاية[2] التى يقوم بها العباس فقال : « اسقونى » فقال العباس : يا فضل ، إذهب إلى أمك فأت رسول الله بشراب من عندها فإن هذا يجعل الناس أيديهم فيه ، فقال النبى : « لا حاجة لى فيه ، اسقونى مما يشرب الناس » وهكذا أبى النبى صلى الله عليه وسلم أن يتميز على أمته حتى فى الشراب ، وهذا غاية العدل والمساواة ، وهكذا فليكن الملوك والأمراء ، والقادة ، والرؤساء . ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منى بعد الظهر ، فنزل حيث المسجد الموجود اليوم فيما يقال ، وأنزل المهاجرين عن يمينه ، والأنصار عن يساره والناس حولهم من بعدهم .

---

(١) بفتح الباء أى قطعة .

(٢) كانوا ينقعون التمر والزبيب فى الماء ويسقون الناس وهو من مآثر الجاهلية التى أقرها الاسلام .

« خطبة يوم النحر » وفى يوم النحر خطب النبى صلى الله عليه وسلم وهو واقف على ناقته خطبة أخرى ، أكد فيها بعض ما ذكره فى يوم عرفات من حقوق الانسان فى الاسلام ، والوصاة بالأخوة والوحدة روى البخارى فى صحيحه عن أبى بكرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر قال أتدرون أى يوم هذا ؟ « قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال : « أليس ذو الحجه » قلنا : بلى ، قال « أى بلد هذا ، قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال « أليست بالبلدة الحرام » ؟ قلنا : بلى ، قال : فان دماءكم ، وأموالكم ، وفى رواية — وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم ، ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم قال : « اللهم أشهد : فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » (١) وكان سيدنا على يبلغ عن النبى هذه الخطبة ، ثم سأله بعض الصحابة عن تقديم بعض المناسك على بعض ، وتأخير بعضها عن مكانه نسياناً وسهواً ، فما سألوه عن شىء من ذلك إلا وقال : « لا حرج .لا حرج ».

« المقام بمنى » وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى يوم النحر ، وأيام التشريق الثلاثة(٢) يرمى الجمرات(٣) فى كل يوم إذا ذاغت الشمس، كل جمره بسبع حصيات يكبر على إثر كل حصاة ويقف بعد كل من الجمرتين الأوليين مستقبلا القبلة ، ورافعاً يديه يدعو ويطيل الوقوف ، فاذا رمى الثالثة انصرف ولا يقف بعدها ، وأقام النبى تلك المده بمنى يصلى باصحابه ويقصر الرباعية ولم يرخص إلا لعمه العباس وأعوانه بالمبيت بمكه لأجل السقاية .

« خطبة أوسط أيام التشريق » وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى خطبة أخرى أوسط أيام التشريق وهو يوم النفر الأول ، روى الحافظان البزاز والبيهقى بسندهما عن ابن عمر قال : نزلت هذه السوره « إذا جاء نصر الله

---

(١) صحيح البخارى — كتاب الحج — باب لطيبة أيام منى.

(٢) هى الثلاثة التى تلى يوم النحر سميت بذلك لأنهم كانوا يشرقون فيها اللحم ويجففونه

(٣) هى ثلاث: الجمرة الأولى التى تلى مسجد الخيف بمنى ، والجمرة الوسطى وجمرة العقبة.

والفتح » فى أوسط أيام التشريق فعرف رسول الله أنه الوداع ، فأمر براحلته القصواء فرحلت ثم ذكر خطبته فى هذا اليوم ، وهى تأكيد لبعض ما جاء فى خطبتى عرفة ، ويوم النحر ،[1] .

وفى الحق أن تكرار الخطب فى حجة الوداع كان أمرا لابد منه، فهى الحجة الوحيدة التى حجها الرسول ، وقد عز فيها الإسلام والمسلمون ، وأصبحت كلمتهم هى النافذة فى الجزيرة العربية ، كما كانت الوداع الأخير ، فما أشد حاجة المسلمين فى هذا المشهد العظيم الفذ إلى التذكير والنصح والتوصية ، وإلى تكرار القول والتأكيد حتى يعوه ويحفظوه ولاينسوه ، وإلى تقريرهم بابلاغ الرسالة ، وأداء الامانة ، وإشهاد الله عليهم ، حتى تقوم عليهم الحجة ، وتنقطع المعذرة ، وقد روى ايضا أن النبى خطبهم أيضا بمكة فى اليوم السابع ، والظاهر أنها كانت لتعليمهم المناسك والمشاعر .

« فائدة » كان يقال لليوم السابع من ذى الحجة يوم الزينة ، لأنه يزين فيه البدن التى تهدى بالجلال وغيرها واليوم الثامن يقال له : يوم التروية لأنهم كانوا يروون فيه إبلهم من الماء ، ويحملون منه مايحتاجون إليه حال الوقوف وما بعده لأن هذه الأماكن لم يكن فيها يومئذ آبار ولا عيون، أما الآن ففيها الماء كثير والحمد لله ، واليوم التاسع : يوم عرفة للوقوف فيه بها ، واليوم العاشر : يوم النحر ويوم الأضحى ويوم الحج الأكبر ، واليوم الحادى عشر : يوم القر لأنهم يقرون فيه ، ويقال له : يوم الرءوس لأنهم يأكلون فيه رءوس الأضاحى ، وهو أول أيام التشريق ، وثانى أيام التشريق يقال له : يوم النفر الأول لجواز الخروج فيه إلى مكة لمن يريد التعجل ، وثالث أيام التشريق يقال له : يوم النفر الثانى قال عز شأنه : « واذكروا الله فى أيام معدودات ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه . . . »[2]

---

(١) البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٢) البقرة / ٢٠٣ .

( إلى الأبطح بمكة ) وفى اليوم الثالث من أيام التشريق ، وكان يوم الثلاثاء ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فنفروا بهم من منى حتى نزل بالأبطح وهو ( المحصب ) وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل به فى الفتح وفى حجة الوداع ، وهو الخيف : خيف بنى كنانة ، وقد قدمت السبب فى نزوله به[1] : فصلى بهم فى الأبطح الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ، وهجع هجعة استراح فيها من العناء ، وكان رسول الله بعث عائشة مع أخيها عبد الرحمن ليعمرها من التنعيم ، لأنها لم تتمكن عند القدوم من أداء العمرة بسبب حيضتها ، فلما قضت عمرتها ورجعت . أذن النبى فى المسلمين بالرحيل ، فارتحلت ، وطاف بالبيت طواف الزيارة ، وصلى بهم الصبح عند الكعبة ، ثم خرجوا من البلد الحرام من ( كدى ) راجعين إلى البلد الطيب ( المدينة ) وهو يكبرون ويهللو ويقولون : آيبون تائبون عابدون ، ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

( فى غدير خم ) وفى مرجعه صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة خطب بمكان يسمى ( غدير خم )[2] مبينا فضل على بن أبى طالب رضى الله عنه وبراءة عرضه مما تكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن ، بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التى ظنها بعضهم جورا وتضييقا عليهم وبخلا ، والصواب كان معه فى هذا لأنها أموال صدقات وخمس ، وذكر من فضل على وأمانته وعدله وقربه إليه ما أزاح به ما كان فى نفوس كثير من الناس منه ، وكان مما قاله النبى فى هذه الخطبة ما رواه النسائى بسنده عن زيد بن أرقم قال : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ونزل غدير خم قال : ( كأنى قد دعيت فأجبت ، إنى قد تركت فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتى أهل بيتى ، فانظروا كيف تخلفونى فيهما ، فانهما لن

---

(١) ص ٣٥٠ (٢) بضم الغاء وتشديد الميم موضع قريب من الجحفة .

يفترقا حتى يردا على الحوض ، ثم قال : الله مولاى وأنا مولى كل مؤمن ، ثم أخذ بيد على فقال : من كنت مولاه فهذا وليه ، اللهم والى من والاه ، وعاد من عاداه ) قال الامام أبو عبد الله الذهبي : هذا حديث صحيح ، وقد استوفى الكلام على هذا الحديث الامام الحافظ المؤرخ بن كثير فى بدايته مبينا الروايات الصحيحة من الحسنة من الضعيفة والموضوعة فليرجع إليه من يشاء[1] .

## ( أحداث فى هذا العام )

( وفاة ابراهيم ابن النبى ) وفى شهر ربيع الأول من هذا العام ، وقيل : فى رمضان ، وقيل : فى ذى الحجة مات ابراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم من مارية القبطية وهو ابن ستة عشر شهراً ، وقيل : أكثر من ذلك ، وقد كان النبى بمقتضى الفطرة البشرية قد فرح بمولده فرحا عظيما كما قدمنا ، فلا عجب إن كان حزنه عليه شديداً ، وقد دخل عليه وهو يجود بنفسه ، فصارت عيناه تذرفان بالدموع ، فقال عبد الرحمن بن عوف : وأنت يارسول الله ؟ ! فقال : ( يا ابن عوف ، إنها رحمة ) وقال : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وانا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » رواه البخارى ) .

( وقال أيضاً : ) لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وإن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزنا أشد من هذا ) ثم غسل وكفن وصلى عليه النبى وأصحابه ، ودفع بالبقيع[2] بجوار السلف الصالح : عثمان بن مظعون .

وقد وافق يوم مات إبراهيم أن كسفت الشمس ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت ابراهيم ! ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله ،

---

(١) البداية والنهاية جـ٥ ص٢٠٨ ـ ٢١٤

(٢) مقبرة أهل المدينه ودفن فيها

فاذا رأيتموهما فقـــوموا وصلوا وادعوا الله ) رواه البخارى .

وإن المنصف ليقف خاشعا أمام هذا القول الحكيم الذى يدل على أن سيدنا محمدا نبى حقاً ، فلو لم يكن نبياً . وكان طالب ملك أو زعامة . أو شرف وجاه أو مدعيا نبوة لاستغل اعتقاد الناس هذا أو على الأقل يسكت. ولم يزل الدجالون وأدعياء النبوة والمشعوذون . من لدن مسيلمة إلى يومنا هذا يستغلون سذاجة الناس وجهلهم فى مثل هذا . بل ويحاولون ما استطاعوا التمويه على الناس والتلبيس عليهم ، ولكنه النبى الذى لا ينطق عن الهوى ! ! وأى عظمة نفسية أعظم من أن لا ينسى الرسول رسالته فى أشد المواقف التى تملأ النفس غما وحزنا وربما تزهل الشخص عما هو حق ، لذلك لا تعجب إذا كان المستشرقون الذين كتبوا فى سيرة النبى . وتناولوا هذه القصة وقفوا منها موقف الاجلال والاعظام ولم يستطيعوا كتم اعجابهم وإكبارهم للنبى ، واعلان عرفانهم بصدق إنسان لم يرض فى أدق المواقف إلا الصدق واعلان الحق .

( تنبؤ مسيلمه ) قدمنا ما كان من قدوم مسيلمة الكذاب ، مع وفد بنى حنيفه . وأنه عرض على النبى أن يشركه فى الأمر أو يجعله له من بعده . فابى عليه ، وفى آخر سنه عشر ، أرسل الى النبى هذا الكتاب « من مسيلمه رسول الله إلى محمد رسول الله . سلام عليك . أما بعد فانى قد أشركت فى الأمر معك فان لنا نصف الارض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يعتدون »

وقدم بالكتاب رسولان ، فقال لهما النبى : « وأنتما تقولان بمثل ما يقول » ؟ قالا : نعم ، فقال . ( أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما ) ثم كتب اليه ( بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى مسيلمه الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبه للمتقين ) واستغل تعصب بنى حنيفه له ، وصار يمخرق ويموه ويكذب ، ويأتى بكلام يضحك الثكلى . يزعم أنه قرآن نزل عليه ، حتى قضى على فتنته

وقتل فى عهد الصديق رضى الله عنه .

« تنبؤ الأسود العنسى » وقد ظهر بصنعاء ، وادعى النبوة ، واستعان على ذلك بالسحر والشعوذة ، وكان « باذان » أميرا على صنعاء ، من قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما مات باذان تزوج امرأته ، وطرد من صنعاء المهاجرا بن أبى أمية المخزومى عامل النبى على الصدقات، فكتب النبى إلى امرائه وعماله أن يحيطوا به ويقتلوه ، وقد نجحوا فى قتله بمساعدة ( المرزبانة ) زوجة باذان ، فقد سقته الخمر حتى سكر ، فدخل عليه فيروز واجتز رأسه، وجاء الخبر بذلك فى أول خلافة الصديق صبيحة دفن النبى صلى الله عليه وسلم(١)

## « السنة الحادية عشرة »

استهلت هذه السنة والنبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد أن عاد من حجة الوداع موفور الكرامه ، مطمئن القلب ، منشرح الصدر ، أن بلغ الرسالة وأدى الامانة ، وأكمل الله الدين ، وأتم النعمه وظهر الاسلام على الأديان كلها وما كان النبى لينسى ما صنع الروم بالمسلمين فى مؤته ، وقتل الابطال : زيد وجعفر وابن رواحه وغيرهم ، وما هموا به من غزو المدينه حتى كانت غزوة تبوك . وإيثار الروم الانسحاب على القتال . فعزم على إرسال جيش للاقتصاص منهم فكان بعث أسامه بن زيد .

« بعث أسامة بن زيد » فى آخر صفر من هذا العام ندب النبى الناس لغزوة الروم . فانتدب لذلك ثلاثه آلاف من خيار المسلمين فيهم كبار المهاجرين والانصار منهم أبو بكر . وعمر ، وأبو عبيدة ، وسعد ، وسعيد ، وسلمة بن أسلم ودعا النبى أسامه بن زيد وقال له . « سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش . وأغر صباحا عليهم . وأسرع المسير تسبق

---

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٧٦

الخير ، فإن ظفرك الله بهم فأقل اللبث فيهم ، وكان أسامة شابا لم يبلغ العشرين من عمره ، مما دعا بعض الصحابة إلى التكلم فى إمارته ، فلما نميت المقالة إلى رسول الله قال : « إن تطعنوا فى إمارته فقد طعنتم فى إمارة أبيه من قبل ، وأيم الله إن كان لخليقا بالإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلى وإن هذا لمن أحب الناس إلى بعده » رواه البخارى وعقد له اللواء بيده ، وخرج أسامة وعسكر « بالجرف ، خارج المدينة استعدادا للمسير ، وإنهم لعلى ذلك بلغهم اشتداد المرض بالرسول ، فلم يكن بد من التريث والانتظار فقد كان بالجيش كبار للهاجرين والانصار ممن تحتم الاحوال أن يكونوا بالمدينة فى هذا الظرف العصيب .

وقد كان تأمير أسامة لحكمة بالغة من الرسول ؛ إذ فيه حث له على التضحية فى سبيل الله ، والحرص على الأقتصاص من قاتلى أبيه ، كما كان فيه قضاء على العنجهية العربية ، والتفاخر بالأحساب والأنساب ، وتقرير عملى لمبدأ المساواة فى الإسلام ، وأيضا فقد كان من التوجيهات النبوية الحكيمة إلى تهيئة الفرص للشباب الصالح ، وإثارة عزائمهم ، وهممهم إلى معالى الأمور ، وتعويدهم الاضطلاع بالتبعات الجسام ؛ والمهام العظام .

## « مرض النبى ووفاته »

« النذر بقرب أجل النبى » إن الأرواح الشفافة الصافية القوية لتدرك بعض مايكون مخبوءا وراء حجب الغيب ، والقلوب الطاهرة المطمئنة لتحدث صاحبها بما عسى أن يحدث له فيما يستقبل من الزمان ، والعقول الذكية المستنيرة بنور الإيمان لتدرك ما وراء الألفاظ والأحداث من إشارات وتلميحات ، ولنبينا محمد من هذه الصفات الحظ الأوفر ، وهو منها بالمحل الأرفع الذى لايسامى ولا يطاول .

فلا تعجب إذا كان قد فهم من معارضة جبريل له بالقرآن مرتين فى

رمضان عام عشرة قرب انقضاء أجله ، كما فهم ذلك من نزول سورة النصر حتى روى أنه قال لجبريل : « لقد نعيت إلى نفسى »[1] فقال جبريل : « وللآخرة خير لك من الأولى » ولعلك على ذكره لمعاذ حين أرسله إلى اليمن ، وما قاله فى حجة لوداع مودعا للناس ، ولاتعجب أيضا إذا كان بعض الصحابة فهم ذلك عند مانزل قوله تعالى ( اليوم أكملت لكم دينكم ) كما ذكرنا آنفا ، ومن سورة النصر أيضا وقد روى ذلك فى صحيح البخارى عن عمر وابن عباس رضى الله عنهما[2] .

( ابتداء المرض ) وكان ابتداء مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أواخر شهر صفر أو أول شهر ربيع الاول فقد أمر أن يستغفر لاهل البقيع ، فانطلق ومعه مولاه أبو مويهبة فقال : السلام عليكم ياأهل المقابر ليهنىء لكم ما أنتم فيه مما أصبح الناس فيه ، اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ) ثم أقبل على أبى مويهبة قائلا : ( انى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة ) فقال أبو مويهبة : بأبى أنت وأمى فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، قال : ( لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربى والجنة ) ثم استغفر لاهل البقيع وانصرف ، وقد بدأ به وجعه فدخل على عائشة . فوجدها تشتكى صداعا وتقول : وارأساه . فقال : ( بل أنا والله يا عائشة وارأساه ) ثم قال مداعبا لها : ( وما عليك لو مت قبلى فقمت عليك ، وكفنتك وصليت عليك ودفنتك ) ؟ وأثارت الكلمه الغيرة فى نفسها ، فقالت : والله لكانى بك لوقد فعلت ذلك لقد رجعت الى بيتى فأعرست فيه باحدى نسائك فسكت الرسول واعتبرها مداعبه بمداعبة .

( اشتداد المرض ) وكان رسول الله يطوف على نسائه ، كما هو شأنه فى

---

(١) اشتهر على الألسنة « لقد نعيت إلى نفسى » بفتح التاء خطأ يا جبريل . والصحيح ماذكرناه بسكون التاء للتأنيث .

(٢) صحيح البخارى — كتاب التفسير — باب إذا جاء نصر الله .

تعهدهن ، ورعاية غاية العدل بينهن ، فاشتد به المرض وهو فى بيت السيدة ميمونة ، فدعا نساءه وأستأذنهن أن يمرض فى بيت السيدة عائشة فأذن له ، فخرج بين عمه العباس وابن عمه على تخط رجلاه الأرض ، حتى أتى بيتها وكان يعوده أهله وأزواجه ، وهو ببيت عائشة ، وفى ذات يوم زارته ابنته فاطمة فرحب بها وأجلسها بجانبه ثم أسر إليها شيئاً فبكت ، ثم سارها ثانياً فضحكت ، فسألتها عائشة عن السر ، فأجابت بأنه سر ، ثم أخبرت فيما بعد ، أن النبى أعلمها بقرب انتهاء أجله . وأمرها بالتقوى والصبر فبكت . ثم أخبرها أنها أول أهله لحوقا به ، وأنها سيدة أهل الجنة فضحكت[1] وقابل العباس عليا فقال له : إنى لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من مرضه هذا . إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت . ثم أشار عليه أن يذهبا إلى رسول الله يسألونه : فيمن هذا الأمر ؟ يعنى الخلافة . إن كان فينا علمنا ذلك . وإن كان فى غيرنا أوصى بنا . فقال له على : لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده وإنى والله لا أسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه البخارى . وقد كان رسول الله يستشفى من ألم الحمى بالماء البارد . كما كانت ترقيه السيدة عائشة بالمعوذتين وقل هو الله أحد . وفى ذات مرة وقد غشى عليه لدوه[2] فلما أفاق أمر أن يصنع بكل من فى البيت ، مثل ما صنعوا به إلا عمه العباس .

« صلاة أبى بكر بالناس » ولما اشتد برسول الله وجعه قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فقال عائشة : إن أبا بكر رجل أسيف[3] إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلى بالناس ، وأعاد النبى فأعادت ، وما حملها على قولها إلا خشية

---

(١) صحيح البارى باب علامات النبوة . وباب مرض النبى ووفاته

(٢) اللد : أن يسقى المريض الدواء كرها . وقد كان الدواء مرضا آخر غير مرضه فمن ثم كرهه . والا فالسنة مستفيضة بالحث على التداوى والاستشفاء

(٣) رقيق القلب يغلبه البكاء عند قراءة القرآن

أن يتشاءم الناس بأبيها ، فقال : ( إنكن صواحب[1] يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس » فخرج أحد الصحابة ليخبر بذلك فلم يجد أبا بكر ، ووجد عمر فقال : قم يا عمر فصل بالناس ، فلما كبر سمع النبى صوته فقال : « يأبى الله ذلك والمؤمنون ، وكررها فلم يصل أحد بعد هذا إلا أبو بكر ، فلام عمر الرجل على مافعل ، فقال : والله ما أمرنى رسول الله ، ولكن حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر الصلاة[2] .

« يوم الخميس » وفى يوم الخميس الذى قبيل وفاة الرسول ، خشى أن يموت قبل أن يعهد للناس فى شان الخلافة فقال — وحوله رجال من أهل بيته وأصحابه — : ( ائتونى أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا ) فقال بعضهم — إشفاقا — إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله ، واختلفوا فمن قائل باحضار الكتاب ، ومن مانع ، فلما كثر الأختلاف قال : ( دعونى فالذى أنا فيه خير مما تدعونى إليه ) وأوصاهم بثلاث قال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد ، بنحو ماكنت أجيزهم » وأما الثالثة فقيل الوصيه بالقرآن وقيل : تجهيز جيش أسامه رواه البخارى[3] وفى الصحيح أيضا أن رسول الله قال : « لقد هممت أن أرسل إلى أبى بكر وابنه فاعهد ، أن يقول القائلون ، أو يتمنى المتمنون ، وفى رواية الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبى الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبا بكر » .

« تنبيه » فى بعض روايات الصحيح « أهجر ؟ استفهموه » والهمزة للانكار والنفى ، والهجر مايقع من المريض من غير وعى ، والمراد انكار ونفى

---

(١) جمع صاحبه والمراد به هنا واحدة . وهى امرأة العزيز حيث استدعت النساء مظهرة الضيافة . وقصدها أن يرين حسنه فيعذرنها فى محبته ومراودتها عن نفسه

(٢) البداية والنهاية ج ٥ ص ٣٣٢

(٣) صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب مرض النبى ووفاته

أن يحصل منه ذلك ، أو أن يظن به ذلك ، فحاشاه أن يكون منه ذلك ، وفى بعضها « هجر » بغير الهمزة ، وهى محموله على الإنكار والنفى أيضا ، والعرب فى أساليبها قد تحذف حرف الاستفهام ويكون المعنى عليه[1] .

« خروج النبى إلى المسجد » وفى هذا اليوم عزم النبى صلى الله عليه وسلم على الخروج إلى الناس كى يوصيهم ويخطبهم ، فقال « أهريقوا على من سبع قرب لم تحل أوكيتهن[2] لعلى أعهد الناس » قالت عائشة : فأجلسناه فى مخضب[3] لحفصة ، ثم طفقنا نصب عليه الماء حتى طفق يشير إلينا بيده « أن فعلتن » فوجد من نفسه خفة ، فخرج على الناس ، وهم يصلون الظهر وهو يهادى بين رجلين ، فلما رآه أبو بكر أراد أن يتأخر فأومأ إليه أن مكانك ، ثم أجلس إلى جنب الصديق ، فجعل أبو بكر يصلى بالناس قائما ، والرسول يصلى وهو قاعد ، فمن قائل أن رسول الله صلى مأموما وراء أبى بكر ، ومن قائل : إن رسول الله تولى الإمامة ، وصلى أبو بكر بصلاة النبى ، وصلى الناس بصلاة أبى بكر ، ولعل الأول أرجح لانه أدل على منزلة الصديق وأحقيته للخلافه ،[4] وكانت هذه آخر صلاة صلاها رسول الله مع المسلمين ، ثم صعد المنبر فكان أول ما ذكر بعد حمد الله والثناء عليه ـ أصحاب أحد فأستغفر لهم ودعا ثم قال : « يامعشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون ، والأنصار على هيئتها لاتزيد ، وإنهم عيبتى[5] التى أويت إليها ، فأكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال : أيها الناس : إن عبدا خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله ، فاختار ماعند الله » ففهمها أبو بكر من دون الناس فبكى ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا ،

---

(١) فتح البارى ج٨ص١٥٨

(٢) الوكاء مايربط به ثم القربة

(٣) طست (٤) البداية والنهايه جـ٥ ص٢٣٤

(٥) خاصتى وموضع سرى

فعجب الناس لبكائه ، فكان المخير هو رسول الله : وكان أبو بكر أعلمهم بذلك فقال له رسول الله : « على رسلك يا أبا بكر »[١] ثم قال : إن أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر . ولو كنت متخذا من أمتى خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر ، ولكن خلة الإسلام ومودته[٢] لايبقى فى المسجد باب إلا سد إلا باب أبى بكر . ثم قال : وإن قوما ممن قبلكم إتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد . فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك ثم قال : أيها الناس أنفذوا بعث أسامة فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله : وإنه لخليق للامارة . وإن كان أبوه لخليقا لها ) وكان مما قاله . « ألا فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد .[٣] ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد ، ولايقولن قائل : أخاف الشحناء من قبل رسول الله ألا وإن الشحناء ليست من شأنى ولا من خلقى ، وإن أحبكم إلى من أخذ حقا إن كان له على ، أو حللنى فلقيت الله عز وجل وليس لأحد عندى مظلمة »[٤]

إلافلتشهد الدنيا إلى أى حد وصل عدل الحاكم مع المحكومين ، وإلى أى حد بلغت المساواة ، وبلغ الأعتراف بالجميل لذوية ، والإقرار بالفضل لأهله ، وهل بعد هذا يدع مدع ، أو يزعم زاعم أن أحداً أحق بالخلافة من أبى بكر .

« إن للموت لسكرات » ثم اشتدت الحمى بعد برسول الله حتى قال له أبو سعيد الخدرى « والله لا أطيق أن أضع يدى عليك من شدة حماك ، فيجيبه : ( إنا معاشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء ، كما يضاعف لنا الأجر ) وفى هذه الشدة كان يقول ( اللهم أعنى على سكرات الموت ) وكان كلما أفاق من غشيته قال : ( اللهم الرفيق الاعلى ) وكان رسول الله ﷺ حدثهم

---

( ١ ) تمهل فى البكاء حتى لايسترسل القاس فى البكاء

(٢) صداقة الاسلام ومحبتى (٣) فلاقتص منى (٤) البداية والنهاية ج٥ ص٢٣٠-٢٣١

قبل ذلك أن النبى لايموت حتى يخير بين الدنيا والآخرة قالت عائشة: « فلما سمعته يقول ذلك ، وقد أدركته بحة علمت أنه اختار الآخرة على الدنيا » رواه البخارى .

« صحوة الموت » وفى صبيحة الاثنين والصديق أبو بكر يصلى بالناس الفجر كشف النبى ستر الحجرة ، فنظر إليهم وهو قائم على حال حسنة، ثم تبسم لما رأى من اجتماعهم على رجل واحد ، وألفتهم وتآخيهم ، فنكص أبو بكر على عقبيه ظنا أن رسول الله يريد أن يخرج للصلاة ، وهم المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحا برسول الله ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر فكان هذا آخر عهده بالمسلمين ، وفرح الصحابة غاية الفرح ، ظنا أن رسول الله ﷺ أبل من مرضه ، وما علموا أنها الصحوة التى تسبق الموت ، وانصرف بعضهم إلى عمله ، ودخل أبوبكر على ابنته عائشة وقال : ماأرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع وهذا يوم بنت خارجة احدى زوجتيه وكانت تسكن بالسنح[1] فركب على فرسه ، وذهب إلى منزله.

« فى الرفيق الاعلى » واشتدت سكرات الموت بالنبى ودخل عليه أسامه ابن زيد وقد صمت فلا يقدر على الكلام، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة ، فعرف أنه يدعو له وأخذت السيدة عائشة رسول الله وأسندته إلى صدرها بين سحرها[2] ونحرها ، فدخل عبد الرحمن بن أبى بكر وبيده سواك فجعل رسول الله ينظر إليه فقالت عائشة : آخذه لك فاشار برأسه أن نعم فأخذته من أخيها ثم مضغته ولينته وناولته إياه فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك ، وكل ذلك وهو لا ينفك عن قوله : (فى الرفيق الأعلى)[3] وكان آخر ما تكلم به صلى الله عليه وسلم ( لا يبقى بجزيرة العرب دينان )

---

(١) السنح بضم سين مكان خارج المدينة كان للصديق مال فيه وبيت

(٢) السحر الرئه ، والنحر : الثغرة التى فى أسفل العنق

(٣) الرفيق الأعلى : هم الذين ذكرهم الله فى قوله : فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم

وقوله : ( الصلاة وما ملكت أيمانكم ) حتى جعل يغرغر بها صدره، ومايفصح بها لسانه .

فلما اشتد الضحى ، فاضت أطهر روح فى الدنيا من جسدها ، وصعدت إلى بارئها راضية مرضية . وخرج أكرم إنسان على الله فى هذا الوجود من الدنيا كما جاء إليها ، ولم يترك مالا ولا دينارا ولا درهما . ولا ولدا إلا فاطمة رضى الله عنها ، وإنما ترك هداية وإيمانا ، وشريعة عامة خالدة ، وميراثا روحيا عظيما وأمة هى خير الأمم وأوسطها ، وكان ذلك يوم الاثنين لهلال ربيع الأول،وقيل لليوم الثانى منه ، وقيل لليوم الثانى عشر منه من العام الحادى عشر للهجرة : والاول هو الأرجح ، ويليه الثانى ، وأما الثالث فعليه مأخذ وإن اختاره ابن إسحاق والواقدى وابن سعد[1] .

( هول الفاجعه ) وشاع الخبر فى المدينة فاذا لهم ضجيج بالبكاء ، كضجيج الحجيج بالإحرام وأذهل النبأ سيدنا عمر فصار يتوعد وينذر من يزعم أن النبى مات ، ويقول ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ابن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم ،والله ليرجعن رسول الله كمارجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات .

« خطبة الصديق » وأقبل أبو بكر من السنح على فرس له لما بلغه الخبر ، فوجد عمر يكلم الناس ، وينذر ويتوعد ، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مسجى فى البيت ببرد حبرة ، [2] فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه يقبله ، ويقول : « ما أطيبك حياً وميتا » وخرج

---

= من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقا ) وقيل هم الملائكة . وقيل هو الله جل جلاله وهو من أسماء الله الحسنى وصفاته يعنى فى كتبه ورحمته .

(١) نوع من ثياب اليمن .

(٣) فتح البارى ج ٨ ص ١٠٦ والروض الأنف ج ٢ ص ٢٧٢

أبو بكر وعمر يتكلم فقال أجلس يا عمر ، وهو ماض فى كلامه ، وفى ثورة غضبه ، فقام أبو بكر فى الناس خطيباً فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد فأن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فأن الله حى لا يموت ، ثم تلا هذه الآية « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئـــا وسيجزى الله الشاكرين » قال عمر : فوالله ما إن سمعت أبا بكر تلاها فهويت إلى الارض ، ما تحملنى قدماى . وعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات[1] ، وكذلك استفاق الناس من غشيتهم لما سمعوا أبا بكر يتلوها .

« فى سقيفه[2] بنى ساعدة » فى هذه الغمرة من الأسى والحزن ، كاد أن يضطرب أمر المسلمين فى مسألة الخلافة فالأنصار اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، واجتمع على والزبير وطلحه فى بيت فاطمه ، واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر وانضم إليه أسيد بن حضير فى بنى عبدالاشهل ، فقال عمر لابى بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الانصار ، فانطلقا حتى أتيا السقيفه فاذا هم مجتمعون ، وإذا بين أيديهم رجل مزمل ، فاذا هو سعد بن عبادة به وجع فلما جلسوا قام خطيب الانصار فاثنى على الله بما هو اهله ثم قال : ( أما بعد فنحن أنصار الله ، وكتيبه الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين ، رهط نبينا ، وقد دفت منكم دافه تريدون أن تخزلونا من أصلنا ، وتحضنونا من الأمر ) فلما سكت أراد أن يتكلم عمر وكان قد زور فى نفسه مقالة أعجبته ولكن الصديق منعه لما يعلم فيه من حدة قد لا تقيد فى هذا الموقف وقال له : على رسلك يا عمر ، ثم قام فتكلم قال الفاروق فو الله ما ترك من كلمة أعجبتنى من تزويرى إلا قالها فى بديهته وأفضل : قال :

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ـ باب مرض النبى صلى الله عليه وسلم ووفاته .

(٢) مكان عليه ظلة .

(٣) أعد وهيأ .

« يا أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة فى العرب ، وأمسهم رحما برسول الله ، أسلمنا قبلكم وقدمنا فى القرآن عليكم : فقال تبارك وتعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان) فنحن المهاجرون ، وأنتم الانصار إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفيء ، وأنصارنا على العدو ، أما ماذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، فأما العرب فلن تعرف هذا الامر إلا لهذا الحى من قريش ، فمنا الامراء . ومنكم الوزراء ) فقام أحد الانصار فقال أنا جذيلها المحكك[1] ، وعذيقها والمرجب[2] . منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش » فكثر وارتفعت الاصوات .

( بيعة الصديق ) وفى هذا الموقف العاصف قام الفاروق وكان جمهورى الصوت . فقال : أبسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبايعه . وقال : يامعشر الأنصار ، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ، ثم قام المهاجرون فبايعوا ، ثم قام الأنصار فبايعوا . وهكذا وقى الله المسلمين شر الفرقة وجمعهم على أفضلهم أبى بكر .

( البيعة العامة ) وفى اليوم الثانى غدا الصديق ومعه عمر والصحابة إلى المسجد النبوى ، ليبايع الناس المبايعة العامه فصعد أبو بكر المنبر ، وقام عمر خطيبا بين يديه فقال بعد أن حمد الله واثنى عليه : « أيها الناس . كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت : ولا وجدتها فى كتاب الله . ولا كانت

---

(١) الجذل : تصغير جذل ، وهو عود يكون فى وسط مبرك الابل تحتك به وتستريح إليه يضرب به المثل فى الرجل يستشفى برأيه وتوجد عنده الراحه

(٢) عذيق تصغير عذق وهى النخلة ، المرجب الذى تبنى إلى جانبه دعامة تسنده لكثرة حمله ، ونفاسته على أهله يضرب به المثل للرجل الشريف المعظم فى قومه ، والذى يكثر خيره

عهدا عهدها إلى رسول الله ؛ ولكنى كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ، حتى يدبرنا ـ يكون آخرنا ـ فان يك محمد قد مات فان الله جعل بين أظهركم نورا تهتدون به، فاعتصموا به تهتدوا وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثانى اثنين إذا هما فى الغار ، فإنه أولى المسلمين بأموركم ، فقوموا إليه فبايعوه » فقام الناس كلهم فبايعوه البيعة العامه[1] ، ونظر الصديق فى وجوه القوم فلم ير الزبير، فدعا به فلما جاء قال له: ابن عمة رسول الله وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين؟! فقال : لاتثريب ياخليفة رسول الله فقام فبايعه . ثم نظر فلم يجد عليا فدعا به فجاء فقال له : ابن عم رسول الله وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين ؟ فقال : لاتثريب ياخليفة رسول الله فقام فبايعه ؛ وهذا هو الحق فى مبايعة على للصديق ، وأنه بايع فى اليوم الثانى ، وأما يقال : إن بيعته كانت بعد ستة أشهر، فإنما كان تجديد للبيعة وترثيقاً لها[2] ، وهذا هو الظن بأبى الحسن والحسين، وفتى الاسلام على رضى الله عنه .

( خطبة الصديق ) وخطب الصديق خطبه تعتبر من آيات الحكمة وفصل الخطاب ، أوجز فيها أصول الحكم فى الإسلام، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه ( أيها الناس فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ؛ الصدق أمانه ، والكذب خيانه ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله، لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم البلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فأن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله ).

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب الأحكام باب الاستخلاف

(٢) البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٥

## ( تجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم )

وبعد هذه البيعة العامة انصرف المسلمون إلى تجهيز رسول الله مقتدين فى كل ما أشكل عليهم بالصديق رضى الله عنه فى تغسيله ، وتكفينه ودفنه وقد حضر غسله من آل البيت العباس ، وعلى ، والفضل ، وقثم ابنا العباس وأسامة بن زيد ، وصالح مولى الرسول ، ودخل معهم بعد الإستئذان أوس ابن خولى الانصارى ، وقد أسند على النبى إلى صدره وعليه قميصه وتولى غسله يعاونه العباس وابناه ، وكان أسامة وصالح يصبان الماء ، ولم ير على من النبى ما يرى من الميت فصار يقول : بأبى وأمى ما أطيبك حيا وميتا ! ! وكان يغسل بالماء والسدر(١) فلما فرغوا من تغسيله كفنوه فى ثلاثة أثواب بيض يمانية من قطن ، ولم يجعلوا فى كفنه برد حبرة كما زعم بعض كتاب السيرة المحدثين(٢) ، بل أبوا ذلك كما رواه مسلم وأبو داود(٣) وبعد أن كفنوه وضعوه على سريره فى الحجرة ، ودخل الناس عليه أرسالا يصلون فرادى ، لا يجتمعون على إمام ، فلما فرغ الرجال صلى النساء ، ثم الصبيان .

وبعد أن فرغوا من الصلاة اختلفوا فى أى مكان يدفن ، أيدفن فى مسجده ، أم يدفن بالبقيع مع أصحابه ، أم يدفن فى بيته ، وحسم الصديق الخلاف بما رواه عن النبى ﷺ أنه قال : « ما قبض نبى إلا ودفن حيث قبض » فقر رأيهم على أن يدفن فى حجرة السيدة عائشة حيث مات .

وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح(٤) كأهل مكة ، وكان أبو طلحة الأنصارى — وهو الذى كان يحفر لأهل المدينة — يلحد(٥) فأرسل إليهما

---

(١) نبت طيب الرائحة يغسل به الميت كالصابون

(٢) حياة محمد ص ٤٩٤

(٣) البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٦٣

(٤) فى القاموس : ضرحة كمنعه ، والميت حفر له ضريحا والضريح البعيد ، والقبر أو الشق وسطه او يلا لحد » فالمعنى يشق وسط القبر

(٥) فى القاموس « ولحد القبر كمنع رأ لحده عمل له لحدا ، وهو الشق بجانب القبر ثم يوضع فيه الميت

العباس رسولين ، فأما رسول أبي عبيدة فلم يجده ، وأما الثاني فقد وجد أبا طلحة ، فجاء به فلحد لرسول الله ﷺ كأهل المدينة ، ونزل في الحفرة العباس ، وعلي ، وقثم ، والفضل ، وشقران ، ومعهم أوس بن خولي أيضا ، وأخذ شقران مولى رسول الله قطيفة كان يلبسها ففرشها للنبي في القبر وقال : والله لا يلبسها أحد بعدك .

وبين الأسى والحزن والدموع ، وتفطر القلب على الحبيب المغيب في اللحد ، أهالوا التراب على القبر الشريف ، ثم رشوا عليه الماء وكان ذلك في ليلة الأربعاء بعد يومين من وفاته ﷺ ، فلما توفي الصديق دفن بجانب صاحبه ، وكان هناك موضع قبر كانت عائشة تدخره لنفسها ، فلما طعن الفاروق أوصاهم أن يستأذنوا عائشة في أن يدفن بجانب صاحبيه ، فلما قبض استأذنوها ، فأذنت وآثرته على نفسها ، وتحققت رؤياها ، فقد كانت رأت أن ثلاثة أقمار سقطن في حجرتها ، فكان الثلاثة هم الثلاثة أقمار الذين ملأوا الدنيا إيمانا وهدى ، وعدلا ورحمة ، ونورا وضياء ووضعوا الاساس الصالح للحضارة الإسلامية الفذة التي أرسى قواعدها هؤلاء السادة الاخيار . وعزت عن أن يكون لها مثيل .

ولم تكن القبور الثلاثة داخل المسجد حتى كان عهد الوليد بن عبد الملك ، فأمر نائبه على المدينة عمر بن عبد العزيز أن يوسع في المسجد من جميع جوانبه فاضطروا إلى إدخال الحجر في المسجد ومنها حجرة عائشة ، ومع هذا احتاطوا غاية الاحتياط ، فأحاطوا القبور بحائط مرتفع كيلا تظهر في المسجد فيصلي إليها العوام ، ثم بنوا جدارين من ركني الحجرة الشماليين ، وحرفوهما حتى التقيا على هيئة رأس مثلث من الشمال ، حتى لا يتمكن المصلي من استقبال القبور في الصلاة عملا بتحذير رسول الله ﷺ حيث قال في مرض موته وأكثر من القول : ( لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ) رواه الشيخان . وفي رواية لمسلم ( اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد )(١)

---

(١) شرح المختار من صحيح مسلم للمؤلف ج٢ ص ٦٥

( إنفاذ جيش أسامة ) ولم يكد المسلمون يفرغون من دفن رسول الله ﷺ حتى كان أول ما أمر به الصديق خليفة رسول الله — إنفاذ جيش أسامة تنفيذا لوصية النبي ، ورفض الصديق أن يستمع إلى قول الذين رأوا أن لا يخرج الجيش في هذا الوقت العصيب والذين أشاروا بتعيين قائد أسن منه، بل وإلى أسامة حينما رغب أن يكون بجانب الخليفة وتم تجهيز الجيش عند الجرف ، وأسامه على رأسه ، وخرج الصديق مع الجيش يودعه وهو ماش ، وأسامه راكب ، فقال : يا خليفه رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال : لانزلت ولا أركب !! وما على أن أغبر قدمى ساعه في سبيل الله !! ثم قال له وهو راجع : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ؟ فأذن له . فلما رأى المتألمون من تأمير أسامه ما فعل الخليفة سكتوا ، وطابت نفوسهم ، وسار أسامة حتى وصل إلى البلقاء وحدود الشام ، فأغار عليهم وانتقم المسلمين ولأبيه الذى قتل ، ثم عاد إلى المدينه بجيشه مظفراً منصورا، بعد أن أرضى ربه،وأرضى نبيه،وأرضى خليفته .

## « المثل الكامل صلى الله عليه وسلم »

ها أنذا قد فرغت — ولله الحمد والمنة — من السيرة العطرة ولم يبق إلا أن أكتب فصولا موجزة في صفاته ﷺ الخلقية ، والخلقية ليتجلى للقارىء أنه كان مثلا في كل شيء ، وأن الله سبحانه سواه على أحسن صورة ، وجمله ظاهرا وباطنا ، وتعهده بالعناية والتربية قبل النبوة وبعدها ، ثم توالت عليه فيوضيات الوحى وإشراقات النبوة حتى صار مثلا أعلى في كل شيء واستأهل ثناء الله عليه بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم ».

ونحن لاننكر أن في تاريخ البشرية — ولاسيما الصفوة من الخلق ، وهم الأنبياء والمرسلون — أناسا فضلاء ذوى أخلاق ودين ، وهداة ومصلحين ، وعلماء وحكماء ، ومشرعين وفقهاء ، وملوكا وخلفاء ملأوا الدنيا عدلا ، بعد أن ملئت جورا .... ورجالا أوفياء أمناء لايغدرون

ولايخونون ، وسادة قادة ، وساسة عباقرة ، وقوادا شجعانا ، وأبطالا لايرهبون الموت ، وأن البشرية لاتخلوا فى أى عصر من أمثال هؤلاء .

ولكن الذى نلاحظه أنه لايوجد رجل اجتمعت فيه كل هذه الصفات والمميزات مثل ما اجتمعت فى نبينا محمد ، ولانكاد نعرف أحداً كمله الله بكل فضيله ، وتزهه عن كل رذيله ، مثل ما عرفنا ذلك لرسولنا محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وليس العجب من اجتماع هذه الصفات فيه ، وإنما العجب حقا أنها فيه على سواء ، فلا سفة تطغى على أخرى ، حتى تكاد تطمسها ، ولاخلق يربو على آخر حتى يكاد يخفى معالمه ، وإنما هى صفات وزنت بميزان عادل لايعول ، وأخلاق حسبت بحسبان دقيق لايضل هداية فى حكمة ، وعلم فى فقه ، ورحمة فى غير ضعف ، وعدل فى غير عنف ، وحزم فى حلم ، وصرامة فى رحمة ، وغضب لله فى غير جور ولابطش ، وكرم فى غير إسراف ، ودقة فى غير فسولة ، ورأفة فى غير تفريط ، وعقل كبير فى سعه قلب وجد فى غير هزل ، ومزح فى غير باطل ، وفصاحة فى بلاغه ، وكلم جوامع فى حكم نوابغ ، ورجولة فى مروءة ، وفحولة فى عفه .

وهكذا لايمكن لمنصف أن يجد فى أخلاقه مغمزا ، أو فى سلوكه مطعنا ، وهذا المعنى لانجده فى بشر أيا كان ، وهذا هو سر الإعجاز فى أخلاق هذا النبى العظيم ، وهذا البشر العظيم !!

## « الفضيلة الانسانية فى ذروة كمالها فى نبينا محمد »

يقول الحكماء : إن الفضيلة وسط بين رذيلتين : فالشجاعة وسط بين الجبن وبين التهور ، والقصد فى الإنفاق وسط بين التقتير والإسراف ، والعدل وسط بين البغى والظلم ، وبين هضم الحق ، والتفريط فيه ، والعفه وسط بين انتهاك حرمات الغير ، وبين حرمان النفس من متعتها المشروعة ، والحكمة وسط بين الإسراف فى استعمال العقل وتعدى أموره ، وبين البلادة والغفلة ، وهكذا .

والفضيلة من الأمور التى تواطأت عليها العقول السليمه ، ولاتختلف باختلاف الاشخاص والعصور . فالفضيلة لايمكن أن تكون رذيلة ، ولاتكون فضيلة عند انسان ورذيلة عند آخر ، وهذا أمر لاأعلم أحداً خالف فيه ، إلا ما كان من السوفسطائيين(١) ومن على شاكلتهم كالوجوديين اليوم ، فإنهم يخضعون الحق والفضيلة لأهوائهم ، وشهوات أنفسهم ، والناس يتفاضلون ويتمايزون بقدر مايكون عندهم من الفضائل والأخلاق الكريمة ، والفضيلة لاتختص بأناس دون أناس ، ولابجنس دون جنس ، وإنما هى أمر مشاع بين البشر ، يأخذ كل واحد منها بحسب فطرته واستعداده ، وتربيته ونشأته ، إلا أن هذه الفضيلة الإنسانية ، توجد أوفى ما تكون وأكمل ما تكون فى أنبياء الله ورسله ، فقد فطرهم الله سبحانه على أكمل الصفات ، وخير الخلال ، إلا أن بعض هذه الفضائل قد تكون عند نبي أوفى منها عند آخر ، ومن ثم صارت هذه الصفات البالغة الكمال ، عند بعض الأنبياء بمنزلة الخصائص ، فالحلم والتسامح عند الخليل ابراهيم وعيسى أكثر منها عند نوح وموسى ، والشدة والأخذ بالعقوبة ، عند نوح وموسى ، أعظم منهما عند ابراهيم وعيسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

وكذلك فضلاء البشر كصحابة الأنبياء وحواريهم ، ولاسيما صحابة سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه تقوى بعض الفضائل عند بعضهم حتى تصير كأنها خصوصية ، فمنهم الذى يغلب عليه الحلم والرحمة والشفقة كالصديق رضى الله عنه ، ومنهم من يغلب عليه الشدة والصرامة فى الحق ، حتى مع أحب الناس إليه ، كالفاروق عمر رضى الله عنه ، ومنهم من يغلب عليه الحياء البالغ كالسيد الحيي عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فيفرط فى حق نفسه ، ومنهم من تغلب عليه الشجاعة والمصارحه بالحق ، وعدم المداهنه ، حتى ولو كان فى ذلك تثبيت أمر الخلافة كسيدنا على كرم الله وجهه ، ومنهم من يغلب عليه جانب الدهاء والسياسة ،

---

(١) السوفسطائيون : قوم وجدوا فى بلاد اليونان قديما لايؤمنون بأن حقائق الأشياء ثابتة فالحق فى نظرهم مايراة الواحد حقا ، ولو كان فى الواقع باطلا ، والباطل مايراه باطلا ولو كان فى الواقع حقا ، وقريب من هؤلاء الوجوديون اليوم فليس الفضيلة والحق والمعيار .

ومعرفة كيف تسترق النفوس كسيدنا معاوية رضى الله عنه ، وليس معنى هذا أن ماعداهذه الصفات التى برزوا فيها ، ليس لهم فيما عداها حظ كلا وحاشا ، وليس أدل على هذا من الصديق الأكبر رضى الله عنه ، فقد كانت سمته الغالبة فى قصة أسارى بدر وغيرها الرحمة والشفقة ، ومع هذا فلما جاور الرسول الرفيق الأعلى ، وارتد بعض العرب كان أشجع من الشجاعه ، وأشد من الشدة ، فى محاربتهم وحتى قال للفاروق وقد ناقشه فى قتال مانعى الزكاة : أجبار فى الجاهليه خوار فى الإسلام ؟!! والفاروق عمر — وهو الشديد القوى فى الحق — ما انتقم لنفسه ، وكانت تقابله المرأة فتعظه ، وتذكره ، وتنصحه بتقوى الله فى الخلق فاذا به يتطامن لها ويبكى ، حتى تخضل لحيته !! وذلك كقصته مع السيدة خولة بنت ثعلبه بن حكيم ، والمرأة الأعرابية التى كانت تعلل أولادها ، وهم يتضاغون من الجوع حتى ناموا . . والناس طبائع ، ومعادن ، وفطرتهم ليست واحدة ، ومرد ذلك كله إلى الله — جل جلاله — فسبحانه ، سبحانه ، تقدست أسماؤه ، وتباركت صفاته ووسع علمه كل شىء ، وجلت حكمته ، وعجزت العقول ، مهما بلغت عن إدراك كنهه وأسراره ، فله المثل الأعلى ، وله الحكمة البالغة .

وقد أوحى إلى نفسى بما كتبت هذه المقارنه البديعه الصادقة التى صدع بها المثل الكامل ﷺ عقب استشارة أصحابه فى أسارى غزوة بدر ، فأدلى الصديق برأيه وهو أخذ الفداء وتركهم عسى أن يهديهم أو يخرج الله من أصلابهم من يرضى الله وينصر دينه ، وكان رأى الفاروق أن يقتلوا ولا يؤخذ منهم فداء ، فقال النبى « إن الله ليلين قلوب رجال فيه ، حتى تكون ألين من اللين ، وأن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل ابراهيم قال : « فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم »(١) وكمثل عيسى قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فأنك أنت العزيز الحكيم »(٢)

---

(١) ابراهيم/٣٦

(٢) المائدة /١١٨

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ، وكمثل موسى قال : « ربنا أطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم »[1] أنتم اليوم عاله، فلا يفلتن أحد إلا بفداء أو ضربه عنق» وكان هذا أختياراً لما رأى الصديق رضى الله عنه .

وقد بلغت الفضيلة الإنسانية ذروة كمالها فى نبينا محمد ﷺ ويدعونى المقام أن أقارن بين قولتى سيدنا نوح ، وسيدنا موسى الآنفتين و بين موقف حدث لرسول الله ﷺ مرجعه من ثقيف بعد ان عرض عليهم الدعوة الإسلاميه فأبوا، فرجاهم أن يكتموا أمره ولايبلغوا قريشاً ، ولكن القوم كانوا لئاماً ، فما إن هم بمغادرتهم حتى أغروا به الصبيان والسفهاء يقذفونه بالحجارة وصاحبه ومولاه زيد بن حارثه يدرأ عنه ويدفع ، ولكن ماذا يغنى زيد فى هذا السيل المنهمر من الحجارة ، فأصيب جسمه ﷺ ودميت عقباه وسال الدم الزكى على أرض الطائف ليكون شاهدا على لون من ألوان الكفاح فى سبيل العقيدة حتى الجئوه إلى بستان لابنى ربيعه وبعد أن استراح قليلا ، ودعا الله بدعائه المشهور الذى ختمه بقوله : « إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى » . نعم، فالجراح، والآلام، والمصاعب كلها تهون مادام فى ذلك رضا الله ، والنجاة من غضبه .

عاد وهو جريح الجسم مكلوم الفؤاد ، حزين النفس ، فتبدى له عند « قرن الثعالب » ملك الجبال، وقال له : « إنى رسول من الله إليك ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[2] فقلت ؟ ! » ولقد كانت فرصة مواتيه للنيل من هؤلاء الذين آذوه ، وأسالوا دمه ، وليذهبوا مع الهالكين الغابرين ، وإن ذهبوا ففى الباقيين من ينصر الدعوة ويقيم الإسلام ، ولكن لو جاز هذا فى حق بشر آخر ، مهما بلغ من الكمال العقلى والخلقى ، فلن يجوز فى عقل نبينا محمد ﷺ ، ولا فى أخلاق نبينا محمد ، ولا فى منطقه ﷺ ! ! وهو لذى بلغت فيه الفضيلة ذروة كمالها.. وانتظر الملك الجواب، ولم يفكر النبى طويلا،

---

(١) يونس / ٨٨

(٢) الأخشبان : جبلان بمكة

لأن الأمر بالنسبة له لايحتاج إلى تفكير، لأنه يتفق هو وفطرته التى فطره الله عليها، وأخلاقه التى جبل عليها، وجعلته سيد ولد آدم على الإطلاق، فقال ﷺ: « لا بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدالله وحده ولايشرك به شيئا »!!

ودهش ملك الجبال لما سمع وقال: أنت — كما سماك ربك رءوف رحيم!! نعم — والله — لقد صدق من سماه الرءوف الرحيم، ومن خاطبه هذا الخطاب الشريف الفذ « وإنك لعلى خلق عظيم »!!

وهذا هو سيدنا موسى عليه السلام يدخل مدينة من المدن المصرية، فوجد فيها رجلين يقتتلان ويتضاربان، أحدهما اسرائيلى من شيعته، والآخر قبطى من عدوه، فاستنصر به الإسرائيلى على القبطى فضربه بجمع يده، فقضى عليه فمات، وما كان موسى عليه السلام بقصداً قتله، وإنما قصد دفعه، وكثيراً مايقصد الإنسان قصداً ويحصل خلافه، فلذلك ندم من فعلته وتاب الى الله توبة نصوحا، وعزم على عدم العودة لمثل ذلك، وعاهد الله على أن لايكون معينا لمجرم قط (١) ورأس الإجرام هو الكفر، ويليه المعاصى، وهذا الوكز وان أفضى الى الموت ليس بذنب، وانما هو خلاف الأولى، وكان عليه أن يتثبت قبل الوكز أو يفصلهما عن بعضها من غير وكز وانما عده موسى ذنبا واستغفر الله منه لمقام موسى وعلو منزلته عن أن يحصل منه ذلك، وقد قيل: ان ذلك كان قبل نبوته فهو من الصغائر التى يجوز مثلها على الأنبياء، وهو الظاهر من قول موسى كما حكاه الله سبحانه فى قوله: « ففررت منكم لما خفتكم، فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين »(٢) ومهما يكن من شىء فهذا وأمثاله مما جاء به القرآن وجاءت به الأحاديث الصحيحه، يدل على أن الأنبياء بشر، وأن الكمال المطلق انما هو لله وحده، وعلى اهم لشدة معرفتهم بالله وقربهم منه يستعظمون فى حق أنفسهم ماليس عظيما، ويعتبرونه ذنبا يستغفرون الله تعالى منه، وان لم يكن ذنبا فى الحقيقة ونفس الأمر.

---

(١) أقرأ الآيات من سورة القصص من ١٥ — ١٧

(٢) الشعراء/٢١

وأما نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فقد استأذنه سيدنا عمر — رضى الله تعالى عنه — أن ينزع ثنيتى سهيل بن عمرو ، أحد أسرى بدر ، حتى يدلع لسانه فلا يقوم خطيبا بعد ذلك ضد النبى ودعوته،فاذا كان جواب الرءوف الرحيم ؟ « لا أمثل فيمثل الله بى ولو كنت نبيا » !! يالسمو الرحمة ، ويالعظمة البشرية !! ثم يغرى النبى سيدنا عمر بالعفو عنه ، وعدم النيل منه فيقول : « وعسى أن يقوم مقاما لاتذمه » وقد كان ، وصدقت نبوءة الرسول الكريم فقد وقف بعد الردة موقفاً كريما حمده الناس له ، وحفظه له التاريخ[1]

ومثل آخر أسوقه لبيان كمال الفضيلة الإنسانية فى نبينا محمد ﷺ ،لقد كان عمر رضى الله عنه مشهودا بالزهد وبلغ فيه مبلغا ، صار مضرب الأمثال عمر هذا الزاهد ، الذى كان يداوم لبس المرقع ، وكان ينام على الحصى والتراب ، والذى كان يضرب اللبن[2] بنفسه ، ويهنأ ابل الصدقة بالقار بيديه[3] والذى كان يعيش الكفاف ، ويأتدم الزيت بالعيش الجاف ، عمر الذى حرم على نفسه أكل السمن عام الرمادة حتى يخصب الناس ، وحتى صارت تكركر بطنه وتغير لونه ، وهو لايهتم بذلك ، عمر الزاهد هذا دخل على رسول الله ﷺ لما اعتزل نساءه بسبب تظاهر بعضهن عليه ، وكان فى مشربه له يرقى اليها بدرج ، وعلى الباب غلام اسمه رباح . فقال : يارباح استأذن لى على رسول الله ﷺ ،فلم يأت رباح بجواب فرفع رأسه وقال استأذن لى على رسول الله،فأنى اظن أن رسول الله ﷺ ظن أنى جئت من أجل حفصه ، والله لئن أمرنى رسول الله بضرب عنقها لأضربن عنقها !! فأشار اليه الغلام : أن أذن لك فدخل على رسول الله، ومازال يلاطفه حتى تبسم ثم نظر عمر فى الخزانة فوجد رسول الله ﷺ على حصير قد أثر فى جنبيه وتحت رأسه وسادة من آدم ، حشوها ليف ،

---

(١) انظر ص١٢٣ من هذا الكتاب

(٢) الطوب النيء

(٣) يغسل جسدها ويطليه بالقار ليداويها

وفيها قرظ مجموع وأهب (١) معلقه وفرق من شعير فبكى فقال رسول الله ﷺ « ما يبكيك يا عمر » ؟! فذكر عمر كسرى وقيصر وما هما فيه من ألوان النعيم وما رأى في المشربة أي — والله — عمر الزاهد يبكي لما رأى النبي في هذه الحالة ، ولو أن البكاء كان من غير عمر لجاز أما وهو من عمر فهذا موضع العبرة والعجب !! ترى أيها القارىء ماذا سيكون جواب الرسول ؟! وماذا سيكون حال الرسول ؟ أيبكي ، كما بكى عمر الزاهد أم يسكت على مضض وضجر ؟ ! لو أن النبي فعل هذا وشارك عمر في بكائه أو سكت وتحسر ، لكان قصارى أمره أنه عبقري ، أو أنه رجل مصلح ، ولكنه فوق ذلك : فوق العبقري وفوق المصلح ، إنه النبي بكل ما في « ال » من كمال النبوة الذي بلغت به الذروة في الفضيلة الإنسانية ، وإليك جواب النبوة الكاملة ، يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ ! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ، ! ! ويقف الزاهد المتقشف مدهوشا أمام هذا الجواب فيزداد يقينا إلى يقين أنه النبي حقا بعد أن أخذ من النبي ﷺ درسا في زهد البطولة ، أو إن شئت فقل بطولة الزاهد

## « صفاته الخلقية »

وها هي صفاته ﷺ كما جاء في الأحاديث الصحيحة والحسنة والآثار المشهورات عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يزيد بعضهم على بعض فيها ، ومن مجموعها نستخلص أنه رسول الله ﷺ كان أزهر اللون (٢) ، أطاعج (٣) ، أنجل (٤) ، أشكل (٥) ، أهدب الأشفار (٦) ، أبلج (٧) ، أيلج (٨) ، أقنى (٩) ، أفلج (١٠) ، مدور الوجه ، واسع الجبين ، ضخم الرأس . كث اللحية (١١) تملأ صدره .

---

(١) القرظ ما يدبغ به جلد ، أهب بضم الهمزة والهاء وفتحها جمع إهاب وهو الجلد (٢) أبيض اللون مشرب بالحمرة (٣) شديد سواد الحدقة مع سعة فيها (٤) واسع العين مع حسن (٥) في بياض عينيه حمرة (٦) غزير شعر الأهداب مع طول (٧) مضيء الوجه مشرقه (٨) دقيق الحاجبين مع طول وتقوس (٩) مرتفع قصبة الأنف مع أحديداب يسير فيها (١٠) منفرج ما بين الثنايا (١١) غزير شعرها .

سواء البطن والصدر ، واسع الصدر ، عظيم المنكبين[١] ، ضخم العظام . عبل[٢] العضدين والزراعين والأسافل ، رحب[٣] الكفين والقدمين . سائل[٤] الأطراف ، أنور المتجرد[٥] ، دقيق المسربة[٦] ، ربعة القد ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتردد ، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ . رجل الشعر[٧] . إذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق ، وعن مثل حب الغمام ، إذا تكلم رئى كالنور يخرج من ثناياه ، أحسن الناس عنقا ، ليس بمطهم[٨] ، ولا مكلثم[٩] متماسك البدن ، ضرب اللحم[١٠] إذا مشى تكفأ كأنما ينحط من صبب[١١] وإذا التفت التفت معا ، قال البراء : ما رأيت من ذى لمة فى حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ . وقال أبو هريرة : ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجرى فى وجهه ، وإذا ضحك يتلألأ فى الجدر ، وقال جابر بن سمرة — وقال له رجل كان وجهه مثل السيف — فقال : لا ، بل مثل الشمس والقمر ، وكان مستديرا ، وقالت أم معبد فى بعض ما وصفته به : أجمل الناس من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب ، وفى حديث ابن أبى هالة ، يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر ! وقال على رضى الله عنه فى آخر وصفه له : من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ، ولا بعده مثله ﷺ[١٢]

وهذه الأوصاف تنم عن الذكاء والفطنة وكبر العقل ، والقوة والبطولة والهيبة والجلال ، والرزانة والوقار ، وقد أملاها عليهم واقع الحال ، لا مجرد الحب والخيال .

---

(١) المنكب مجمع العضد والكتف (٢) ضخم (٣) واسع (٤) طويلها طولا معتدلا (٥) نير العضو المتجرد من الشعر (٦) الشعر الممتد من الصدر إلى السرة (٧) وسط بين التجعد والسبوطة (٨) يادن كثير اللحم (٩) مجتمع لحم الخدين (١٠) ليس فيه استرخاء (١١) تكفأ : مشى إلى الأمام بقوة . صبب : مكان عال (١٢) الشمائل المحمدية للترمذى ص ٨ — ٣٢ . وصحيح البخارى كتاب أحاديث الأنبياء — باب صفة النبى ، وصحيح مسلم — كتاب الفضائل — صفة شعره صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم نرى أن رسول الله ﷺ كان يحظى بالكمال الجسمانى ، وسمات البطولة الجسدية الحقة ، ولو أنك أطلعت على مايشترط اليوم من الصفات لتحقيق « كمال الأجسام » لوجدتها لاتزيد عما ذكر فى صفات النبى الخلقية ، وهذا أمر كان لازما ، فإن نبينا بعث بخاتم الأديان ، والشرائع ، لأمم الأرض كلها ، وشرع الله له الجهاد فى سبيل حماية العقيدة ، ونشر هذا الدين ، لابد أن يكون متهيئا غاية التهيؤ للجهاد ، وأن يكون له من بسطة الجسم مايهيؤه للجهاد والقيادة ، والشجاعة والإقدام . وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ جمع الله سبحانه له البطولة الجسمانية ، إلى البطولة النفسية .

## « نظافة جسمه وطيب ريحه »

هذا إلى نظافة جسمه ، وطيب ريحه وعرقه ، ونزاهته عن الأقذار والروائح الكريهة ، وقد خصه الله بذلك ، ثم تممها وزادها بنظافة الشرع ، وخصال الفطرة ، والمداومة على التطيب والتطهر ، ومجانبة الأطعمة الكريهة الرائحة ، عن أنس الله عنه قال : ( ماشممت عنبرا قط ، ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله ﷺ ولا مسست شيئا قط ديبا جا ، ولاحريرا الين مسا من رسول الله ﷺ رواه مسلم وغيره ) وعن جابر بن سمرة « أنه ﷺ مسح خده قال فوجدت ليده بردا وريحا كأنما أخرجها من جونة[1] عطار ، وكانت تلك رائحته سواء مس طيبا أو لم يمس ، وكان يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها ، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها ، وكان إذا مر فى طريق يعرف أنه سلكه مما يخلفه فيه من طيبه وثبت فى صحيح مسلم أنه نام فى دار أنس فعرق . فجاءت أمه بقارورة فجمعت فيها عرقه ، فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقالت : نجعله فى طيبنا وهو من أطيب الطيب وفى رواية أخرى المسلم « فقالت : يارسول الله نرجو بركته لصبياننا » . قال « أصبت » .

---

(١) بضم الجيم وهمزة على الواو وبدونها : الوعاء الذى يضع فيه متاعه

## « كمال عقله »

وأما كمال عقله ، وأصالة تفكيره ، وبعد نظره فيتجلى فى كثير من تصرفاته ومواهبه السياسية قبل النبوة وبعدها ، وذلك كما حدث حينما حكموه فى قصة وضع الحجر الأسود ، وفى اعداد الجيوش ، ومباغتته للأعداء قبل أن يبغتوه فى بلده ، وموقفه فى القضاء على الفتنة التى كادت تقع بين الأوس والخزرج بسبب تأليب اليهود ، وبين المهاجرين والأنصار أثناء غزوة بنى المصطلق ، ومواهبه الفائقة فى عقد المعاهدات والصلح ، وفى معاملة الأصدقاء والاعداء ، حتى كان سببا فى دخول الكثيرين منهم الإسلام وفى ترضية الانصار بعد قسمة غنائم حنين إلى غير ذلك مما لا يحصيه العد وقد عرضنا لذلك بالتفصيل فى هذه السيرة العطرة .

## « فصاحة لسانه »

وكان ﷺ فصيح اللسان ، قوى العارضة يفصل الكلام تفصيلا ، مع سلاسة طبع ورصانة لفظ بعيدة عن التكلف ، وجزالة معنى ، وليس هذا بعجيب ممن كان فى الذؤابة من قريش ، واسترضع فى بنى سعد ، ونشأ بمكة ، وأنزل عليه القرآن بلسان عربى مبين فى أعلى درجات الفصاحة والبلاغة . وكان مما آتاه الله العلم بلغات العرب ولهجاتها فكان يخاطب كل قوم بلغتهم مما كان يدهشهم ويدهش الخواص من الصحابة حتى قالوا له : ما رأينا الذى هو أفصح منك !! فقال : ( وما يمنعنى وإنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين ) وقال مرة أخرى : ( أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد )[1] فجمع الله له بذلك قوة عارضة الجياد ، وجزالتها ورقة الفاظ الحاضرة ورونقها ، إلى المدد الإلهى بالوحى المتتابع ولا سيما وحى القرآن الذى لا يحيط بعلمه وأسراره إنسى ولا جنى ، فلا

---

(١) ذكره القاضى عياض فى الشفاء . وأصحاب الغريب كثيرهم . وروى نحوه الطبرانى مرفوعا . ابن سعد مرسلا وأما ( أنا أفصح من نطق بالضاد ) فلا أصل له

عجب إذا قال ( أوتيت جوامع الكلم ، واختصر لى الكلام اختصارا ) رواه النسائى فى سننه وأبو يعلى ، ورويت الفقرة الأولى من حديث للبخارى ومسلم.

وإليك ماقاله فى وصف كلام رسول الله ﷺ ، أديب من أكبر أدباء العربية غير منازع وهو الجاحظ قال :

وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه ﷺ ، وهو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى : قل ياحمد : « وما أنا من المتكلفين »[١] فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التعقيب[٢] ؛ واستعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ؛ وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولازلت به قدم ، ولايادت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج[٣] لا بالحق ، ولايستعين بالخلابه[٤] ولايستعمل المواربة[٥] ولايهمز ؛ ولا يلمز[٦] ، ولا يبطىء ولا يعجل ،

---

(١) ص/ ٨٦ والآية بتمامها « قل ماأسألكم عليه أجرا ، وما أنا من المتكلفين »

(٢) التعقيب : هو التقعير ، وهو أن يتكلم بأقصى قعرفه وهو لون من التكلف فى الكلام

(٣) الفلج — بفتح الفاء وفتح اللام وسكونها — الفوز والغلب

(٤) الخداع

(٥) المداهنة

(٦) الهمزة : العيب بالحواجب ، للمز والعيب باللسان ، وقيل هما بمعنى

ولايسهب ولا يحصر[١] ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أقصد لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين فى فحوى[٢] من كلامه ﷺ كثيراً . . . . . ثم قال .

قال محمد : قال يونس بن حبيب : « ماجاءنا عن أحد من روائع الكلام ماجاءنا عن رسول الله ﷺ » .

وقد جمعت لك فى هذا الكتاب جملا التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار ، ولعل بعض من لم يتسع فى العلم ، ولم يعرف مقادير الكلم ، يظن أنا قد تكلفناله من الأمتداح والتشريف ومن التزيين والتجويد ماليس عنده ، ولا يبلغه قدره ، كلا ، والذى جرم[٣] التزيد على العلماء وقبح التكلف عند الحكماء ، ويهرج الكذابين عند الفقهاء ، لايظن هذا إلا من ضل سعيه .

فمن كلامه ﷺ حين ذكر الأنصار : « أما والله ماعلمتم إلا لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع وقال : « الناس سواسية كأسنان المشط »[٤] . . . . وقال المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى ، ويرد عليهم أقصاهم ، وهم يدعلى من سواهم »[٥] فتفهم — رحمك الله — قلة حروفه ، وكثرة معانيه .

وقال عليه الصلاة والسلام ، اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول »[٦] . . . وقال : « خير المال سكة مأبورة ، وفرس مأمورة »[٧] . . .

---

(١) حصر يحصر حصرا من باب « تعب » عى فى الكلام

(٢) الفحوى : المعنى

(٣) جعله جرما وأثما

(٤) رواه الديلمى

(٥) رواه أحمد وأبو داود

(٦) رواه الشيخان

(٧) السكة : السطر المصطفى من النخل ، المأبورة : الملقحة ، مأمورة : كثيرة النتاج والنسل

« الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة »[١] . . . وقال « الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة » « المستشار مؤتمن »[٢] رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم »[٣] وقال : « إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويكره لكم ثلاثا : يرضى لكم أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبله جميعا ولاتفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »[٤] وقال : « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وإنما لك من مالك ، ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت »[٥] وقال : « لوكان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب »[٦] وقال : « إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامه أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، والذين يألفون ، ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة ، الثرثارون المتشدقون ، المتفيهقون »[٧] إلى غير ذلك مما ذكره[٨] هذا العالم الأديب الأديب وقد ذكر هذا الإمام الخبير بكلام البلغاء جملة صالحة على كلام رسول الله ﷺ إلا أن منها ماليس من كلام الرسول ﷺ ، وذلك مثل قوله : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم » فالصحيح أنه من كلام على ، وقيل من كلام عمر ، ومنهاماهو

---

(١) رواه الشيخان

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه أحمد وأصحاب السنن

(٤) رواه الديلمى والعسكرى.

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه مسلم .

(٧) رواه البخارى رواه الترمذى وقال : حديث حسن الثرثارون : هم الذين يكثرون من الكلام من غير داع ، والمتشدقون : الذين يلأون فهم بالكلام تشدقا وتكلفا ، والمتفيهقون : الذين يلأون فهم بالكلام تكبرا وتعظما .

(٨) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١٦ — ٣٠ .

موضوع كما نص على ذلك أئمة النقد فى الإسلام وهو « إن الأحاديث ستكثر عنى كما كثرت عن الأنبياء من قبلى ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافق كتاب الله فهو عنى ، قلته أو لم أقله » وهو كلام باطل لا يصدر مثله عن رسول الله ﷺ ، وكتاب « البيان والتبيين » ونحوه من كتب الادب ، لا يعول عليها فى معرفة الاحاديث ماثبت منها ومالم يثبت ، ولذلك حرصت على تخريج الاحاديث التى ذكرها الجاحظ فى الهامش .

ومما ذكره الجاحظ من كتبه ﷺ التى تدل على مخاطبته كل قوم بلسانهم ولغتهم ماروواه سعيد بن عفير عن ابن لهيعة عن أشياخه أن النبى ﷺ كتب إلى وائل بن حجر الحضرمى ولقومه « من محمد رسول الله ﷺ إلى الأقيال العباهلة من أهل حضرموت ، بإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، على التيعة[1] شاه والتيمة لصاحبها[2] ، وفى السبوب الخمس[3] ، لا خلاط ، ولا وراط[4] ، ولا شناق ، ولا شغار[5] ، فمن أجبى فقد أربى[6] » وهى خصيصة عجيبة لرسول الله .

وأزيد على ماذكره الجاحظ فأقول : ومن جوامع كلمه ﷺ قوله : « إن المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع » رواه البخارى

---

(١) التيعة — بكسر التاء — الأربعون من الغنم .

(٢) التيمة : « الشاة الزائدة على الأربعين » .

(٣) السبوب : جمع سبب وهو المال المدفون فى الجاهلية .

(٤) الخلاط : أن يخالط رجل إبله بإبل غيره أو بقرة ، أو غنمه ليمنع حق الله فيها ، والوراط : الغش .

(٥) الشناق : بين الفريقتين من الابل والغنم وهو : الوقص والشغار . أن يزوج الرجل أخته مثلا على أن يزوجه الآخر أخته من غير مهر ، وهو ما أبطله الاسلام .

(٦) الأجباء : بيع الزرع قبل بدو صلاحه ، والارباء من الربا .

ومسلم وقوله : « إتقوا النار ولو بشق تمرة » رواه البخارى وقوله « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » رواه الشيخان ، وقوله « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » متفق عليه ، ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، فإن كان ولا بد فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه ، رواه الترمذى وقال : حديث حسن وقوله : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى » متفق عليه وقوله : « وهل يكب الناس فى النار إلا حصائد ألسنتهم » رواه الترمذى ، وقوله « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، وقوله « المسلمون عند شروطهم » والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما ، أو حرم حلالا » رواه أحمد ، وأبو داود ، والدار قطنى وقوله : « من أحدث فى أمرنا ماليس منه فهو رد » رواه البخارى وقوله : « ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل » رواه البخارى وقوله : « لايلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » رواه البخارى وقوله : « الحياء من الإيمان » رواه الشيخان ، وقوله : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ماتشاء » رواه البخارى وقوله : ( من يحفظ لى مابين لحييه ، ومابين رجليه[1] ، أضمن له الجنة ) متفق عليه وقوله : ( الرحم شجنة[2] من الرحمن ) رواه البخارى وقوله : ( فى كل ذات كبد رطبة أجر ) متفق عليه وقوله : ( من لايرحم لايرحم[3] ) رواه البخارى وقوله : ( من سن فى الإسلام سنة حسنة فلن أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من

---

(١) مابين لحييه أى فكيه وهو لسانه ، ومابين رجليه : فرجه .

(٢) لها وصلة وقرابة منه .

(٣) الأولى بفتح الياء والحاء ، والثانية بضم الياء وفتح الحاء .

أوزارهم شيء ) رواه مسلم إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التى فاضت بها كتب الأحاديث والسنن .

ومن هذه الأحاديث التى هى من جوامع كلمه ﷺ ، ما أعتبر من المبتكرات التى لم يسبق إليها النبى ﷺ ، وسار مسار الأمثال فى شيوعها وذيوعها ، وذلك مثل حديث ( لايلدغ . . . . ) السابق ، وقوله ( الحرب خدعة ) وقوله ( الآن حمى الوطيس ) وقوله ( إن من البيان لسحرا ) ( وإن من السحر لحكما ) أى لحكمة .

وقوله فى فرس أبى طلحة : « وجدناه بحراً[1] » وقوله : « كما تدين تدان » ولا يفوتنى أن أوصى الشباب والطلاب — ولاسيما المتأدبين منهم — أن يكثروا من قراءة كتاب الله ، وأحاديث رسول الله وسيكتسبون بذلك إيمانا وعلما وعملا ، وفصاحة وبلاغة ، وجزالة ألفاظ ، وقوة أسلوب ، وإشراق بيان .

## « شرف نسبه وكرم محتده »

وهذا أمر معروف غير منكور أقر به المخالف والموافق ، وليس من شك فى أنه نخبة بنى هاشم ، وسلالة قريش ، وخلاصة مضر ، وإليه انتهى شرفها ، ومصاص البشرية كلها ، وقد أفصح ﷺ عن ذلك فقال : « إن الله اصطفى من ولد ابرهيم اسماعيل واصطفى من ولد اسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ) رواه مسلم والترمذى[2] وقال ( بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا ، حتى كنت من القرن الذى

---

(١) واسم الجرى ، طويل النفس فى العدو وكان فى أول أمره ليس كذلك فصار ببركة ركوب النبي عليه بحرا لا يجارى .

(٢) من حديث فى الخصائص النبوية رواه الشيخان

(٣) زاد الترمزى الفقرة الأولى ، واتفقا على مابعدها

كنت منه ) رواه البخارى وقال : ( أنا محمد بن عبد المطلب، ألا إن الله عز وجل خلق خلقه ، فجعلنى من خير خلقه ، ثم فرقهم فرقتين فجعلنى من خير الفرقتين ، ثم جعلهم قبائل فجعلنى من خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتا فجعلنى من خيرهم بيتا ، فأنا خيركم بيتا ، وخيركم نفسا ) رواه أحمد واللفظ له والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وليس من شك فى النسب الزكى ، إذا انضم إليه الخلق الرضى كان خيرا وأزكى ( والناس معادن : خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ) رواه البخارى[1].

## « النبى الزوج »

لقد خص رسول الله ﷺ بأن أباح الله له من الزوجات ما لم يبح لغيره فقد تزوج إحدى عشرة ودخل بهن ، منهن اثنتان ماتتا فى حياته وهما السيدتان خديجة ، وزينب أم المساكين ، وتوفى عن تسع . وهن . عائشة بنت الصديق ، وسودة بنت زمعة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وزينب بنت جحش ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، وصفية بنت حيى النضيرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية . وتسرى جاريتين : مارية القبطية ، وريحانة بنت زيد اليهودية ، وقد ماتت فى حياته .

واذا كان الإسلام جعل للمرأة حقوقا لم تكن تحلم بها ، ورفع من شأنها فقد حظى بالنصيب الأوفى من ذلك نساء النبى ﷺ ، ولما أنكر الفاروق عمر على زوجته أن تراجعه فى أمر قالت له : عجبا لك يا ابن الخطاب أما تحب أن تراجع فى شىء ، اوان بنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان فذهب الى ابنته يسألها فإذا هى تؤكد له ذلك ، وكان كثيرا ما يوصى بالنساء خيرا ويقول : ( خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى ) رواه ابن ماجه ، وفى حجة الوداع أوصى بهن خيرا كما أسلفنا .

---

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب من ص ١٨٦ — ١٩٦

وان الإنسان ليعجب كيف وفق النبي ﷺ بين هؤلاء التسع وهن مختلفات في السن ، والطبائع ، والأخلاق والمشارب ؟ ! ولكن النبي بسعة عقله ، ورحابة صدره ، وكرم أخلاقه أمكنه أن يحسن عشرتهن ويعدل بينهن ، وأن يوفق بين رغباتهن ، وأن يعشن عيشة الأخوات لا عيشة الضرائر ، وإنها لبطولة حقا أن يكون عنده هذا العدد من الزوجات ، ويقوم بأعباء الرسالة ، وتكوين خير أمة ، وأول دولة في الإسلام على خير ما يكون والواحد منا تكون عنده الزوجة الواحدة ، والعدد القليل من الأولاد ، ومع هذا يكون في شغل شاغل ، وفي حيرة من التوفيق بين حقوق زوجته ، وولده والقيام بواجبات عمله على وجه مرضي ، ولكنه النبي الذي وسع الناس جميعا بعقله وصدره وبره ، وهن خيار نساء هذه الأمة الحريصات على رضاء الله ورسوله ، ومع كونهن بهذه المنزلة فلم تخل معاشرتهن للنبي ﷺ من بعض مضايقات ومؤامرات ، بسبب ما ركز في فطرة المرأة من الغيرة ، وحب الاستئثار بالزوج .

فمن ذلك أنهن اجتمعن على النبي ، ورغبن إليه أن يوسع عليهن ، وأن يكون لهن مالنساء الملوك وأصحاب الثراء ، وكان النبي قد أخذ نفسه وأهله وولده بالتقشف والتقلل من طيبات الحياة وزخارفها ، وفرض على نفسه وعليهن لونا من الوان المعيشة لايتميز عن معيشة عامة الامة ، إن لم يقل ، وهو ﷺ قدوة المسلمين جميعا فليكن نساؤه كذلك قدوة لنساء الامة ، لذلك تألم النبي لمطالبهن ، فاعتزلهن شهرا ، ولما اعتزل النبي نساءه شاع ذلك ، وعظم الامر على الصحابة ، فذهب الصديق أبو بكر إلى المشربة التي اعتزل فيها رسول الله فاذا الناس جلوس محزونون ، فاستأذن على رسول الله ، فأذن له ، ثم جاء الفاروق فاستأذن فأذن له ، فوجدا النبي واجما ساكتا وحوله نساؤه ، فقال أبو بكر : لأقولن شيئا أضحك به النبي ﷺ فقال : يارسول الله

لو رأيت بنت خارجة — زوجته — سألتنى النفقة فقمت اليها فوجأت[1] عنقها ! فضحك رسول الله وقال : ( هن حولى كما ترى يسألنى النفقة ) فقام أبو بكر وعمر الى ابنتيهما يزاجرانهما ويقولان : لاتسألن رسول الله ﷺ ماليس عنده فتعهدتا بذلك ، وبعد مضى مدة الإعتزال أنزل الله آيتى التخيير قال عز شأنه : ( ياأيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فأن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ) فبدأ رسول الله بعائشة وقال : ( يا عائشة انى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ) قالت وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآيتين . قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى ؟ ! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت . فأبى وقال : ( لا تسألنى امرأة منهن الا أخبرتها . ان الله لم يبعثنى متعنتاً . ولكن بعثنى معلما ميسرا ) ! ![2] ثم خيرهن فكلهن اخترن الله ورسوله . رضى الله عنهن .

وحادثة أخرى ذلك أن رسول الله ﷺ كان اذا صلى العصر دار على نسائه يلاطفهن ويؤانسهن بالمحادثه . وربما يطيل المكث عند بعضهن . فتأخذ الغيرة بنفوس بعضهن . فدخل ذات على يوم السيدة زينب بنت جحش . فمكث عندها وشرب عسلا ، فتواطأت عائشة وحفصة أن أيتنا دخل عليها رسول الله فلتقل له : انى أجد منك ريح مغافير[3] وكان النبى يكره الرائحة الخبيثة . فدخل على حفصة فقالت له ذلك فقال : ( بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ،

---

(١) طعنتها فى عنقها طعنا مؤلما .

(٢) فتح البارى ج ٨ ص ٤٢٢ — ٤٢٤ ، صحيح مسلم — كتاب الطلاق — باب أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية .

(٣) جمع مغفور بضم الميم وهو صمغ له رائحة كريهة ؛ وينضجه شجر يسمى العرفط بضم العين والفاء .

فلن أعود اليه وقد حلفت فلا تخبرى بذلك أحدا ) رواه البخارى ومسلم ولكنها لم تعمل بما أوصاها به وأخبرت بذلك عائشة ، وفى رواية عند مسلم أن التى شرب عندها العسل حفصة وأن اللاتى تظاهرن عائشة،وسودة،وصفيه ، وأنه لما أخبرهن بشرب العسل عند حفصه قالت كل واحدة منهن : جرست نحلة[1] العرفط ، وأنه لما عرضت عليه حفصه أن تسقيه عسلا مرة أخرى امتنع وقال : ( لا حاجه لى به ) والأول هو الأصح[2] وهو الأليق بسياق الآيه ، وفى الصحيحين عن عمر : ان المتظاهرتين هما عائشه وحفصه وقد كانت هذه المؤامرة سببا فى اعتزال النبى نساءه شهرا ؛ وفى الصحيحين أن عمر لما أخبره جاره الانصارى أن رسول الله اعتزل نساءه قال : رغم أنف حفصه وعائشه ، وذهب الى عائشه فذكرها وحذرها ؛ ثم ذهب الى ابنته فوبخها وعنفها وقال لها : والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك ولولا أنا لطلقك فبكت أشد البكاء ، ثم قصد الى رسول الله فى مشربه له يرقى اليها بدرج وعلى الباب غلام اسمه رباح ، فقال : يا رباح استأذن لى على رسول الله ، فلم يأت رباح بجواب فرفع صوته وقال : استأذن لى على رسول الله فإنى أظن أن رسول الله ﷺ ظن أنى جئت من أجل حفصه،والله لئن أمرنى رسول الله بضرب عنقها لاضربن عنقها ! فأشار اليه الغلام : أن أذن لك ، فدخل على رسول الله وما زال يلاطفه حتى تبسم، ثم نظر عمر فى الخزانه فوجد رسول الله على حصير قد أثر فى جنبه ، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف ، وفيها قرظ مجموع ، وأهب[3] معلقه وفرق من شعير ، فبكى فقال رسول الله ( ما يبكيك يا عمر ) ؟ فذكر كسرى وقيصر وما هما فيه ، وما رأى فى المشربه فقال له : ( يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ !

---

(١) جرست : أكلت .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٠ ص ٧٣ — ٩٣ صحيح البخارى — كتاب التفسير — سورة التحريم .

(٣) القرظ ما يدبغ به الجلد . اهب بضم الهمزة والهاء وبفتحهما جمع إهاب وهو الجلد .

أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا[1].

فلما انقضى الشهر نزل رسول الله ﷺ فانزل الله سبحانه معاتبا نبيه ، ومخوفا ومحذراً نساءه قوله : ( يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك . والله غفور رحيم ، قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم ، وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه ، وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير ، إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير ، عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن مسلمات مؤمنات ، قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً )[2] فكفر رسول الله عن يمينه . وتاب نساؤه إلى الله ورسوله ، وكان عمر رضى الله عنه لما دخل على رسول الله فوجده مغضبا قال له : يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . وقال لنسائه : ( عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن ) فنزلت الآية على ذلك وعد هذا من موافقات عمر رضى الله عنه .

وذكر النسائى وابن جرير وابن مردويه وغيرهم أن نزول صدر سورة التحريم ، كان بسبب تحريم مارية القبطية ذلك أن حفصة كانت استأذنت رسول الله ﷺ فى زيارة أبيها فأذن لها ، فأرسل إلى جاريته مارية وباشرها فى يوم حفصة وعلى فراشها فلما عادت وعلمت بما كان صارت تبكى وتقول ، أما رأيت لى حرمه ؟ ما كنت لتصنع هذا بامرأة من نسائك ! فقال رسول الله : ( أليست هى جاريتى أحلها الله لى ) ؟ ثم ترضاها فأخبرها بأنها حرام عليه ، وبأن الصديق وأباها سيتوليان الخلافة بعده وقال : ( لا تخبرى بذلك أحداً )

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٠ ص ٨٣ . وفتح البارى ج ص ٥٣٤

(٢) سورة التحريم ١ — ٥ سائحات : أى صائمات

فلما خرج رسول الله قالت حفصة لعائشه : ألا أبشرك ؟ إن رسول الله قد حرم أمته عليه ، وقد أراحنا منها ، وأخبرتها بما سيكون من شأن الخلافة فلما علم رسول الله بما أفشته من سر غضب . واعتزل نساءه شهراً ثم أنزل الله قوله ( يا أيها النبى . . . . ) الآيات والراجح ما فى الصحيح وأن ذلك كان بسبب تحريم العسل ، وإن كان سياق الآيات أليق بمسألة تحريم مارية ، ويمكن أن تكون الآيات قد نزلت بسبب تحريم العسل وتحريم مارية[1] فقد يكون سبب النزول حادثتين أو أكثر كما هو مقرر فى أسباب النزول .

هذه هى أهم الأحداث التى عكرت صفو حياة النبى الزوجية ، وقد كانت أسبابا لتشريعات حكيمة فى قرآن يتلى إلى يوم الدين ، وفيما عدا هذه فقد كن مؤمنات قانتات تائبات عابدات صوامات ، وكن خير معينات له على طاعة ربه ، وتأدية رسالته ، كما كن مصابيح إشعاع وهداية وعلم فى حياة النبى وبعد وفاته ، فرضى الله عنهن .

وقد كان رسول الله ﷺ يلاطفهن ولاينفك عن مؤانستهن والتبسط معهن . ومن رفقه بهن إنه أتى عليهن وسواق يسوق بهن يسمى أنجشه ، وكان يحدو للأبل فتنشط وتسرع بالسير فربما يؤلمهن ويتعبهن فقال له : ( ويحك يا أنجشه رويدك . سوقك بالقوارير ) رواه الشيخان ، وروى إن من آخر ما نطق به قبل اللحوق بالرفيق الأعلى الوصية بالنساء . وقال : ( حبب إلى من دنياكم النساء والطيب . وجعلت قرة عينى فى الصلاة ) رواه النسائى[2] وحب الزوجه حب فطرى . لأن فيه سكن النفس ، وغذاء العاطفه ، ورضا القلب ، ومبعث هذا الحب الرحمة والشفقة ، والرفق بالضعيف ، لامبعثه إرضاء الغريزة الجنسية ، وإشباع الشهوة ، وإلا فقد قضى

---

(١) فتح البارى جـ ١٠ ص ٥٣٣

(٢) اشتهر هذا الحديث بلفظ : « حبب إلى من دنياكم ثلاث . . . » وزيادة ثلاث غير ثابتة ، ومتن الحديث يردها لأن « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ليس من أمور الدنيا .

شبابه مع زوجة واحدة مسنة تكبره بخمسة عشر عاما .

وسئلت عائشة مما كان يصنع النبي فى بيته قالت : ( كان يكون فى مهنه[1] أهله ) يعنى خدمتهم رواه البخارى فكان يساعدهم ويعاون خدمه . ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه ويخصف نعله ، ويذهب إلى السوق ويحضر لهم طعامهم ولا يرى فى ذلك منقصة ، ولا ما ينقص من شرفه وقدره ولم يؤثر عنه ﷺ أنه ضرب امرأة ، أو عبداً ، أو خادماً ، أو شق عليه فى شىء .

## ( النبى الأب )

وكما كان رسول الله الزوج المثالى المتسامح المتغاضى عن الهفوات . كان الأب الحانى العطوف الشفيق ، وقد قدمنا طرفا من حبه لبناته ، وأبنائه ، وحزنه لفقدهن ، وبكائه عليهن بكاء الرحمة والشفقة ، وتعهده لابنه ابراهيم ، وذهابه إليه خارج المدينة كل يوم فيحمله ويشمه ويقبله . وكذلك كان يقبله ولدى ابنته فاطمة ويشمهما ويقول : ( هما ريحانتاى من الدنيا[2] ) ولما رآه الأقرع بن حابس وهو يقبل الحسن قال : إن لى عشرة أبناء ما قبلت واحداً منهم فقال رسول الله ﷺ : ( إنه من لا يرحم لا يرحم ) وقدم على النبى ﷺ أحد الأعراب فوجد النبى والصحابة يقبلون الأولاد فقال : أتقبلون أولادكم ؟ ! فقالوا نعم ، فقال : والله ما نقبلهم فقال الرءوف الرحيم ( أو أملك لك أن الله نزع الرحمة من قلبك ) !! ( وقد كان يصلى بأمامة بنت بنته زينب — رضى الله عنهما يحملها على عاتقه . فإذا سجد وضعها . وإذا قام حملها ) رواه البخارى[3] فأى مثل أروع من هذا فى بيئة كانت تحب الذكور ، وتبغض الإناث بل وتئدهن ؟ !

---

(١) مهنة : بفتح الميم وكسرها وسكون الهاء فيها : الخدمة ، وقيل الحذق فيها .

(٢) كالشىء الطيب الريح الذى يشم ، ويحب ، ويقبل ، والأولاد يشمون ، ويحبون ، ويقبلون وهو من الكلام الموجز البديع الذى لم يسبق إليه صلى الله عليه وسلم فيما أعلم .

(٣) صحيح البخارى — كتاب الأدب — باب رحمة الولد وتقبيله ، ومعانقته .

وكان النبي يخطب ذات يوم على المنبر فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ، ويتعثران فنزل النبي فحملهما ووضعهما بين يديه وروى عن عبد الله بن الزبير أنه رأى الحسن بن على يجيء والنبي ساجد فيركب رقبته أو قال ظهره فما ينزله حتى يكون هو الذى ينزل ، ولقد رأيته يجيء وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر ، وروى أن رسول الله كان إذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره ، فإذا أرادوا أن يمنعوهما أشار إليهم ( أن دعوهما[1] ) كما كان يلاعبهما إذا فرغ لهما ، فهل رأيت فى باب العطف والشفقة على الأبناء ، وإشباع رغباتهن فى اللهو واللعب أفضل وأسمح من هذا ؟!

وكان إذا دخلت عليه ابنته فاطمة يقوم لها ويقبلها ويقول لها : ( مرحبا يا بنتى ) ويجلسها عن يمينه . وربما بسط لها ثوبه . فأى إكرام واحترام للأولاد يدانى هذا ؟ ! وكان يقول :(فاطمة بضعة منى فمن أغضبها فقد أغضبنى[2] ) فأى تأكيد لأواصر الحب والقربى فوق هذا ؟ !

## ( النبي الانسان )

لقد اتسمت حياته ﷺ بالإنسانية وقد قدمنا الكثير من المثل لإنسانيته الفائقة حتى مع الكفار والاعداء وذلك فى معرض الحديث عن العبر فى غزوة بدر ، وفى غزوة خيبر غنم المسلمون فيما غنموا صحائف من التوراة ، فطلبها اليهود ، فأمر بأعطائها إياهم وهو يعلم ما بها من تحريف وتبديل وهذا غاية الإنسانية فى احترام الشعور الدينى للأعداء . وروى صحيح البخارى أنه مر عليه بجنازة فقام لها . فقالوا : يا رسول الله أنها جنازة يهودى ! فقال : ( أليست نفسا منفوسة ) ؟ ! فأى تكريم لبنى آدم يسامى هذا ؟ !

---

(١) الاصابة ج ١ ص ٣٢٩

(٢) رواهما البخارى ، و« بضعة » بفتح الباء أى قطعة .

أوفى إحدى الغزوات وجد امرأة مقتولة فغضب وقال : « ما كانت هذه لتقاتل » ! ونهى عن قتل النساء والصبيان رواه البخارى ومسلم . وكان إذا بعث بعثا أو جيشا أو صاهم قائلا : « لاتغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولاتقتلوا وليدا »[1] رواه مسلم وكان له خادم يهودى فكان إذا مرض عاده . فعاده مرة فعرض عليه الإسلام وأبوه حاضر فقال له : أطع أبا القاسم فاسلم فقال : الحمد لله الذى أنقذه من النار » رواه البخارى إلى غير ذلك مما تجده فى ثنايا كتب الأحاديث والسيرة .

## « النبى المربى المعلم »

وقد ذكرنا آنفا قوله : « إن الله لم يبعثنى متعنتا . وإنما بعثنى معلما ميسراً » وقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . ومحاسن الأفعال » رواه مالك وأحمد . وقد كانت حياته ﷺ حياة تربية وتعليم ، وتأديب وتهذيب ، وبحسبنا شاهدا على هذا أنه بعث إلى قوم يعبدون الأصنام . ويسفكون الدماء ، ويعتدون على الأعراض والأموال ويتظالمون ، ويتعاملون بالربا ، ويشربون الخمر ، ويغشون الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ويتفاخرن بالأحساب والأنساب ، فلم يزل بهم يربيهم ويتعهدهم حتى صير منهم موحدين أتقياء ، وحكماء علماء ، وحلماء رحماء ، وإخوانا متحابين أصفياء وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس فى عقيدتها وعبادتها وعلمها وعملها ، وأخلاقها وسلوكها .

من كان يظن أن معاقل الوثنية فى الجزيرة العربية تصبح منارات للتوحيد الخالص ؟ ومن كان يظن أن العرب وهم اشد الناس اعتزازا وتفاخراً بالأحساب والأنساب يصبحون أكثر الأمم اعترافا بالمساواة وتطبيقا لها ؟ حتى لقد تسمى لبلال الحبشى العبد الأسود أن يكون أول مؤذن فى الإسلام !! وحتى قال عمر بن الخطاب العدوى القرشى فى الصديق ومولاه بلال « هو سيدنا وأعتق

---

(١) الغلول : الخيانة فى الغنيمة ، الغدر : نقض العهد وعدم الوفاء به ولاتمثلوا : المثلة : التنكيل بالعدو ، وقطع الأطراف ونحوها ، الوليد : الطفل .

سيدنا »[1] وحتى عتق بلال خالدين الوليد المخزومى القرشى بعمامته ؛ تنفيذاً لأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، واستلام خالد له !! فلما أجاب عما طلبه سيدنا عمر أطلقه وأعاد إليه قلنسوته ، ثم عممه بيده وقال: « نسمع ونطيع لولاتنا ، وأنفخم ونحذم موالينا »[2] أى سادتنا بل من كان يظن أن المرأة تخرج من اليمن إلى الكعبة فلا يعرض لها أحد بسوء ؟ وأن الخمر التى كانت تمزجة بلحوم العرب ودمائهم[3] يتركونها أبدا بعد التحريم ؟ وأن الربا الذى كان شائعا بين العرب يقضى عليه هذا القضاء ؟ !! إن هذا سر من أسرار إعجاز الرسالة المحمدية.

لقد كان للنبى ﷺ فى تربية الأمة وسائل من أهمها القدوة فقد كان أسوة حسنة فى نفسه ، وفى أهله وفى بيته ، وفى كل تصرفاته فمن ثم أثمرت تربيته إيما إثمار ، وكان رسول الله يربيهم تارة بالقول ، وتارة بالعمل ، وتارة بهما معا ، فقد قال ﷺ « صلوا كما رأيتمونى أصلى » رواه البخارى ، وقال : « خذوا عنى مناسككم ... » رواه مسلم ، وقال « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه تبينا للقول بالفعل ولم تكن هذه التربية قصرا على الرجال ، فقد رغب إليه النساء أن يجعل لهن يوما خاصا يعظهن ويعلمهن فيه ، ففعل وقد تخرج فى مدرسة النبوة نساء بلغن الغاية فى العلم ، والعمل ، والحكمة وكذلك لم تكن قصرا على الكبار ، بل استفاد منها ونشأ عليها الصبيان والفتيان والفتيات ، وكان فى تربيته يتدرج معهم ، ويتخولهم بالموعظة والتعليم أيامادون أيام ، كراهية السآمة منهم والمشقة عليهم روى ذلك البخارى فى الصحيح[4].

---

(١) رواه البخارى .

(٢) أشهر مشاهير الاسلام ج ٢ ص ٤٠١ .

(٣) لقد بلغ من حبهم للخمر أن قال قائلهم :

إذا مت فادفنى الى جنب كرمة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفنى بالفلاة فأننى ... أخاف إذا ماست أن لا أذوقها

(٤) صحيح البخارى — كتاب العلم .

وكان من أساليب رسول الله ﷺ أن يلقى عليهم بعض الاسئلة التى تحتاج الإجابة عنها إلى علم ، وذكاء وفطنة شحذا لاذهانهم على التفكير ، وأختباراً لذكائهم ، وتنشيطا لهم ، وذلك مثل قوله : « إن من الشجر شجرة لايسقط ورقها ، ولا ينقطع نفعها ، وإنها مثل المسلم حدثونى ماهى ؟ » قال ابن عمر : « فوقع الناس فى شجر البوادى ، ووقع فى نفسى أنها النخلة ، ولكنه استحيي أن يجب احتراما لكبار الصحابة ، ولما أخبر أباه بهذا بعد قال له « لأن كنت قلتها أحب إلى من أن يكون لى حمر النعم » .

وقد استرعى انتباه الكاتبين من فلاسفة الغرب فى تاريخ الحضارات وارتقاء الشعوب ، أن الأمة الإسلامية طفرت طفرة واحدة وفى زمن وجيز على خلاف العادة والمعروف ، وعجبوا لهذا ولو أنهم وضعوا فى حسبانهم أن المربى هو النبى المؤيد بالآيات ، والمثل الأعلى للمربين ، والهداة والمرشدين وأن عماد هذه التربية هو القرآن معجزة المعجزات ـ لزال العجب ، ولعلموا أن هذا من إعجاز القرآن الاجتماعى والأخلاقى ، إلى جانب إعجازه العلمى والبيانى ، وإلا فلن يستطيعوا أن يعللو ذلك بمقتضى النظر المادى .

لقد رفع النبى ﷺ من شأن العلم والعلماء حينما قال كما قال الله : « وقل رب زدنى علما ، وقال : « العلماء ورثه الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر » رواه أبو داود والترمذى ، ورفع من شأن المربين والمصلحين حينما قال لعلى رضى الله عنه : « فو الله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » رواه الشيخان ، وبحسب العلماء والمربين والمعلمين هذا التقدير من إمام العلماء وقدوة المربين .

## « النبى مع ربه »

وكان ﷺ أعرف الناس بربه وأعلمهم بجلاله وكماله وصفاته فمن ثم كان أشدهم تقوى . وأكثرهم عبادة ، وقياما لليل ، عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« كان النبى يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت : يارسول الله لم تصنع هذا وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر » ؟ ! فقال : « أفلا أكون عبداً شكورا » ؟ ! رواه البخارى وقالت : « كان عمل رسول الله ديمة[1] ، وأيكم يستطيع » وقالت « كان يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لايصوم، رواها البخارى وكان الله سبحانه أمره فى مبدأ أمره أن يقوم الليل إلا قليلا ، قال تعالى : « يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا : نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا »[2] فكان قيام الله واجبا محتوما ، قيل عليه ،وقيل: عليه وعلى أمته ثم خفف عنه ، فنسخ الوجوب ، وصار مندوبا ، ولم يحدد للقيام وقت محدود ، بل ترك ذلك إلى القدرة والأستطاعة ، قال عز شأنه « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ، ونصفه ، وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه ، فتاب عليكم ، فأقرءوا ما تيسر من القرآن .... ) الآية[3] وقال : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً »[4] .

ومع هذا كان دائم العبادة والتهجد ، وكان دائم التذكر لله ، والتفكر فى خلق الله وآلائه ، لا يغيب قلبه عن الله ، فإن حصل من ذلك شىء بسبب شواغل الدنيا وهمومها استغفر الله تعالى ، وهذا هو المراد بقوله « إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائه مرة » رواه مسلم وفى رواية البخارى « أكثر من سبعين مرة » .

ومع عبادته وتقواه كان أبعد الناس عن التشدد والمغالاة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : صنع رسول الله ﷺ أمراً فترخص فيه ، فبلغ ذلك ناسا من أصحابه فكأنهم كرهوه ، وتنزهوا عنه فبلغه ذلك ، فقام خطيبا فقال : ( ما بال رجال بلغهم عنى أمر ترخصت فيه فكرهوه ، وتنزهوا عنه . فو الله

---

(١) المراد المواظبة على الطاعة والعبادة فى جميع أوقات العام لا أنه يواصل الليل بالنهار بدليل الحديث الذى بعده وغيره ، وديمة : بكسر الدال .

(٢) المزمل ١ ـ ٤ (٣) المزمل / ٢٠ (٤) الاسراء / ٧٩

لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية ) رواه مسلم وفى حديث آخر له قال ( هلك المتنطعون ) قالها ثلاثا ، وهم المتشددون فى غير موضع التشديد ، وكان دائم الدعاء لله ولا سيما إذا اشتد الكرب ، وتأزمت الأمور ، وقد قدمنا لك دعاءه فى بدر وأحد ، والأحزاب وغيرها ، كما كان دائم الشكر لله ، لا يطغيه النصر ، ولا تبطره النعمه ، وما كانت تشغله عبادته عن دنياه ، ولا دنياه عن عبادته وهكذا راعى رسول الله الفضيلة والوسطية فى العبادة ، وكان الأنموذج الكامل للمسلم السمح الكريم وليس أدل على هذا من هذه القصة : روى الشيخان فى صحيحيهما بسندهما ـ واللفظ للبخارى ـ عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها[1] ، فقالوا : وأين نحن من رسول الله ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر ، فقال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا[2] !! وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر !! وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا !! فجاء إليهم رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا ، وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى[3] فليس منى » .

وفى رواية مسلم « فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم لا أنام على فراش » .

وفى الصحيحين أيضاً عن سعد بن أبى وقاص قال : « رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل[4] ، ولو أجاز له لاختصينا »[5] .

---

(١) بتشديد اللام المضمومة أى استقلوها .

(٢) هو قيد قبل لا لأصلى .

(٣) السنه الطريقة المشروعة وليس المراد السنة التى تقابل الفرض .

(٤) ترك النكاح وما يتبعه من الملاذ إلى العباده .

(٥) نزع الأنثيين حتى يفقد القدرة الجنسية .

وهذا هذا المنهج الوسط ، الذى جاءت به الشريعة الوسط ، للأمه الوسط التى هى خير أمة أخرجت للناس ، والاسلام ليس دين رهبانية ، فالرهبانية لا تليق بعمارة الكون ، وليست من سنن الأنبياء ، والذين أتبعوا الرهبانية من اليهود والنصارى إبتدعوها من عند أنفسهم ، قال تعالى : « ورهبانية إبتدعوها ما كتبناها عليهم ، إلا إبتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها[1] » ، فهم مع إبتداعهم لها قصدوا إبتغاء رضوانه بالمبالغة فى العبادة ، فلم يقوموا بحقها ولم يلتزموا بما ألزموا به أنفسهم .

والاسلام وهو الدين العام الخالد الصالح لكل زمان ومكان ، ولأصلاح الدنيا والآخرة ، لا يتفق هو والرهبانية ، وهى نوع من التنطع فى الدين ، وقد نبههم رسول الله كما سمعت ، وفى روايه الطبرانى أن عثمان بن مظعون - رضى الله عنه - لما قال للنبى : أئذن فى الخصاء ، قال له « إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة وفى رواية أخرى أرشده إلى علاج ما يعانى من مشقة العزوبة فقال له « لا ، ولكن عليك بالصوم » وصدق الله فى وصف الأمة المحمدية حيث قال : « وكذلك جعلناكم أمه وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا[2] ».

## ( النبى مع أصحابه )

وكان ﷺ رءوفا رحيما بهم يتعهد حاضرهم ، ويسأل عمن غاب منهم ، ويسلم عليهم ، ويشمت عاطسهم ، ويواسى فقيرهم ، ويعين ضعيفهم ، ويشاركهم فى السراء ، والضراء ، ويعود مريضهم ، ويشيع ميتهم ، ويكسو عاريهم ، ويشبع جائعهم ويرعى أراملهم ، وأيتامهم ، ويجالس فقراءهم والأعبد منهم ، ويحنك أطفالهم ، ويبارك عليهم ، ويداعب صبيانهم ليدخل السرور على نفوسهم ،

---

(١) الحديد / ٢٧

(٢) البقرة / ١٤٣

ما رؤى مادا رجليه بينهم ، ولا عابسا فى وجه أحد منهم ، ولا استأثر عليهم بشىء لنفسه ولا لأهله ، ولما عرض عليه صاحباه فى ركوب البعير فى غزوة بدر أن يعفياه من نوبته فى المشى أبى ، وقال : ( ما أنتما بأقوى منى ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما ) وكان مع أصحابه فى سفر فذبحوا شاة فقال واحد منهم : على ذبحها، وقال الآخر : على سلخها وقال الثالث : على طبخها، فقال رسول الله : ( وعلى جمع الحطب ) فقالوا : يارسول الله نحن نكفيك العمل ، فقال : ( علمت أنكم تكفونى ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه ) وفى حجة الوداع ذهب ليشرب من السقاية فأراد عمه العباس أن يميزه بشراب خاص من البيت فأبى وقال : ( لا أشرب إلا مما يشرب منه الناس ) وكان كذلك لا يميز أهله بشىء ففى قصة المخزومية التى سرقت ، وأرادوا أن يشفعوا فى عدم إقامة الحد عليها قال : « وايم الله : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » رواه الشيخان، ولما جاءت ابنته فاطمة تطلب منه خادما من السبى وقد مجلت[1] يداها من الرحى والعمل أبى وعلمها وزوجها دعوات يدعوان بها عند النوم وقال : « لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم . ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم » رواه أحمد، وروى أصل القصة البخارى[2] وكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول: ( أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر ) وكان لا يأخذ أحداً بذنب أحد، ولا يصدق أحداً على أحد، وروى عنه أنه قال: ( لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر ) فهل رأيت فى باب الحرص على الوقوف على أحوال الأمة ،

---

(١) السبى . مايؤخذ فى الحرب من رجال ونساء . مجلت . امتلأت بثورا من إدارة الرحى وكثرة من العمل .

(٢) صحيح البخارى — كتاب النكاح — باب عمل المرأة فى بيت زوجها .

وإزالة شكاواها وقطع باب السعاية والوشاية بالرعية أبلغ من هذا ؟ ! ! فلا عجب وهذا بعض ما كان يعامل به أصحابه أن أحبوه أكثر من حبهم أنفسهم ، وأن فـدوه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم ، حتى شهـد بذلك الأصدقاء ، والأعداء .

## « النبي الرءوف الرحيم »

وأما رحمته وشفقته على جميع الخلق فحدث عنها ولا حرج وبحسبه شرفا أن الله وصفه باسمين من أسمائه فقال : ( بالمؤمنين رءوف رحيم ) وقد آذاه قومه وعشيرته أشد الإيذاء ، فوضعوا الشوك فى طريقه ، والقذر على بابه ، وحاولوا خنقه وقتله ، ووطئوا رأسه وهو يصلى ووضعوا سلا الجزور على ظهره ، ومع ذلك كان يقول : ( اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون ) ولما ذهب إلى ثقيف داعيا إلى الإسلام ، فأبوا وأغروا به الصبيان والسفهاء حتى أدموا عقبه أرصد الله له فى الطريق وهو راجع ملكا من ملائكته وعرض عليه أن يهلكهم ، فأبى وقال : ( بل أرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا ) رواه الشيخان ، وفى رواية : فقال له جـبريل ( صدق من سماك الرءوف الرحيم ).

ومن المثل الرائعـة فى هذا ما رواه البزار بسنده عن أبى هـريرة رضى الله عنه « أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه فى شىء ـ قال عكرمة أراه قال فى دم يعنى دية ـ فأعطاه رسـول الله ﷺ شيئا ، ثم قال : « أحسنت إليك » ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت ! ! فغضب بعض المسلمين ، وهموا أن يقوموا إليه ، فأشار رسول الله ﷺ : أن كفوا ، فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابى إلى البيت ، وزاده شيئا ، وقال : « أأحسنت إليك » ؟ فقال الأعرابى : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خـيرا ! ! فقال له النبى ﷺ : « إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شىء فإن أحببت فقل

بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك » قال : نعم فلما كان الغد أو العشية جاء ، فقال ﷺ : « إن هذا الأعرابى قال ما قال ، فزدناه فزعم أنه رضى ، أكذلك ) قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ! ! فقال ﷺ : إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم ، وأعلم ، فتوجه إليها وأخذ لها من قمام الأرض ودعاها ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه دخل النار[1] » وسند القصة وإن كان فيه راو ضعيف إلا أنه يؤخذ به فى باب الفضائل ، وفى الحق أن هذا الحديث فيه نور من نور النبوة ، وروعة فى التمثيل لا يقدر عليها ولن يكون مصدرها إلا النبى صلوات الله وسلامه عليه ، ومع كون المثل ليس بالأمر الغريب عن البيئة العربية ، إلا أن النبى الفصيح البليغ ألبسه ثوبا قشيبا حتى بدا غاية فى الروعة وغاية فى التأثير ، هذا إلى ما بين الممثل به ، والممثل له من التطابق البديع ، والتوافق العجيب ! !

ومن رحمته بامته تخفيفه وتسهيله عليهم وكراهته المواظبة على بعض السنن كالتراويح مخافة أن تفرض عليهم وكراهته كثرة سؤالهم حتى لا يكون سببا فى تحريم ماسكت الله عنه رحمة بهم ، وقد شملت رحمته المؤمن والكافر ، والصديق والعدو ، والإنسان والحيوان والطير ولما قالوا له : إن لنا فى البهائم لأجراً قال : فى كل كبد رطبة أجر ، ونهى بل ( لعن من اتخذ الحيوان غرضا ) رواها الشيخان وكان من رحمته يميل إلى الإناء للهرة لتشرب منه ، ومرض ديك له فقام على تمريضه ، وقال : ( دخل امرأة النار فى هرة حبسها حتى ماتت ، فلا هى أطعمتها وسقتها إذ هى حبستها ، ولاهى تركتها تأكل من

---

(١) الشفا ج ١ ص ٩٦ ، تفسير ابن كثير والبغوى ج ٤ ص ٢٧٦ ط المنار .

خشاش الأرض[1] رواه الشيخان وكذلك شملت رحمته الإنس والجن وصدق الله حيث يقول ( وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ) .

ومن كل ذلك ـ وغيره أكثر منه ـ يتبين لنا شفقته ﷺ على الأمة ، وحرصه البالغ على حياتهم ، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم ، وإلى تحصيل السعادتين الدينية والدنيوية ، وإنا لنلمس هذا المعنى الجليل فى قوله ﷺ « إن مثلى ، ومثل أمتى كمثل رجل استوقد فجعل الفراش والدواب يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ، ويغلبنه ، ويتقحمن فيها فهذا مثلى ومثلكم ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقحمون فيها » رواه الشيخان وإنها لروعة فى التمثيل مع البساطه لايقضى منها العجب ! !

## ( النبى البطل الشجاع )

وأما الشجاعة والنجدة ، والقوة والثبات فى وجه الموت فقد كان ﷺ منها بالمكان الذى لايجهل ، والمنزله التى لاتدفع ، وقد بلغ من قوته أنه صارع ركانة ابن يزيد فصرعه وماصرعه أحد قط فكان هذا سبب إسلامه ، وقد حضر المواقف المشهورة ، وفر الكماة والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لايبرح ، ومقبل لايدبر ، وما من شجاع إلا وقد أحصيت له فرة ، وحفظت عنه جولة[2] سواه ، ولعلك على ذكر مما ذكرناه عن ثباته فى أحد ، أو حنين ، ووقوفه فى فم الموت فى بدر وغيرها عن أنس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليله فانطلق ناس قبل الصوت ، رسول الله ﷺ راجعا وقد سبقهم إلى الصوت على فرس لأبى طلحة فى عنقه السيف وهو يقول : ( لم تراعوا ، لم تراعوا ) رواه الشيخان وقال على رضى الله عنه : ( إنا كنا إذا حمى البأس ، وأحمرت الحدق اتقينا برسول

---

(١) حشاش الأرض بفتح الخاء ، دوابها وهوامها

(٢) فى القاموس ، وجمال القوم حوله . انكشفوا ثم كروا فالمعنى تقهقر وانكشاف

الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس باساً ) رواه أحمد ، وأعظم بها من شهادة من مثل على ! !

وقد جمع رسول الله ﷺ إلى شجاعته وبطولته الجسمانية الشجاعة النفسية والبطولة الروحية وإنا لنلمس هذا فى قوله لعمه أبى طالب وقد قال له : يا ابن أخى ابق على وعلى نفسك ، فظن أن عمه خاذله ، فقال قولته المشهورة : ( والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته ) وأخذت هذه العظمة النفسية بنفس أبى طالب وبهرته ، فما كان منه إلا أن قال له : إذهب فقل ما أحببت ، فو الله لن أسلمك لشىء أبداً ! ! وفيما قدمناه فى كتابنا من شجاعة النبى وبطولته الشىء الكثير .

ومع هذه الشجاعة الفائقة قد كان رءوفا رفيقا بالناس رحيما بهم ، رقيق القلب ، تجرى دموعه رقة ورحمة ، فقد كان إذا رأى سيدنا مصعب بن عمير ، وهو يلبس فى وشاة مع أنه ترعرع فى أحضان النعيم ، ولكن آثر الشقاء مع الإيمان ، على النعيم فى الكفر — بكى ! ! ولما أذن الله فى زيارة قبر أمه ، « بالأبواء » أبكى وأبكى من حوله ، ولما مات ولده ابراهيم بكى وقال : « العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » ولما قال له عبد الرحمن بن عوف ، وقد رآه يبكى : « وأنت يارسول الله » ؟ ! قال : « يا ابن عوف ، إنها رحمة » ! ! ولما ذهب النبى وأصحابه إلى سعد بن عباده يعوده فى مرضه ، وقد غشى عليه ، فبكى ، وبكى معه أصحابه ، وقال : إن الله لا يؤاخذ بدمع العين ولا بحزن القلب وإنما يؤاخذ بهذا ، وأشار إلى لسانه وقال فى موقف آخر « إنها — الدمعة — رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »(١).

---

(١) صحيح البخارى كتاب الجنائز — باب البكاء عند المريض وباب يعذب الميت ببكاء أهله عليه .

## « النبي الوفي بالعهد »

وكان ﷺ أوفى الناس بالوعد ، وأرعاهم للعهد ، وأوصلهم للرحم قبل النبوة وبعدها ، وقد عاهد اليهود والمشركين فما نقض العهد ، ولا عرف منه الغدر ، ولما توفيت السيدة الجليلة خديجة كان دائم الذكر لها ، والثناء عليها حتى كانت عائشة تغار من ذلك وكان يحب حبيباتها ويبرهن ، فكان يذبح الشاة ، ويقطعها ، ويقول : ( أرسلوا إلى صديقات خديجة ) رواه البخارى.

وكانت تستأذن عليه هالة بنت خويلد أخت خديجة فيهش لها ، وترتاح نفسه ، لأن صوتها يذكره بصوت الحبيبة الغائبة خديجة ، وجاءته ذات يوم امرأة عجوز من صويحبات خديجة فصار يسألها عن أحوالها ، ولما صارت إليه ، ولما خرجت قالت له عائشه : تقبل على هذه العجوز هذا الاقبال ؟ ! فقال : ( إنها كانت تأتينا زمان خديجة وإن حسن العهد من الإيمان ) رواه الحاكم والبيهقى فى الشعب ، وكان يوصى بالوفاء ورعاية العهد حتى للحيوان . وقد قدمنا لك قصة المرأة التى ركبت ناقة فنذرت إن نجاها الله عليها لتذبحنها فلما أخبرته قال: ( بئسما جزيتيها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها ) ! ! فهل رأيت مثيلا لهذا فى تاريخ البشرية ؟!

وكما وفى للأحياء والأصدقاء ، وفى للأعداء ، فقد عاهد اليهود ، ووفى لهم ولكنهم هم الذين نقضوا العهد ، ولاسيما لما تحزب الأحزاب ، وعاهد المشركين فى الحديبية ، ووفى لهم ، ولقد جاءه أبو جندل ، وأبو بصير مسلمين ، فردهما تنفيذا لشروط العهد على كره منهما ، ومن المسلمين ، حتى جعل الله لهما فرجا ومخرجا ، ولما دخل مكة عام عمرة القضاء ، وقضى بها ثلاثة أيام ليس معهم إلا السيوف فى الأغماد ، جاء المشركون إليك كى يخرج فأبى بعض المسلمين عليهم ، ورغب إليهم الرسول أن يدعوه حتى يعرس بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلاليه فيأكل المسلمون ويأكلون معهم فأبوا ، فأمر رسول الله أصحابه بالانصراف وفاء بالعهد ، ودخل بها « بسرف » مكان قرب مكة .

بل بلغ به وفاؤه أن أمر بدفن عمرو بن الجموع ، وعبد الله بن حـــرام والد جابر شهيدى أحد فى قبر واحد لأنهما كانا متصادقين فى حياتهما الدنيا وقد كان هذا الوفاء الذى وثقه الإسلام وزاده ، امتدادا لوفائه فى الجاهليه ، لقد عاهد رجلا أن يلقاه فى مكان كذا فمكث ثلاثة أيام يذهب إلى هذا المكان ثم قال ( لقد شققت على يارجل أنا انتظرك هنا منذ ثلاث .

وكان ﷺ أوصل الناس لرحمة وذوى قرابته ، ولكن ما كان يؤثرهم على من هم أولى منهم ؛ وكان يقول : « إن آل أبى فلان ليسوا بأوليائى إنما ولي الله ، وصالح المؤمنين غير أن لهم رحما سأبلها ببلالى[1] رواه الشيخان .

## ( النبى العفو الحليم )

وأما الحلم والاحتمال ، والصبر على مايكره ، والعفو والصفح والإغضاء ، فكل ذلك مما أدب الله به نبيه حيث قال له : ( خذ العفو وأمر بالعرف ،وأعرض عن الجاهلين ) وقد فسرها جبريل عن رب العالمين فقال : « إن الله يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » وقال سبحانه : ( وجزاء سيئه سيئه مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله )[2] وقال عز شأنه : ( ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور )[3] فلاعجب أن كان كالبحر العذب الذى لا يعكره مايلقى فيه من أحجار ، ولاتنزفه الدلاء وما من حليم صبور إلا وقد عرفت عنه زلة ، وحفظت عنه هفوة ما عداه ﷺ لايزيده كثرة الأذى إلاصبرا ولا إسراف الجاهل إلا حلماً « وما انتقم لنفسه قط ، إلا أن ينتهك شىء من محارم الله عز وجل ، فينتقم لله » رواه مسلم وقد قدمنا فى فصل رحمته طرفاً من عفوه ، كما قدمنا فى السيرة عفوه عن غورث بن الحارث حتى كان سبباً

---

(١) سأصلها بحقها على ، وقد شبه النبى القطيعة بالحرارة التى تجفف مابين الناس من صلات ، والصلة بالماء الذى يبردها ، ويطفئها . ويرطب ماجف من علاقات . وهو من المجازات النبوية البديعة التى لم يسبق اليها فيما أعلم (٢) و (٣) الشورى / ٤٠ / ٤٣

فى إسلامه ، وعفوه عن أهل مكة الذى صار مثلا فريداً فى الأولين والآخرين ، وإبائه على من عرض عليه قتل ابن أبى رأس النفاق أن يقتله قائلا ( كيف يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ) بل وإبائه على ابنه عبد الله أن يقتل أباه قائلا له : ( بل نحسن صحبته مادام بيننا ).

ومن القصص الرائعة فى هذا ماروى أن زيد بن سعنة جاءه قبل إسلامه يتقاضاه دينا عليه لم يحن أجل أدائه ، فجبذ ثوبه عن منكبه ، وأغلظ له فى القول ثم قال : إنكم يابنى عبد المطلب مطل[1] فانتهره سيدنا عمر وشدد له القول ، وسيدنا رسول الله ﷺ يبتسم ، ثم قال : « أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج ياعمر ، تأمرنى بحسن القضاء . وتأمره بحسن التقاضى » ثم قال « لقد بقى من أجله ثلاث » ثم أمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعا لما روعه ، وقد أثر هذا الموقف الفريد ، وهذا الحلم الفائق فى نفس زيد فكان سبب إسلامه ، وكان يقول : ما بقى من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفتها فى محمد إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله[2] ، ولاتزيده شدة الجهل إلا حلما ، فاختبرته بهذا فوجدته كما وصف !! وهذا شىء فوق العدل ؛ لأن العدل أن يقتص منه ، ولايفعل بزيد مثل مافعل بالرسول الكريم ، والعدل ـ أيضا ـ أن يقضيه حقه فحسب ، لا أن يزيده عشرين صاعا ، وليس ترويع الفاروق عمر رضى الله عنه زيدا بأعظم من ترويع زيد النبى صلوات الله وسلامه عليه ، على الفرق الشاسع ما بين مقام النبى ، ومقام زيد ، ولكنه النبى الحليم الذى يسبق حلمه غضبه ، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما !!

وجاءه أعرابى ذات يوم فجبذه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية[3] الثوب

---

(١) بضم الميم وسكون الطاء جمع أمطل والمطل بفتح الميم : التسويف فى الدين والمدة

(٢) يعنى بغضبه وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يجهل ، فقابلته السيئة بالسيئة ليس جهلا

(٣) طرفه ، وجانبه من عند عنقه

فى صفحة عاتقه . ثم قال يا محمد احمل لى على بعيرى هـذين من مال الله الذى عندك . فانك لاتحمل لى من مالك . ولا من مال أبيك . فسكت النبى ﷺ ثم قال : ( المال مال الله وأنا عبده ) !! ( ثم قال : ( ويقاد منك يا أعرابى مافعلت بى ) قال . لا ، قال : ( لم ) ؟ قال : لأنك لاتكافىء السيئة بالسيئة ، فضحك النبى ﷺ ، وسر من جوابه ، وأمر أن يحمل له على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

## ( النبي الكريم الجواد )

وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة فكان ﷺ لايوازى فى هـذه الصفات ولايبارى،عن ابن عباس ، قال ( كان رسول الله ﷺ أجود الناس . وكان أجود مايكون فى رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة )رواه الشيخان . وماسئل شيئاً قط فقال : لا ، وكان جوده عن كرم فى الطبع وسماحة فى النفس ، وثقة فى سعة خزائن الله ، روى الإمام مسلم عن أنس ( أن رجلا سأل النبى ﷺ غنما بين جبلين فأعطاه إياها ، فأتى قومه فقال أى قوم أسلموا فوالله إن محمدا ليعطى عطاء من لايخشى فاقة الفقر ) وكان رسول الله يعلم أن بعض الناس عبيد إحسان ، فكان يعطيهم يتألفهم بذلك ثم لم يلبثوا أن يصبروا من خيار المسلمين روى عن أنس قال : ( إن كان الرجل ليسلم مايريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وماعليها ) ويوم حنين تألف بعض حديثى العهد بالإسلام حتى أضحوا من المخلصين . وقد روى أنه أعطى صفوان بن أمية وهو مشرك ، ومازال يعطيه حتى صار رسول الله أحب الناس إليه )رواها مسلم ، ويوم حنين أعطى النبى ﷺ الاقرع بن حابس، وعيينة بن حصن الغزارى ، وأباسفيان بن حرب ، وصفوان ابن أمية كل واحد مائة من الإبل ومالك بن عوف مائة وأعطى آخرين،وأعطى العباس بن مرداس

دون المائة فانشا يقول فى ذلك شعراً ذكرناه فيما سبق، فقال النبى ﷺ « اقطعوا لسانه » فاكملوا له المائة ، وما كان هـذا — علم الله — اسرافاً ، ولكنها سياسة شرعية قصد بها النبى تألف هؤلاء الذين لم يلبثوا أن صاروا من أخلص الخلصاء للاسلام ، وكان لهم فى نشره جهاد مشكور وقد أراد النبى صلوات الله وسلامه عليه — أن يبين لهم أن المال أهون شىء عليه فهو ليس بطالب مال ، وإنما طالب إيمان ومقيم دين ، وصانع رجال ، وأنه لا أرب له فى اكتناز الاموال ، ولو كان عنده مال بعدد رمال الصحراء لما بخل به عليهم ، لأنه ليس من خلقه ، عسى أن يعتبروا ، ويستغفوا عن مال المسلمين ، ومن قبل أعطى حكيم ابن حزام فاستزاد ، فاعطاه فاستزاد ، ثم قال له : ( يا حكيم إن المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخارة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع ..) وقد أثر الدرس فى نفس حكيم فآلى أن لا يأخذ من أحد شيئاً بعد الرسول حتى توفاه ، وكان أبو بكر ، وعمر رضى الله عنهما يعرضان عليه عطاءه ، فيأبى أخذه وجاءه رجل فسأله فقال: ( ماعندى شىء ولكن ابتع على[1] فإذا جاءنا شىء قضيناه ) فقال له عمر : ما كلفك الله مالا تقدر عليه ، فكره النبى ذلك ، فقال رجل من الأنصار يارسول الله : أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : ( بهذا أمرت ) رواه الترمذى فى الشمائل .

وكذلك كان شأنه ﷺ قبل النبوة ، مما يدل على أن خلق الكرم والسخاء متأصل فيه ، ففى حديث عائشة فى بدء الوحى أن خديجة رضى الله عنها قالت له : ( ما كان الله ليفعل بك إنك لتصل الرحم . وتحمل الكل . وتقرى الضيف وتكسب المعدوم : وتعين على نوائب الدهر ) رواه الشيخان، والاخبار عن جوده أكثر من ان تحصى .

---

(١) أى اشتر واجعل الثمن دينا على

# (النبي الزاهد)

حقيقة الزهد فى الدنيا إنما هو فى الترفع عن زخارفها وعصمة النفس من التوسع فيها مع القدرة على ذلك ، لاعن تعنت وتحريم لما أحل الله من الطيبات، ولكن عن تنزه أن يكون الانسان عبد أهوائه وأسير شهواته ، وملذاته ، وهذا هو زهد الأنبياء والمرسلين ، والصديقين والصالحين ، أما عدم التمتع والتوسع فيها عن عجز وفاقة فلا يسمى زهدا ، وقد كان زهد رسول الله فى الدنيا زهد القادر المستطيع فقد أتى مفاتيح خزائن الارض ، وأحلت له الغنائم ولم تحل لأحد من الأنبياء قبله ، وفتح عليه فى حياته بلاد الحجاز واليمن ، وجميع جزيرة العرب ، ومادانى ذلك من الشام والعراق ، وجلب إليه من أخماسها وجزيتها ، وصدقاتها مالا يحصى . وهاداه جماعة من الملوك ، والأمراء ، فما استأثر بشىء منه ، ولا خرج عن طبيعته من التقشف ، والتقلل فى المأكل والمشرب ، والملبس ، والمسكن إلى غير ذلك مما لايعتبر التوسع فيه فضيلة . روى عن عائشة ( أنه ربما يمر بهم الهلال والهلالان ولايوقد لهم نار فى بيت . وليس لهم طعام إلا الأسودان الماء والتمر ) رواه الشيخان ، وخرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير ، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات رواها البخارى . ومع هذا فقد كان يأكل اللحم ويؤتى له بالشاة المصلية — المشوية — فيجتز منها بالسكين ، ويحب الحلواء والعسل ، ويذهب إلى بئر عذبة لأبى طلحة فيشرب منها ، بل كان يستعذب له الماء من بيوت السقيا على أميال من المدينة ، وكان يلبس الغليظ والخشن من الثياب ، ومع هذا يلبس البرود اليمنية ، والجبب الشامية ، وكانت له حلة حسنة يستقبل بها الوفود ويحضر بها الأعياد والجمع ، وكل ذلك من غير سرف ، ولا مخيلة فقد كان الغالب من أحواله التقلل والقصد، وهذه هى الفضيلة حقاً ، والنفوس الكبيرة هى التى تفرض سلطانها وإرادتها على الحياة ، وتأبى أن يكون لشىء فى الدنيا سلطان عليها ، والتى تجد غناها من

أنفسها لا من شيء خارج عنها ، وفى القمة من هؤلاء أولو العزم من الرسل ولا سيما خاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام .

ومع كثرة ماجلب إليه من الفتوح والنصر لم يتحول عن خلقه ، ولم يحتجز لنفسه ، ولا لأهله إلا مايقوم بالضرورة ، ولم يتأثل مالا ، بل صرفه فى مصارفه ، وأغنى به غيره ، وقوى به المسلمين ، وكان يقول « ويسرنى أن لى أحداً ذهبا يبيت عندى منه دينار إلا دينار أرصده لدينى »[1] وأتته دنانير مرة فقسمها وبقيت منها سته فدفعها لبعض نسائه فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها ، وقال : الآن استرحت فلا تعجب إذا كان « مات ودرعه مرهونة عند يهودى نظير ثلاثين صاعاً من شعير » رواه البخارى وهكذا زهد فى التوسع فى المآكل والمشارب ، ليشبع الناس ، ولبس الخشن ، والغليظ ليكتسى الناس ، وسكن فى حجر من الطين واللبن ليجد الناس المسكن الذى يؤويهم ، ويقيهم الحر والبرد ، ولو أراد أن يكون له إيوان كإيوان كسرى ، أو قصور كقصور الروم بالشام ، أو التبابعة باليمن لفعل ولكن كيف ؟ ! وهو المثل الأعلى لكل من يأتى بعده من الخلفاء والملوك والأمراء والقدوة الحسنة لكل من يقصد العدل والفضيلة فى الحكم ، والرخاء للامم والشعوب .

وإذا كان رسول الله ﷺ — وهو القدوة — مات على ماسمعت ، وها هم ملوك المسلمين ورؤساؤهم ، وحكامهم يعيشون عيشة البذخ ، والإسراف ، .. فما بالك لو أن رسول الله توسع ولو بعض التوسع ، وترك ولو بعض المال ؟ ! لو كان لكان الحال أدهى وأعظم ، والأمر أطم وأمر .

## ( النبى الحيي )

كان رسول الله ﷺ أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء ، وفى

---

(١) رواه البخارى ومسلم

الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال : ( كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها[1] ، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه ) وقالت عائشة رضي الله عنها : ( لم يكن رسول الله فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً بالاسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ) وكان لا يواجه أحداً بما يكره حياء ، وكرم نفس ، عن أنس قال : ( دخل عليه رجل به أثر صفره قال : وكان رسول الله لا يكاد يواجه أحداً بشيء يكرهه فلما قام قال للقوم : لو قلتم له يدع هذه الصفره ) رواه الترمذي في الشمائل ؛ وكان إذا بلغه عن أحد مايكرهه لم يقل ما بال فلان قال كذا أو فعل كذا ولكن يقول : ( مابال أقوام يقولون كذا أو يفعلون كذا ) وهذا لعمر الحق أسلوب جليل في التربية واستماع النصيحة ، وكان يقول : ( الحياء من الإيمان ) و ( الحياء لا يأتي إلا بخير ) رواها الشيخان ، ومع هذا فقد كان يغضب ويواجه بالحق إذا انتهكت حرمات الشرع ، وينتصر لدين الله ، عن عائشة رضي الله عنها قالت « ماضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ، ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه ، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى ، فينتقم لله تعالى » رواه مسلم ، وعنها قالت : « ماخير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى » وهذا يدل على أن حياءه عن المواجهة فيما عدا ذلك مما تركه أفضل ، وأورع ، أو فيما كان من حق نفسه تسامحاً وتغاضياً وأما حق الله ، وحق العباد فلا .

## « النبي المتواضع »

وكان رسول الله ﷺ اشد الناس تواضعاً وأبعدهم عن الكبر والخيلاء ،

---

(١) العذراء : البنت البكر الخدر . ماتستتر فيه المرأة من بيت ونحوه .

وحسبك فى هذا أنه خير بين أن يكون نبياً ملكا أو نبياً عبداً فاختار الثانى وخرج على أصحابه ذات يوم فقاموا له فقال لهم: ( لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضاً ) وقال: (إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد وأجلس كما يجلس العبيد) رواه أبو داود ويقول ( لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد الله فقولوا : عبد الله ورسوله ) رواه الترمذى فى الشمائل . وكان يأكل مع العبد والخادم ويحمل حاجته من السوق ولما أراد أبو هريرة ان يحمل عنه شيئا اشتراه قال له : ( صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله ) وكانت تقابله المرأة فى سكك المدينة فتستوقفه فيقف حتى يقضى لها حاجتها . وعن أنس قال : ( إن كانت الأمة ـ الجارية ـ من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حتى يقضى حاجتها ) رواه البخارى، وكان يركب البعير، والحمار، ويردف وراء غيره، ولا يقبل أن يسير أحد وراءه وهو راكب، وحج على رحل رث ، وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم ، وقال « اللهم اجعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة » رواه الترمذى فى الشمائل . ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له : هون عليك فإنى لست بملك . إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد، أى اللحم المشقق المجفف .

وقد فتحت عليه الدنيا ودانت له الجزيرة كلها فما أخرجه ذلك عن تواضعه وخلقه، ولما دخل مكة فاتحا منتصراً طأطأ رأسه حتى لتكاد تمس مقدمة الرحل تواضعا لله تعالى إلى غير ذلك من الأخبار الصحاح ، والحسان التى زخرت بها كتب الحديث ، والسير ، والشمائل المحمدية .

وشىء آخر لانكاد نجد له مثيلا فى تاريخ الدنيا ، وهو أدبه ﷺ مع إخوانه الأنبياء ، والمرسلين فقد بلغ به التواضع ، وهضم النفس ، والإقرار بالفضل لذويه أن يظهر بعضهم بمنزلة فوق منزلته مع أنه أفضلهم جميعا بشهادة القرآن والحديث، والتاريخ الصادق، والواقع الذى لا ينكر، ففى الكتاب الكريم يقول الله تعالى « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ، ورفع

بعضهم درجات ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس[1] » فقد كاد يجمع المفسرون على أن المراد بقوله « ورفع بعضهم درجات » هو نبينا محمد ﷺ قال الزمخشرى فى تفسيره : « أى ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء ، فكان بعد تفاوتهم فى الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة ، والظاهر أنه أراد محمدا ﷺ ، لأنه هو المفضل عليهم ، حيث أوتى ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى الألف آية ، أو أكثر ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفا على سائر ما أوتى الأنبياء ، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر ، دون سائر المعجزات ، وفى هذا الإبهام من تفخيم فضله ، وإعلاء قدره ما لايخفى لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لا يشتبه ، والمتميز الذى لا يلتبس[2] » وفى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم وغيره « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة .... » ورواه أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، بزيادة « ولا فخر » وإذا كان سيدا فى الآخرة فهو سيد فى الدنيا من باب أولى .

فمن ذلك قوله ﷺ تعليقا على قول سيدنا يوسف عليه السلام لرسول الملك « قال : ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم[3] » قال : « لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » رواه الشيخان ، وقوله لما أوذى من بعض المنافقين ، وضعفاء الإيمان : « رحم الله أخى موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » رواه الشيخان ، وأحمد ، وأبو داود ، وفيه ما فيه من الإشادة بصبر سيدنا موسى وتحمله للأذى من سفهاء قومه ، ما لم يتحمله غيره .

وكذلك كان ﷺ يحاول ما أستطاع تبرئه ساحه بعض الأنبياء مما يحتمل أن ينسب إليهم مما لا يليق بحالهم ، كقوله فى الدفاع عن جده « ابراهيم »

---

(١) البقرة / ٢٥٣

(٢) أنظر تفسير الكشاف وغيره عند هذه الآية .

(٣) يوسف / ٥٠

عليه الصلاة والسلام : « نحن أحق بالشك من ابراهيم » ، يعنى فى قوله : « وإذ قال ابراهيم . رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى[1] » يريد نفى ما عسى أن يدل عليه السؤال من احتمال الشك ، يعنى أنه لم يكن شاكا قط ، لأنى وأنتم لسنا شاكين فى قدرة الله على البعث ، ولو جوزناه على الخليل لجاز على وعليكم ، ونفى الشك عنى وعنكم أمر مسلم ، ففيه نفى للشك عن ابراهيم بطريق برهانى وكقوله فى حق أخيه « لوط » عليه السلام لما قال : « أو آوى إلى ركن شديد[2] » يريد عشيرة قوية تحميه « رحم الله أخى لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد[3] » رواه الشيخان يريد الله تبارك وتعالى فأين من هذه المثل الفذة الفريدة ما يفعله الملوك ، والرؤساء ، والأمراء ، ودهاقنة السياسة ، والزعماء وأمثالهم — قديما وحديثا — من محاولة كل واحد منهم تنقيص من قبله ، والنيل منه ، والإرتفاع على انقاضه ، وإظهار نفسه بمظهر البطولة التى تعز عن النظير ، وأنه المنفرد فى كل شىء ؟ ! ! ثم أليس هذا من أقوى الأدلة ، وأظهر البراهين على أنه النبى حقا ، وأنه العلم الفرد فى سمو أخلاقه وكبر قلبه ، وعظم نفسه ، وأنه — صلى الله عليه وسلم — لا يبارى ، ولا يسامى ؟ ! !

## «النبى العادل»

وكان رسول الله ﷺ أعدل الناس ، وأبعدهم عن الظلم ، ما ظلم أحداً فى دم ، أو عرض ، أو مال ، ولا جار فى حكم ، وكان من أخلاقة العدل فى الرضا والغضب ، وكان مثالا للعدل مع نفسه وأهله ، وولده ، وصحابته ، ولقد بلغ من عدله أنه كان ينصف الناس من نفسه وقد قدمنا لك فى بدر ما كان من قصته مع

---

(١) البقرة / ٢٦٠

(٢) هود / ٨٠

(٣) صحيح البخارى — كتاب التفسير — سوره يوسف ، وكتاب أحاديث الأنبياء . وصحيح مسلم كتاب الفضائل . باب فضائل الخليل ابراهيم عليه السلام .

سواد بن غزية ، ورضائه أن يقتص منه طعنة طعنه إياها ، وهو يعدل الصفوف ، وما ذكره فى آخر خطبة خطبها فى مرض موته : « من جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه .... » ولما قال له أحد المنافقين بعد قسمة غنائم حنين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله قال له : « ويحك فمن يعدل إن لم أعدل ؟ ! خبت وخسرت إن لم أعدل ، وقد سمعت آنفا قوله : ( لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ) وامتناعه أن يعطيها خادما مع شدة حاجتها، وإيثار مصلحة أهل الصفة على مصلحتها ، وعدله البالغ مع زوجاته فى القسم بينهن مع أن الله سبحانه وتعالى فوض إليه ذلك وخيره فيه بقوله : ( ترجى من تشاء منهن ، وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ، ذلك أدنى أن تقر أعينهن، ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن[1] ) ولم يقف الأمر فى العدل عندما هو من حق المرأة فى النفقة ، والكسوة والبيتوته، بل شمل ذلك العدل فى المباسطة والمؤانسة والتعهد ، وكان يفعل ذلك بعد صلاة العصر غالبا وقد يكون بعد صلاة الصبح ، كما فى الصحيح أما العدل والمساواة فى الحب والميل القلبى فهذا لم يكلف به النبى ، ولم تكلف به الأمة لأنه أمر لا يدخل تحت الإختيار ، ولا تحت الوسع ، قال تعالى ( لا يكلف الله نفسا الا وسعها ) وهذا هو المراد من قوله سبحانه ( ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ) وكان النبى يقول : ( اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى ، فيما تملك ، ولا أملك ) .

## « النبى الصادق الأمين العفيف »

وكذلك كان ﷺ مثالا كاملا للامانة وأداء الحقوق لأربابها ، والصدق فى الحديث ، لم تحص عنه خيانة ولا كذبة قط ، ولقد اشتهر بأمانته منذ صغره حتى لقب بالأمين ، ولما بلغ هرقل ملك الروم كتاب النبى داعيا له إلى الإسلام طلب ناسا من قومه يسألهم عنه ، فجىء له برهط فيهم أبو سفيان بن حرب

---

(١) الأحزاب / ٥١

فكان مما قال له : «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، قال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ! ! ولما هاجر إلى المدينة ترك علياً بمكة ليرد الودائع التى كانت عنده إلى أصحابها .

وأما عفته فكان أطهر الناس ذيلا ، وأعفهم عن الحرم ، ما مست يده قط يد امرأة لا يملك عصمتها ولا امتدت عينه إلى محاسن امرأة قط ، وقد عاش فى مجتمع كانت تتوفر فيه مسارح الهوى واللهو فما عرفت عنه صورة ، ولا أحصيت عليه هفوة على ما كان يتمتع به من قوة وشباب ، وفتوة وجمال ، ومن شرف الأسرة .

## (آدابه الاجتماعية)

وأما آدابه الإجتماعية فقد أوفى فيها على الغاية ، وكان آدب الناس وأحسنهم عشرة ، وألينهم عريكة ، وأرعاهم لشعور الناس وكراماتهم ، فقد كان دائم البشر ، لا يطوى عن أحد من أصحابه بشره ولا تبسمه ، ويعطى كل جليس من جلسائه نصيبه من الترحاب والرعاية حتى لايظن أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أوقاربه لحاجة صابرة حتى يكون هو المنصرف عنه ، وكان أحسن الناس إجابة ، مادعاه احد من أصحابه إلا قال : لبيك ، وإذا حدثه أحد مال إليه بأذنه ولاينحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه ، وكان يبدأ من لقيه ولو صبياً بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، وماصافح أحداً فيرسل يده حتى يرسلها الرجل الآخر ، ويكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التى تحته ، ويعزم عليه فى الجلوس عليها ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ، ولايقطع على أحد حديثه حتى يفرغ منه ، وكان لايجلس إليه أحد يصلى إلا خفف صلاته ، وسأل عن حاجته فإذا فرغ عاد إلى صلاته وكان يخدم ضيفه ، ويكرم الوافد عليه ، ولما قدم وفد النجاشى قام يخدمهم فقال له أصحابه : إنا نكفيك هذا ،

فأبى وقال : « إنهم كانوا لاخواننا مكرمين » وكان يقبل الهدية ، ويكافىء عليها وماصنع معه أو مع أهله أحد معروفاً إلا كافأه عليه ومن قوله فى هذا ( من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه عليه فان لم تستطيعوا فادعو له ) رواه أبو داود والنسائى .

وكان من أدبه فى الطعام أن يغسل يديه ويسمى الله فى أوله ، ويحمده فى آخره ويأكل بيمينه ، ويأكل من جانب القصعة وينهى عن الأكل من وسطها أو تتبع أطيب مافيها ، وعن النفخ فى الطعام ، وماعاب طعاماً قط : إن اشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه .

وكان من أدبه فى الشراب أن يشرب على دفعات . ويبين فمه من الإناء عند التنفس ، وكان ينهى عن التنفس فى الإناء . والنفخ فى الشراب ، ويسمى فى أول الشرب ويحمد الله فى آخره ، ويشرب بعد مايشرب ضيوفه ، وكان يقول « ساقى القوم آخرهم شرباً » وكان من أدبه فى الطعام والشراب تقديم أهل اليمين على أهل اليسار ، وذلك لأنه كان يحب التيامن فى كل شىء ، وتقديم الكبار على الصغار ، لأنه الأمر الفطرى الطبعى وكان يقول : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ويرحم صغارنا » وكل ذلك ثابت بالأحاديث الصحاح والحسان ، فهل رأيت فى باب الآداب الاجتماعية أفضل وأجل من هذا ؟!

## (عظمة الشخصية المحمدية)

## وأثرها فى الدعوة

إن الناظر فى التاريخ ، وسير الرسل ، والأنبياء ، والملوك ، والأمراء ، وأصحاب المذاهب والدعوات الإصلاحية يجد أنهم يتمتعون بشخصيات قوية تفرض آراءهم على من حولهم ، وتجعل كلامهم مسموعا ، وأمرهم مطاعا .

وقد يكون من أسباب هذه الشخصية القوية التجبر ، والتكبر ، والبطش بمن يخالفهم ، او يحاول أن يخالفهم فى الآراء ، أو يسامهم فى المركز والسلطان ، وقد يكون من أسبابها ما يكون عليه الإنسان من بسطة فى الجسم وما يمتاز به من قوة وشجاعة ، وطولة ولاسيما فى مواطن الحروب وعند لقاء الأبطال .

وقد يكون مبعثها ما أسبغ الله على صاحبها من هيبة ووقار ، وما يمتاز به من عظمة الخلق ، وما يتحلى به من الفضائل التى تفرض احترامه على الناس ، وما يتمتعون به من عدل ورحمة ، وبر وإحسان ، وقد يكون مبعثها أنه من بيت عريق ، يتوارثون المجد صاغراً عن كابر إلى غير ذلك من الأسباب والبواعث . ورسل الله — ولاسيما أولو العزم منهم — قد أضفى الله عليهم من الهيبة والوقار ، والكمال الخلقى واختارهم من أوساط الناس ، وأشرافهم ، ماجعل لهم شخصيات عظيمة مهيبة .

وفى الذروة من كمال الشخصية وعظمتها نبينا محمد ﷺ فقد حاز ﷺ وعلى آله من الشرف ، وكرم النسب وزكاء الأصل ، والكمال الجسمانى ، والكمال الخلقى ، ما لم يحزه أحد قط .

لقد كانت له شخصية فذة فريدة على ما كان عليه من رقة القلب ، ولين الجانب ، وسماحة النفس ، والحياء الفائق حتى كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وعلى ما كان عليه من بغض العجب ، والتكبر ، والتجبر على الناس ، والتنكيل بهم ، وهذا مما لايقضى منه العجب ! ! ولايسعنا إلا أن نقول : إنه فضل من الله يؤتيه من يشاء .

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم — لا يحدون النظر إليه ، ويغضون أبصارهم حياء منه ، ورضى الله عن أبى الحسن على رضى الله عنه حيث قال : « من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ » .

وقد كان لهذه العظمة الشخصية ، وهذه الهالة التى تحيط به والمهابة التى تعلوه آثارها فى رد بعض المشركين خاسئا وهو حسير حينما يريد به شراً ، بل كان فى بعض الأحيان يأمر أعدى أعدائه بالشىء فلا يكون منه إلا الإذعان والخضوع ، وكانوا كثيرا ما يتواعدون على النيل منه فيوا جههم ، فإذا بهم يخورون ، وتنهار قواهم ، وتضعف معنوياتهم ، وكان يأتيه الرجل وبيده السيف ، أو تحت ثيابه

الخنجر يغنى به شراً فإذا به يضطرب ، ويسقط سلاحه من يده ، ثم يكون التسليم والإسلام وسأذكر مثلا من ذلك .

(١) روى ابن اسحاق فى سيرته قال : قدم رجل من إراش[1] بإبل له إلى مكة فابتاعها أى اشتراها ـ منه أبو جهل ، فمطله بأثمانها فأقبل الأراشى حتى وقف على نادى قريش ، ورسول الله جالس فى ناحية من المسجد ، فقال يامعشر قريش من رجل يعدينى[2] على أبى الحكم بن هشام ؟ فإنى غريب ، وابن سبيل وقد غلبنى على حقى ، فقال أهل المجلس ترى هذا ؟ وأشاروا إلى رسول الله ﷺ لما يعلمون ما بينه وبين أبى جهل من العداوة ، إذهب إليه ، فهو يعديك عليه ، يريدون الاستهزاء والسخرية منه ﷺ ، فأقبل الأراشى حتى وقف على رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك له ، فقام معه فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم اتبعه فانظر ما يصنع ؟!

فخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال : « محمد ، فاخرج » فخرج إليه وما فى وجهه قطرة دم ، وقد انتقع لونه ! ! فقال ( أعط هذا الرجل ، قال : لا تبرح حتى أعطيه الذى له ، فخرج إليه بحقه ، فدفعه له ! ! ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وقال للأراشى : « الحق لشأنك » فأقبل الاراشى حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال : جزاه الله خيراً ، فقد أخذت الذى لى ! ! !

ولما جاء الرجل الذى أرسلوه ليرى ما يصنع أبو جهل ، قالوا له :: ويحك ماذا رأيت ؟ ! قال : عجبا من العجب ! ! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه ، فخرج وما معه روحه ! ! فقال له :: « أعط هذا الرجل حقه » فأعطاه ! !

ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل فلاموه ، وقالوا ـ ساخرين منه ـ : فوالله ما رأينا مثل الذى فعلت ؟ ! ! فقال أبو جهل : ويحكم ، والله ما هو إلا أن ضرب

---

(١) بكسر الهمزة ، والشين المعجمة موضع كما قال ياقوت

(٢) ينصرنى ويأخذ لى حقى منه

على بابى ، وسمعت صوتاً فثملت رعباً !! وأن فوق رأسه فحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته[1] ولا أنيابه لفحل قط !! فوالله لو أبيت لأكلنى !!

(٢) وإليك مثلا آخر : اجتمع أشراف قريش فى الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ ، فقالوا : ما رأينا مثل صبرنا على هذا الرجل قط : سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، وصبرنا منه على أمر عظيم ، فبينما هم فى ذلك طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفاً بالبيت فغمزوه ببعض القول ! فعرف ذلك فى وجهه فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها !! ثم مر بهم الثالثة ففعلوا مثل ذلك ، فأقبل عليهم قائلا : « أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر وقع[2] حتى أن أشدهم فيه وصاة بإيذائه ليرفؤه[3] ، ويلاطفه ، ويقول له : انصرف أبا القاسم راشداً ، فما كنت بجهول[4] .

وهكذا كان الواحد منهم يأتى إلى رسول الله ﷺ قاصداً الشر ، أو أن ينال منه بالسب ، أو يغمزه ويلمزه ، فإذا واجهه النبى أضطرب وتلعثم وخارت قواه ، وتملكه الخوف .

(٣) لما وقعت غزوة بدر الكبرى كان النصر فيها للفئة القليلة المؤمنة ، على الفئة الكثيرة الكافرة فقد قتل فيها الكثير من المشركين ، وأسر من أسر ، وكان من الأسرى وهب بن عمير بن وهب الجمحى ، وكان أبوه شيطاناً من شياطين قريش ، وسفهائهم ، كما كان شديد الإيذاء للرسول ﷺ وأصحابه بمكة جلس يوماً بعد الموقعة مع صفوان بن أمية يتذاكران مصابهم فى بدر ، وما نزل بهم

---

(١) عنقه أى مثله فى ضخامة الجسم وطول العنق

(٢) يعنى أصابهم الخوف فكنوا واطمأنوا ونكسوا رؤسهم

(٣) ليدنه ، ويسكنه كالمعتذر له

(٤) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٨٩ ، ٣٨٩ ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤٥ ، ٤٦

من الهزيمة الساحقة الماحقة ، فقال عمير والله لولا دين على ليس عندى قضاؤه ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد فأقتله فإن إبنى أسير عنده ، فاغتنمها صفوان بن أميه ، فقال له : على دينك ، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا لا يسعنى شىء ، ويعجز عنهم .

فقال له عمير فاكتم على ، قال : سأفعل . ثم أمر عمير بن وهب بسيفه فشحذ له ، وسمه ثم انطلق حتى وصل المدينه ، فبينما عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، وما أكرمهم الله به — إذ نظر إلى عمير بن وهب ، وقد أناخ بعيره على باب المسجد متوشحا سيفه . فقال : هذا عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر[1] ، وهو الذى حرش بيننا ، وحزرنا[2] للقوم يوم بدر ، ثم دخل على رسول الله ﷺ فأخبره .

فقال له النبى : « أدخله على » فأقبل إليه عمر فأخذ بحمالة سيفه فى عنقه ، فلببه بها[3] ، وقال لمن كان معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فلما رآه وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال : « أرسله يا عمر ، أدن يا عمير » فدنا فقال له : « ما جاء بك يا عمير » ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه ، قال « أصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك فقال النبى : « بل قعدت أنت ، وصفوان بن أميه فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على ، وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل لك صفوان بن أميه بدينك وعيالك أن تقتلنى ، والله حائل بينك وبين ذلك » فإذا عمير تنهار قوته ، ويضعف أمام نظرات النبى الثاقبه ، وتذهله المفاجأة فما كان منه إلا أن أقر ، وأذعن وقال : أشهد إنك رسول الله !! قد كنا يا رسول الله

---

(١) هذا من عقريات عمر ، والهاماته الصائبة ، فاظنه هو مظهر بعد

(٢) أى قدرنا ذلك أنه لما تصادف الجيشان للقتال يوم بدر قال له المشركون : احذر لنا أصحاب محمد فاستحال بفرسه حول المعسكر ثم رجع اليهم فقال : ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا وهذا .. هو الواقع فقد كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا وهذا يدل على خصافه العرب وحسن تقديرهم ورقه نظرهم .

(٣) الحمالة : السير الذى يشد به الغمد ، ليبيه أى ألفه على عنقه وليثقوشده مثة

نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للاسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق ، فقال رسول الله ﷺ « فقهوا أخاكم فى دينه ، وعلموه القرآن ، وأطلقوا له أسيره » ففعلوا .

ثم قال : يا رسول الله : إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لى، فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله ورسوله، وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم ؛ فأذن له رسول الله فلحق مكة .

خيبة أمل صفوان : وكان صفوان حين خرج عمير يمنى نفسه الأمانى ، ويقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان يخرج، فيتلقى الركبان يسألهم عن عمير ليتأكد من نجاح المؤامرة حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه !! فسقط فى يده ، وحلف أن لا يكلمه أبداً !! ولا ينفعه بنفع أبداً .

أما عمير فلما قدم مكة أقام بها يدعوا إلى الله ، وإلى الإسلام، ويؤذى من خالفه أذى شديداً ، فأسلم على يديه ناس كثير ، وهكذا نجده خرج كافراً جاهداً على قتل النبى ، فإذا هو يعود مؤمنا صادقا الإيمان !!

(٤) وفى غزوة من الغزوات ذهب النبى ﷺ إلى ظل شجرة ليستريح ، ولم يكن معه أحد ، فتسلل إليه وهو نائم رجل من شجعان المشركين ، فانتبه النبى ﷺ ، فإذا الرجل واقف على رأسه رافعا سيفه ، فارعب ولا خاف ، وإنما نظر إليه نظرات المؤمن بربه ؛ الواثق من حمايته ، فيقول الرجل : من يمنعك منى يا محمد ؟ ! فقال النبى ﷺ : « الله » ! ! فإذا الرجل يضطرب ، ويرعب ، ويسقط السيف من يده !!

ويأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم السيف ، ويعلو الرجل به قائلا : « من يمنعك منى » قال : عفوك ، فعفا عنه ! !

ولم يكن رسول الله ﷺ يتخذ من عظمة شخصيته ، وما كان يعلوه من المهابة، والهالة، وسيلة إلى تخويف الناس ، أو ترويعهم أو الحط من كرامتهم ، وإنما كان على العكس من ذلك يهون على الناس ، ويخفف من رعبهم ، لقد دخل عليه ذات يوم رجل فأصابته من هيبته رعدة، وخاف، واضطرب، وإذا بالمتواضع، الرءوف الرحيم يقول له.

«هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد» ( أي اللحم المشقق المجفف )

نعم — والله — ليس بملك ، ولكنه أعظم ، وأهيب من الملوك ، وليس متجبرا ولا طاغيا ، وإنما هو الرحمة المهداة للخلق أجمعين صلوات الله وسلامه عليك — يا سيدى يا رسول الله — يوم ولدت ، ويوم بعثت ، ويوم هاجرت ، ويوم يقوم الناس لرب العالمين .

## عالم فى فـــرد

هذه صور موجزة تحدد — إلى جانب مادرسنا من سيرة تحليلية — بعض معالم الشخصية المحمدية . ولا أقول كل المعالم فان ذلك مما لايدركه جنان ، ولا يستطيعه بيان ، فهو ﷺ كالوجود وستنتهى هذه الحياة ولايزال ثم أشياء من أسرار هـذا الوجود ، لا يحوم حـولها عقل انسان ، ولا يفصح عنها لسان. وصدق القائل

وعلى تفنن واصـفيه بحسنه  يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

ومن البدهى أن فى الخلق صفوة ، وصفوة هؤلاء الصفوة أنبياء الله ورسله وفى الذروة منهم أولو العزم من الرسل . وذروة الذرى هو نبينا محمد خلاصة البشر وسلالة ولد آدم ، وقد يوجد الكثير من هذه الصفات والآداب أو بعضها عند الصفوة من نبى ، أو رسول ، أو صديق ، ولكن لم نعلم أحداً جمع الله كل ماذكرنا من الفضائل والخصائص مثل ماعرفنا ذلك لنبينا محمد ، وهو بهذا المعنى

نسيج وحده ، وفريد فى البشرية كلها ولاغرو فقد كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث هو إلى الناس عامة ، فكان من الطبعى أن يجمع الله له ما تفرق من خلق المصطفين الأخيار .

وقصارى القول وحاداه أنه ﷺ كان « عالماً » فى فرد ، أو إن شئت فقل : « فرداً » فى عالم. بنفسى وأهلى وولدى ، وأبى وأمى هو ﷺ

« وبعد » فهذا هو سيدنا محمد رسول الله صاحب أطهر سيره عرفتها الدنيا وناشر آخر رسالة اتسمت بالعموم والخلود ، ومربى أفضل جيل فى تاريخ البشرية ، ومنشىء خير أمة اخرجت للناس ، ومحقق أول دولة فى تاريخ الإسلام

وكان الفراغ من تأليف هذه السيرة العطرة فى ليلة الجمعة المباركة لخمس خلون من صفر لعام ١٣٨٦ هـ قربى إلى الله ورسوله .

والحمد لله فى النهاية كما حمدناه فى البداية . وصلى الله تبارك وتعالى وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحابته ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين ؟

* * *

الاستاذ الدكتور محمد محمد أبو شهبه

## التعريف بالمؤلف

أسرة «أبو شهبه» من الأسر العربية العريقة التى اشتهرت بالفروسية وحب الجهاد فى سبيل الله ، كما ينبى عن ذلك لقبها ، تركزت أصولها فى عدة قرى من محافظة البحيرة ، ثم نزح بعض فروعها قديماً إلى بعض قرى محافظة كفر الشيخ ومحافظة الغربية

٢ ـ ولد المؤلف فى ١٥ / ٩ / ١٩١٤ فى قرية « منية جناح » مركز دسوق .

٣ ـ وقد نذره والده من يوم ولادته للقرآن الكريم ، وتلقى العلم بالأزهر الشريف ، فما إن بلغ الرابعة حتى ذهب به إلى كتاب القرية ، وقد ربى هذا الكتاب أجيالا بالقرية ، منهم جيل والده رحمه الله .

٤ ـ أتم حفظ نصف القرآن الكريم فى الكتاب فى سن التاسعة ، إلى جانب تعلمه القراءة والكتابة ومبادىء الدين والسيرة ، ثم فتحت المدارس الأولية ، فدخل مدرسة بلدته ، فأتم بها حفظ القرآن الكريم وحصل على الشهادة الأولية فى سن الثانية عشرة تقريباً .

٥ ـ وفى عام ١٩٢٥ دخل معهد دسوق العلمى الدينى ، وحصل منه على الشهادة الابتدائية ، وفى عام ١٩٣٠ التحق بمعهد طنطا الثانوى الدينى ، وحصل على الشهادة الثانوية ، وفى عام ١٩٣٥ التحق بكلية أصول الدين احدى كليات الأزهر المعمور .

٦ ـ وفى عام ١٩٣٩ حصل على الشهادة العالمية ، وكان من الأوائل ، فدخل قسم الدراسات العليا « شعبة التفسير والحديث » وبعد دراسة خمس

سنوات ، دراسة لاتعرف الكلل أو الملل ، إنجح فى الامتحان التمهيدى لشهادة العالمية من درجة أستاذ سنة ١٩٤٤ أمام لجنة من كبار العلماء ثم اشتغل بإعداد رسالة الدكتوراة .

٧ ـ وفى نوفمبر ١٩٤٦ نوقش فى رسالة العالمية من درجة أستاذ ، الدكتوراة ، مناقشة علنية أمام لجنة خماسية من كبار العلماء فحصل عليها بدرجة الامتياز .

٨ ـ وفى ديسمبر من تلك السنة عين مدرساً بكلية أصول الدين ، ومازال يترقى من مدرس إلى أستاذ مساعد إلى أستاذ حتى وصل إلى مرتبة العمادة .

٩ ـ وفى أكتوبر ١٩٦٩ عين أول عميد لكلية أصول الدين ، أول كلية فى أول فرع أنشىء لجامعة الازهر بأسيوط ، ومازال يسير بالكليه قدماً حتى اكتملت سنواتها الأربع عام ٧٣/٧٢ وسعى حتى أنشئت بفرع الجامعه كليتان أخريان ، كليه اللغه العربيه وكلية الشريعة الإسلامية والقانون

١٠ ـ وفى مطلع حياته العلميه أعير إلى المملكة العربيه السعوديه ، للتدريس بالمعهد العالى السعودى بمكه المكرمة ، وللمشاركة فى اصلاح التعليم الدينى ووضع مناهجه ، وقد قضى أربع سنوات بجوار بيت الله الحرام ، إهى ربيع عمره ، وفى سنة ١٩٦٣ أعير إلى كليه الشريعة بجامعة بغداد فمكث فيها عاماً ، وفى عام ١٩٦٦ أعير إلى الجامعة الإسلامية بام درمان بالسودان فمكث فيها نحو ثلاث سنوات .

١١ ـ يكتب الآن فى كبرى المجلات العلمية والدينية فى مصر وغيرها من بلاد الإسلام والعروبة ، من منذ ربع قرن أو يزيد ، وألقى محاضرات وحضر ندوات فى مصر وغير مصر .

١٢ ـ له أحاديث فى الاذاعة والتليفزيون فى مصر وفى المملكة العربية السعودية وفى العراق والسودان .

١٣ ـ عنى بالتأليف فى علوم القرآن والسنة والدفاع عنها ضد المبشرين والمستشرقين وأتباعهم وألف فى ذلك كتباً كثيرة .

١٤ ـ كون مدرسة علمية من تلاميذه ومريديه فى مصر وغيرها من البلاد الاسلامية والعربيه ، تعتز بالقرآن وعلومه ، والسنن وعلومها ، والتأليف فيها واجلاء محاسنها ، وما أكثرها وتقديم هذه العلوم فى لغه سهلة مستساغه ، وفى عرض حسن جذاب .

١٥ ـ له مؤلفات مطبوعه أهمها :

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم مجلد فى نحو ٥٠٠ صفحه

(٢) السيرة النبويه فى ضوء القرآن والسنه (الجزء الاول) فى نحو ٥٤٣ ص

(٣) » » » » » ( الجزء الثانى )

(٤) أعلام المحدثين . . . . مجلد فى نحو ٤٠٠ صفحه

(٥) شرح المختار من صحيح مسلم بن الحجاج ثلاثه أجزاء فى مجلد

(٦) علوم الحديث . . . . جزء متوسط

(٧) فى أصول الحديث . . . جزء متوسط

(٨) رسالة ( الاسراء والمعراج ) . جزء متوسط

(٩) رسالة ( الكتب الصحاح الستة ) طبع ضمن سلسلة مجمع البحوث الاسلاميه

(١٠) رسالة ( نظرة الاسلام إلى الربا وحلول للمشكله )
طبع ضمن سلسلة مجمع البحوث الاسلاميه

(١١) الاسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير
مجلد كبير تحت الطبع بمجمع البحوث

(١٢) الحدود الاسلام مقارنه بالقانون الوضعى مقدم للطبع بمجمع البحوث

(١٦) إلى جانب هذا فهناك الكثير من الكتب والرسائل المحفوظه ، والبحوث التى القيت بمجمع البحوث الاسلاميه فى دوراته السنويه ، عدا المئات من البحوث والمقالات التى نشرت بالصحف والمجلات العلميه والدينيه ، والندوات والمحاضرات التى القيت بمصر وغيرها من البلاد العربيه .

# فهرست الكتاب


| الموضوع | رقم الصفحه |
|---|---|
| مقدمة الطبعة الثانية | |
| مقدمة الطبعة الأولى | |
| بين عهدين : المكى والمدنى | ٦ |
| منزلة المساجد فى الإسلام | ٩ |
| بناء مسجد قباء | ١٠ |
| إلى المدينة | ١٢ |
| توسل الانصار إلى الرسول أن ينزل عندهم | ١٤ |
| اليوم المشهود | ١٥ |
| فى دار أبى أيوب الأنصارى | ١٧ |
| اسلام عبد الله بن سلام و بعض أهله | ١٩ |
| بناء المسجد النبوى | ٢٠ |
| الاطوار التى مر بها بناء المسجد النبوى | ٢١ |
| فضل المسجد النبوى | ٢٤ |
| بناء حجر أمهات المؤمنين | ٢٥ |
| حمى المدينة | ٢٧ |
| حالة المدينة السياسية والاجتماعية بعد الهجرة | ٢٨ |
| المهاجرين | ٢٨ |
| الأنصار | ٣٠ |
| المنافقين | ٣١ |
| اليهود او بنو اسرائيل | ٣٤ |
| الاخاء بين المهاجرين والانصار | ٣٦ |
| المؤاخاة بين المسلمين بمكة | ٣٩ |
| مآثر الانصار الخالدة | ٤٠ |

| الموضوع | رقم الصفحه |
|---|---|
| موادعة النبى لليهود | ٤٢ |
| نباء النبى بعائشة | ٤٥ |
| السرايا فى السنة الاولى | ٤٩ |
| سرية حمزة بن عبد المطلب | ٥٠ |
| سرية عبيدة بن الحارث | ٥٠ |
| سرية سعد بن أبى وقاص | ٥١ |
| رأينا فى هذه السرايا | ٥١ |
| مزاعم المستشرقين فى هذه السرايا | ٥٢ |
| أحداث هذا العام | ٥٣ |
| السنة الثانية للهجرة ـ تشريع الجهاد | ٥٤ |
| لم شرع الجهاد فى الاسلام ؟ | ٥٦ |
| حكم الجهاد فى الاسلام | ٦٠ |
| الترغيب فى الجهاد والاستشهاد | ٦٤ |
| الاطوار التى مر بها الجهاد | ٦٧ |
| رد الفرية الكبرى | ٧٠ |
| احداث وتشريعات ـ تحويل القبلة إلى الكعبة | ٨١ |
| تشريع فريضة الصيام | ٨٤ |
| زكاة الفطر | ٨٧ |
| صلاة العيد | ٨٧ |
| الصوم والفطر والعيد ـ من روافد الاشتراكية | ٨٨ |
| تشريع الزكاة فى الاسلام | ٨٩ |
| الزكاة اساس الاشتراكية الاسلامية | ٩٢ |

## تابع فهرس الكتاب


| الموضوع | رقم الصفحة |
|---|---|
| الغزوات والسرايا فى السنة الثانية | ٩٣ |
| سرية عبد الله بن جحش | ٩٥ |
| غزوة بدر الكبرى | ٩٨ |
| ابو سفيان واستنفار قريش | ١٠٠ |
| فرار أبى سفيان | ١٠٣ |
| مسير المسلمين إلى بدر | ١٠٣ |
| استشارة النبى أصحابه فى القتال | ١٠٤ |
| تنطس أخبار قريش | ١٠٦ |
| تعرف أخبار العير | ١٠٧ |
| جيش المسلمين فى بدر | ١٠٨ |
| مشورات حكيمة | ١٠٨ |
| القوى الروحية تقوى القوى المادية | ١١٦ |
| امداد الله المسلمين بالملائكة يوم بدر | ١١٨ |
| وصاة النبى ببعض القرشيين | ١٢١ |
| مثل عليا للايمان | ١٢٢ |
| قتلى المشركين | ١٢٣ |
| موقف انسانى للرسول | ١٢٣ |
| البشرى بالنصر | ١٢٤ |
| الاختلاف على غنائم بدر وقسمتها | ١٢٥ |
| الاوبة إلى المدينة | ١٢٧ |
| وصاة النبى بالاسرى | ١٢٧ |
| قتل اسيرين | ١٢٩ |
| اسارى بدر | ١٣٠ |
| وصول النذير بالهزيمة إلى قريش | ١٣٢ |
| افتداء الاسرى | ١٣٣ |
| قيمة الفداء | ١٣٨ |
| وعد الله الاسارى بالخير ان اسلموا | ١٣٩ |
| العتاب فى الفداء | ١٤٠ |
| طنين المشركين بشأن أسارى بدر | ١٤٠ |
| نتائج غزوة بدر | ١٤٤ |
| موطن العبرة فى بدر | ١٤٥ |
| أحداث السنة الثانية | ١٥٢ |
| وفيات | ١٥٣ |
| السنة الثالثة | ١٥٤ |
| غزوة الكدر | ١٥٤ |
| غزوة غطفان أو ذى أمر | ١٥٥ |
| غزوة أحد | ١٥٦ |
| المشركات يمثلن بشهداء أحد | ١٧٥ |
| من استشهد فى احد | ١٧٨ |
| دفن شهداء أحد | ١٨١ |
| سبب الهزيمة فى أحد | ١٨٤ |
| ما نزل من القرآن فى أحد | ١٨٦ |
| آثار غزوة أحد | ١٩٠ |
| غزوة حمراء الاسد | ١٩١ |
| حوادث هذا العام | ١٩٢ |
| السنة الرابعة للهجرة | ١٩٣ |
| سرية الرجيع | ١٩٤ |
| أصحابه بئر ومعونه أو سرية الفداء | ١٩٧ |
| غزوة بدر الآخرة | ٢٠١ |
| حوادث هذا العام | ٢٠٢ |
| تزوج رسول الله بزينب بنت خديجة | ٢٠٣ |
| تزوج النبى بأم سلمه | ٢٠٤ |

## تابع فهرس الكتاب


| الموضوع | رقم الصفحه |
|---|---|
| السنة الخامسة | ٢٠٧ |
| غزوة بنى المصطلق أو المريسيع | ٢٠٨ |
| حدثان عظيمان | ٢١٠ |
| حادث الأفك | ٢١٣ |
| وقفات عند قصة الافك | ٢١٩ |
| تفسير آيات الافك | ٢٢٢ |
| غزوة الخندق والاحزاب | ٢٢٦ |
| ما نزل من الآيات فى غزوة الاحزاب | ٢٣٨ |
| زواجه صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش | ٢٤٣ |
| أباطيل المبشرين والمستشرقين | ٢٤٧ |
| نزول آية الحجاب صبيحة عرسها | ٢٥٧ |
| تشريع الحجاب فى الإسلام | ٢٥٨ |
| تزوج النبى صلى الله عليه وسلم بأم حبيبة بنت أبى سفيان | ٢٦٢ |
| فرض الحج | ٢٦٣ |
| السنة السادسة | ٢٦٦ |
| سرية محمد بن مسلمة قبل نجد | ٢٦٦ |
| غزوة بنى لحيان | ٢٦٧ |
| سرية كرز بن جابر الفهرى | ٢٦٨ |
| سرية عمرو بن أمية الضمرى | ٢٦٩ |
| غزوة الحديبية | ٢٧٠ |
| صلح الحديبية | ٢٧٦ |
| كتابة كتاب الصلح | ٢٧٩ |
| مكاسب المسلمين من صلح الحديبية | ٢٨٢ |
| تفسير سورة الفتح | ٢٨٤ |
| المهاجرات المؤمنات | ٢٩٠ |
| تفسير الآيتين الواردتين فى هذه الحادثة | ٢٩١ |
| أحداث وتشريعات هذا العام | ٢٩٢ |
| تحريم الخمر | ٢٩٣ |
| تبليغ الإسلام فى العالم | ٢٩٦ |
| كتاب رسول الله إلى القيصر هرقل | ٢٩٧ |
| كتاب كسرى | ٢٩٩ |
| كتاب المقوقس عظيم مصر | ٣٠٠ |
| كتاب النجاشى | ٣٠١ |
| بقية الكتب | ٣٠٢ |
| السنة السابعة ـ غزوة ذى قرد | ٣٠٤ |
| غزوة خيبر | ٣٠٦ |
| غزوة ذات الرقاع | ٣٠٦ |
| قدوم مهاجرى الحبشه | ٣٠٧ |
| سريه بشير بن سعد | ٣٠٨ |
| سريه غالب بن عبد الله | ٣٠٨ |
| عمرة القضاء والقضيه والقصاص | ٣٠٩ |
| تشريعات وحوادث هذا العام | ٣١٤ |
| تحريم نكاح المتعه | ٣١٥ |
| زواج النبى صلى الله عليه وسلم بصفيه بنت حيي النضريه | ٣١٦ |
| زواج النبى صلى الله عليه وسلم بميمونه بنت الحارث | ٣١٨ |
| موقف النبى من اليهود | ٣٢٠ |

## تابع فهرس الكتاب


| الموضوع | رقم الصفحه |
|---|---|
| محاولتهم الوقيعه بين الاوس والخزرج | ٣٢٠ |
| الجدل بين اليهود والمسلمين | ٣٢١ |
| اليهود بالجزيرة العربيه | ٣٢٣ |
| يهود بنى قينقاع | ١٢٤ |
| قتل كعب بن الاشرف | ٣٢٦ |
| غزوة بنى النضير | ٣٢٧ |
| ما نزل غزوة بنى النضير | ٣٢٩ |
| غزوة بنى قريظه | ٣٣٣ |
| قتل سلام بن ابى الحقيق | ٣٣٨ |
| غزوه خيبر | ٣٣٩ |
| السنه الثامنه | ٣٤٦ |
| اسلام خالد وعمرو وعثمان بن طلحه | ٣٤٦ |
| غزوة مؤته | ٣٤٨ |
| غزوة ذات السلاسل | ٣٥٣ |
| فتح الفتوح فى الاسلام | ٣٥٥ |
| اجارة أم هانى رجلين | ٣٦٥ |
| أهدار النبى بعض الدماء | ٣٦٩ |
| خطبه النبى عداة الفتح مؤكدا حرمه مكه | ٣٧٢ |
| أكان فتح مكه عنوة أم صلحا؟ | ٣٧٤ |
| بعث خالد بن الوليد الى بنى جذيمه | ٣٧٧ |
| هدم الاصنام | ٣٧٩ |
| غزوة حنين | ٣٧٩ |
| سريه أوطاس | ٣٨٥ |

| الموضوع | رقم الصفحه |
|---|---|
| غزوة الطائف | ٣٨٦ |
| وفد هوازن واسترداد السبايا | ٣٨٩ |
| اسلام كعب بن زهير | ٣٩٥ |
| تشريعات وأحداث العام | ٣٩٦ |
| السنه التاسعه | ٤٠٠ |
| غزوة تبوك | ٤٠١ |
| وفود صاحب أيله وأهل حرباء وأذرح | ٤٠٧ |
| الاوبه الى المدينه | ٤٠٩ |
| هدم مسجد الضرار | ٤١٠ |
| تفسير ما نزل من الآيات فى تبوك | ٤٢٠ |
| قدوم ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم | ٤٢٩ |
| حج الصديق أبى بكر بالناس | ٤٣٦ |
| عام الوفود | ٤٤٠ |
| وفد بنى تميم | ٤٤١ |
| وفد بنى عبد القيس | ٤٤٣ |
| وفد بنى حنيفه | ٤٤٤ |
| وفد أهل نجران | ٤٤٥ |
| وفد طيء وعدى بن حاتم | ٤٤٨ |
| وفد زيد الخيل | ٤٤٨ |
| وفد بنى عامر | ٤٤٩ |
| قدوم رسول ملوك حمير الى رسول الله | ٤٥٠ |
| وفود أخرى | ٤٥١ |

## تابع فهرس الكتاب


| الموضوع | رقم الصفحة | الموضوع | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| السنه العاشرة | ٤٥٣ | النبى مع ربه | ٥١٩ |
| بعث العمال والقضاء والأمراء إلى اليمن | ٤٥٥ | النبى مع اصحابه | ٥٢٢ |
| | | النبى الرءوف الرحيم | ٥٢٤ |
| حجة المفارق والسرايا والبعوث | ٤٥٨ | النبى البطل الشجاع | ٥٢٦ |
| حجة الوداع | ٤٦٣ | النبى الوفى بالعهد | ٥٢٨ |
| احداث فى هذا العام | ٤٧٦ | النبى العفو الحليم | ٥٢٩ |
| السنه الحاديه عشرة | ٤٧٨ | النبى الجواد الكريم | ٥٣١ |
| مرض النبى ووفاته | ٤٧٩ | النبى الزاهد | ٥٣٣ |
| المثل الكامل ﷺ | ٤٩٢ | النبى الحيى | ٥٣٤ |
| الفضيلة الانسانية فى ذروة كمالها فى نبينا محمد ﷺ | ٤٩٣ | النبى المتواضع | ٥٣٥ |
| | | النبى العادل | ٥٣٨ |
| صفاته الخلقيه | ٤٩٩ | النبى الصادق الأمين العفيف | ٥٣٩ |
| نظافة جسمه وطيب ريحه | ٥٠١ | آدبه الاجتماعية | ٥٤٠ |
| كمال عقله | ٥٠٢ | عظمة الشخصية المحمدية وأثرها | ٥٤١ |
| فصاحة لسانه | ٥٠٢ | فى الدعوة | |
| شرف نسبه وكرم محتده | ٥٠٨ | عالم فى فرد | ٥٤٧ |
| النبى الزوج | ٥٠٩ | التعريف بالمؤلف | ٥٤٩ |
| النبى الأب | ٥١٥ | فهرس الكتاب | |
| النبى الانسان | ٥١٦ | اهم المراجع | |
| النبى المربى المعلم | ٥١٧ | تصويب الخطأ المطبعى | |

# « أهم المراجع الأصلية »


١ القرآن الكريم
٢ تفسير العلامة الزمخشرى
٣ تفسير الإمامين البغوى وابن كثير ط المنار
٤ تفسير العلامة القرطبى ط دار الكتب
٥ تفسير العلامة الآلوسى ط منير
٦ صحيح الإمام أبى عبد الله البخارى ط الشعب
٧ صحيح الإمام مسلم بن الحجاج
٨ موطأ الإمام مالك بن أنس
٩ سنن أبي داود ، والنسائى ، والترمذى ، وابن ماجه
١٠ مسند الإمام أحمد بن حنبل
١١ فتح البارى بشرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ط البهية
١٢ شرح مسلم للامام النووى ط حجازى
١٣ الاصابة فى تاريخ الصحابة للحافظ بن حجر ط السعادة
١٤ الاستيعاب للحافظ ابن عبد البر الأندلسى ط »
١٥ سيرة ابن هشام ط الحلبى
١٦ الروض الأنف للسهيلى ط الجمالية
١٧ البداية والنهاية للحافظ المؤرخ ابن كثير ط السعادة
١٨ زاد المعاد من هدى خير العباد للامام ابن القيم ط الحلبى
١٩ الشمائل المحمدية للامام الترمذى ط البهية
٢٠ الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى للقاضى عياض ط استانبول
٢١ الطبقات الكبرى لابن سعد ط بيروت
٢٢ تاريخ الأمم والملوك للامام الطبرى
٢٣ نور اليقين للشيخ الخضرى ط ١٣٦٧ هـ
٢٤ حياة محمد للدكتور هيكل ط الأولى
٢٥ التاريخ الاسلامى للدكتور محمد مصطفى زيادة ط خاصة بكلية أصول الدين
٢٦ » » للأستاذ محمد حبيب أحمد ط » » »
٢٧ حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للاستاذ العقاد ط الهلال
٢٨ المدخل لدراسة القرآن الكريم للمؤلف ط الأزهر

# تصويب الخطأ المطبعى

| الخطأ | الصواب | صفحه | السطر | الخطأ | الصواب | صفحه | السطر |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| كفى | كفر | ٥ | ١٤ | للكعبة | الكعبه | ٨١ | ٢٠ |
| لا ماوى | لا ماوى | ٩ | ١٧ | عزوة | غزوة | ٩٤ | ١١ |
| فسالهم | فاسألهم | ١٩ | ١٨ | لوط | طالوت | ١٠٠ | ٨ |
| الحى | الحيى | ٢٢ | ١٧ | لمشركين | المشركين | ١٠٣ | ٣ |
| الهم | اللهم | ٢٣ | ١٨ | لأكلهم | لاكلهم | ١٢٠ | ٧ |
| واحرام | والاحرام | ٢٧ | ١٨ | بمراعا | بمراعاة | ١٧٦ | ٢٠ |
| والايصار | والانصار | ٣١ | ٩ | واشتغفرت | واستغفرت | ١٧٩ | ٢٤ |
| اسلام | الاسلام | ٣٥ | ٦ | ابواى | ابوى | ٢١٥ | ٢٣ |
| ؛أولئك | فأولئك | ٤٢ | ٣ | أناهم | أتاهم | ٢٣٢ | ١٩ |
| وعلامه النفاق | علامة النفاق | ٤٢ | ٦ | عوض | عرض | ٢٣٥ | ١٠ |
| وقاو | وقال | ٤٢ | ٧ | كثير | كثيرا | ٢٤١ | ٢٢ |
| فوافوا | فوافوا | ٥٠ | ١٦ | كاتبه | كتابه | ٢٦٠ | ١٧ |
| كبناثهم | كبنائهم | ٥٦ | ١٣ | وظنتم | وظننتم | ٢٨٦ | ١٠ |
| والتامح | والتسامح | ٥٧ | ٢٢ | وأنزل | (فانزل | ٢٨٧ | ١١ |
| تعبئه | تعبئه | ٦٢ | ١٢ | الكافر | الكوافر | ٣٩١ | ١٨ |
| تخرح | تحرج | ٦٣ | ٧ | وبعثت | وبعث | ٣٠١ | ١١ |
| بلاه | بلاء | ٦٣ | ٩ | مؤنه | مؤنه | ٣٤٨ | ١٠ |
| المصارات | المطارات | ٦٦ | ٢٠ | حالكم | برحالكم | ٣٩٣ | ١٦ |
| شواقب | شوائب | ٦٦ | ٢٢ | أخلع | المخلع | ٤١٧ | ١٩ |
| لا تزيده | لا تزيده | ٧٣ | ٢٥ | المدعمه | المدغمه | ٤٢١ | ٨ |
| الناظرون | الناظرون | ٧٨ | ١ | يجيم | يخيم | ٤٤١ | ١٣ |
| تبنوا | ثبتوا | ٨٠ | ١٠ | لا ارى | لا ادرى | ٤٦٣ | ١١ |

رقم الإيدع بدار الكتب ٥٠٦٢ لسنة ١٩٧٣

القاهرة الحديثة للطباعة
أحمد بهي الدين الخربوطلي
٣٠ شارع الجد بالفجالة
تليفون ٩٣٩٣١٠ - ص.ب ٩٤٩١٢٨

القاهرة الحديثة للطباعة
أحمد بهاء الدين الخربوطلي
٣ شارع الجد بالفجالة
تليفون ٩٢٤٣١٠ - من. ت ١٤٩١٤٨

الثمن ١٢٥

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0045342350